السائق

الضحية

عبد المنعم الصاوى

إهـــــــداء ٢٠١٠
ساقية عبد المنعم الصاوى
جمهورية مصر العربية

الضحية

عبد المنعم الصاوى

الساقية

- عام ١٩١٨ ولد عبد المنعم الصاوى فى قرية صغيرة إسمها كُنَّيسة الضهرية بمحافظة البحيرة .
- عام ١٩٤١ تخرج من قسم اللغة العربية بكلية الآداب - جامعة القاهرة .
- لم ينسَ عبد المنعم الصاوى أبداً القرية المصرية وانتماءه للفلاحين المصريين فكانت أعظم إبداعاته رواية طويلة أطلق عليها خماسية الساقية.
- عام ١٩٦٢ أصدر الكتاب الأول منها باسم الضحية ، وأتبعه خلال عقد من الزمان بالرحيل والنصيب والتوبة.
- عام ١٩٨٤ رحل عبد المنعم الصاوى(رحمه الله) قبل أن تَستكمِل الساقية دوراتها بصدور "الحساب".
- اليوم وبعد مرور أكثر من عشرين عاماً على رحيله ندعوك للتعرف على عبد المنعم الصاوى من خلال قراءة هذا الكتاب ، فقد وضع فيه عصارة عمره وخبراته وتجاربه وإدراكه العميق لخبايا الإنسان الذى يحيا على الأرض.

الساقية

الضحية

عبد المنعم الصاوى

الناشر
شركة عالمية للنشر والإعلان

الإهــــداء

إلـى:

" أبو المكارم " وضريح "سيدى أحمد الذكيرى"

روح الحياة.. وبركة الخلود

أهدى..

" الساقية "

مقـــدمـة

وتهفو نفسى إلى أن أكتب..

لأودع فيما أكتب، قطعة من نفسى.

.. وأحس، أنى متجه إلى هناك ... إلى ملاعب الصبا، ومنابع الحياة.

إلى القرية، حيث عرفت الطبيعة، فأودعتها سرى.

إلى الحقول، حيث امتدت خيالاتى، ونمت أحلامى.

إلى الأرض، وما فى الأرض من خير، وبركة، وصفاء.

إلى هواء طلق، ونعيم، ونعمة، وحرية.

إلى قوم سذج بسطاء، عاشوا أعمارهم وأجيالهم، يتطلعون إلى شئ غامض مجهول.

إلى أعواد الذرة، وسنابل القمح ... ورائحة عطرة نقية، تتضوع بين ثنايا خضرة لا تنتهى.

إلى أشجار الجميز، والصفصاف، والتوت ... وظل وارف حان عطوف، تتراخى فى نسماته، الأجسام، والأعصاب، والذكريات.

إلى أصوات العصافير، واليمام، وطيور لم أعد أذكر أسماءها ... وشدو حلو رقيق، تخفق له قلوب، استبد بها حرمان طويل.

إلى شئ آخر حبيب، لا أستطيع أن أنساه.

الساقية :

مكانها من الترعة، ومن جسر الترعة، الملىء بالأسرار.

دوراتها التى لا تنقطع، إلا لتعود.

خريرها المنتظم النغمات.

وثوران ربطا إليها، وقد عصبوا عيونهما، فيدوران بالساقية، بلا توقف.. كالزمن.

وأبو المكارم : قطعة أخرى من الساقية، لا ينفصل عنها أبداً.

إذن، فليكن هذا هو ما أكتب.

عبد المنعم الصاوى

١

ذات مساء، والليل رخى، والنسمات رقيقة، والدنيا ربيع ... وظلام المكان تتخلله ومضات هلال يافع، كانت آذان الناس متعلقة بمئذنة الجامع.

إن الشيخ "مرزوق" على وشك الصعود، لأذان العشاء : آخر دين اليوم ـ وكل يوم ـ لله عند الناس.

وبينما أهل القرية إما فى الجامع، ينتظرون الصلاة جماعة، أو أقعدهم سبب عن الذهاب إلى الجامع، فاصطفوا على المصاطب أمام الدور، ينتظرون الأذان، ليصلوا جماعات أو وحداناً...

وبينما تمضى فترة الانتظار هذه فى تسابيح، أو تراتيل، أو أحاديث ساذجة وبسيطة، كانت دار" الحاج سلطان" تشهد جمعاً آخر من الناس، لا ينتظرون الأذان، كما ينتظره الآخرون، فقد شغلتهم عن ذلك الشواغل.

"الحاج سلطان"، "والحاج غضبان"، "والشيخ سيد"، "وممتاز أفندى" أربعة من الإخوة وملحقاتهم من زوجات، وأبناء، وأصهار، وتابعين.

كبيرهم هو "الحاج سلطان" : رجل قصير القامة، ربعة، حاد النظرات، شعرات شواربه البيضاء، هى الدليل الوحيد، على ما بلغه من السن، فإنه ليلف رأسه فى شال أبيض طويل، يخفى شعره جميعاً ... وقامته القصيرة، ووجهه النحاسى المتورد، وزوجاته الثلاث، وسحنته، وبسمته، ومشيته، كل ذلك يوحى بأنه لا يزال رجلا فى وسط العمر.

ولا يزال "الحاج سلطان" يحلم بزوجة رابعة.

أليس ذلك حلال الله؟

أليس ذلك كمال الدين والدنيا ... معاً؟

لقد أكرمه الله بذرية بلغت من الذكور خمساً، تزوج منهم ثلاثة، والاثنان الآخران فى سن زواج ... كما أكرمه بثلاث من الإناث تزوجت منهن اثنتان، ولا تزال الصغيرة الباقية تعيش على الخفر والحياء، والخوف والأحلام.

على أن هذا كله، لا يعنى أن الحاج "سلطان" لا يحلم بحلال الله الرابع، وكمال دينه ودنياه، برابعة شابة، تعوض عليه ثلاث زيجات أغلبها خائبات كما يقول.

ولا عبرة عند "الحاج سلطان" بما تلقاه من دروس.

إن فى بيته ثلاث زوجات.

القديمة العجوز، أصبحت كالنبيذ المعتق، قوية المفعول، ولكن كأساً واحدة منها تكفى! وقد لا يستفيق منها مرور شهر، أو شهرين.

"والحاج سلطان" يعجب للمثل السارى فى القرية، والذى تردده "الحاجة زهرة" بين الحين والحين، أو بالتحديد كلما ثارت بينها وبين ضرتيها ثارات:

"القديمة تحلى، ولو كانت وحلى".

وإنه ليهز رأسه عجباً وسخرية من المثل، ومرددة المثل، قائلا بينه وبين نفسه : والله لولا الجرن، لما أبقيت عليها هذا الزمن الطويل.

إن "الحاجة زهرة" قد ورثت عن أمها بضعة قراريط، ولكن كل قيراط منها بفدان، فهى فى طرف القرية القبلى، وهو يؤجرها جرناً، فى مواسم حصاد القمح والذرة والفول والبرسيم، وأية محاصيل أخرى، تحتاج إلى درس وتدرية وتنقية ونورج.

وهذه القراريط قريبة من القرية، وحراستها سهلة وهينة، والعمل فيها فى أعز ما يملكه الفلاح، وهو المحصول، قريباً من الدور، يخفف العبء، ويقصّر خطوط التموين،

على الكثرة من فلاحى القرية، ممن لا تسهل عليهم هذه الوسائل، فيما لو بعدت الشقة، وتناءت المسافات.

من هنا تصبح "للحاجة زهرة" أهمية خاصة بين الزوجات الثلاث، ولولا هذه الأهمية الخاصة، ما بقيت فى رقبته، كالخناق، هذا الزمن الطويل.

ثم هى لم تنجب له إلا واحدة ... بنتاً ! وبعد أربعة أعوام من جفاف سقيم، كلفه كثيراً من الأرق، والأحجبة، والنذور، وتملق المشايخ، على اختلاف طرقهم ومذاهبهم.

ولكنه الجرن، أبقى عليها، فقد عرف كيف يجعل منه بيضة الذهب فى حياته وحياة أسرته جميعاً.

و"الحاجة زهرة" تعرف مكانة الجرن فى حياته، وأثر الجرن فى دخله، ولكنه يسأل نفسه : هل كان فى استطاعتها أن تستغله هذا الاستغلال؟

إنها تعرف فقط كيف ترفع عقيرتها بصياح فارغ سقيم، تمن به على ضرتيها، وتشعرهما بين الحين والحين، أنها سر سعادة البيت كله.

ثم إنها لتستعين بزوج ابنتها فى بعض الأحيان، وإنها لتعرف كيف تستثيره.

أليس زوج ابنتها الوحيدة، التى سيؤول إليها الجرن، أو يجب أن يؤول إليها، ميراثاً حلالا؟

أو ليس من حقه أن يعرف كيف يدار هذا الميراث، بل كيف يستفيد منه لمصلحته ومصلحة أولاده؟

"والحاج سلطان" لا يعجبه هذا بطبيعة الحال، ولكنه رجل عركته الحياة، وعلمته اللين، عندما يكون هذا اللين، ضرورة تحتمها الظروف.

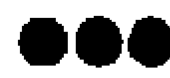
وعندما تثور أمامه هذه المشكلات، يحنى لها قامته، لتمر فى سلام.

وهو دائماً يجد العلاج.

إما باسترضاء "الحاجة زهرة" بتناول قدحين من النبيذ المعتق ! بدلا من كأس واحدة ... مهما تكن الكؤوس مرة !

أو شراء حلية من ذهب لابنته "ست الدار"، يعلم هو بلا أدنى ريب، أن مصيرها أن ترهن أو تباع، ليصرف "عباس" زوجها ما يربحه منها، على كيوفه وملذاته.

أو يختصر الطريق فيدس "لعباس" بضعة جنيهات فى يده، كأنما هى قطعة من الحشيش أو الأفيون، يخفى خبرها عن الجنود والحراس!



و"الست نبوية".

لو لم تكن ابنة العمدة القديم، وأخت العمدة الجديد، وأم الذكور الثلاثة المتزوجين من أولاده، وأم البنت الثانية من بناته، ولها زوج رهيب مخيف، يعمل شيخاً للخفراء، فيسخر كل الخفراء، فى كل ما يطمع فيه، أو يتمناه، لاتهمه فى ذلك الوسيلة طالما أنها تؤدى إلى غاياته!

إن "الحاج سلطان" يرتعد من "أبو سريع" هذا، ويسميه "سبع الليل".

ولو اقتصر الأمر على أن "الست نبوية" بنت العمدة القديم وأخت العمدة الجديد، لهان أمرها.

فهو أول من يعرف أسرار العمد فى النقطة كلها قدامى ومحدثين، وله معهم قصص ونوادر وحكايات.

كذلك لو اقتصر الأمر على أولاده الذكور، لعرف كيف يطويهم طياً ..فهذا شرع الله، أو فإن له طرقاً أخرى تحملهم حملا على ألا يقفوا منه موقف سوء.

أما هذا الرهيب الوحش "أبو سريع" أو "سبع الليل"، فإنه هو الحائل الحقيقى بينه وبين الخلاص.

"وأبو سريع" لن يغضب للطلاق فى حد ذاته، فهو رجل كثير النزوات، والمغامرات، وجولات الليالى الحالكات.

ولكنه لو خاصم "الست نبوية" فستعرف حينئذ كيف تثيره عليه.

هى حماته، وهى بنت العمدة القديم، وهى أخت العمدة الجديد، وهو رغم جبروته شيخ الخفراء، ويهمه أن يكسب العمدة دائماً إلى جانبه.

أما أنت "يا حاج سلطان" فصحيح أنك حماه، ولكن حماته ستكون أقوى عليه نفوذاً بطبيعة الحال، فبنتها ستكون دائماً أقوى عليه أثراً.

حينئذ ستتعامل معه بمصروفات كاملة ! لا كما تتعامل معه اليوم، أحيانا مجاناً، أو بربع مصروفات ! أو بنصف مصروفات على أكثر تقدير!

أما يومها، فالويل، والثبور، وعظائم الأمور، إذا لم تدفع الثمن كاملا، وفى صمت الراضى، اللاهج بالثناء !

إن "أبو سريع" لا يعرف أخاه.

هو نفسه حكى لك حكايات غريبة وكلها تشير إلى أنه لا يعرف فى حقوقه - هكذا يسميها ! - الرحمة، أو القرابة، أو المودة، أو الخجل.

وهو يبرر ذلك بأن عليه التزامات كثيرة، ومصروفه ليس كمصروف الناس الآخرين، والا أفلت منه زمام القرية، ونهبت الأموال ! وإنه ليضيف إلى ذلك أن احمدوا الله أنى موجود وأنى أؤدى واجبى كاملا وبأقل التكاليف!

إذن، ليقبلها على ما فيها من عيب.

أنفها هذا الأفطس، وشعرها هذا الأشعث، وفمها هذا القبيح، ورقبتها المعروقة وركبتاها المدببتان ... لوح من الخشب هى، مستقيم، كأنها شئ أقاموه فى سرادق عزاء!

إذا تحدثت، خرج الكلام، من عروق رقبة طويلة، كأنها زرافة فى حديقة حيوان !

والويل إن ضحكت، فإن ضحكاتها تتصاعد كالشهقات من ركبتيها، مدببة كأطراف الإبر.

إنه يسميها الناقة، والناقة لا تصلح إلا لتلد، وتحمل المتاع فى الفيافى والهجير.

ولكنها لا تدرك عن نفسها، إلا أنها أكثر الزوجات الثلاث حسباً وأشرفهن نسباً.

أبى العمدة - الله يرحمه - كان وكان وكان!

أخى العمدة - الله يمتعه بصحة - هو وهو وهو!

أيام زمان - والعبيد ملء الدار - كنا وكنا وكنا!

الحمد لله، أبى ترك وراءه رجالا، فإن المأمور لا يعرف أين يتناول أكلة طيبة، إلا عند أخى العمدة!

ربنا يحميه، العمدة القادم : ابن أخى ... دمه خفيف، وفيه عظمة الرجال، من صفره يأمر ويضرب ويحاسب على أقل شئ!

تتحدث بهذا كله، وعن هذا كله، والضرتان تتهامسان، مرة فى غيظ مكتوم، ومرة أخرى فى غيظ مسموع ... وأحياناً تتضاحكان فى سخرية، وكثيراً ما تردان عليها الصاع صاعين، للعمد وعائلات العمد، فيتدخل "الحاج سلطان" لفض النزاع، باللين فإن لم يجد اللين، فيكفيه أن يرفع صوته مجلجلا رهيباً فتسكت النساء.

والذى لا ينساه "الحاج سلطان" "للست نبوية"، أنها أفقدته بضعة فدادين كان يمكن أن تضاف إلى الساقية والجرن.

فعندما مات أبوها، العمدة القديم، وكان لابد من أن يحل محله ابنه العمدة الجديد، حال دون ذلك ما يجب أن يتوفر له من النصاب القانونى، وهو أن يكون مالكاً لعشرة فدادين على الأقل.

ولم يكن نظام الميراث ليبقى له أكثر من سته فدادين أو سبعة.

ولابد مع هذا من أن يصبح عمدة البلد، حتى لا ينتقل التليفون من الدوار، وينتقل معه كذلك مخزن السلاح ... إلى غير ذلك من النفوذ، والكرش المنفوخ، وخفير يتقدمه يفسح له الطريق، وخفير آخر يتبعه بعين حمراء وعلى كتفه بندقية، وفى يده كرباج.

أما إخوته الذكور، فإن واحداً منهم لم يعبأ بالأمر، وإن كانوا حريصين على ألا تخرج العمدية من بيتهم العريق.

على أن هاجساً ما، كان يتردد فى صدورهم.

كان كل منهم يظن أنه أولى بأن يكون عمدة البلد، وأنه أحق ... خاصة هؤلاء الذين يلتقون معه فى النسب إلى العمدة الذى مات، ويفترقون عنه فى النسب إلى الأمهات.

وكان عليه أن يدبر الأمر وحده، ليحاول أن يجد مخرجاً مما هو فيه.

وتهب "الست نبوية" فى شهامة الرجال.

ولم لا؟

إن "الحاج سلطان" يحدث نفسه قائلا:

أليست امرأة ذكراً؟!

لقد تنازلت عما ورثته لأخيها العمدة، ليصبح خلفاً لأبيه، فاكتمل له بهذا النصاب.

وأصبحت "الست نبوية" بهذا العمل، صاحبة اليد الطولى على العمدة، وعلى الدوار، وعلى رجال القرية ... والنساء.

وبرغم أن العمدة الجديد، يكره هذه السيرة، ولا يحب أن يذكر بها، غير أن "الست نبوية" كفيلة أن تثبت هذه الحقيقة فى أوساط القرية، والمركز كله، بما تحشرج به من كلام، تنتفخ به عروق رقبتها الطويلة.

"والحاج سلطان" لا ينسى هذا منها ... لا لها.

كذلك لا ينساه لها، لا منها،

فكلما تذكر كيف ضاعت الأفدنة التى كانت سترثها تعز عليه التضحية ...

وقد يثير مع العمدة مشكلات، كتلك التى يثيرها معه "أبو سريع" فيضطر العمدة إلى أن يشترى "للست نبوية" حلية من ذهب، أو يشترى له هو جلباباً من الكشمير، أو يدس له فى يده، بضعة جنيهات، يسد بها حلقة المفتوح...

وربما دعاه مرة إلى أن يذهب معه إلى النقطة، ليتشرف بلقاء حضرة الضابط، وكفاه هذا جزاء وشرفاً، أكثر كثيراً من فدادين الست!

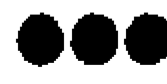
وكلما تذكر كيف حافظت أفدنة "الست نبوية" على بيت العمدة، فلم يتحطم، أو يتبدد أو يهتز.

وكلما تذكر أنه استعاض عن هذه الافدنة نفوذاً مكنه من مكاسب كثيرة، ومكن له فى قلوب غليظة لا تعرف الله، ولا تعرف كذلك نعمة الله، حمد لها هذا الصنيع.

وعلى أيه حال، فإن موقفه من "الست نبوية" هو هذا .

لوح من شجرة سنط مصموغ، عشرتها حرام.

ولكنها مع هذا نفوذ، عشرتها ضرورة، والضرورات تبيح المحظورات!



أما "الست قمر" فشئ آخر.

إنه لا يدرى، ألا يزال يحبها، أم أن حبها فى قلبه قد زال.

ولنفرض أنه لا يزال يحبها ... ماذا فى هذا؟

إنها واحدة ... إنه ليس متزوجاً إلا من واحدة!

حقيقة أن "الست قمر" حلوة كالعسل النحل، صافية، كماء البئر... بيضاء، كاللبن الحليب ... ملساء، كأثداء بقرة حلوب... طرية، قوية، شقية فى آن معاً.

صوتها نداء، وخطوها إغراء، ولحظها شفاء.

أذا ابتسمت، جرى ريق "الحاج سلطان".

وإذا ضحكت، انهارت أعصاب "الحاج سلطان".

وإذا لمست "الحاج سلطان"، انتهى "الحاج سلطان".

هو يحبها، ولكنه يخاف أن يظل يحبها وحدها.

لابد لها من شريكة، تقاسمه معها، وهو يعتقد أن هذا لن يؤثر على حبه لها، إلا أن يضاعف شوقة إليها ...هذه البضة اللعوب.

وهى فضلا عن هذا كبرت، وهو محتاج إلى فتاة صغيرة، فى عمر الربيع.

وهو بعد هذا لم يتزوجها بكراً. كانت زوجة لرجل سواه، فلما لم تنجب له ذرية، طلقها فأخذها عنه، فولدت له ولدين ... وبنتاً، مثلها : حلوة، صافية، ملساء، طرية، قوية، شقية.

ويذكر "الحاج سلطان" هذا، ثم يداعب شواربه البيضاء، وهو يبتلع ما يتردد فى خاطره:

وهل كل الرجال مثل "الحاج سلطان"؟

لقد مضى عليه معها عشرون عاماً ... سن التأبيد، فى قضايا الجنايات!

ألم يأن الأوان بعد ليتزوج أخرى صغيرة، بكراً، تحافظ على فتوته المتفجرة؟

إن "الست قمر" اسمها قمر، وهى فعلا قمر.

وهى لا تشيخ أبداً ... بل ربما كان تأثير الزمن عليها عكسًا، فتكبر مع الزمن إلى وراء!

وهل يؤدى هذا إلى ألا يتزوج ... من حلاله الرابع؟

إن "الحاج سلطان" فى أفكاره هذه المتناقضة، يكاد أن يجن!

يعود إلى وراء ... إلى أكثر من عشرين عاماً، وهو شاب، يتردد على كفر الزيات وكان "عبد المقصود أفندى" موظفاً فى أحد البنوك، وقد تعرف عليه "الحاج سلطان" فى البنك فدعاه إلى بيته، وغداه، ورأى عنده "الست قمر" فوقع على التو فى سحرها، ولم يعد من يومها ينام.

وانتقل تعامل "الحاج سلطان" مع البنك، إلى بيت " عبد المقصود أفندى" حيث أخذت أقفاص الدجاج والحمام، وأبرمة الأرز، وألوان الفطير المشلتت، تعرف طريقها من التوفيقية إلى كفر الزيات.

وكثيراً ما كان "الحاج سلطان" " يذهب لمقابلة صديقه "عبد المقصود أفندى" قبل أن يعود من البنك.

كان يفعل هذا متردداً أول الأمر، ولم يكن يحضر قبل عودته إلا بدقائق...

ثم أخذ التردد يتلاشى، كما أخذت مدة الانتظار تتزايد، حتى أصبحت عادة "الحاج سلطان" أن يذهب إلى كفر الزيات من الصباح، فيقضى فى بيت "عبد المقصود أفندى" حتى موعد عودته من البنك ريقه جار، دائماً.

نظراته مشدودة إليها، دائماً.

قلبه فى حالة خفقان، دائماً.

"الست قمر" تبتسم له ليذوب دائماً ! وتضحك له من بعيد ومن قريب فيترنح طرباً دائماً ! وتلمس مرة كفه فيمسك بكفها فى وحشية، وتربت على كتفه، فيقترب منها فى استجداء، وتداعب شواربه - ولم تكن يومها بيضاء - فيقبل أصابعها فى رجاء، وقد تقرصه، وقد تعضه فيتصايح الشيخ بابتهال إلى الله ودعاء !

"عبد المقصود أفندى" لا يعبأ إلا بأن طيبات القرية تأتيه بانتظام، ومن أجل هذا، يسهل مطالب الحاج سلطان فى البنك ... وهو يعتبر نفسه طبقة ممتازة، ولهذا لا يخطر بذهنه أبداً، أن"الست قمر" يمكن أن تكون مطمعاً لقروى بسيط " كالحاج سلطان".

وعرف "الحاج سلطان" من زياراته " للست قمر" أنها تكتم فى قلبها شيئاً غير قليل من الأسى والحزن، فإنها لا تنجب أولاداً، "وعبد المقصود أفندى" مصر على ألا تذهب لطبيب فيسألها : لماذا لا تذهب للمشايخ، وسرهم باتع... فتجيب : لأن "عبد المقصود"أفندى، يحرم عليها هذا أيضاً.

ويحس "الحاج سلطان" مأساتها، أو يتظاهر بهذا الإحساس طمعاً فى أن يكسبها وأن ينال ودها، ورضاها، وهى من هى دلالا وإغراء.

ولكم قاسى "الحاج سلطان" من قلبه، ومن حبه.

لكم عاش أياماً لا يشعر فيها بالزمن أو الناس.

لكم تمدد ليالى بطولها، مغمض الجفنين، مرهف الإحساس.

لكم تمناها!.. لكم اشتهاها ! ... ولكنه لم ينل منها شيئاً، إلا بسمة، أو ضحكة، أو لمسة، وفى بعض الأحيان، دمعة.

لا يدرى، هل كان حبه "للست قمر" هو السبب، أم أن هناك سبباً آخر، أفسد العلاقة بينهما وبين "عبد المقصود أفندى فلقد فوجئ "بعبد المقصود أفندى" ذات يوم وقد أقبل عليه فى قريته، مكفهر الوجه، غاضباً، حانقاً ثائراً.

وعلم منه أنه قرر طلاق "الست قمر"، وأنه لم يجد شخصاً يذهب إليه فى محنته هذه إلا هو.

والحق، لقد حاول "الحاج سلطان" جهده، أن يحمل "عبد المقصود أفندى" على أن يعدل عن رأيه، "فالست قمر" فى نظره زوجة يتمناها كل الرجال، وهو رجل تتمناه كل النساء.

ولكن "عبد المقصود أفندى" كان قد عقد عزمه، ولم يقبل مناقشة فيما انتهى إليه من رأى.

وظهر فجأة أن "الست قمر" و"عبد المقصود أفندى" لم يكونا يوماً على وفاق وأن كلا منهما كان يكتم فى قلبه ضيقاً شديداً بحياته مع صاحبه، وأنهما - كلاهما- ينتظران الطلاق على أحر من الجمر.

وأخذ "الحاج سلطان" يقلب شفتيه، لا يفهم من الأمر شيئاً.

واحدة "كالست قمر"هذه، يختلف معها أحد، أو يعصى لها رجل أمراً!

وواحد "كعبد المقصود افندى" هذا، له سطوته ونفوذه فى البنك، ترفضه امرأة، أو لا ترضى به امرأة!

ويتم الطلاق، "والست قمر" فى حجرتها، وقد حزمت متاعها لتمضى إلى أسرتها فى المحلة الكبرى، "وعبد المقصود افندى" مع المأذون فى حجرة الاستقبال، ومعه اثنان من زملائه موظفى البنك، " والحاج سلطان" يتردد بين حجرة الاستقبال، واجماً، وبين حجرة "الست قمر" ساهماً، وهو يرتل بعض الدعوات والابتهالات.

ولا تمضى العدة، حتى يسرع "الحاج سلطان" إلى المحلة يطلب يد "الست قمر" فتوافق على الفور، وتصبح الحلال الثالث "للحاج سلطان".

ولا تمضى حياتها فى بيت "الحاج سلطان" سهلة أول الأمر، فإنها ثالثة الزوجات، وقد سبقتها إلى الرجل اثنتان.

الأولى صاحبة الجرن.

والثانية بنت عمدة وأخت عمدة، وحماة "أبو سريع".

وأما هى فآسرُة قلب، طالما اكتوى بالنار.

ولولا هذا لتمكنت "الحاجة زهرة" و"الست نبوية" من قلعها من الدار.

ولكن الأيام تمر، وتصبح "الست قمر" أحد معالم البيت، فتعتاد عليها الضرتان، وتريان فيها شيئاً غريباً وجديدا على حياتهما.

ولم لا؟ هل هى التى ستزيد الوضع اضطراباً؟

إنه مضطرب من أول الأمر، ولن يزيد اضطراباً بوجودها.

وهى بنت بندر، تعرف كيف تنال حقها بيديها عند ما تضطرب بينها وبين ضرتيها الأمور، وكثيراً ما كان صوتها العالى، وضحكاتها الرنانة، وألفاظ بنات البندر اللاذعة، غير المحتشمة، قوة رهيبة تخشاها الضرتان، وتعملان لها ألف حساب.

وكما أنها عنيفة فى أيام الشجار، فهى لطيفة فى أيام السلام ... تربت على كتف "الحاجة زهرة" وتسألها الدعاء، وتتغزل فى جمال "الست نبوية" وهى تعرف أنها تنفخ فى قربة مقطوعة.

وهى تدرك أخيراً أنها الفائزة ... لا لأنها أجد الزوجات، ولكن لما تعرفه عن نفسها من إغراء ... فلماذا تعبأ بالضرتين الأخريين؟ وماذا تخسر لو أرضتهما فى بعض الأحيان؟

وكان إنجابها للأولاد سبباً آخر هدأ من حدة العاصفة.

فالأولاد فى مثل هذه الحالات يعتبرون عنصراً من عناصر الترقية والتثبيت، كانتقال الموظف من بند المكافآت إلى درجة الكادر، وللكادر احترامه وله امتيازه، وله كذلك حصانته.

على أن "الحاج سلطان" نفسه، قد بدأ يفكر فى أمره وأمرها.

ألا يزال يحبها؟.. ألا يزال يتمناها كما كان يتمناها من قبل؟

الجواب نعم من غير شك ... وهل فى البيت امرأة سواها؟

ولكنها واحدة ... وواحدة لا تكفيه.

ولا تزال أمامه فرصة أخيرة باقية، ليبلغ بذلك النصاب الشرعى، الذى يتمناه.

ويدرك "الحاج سلطان" أن الأمر لن يكون سهلا هذه المرة.

ففى المرة الأولى، كانت "الحاجة زهرة" عاجزة عن أن تهبه أولاداً ذكوراً، وكل ما قدرت عليه أن تنجب له بنتاً واحدة، بعد انتظار طال.

كان إذن معذوراً ... ومضطراً، لينجب أولاداً، يعز بهم، ويعزون به.

حتى "الحاجة زهرة" وجدت أن له فى ذلك حقاً.

وفى المرة الثانية، انتهز فرصة انشغال "الست نبوية" بالأولاد، وفعل فعلته الثالثة ... وشفع له أنها "الست نبوية" وكان هذا يكفيه عن الوصف والمقال.

ومن الذى كان يملك الاعتراض.

هى؟.. لا تهمه ! فقد دفعتها ما يشوب أنوثتها من رجولة الرجال، إلى أن تتنازل عما ورثته من أبيها لأخيها العمدة الجديد، ليصبح بذلك العمدة الجديد، وكفاه فضلا أنه قبل هذا منها.

والعمدة القديم كان متزوجاً من أربع، والعمدة الجديد تزوج مرتين قبل أن يصبح عمدة، وتزوج الثالثة بعد أن أصبح عمدة ... ومن يدرى كم سيتزوج بعد ذلك من نساء، وهو لا يزال رجلا مكتمل الرجولة، كثير الأكل، فارغ البال؟

فإن تكن هى "الست نبوية" فأمرها يسير.

وإن يكن هو العمدة الجديد، فلماذا يحلل لنفسه، ما يحرمه على سواه.

غير أن العمدة الجديد، لن يجامل أخته على كل حال، لأنه لا يحبها، لطول ما أخذت ترويه للناس عن شهامتها وتنازلها عن أرضها لتمكن له بين الناس.

إنه لم يعد يحتمل هذا، ولا يطيق أن يسمعه بين الحين والحين.



... لم تبق إلا واحدة : "الست قمر".

وهنا أخذت الدنيا تدور أمام عينيه.

ما العذر؟

حلوة؟ نعم.

بضة؟ نعم.

مليئة؟ نعم.

لعوب؟ نعم.

مغرية؟نعم.

كل القرية تتحدث عنها فىَ تنهدات.

وكل القرية تتمنى منها نظرة، أو ابتسامة.

هى حلم الرجال، فى الحقول، وفى الجرن، وعند الساقية.

وهى قاتلة النساء، لفرط ما بينها وبينهن من الفروق.

هن خشنات وإن تزين، وهى ناعمة بلا زينة.

هن سمراوات وإن تجملن، وهى بيضاء من غير سوء.

هن متخفيات فى ثياب سود، وهى عارية الذراعين طول النهار.

هن يخرجن فى ملس طويل واسع، وهى ترتدى ملاءة من الحرير، تعقدها حول خصرها فى إغراء، وتترك بعض أجزائها تتطاير مع الريح - حتى من غير ريح ! - لتظهر بعضاً من مفاتن ذراعيها وكتفيها.

وهن يخفين وجوههن إذا خرجن تحت دثار ثقيل مظلم، وهى تكتفى ببرقع، أرنبته من الذهب، وعيناها الكحيلتان، تأخذان بمجامع العقول.

وأهل القرية كلهم حياء، ولكنه حياء فيه كثير من الخبث الساذج الطيب.

يغضون الطرف إن سارت حياء، ولكنهم مع ذلك يسترقون إليها النظر ليتمتعوا بما خلق الرحمن، فإن استبد بهم هاجس الدين، فلا غبار، لأنهم حينئذ يكونون كمن اضطر غير باغ!

ماذا يكون موقفها منه، لو تزوج الرابعة؟

هل ترضى؟

إنها لن ترضى بذلك على الإطلاق، ولولا أنها جاءت بعد الأُخْرَيين، لما قبلت أن يتزوج عليها واحدة أخرى.

فإن لم ترض، فستجعل حياته جحيماً لا يطاق.

قد تتركه كما فعلت مع "عبد المقصود أفندى". قد تطلب الطلاق منه فى إصرار، وتحزم متاعها، وتذهب إلى أهلها فى المحلة الكبرى.

وهو لا يريد أن يفترق عنها، لأنه لا يستطيع. لابد له من الاحتفاظ بها... لأنه يحبها، ويشتاق إليها، وتستبد به إليها بين الحين والحين رغبة جموح.

إنه يريد استبقاءها ... ولكن لا وحدها.

فإن قبلت أن تبقى فى البيت، فقد تلعب بمشاعره نحوها ... تهجره مثلا وتبعد عنه وتكتفى عنه بأولادها، تحيطهم بالود والحنان.

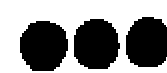
عندئذ تصبح المصيبة أدهى وأمر، فسيجدها أمامه دائماً كالعسل النحل،ولا يستطيع أن يلعقه ! ... كاللبن الحليب، ولا يستطيع أن يرشفه ! ... كورد الحديقة، ولا يستطيع أن يقطفه !..

... وما الحرمان فى حقيقة، إن لم يكن هذا؟!

وهل تكفيه "الست الجديدة" عنها لو فعلت؟

لكن من " الست الجديدة" هذه؟

من تكون؟



لعل من الخير، أن نمر عليها الآن مروراً سريعاً، فمكانها الحقيقى من القصة ليس هنا، وقد كان أجدى للرواية نفسها، أن تأتى فى مكانها المنطقى اللائق.

أم ترى أن الأمر معها، يجب أن يختلف عما تعارف عليه الرواة والقصاصون؟

أحتى فى الرواية يجب أن يختلف مقامها من القصة : هذه الضحية المسكينة؟

أهكذا ينقلب كل شئ بالنسبة لها، فى الحياة، وعلى مسرح الأحداث حتى إذا ما أصبحت أثراً يروى، شاء قدرها التعس، إلا أن يتعقبها، حتى وهى جزء من قصة يقرؤها الناس؟!

ألا يكفيها نوع الحياة التى عاشتها؟!

الشئ الوحيد الذى تذكر أنها لفته حول قدميها، أو وضعته فى قدميها، أو لبسته فى قدميها، هو فردة شراب قديم وجدتها مرة فى طريق محطة السكة الحديد.

يومها فرحت جداً بهذه الفردة، وسرها أن لونها أحمر جميل، وبرغم ما كان بها من ثقوب، وبرغم الرائحة التى كانت تفوح منها، فإنها عدت نفسها محظوظة، وإن رزقها دائماً فى رجليها !

ولم تستطع أن تصبر حتى تعود إلى الدار، فتلفتت حواليها لتطمئن إلى أن أحداً لا يراها ثم جلست على الأرض ووضعتها فى قدمها اليمنى.

وظهرت لها قدمها كما لم تظهر لعينيها من قبل، واختفت الشقوق التى حفرها فيها الزمن والحفى.

وأخذت تتفرج على اللون الزاهى الجميل يزين قدمها، وتكاد أن ترقص طرباً وفرحاً.

ولقد همت بأن تقف على الأرض، لتدور حول نفسها، وقدمها اليمنى فى هذا اللون البديع، لولا أنها وجدت أن تراب الجسر كثيف، وأن من البطر بنعمة الله أن تلوث هذه النعمة بهذا التراب.

على أنهـا رأت ألا تحـرم قـدمهـا اليسـرى مـن هذه النعمـة، ولم تك تدرى قـبل ذلك أن الجـوارب يمكن أن تكون هكذا، علـى عكس مـا لاحظتـه علـى الأحـذية، الفـردة اليـمنى كاليسرى تماماً، تستعمل إحداهما لأى من القدمين.

فلما خلعت الفردة من قـدمها اليمنى، ووضعتها فى قدمها اليسـرى أحست على الفور أنها منطبقه عليها تماماً.

حينئذ ابتسمت ابتسامة عميقة، وسرها أنها على هذا القدر من الذكاء، والا ما تبينت من نفسهـا أن الجوارب لا تختلف آحادها اليمنى عن آحادها اليسـرى، كما هو الحال فى الأحذية !

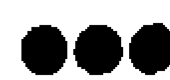
ولقد احـتفظت بفردة الجورب عندها، حتى اضطرت يوماً الى أن تعيد بها الابتسـامة والفرحة الى قلب آخر مثل قلبها كسير.

أما عن جسمها ورأسها، فهى لا تذكر أبداً، أنها وضعت عليها شيئاً جديداً، وإنما هى دائماً تأخذ عن أختهـا، بعد أن تضيق هذه الملابس على أختهـا، وأختها بدورها تأخذها عن أمها، بعد أن تقوم الأم بعملية ترقيع وتضييق لتعيد إلى ملابسها شيئاً من شباب، وبعضاً عن جدة .... وهذه الأم بدورها، قلما تحصل على بضعة أمتار جديدة سود كل عدة سنوات، وقد تنتظر شهوراً حتى تستطيع بعد ذلك أن تدفع عنها أجرة الخيَّاطة. على أنها، لا تتردد فى أن تريها لصديقاتها وقريباتها وجاراتها، كل يوم، لتشعرهن بمكانتها فى قلب زوجها، وأنه لا يدخر وسعاً فى سبيل كسائها.

وإنها لتضحك من سذاجة أمها، هى وأختها معاً، عندما تلاحظان أن الأم السعيدة ببضعة الأمتار الجديدة السود، تعرض قطعة القماش على زائرة واحدة عدة مرات، وفى كل مرة تروى الحكاية نفسها، وهى أن " أبو عوف" لا يستكثر عليها شيئاً، وأنه يبذل كل جهد فى سبيل تلبية حاجاتها.

وطبيعى أن "أبو عوف" هذا هو زوجها.

كأنما سذاجة أمها أشد إمعاناً من سذاجتها هى مع فردة الشراب!!



"وتفيدة" "ومفيدة" "وأم الهنا" "وأبوعوف" هم كل أفراد الأسرة الفقيرة الساذجة.

ولم يكن للأسرة ولد تعتز به، ذراعاً أيمن لأبيه.

وليس اسم الأب "أبو عوف" لأن له ولداً اسمه عوف، ولكن لأن اسمه"عبد الرحمن" وكل"عبد الرحمن" فى القرية، هو "أبو عوف".

ولقد كادت القرية تنسى أن اسمه الحقيقى هو"عبد الرحمن" من كثرة ما ينادى بكنيته، ولأن المسكين لم ينجب ولداً ذكراً، يمكن أن يجب الكنية، ويحل محلها فى نداء أبيه.

ولقد يبدو أن "أبو عوف" تعس، لأنه حرم الولد، وحقيقة الأمر أن الرجل يحيا ــ . اة سعيدة، راضياً بما آتاه الله.

"فأم الهنا" زوجته، تساعده وتعاونه، أكثر من أربعة أولاد ذكور، فهى إلى جوار تدبير أعمال البيت، إن جاز أن يسمى هذا الخص من اللبن وأعواد البوص بيتاً، تُحَزِّن له الحب وتدبر أمره ليكفى الأسرة طول العام، ثم تنقيه، وتغسله، وتجففه، وتذهب به كل شهر مرة سائرة على قدميها ثمانية كيلومترات، لتطحنه فى كفر الزيات، وهى تحمل معها مع الحب عدة بيضات، وعدداً من قطع الجبن، وتجمع من حوافى الجداول بعض السريس أو الجعضيد وتبيع ذلك جميعاً، فتحصل من ورائه على أجر الطحين، وربما توفر لها بعد ذلك قروش قليلة، تشترى بها بضعة تمرات، وقليلا من العسل الأسود "لأبو عوف" فإن فاض شئ بعد ذلك، فإنها تشترى لنفسها قرطاساً من الترمس تقزقز بعضه وهى تنتظر الطحين، وتحتفظ ببعضه الآخر لبنتيها "تفيدة" "مفيدة".

وقد تصل الحبات الباقيات من الترمس، جافة جامدة، ولكن تفيدة ومفيدة تفرحان بها غاية الفرح وتعطيان بعضاً منها لوالدهما " أبو عوف".

إن يوم الطحين، يوم مشهود فى حياة هذه الأسرة البسيطة، تحشد له كل قواها، "فأبو عوف" يجمع ما يجده على حافة الترع والجداول من السريس والجعضيد.

و"تفيدة" و"مفيدة" تحصيان إنتاج الدجاجات من البيض، وتحسبانه لأمهما على ما يكون قد وصلهما من سعره، وأم الهنا ترتب ذلك كله فى قفتها، وتضع كل شئ فى مكانه، لتستطيع أن تجده عندما تجد الشارى.

أما قطع الجبن، فإن هذا هو دور جاراتها وصديقاتها.

بعضهن يبعنها هذه القطع، على أن يكون سداد ثمنها آجلا بعد أن تعود من كفر الزيات.

وبعضهن يأبين إلا أن يتقاضين عنه الثمن، أكوازاً من الحبوب، يتفقن عليه معها.

وقد تفلح مرة فى أن تجد من يعهد إليها ببيع كمية ما من اللبن

وقد تجد مرة أخرى من تعطيها بعض قطع الزبد.

وهى على أى حال تحسب الحسبة، بحيث يكون لها بعض الربح مما تبيع لحساب الأخريات.

وهكذا يتحول الخص البسيط إلى حركة دائبة كل اليوم، الذى يسبق يوم الطحين.

فإذا ما أقبل الليل أخذت تحكى "لأبو عوف" حسبتها، وأرباحها التى تنتظرها من وراء رحلة هذا الشهر، وكم ستدفع للطحين، وكم سيتبقى بعد ذلك، وتطرح ما عليها من دين، من مجموع ما تربح، وتأخذ فى تقسيم الباقى على احتياجات الأسرة. وتصحو أم الهنا فى السحر، ويصحو معها "أبو عوف" وتصحو كذلك البنتان، فما أن تصلى الفجر، حتى تعد الأسرة كلها الشاى، لتشربه مع ربة الدار، مع بعض كسرات خبز جاف، تغير عليها ريقها، ثم تودعها بالقبلات، والابتهالات والدعوات.

ويمضى يوم طويل ثقيل ممل، حتى تعود أم الهنا من رحلتها، مع الغروب.

وتستبد فرحة اللقاء "بأبو عوف" فيكاد لولا الحياء أن يعانقها، أما البنتان فلا ضير عليهما، إن هما قبلتا أمهما فى فرحة وحنان.

وتضع "أم الهنا" الطحين على جنب، ثم تبدأ تفرغ ما جاد به الله عليها، فتقدم للأسرة حسابها، وتقدم لها كذلك هداياها.

العسل الأسود الذى يحبه "أبو عوف".

غويشة زاهية "لتفيدة".

منديل رأس اشترته لنفسها، وهذا معناه أنها ستخلع منديلها القديم على مفيدة.

ثم ديون جاراتها وصديقاتها، وقد يكون لإحداهن حاجة، تكون قد أحضرتها معها.

وفى اليوم التالى للرحلة تبدأ عمليات التصفية ... جمع من النسوة يتجمعن حولها يسألنها عما أحضرت لهن معها. هذه لها حق نظير قطع الجبن، وتلك لها بقية حساب عن اللبن الحليب، والرابعة تحاسبها عن سعر الزبدة..

وهكذا تنتهى أم الهنا من طحين الحب... لتبدأ بعدها إعداد الخبز، تعجن الدقيق، وتخبزه، ليصبح قوت الأسرة طول الشهر.

إن " أبو عوف" يعتمد على الله وعلى "أم الهنا" فى حياته كلها، وهو سعيد بها هانئ البال، قرير العين، بما رزقة الله من نعمة، فهو يعمل خفيراً، يحرس حديقة "الحاج سلطان" ويقلم أشجارها، ويرويها، وينقى أرضها من الحشائش الضارة بالأرض أو بشجر الفاكهة.

وله نظير ذلك أن يزرع أرض الحديقة، بين أشجار الفاكهة، بالذرة أو القمح أو الشعير.

"أم الهنا" تقوم معه برى زراعته، وتقوم معه كذلك برى أشجار "الحاج سلطان".

و"تفيدة" و"مفيدة" تنقيان معه الأرض من الحشائش الضارة.

وكلهم بلا استثناء حرس مشدودون إلى الأرض، يفتحون عيونهم على فاكهة "الحاج سلطان" وعلى الزراعة المنثورة بين الأشجار، فهذا هو مورد رزقهم.

ولقد قضى أبو عوف شبابه هنا، وتزوج هنا، ورزقه الله بنتيه هنا.

فأصبحت حياته كلها جزءاً من هنا.

لا يعرف شيئاً أبعد من هنا إلا بمقدار...

ولولا أن أم الهنا بجانبه، تؤدى واجبات العيش معه، لما عرف كيف يكون مصيره فى هذه العزلة وهذا الانقطاع، وهذه الحياة الضيقة التى يوسعها الله بفضله، وبأم الهنا إلى جانبه.

ولولا أن بنتيه إلى جواره، تؤديان واجبات العمل معه، لما عرف كيف يكون مآله، عند ما يصاب ببرد أو بزكام، أو تشتد عليه آلام صدره، فتكاد تمزقه تمزيقاً.

إنهما حينئذ تكفيانه مئونة العمل، بل تبحثان له عن ورق الجوافة وتغليانه له ليشفى مما يكون قد ألم به من برد، أو عن نبات السكران، تهيآنه له فى مثل لفات التبغ، لتزول أزمة الربو الذى يلاحقه بين الحين والحين، أو تجمعان له قطر الندى وقد أذيبت فيه بعض العقاقير، ليزول ما قد ألم بعينيه من رمد.

وهكذا كانت هذه الأسرة البسيطة الصغيرة تعيش فى براءة وتآلف وتعاون كالطبيعة، أو كالحشائش التلقائية، أو كنسمات الريح.

سعيدة بما هى فيه، تتجمع فى الليل بعد صلاة العشاء، لتتبادل الروايات، والحكايات والنوادر.

والرجل ملء روحه زوجته، وملء قلبه بنتاه ... وملء بصره حديقة "الحاج سلطان".

وهو لا يحس مرور الزمن، بل لا يحس أن هناك ما يسمى زمناً ... جمدت حياته منذ سنوات على ما هو فيه من حال : الخص وأم الهنا والبنتان، وهذه الحديقة، وزراعته المنثورة بين أشجار البرتقال، والعنب، والليمون، والنخيل

وأبو عوف رجل مثل كل الرجال البسطاء، شريف أمين، يؤرقه الواجب.

إنه يكاد يعرف أشجار الحديقة، شجرة شجرة، بل يكاد يعرف فواكه كل شجرة ... على أنه يعرف كل ذلك، بالعين ... لا تمتد إليها يده، الا إذا سقطت من أغصانها، ليسلمها إلى الحاج سلطان، أو من يرسله الحاج سلطان بأمارة خاصة، كالشفرة، اتفق معه عليها.

فإذا لم يجد عليه الحاج سلطان ببعض البرتقال المعطب، أو الجوافة المضروبة، أو العنب الحصرم، أو البلح النيئ، فإنه لا يذوق هذه الفاكهة أبداً، ويكفيه أنه يراها وأنه يحرسها...

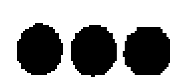
و"أبو عوف" يعتبر "الحاج سلطان" مبعوثاً، بعثته إليه عناية الله، فماذا كانت تصبح حالته لولاه. لولا حديقته هذه، وأياديه البيضاء، ونفحاته له من ثمرات الحديقة؟

لاشك أن حياته كانت ستصبح شاقة عسيرة، لأنه حينئذ كان سيضطر إلى العمل باليوم، وما أدراه أنه كان يمكن أن يحصل على عمل كل يوم؟ أو ربما اضطر أن يرحل إلى بعيد مع عمال التراحيل.

عند هذا تقف نظرة أبو عوف إلى أمره، فيتردد على شفتيه ابتهال صامت لله، وعرفان بجميل الحاج سلطان.

أما أن الحاج سلطان: يكسب من ورائه أسرة كاملة تتبادل حراسة حديقته، بلا مقابل! ويمنحه ما بين الأشجار من أرض أجهدها الشجر يزرعها ليدفعه بذلك إلى العناية بأرض الحديقة حماية لزرعه، إن لم يكن حرصاً على الحديقة نفسها- أما أن يخطر ذلك بباله، فرجس من عمل الشيطان، وبطر بنعمة الله.

وانه ليذكر أن "أم الهنا" قالت له هذا الكلام ذات يوم، فثار فى وجهها، كما لم يثر من قبل، وقامت البنتان بتهدئة الجو بينهما، فسكتت "أم الهنا" ولم تعد إلى هذه السيرة بعد ذلك أبدا.



هذه هى بيئة الست الجديدة، أو الضحية المرشحة لأن تصبح الست الجديدة.

إنها "تفيدة" الفتاة الصغرى "لأبو عوف".

وجه ينضح بالإغراء، والصحة، والبهجة، والتفاؤل.

وجسم يفور بالحرارة، والرغبة، وحب الحياة.

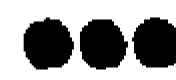
...آه يا "حاج سلطان"، من نقط الشهد، تقطر من بين شفتيها إذا هى تحدثت أو ضحكت أو حتى إن صمتت، أو تأوهت من شئ تكرهه أو تتكره!

وآه مرتين" ياحاج سلطان" من هذه التحفة المستوية، وقد تفنن فى صنعها الله من مرمر، أو عاج، أو رخام رائع... تلك رقبتها.

وآه ثلاث مرات "يا حاج سلطان" من كومة الذهب على رأسها، تسويها مرة، فتبدو منتظمة تتدلى فى ضفيرتين جميلتين،وتتركها مرة أخرى، لمداعبات النسيم، وعبث الريح، فينثره أو ينفشه، كأشعة شمس صباح رائع وفاتن وبديع..ذلك شعرها.

وآه مرات لا تحصى "يا حاج سلطان" من لحظ يخترق شغاف القلب، وينفذ إلى أعمق ما فى الرجل من مقاومة فتنهار ! ... فيه بريق وفيه ومض، وفيه كذلك نبض مثير.

وقدها، وصدرها، وخطوها، ووثبها، وعودها..ونارها ذات اللهب!!



ويمضى الحاج سلطان يحدث نفسه فى أسى...

... ويلتف هذا كله" يا حاج سلطان"، فى خرق باليه سوداء؟! ويقطن هذا كله "يا حاج سلطان"، فى خص من اللبن والبوص؟ ويشقى هذا كله "ياحاج سلطان" وأنت حى ترزق ! ... ولك ساقية يحيا عليها هذا البلد ! أو أغلب من هذا البلد ! ولك جرن لولاه ما تمكن أغلب أهل البلد من تهيئة محصولاتهم بعد الحصاد ! ولك أهل وناس وعصبية فى هذه المنطقة؟!

ولكن "الست قمر" "يا حاج سلطان" ... هل تستغنى عنها؟ هل يمكن أن تتصور أن تبعد عنها بالطلاق مثلاً؟ وكيف؟... أنت تريدها مع هذا الغزال الصغير الجميل لتستمتع بالجمالين، كيفما تشاء، فلا تزهد من أيهما أبداً.

وهل ترضى "الست قمر"؟...

فإذا لم ترض "يا حاج سلطان" فماذا يكون العمل؟ هل تضحى "تفيدة" هذه القطعة الرائعة من جنة الدنيا؟

أتذكر "يا حاج سلطان" عندما كنت تذهب إلى الحديقة فتجدها وحدها، تنقى الأرض من الحشائش، تحت شجر الليمون؟

أتذكر كيف كنت تجلس إلى جوارها، تحاول أن تساعدها على عملها، فتتلفت إليك مستنكرة ومنكرة ومستكثرة عليك هذا التواضع، فتردك عنه فى رفق ورقة ولين، حتى لا تتسخ يداك "يا سيدى الحاج" !.

ولكنك كنت تصر" يا حاج سلطان"، لا لتنقى معها الأرض من الحشائش، ولا لتساعدها، ولكن لتحظى لنفسك بلمسات من كفيها، ودفعات من يديها، والتفاتات كالسحر، ونظرات كالجمر، وضحكات كإغراء، أقوى من الإغراء !

ولكم تحدثت إليها كما لم تتحدث أبداً إلى واحدة من طبقتها!

ولكم استمعت إليها كما لم تستمع أبداً إلى واحدة مثلها!

ولكم رويت لها الحكايات، والنكات، والأنباء !

ولكم اقتربت منها تحاول أن تلتصق بها مصادفة، لتلمس قطع الجمر، فى جسمها هذا الفوار!

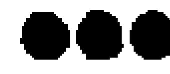
ولكنها كانت تعرف متى تثب إلى بعيد، ومتى تقفز ومتى تفر، بالسنوات الستة عشر من عمرها، حتى لا يلتهمها "سيدى الحاج" !

يا "حاج سلطان" ... هذا كثير. لا بد لك من زواجها، وإلا فقدت عقلك ولتفعل "الست قمر" ما تشاء.

إن "الحاجة زهرة"، و"الست نبوية" معاً سينضمان إليه هو فى الزواج الجديد شماتة فى "الست قمر"، و"الست قمر" غريبة عن هذه البلدة، ولن تجد من ينتصر لها فيما ستقيمه من حرب عليه، إن هى فكرت فى أن تعلن الحرب عليه.

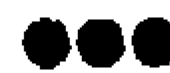
وبرغم فتنتها التى لا تزال شابة متوهجة، فإن الفتنة ستنقلب عليها "فالحاجة زهرة" ستجد فى الزواج الجديد وسيلتها إلى الطعن فى فتنة ضرتها، والتعبير عما حسبته فى نفسها من حقد عليها كذلك "الست نبوية" وزوج ابنتها أبو سريع وأخوها العمدة، والأصهار والأقارب.

إذن فليتوكل على الله...



وجمع إخوته "الحاج غضبان"، و"الشيخ سيد"، و"ممتاز أفندى" وزوجاتهم وأولادهم، وملحقاتهم، والتابعين، فأصبح البيت الكبير يعج بالرجال والنساء والأطفال والخدم يأكلون ويشربون ويضحكون، ويتحدثون بالفارغ من الكلام.

وعندما تسود فترة من صمت، تبدأ عبارات من التحية مكررة ومعادة، للسلام والدعاء محفوظ عن ظهر قلب، وموروثة جيلا عن جيل.



و"الحاج غضبان" يتكئ على أريكة كبيرة، وكرشه الكبير يحتل مكانه أمامه. ويبدو سعيداً بكرشه، معتزاً بسمنته، فخوراً بشواربه المفتولة، كأنه صقر الغابة.

وهو لا يتحدث إلا عن تجارته فى قطن البلدة كلها، وما له عند الناس من سلف أنقذ بها أقطانهم، ومحاصيلهم، من البوار، وإنه يطاول المساكين المدينين، حتى يحصدوا

محصولاتهم ويجمعوا أقطانهم فيردوها له حبوباً أو قطناً، أو يخصمها من حساباتهم، عندما يبيع هذه الأقطان والمحصولات، للخواجات فى كفر الزيات.

فإذا علق "ممتاز أفندى" على هذه الإنسانية، وهذه الطيبة، وهذا البر، متسائلا عن نسبة الفايظ لهذه السلفيات الخيرية، أجاب" الحاج غضبان" فى ابتسامة خبيثة أو متخابثة : يا بخت من استفاد وأفاد "يا ممتاز أفندى" ! ويكرر كلمة أفاد، وهو يطيل النظر لأخيه ممتاز!

"الحاج غضبان" هو تاجر البلدة، يسلف الفلاحين مقدماً بما يسمونه بالفايظ، وهو نوع من التسليف بفوائد تصل عن الجنيه، فى موسم جنى القطن، إلى أربعين قرشاً !

فى مدة أقصاها شهران.

كذلك فى مواسم الحصاد الأخرى بنسب تتفاوت بين عشرة قروش عن الجنيه إلى أربعين قرشاً فى الموسم، فى العام، على قدر أهمية المحصول، والحاجة له واللهفة. إليه.

والفلاح يجد أن أقرب طريق إلى بيع محصوله، أن يعهد به إلى صاحب السلفة، فهو أولا لا يعرف سواه، وهو ثانياً مدين له، وهو ثالثاً لا يجيد، بل لا يعرف وسيلة الاتصال بالخواجات فى كفر الزيات.

عندئذ يصبح " الحاج غضبان" بنك التسليف ! والمحتكر الطبيعى لمحصولات القرية نظير ما يقدمه من سلف كريمة وسخية، فى أيام العسر والحاجة.

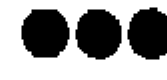
وبهذا يتحدث "الحاج غضبان"، وعن هذا تدور أحاديث "الحاج غضبان" إلى جوار أحاديث أخرى عن أبرمة الأرز، والفطير، والبط، والفراخ، وعن بلاد تتاجر فى الملح، وعن أناس يعيشون على السمك، وعن نساء فاتنات عاريات على شاطئ البحر.

وهو حينما يتحدث عن الأكل والمأكولات يقضم الكلام قضماً، ويكاد لعابه أن يسيل!

وحينما يتحدث عن البلدان يتفنن فى خيال بعيد فتبدو أحاديثه أقرب إلى الأساطير!

وحينما يتحدث عن النساء الفاتنات، تلمع عيناه ببريق من حرمان!

برغم زوجتيه، وثالثة يروى أنه تزوجها من البندر، ويخفى أنباء زواجه منها عن البلدة كلها ويحتدم غضبه، وهو ينكر هذه الروايات إنكاراً شديداً.



أما "الشيخ سيد" فهو باشكاتب محكمة شرعية، من أهم المحاكم فى المديرية، دخل الأزهر، ونال الشهادة العالمية، وكان من حقه أن يعين قاضياً، لولا علبة النشوق.

وفى كل مرة يروى قصة حظه العاثر، يتلقى من أبناء قريته أو أصهاره، أو أقاربه نفس التساؤل : احك لنا يا عم "الشيخ سيد" قصة علبة النشوق هذه، التى أبعدتك عن كرسى القضاء.

وكما لا يمل المتسائلون تساؤلهم، كذلك لا يمل "الشيخ سيد" تكرار ما حدث له منذ هذه السنوات الطوال.

وهو يتعمد أن يتخذ أسلوب "كليلة ودمنة" فى سرد القصة، فيقول وقد انتفخت أوداجه "يحكى أن"..ليظهر بمظهر المثقفين الظرفاء.

أما بعد "يحكى ان"، فهو أنه كان فى ناحيتهم شيخ من أكابر علماء الأزهر، له عمود خاص به، من أعمدة الأزهر الشريف ولم يكن هذا سهلا ولا هيناً، فقد كان يكلف صاحبه سنوات طويلة من عمره فى المذاكرة والعلم والدرس والتحصيل.

هذا الكبير الفحل، كان هو السبب فى أن يلتحق الشيخ سيد بالأزهر، وأن يمضى فى الدراسة به، حتى يصل إلى أعلى ما يصل إليه الدارسون فيه، وهو العالمية.

ولقد كان هذا حدثاً فى الأسرة.

ولقد اتخذ هذا الحدث شكل الملهاة فى أول الأمر.

فعندما أتم "الشيخ سيد" حفظ القرآن، والتحق بالمعهد، ووضعوا على رأسه عمامة صغيرة، أخذت أمه تزغرد، وتملأ البلدة فرحة بالشيخ الصغير، أما أخوته، فقد أغرقوا فى ضحك طويل، لمنظر العمامة الصغيرة على الشيخ الصبى.

وذهب "الشيخ سيد" إلى المحطة فى موكب كبير يتقدمه والده وأعمامه والمسنون من أهله، ثم هو، وحوله إخوته وأقاربه وأصهار الأسرة، والمحبون، والتابعون، وتابعو التابعين.

وعلى ظهور الحمير وضعت أسبتة تحمل الخبز وأنواع المخلل، والفطير والقراقيش وطواجن الأرز المحشو بالحمام والدجاج، إلى غير ذلك من الطيبات.

أليس شيخاً؟ ألا يذهب إلى المعهد الدينى ليلتحق بركب العلماء؟ وكيف يصبح شيخاً بلا زوادة، وهى لازمة من لوازم الأزهريين؟

وعند المحطة، والقطار على وشك أن يتحرك، ذرف الجميع الدموع، وأخذوا يقبلون الشيخ الصغير.

ولقد عز عليه أن يفارق قريته لأول مرة، وأن يبعد عن الساقية، والحقل والجداول الصغيرة والأتراب والأحباب، فبكى كما لم يبك من قبل.

وهنا فقط اهتزت ذقن أبيه الشيخ الكبير، فانهمرت من عينيه الدموع برغم أنه ذاهب معه، هو وبعض أفراد الأسرة، حتى يطمئنوا إلى مسكنه ومشربه وحياته، ثم يعودون.

ومضت السنوات بالشيخ فأصبحت الملهاة حقيقة، وغدا الشيخ شيخاً له عمامة كبيره، شالها أكثر بياضاً من اللبن الحليب، لا يلبس إلا بعد أن يعالجه الكواء، ليكون من الأناقة بما يتناسب وجلال رجال الدين.

وكان "الشيخ سيد" إذا ما أقبلت الإجازة السنوية، أو إجازة رمضان، أقبل إلى القرية بعد أن تسبقه إليها خطابات تحدد موعد الوصول تماماً، فينتقل الموكب إلى المحطة، لاستقبال الشيخ، فإذا ما دخل الموكب القرية، ارتفعت الزغاريد على طول الطريق، من الأهل والأقارب والأحباب، فإذا دخل البيت وزعت أكواب الشربات على المنتظرين من الرجال، والمنتظرات من القريبات والجارات.

ولا ينسى "الشيخ سيد" حق أهله عليه، فهو يوفر من الجراية قدر ما يستطيع، ليحضر لوالده دستة مناديل محلاوى، ولأمه منديلا للرأس ملوناً براقاً، ولكل من إخواته

محفظة للنقود وبضعة خواتم ومسابح من حى الحسين، يوزعها ذات واليمين ذات الشمال.

وتعيش القرية أياماً فى أحاديث مختلفة عن هدايا الشيخ سيد.

فما إن تستفيق حتى يلاحقها "الشيخ سيد" بمادة جديدة تجعله على الألسنة أبداً.

يعد خطبة منبرية، ليلقيها على منبر الجامع فى صلاة الجمعة.

وفى صوت شاب ونبرة قوية، يأخذ فى إلقاء خطبته، محاولا أن يجدد فيها ما أمكن لتصبح حديث القرية، ربما لأسابيع، فتطول رقبة أبيه، وأخوته، وأقاربه، وأصهاره، وتزداد فى القرية مكانتهم.

فإذا ما كاد تأثير الخطبة أن يزول، أعد درساً دينياً، يلقيه بين صلاة المغرب والعشاء، فيعطى الألسنة التى تتصيد المفاخر عنصراً جديداً تستند إليه مفاخرهم.

فلما وصل "الشيخ سيد" إلى العالمية، أصبح الأمر من الدقة بمكان.

إن أوائل الناجحين يعينون قضاة شرعيين، وأما الباقون فكتبة فى المحاكم الشرعية.

ولابد للشيخ سيد من أن يكون أول فرقته... أليس أول قريته؟

ويذهب والده إلى العالم الكبير صاحب العمود فى الأزهر، وابن ناحيته، ومحط أنظارها والدافع الأساسى للأسرة لأن ترسل "الشيخ سيد" إلى الأزهر ليوصيه به خيراً، وليؤكد عليه أنه أمانة فى رقبته، وأن له عليه حقاً فى أن يصبح أول فرقته، ليعين قاضياً شرعياً.

ويقول" الشيخ سيد" إن العادة قد جرت بين العلماء الكبار، على أسلوب خاص، فى التوصية على الطلاب الممتحنين، أثناء الامتحانات الشفهية.

ذلك أن يرسل صاحب التوصية، أثناء امتحان هذا الطالب بالذات علبة النشوق إلى الأستاذ الممتحن.

عندئذ يفهم أن هذه "الحالة" تهمه وأنه يوصيه بها خيراً.

وكثيراً ما كان العلماء الكبار يتبادلون علب النشوق فى أثناء الامتحانات الشفهية، كالشفرة!

ولكن حظ "الشيخ سيد" كان فى ذلك اليوم منحوساً، فقد أرسل العالم الكبير ابن ناحيته علبة النشوق إلى لجنته، فأخطا الفراش وأعطاها للجنة أخرى، وقال لرئيسها : الشيخ فلان أرسل لك هذا النشوق، فصنفه جيد وهو يريدك أن تستنشقه.

وإذا "الشيخ سيد" ينجح بالكاد.

وإذا زميله الآخر يصبح أول فرقته، ويعين قاضياً من قضاة الشرع.

ويضحك الشيخ سيد وهو يعقب على هذا:

لقد كنت على وشك أن أطعن بالتزوير فى علب النشوق، ولكنى آثرت السكوت رعاية لخاطر الشيخ الكبير، وقد تعهد بأن يلحقنى بالعمل كاتباً بالمحاكم الشرعية، رغم تأخر ترتيب نجاحى.

وكان عزاؤه لوالدى أن قال له : هذه إرادة الله. هل يستطيع أحد أن يعارض إرادة الله، أو يغيرها؟

وأصبح "الشيخ سيد" كاتباً فى إحدى المحاكم الشرعية، ولكنه كان يعتبر نفسه فوق كتبة المحاكم، فهو حامل للشهادة التى تؤهل للقضاء وللمحاماة، ولقد كاد أن يصبح قاضياً لولا خطأ من الفراش!

ولقد ظل على هذا الاعتقاد، حتى بعد أن أنشئت مدرسة القضاء الشرعى، وبدأت تخرج قضاه متخصصين، فإنه قاض بالقوة لا بالفعل، كما يقول أهل المنطق.

وبعد أن تجدد الأزهر فى ثوب آخر، فأصبحت له كليات، من بينها كلية خاصة بالشريعة وأصبح على القضاة أن يتخصصوا بعد العالمية عدداً من السنين، ظل هذا الفارق الزمنى عنده غير ذى اعتبار ... أنه قاض ... قاض...قاض، بالثلاثة، كالطلاق!

على أن أثر هذا الاعتقاد في سلوك الشيخ، أدى به أولا إلى شعور بالظلم الشديد، ثم إذا هو يحتقر كل قاض يراه، ويسخر منه ومن أحكامه، ويعتبره دون مستواه.

ولكى يعوض ما فقده من حقوق، بدأ يقيم من نفسه مكتباً للإفتاء فى شئون الشرع وأحكام الدين والأحوال الشخصية وقضايا الطلاق والزواج والنفقة والميراث،وخصص لذلك حجرة منفصلة فى مسكنه.

وكان أول الأمر يفعل ذلك لمجرد إقناع نفسه، وإقناع الناس بأنه ليس دون القضاة، ثم تطور به الأمر فأصبح يتقاضى عن إفتائه أجراً يقول إنه أجر رمزى بسيط، خدمة للناس، وتسهيلا لمصالحهم.

وأسعفه المنطق، فأخذ يردد أنه يوفر على الناس نصف جهدهم بهذه الفتاوى، كما يوفر للمحكمة وللدولة، ما تضيعه من وقت ومن جهد فى تصحيح أخطاء المتقاضين.

ثم ارتبطت صفته هذه الاستشارية، بخدماته للمتقاضين فى المحكمة، فلزبائنه كل التسهيلات فى المحكمة، وسواهم يضربون رؤوسهم فى الصخر... يصبرون ولا يتململون ! يحضرون يوماً ويومين وثلاثة، لاستخراج ورقة من الأوراق التى تصدرها هذه المحاكم، أو صورة لحكم، أو شهادة لا يمكن لأصحاب الحاجات بدونها، أن يحصلوا على هذه الحاجات.

وزاد هذا الارتباط قوة، عندما أصبح "الشيخ سيد" هو حضرة الباشكاتب. وبرغم تنقلاته بين المحاكم، فإن صيته كان يسبقه لدى المتقاضين، ورضاؤهم عليه، كان يمهد له السبيل إلى كثير جداً من الكسب وقليل جداً من الجهد.

حتى لقد وصل به الأمر أن أصبح يربح بهذا الأسلوب الجديد، أضعاف مرتب أكبر قضاة الشرع.

بل لقد أصبح أقوى لدى مفتشى المحاكم، من هيئة المحكمة مجتمعة، فهو قادر على توجيه الدعوات، وهو قادر على ذبح الخراف أو الدجاج الرومى.

وهو قادر بعد هذا على توفير مكان للمبيت فى بلد ناء محدود، وهو قادر أخيراً على تزويد الزائر الكريم بهدايا قيمة من طيبات الله.

وتحققت "للشيخ سيد" قوة عاتية لا يستطيع أحد أن يدفعها، وتحققت له سيطرة على أنصار أشداء فى الديوان العام، فأصبح يختار المكان الذى يريد، ولا تتم حركة تنقلات قبل أن يبدى هو رغبته فى المكان الذى يريد.

ولانت له المحكمة التى يعمل فيها، بعد أن تردد أنه اختلف مرة مع قاض، فنقله إلى أسيوط، واختلف مرة أخرى مع قاض آخر، فصدر أمر بتحويله إلى مجلس تأديب!

وأصبحت تنقلاته كلها فى دائرة قطرها عشرة كيلومترات من بلدته، أو خمسة عشر كيلومتراً على أكثر تقدير.

مرة فى كفر الزيات، ومرة فى إيتاى البارود، ومرة فى كوم حمادة، وعلى أبعد الفروض فى طنطا أو دمنهور.. ليركب على الأكثر نصف ساعة بالقطار، ليصبح فى بلدته، لاعماله الأخرى وهى كثيرة.

و"الشيخ سيد" برغم هذه المكاسب، يعيش عيشة بسيطة جداً، فهو يسكن فى منزل متواضع إيجاره لا يتجاوز جنيهاً واحدا بأى حال.

ولا يشترى من المدينة إلا أقل القليل، أما بقية حاجاتة من الطعام فإنه يحضرها معه من قريته، وليس له خادم. وماذا يفعل فراش المحكمة؟ لماذا لا يخدمه؟ أليس هو باشكاتب المحكمة؟ فضلا عن أن وجود الفراش إلى جواره فى المنزل يعطيه الفرصة ليتعرف على زبائنه الخصوصيين، فيعرف كيف يفضلهم فى معاملاته لهم، عندما يحضرون إلى المحكمة لإنهاء أعمالهم وقضاء مصالحهم.

و"الشيخ سيد" لا يرى ضرورة لأن يحضر أهل بيته معه حيث يعمل، وهو يذهب إلى القرية، حيث يراهم مرة فى الأسبوع على الأقل، فإن تكن هناك ضرورة، فهو يستطيع أن يذهب كل يوم إذا أراد، ولن يكلفه هذا أكثر من بضعة قروش.

وهو عادة يذهب إلى القرية ظهر الخميس من كل أسبوع، ليقضى فى القرية حتى صباح السبت، فيعود من القرية مزوداً بالزوادة التى اعتاد أن يحملها معه أيام الدراسة فى الأزهر، فيجد فراش المحكمة فى انتظاره على المحطة يحمل عنه هذه الأثقال ويذهب بها إلى مسكنه، أما هو فيقصد على التوالى المحكمة، ليجد زبائنه يملأون مكتبه فى شوق إليه وإلى خدماته الجليلة.

هكذا كانت حياة "الشيخ سيد" وهكذا كان يتوفر لديه كل شهر أضعاف ما يتقاضى من مرتب، فيعطيه لأخيه الحاج غضبان ليستثمره له فيما يعطى من سلف بالفايظ، وفى المشاركة على البهائم، وفى رهن أرض المحتاج، وفى التجارة فى محصولات القرية.

ومثل هذا النوع من الاستثمار، كان فى القرية كشريان الحياة.

كالساقية التى تروى الزرع. كالجرن الذى يهيئ الحصاد. كمياه النهر إذا جفت فعلى الأرض السلام.

إن حاجة الفلاحين لتشتد إلى هذا النوع من الاستثمار، فيسعون إليه فى رجاء وإلحاح، ويحصلون عليه أيّا كان الثمن.

والذين يقومون بهذا الاستثمار يدركون بلا ذكاء، هذه الحاجة، فيعطون بسخاء حتى يسيطرون أخيراً على حياة الفلاح، كما يفعل تجار المخدرات.

وتدور أموالهم دورات سريعة على مدار العام، ككرة الروليت فى ناد للقمار، بفرق واحد بين دوراتها ودورات كرة الروليت، أن الكسب فى الأولى مضمون.

بل الكسب فى دورات رأس المال فى محيط القرية، وأمام حاجات أهلها، قد يصل على مدى العام إلى أضعاف رأس المال، بلا جهد، ويكفى فى هذا أن يكون صاحب رأس المال، على شئ من النفوذ والوجاهة، بحيث يخافه الفلاحون، ويخشون - إن هم أخلوا بالتزاماتهم نحوه - أن يهبط بهم إلى الحضيض، ويكشف عوراتهم عندما تشتد الحاجة إلى المال، إنقاذاً لأنفسهم أو لأولادهم أو لمحصولاتهم.

وتمضى السنوات فيشتهر أمر الحاج غضبان حتى تتجاوز شهرته حدود القرية إلى قرى المركز جميعاً، فتصبح أعماله أقرب إلى أعمال بنك التسليف، أو بنك للرهونات، وتكاد تجارة المحاصيل أن تصبح مقصورة عليه، حكراً بين يديه.



على أن للشريكين الأخوين ثالثاً هو "ممتاز أفندى".

أفندى نال شهادة الكفاءة ! ... وهى شهادة لم يحصل عليها أحد قبله فى كل هذه الناحية !.

والبلد كلها تذكر يوم جاءت الصحف من كفر الزيات تحمل رقم جلوسه فى امتحان الكفاءة. انطلقت الزغاريد، وارتفعت صيحات الرجال وأقيمت الأفراح، وذبحت الذبائح، وأقبل الأهل والأقارب والأصهار، من جميع البلاد، يباركون للأسرة بنجاح "ممتاز أفندى" فى شهادة الكفاءة.

وتنتهى الاحتفالات لتشغل القرية نفسها بمستقبل ممتاز أفندى.

هل يكمل دراساته، لينال البكالوريا؟ أم يكفى هذا القدر من التعليم، ويلتحق ممتاز أفندى بعمل فى دواوين الحكومة؟

والتحق "ممتاز أفندى" بوظيفة محضر، فى إحدى المحاكم.

محضر !!

وعندها، عند هذه الكلمة الرنانة، كانت أسنان القرية تصطك ! وفرائسها ترتعد ! فإنها لا تعرف من المحضر إلا أنه أفندى يركب ركوبة مطهمة، وخلفه عدد من العساكر، وبيده مظروف أصفر كبير، به أوراق رهيبة مخيفة مرعبة...

يوقع الحجز على المدينين، وينفذ أحكام القضاء، وله مطلق الحرية فى حصر الممتلكات، وتعيين الحراس عليها، وتحديد مواعيد البيع فى مزادات علنية.

ممتاز أفندى صار هذا المحضر.

صار قوة رهيبة لا حدود لها، يفعل ما يشاء، كما يشاء، ومعه رجال أشداء ينفذون أوامره بلا إبطاء.

"ممتاز أفندى" أصبح أقوى شخصية فى القرية، وهو بعد شاب لم يتجاوز العشرين عاماً من عمره!

وسلك "ممتاز أفندى" سلوك أخيه "الشيخ سيد" على فرق ما بين طبيعة العملين، على أنه على أى حال عرف كيف يقدم بعض الخدمات، لستر العورات، ومطاولة المدينين، حتى يفرجها لهم الله.

ولم يكن "ممتاز أفندى" رجلا متزمتاً، ولا متعنتاً، ولكنه لا يرفض هدية تسعى إليه طالما لا يسعى هو إليها!

وبهذا كانت حياته فى المدينة التى يعمل بها، تكاد تكون بالمجان، ومرتبه كله يعرف طريقه إلى القرية، ليضم إلى رأس المال الذى يتاجر فيه الحاج غضبان ويقدمه سلفاً بالفايظ ويشارك به على الدواب، فيوفر بذلك لكل فلاح دابة هو فى أشد الحاجة إليها.

إنه يدفع ثمن الدابة، ويتركها لدى الفلاح يطعمها ويأويها ويرعاها ويأخذ لبنها أو جهدها فإذا ولدت فالنتاج له، يبيعه إذا شاء، أو يربيه على نفس الأسلوب إذا أراد.

ممتاز أفندى يردد بين الناس مع زملائه المحضرين مثلا، ومع الأعيان من أبناء قريته، أنه بهذا يمكن الفلاح من الحصول على حاجاته.

خدمة أو صدقة يؤديها احتساباً لوجه الله !..

و"ممتاز أفندى" على عكس "الشيخ سيد"، يعيش وأولاده فى المدينة، لأنه لا يستطيع أن يكون دائماً على قرابة نصف ساعة من قريته، ليسهل عليه السفر إليها مرة كل أسبوع.

على أنه ينال إجازته السنوية، شهراً فى العام، يمده بطرق شتى، إجازات عارضة أو مرضية، حتى يطيل بقاءه فى القرية طول موسم جنى القطن على الأقل، ليكون على مقربة من المدينين، فى موسم سداد الدين.

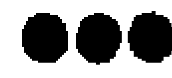
فما إن تنتهى إجازته، حتى يعود ملئ الجيب، ملئ القلب بما ربحه من أموال يودعها لدى أخويه، حتى إذا ما لاحت فرصة لشراء بضعة قراريط اشتروها لحسابه.

إنهم جميعاً يقفون للناس بالمرصاد، يتصيدون حاجاتهم وأعذارهم.

على أنهم لا يسعون إلى أحد، حتى لا يتسرب إلى أحد ظن بأنهم ذوو أطماع أو أنهم حريصون على الأرض يحوزونها، فيرتفع بذلك ثمنها.

بل ينتظرون، يرقبون الضحايا، كالثعابين، فإذا تقطعت أنفاسهم، من الديون وفوائد الديون، وأدركوا أنهم هالكون لا محالة، ما لم يبيعوا أرضاً ورثوها جيلا بعد جيل، تحركوا هم يلبون حاجة المحتاج، وينقذون الموقف قبل أن يتدهور.

وبرغم ما لديهم دائماً من مال، فإنهم يدارون ذلك عن الناس، فلا يطمع فيهم الناس فيتهاونون فى سداد ما لهم عندهم من ديون.



هذا الجمع اجتمع فى بيت "الحاج سلطان"، وهؤلاء الأقطاب الأربعة اجتمعوا فى الدار ومعهم زوجاتهم وأولادهم وأصهارهم وأتباعهم، وقد تفرقوا فى قاعات الدار وفنائها، وحجراتها، كما هى عادتهم كلما حل موسم الإجازات وحلت معه مواسم الحصاد.

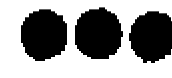
ويأكل الرجال حيث اعتادوا أن يأكلوا فى الدوار.

فما إن يفرغوا من الأكل ويغسلوا أيديهم من بقاياه، حتى تدار عليهم أقداح القهوة تارة، والشاى تارة أخرى تقطع ما يكونون فيه من حديث.

وفى فناء الدار يأكل النساء، فإذا ما فرغن من طعامهن، وغسلن أيديهن، تفرقن إلى جماعات، أمام حجراتهن، وحولهن أطفالهن، وتبدأ أحاديث ومسامرات لا تخلو من شكاة، وعتاب، وملام، وعبث فى بعض الأحيان.

فإذا نام الأطفال، بدأت حماستهن للسهر، تفتر رويداً رويداً، وتسللت من جمعهن هؤلاء اللاتى لا ينتظرن مبيت الأزواج لديهن، أما اللائى يتصادف أن يكون الأزواج من

أنصبتهن فى ليلتهن هذه فإنهن يسهرن حتى يعود إليهن أزواجهن، على أنهن يوالين تلبية حاجات الرجال، من أقداح القهوة وأكواب الشاى، حتى تنتهى السهرة، وقد يبلغ بهن الضجر مبلغه، والسأم غايته، ولكنهن مع هذا ينتظرن فى صبر وحلم وأناة، فإنه نصيب لا يتكرر كل ليلة على أى حال.



وفى طرف الفناء، بين الدوار وحجرات البيت، كانت هنالك كومتان، ظهرتا أول الليل والقمر اليافع يشع بنوره على المكان، ثم كادتا تختفيان بلا حراك فى طيات الظلام البهيم.

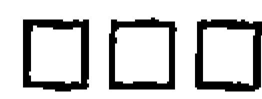
كومة منها سوداء حالكة، حتى لتكاد تصبح والليل سواء.

والكومة الثانية تكاد فى لونها أن تصبح لون التراب الذى تكومت فوقه، وكلتاهما لم تتحركا طوال المساء إلا مرة، عندما أذن لهما بطعام، ابتلعتاه فى صمت وسكون، ثم عادتا تتكومان أو تتكوران بلا حركة أو ضوضاء.

شئ واحد كان يميزهما عن الموتى أو النيام.

عيون تبرق وتدور فى جنبات المكان، فى تأملات.

أما الأولى فكلب لازم البيت منذ ولد وعاصر كل أحداثه، وحركاته وتطوراته وأما الثانية، "فأبو المكارم".



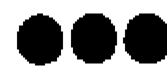
٢

شئ كتيار الكهرباء...

لا تحدده بمادة. لا تراه. لا تسمعه. لا تلمسه. ومع ذلك، فأنت تحيا فى آثاره، بل ربما تحيا بآثاره، بالنظر والسمع واللمس جميعاً.

وعندما يدخل تيار الكهرباء مكاناً، فإنه يصبح قوة هائلة، حتى لو اختفت آثاره.

قد تتحطم لمبات النور فلا تضئ، وقد يفسد المذياع فلا ينطق، وقد تتحطم توصيلات الكهرباء، فلا تصبح صالحة لوصل التيار بالحياة ومع ذلك، فالتيار حيث هو، قوة كامنة تنتظر أن يصلح الناس ما أفسدوه، لتعود هذه القوة تحمل لهم ما ألفوه من حركة، وما اعتادوه من راحة، وما أخذوا أنفسهم به من نظام.



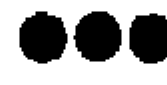
والمياه الجوفية فى طبقات الأرض.

قد تكون هذه الماء بئراً تقوم حوله حياة.

قد تكون عيناً تنبت حوله أشجار الزيتون.

قد تكون جدولا، قد تكون بحيرة، قد تكون ينبوعاً يلهب خيال الشعراء.... وقد تكون صحراء جرداء، تسدها الرمال، ويحيطها هجير، فيجعلها قطعة من نار. وقد تكون أرضاً مستوية لا تدل على ما تحتها من ماء.

ومع ذلك فالماء حيث هو، يتخلل طبقات الأرض، ينتظر أن تزاح عنه الأنقاض، لتزدهر حوله حياة الناس، وترتفع أشجار الزيتون، وتحيا فى ثناياه حيوانات الماء، وتشرب من سطحه حيوانات الأرض.



كذلك كانت الساقية.

وكذلك كان "أبو المكارم"

والساقية لدى أهل هذه القرية مفهوم، يشمل "أبو المكارم" سواء ذكر أو لم يذكر، فقد أصبح قطعة من الساقية، واقترنت به الساقية، فلم يعد من الجائز أن نتصور أحدهما بغير الآخر.

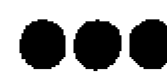
هما الساقية و"أبو المكارم" - من القرية، كالكهرباء أو كالماء

والكهرباء تخدم أغراض الإنسان، ولا يضيرها أنها قد تصعق.

والماء مصدر كل شئ حى، ولا يغير من طبيعتة أنه قد يغرق.

كذلك الساقية "وأبو المكارم"، شريان الحياة فى جسم هذه فى جسم هذه القرية، وكما يجرى الشريان بالدم النقى السليم، فقد يجرى بالجراثيم.

وشريان الحياة مع هذا يجرى، سواء أكان ما يحمله دماً نقياً طاهراً بريئاً، أم كان دماً ملوثاً مريضاً موبوءاً.



على أنه يحسن بنا، ألا ننسى - فى غمرة ما قد يجرنا إليه هذا التعليل والتشبيه من صور - أن نتعرف أولا على "أبو المكارم" وعلى هذه الساقية.

كان ذلك منذ سنين طويلة، لم تعد القرية تذكر عددها، ولكنها تستطيع على وجه التقريب أن تحدد عاماً من تلك الأعوام التى أعقبت إعلان الحرب العالمية الأولى، حتى سنوات الثورة المصرية.

إذ ذاك وجدوه، عقب ليلة من تلك الليالى الصاخبة، التى تنطلق فيها القرية بكل طاقاتها تحطم عبوسها وظلامها وجمود الحياة فيها، بكثير من الضحك، والضوء، والحركة السريعة المجنونة ... وتضيف إلى ذلك كثيراً من ألوان الطعام تبتلعه فى غير وعى، وكثيراً من ألوان الشراب تعبه فى غير نظام، لتعوض به حرماناً مختلف الصور تتعرض أغلب شهور العام.

ولا تكون هذه الليالى عادة، إلا فى أعقاب جنى المحصول، وقبض ثمنه، أو عربون ثمنه على أقل تقدير. حينئذ تتندى الأكف الجافة بعملة تدفعها إلى الحركة، ويتضوع فى الآمال الراكدة عبير من رجاء.

البطون التى كادت تنزف من فرط ما امتلأت من خبز جاف تفوح منه رائحة الحلبة، تعرف فى هذه المواسم مذاق اللحوم.

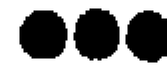
والأفواه التى كادت تنسد من فرط ماعبت من طمى النيل، تعرف فى هذه المواسم كيف تحتسى الشاى، والسكر المذاب فى الماء، وشراباً آخر أحمر اللون حلو الطعم، يحضرونه من كفر الزيات.

والأجسام التى كادت تتعرى من فرط ما مزقت أستارها أعواد الذرة، وشجيرات القطن، ودورات الطنبور، تعرف فى هذه المواسم طريقها إلى الدكان تشترى قماشاً جديداً تستبدله بجلدها القديم، كما تعرف طريقها إلى الخياط، لإعداد القماش جلاليب زرقاء، أو سوداء تحتمل التراب، والطين وطمى الماء.

والمدينون من أهل القرية، الذين أرقهم ما عليهم من دين، وعذبهم شعورهم بالعجز، وكادت تذل رقابهم مطالبات الدائنين، يجدون فى هذه المواسم، باباً من أبواب الأمل فى السداد، وبعض الرجاء فى المحافظة على ماء الوجه فلا يراق.

والأرامل، واليتامى، والمساكين، يجدون فى هذه المواسم باباً من أبواب الرحمة وفرجاً من عند الله، عندما يمدون أيديهم بالسؤال، فلا ترتد إليهم هذه المرة خالية أو خاوية،

وإنما تنال الصدقة، وتتلقى حسنة من حسنات الله، فيطوون عليها قلوبهم، إلى موسم آخر جديد.



وهؤلاء الذين عاشوا شهوراً طويلة، يتبادلون النظرات، وقد يسترقون اللحظات، فيتبادلون الكلمات، وهم على أى حال، قادرون على أن يطلقوا الزفرات والآهات.

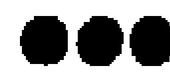
هؤلاء الذين أخفوا فى قلوبهم الهوى، وداروا فى هواجسهم الأمل، وباتوا الليالى مفتوحى الأجفان، أو مطبقيها، ولكنها أبداً تائهة فى خيالات أو أحلام.

العشاق من الفتيان والعذارى.

الملهوفون على موسم الحصاد، لعل فيه أملا بوصال.

المعذبون بجوى مكتوم، يكويهم بالنار.

هؤلاء ينتظرون مثل هذا الموسم، فى شوق مجنون، فقد يحمل مع ما يحمل من الخير وسيلتهم إلى "الشيخ مرزوق" قاضى القرية، وشيخ المسجد ليعقد عقود الزواج.



وغير هؤلاء جميعاً، أولئك الذين ينتظرون مواسم الحصاد للاتجار بالمحصول، وملء جيوبهم بالمال!

أو ينتظرون مواسم الحصاد، لمصادرة المحصول سداداً لدين، أو لإيجار، وبيعه وقتما يشاءون، لا يراعون الحاجة التى لا تستطيع الانتظار.

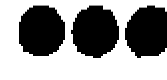
أو ينتظرون مواسم الحصاد، لإضافة جديد إلى ثرواتهم وأراضيهم.

على أن هؤلاء - وإن يكونوا أقل القليل - يملكون أقوى ما فى القرية من سلاح، ويشكلون فى القرية نوع الحياة التى تحياها.

معهم المال، والسلطة، والنفوذ.

ومعهم كذلك رقاب الفلاحين.

وكل من فى القرية له عندهم حاجة ... دين يستحق السداد، أو رهن،أو إيجار، أو محصول، أو شىء ما، أى شىء.



وفى هذا الموسم من مواسم الحصاد، كانت القرية تحتفل بمولد سيدى "أحمد الذكيرى".

ولى من أولياء الله، يروون عنه مختلف الروايات، ويذكرون له كرامات، تهتز لها القلوب فى خشوع.

وما من أحد فى القرية إلا له عند سيدى "أحمد الذكيرى" وديعة، يذكرها فى حب وأسى.

فإن من كراماته رضى الله عنه، أنه أقام من نفسه حارساً للراحلين من أبناء القرية وبناتها، فضريحه يتوسط قرافة القرية، ويحكى أن هذا الضريح، يرى ليلة الجمعة من كل أسبوع مضيئاً منيراً، دون أن تمتد إليه يد بهذا الضوء أو هذا النور.

ولكنها بركة الشيخ، وكرامة من كراماته.

والقرية لا تذكر على وجه التحديد، تاريخاً معروفاً لولى الله الكريم : متى ولد؟ ومتى انتقل إلى رحمة الله؟ ولكنها تعرف شيئاً واحداً، هو أن سيدى "أحمد الذكيرى" تراث من تراثها. بل قد يكون تراثها الروحى الوحيد، الذى تنطوى عليه قلوب أبنائها، فى كثير جدا من الإعزاز.

والضريح بسيط متواضع، فى بساطة الموت، وتواضع الرحيل، فهو لا يعدو حجرة صغيرة تحيط بقبر الشيخ، وتعلوها قبة متواضعة، كالعمامة على رأس عالم من علماء الدين الحنيف.

وقد طليت جدران الضريح بالجير الأبيض. وكثيرا ما تعدو عوادى الزمن على هذا البياض، فتفرق أجزاءه، حتى لتكاد تذهب بلونه الأبيض.

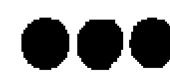
وكثيراً ما تمر مواسم حصاد متعاقبة، لا تمتد فيها يد إلى هذا الضريح بإصلاح أو ببياض، ولكنه مع هذا يبدو جليلاً مهيباً، يأخذ بمجامع النفوس، بتواضعه وبساطته، وقيامه أبداً بين الراحلين الأعزاء، حارساً يحمى حرماتهم، وشفيعاً لهم عند الله.

على أن الأمر لا يطول، فسرعان ما يعود اللون البيض إلى الضريح، وسرعان ما تطلى جدرانه بالجير، فيفرح الناس لذلك فرحاً شديداً، ويدعون لأهل الخير الذين لم ينسوا فى زحمة الحياة، حق الشيخ على القرية وأبنائها جميعاً.

وسواء طليت جدران الضريح أم لم تطل، فإن للشيخ فى ذمة أهل القرية كل عام مولداً يذكرون فيه الله، وتذبح فيه الذبائح، وتقام الولائم، وتضاء طرقات القرية بالمشاعل والفوانيس، وتفتح الدور لاستقبال الضيوف.

ويعد موكب حافل ينتهى بحلقة ذكر، تتلوها أناشيد دينية، يرتلها مداحون فى أصواتهم رقة، وفى نغماتهم حنين.

وبينما يعكف المسنون من القوم على العبادة والابتهال إلى الله أن يجعل العام كله خيراً وبركة، ينصرف شباب القرية إلى أنواع مختلفة من اللهو واللعب والمزاح.



وفى ليلة من تلك الليالى، فى عام من تلك الأعوام، بين إعلان الحرب الكبرى الأولى، وسنوات الثورة المصرية.

ليلة مولد سيدى "أحمد الذكيرى".. عقب موسم من مواسم القطن.

وبعد أن انتهت احتفالات القرية بالمولد أو كادت أن تنتهى.

فى وقت السحر، والفجر يؤذن بطلوع.

... وجدوه، متكوماً كما اعتاد بعد ذلك أن يفعل.

بعيداً عن الضجة وعن الضجيج، كما جرت عادته بعد ذلك أبداً.

كانت قد أخذته سنة من النوم، لا يدرى أطالت أم قصرت، حتى وجد نفسه أخيراً بين جمع من الناس يتأملون وجهه ويحدثونه، ويسألونه، فلا يعرف كيف يجيب.

كان صغيراً ، ولكنه كان أخرس، لا ينطق بحرف، ولا يعرف كيف ينطق الناس.

وأخفق الجمع فى أن يعرف من يكون : ابن من؟ من أين جاء هذا الغريب الوحيد الوافد عليهم ليلة المولد هذه؟

ولكن وجهه مع ذلك كان صبوحاً ضحوكاً، تبدو عليه أمارات غامضة لا يعرفون أذكاء هى أم غباء.

وهز الرجال رءوسهم وضربت النساء على صدورهن، وحاروا فى أمر هذا الصغير الأخرس ولم يهتد أحد إلى الوقوف على سره، ولا على أهله.

وبينما هم كذلك، ارتفع صوت "الشيخ مرزوق" لصلاة الفجر، فوضع هذا الأذان نهاية للموضوع، فقد اعتبره الجميع هدية "سيدى أحمد الذكيرى" إليهم ليلة مولده.

ولقد تبينوا أنه أخرس لا يتكلم، وأنه يستعيض عن الكلام بالابتسام.

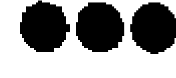
فزاد هذا من إيمانهم بأنه فعلا هدية وليهم إليهم، وأنه سيكون بركة وخيراً على من يأخذه ويؤويه، كما سيكون خيراً وبركة على القرية كلها، وعلى أهلها كلهم.

وسرت فى صدور الناس هواجس باهتة عن البركة والخير، فتقدم "الحاج سلطان" يأخذ الصغير الغريب، حتى يظهر له أهل، ولقد أراد بهذا أن يحتكر مظنة البركة لنفسه. حينئذ أفسح أهل القرية الطريق "للحاج سلطان" ولم يستطع واحد منهم أن يجادله فيما قال.

ومن يومها وهو يحيا فى كنف "الحاج سلطان" لا يعرف له غير الساقية مكاناً وأطلقوا عليه "أبو المكارم"، أملا فى أن يجلب لهم اسمه ما ينتظرون من الخير وبات الصغير

الغريب الأخرس، قطعة من ممتلكات "الحاج سلطان".

كالجرن، والساقية، والحديقة التى يحرسها "أبو عوف".



ومع دورات الساقية، كان "أبو المكارم" ينمو، كما تنمو عيدان الذرة وشجيرات القطن وأشجار الفاكهة.

وأخذ وجهه يزداد سماحة، وضحكته تزداد غموضاً.

ولكن لسانه ظل كما هو، لا ينطق، ولا يعبر.

وكان "الحاج سلطان" سعيداً بالفتى الأخرس إلى أبعد حدود السعادة، فهو يرى، وقد يسمع، ولكنه لا يتكلم، وكان هذا كفيلا بأن يستمر كل ما يريد "الحاج سلطان" أن يخفيه، سراً مكتوماً، لا يذيعه لسان الأخرس.

على أن أهل القرية أحبوا "أبو المكارم" حباً شديداً، وأحاطوه، بكثير من العطف والرعاية، فودوا لو أنهم استطاعوا أن يفكوا عقدة لسانه.

حاولوا ذلك بطرقهم الساذجة المختلفة، فما استطاعوا.

حدثوه، فما كان ليرد على أحاديثهم، إلا بالاشارات أحياناً، والضحكات دائماً.

ومرنوه على الكلام، فما أجدت تمريناتهم شيئاً.

ووضعوا تحت إبطة الأحجبة وبعض الدعوات والابتهالات، ولكنه مع ذلك ظل أخرس لا ينطق.

وكان "الحاج سلطان" يهدىء هذه العاطفة المشبوبة فى الناس بقوله : "إنه لا ينطق عن الهوى... اتركوه، فمن النطق ما هو كفر بالله وبرسله".

ولكن أهل القرية، أجمعوا على أنه يحسن "بالحاج سلطان" أن يبحث له عن علاج، صدقة وإحساناً وقربى إلى الله وزلفى.

وذبح له "الحاج سلطان" غراباً أسود، وكلف أهل بيته بطبخه له وتقديمه إليه، فأكله "أبو المكارم" فى شهية وإقبال، ثم ظل لسانه مع هذا معقوداً لا يتحرك بكلام.

وتهامس أهل القرية، بأن "الحاج سلطان" زور فى الغراب، وإلا لنطق "أبو المكارم. ألم ينطق هذا الطفل أو ذاك بعد أن أكل غراباً؟

لابد أنه اصطاد الغراب، ثم طبخ له حمامة أو دجاجة، وبهذا استجاب لرغبة أهل القرية، واحتفظ بلسان الفتى معقوداً لا ينطق.

وسرت بين الفلاحين موجة من الغضب على "الحاج سلطان" الذى لا يرعى الله فى الفتى الأخرس، ولا يؤدى حق الله فيه، وهو أمانته لديه.

وأحس "الحاج سلطان" هذا فثارت نفسه، أول الأمر، ثم إذا غضبة الناس تحمله حملا، على أن يفكر فى الأمر، بصورة أخرى.

والقرية الخاوية الخالية، تبحث عن موضوعات كهذه لتصرف فيها طاقتها، وتضيع فيها وقتها الطويل الثقيل، فما إن تجد موضوعاً كهذا، حتى تلح فى الحديث عنه طويلا، وتديره فيما بينها وبين نفسها مرة، ومرة ومرات.

وتظل القرية فى أحاديثها هذه، حتى يصرفها عنه حديث آخر.

وفيم تصرف القرية جهدها العقلى والنفسى، إذا لم تصرفه فى مثل هذه الأمور والأحاديث، والروايات؟

والأقوياء من أهل القرية، مهما تبلغ بهم القوة، يلينون أمام حديث كهذا يتردد فى إصرار، مقروناً بالاستنكار فى أغلب الأحيان.

وكان لابد "للحاج سلطان" من أن يجد لنفسه مهرباً من كلام الناس، أو أن يضع حداً لهذا الكلام.

وقالوا له إن هناك أعرابيا، يقطن وأهله فى خيمة على مسيرة نهار من حدود القرية، له وسائله فى علاج الأمراض المستعصية، لا يقدر عليها إلا هو.

وهو لا يقوم بعلاج هذه الحالات، رغبة فى كسب أو طمعاً فى مال، لكنه يقوم به حسبة لوجه الله سبحانه وتعالى، وتخفيفاً عن المرضى، ما يعانونه من آلام.

ويحكون عنه أنه تناول شيخاً أهلكه المرض، واستبد به داء قديم، فأعد له شراباً أصفر أخذ يشرب منه كل صباح، على الريق، حتى شفى، وكان قد ذهب إلى أطباء كفر الزيات، فلم يجده ذلك شيئاً، إلا أنه رهن نصف الفدان الذى ورثه عن أبيه.

أما هذا الشراب الأصفر، فشىء يعرفه الأعرابى وحده و يحتفظ بسره فى قلبه، ولا يقف عليه أحد.

ومرة أخرى كان ابن فلان قد أذبله داء يقال عنه الروماتيزم، فلما تسلمه الأعرابى، عالج داءه بلسعات النحل، فذهب الروماتيزم إلى غير عودة.

ومرة ثالثة ذهبت إليه امرأة معصوبة العينين لا ترى، ولا تستطيع أن تحتمل آلام عينيها المعصوبتين، وقد كان سحراً أنها فتحت عينيها بعد أسبوع واحد، من زيارتها له، فقد أعطاها نوعاً من القطرة، أخذت تقطرها فى عينيها حتى شفيت، وعاد إليها نور عينيها، فلم تشك بعد ذلك من شىء.

وكيف يعالج بعض الناس بكى النار.

وآخرين بدفن بعض أجزاء أجسامهم فى بطن الأرض.

وآخرين بحناء يخضبون بها أجزاء أصابها داء.

لابد أن لديه علاجاً "لأبو المكارم" فإنه لا يعجز عن شىء.

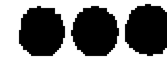
ونوى "الحاج سلطان" أن يرسل "أبو المكارم" إلى هذا الأعرابى، وأمره إلى الله.

عندئذ يقف كلام القرية، ويتحول عنه هذا الهمس، وقد سرى بين أهل القرية كالتيار.

وكلف "الحاج سلطان" أحد أتباعه بأن يصحب الفتى الأخرس إلى هذا الأعرابى، فما إن ذاع الخبر بين أهل القرية، حتى أخذت تستعد لتهيئة الفتى الأخرس لرحلته إلى شفاء عاجل إن شاء الله.

بعض الرجال تطوعوا لمصاحبته فى رحلة الشفاء هذه.

وبعض النسوة أعددن له أصنافاً من الطعام شهية.



واحدة فقط من بنات القرية تسللت بعد المغرب إلى الساقية، حيث كان "أبو المكارم" يرى كل شيء، ويسمع كل شيء، ويشعر بشيء من الخوف لما قد يحدث له عند الأعرابى، فيتكوم فى ركن قصى تحت فروع الشجر، حتى ليكاد يختفى عن الأنظار، لا يفرقه من الجماد إلا عينان تتحركان فى قلق وسذاجة.

"تفيدة" الصبية الحلوة الجميلة، كانت هى هذه البنت التى تسللت إلى الساقية بعد المغرب، والسماء لا تزال فى حمرة الورد، والطبيعة فى حنان الأم..

ورائحة الزرع تفوح، وأصوات الطيور تتردد، وحفيف الشجر ... كل ذلك يتسق فى شيء يشبه النجوى.

وكانت "تفيدة"، تسرع الخطو، وقد قبضت يمينها على شيء كتمته كالسر.

وهناك عند الساقية وجدته، قابعاً فى ركن قصى مكوماً بين فروع شجرة صفصاف، يحتمى بالطبيعة من خوفه، فليس له من يحميه إلا هذه الطبيعة السمحة، وهذا الشجر العطوف.

ورآها آتيه من بعيد، فأشرقت عيناه بومض فيه سعادة، وفيه رضى، وفيه كذلك شعور بالأمن والاطمئنان.

على أنه لم يتحرك من مكانه، كأنما خاف أن ترك هذه الأغصان الحانية، أن يتخطفه الناس، وهو أخرس، لا يملك وسيلة التعبير التى يملكها سائر الناس.

وأقبلت تفيدة عليه، وفى عينيها نفس الومض الرائع الجليل.

لم تقل شيئاً، إلا أنها مدت يمينها إليه، فمد يمينه إليها، فانتقل السر المكتوم منها إليه.

... فردة الشراب الأحمر، التى كانت قد وجدتها فى طريق محطة السكة الحديد.

فردة الشراب الأحمر، ذات الثقوب.

فردة الشراب الأحمر، التى أحست يوم وجدتها ملقاة فى الطريق، أن رزقها دائما فى رجليها!

فردة الشراب الأحمر، ولطالما عالجت بها حفى قدميها، فأخذت تضعها مرة فى قدمها اليمنى، ومرة فى قدمها اليسرى، ولطالما تبادلتها مع أختها "مفيدة" وقد استغرقتهما فرحة ضاحكة سعيدة لعوب.

فردة الشراب الأحمر، التى حافظت عليها مدة لا تعرف لها طولا، وباهت بها كثيرات من زميلات طفولتها، حول الخص، وفى أطراف حديقة "الحاج سلطان" وكثيراً ما ضحكت منها أمها وهى تعالج بها قدميها، وكثيراً ما ضحك منها أبوها وهى تعبث بها وتلعب، ثم تضعها فى مكان آمن خفى، لتعود إليها بعد حين.



إنها تتذكر كيف فرح "أبو المكارم" بهذه الفردة الحمراء، حينما رآها أول مرة، فرحاً شديداً، وضحك كما لم يضحك أبداً، وتصايح بصوت ملىء بالبهجة والسرور، وإن لم يستطع أن يقول شيئاً.

ولقد أمسك بها، وأخذ يقلبها ذات اليمين وذات اليسار، ووضعها فى قدمه كما تضعها "تفيدة"، وأخذ يدور على قدمه تلك، وفردة الشراب تزينها، وقد استبدت به بهجة فائقة.

ومن يومها، وهو دائماً يشير إلى "تفيدة" كلما رآها، إشارات تفهم منها أنه يريد فردة الشراب ليلعب بها قليلا.

ومن يومها "وتفيدة" تحس أن عليها أن تمنحه بعض السعادة، فتعطيه فردة الشراب الحمراء، وقد تحشوها فى بعض الأحيان، بخرق قديمة بالية لتجعل منها كرة تتقاذفها معه، فتزداد فرحة الفتى، وتكاد ضحكاته الصبوح تبتلع وجهه جميعاً.

وذات يوم، كانت تلاعب أختها "مفيدة" وكان من بين ما تلعبان به فردة الشراب، وأقبل عليهما "أبو المكارم" فى ضحكاته الحلوة، وصيحاته الصاخبة وأراد أن يشاركهما لعبهما، وأخذتا تلعبان معه، ولكنه أخذ يتصايح ويشير ففهمتا منه أنه يريد فردة الشراب، وأرادت "تفيدة" أن تداعبه، وأن تغيظه كذلك، فأبت أن تعطيه ما يريد.

ويومها عبس كما لم تره من قبل وصمت صمتاً حزيناً ساهماً، ثم لوى وجهه وانصرف فى صمت إلى الساقية.

وأحست "تفيدة" أنها جرحته جرحاً عميقاً، وأنها سببت له آلاماً لا يعرف كيف يعبر عنها بكلام، فخفق قلبها خفقاً شديداً، وكادت لولا حياؤها من أختها "مفيدة" أن تعدو خلفه تصالحه.

ولقد شاركتها أختها "مفيدة" الأسف من أجله، ولكنه كان قد مضى بعيداً فى طريقه.



على أنها والقرية كلها تتحدث عن رحلة شفائه غداً، أخذت تستعيد عنه هذه الذكريات، وتشفق عليه أشد الإشفاق، وترحم ما هو مقدم عليه غداً.

إنهم يروون عن الأعرابى كلاماً كثيراً.

يقولون إن فى قلبه غلظة، وفيه كذلك جفاء.

وهو لا يرحم أحداً.

وإلا فكيف يكوى المريض بالنار، أو يدفن الحى فى الطين، أو يسقى الناس مشروباً فى مرارة العلقم؟

"وتفيدة" تتخيل "أبو المكارم" يكتوى بالنار، أو يحرقه الأعرابى بسيخ من الحديد الملتهب، أو يدفنه فى الطين أياماً.

وحينئذ تكاد تدمع من فرط ما يتمزق قلبها لمنظره البائس، وهو لا يعرف كيف يشكو كما يشكو الناس، وكل ما يعرفه هو أن يصرخ أو أن يصيح، فتخرج صيحاته وصراخه كالعويل أو كالنحيب، يفتت القلوب.

وعندما ذكرت "تفيدة" أنه قد كان "لأبو المكارم" ذات يوم لهفة إلى فردة الشراب الحمراء، وأنها منعتها عنه، فارتد كسير القلب مهيض الجناح.

عندما ذكرت هذا زاد إشفاقها عليه، وحبها فيه، ورغبتها فى أن تقدم له شيئاً ما يعوضه عما سببته له من آلام.

فكرت فى أن تدخل حديقة "الحاج سلطان" وتخطف له إحدى فواكهها، ولكنها ترددت عندما استعادت ما اعتادت أن تسمعه من أبيها عن الحديقة، وأنها أمانة الله لديه، هو مسئول عن كل شىء فيها يوم القيامة.

ولم تكن "تفيدة" تريد بطبيعة الحال أن يدخل أبوها النار، أو أن يقف أمام الله موقفاً صعباً يوم القيامة.

عندئذ أخذت تفكر فى شىء آخر تعطيه "لأبو المكارم".

وفجأة تذكرت فردة الشراب الأحمر.

وعجبت فى نفسها، كيف لم تفكر أول ما فكرت فى هذا.

ودخلت الخص، وقبضت على فردة الشراب الأحمر بيمينها، وذهبت تسرع الخطو إلى "أبوالمكارم" لتدسها له فى يمينه، ثم تعود.

وفعلت، فلما أدت ما عليها من واجب، ودست فردة الشراب فى يد "أبو المكارم" شعرت أنه قد انزاح عن قلبها عبء ثقيل.

وهمت بالانصراف لتعود من حيث أتت، ولكنها شعرت بأن نظرات دافئة حنوناً مفعمة نداء ورجاء، تتجه نحوها. "أبو المكارم" لا شك يريد استبقاءها.

وقفت إلى جواره، وبينهما لحظ مشبوب، أفصح كثيراً من أى كلام، ثم امتدت إليها منه كف ترتعد، فامتدت إليه منها كف تلهث.

ويقبض "أبو المكارم" على كفها اللاهثة، بكفيه معاً، ويضغط عليها فى حنو وحنان.

ماذا كان يريد أن يقول لها؟ وماذا كانت تريد أن تقول له؟

أهو الشكر؟ أهو الحب؟ أهو العرفان بالجميل؟ أم إنه كل ذلك جميعاً؟

ولما أخذت "تفيدة" فى الانصراف، كانت قد مضت عليهما لحظات قصار صامتة، ولكنها أطول كثيراً من أعمار أخرى كثيرة تضيع، وأفصح كثيراً من كلام آخر كثير يذهب هباء.

ولم تستطع أن تمضى دون أن تتلفت إليه لفتات حرارة، وفيها كذلك مرارة.

سيذهبون به غداً إلى الأعرابى، وهى تخاف عليه من الأعرابى.

وهو وحيد، غريب، لا أم له ولا أب، وسيذهب وحده، مع رجال من القرية، سيشفقون عليه، وسيرأفون به، وسيعنون بأمره، ولكن ليس منهم أبوه، وليست بينهم أمه.

وقالت " تفيدة" فى نفسها، وهى تتلفت إليه بين كل خطوة وأخرى : له الله، معه الله، ودعواتى هذه، وسأصلى له غداً إذا ما كان الفجر.



ولم تنم " تفيدة" ولم ينم " أبوالمكارم".

ظلت هى ممدة فى الخص، فى المكان الذى اعتادت أن تتمدد فيه منذ ولدت، وظل هو مكوماً فى مكانه من أغصان شجرة الصفصاف، يبحلق فيما حوله من كائنات، قلقاً وجلا خائفاً، فإذا ما تحسس فردة الشراب الأحمر، أحس شيئاً من أمن وبعضاً من راحة.

شغله همه عن أن يلعب بفردة الشراب، كما اعتاد أن يلعب. لم يحاول أن يلبسها ولا أن يحشوها بشىء ما، لتصبح كرة يعدو وراءها مغتبطاً مسروراً. لقد كان يكفيه منها هذه المرة، أن يتحسسها. لم تصبح لعبة يلعب بها، بقدر ما صارت رسالة حانية تحمل إليه الدعوات، فى رحلة الغد.

ومضى الليل ثقيلا طويلا، عليها وعليه.

فلما ظهر الخيط الأبيض، إيذاناً بالفجر، أقبل عليه رجال من القرية يعرفهم بينهم واحد من طرف "الحاج سلطان"، ليصحبوه إلى هذا الأعرابى، الذى يكوى الناس بالنار ويدفن أجسامهم فى الطين، ويسقيهم شراباً كالعلقم.

وصحت هى، واصطنعت سبباً من الأسباب، وخرجت فتوضأت وصلت له، وهى تعلم مما سمعت، أنه الآن فى طريقه إلى الرحلة الغامضة.



ما هذا الانقباض " يا تفيدة"؟

هل يخبىء القدر له شيئاً لا تحبينه له، ولا ترضينه؟

هل يعود وقد انفكت عقدة لسانه؟ أم يعود من الرحلة بخفى حنين؟ أم لا يعود على الإطلاق؟

وهنا كانت "تفيدة" تغمض عينيها فى صلاة إلى الله أن يعود. وسواء انفكت من لسانه هذه العقدة أم لم تنفك، المهم هو أن يعود.

وبدأت الرحلة مع ضوء الفجر.

كانوا ثلاثة رجال أحدهم هو المكلف بأمره من طرف "الحاج سلطان" وهو، وثلاثة حمير، اثنان منهم ركب كل منهما حماراً، والثالث ركب الحمار الأخير وأمامه الفتى الأخرس، ووزعت مؤونة الرحلة، وهدايا نساء القرية للأخرس على الحمير الثلاثة، كل حسب قدرته على حمل المتاع.

وأخذ الرجال يتحدثون كلاماً كثيراً عن الأعرابى، وعن الأمراض المستعصية، وعن حكاية الغراب، الذى استبدل به "الحاج سلطان" نوعاً آخر من الطيور، حتى لا تنفك عقدة هذا الفتى المسكين.

والرجل الذى هو من طرف "الحاج سلطان" يدفع هذه الفرية عن سيده، ويؤكد ويقسم أن هذه الحكاية غير صحيحة، وأن الطير الذى أكله الغلام، غراب حقيقة.

والاثنان الآخـران، وهمـا من رجـال القـرية الذين أشفـقوا علـى الغـلام أن يذهب بلا عصبـة أو عصبية، يؤكدان أن الرواية صحيحـة، وأن الغلام لو أكل غراباً فعـلا، لنطق كما نطق هذا الغلام أو ذاك من غلمان القرية.

ويختلف الرجـلان مع الرجل الثـالث، وتكاد لهجتهم جميعـاً تغلظ بكلام شـديد، ولكن سرعان ما تهدأ الحال، أمام ما هم مقبلون عليه من رحلة.

على أن الرحلة ليست قصيرة ولا هينة، فإنها إلى مسيرة نهار، ولا يستطيع الرجال أن يظلوا صامتين طوال هذا الوقت، وهم على ظهور الحمير.

وتدور أحاديث شتى، حـول العـمدة، ودعوته الأخيـرة للمـأمور، ورجـال النـقطة، وكم ذبحت فـيـهـا من ذبائح، والطبـاخ الذى أتوا به من كـفـر الزيات، وأصنـاف اللحـوم والخضـروات التى حفلت بهـا المائدة، والحلوى والفـاكهة والشـربات... ثم فناجين القـهـوة وأكواب الشـاى، يشـربونهـا مع السـجائـر ذات العطر الجـميـل، والمنشـدين والمغنين الذين امتدوا بالسهرة حتى الفجر.

ويقسم الرجل الـذى هو من طرف " الحـاج سلطان" أن الرجـال المدعوين أتوا على كل خيـرات المائدة، وكل مـا صنعـتـه يد الطبـاخ، حتى إن أهـل الدار من الحـريم، والأطفـال تعشوا خبزاً جافاً، وكان غموسهم الجبن المملح القديم والمخللات.

والرجلان الآخران لا يعجبهم هذا، ولا يصدقونه.

والرجل الذى من طرف "الحـاج سلطان" يقـسم بأغلظ الأيمـان أن هذا هـو مـا حـدث. أليست "الست نبوية" أخت العمدة؟ أو ليس هو جزءاً من بيت "الحاج سلطان" يدخل على حريمه بلا استئذان، ويسمع أحاديثهن جميعاً؟

- ولماذا كل هذا؟

- العمدة رجل كريم، ومن بيت كرم.

- صحيح هذا، ولكن ما ذنب الحريم والأطفال؟

ـ وماذا تنتظرون، يجوع الضيوف، ليأكل حريم الدار؟

ـ لا لا.. بل يجوع الحريم والأطفال الصغار، ليأكل حضرة المأمور وحضرات المرافقين من رجال المركز والنقطة !.. واجب واجب!

ـ تعرفان؟.. هل يذكر احدكما أن محضراً كتب لأحد من أهل بلدنا، للرى أو دودة القطن أو الجهادية؟

ـ لا ... لكن لماذا؟

ـ لهذه الدعوات الكبيرة التى يعرف حضرة العمدة كيف يوجهها، ومتى؟ ولمن؟

ـ ومن أجل هذا يجمع من كل بيت شيئاً ... خروفاً صغيراً من هنا، ودجاجة من هنا، وصفيحة سمن من هنا، وشوال أرز من هنا... فهمنا فهمنا... إننا لم نكن نفهم من قبل.

ـ طبعاً ... وأيهما أفضل: هذه الأشياء البسيطة تقدمها بيوت القرية أم محاضر المخالفات، وجر الناس إلى النقطة ثم المركز ثم المحكمة؟

ـ هذا أفضل بطبيعة الحال.. وهل نقدر نحن على الحكومة؟

ـ أنا سمعت بأذنى حضرة العمدة، وهو يودع المأمور يقول له : كل واحد من أهل هذه البلدة أمانة فى عنقى، فطول عنقى يا حضرة المأمور.

ـ وماذا قال المأمور؟

ـ أشار على رقبته وهو يقول له : رقبتى يا حضرة العمدة. اعتمد على الله وعلى

ـ الحمد لله.

ـ طبعاً حضرة المأمور يعز عمدتنا كثيراً.

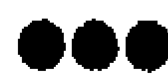
ـ كل الناس تعز عمدتنا.

ـ وحضرة العمدة لا يقصر أبداً فى حق حضرة المأمور.هل تعرفان؟ إن الذى شهدته الموائد ليلة الدعوة الأخيرة من طيبات الله لا يعد شيئاً بجوار ما امتلأت به السيارات

الثلاث التى أتت بحضرة المأمور ورفاقه، فقد امتلأت كلها أثناء الطعام بالهدايا ... هدايا من كل صنف. سمن، وجبن، وأرز، غير الطعام الشهى بأصنافه المختلفة.

وفغر الرجلان الآخران فاهيهما، وهما يتبادلان نظرة ذات معنى، وأحدهما يقول للآخر فى صوت لا يسمعه هذا الذى من طرف "الحاج سلطان" فقد كان الحمار الذى يركبه قد جمح به بعيداً عنهما:

- شئ يطعم بلدنا كلها.
- وربما فاض.
- وندفعه نحن المساكين، من قوت زوجاتنا وأولادنا.
- رحمة ونوراً على موتانا.
- اترك موتانا فى إغفاءاتهم الأبدية. لا تزعجهم بهذا الكلام.
- قلت رحمة ونوراً عليهم.
- هل تعد هذا صدقة يا رجل؟
- كالصدقة.
- الصدقة لا تعطى غصباً ولا اغتصاباً، ولا قهراً.
- يا رجل ألم تسمع الكلام؟ إنه يحول بيننا وبين الأذى بهذه الهدايا والدعوات.
- نعم يحول بيننا وبين الأذى، بالأذى.
- أحمد الله يا شيخ، واسمع قوله عز وجل : أطيعوا الله والرسول وأولى الأمر منكم.
- آمنا بالله. الحمد لله.



على أن الرجل الذى هو من طرف "الحاج سلطان" يقترب منهما بحماره، بعد أن عاد الحمار فاعتدل فى مسيره.

فلما اقترب منهما أخذ يضحك من قلبه، وهو يستأنف الحديث والرواية:

- كانت ليلة ... "الحاجة زهرة"، والست "نبوية"، "والست قمر".

كن منتظرات فى دار العمدة مع حريمه يتحدثن عن أصناف الطعام، وماذا فعله الطباخ وكيف طبخ هذا الصنف او ذاك. وكانت "الست قمر " هى صاحبة المجلس بطبيعة الحال، فإنها من البندر، والطباخ من البندر، وكانت ضرتاها تسكتان على مضض، فإنهما لا تقبلان أن تنفرد "الست قمر" بالحديث عن طعام البندر. كانت "الست نبوية" وهى أخت العمدة تسكت حيناً، وتقاطعها حيناً آخر أما "الحاجة زهرة " فكانت تقاطعها دائماً، ضاربة كفا بكف وهى تعجب لما تقوله "الست قمر"، منكرة لما ترويه من أحاديث، وسكتت أم العمدة على مضض ثم صاحت فيهن جميعاً فى مزاح قائلة : اصبرن، حتى نرى بأنفسنا ونذوق ... حينئذ يتضح لنا كل شىء. وما إن انتهت من هذا حتى وصلهن جميعاً أن كل شىء قد نفد، وأن المدعوين أتوا على كل شىء.

- طبعاً كانت صدمة لهن جميعاً.. مسكينات.

- نعم، وبدأت الضرائر الثلاثة يفكرن فى العودة، فأبت أم العمدة إلا أن تقوم إحدى نساء العمدة بإعداد طعام للسيدات. تذبح أوزتين، أو أربع دجاجات وتعد الطعام على الفور، وأقسمت السيدات ألا يتعب من أجلهن أحد. هل هن ضيفات؟ هل هن زائرات؟ لا والله. وكان العشاء خبزاً حافاً، وجبناً قديماً مملحاً وبعض المخللات.

- سبحان الله ... له الأمر، ومنه الأمر.

وسكت الرجال لحظة، ثم انطلق أحد الرجلين، يسأل الرجل الذى هو من طرف "الحاج سلطان".

وأنت ألم ينلك نصيب؟ ألم تذق طعام هذا الطباخ؟

- نعم!.. وهل تعرف أن أخاك تفوته هذه الفرص؟ إن الطباخ لم ينسنى.

أكرمنى ... الله يكرمه.

- وأنت تعرفه قبل هذا؟

- مرة أو مرتين فى دعوات سابقة، أما قبل هذا فلم أكن مكلفاً بأمره. كان شيخ الخفراء يعين خفيراً يعنى بأمره، ويسهل مطالبه، ولم أعط أنا هذه الفرصة إلا أخيراً. أسألوا الطباخ ماذا يقول عنى. إنه يطلبنى بالاسم كلما أحضره حضرة العمدة إلى بلدنا. لا يستغنى عنى أبداً. كل الذين يعملون عند العمدة أغبياء، لا يفهمون شيئاً لا يعرفون كيف يخدمون فى مثل هذه المناسبات. وبعضهم ذمته واسعة، يختصر لنفسه من ألوان الطعام اختصارات مفضوحة. أما أنا فأعرف كيف أريح الطباخ، وأوفر الراحة للمدعوين، وأراقب كل شىء بالذمة والأمانة.

- وماذا أعطاك الطباخ؟

- من كل شىء. أكلت لحماً مشوياً، ومقلياً، ومسلوقاً، أكلت بامية يطبخونها فى البندر صغيرة كقطع اللحم المفروم. والملوخية البورانى، والكشك بالدجاج. والقرع يسمونه عندهم كوسة. والأرز المخلوط والفطائر بأنواعها. والحلوى شىء منه أبيض باللبن، وشىء آخر أحمر يتموج فى الطبق كالراقصة. والفواكه يا أولاد. الكمثرى والموز... وأشياء لا أعرفها، ولكن مذاقها جميل.

وتبادل الرجلان نظرة كمن لا يفهمان، وكاد ريقهما أن يجرى، فابتلعاه حتى لا يسيل، ثم استأنف أحدهما الكلام :

- وأكلت كل هذا؟

- أنت عبيط. بل أرسلت إلى أهل بيتى منه أيضاً.

وتدارك الأمر فأدرك أنه أذاع سرًا خطيراً فقال :

- وحياة النبى لا تقولا هذا لأحد.

وبعد أن أكدا له أن هذا عيب، وأن سره فى بئر، لن يقف عليه أحد، انطلق يروى كيف أرسل بعض هذا الطعام سرًا لأهل بيته، لحرمه وأولاده، ونبه عليهم ألا يقولوا لأحد، وألا

يخطأ أحدهم أمام أحد. أما زوجته المسكينة الساذجة فكادت تخطىء أمام حريم العمدة بأن تعلق تعليقاً يفضحها، ولكن الله ستر. دخل هو فعالج الأمر، وكاد يقتلها بعدها. ومن يومها وهى تعرف كيف تكتم السر تماماً. أنتما أول من يعرف السر، فإذا علمه أحد، فسيكون أحدكما هو الذى أذاعه.

وعادت أحاديث الرجال فى مجراها.

- أما هذا الطباخ، فإنه رجل قادر على عمل أشياء غريبة جدًا.

- طبعاً أليس صديقك. من يشهد للعروس؟

- صديقى !.. نعم صديقى، ولكن لكل شىء ثمناً.

- ثمن !! أى ثمن؟

- يا مسكين..نعم كل شىء بثمن. الطباخ يطعمنى ويمكننى من إرسال بعض الطيبات لأهل بيتى. ولكن فى نظير أن أسهل له الحصول على بعض السمن، والأرز، والصابون، والدقيق ليرسله إلى بيته فى كفر الزيات.

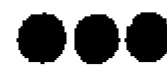
ووضع كل من الرجلين أصبعه فى فمه، فى شىء كثير من العجب والاستغراب، وقالا فى وقت واحد:

- ياه ... هكذا!؟

- نعم هكذا ... ماذا تظنان؟ العمدة يدعو المأمور ويقدم له الهدايا، والمأمور يعيد هذا للعمدة حماية له وتمكيناً لنفوذه، فيأخذ من القرية ما يشاء، ولا ترتفع أمامه رأس.

وأنا أسهل أمور الطباخ، والطباخ يلهينى بطعام لذيذ لا أذوقه ابداً إلا فى مثل هذه المناسبات.

وهكذا الدنيا أخذ وعطاء.



وسكت الرجال جميعاً لحظة، إلى أن ارتفع سؤال :

- كم تعطى الحكومة للمأمور؟

- جنيهات كثيرة. عشرين جنيهاً على أقل تقدير.

- ماذا ... عشرين !! كل شهر!

- نعم كل شهر.

- ياه...لماذا؟ ...هل يأكل نقوداً؟ لو أنه يأكل نقوداً ما استنفدها !

- يا مجنون هذا غير السكن والملابس، وهدايا العمد والأعيان.

وعاد الرجلان يتبادلان نظرات غامضة غبية.

ولكن الرجل الذى هو من طرف "الحاج سلطان" مضى يعلق على هذا الغباء.

- هذا مأمور، وسيصبح يوماً ما مديراً، ومن يدرى قد يصبح وزيراً. على أى حال هو مأمور، وهذا ليس قليلا. هل يجوز أن يكون مأموراً، وليس لديه شىء، مثلى ومثلكما؟ وإذا مات، يترك زوجته وأولاده بلا شىء، يعيشون مثلنا؟

وهل هذا يرضى الله، وقد جعلنا فوق بعض طبقات؟

لابد أن يشترى لنفسه ضيعه، فإذا عاش تمتع بها وضاعفها، فإن مات أصبحت أسرته فى مأمن من الحاجة.

انظروا إلى أى مأمور. أى مفتش ضبط. أى حكمدار. أى مهندس رى.

أى طبيب صحة. حتى باشكاتب المحكمة. أى هؤلاء وسواهم من ذوى المراكز الكبيرة والنفوذ. ماذا يترك لأولاده؟ هذه مسائل مقطوع بها.

- ونحن نزرعها لهم، ليعيشوا فى نعيم.

- ستكفر بالله يا رجل. إنها أرضهم اشتروها من أموالهم.

- أموالهم أم أموالنا؟

- أموالهم هم. أموالكم يا جياع !

- نعم أموالنا . ألا يأخذونها هدايا من العمد والأعيان، وألا يأخذها العمد والأعيان من الفلاحين؟

- إذن تصبح الأرض أرضكم ! ما شاء الله يا رجال ! ما شاء الله !

- على كل حال. هذا كلام.

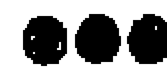
- على كل حال، هم لا يشترون من أحد من الفلاحين أرضه، إنهم يأخذون من أرض الدائرة السنية، أو من أراضى الحكومة، فإذا اشتروا أرضاً من أحد فمن الأعيان. أما أنتم يا رعاع، فماذا تملكون؟ بضعة قراريط لا تغنى ولا تسمن من جوع. قد تغنيكم أنتم أما هؤلاء فشىء آخر.

- ومن أين عرفت هذا كله؟

- مما أسمعه يا سذج يا أغبياء. هل ذهبت إلى مدرسة؟ إنى مثلكم، بفرق واحد بينى وبينكم، إنكم أغبياء، وأنا والحمد لله...

- طبعاً....طبعاً....

وضحك الرجال.



ومضت القافلة، صامتة حيناً، ناطقة حيناً آخر.

فإذا ما طال بها الصمت، ارتفع صوت رجل من الرجال قائلا : وحدوه، فيسارع الآخران إلى توحيده، عز وجل، فى عبارات عميقة مؤمنة.

وتطل عليهم الشمس، فى تؤدة وتمهل، ويبدأ قرصها فى شق غلالات السماء بذراعيه ... كولى من أولياء الله فى ساحة مولد كثيف الزحام.

وما إن تستقر الشمس فى كبد السماء، حتى تبدو فى لونها الأحمر القانى،

كعروس تخضبت وجنتاها بدم الحياء.

وكما تبدد الأيام حياء العروس، يبدد النهار حياء الشمس، فتتفتح وجناتها، وتشع بسماتها على الكون، نوراً يبدد الظلمة والظلام.

وكما تكون لحظات الانتقال دائماً مثيرة، فإن لحظات الشروق، وما يكتنفها من شعور، وما تسبغه على الدنيا كلها من نور، يبدأ رقيقاً كالحلم، ثم يستقر رشيقاً كالعروس ... تكون كذلك مثيرة ورائعة.

وحيث كانت القافلة تسير...

بين خضرة تمتد فسيحة لا يصل إليها امتداد البصر.

وجداول تتثنى متدللة، لا يلاحقها التطلع.

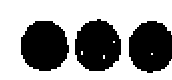
وأشجار تهتز، وطيور تصدح، وشاطىء الترعة يحدد طريق المسير كالصراط.

هنا تكون لهذه اللحظات، من عمر الشمس أثر آخر.

هدوء النفس، وراحة البال، واطمئنان الضمير..كل ذلك يعمق هنا، حتى ليصل به العمق حدًا يتجاوز المكان ويتجاوز كذلك الزمان.

فإن يكن فى القرية صبر على الظلم، أو مطاولة لشر، أو انطواء على مرارة، فربما لأن فى القرية ما هو أقوى من الظلم، ومن الشر، ومن المرارة.

هذا الهدوء، وهذا الجمال، وهذا التسامى، ينتقل من الطبيعة إلى أبناء هذه الطبيعة، فتتسع صدورهم لأخطاء الدنيا عبر كل الأجيال، وقد يطلبون الغفران حتى لمن أساء.



على أن الشمس لا تبدو هكذا أبداً، فهى ليست وليدة أبداً، ولكنها تنمو وتكبر، فتصبح فى بعض الأوقات، لظى لا يطاق.

ولهذا فقد أصبح على القافلة أن تستحث المسير، حتى لا تفاجئها لفحات الهجير. وإنها لتمر بألوان شتى من الحياة، ومن الأحياء.

فهذا سوق، تجمع فيه الناس، للبيع وللشراء.

وهذه بضعة دكاكين على حافة الترعة. وهذا مقهى صغير بسيط، يشرب فيه الناس الشاى مغلياً ثلاث مرات. وهذا كتّاب، حبس فيه أولاد صغار يحفظون القرآن. وهذه مصلى مفروشة بالحصير.

وكانت هذه المتنوعات تسلية للرجال، وكم أخذوا يعلقون عليها تعليقات ساذجة، ويضحكون من بعضها فى احتشام.

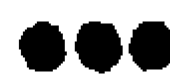
على أنهم كانوا دائماً يبدأون من يقابلون بالسلام، وبرغم ما يكون الآخرون مشغولين ببيع أو شراء أو بزراعة، فقد كانوا يردون على الرجال بأحسن مما ألقوا عليهم من السلام.

بل يزيدون على السلام دعوة للتفضل. يكررونها مرات عديدة، ويقسمون عليها بأغلظ الإيمان، والرجال يردون على الدعوة بالدعاء إلى الله أن يحفظ أصحابها ويبارك لهم وفيهم.

ونوع آخر من السلام كانوا يخصون به زملاءهم فى الحقول، وهم يعزقون الأرض أو يديرون الطنبور، أو ينقون الزراعة من الآفات:

العوافى يا رجالة خلى عنهم.

هذه هى تحية الفلاح للفلاح، يطلب له مزيداً من العافية، أو يعرض عليه ما يملك : كد اليد، وعرق الجبين.



على أن أشهى ما صادف القافلة فى الطريق، فى هذا الوقت البكر من الصباح منظر الصبايا الغيد، وطوابير النساء من حاملات الجرار.

عندهن كانت تقف تعليقات الرجال، وتتحرك عيونهم حتى لتكاد تقفز من محاجرها، وتتلفت رقابهم حتى لتكاد تتخلع من أماكنها.

على أن الصمت لا يطول، فإن أحدهم ليبدى ملاحظة، أو يرسل وصفاً، أو يطلق أمنية أو يعلن إعجاباً، يثير المناقشات.

هل نترك هذه المناقشات تمر، طالما أنها شيء على هامش الموضوع، أم أنها - وهى شهية هكذا - تحتاج إلى وقفة، ولو فى عمر لحظات الشروق.



إن أسراب الصبايا الغيد، وطوابير النساء حاملات الجرار، فى صباح القرية، ظاهرة لها اعتبارها الخاص، فهى أول ملتقى نساء القرية وفتياتها فى الصباح، وكل صباح، حيث يخرجن مبكرات إلى الموردة، ليعدن منها بما تحتاج إليه البيوت من الماء.

وقد تكون هى الملتقى الوحيد للنساء منفردات.

وهو ملتقى، بعد ليل القرية الطويل البهيم.

وقد كان الليل دائماً، هو ستر الله على الأحياء.

فإن يكن بين الناس سر، فالليل مضجعه، وإن يكن للناس انطلاق من قيود النهار فالليل مرتعه.

وملتقى نساء القرية فى الصباح كنور الصباح، يكشف ماطواه الليل من أسرار.

فالصبايا الغيد يروين أحلامهمْ ومغامراتهن فى همسات.

ونساء القرية يحكين أسرار الليل فى مبالغات.

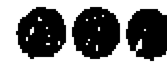
ولكل منهن قصة، قد تكون هى قصة كل ليلة، وإن اختلفت بعض الأحيان فى الجزئيات.

ولكنهن ـ مع هذا ـ لا يزهدن فى روايتها، ولا تكرارها، مع الوصف والتحليل والتعليق.

وقد تتخلل هذه الروايات تنهدات.

والجرار على رؤوسهن تأخذ أشكالا لا تتفق أبداً، ولكنها تختلف بين كل واحدة وأخرى باختلاف شخصيتها، حتى ليمكن أن تدرك شخصية كل واحدة منهن، وسلوكها وأخلاقها، وسنها، منْ وضع جرتها.

وقد يختلف الشكل مع واحدة بعينها، باختلاف الأيام، حسب ما يكون عليه مزاجها أو حسبما تكون قد مرت بها ليلتها.



ولقد أخذت القافلة تتأمل الجرار من بعيد، لتشير إلى هذه الأنيقة، القادمة فى دلال، وتلك الرشيقة، السائرة فى نعومة، والثالثة ـ ما بال الثالثة- أشقية هى، أم تغطى خيبتها بشقاوة مصطنعة؟! والرابعة، والخامسة ... وبقية القادمات، بين سرب القرويات الفاتنات.

فإذا ما اقتربت الصبايا، ظهرت من تحت الجرار وجوه سمراء كالشيكولاته أو بيضاء كالقشدة، أو متوردة كالتفاح.

وبرغم الملابس السود الطويلة التى تجرأذيالها، فإن الأجسام تتهادى ممشوقة كالنصل، أو سامقة كالنخل، أو متدلية كالصفصاف.

وعند المورِدة، تتجمع أسرابهن، لتبدأ عملية اغتسال من نوع خاص.

يغسلن وجوههن بماء الترعة.

ثم يبدأن عملية تنظيف أقدامهن ذات الشقوق، ويستعن على التراب وما عساه أن يكون بين الشقوق من طين، بقطع من الحجارة السوداء، فإذا ما فرغن من الأقدام، ارتفعت الحجارة إلى السيقان، فتطل من بين الثياب السود، سيقان بضة بيضاء، وقد ترتفع بعضهن بالحجارة إلى مافوق الركبة، فتتضاحك الأخريات ويتلفتن ذات اليمين وذات اليسار، حتى يسود اطمئنان إلى أن عيناً من العيون لاتتسلل إليهن فى هذا الحرم الحرام.

وكما يحدث للأقدام، يحدث للأذرع، يشمرن عنها، ليغسلنها قبل ملء الجرار.

وقد يكون مع بعضهن ملابس يغسلنها كذلك قبل العودة بالجرار.

أرأيت هذا الموكب الخاص من مواكب القرية؟

أكان خطأ إذن أو إسرافاً، أن نقف عنده هذه الوقفة، حتى لا يستمتع به الرجل الذى هو من طرف "الحاج سلطان" وحده، والرجلان الآخران وحدهما؟

فماذا عن "أبو المكارم" بين هذه الأصناف كلها من المتنوعات؟



على أننا، قبل أن نحدد مكان "أبو المكارم" بين هذه الحوادث والمتنوعات، يهمنا أن تكمل الصورة ...صورة الصباح البكر، فى هذه الطبيعة البكر.

فعناصر الصورة حتى الآن : طريق من تراب، يتعرج بين الحقول، من طرف القرية الغربى إلى الموردة، على شاطىء الترعة.

والوقت شروق ... والجو رطب... والنسيم رقيق.

وعلى الطريق أسراب من الصبايا الغيد، وحاملات الجرار من النساء.

وفى قلوب العذارى هوى مشبوب.

وعلى ألسنة النساء حكايات، أبطالها دائماً رجال مشوقون.

وآدم أين هو، من هذه الجنة الرائعة؟

إن وجوده ضرورة، لتستكمل الصورة حيويتها، وجمالها، وبهجتها.

وكيف يتخلف آدم وهنا هواه : عذابه الحلو، وألمه الممتع الشهى؟

إنا لنجده بين أعواد الذرة وسنابل القمح، يحاول أن يختطف نظرة، أو يختلس ابتسامه، أو يقطف التفاتة، يعيش عليها، حتى تتهيأ له فرصة سواها.

ولكم يبدو المنظر طريفاً، ونحن نلاحظه، يتصنع الانشغال بعمل ما، حتى لا ينكشف للقرية هواه.

أذاهب هو إلى الحقل، فى هذا الوقت المبكر، ولو فى غير مواسم التبكير إلى الحقول؟

فإن يكن حقله فى الناحية الشرقية، فلماذا الإصرار على أن يذهب إلى الجانب الشرقى عن الطريق إلى الغرب !

بل هذا الطريق بالذات، المؤدى إلى موردة الصبايا الغيد، وأسراب النساء حاملات الجرار!

أم تراه قضى ليلته فى حراسة المحصول، وهو عائد بعد طول السهر، إلى داره لينام؟

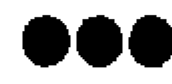
فإن لم يكن هناك محصول يستحق الحراسة، فمن أين يعود، ولماذا يخير طريق العودة، هذا الطريق؟

أم أنه مشغول بتنقية الأرض من الحشائش؟

فإن يكن الأمر صحيحاً، فلماذا تلتصق عيناه بطوابيرالغيد، وليست حشائش الأرض بين هذه الطوابير؟!

أم هو هنا لينقى الزرع من آفات الزرع؟

على أنه لا ينقى إلا قلبه، ومن آفات الجوع والحرمان !



إنه الهوى المشبوب فى قلوب الشبان من أهل القرية، يدفعهم إلى أن يرقبوا طوابير الحسان، إما بحثاً عن هوى، يتمنون أن يجدوه، أو تنفيساً عن هوى وجدوه فأخفوه ليصونوه.

والذين يبحثون عن الهوى، يطلقون عيونهم فى كل وجه، فقد تلتقى عين بعين، كما تلتقى سمكة بخطاف صياد.

أمـا الذين ينتظرون هوى بعينه، فإنهم لا يرون فى كل عيـون الحسان، إلا عـينين، كحيلتين، تنطبقـان على سـر، وتنفرجـان عن أمل، وتتقـابلان مع عينى فـارس الأحلام مفصحتين عما فيهما من سر وأمل.

لحظة واحدة، أثناء المرور العابر السريع.

ثم تنطبق العيون، عيناها وعيناه ..كما تنطبق الشفاه على قطعة من الحلوى، تتذوق ما فيها من حلاوة على مهل، استبقاء لهذه اللذة الحلوة أطول مدة تستطيع.

إن عشاق القرية، ينتظرون هذه الساعة من البكور، ليفتتحوا بها عمرهم العاطفى ليوم جاف طويل.

لا تهمهم فصول السنة، ولا الأحوال الجوية.

المطر عندهم طهارة لما فى نفوسهم من مرارة الحرمان.

والعاصفة عندهم ألحان تعبر عما فى قلوبهم من شوق صاخب.

وقطر الندى، حبات من فضة تصون خطوهم من عثرات الطريق.

ولكم تبدو فى هذه اللحظة من متناقضات.

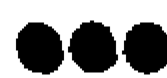
وأول هذه المتناقضات، الأسباب المختلفة، التى تدفع شباب القرية إلى هذا الطريق.

ومع الأسباب المختلفة، تبدو مظاهر هذا التناقض فى نوع ما يرتدون من ملابس.

فى الصيف لا بأس من ارتداء ملابس من صوف، إن كانت الملابس الصوف هى أجد ما يملكه العاشق الولهان !..

وفى الشتاء لا بأس من ارتداء ملابس من حرير، إن كان الحرير فى تقدير العاشق هو أجمل ما يرى نفسه فيه !

إنه الحب، له منطق، قد لا يتفق دائماً مع طبائع الأشياء.



هل نعود الآن إلى القافلة التى سارت مع جسر الترعة، ترقب متناقضات الصباح وأسراب الصبايا الغيد، وطوابير الحسان من حاملات الجرار؟

إن الرجل الذى هو من طرف "الحاج سلطان"، كان أكثر الجميع جرأة، فى التطلع إلى هذا السرب البديع، والتلصص على سيقانهن وأذرعتهن، وهن يغسلنها بماء الترعة، على موردة القرية.

والرجلان الآخران، كانا هما الآخران، يتطلعان فى نهم، ولكن مع هذا فى حياء واستحياء.

فماذا عن "أبو المكارم" وأين كان مكانه فى القافلة، وأحداث الصباح البكر وقطر الندى يبلل الكائنات؟

لقد مرت عليه هذه الأحاديث، كما تمر المياه على سطح أملس !

... أليس أخرس؟!

أما الرؤى، أما مناظر الطريق، فقد وصلته بها عيناه، وهما كل ما ظهر من جسمه المكور، المتكوم، على ظهر الحمار، أمام أحد الرجال.

لقد وضعوه فى مكانه هذا، منذ غادر القرية، فى طريقة، إلى مجهول رهيب لا يعرف عنه إلا أنه.. رهيب ! وأنه قد لا يعود منه أبداً.

ومن لحظتها وهو حيث هو، ملفوف فى أردية ثقيلة، مكوماً، مكوراً، تتدلى ساقاه على جانبى الحمار، ثم.. لا حراك.

الرجل الذى يجلسه أمامه، يحيطه بذراع، كأنما يدفع عنه الخوف والقلق وخشية المصير.

"وأبو المكارم" بين أرديته، وما لفوه به من أغطية، وذراع الرجل الذى أجلسه أمامه على ظهر الحمار، مستسلم تماماً للموقف، تدور عيناه، ذات يمين وذات يسار لا تغفو أبداً.

وهو يرى ما يراه رفاق الطريق، ويسمع ما يقولون، وينصت إلى المناقشات والحوار والتعليقات، ويبتلع ذلك كله فى صدره ويختزنه لنفسه فلا يذاع.

من يدرى؟.. إنه يعرف أسراراً كثيرة جداً، ولكنه أخرس، لا يستطيع أن يصحح ما يسمعه من أخطاء.

وقد يكون فيما يرويه الرجل الذى هو من طرف "الحاج سلطان" شىء من الخطأ، أو قد يكون ما قاله كله خطأ، ولكن عقدة لسانه، تحول بينه وبين الإفصاح، ليوضح ما هو صدق وما هو ادعاء.

على أنه لم يكن مشغولا، لا بما يقوله الرجل الذى هو من طرف "الحاج سلطان" ولا بما يسأل عنه الرجلان الآخران، وإنما كان همه كله فى نفسه.. فى المصير المجهول الذى هو مقبل عليه.

الأعرابى الذى يكوى الناس بالنار، ويدفنهم فى الرمل، ويلوى أعناقهم، ويدكهم دكا غير رفيق.

ماذا سيفعل به؟...

ماذا سيكون مصيره معه؟...

هلى يلقى مثلما يلقى الآخرون، أم يشفق عليه وهو أخرس، وحيد، غريب، بلا أب ولا أم، ولا أهل، ولا صديق؟

... وهنا يذكر النسمة الحلوة التى هبت عليه عشية أمس : "تفيدة" ومعها فردة الشراب الأحمر.

ويضغط على قبضته، وهو يذكر هذه النسمة الحلوة، فقد كانت فردة الشراب الأحمر داخل قبضته اليسرى، قريباً من قلبه، ومن خفق، يؤنس وحشته، ويخفف عنه، بعض ما يعانيه من قلق وخوف وفزع.

ولقد كان "أبو المكارم" هو الجزء الصامت من القافلة، الساكن، المستسلم لقضاء الله.

ولولا عيناه البراقتان، وقد أخذتا تدوران هنا وهناك، لما كان لأحد أن يتصور أن هذه الكومة المتكورة على ظهر الحمار، إنسان فيه حياة.

ولو أن مثالا أراد أن يجسم العجز والاستسلام فى تمثال، لما وجد أبرع من "أبو المكارم" فى مكانه من القافلة، دلالة على ما يريد أن يجسمه.

ولو أن رساماً أراد أن يعبر عن الفزع الصامت، والصمت الفزع، داخل نفس فائرة فاترة فى آن، لما وجد إلا "أبو المكارم" فى هذا الموقف من مواقف حياته، نموذجاً يقدمه للناس.

بل لو أن مؤلفاً موسيقياً رآه، وهو فى حاله تلك، لأخرج لنا لحناً من أروع الألحان، يعبر عن المأساة، عندما لا تجد المأساة وسيلة للإفصاح عن نفسها، أو كنهها أو سرها.

"أبو المكارم" المسكين : نضرة الصبا وجلال المشيب.

أو لعله : حركة الحاضر، وسكون الماضى.

أو ربما : روح الجديد، وثبات الأثر.

متناقضات ... ولكنها حقائق تلتقى فى هذا الإنسان اليافع.

الوجه الصبوح الباسم المشرق، لصبى ... يجسم الصبا بكل ما فى الصبا فى نضرة.

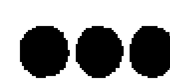
واللسان المعقود الصامت، شىء من عناصر الإنسان، اختصرها منه الزمن.. كما يفقد الرجل العجوز أسنانه، أو سمعه، أو بصره، أو يمشى على عكازا

الحركة الدائبة اللاعبة، لغلام، يمثل الحاضر، بكل ما فى الحاضر من بريق.

والصمت المطبق الرزين، يمثل سكون الماضى، بكل مافى السكون من غموض.

الاندفاع المثير النزق، لفتى، يمثل الجديد، بكل ما فى الجديد من نمو.

وجمود اللسان والبيان، يمثل أثراً من الآثار القديمة، لا ينطق.



إنه لا يدرى؟

لعل صمته هذا من مزاياه!

فهو ليس مضطرًا إلى كلام، كثير منه نوافل.

وهو ليس مضطرًا إلى حديث، كثير منه لغو.

بل إنه ليس مضطرًا كذلك إلى النفاق، والملق، والكذب، والخداع.

صمته يحميه من الانزلاق إلى ما لا يجب.

صمته يعفيه من الإفصاح، عما لا رغبة له فيه.

صمته يمنحه فرصة اختزان المعانى الحقيقية للأشياء داخل نفسه، فلا تتعرض هذه المعانى للابتذال، إن هى ظهرت فى جمل أو كلمات.

وإنه ليحكم على الأشياء، حكماً صادقاً أميناً، دون أن يخشى على أحكامه من الناس أو يخشى من أحكامه على نفسه، لأن أحكامه ستظل أبداً وديعة فى نفسه، لا يطلع عليها أحد.

فإن رأى أن "الحاج سلطان" كذاب، ومنافق، ونهاز للفرص، فإن أحداً لن يستطيع أن يحول بينه وبين ما يراه، لأن أحداً لن يعرف شيئاً عما يراه.

بل إنه ليرى أشياء كثيرة أخرى، ويكون فيها اعتقاده الخاص، بلا خوف، أو حذر فإنه لا يخاف حتى من نفسه.

إن سره ينتهى عند لسانه.

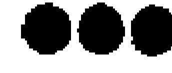
ورأيه فى الناس، وفى الأشياء ينزوى فى حدود نفسه.

وملاحظاته لا تقف عند حد، فهو يرى كل شىء، وقد يسمع كل شىء، فتتكون لديه حصيلة ضخمة، تساعده على تكوين آرائه ومعتقداته.

وفوق هذا وذاك فهو موضع الاطمئنان دائماً، موضع الرضى دائماً، لا يتعرض أبداً لسخط، أو غضب.

لأنه أخرس لا ينطق.

لأنه لا يتكلم عن شىء يراه، ولا يحكى شيئاً يسمعه.

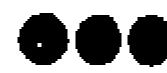


فإن رأى " الحاجة زهرة "، العجوز التى بلغت من الكبر عتيًا، تتزين وتتجمل، كلما أقبل " الشيخ عبد الباقى " والد "عباس" زوج ابنتها لزيارتهم مع ابنه وزوجته، فإن اختلت به، فحديثهما همس، وكلامهما نجوى ... والدم يتصاعد بين هذا وذاك إلى وجناتها فواراً، كأنما هى صبية تتصارع المشاعر فى قلبها!

إذا رأى هذا، فلا ضير عليه أو عليها.

فإن الرأى الذى يكونه عنها، والمقارنة التى يعقدها بين هذا التهافت على الرجل والتثاقل الذى بالنسبة لحلالها "الحاج سلطان".

هذا الرأى، وهذه المقارنة، ستظل ابداً حبيسة حلقه، لا ترى النور.



وهو يرى فى كثير من الأحيان، " أبو سريع " المخيف الرهيب... "سبع الليل" الذى يملأ هواجس القرية والقرى المجاورة بالفزع والرعب.

يراه - ثكلته أمه ! - وقد أخذ يمرغ وجهه تحت أقدام "الست قمر" كلما وجد فرصة يخلو بها. وهى بنت البندر المتحررة اللعوب ذات الذراعين العاريتين، تنهره، بل تهينه إهانات قاسية.. وتطرده فيمضى كالكلب وهو يقول لها : إن غداً لناظره قريب !

بينما يرى "الست نبوية" حماته - يتمتها بنتها ! - تحاول كلما انفردت به، أن تغريه بنفسها، فترتمى على صدره، وتلقى برقبتها الطويلة المعروقة على كتفه، وترفع عينيها إلى عينيه، وفمها إلى فمه...

لكنه يزجرها ويردعها وينهاها، ويتباعد عنها.. إلا عندما تكون قد أخفت فى قبضتها بضعة ريالات، عندئذ قد يعطيها بعض ما تريد، وهو كاره متأفف.

على أنها ترضى بهذا، فى أمل فى مزيد.

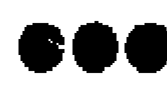
"أبو المكارم" يرى هذا، ويسمعه ... ولكنه يصمت عنه فلا يتحدث بشىء فهو عاجز عن أن يتحدث بشىء.



وهو يعرف كيف أن "الحاج غضبان" يتأخر فى الحقل، بعد الغروب، ليختلى بهذه أو بتلك، من الفتيات العاملات، جامعات القطن، أو حاملات السنابل، أو راعيات الغنم، ليحظى منهن بمتاع، وليقضى معهن أوقاتاً تقصر أو تطول. فإذا ما عاد إلى القرية لم يعرج على البيت، قبل أن يصلى العشاء فى المسجد، ليدفع بذلك عن نفسه الظنون.

"وممتاز أفندى" وكيف لا يحلو له أن يطمئن على البهائم والدواب التى يشارك عليها إلا عندما تكون هذه البهائم والدواب فى عهدة زوجات الشركاء أو بناتهم.

عندئذ يروقه أن يذهب إلى حيث تكون، فى الدور أو الحقول، ليتبادل مع الزوجات والبنات أحاديث تطول، ولكم قدم لهذه منديلا مشغولا، ولتلك حلية زائفة، وللثالثة قطعة من حلوى، والمقابل دائماً معروف ... بسمة خجول، وضحكة مترددة، ثم ما يعقب البسمة والضحكة من عبث مختلف الصور والأنواع.

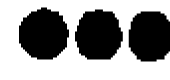


والعمدة نفسه ... لطالما رآه "أبو المكارم" وحده فى الدوار، فى أوقات يفرغ فيها الدوار من الزوار، وقد اقتنص الفرصة، فطلب ماء للوضوء، وهو يدرك أن طلبه هذا معناه، أن تقبل خادمة صبية حسناء بإبريق وطشت ومنشفة، ولكنه لا يعبأ بالوضوء، بقدر ما يعبأ بالصبا والحسن والجمال.

وبينما هو غارق فى لهوه تكون زوجاته مشغولات بإسكات الأولاد حتى لا تصل صيحاتهم إلى حيث العمدة وهو يتوضأ، ليصلى فريضة الله !

وغير العمدة ... نساء العمدة ... الأعيان الآخرون... والصبايا من بنات العمدة والأعيان.

إنه يعرف عن هؤلاء وأولئك الكثير ولكنه والحمد لله، أخرس لا ينطق.



لطالما ناقش "أبو المكارم" حالته فيما بينه وبين نفسه، لينتهى فيها إلى قرار، كما ينتهى دائماً إلى قرارات بشأن الآخرين.

ولقد تبين أن عاهته هذه التى أقلقت بال القرية، نعمة من نعم الله أنعم بها عليه.

إنه يعرف أن القدرة على النطق ميزة الإنسان.

أليس الإنسان حيواناً ناطقاً، بأى معنى يكون هذا النطق؟

ولكنه يعرف أن النطق كذلك قد يصبح كارثة فى بعض الأحيان.

النطق محتاج إلى ضوابط وأحكام، وهذه الضوابط والأحكام، قد تخرجه عن معناه قد تجعل منه مظهراً من مظاهر الضعف.

قد تحوله من التعبير عن المعانى، إلى إخفاء هذه المعانى، أو تحليتها، بما يجعلها نفاقاً ورياء وخداعاً.

قد تجعل الكلمة المقدسة، كلمة مشوهة، بل ربما مدنسة.

قد تضطر الإنسان إلى نوع ذليل من التناقض، يمزق نفسيته، ويلوث ضميره !

وهو المسكين الوحيد، الغريب، اليتيم - محتاج إلى أن يحتمى من الناس، ومن المجتمع.

فيم يحتمى لو أنه ناطق، ولو أن عقدة لسانه منسابة طليقة؟

بم ...إن لم يكن بالنفاق والخداع والزور والمداهنة؟

على أن عناية الله قد أعفته من هذه الضوابط الثقيلة، والأحكام القاسية، فسلبته النطق على الإطلاق، لتحميه من المجتمع، ومن الناس.. ومن نفسه.

لقد أحس هذا وشعر به.

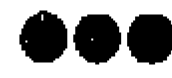
وأدرك هذا المعنى وعاش فيه.

لهذا نشأت كراهيته للأعرابى، الذى يفك عقد الألسنة، ويجعل الأخرس يتكلم كما يتكلم سائر الناس.

ولهذا يضيق بهذه الرحلة الكريهة إلى نفسه.

ولهذا بكى طوال ليلة أمس وعاش على الأنين والنحيب.

هل فعل ذلك لما سمعه عن جفوة الرجل وغلظته، أم لأنه أيقن أن عقدة لسانه هذه حماية له من هذه القرية، وأية قرية، ظالم أهلها.



على أن المؤكد أن "أبو المكارم" ليس راضياً كل الرضى عن عقدة لسانه هذه، فإنه ليمر بلحظات يتمنى فيها لو أنه قادر على الكلام، إذن لصاح بأعلى صوته فى "الحاج سلطان" : "يا كذاب، يا منافق، يا وحش ..."، عندما يتسلل إلى ود "تفيدة" ... إلى قلبها، إلى حبها إلى رضاها !

عندما يتظاهر بالإشفاق عليها، والرغبة فى مساعدتها، فينحنى على أرض الحديقة، إلى جوارها، ينقى معها الأرض من الحشائش أو يقطف معها الفاكهة، أو يساعدها على حمل ما قطفته من الأشجار.

وهو لا يفعل ذلك إلا لينال منها لمسة، أو يحتك بها عن عمد دنىء، أو يربت على كتفها أو يمر بيده على خدها.

وعيناه متسمرتان فى مواضع الفتنة من وجهها، ومن جسمها.

يحاول أن يعريها من الخرق البالية التى ترتديها، ليصل إلى حيث يشتهى من تكوينها.

ما أخس !.. ما أحط !..

"أبو المكارم" يرى هذا فلا يملك عليه صبراً.

يراه يقترب منها، فيغلى.

ويراها تتباعد عنه، فيرتاح.

ويعود يراه يمسك بذراعها، فيجن.

ويراها مرة أخرى تسحب نفسها من قبضته العجوز، فيهدأ.

وفى كل هذه الأثناء، يتمنى لو أنه استطاع أن ينطق ليقول له إنه جبان، وإنه ينتهز فرصة فقرها وحاجتها، ليفرض وجوده الكريه عليها.

بل ليقول لها أن تحذر من هذا الثعلب العجوز، فإنه لا يريد إلا أن يمتص دمها ثم يرمى بها على قارعة الطريق.

وعندما يراه يقدم لها الفاكهة، فتردها أول الأمر ثم تقبلها تحت الرجاء والحاجة معاً، يعدو هنا وهناك، كمن عضه ثعبان.

إن "أبو المكارم" يحب "تفيدة" بلا شك.

يحبها فى صمت، كما يحيا فى صمت.

يحب أن يلعب معها، وأن يتبادل معها المتعة بفردة الشراب الأحمر.

ولقد كان فى شك من حبها له، حتى ليلة أمس، فما إن أقبلت عليه بأعز ما تملك، حتى أدرك أن الحب بينهما متبادل، وأنها تدخر له، مثلما يدخر لها من العاطفة والشعور.

وحمد الله على هذا ...

فإن يكن يحب صمته هذا ويؤثره، ويرى فيه ما يحميه، فإنه سيحب نطقه كذلك لأنه سيمكنه من التعبير عن حبه "لتفيدة"، وتحذيرها من "الحاج سلطان" ونوايا "الحاج سلطان" وأمره بعد ذلك إلى الله.

"أبو المكارم" كان يذكر هذا كله، والقافلة تسير، مشغولة عنه بما يدور بين أفرادها من الأحاديث، وبما تراه من الصور، وبما تمر به من كائنات وجماعات.

ومع هذا، فلم يكن يبدو عليه أنه يذكر شيئاً على الإطلاق.

فوجهه اعتاد أن يبدو جامداً فى أغلب الأحيان.

وعيناه اعتادتا أن تتحركا فى غير اكتراث.

وقلما شهدته القرية ينفعل بشىء، أو يتأثر من شىء.

وبرغم ما قد يدور بذهنه من أفكار، وبرغم ما قد يراوده من أحلام، وبرغم ما قد يذكره من صور، فهو كما هو صامت دائماً، جامد دائماً، لا يبدو عليه أنه يعرف من أمر نفسه أو من أمر دنياه شيئاً.



وفجأة، وبينما القافلة تسير، تظهر مشارف الساحة الفضاء التى يعيش فيها الأعرابى.

ويصيح واحد من الرجال ... ها قد وصلنا.

وينخلع قلب الصبى المكسين، ويهتز مرتعداً من هول ما هو مقبل عليه.

ها أنت ذا تواجه المصير المجهول يا "أبو المكارم" !

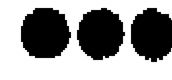
ترى ماذا يكون حالك مع هذا المصير؟

هل يكوونك بالنار؟ هلى يحرقون جلدك؟ هل يسقونك شيئاً مرّا كالعلقم؟

هل تعيش بعدها أم أنت ميت لا محالة؟

ويقبض بيده اليمنى على ذراع الرجل الذى وضعه أمامه، ويزداد تكوره فوق ظهر الحمار وتدور عيناه كالبوصلة تبحث عن الاتجاه الصحيح.

على أنها لحظات، ثم تصبح القافلة فى ساحة المعجزات !



والساحة فضاء فسيح، فى أطراف مركز كوم حمادة بالبحيرة.

والفضاء الواسع مهجور، إلا من هذا الأعرابى وقبيلته الصغيرة.

خال من المبانى، وإن تناثرت فيه خيام متفرقة يسكنها هو، مع أفراد القبيلة، وما تملكه القبيلة من حيوانات، أهمها الإبل والماعز.

أما الأرض فمجدبة، لا زرع فيها ولا ضرع، وهى لا تحوى إلا حشائش متفرقة هنا وهناك وبضع شجرات من سنط، أو ما يشبه السنط من أشجار، لا تحتاج إلى كثير من الماء.

وفى أماكن متفرقة من هذا الخلاء زراعات منثورة ... قمحاً أو شعيراً، تنبت بأقل مجهود وعلى مياه العيون، ويكاد محصولها لا يكفى ما يأكله الأعرابى وأفراد قبيلته إلا بالكاد.

وفى الأرض، وقريباً من الخيام مواقد النار... فى الأرض الخلاء نفسها، حفرات لونها أسود وفى الحفر بقايا رماد يدلنا على أنها مواقد نار.

هذه الحفر هى مطابخ القبيلة، حيث يخبزون الخبز ويعدون الطعام والمشروبات وربما - وهذا ما يهم الصبى القادم من بعيد - يعدون فيها أسياخ الحديد يكوون بها المرضى الوافدين.

وهكذا تحيا القبيلة فى هذا الفضاء، مع الطبيعة وجهاً لوجه.

فى شىء قريب من عيون الماء، يشربون منها، ويزرعون ما يسدون به الرمق، ويسقون الدواب...

وشغلهم الشاغل طول النهار، إعداد خبز اليوم، حول مواقد النار، من سنابل القمح أو الشعير المتفرقة هنا وهناك، وملاحظة الدواب ترعى فى حشائش هذا الخلاء، وغزل الصوف أردية غليظة يلبسونها، أو خياماً تحميهم من هول هذا الفضاء.

ولا شىء بعد هذا أبداً.

يواجهون الطبيعة، مواجهة صريحة بلا قناع.

ويحيون حياة قريبة من حياة الإنسان الأول قبل أن يبنى الإنسان البيوت، حتى تلك التى من طين.

لا ينازعون أحداً على أرضه، فهذا قضاء الله.

لا يملكون من الدنيا شيئاً، فتحرروا بذلك من رق الامتلاك.

وعندما تزحف إليهم يد الإصلاح، لتدخل المياه المنتظمة إلى هذا الخلاء، وتحوله إلى أرض زراعية، تحوى القرى، وتنظم الحياة.

عندئذ ينزحون إلى موطن آخر من فضاء حر طليق، ليس فيه هذه المياه المنظمة التى تدخلها الحكومة، وليس فيه كذلك ناس.

فعلوا هذا مرات، ولم يقبلوا أن يبقوا فى أرض انتظمت فيها وسائل الرى، وتكاثف فيها السكان.

فهم يبحثون دائماً عن الأرض الفضاء، عن الخلاء، عن طبيعة بكر، لم تمتد إليها يد التنظيم.

ليعيشوا كما هم، متحررين من الرق، مطلقين من القيد.

يستيقظون مع الشمس، ليتفرقوا فى هذا الخلاء كل لعمل اليوم، وهو دائماً محدود، منهم من يطلق الإبل والماعز، لترعى فى حشائش الخلاء.

منهم من يتولى حمل الماء من العين التى يعيشون حولها إلى الزراعات المنثورة هنا وهناك، من القمح أو الشعير.

ومنهم من يجز الصوف من هذه الدواب.

والنساء ينشغلن بطحن الحب، وإعداده خبزاً.

ومواقد النار تشتعل لإعداد الطعام، وبعض ألوان الشراب.

وقد تجد هنا وهناك بعض الدواجن، خاصة الدجاج، تحتفظ بها القبيلة لما تنتجه من البيض.

وهكذا تتولى القبيلة أمر معاشها، من فائض ما تجود به هذه الطبيعة الجافة.

وهى لا تبذل فى هذا جهداً ثقيلا، ولكنه الجهد الضرورى اللازم لهذا النوع من الحياة، الذى لا يعنى إلا بأن يسد الرمق، وبأبسط الوسائل.

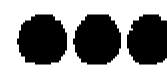
فإذا فرغت القبيلة من أمورها، وأقبل المساء، التفت حول مواقد النار، تصطليها للدفء، وللترفية عن نفسها بالأغانى والرقصات.

ثم تهجع إلى خيامها، قريرة العين، قريرة النفس، خالية البال، من أى شىء يمكن أن يشغل البال.

هذه حياتها، وهذا نظامها، لكل يوم من أيامها.

لا يحركها الزمن، فقد هزمت الزمن.

ولا يدفعها التطور، فقد تجاوزت التطور : إلى جمود !



والقبيلة مكونة من شيخ القبيلة : الأعرابى صاحب المعجزات.

وللرجل عدد من الزوجات، اختلفت الناس فى عددهن. فمن قائل ثلاث، ومن قائل أربع.. ولكن أحداً لم يزد على أربع، فإنهم يعرفون عنه أنه مسلم، وأنه يرعى حدود الله.

وله عدد من الأبناء ومن البنات.

وبعض أزواج بناته، يعيش مع القبيلة حيث تعيش.

وبعض أبنائه الذكور متزوجون، ولهم أبناء وبنات.

بل إن بعض أحفاده أيضاً تزوجوا، ولهم أطفال صغار، يملأون هذا الفراغ، باللعب والصياح، وتمتلىء بهم ساحة القضاء، كما تتناثر فيها حشائش الأرض.

والأعرابى شيخ هذه القبيلة، رجل مسن، يطلق لحيته وشاربه، ويلف راسه بشال ملون، من غزل زوجاته وبناته، ويجلس على الأرض أمام خيمته لا يؤدى عملا بعينه من أعمال القبيلة، وإن يكن أهم من فيها، فهو رأسها، وهو عقلها وهو رائدها، وله عليها سلطة حاكم لا يرد له قضاء.

يصحو مبكراً ليشرب قهوة الصباح، ويبتلع قطعة من خبز جاف وبضع تمرات صلبة، ثم يتدثر فى أرديته وينتقل إلى خارج الخيمة حيث مجلسه طوال اليوم، يرجعون إليه فى كل عمل يرغبون فيه، فيوجه الجميع ويدير دفة الحركة المحدودة، فى كلمات سريعة مقتضبة، لا تقبل جدلاً أو مناقشة.

فإذا حمل إليه أبناؤه نبأ عن ناقة مريضة، أعطى تعليماته على الفور بعلاج سريع، فإذا كان الأمر من الخطورة بحيث يصبح عليه أن يباشر بنفسه علاجها، أحضروها إليه ليتولى بنفسه أمر هذا العلاج.

وهو يبعث بمن يختار من ابنائه أو بناته إلى السوق، مرة كل أسبوع، ببعض إنتاج الإبل أو الماعز أو الدجاج، ويحدد ماذا يشترى من احتياجات القبيلة.

هو الجذع، وهم جميعاً الفروع.

هو الوالد، وكلهم الأبناء.

لهذا تراه وسطهم، وتراهم حوله، كما ترى فروع الشجر تلتف حول جذعها الثابت الوطيد.

ولا ضير أن تعلو الفروع فى الهواء، وأن ترتفع على جذع شجرتها.

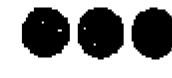
ولكنها تظل ابداً مرتبطة بهذا الجذع، لو تهاوى، سقطت بدورها على سطح الأرض. على أن هذا العبوس الذى نراه على وجه الأعرابى، وهذا الجمود الذى يبدو فى معاملاته لفروعه المتفرقة، ينقلب كل مساء، إلى لين ورحمة وابتسام.

فهو حول موقد النار، والدنيا ليل، والظلام مطبق على الكائنات، كثير الحداء، كثير الغناء ... وقد يرقص رقصات بدوية مثيرة، والعائلة تصفق فى طرب وإعجاب.

فما إن تنتهى السهرة، حتى يدخل الرجل خيمته، ليصحو مع أول اشعة النهار يستقبل اليوم الجديد.

وتمضى حياة القبيلة على هذا النحو، لا يختلف يوم من ايامها عن يوم آخر ولا يؤثر عليها تطورات الحياة، ولا تغيرات الجو، ولا تعاقب الفصول.

لقد اتصلت بالطبيعة، فأصبحت حياتها امتداداً للطبيعة.



ولقد أدار "أبو المكارم" عينيه فى هذه الساحة.

وكانت دورات عينيه سريعة كعدسة الكاميرا فالتقط كل شىء، وانتقلت إلى نفسه صورة واضحة عن كل ما يجرى فى هذه الساحة.

ولم تشغل باله حياة القبيلة، ولا توزيع ألوان النشاط على أفرادها، ولا الأزياء التى ترتديها، ولا ما يتدلى من أنوف السيدات من حلى قد تكون من صفيح.

لم يشغل باله هؤلاء الأطفال الصغار، الذين يتناثرون فى الساحة كحشائش الأرض ولا هؤلاء الصبية الذين يتنقلون ويلعبون فى تثاقل ممل.

ولم يشغل باله فتيات بدويات، بعضهن فارغات، وبعضهن كذلك فاتنات أبداً ... كل هذا لا يهمك يا "أبو المكارم".

هذا الرجل هو الذى يهمك.

هذا الأعرابى العجوز، ذو الذقن البيضاء المرسلة، والشارب الأبيض الكثيف.

هذا الرجل الذى يحرق جلود الناس، ويكوى أعضاءهم، ويدفنهم فى الطين.

هذا هو يا "أبو المكارم".

أترى عينيه؟. أترى نظراته؟.. نفاذة، عميقة، رهيبة، يسبر بها أغوار النفوس، يا "أبو المكارم".

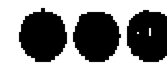
وجلسته، وسحنته، وملامح وجهه.

إنه ملىء بالكبرياء والاعتداد بالنفس، إلى درجة تخيف.

وهؤلاء الناس من حوله ... هل تراهم؟

لقد اقبلوا من قرى كثيرة، قريبة أو بعيدة، وجلسوا فى هذه الساحة جماعات، وكل جماعة منهم، تحوط بمريض.

كلهم أتى من أجل شفاء، يضع حدًّا لآلامهم.



هذه الجماعة تحيط برجل مجنون. هل تراها، وكيف أمسكت بتلابيبه ، تحول بينه وبين هياج لا يعرف الحدود؟

وتلك الجماعة، وقد حملت على أكتافها صبيًّا أعمى، لا يرى ولا يبصر، وكلها أمل فى أن يكون نور عينيه على يدى هذا الأعرابى الغريب.

والثالثة، وقد احاطت بفتاة كسيحة ...

والرابعة، وقد التفت حول امرأة عاقر، سيطلقها زوجها، لو لم تتخلص من عقمها.

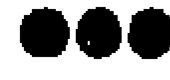
وهكذا ... ترى الساحة "يا أبو المكارم" مليئة بجماعات من الشواذ... كلهم أتى يراوده الأمل فى شفاء.

وأنت ... يا أخرس ... أتوا بك، لتحل عقدة لسانك على يديه.

إن بلاءك لمحتمل أمام ما تراه من ألوان البلاء.

هل كنت ترضى أن تكون مجنوناً، أو معتوهاً، أو كسيحاً، أو أعمى؟

أنت أخرس، وهى أخف علة بين ما تراه من هذه العلل.



وتتقدم إلى الأعرابى، جماعة وراء جماعة.

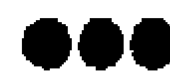
ويحاول "أبو المكارم" أن يخترق بعينيه الصفوف والجماعات ليرى ماذا يفعل الأعرابى بهم ... وأى لون من ألوان العلاج يقدمه لهم، ولكنه لا يستطيع أن يصل بعينيه إلى هناك.

على أنه يلاحظ هرجاً ومرجاً، كما يرى حركة عنيفة من بعض الجماعات، فيدرك على الفور، أن الجماعة تمسك بتلابيب المريض، لتحمله حملا على البقاء، ربما تحت وهج نار تكويه، أو عذاب يأتيه، أو قسوة علاج لا يقدر على احتماله.

وتترامى إلى سمعه أصوات بكاء، وصيحات استغاثة، ونداءات تطلب النجدة، ونحيب وانين، يمزق القلوب.

ماذا هناك؟

إن قلبه لينخلع، والجماعات تتقدم إلى الرجل واحدة بعد أخرى.



وجاء دوره...

ومادت الأرض تحت قدميه، وغام بصره، فلم يعد يرى أو يسمع !

وعندما تقدم إلى الأعرابى، لم يسمع إلا أن الرجل الذى هو من طرف "الحاج سلطان" يقول له : إنه فتى أخرس، نريد أن تفك لنا عقدة لسانه.

ثم تدور الدنيا أمام نظره، فلا يرى منها إلا حلقات متتابعة تخطف البصر.

ثم يرى نفسه مقبوضاً عليه ... الرجال الثلاثة الذين معه قد قبضوا عليه حتى لا يستطيع الحركة.

يداه، رجلاه، سائر أعضاء جسمه قد آلت إلى هؤلاء الرجال ، حتى لم يعد قادراً على حركة، إلا أن يحرك عينيه.

وعندما شعر بأن حواسه كلها قد تجمعت فى هاتين العينين رأى الرجل الأعرابى شيطاناً مارداً متمرداً رهيباً.

رأى فى عينيه شرراً يتطاير، وفى فمه سرًّا يطبق عليه فى إصرار، وفى أنفه، وفى ذقنه سحنة عزرائيل.

وخاف وارتعد كالمحموم.

ماذا؟ ... ماذا سيفعل بى هذا الشيطان؟

ولماذا قبضوا على بهذه الصورة الوحشية القاسية؟

وفجأة رأى الرجل الأعرابى يقلب فى شىء إلى جواره كالصندوق، ثم يخرج يده من هذا الشىء، وقد قبض على رأس بشعة مخيفة لثعبان ضخم.

وصاح "أبو المكارم" صيحات فزعة متصلة.

ولم يعبأ الرجل وأدار الرجال رءوسهم، وإن استمروا قابضين عليه، فى قسوة ووحشية.

وأخذ الرجل يدنى رأس الثعبان منه رويداً رويداً ... فى بطء ثقيل مميت.

وعندما كاد رأس الثعبان يلمس وجهه، توقف الأعرابى قليلا ليقول له... ما هذا؟ انطق...تكلم...تكلم.

ولم ينطق "أبو المكارم" ولم يتكلم، وإنما ازدادت صيحات فزعه المتصلة ارتفاعاً.

وعـاد الرجل يحـاول أن يدنى رأس الثـعـبـان من وجـهـه ... وهو يقـول له...
انطق...تكلم...ما هذا؟

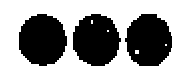
وكان جسم الثعبان قد خرج من صندوقه، فبدا شيئاً مرعباً مخيفاً ... وأخذ يتحرك ملتفا حول يد الأعرابى مرة وحول صدره مرة، ثم إذا هذه الحركة تنتقل إلى "أبو المكارم" فيهوى الثعبان بذيلة على وجهه.

هنا شعر "أبو المكارم" بجسم بارد ناعم يلامس وجهه ... بل يتابعه بضربات متصلة فى مواضع مختلفة من وجهه.

بينما رأس الثعبان يقابل شفتيه.

وهو يحرك أنيابه فى وحشية غادرة.

وعيناه تحملقان فى وجهه بصورة متصلة.



ولم يدر ماذا حدث.

ولكنه شعر بقوة الدنيا كلها تتجمع فيه، وجبروت العالم كله يلتقى فى جسمه الصغير.

واستطاع أن يفلت من الرجال الثلاثة الذين قبضوا عليه.

وأخذ يجرى، وهم يجرون وراءه.

... يجرى، وهم يجرون وراءه.

... يجرى، وهم يجرون وراءه.

حتى تقطع نفس الرجل الذى هو من طرف "الحاج سلطان"، فجلس على الأرض يستريح.

أما الرجلان الآخران، فقد أخذا يناديان على "أبو المكارم" ليقف، كما أخذا يقسمان له، أنه لن يعود ذلك للأعرابى.

ولكن سرًّا خفيًّا كان قد أخذ يحركه، فظل يجرى، وهما يجريان وراءه.

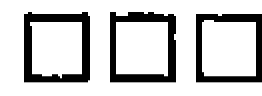
ولم يسلك الطريق المحاذى للترعة، ولكنه كان يجرى بين الحقول، وفى المزارع، حتى وصل إلى قرية من القرى، اقتحمها وأخذ يعدو فى طرقاتها، كما لو أنه يعرفها، ويعرف مسالكها وخباياها.

وهما وراءه يعدوان فى إصرار، فإنهما رسولا أهل القرية معه، ولا يستطيعان أن يعودا إلى القرية بدونه.

بينما هو يجرى فى طرقات القرية، وهما يجريان خلفه، أخذ أهل القرية يتجمعون، ليجرى عدد منهم وراء هذا الموكب الوافد الغريب ... ويتبعهم الآخرون فى سير حثيث.

وعند أحد المنعطفات، فى طرف من أطراف القرية ... أمام بيت صغير مهجور، أمامه نخلتان وقف " أبو المكارم".

ثم ارتمى أمام الباب باكياً منتحباً.



٣

قد يهون العمر إلا ساعة وتهون الأرض إلا موضعا

رحم الله الشاعر ... رحم الله شوقى.

صحيح أن العمر كله، قد يمضى، فلا يتخلف عنه إلا ساعة، لها فى النفس عمق خاص، يجعلها تساوى العمر كله، فإن هان، فإنها تهون.

والأرض كلها قد تستوى، لا يتميز منها إلا موضع، له فى ميزان النفس أثر خاص يجعله يفضل الأرض جميعاً، فإن هانت، فإنه لا يهون.

والساعة التى لا تهون، والموضع الذى لا يهون، شىء يختلف باختلاف الأشخاص فلكل ساعته الأثيرة، ولكل موضعه الحبيب.

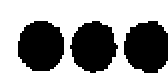
... وقد كان هذا الموضع، أمام البيت المهجور، فى تلك القرية الصغيرة، هو الموضع الحبيب لدى "أبو المكارم".

هدته إليه غريزته، فأخذ يعدو، تقوده قدماه، وقلبه، إلى الموضع العزيز الحبيب.

كان مجهداً يبحث عن مضجع يسند عليه خده الحائر.

وكان مكدوداً يريد مكاناً يلقى عليه بأثقال نفسه.

وكان خائفاً يطلب الأمن، فى مأمن.



ولقد ارتمى أمام باب البيت المهجور، وانكفأ على الأرض، ليطلق العنان لصيحاته ودموعه وأنينه.

والرجلان مذهولان أمام هذا المنظر الغريب، وقد أخذ منهما الجهد والتعب مأخذه حتى لقد وقفا والعرق يتساقط عليهما كأنه المطر.

وجمع كبير من أبناء القرية، الصغار والكبار، والنساء، تجمعوا حول "أبو المكارم" وحول الرجلين اللذين كانا يعدوان خلفه.

ومضت لحظات قصار صامتة، وإن تخللتها همهمة غير مفهومة، وغير واضحة وسمع الرجلان نداءات حزينة من أهل القرية تردد اسم: "محمود".

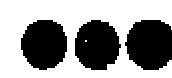
ولم يفهم الرجلان شيئاً.

وتكرر الاسم ... تكررت معه عبارات استفسار:

متى عاد محمود؟ من أين أتى؟.. أين كان؟ رحم الله والديه، ولعن الله الإنجليز.

ثم عادت العبارات تتكرر وترتفع:

من يوم حادثة اعتداء العساكر الإنجليز اختفى ... ترى أين كان؟ لقد ظننا أنه قتل مع بقية أفراد أسرته ... قتله المجرمون.. ولكن الله لطف به ... ترى أين كان؟...



وبدأ الرجلان يتبينان أن هذا الحديث لابد أن يكون عن "أبو المكارم".

إذن هو "محمود" الذى يتحدثون عنه. وإذن وراءه قصة دامية. جريمة قتل غادر...

ومرت بالرجلين سحابة باهتة غامضة، لم يستطيعا أن يتبينا لها أولا ولا آخراً، إلى أن تقدم منهما رجل مسن كبير، من أهل القرية، وكانت لحظات الذهول الأولى، قد مرت فى سرعة، ولا يزال بكاء "أبو المكارم" ونحيبه متصلا لا ينقطع.

ولقد اشترك معه فى البكاء والنحيب عدد من أهل القرية، من الرجال ومن النساء.

بل لقد انحنت عليه بعض النساء محاولات أن يخففن عنه، وأن يضممنه إلى صدورهن فى حنان.

ولكنه ظل مع هذا ماضيا فى البكاء وفى النحيب.

ودارت بين الرجل المسن، والرجلين الغريبين مناقشة، بدأت حادة أول الأمر ثم باكية آخر الأمر.



- ماذا تريدان منه؟ ماذا فعل هذا المسكين؟ من أنتما؟

- ومن أنت؟.. من تكون؟.. إنه منا.

- بل منا. ونحن أهله. ابننا هو، فنحن هنا عوض عن أبيه.

- بل ابننا نحن ... ونحن أقرب الناس إليه.

- المسألة ليست خطفاً ... ها أنتم إنجليز؟ الإنجليز قتلوا أباه وأمه وإخوته جميعاً ... واختفى هو ... ولقد بحثنا عنه، فلم نعثر له على أثر، حتى عاد إلينا أخيراً ... إلى أحضاننا وبيوتنا، ولن نتركه بعد اليوم.

- عمن تتحدث ... عن "أبو المكارم"؟.

- حتى اسمه تريدون تغييره ... إنه محمود. نحن نعرفه ... ولد على أيدينا فى هذه الدار، وفى هذه القرية، ما هذا؟

- بل هو "أبو المكارم"...

- بل محمود.



وكاد الأمر أن يصبح معركة، لولا أن اقترح أهل الخير أن يجلس الجميع ليفهم كل طرف عن الطرف الآخر حقيقة الموضوع.

وعلى إحدى مصاطب القرية، جلس الرجال، بينما أحاطت النساء "بأبو المكارم" حتى خفت حدته، وهدأت ثورة نفسه.

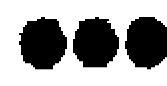
وحاولن أن يأخذنه إلى دار قريبة، فأبى إلا أن يدخل دار أبيه..هذه الصغيرة المهجورة، التى لم يدخلها أحد بعد المأساة.

واكتشفت القرية أن "محمود" قد أصبح أخرس، لا ينطق.

وبدأ النساء يبكين كما لم يفعلن من قبل.

يتحدثن إليه فلا يجيب، فتتحدر دموعهن على خدودهن، وهن يدعون الله أن ينتقم من الإنجليز.

وعادت ذكرى المأساة إلى القرية الهادئة، فاستعادت سنوات من عمرها مجيدة ولكنها مع ذلك حزينة.



كان ذلك منذ سنوات، كادت القرية من هولها، تنسى عددها.

وكانت الحرب الكبرى على أشدها بين الحلفاء والألمان.

على أن القرية الصغيرة النائية لم تكن تدرى أن هناك حرباً تدور، إلا أن السلطة تنتزع بين الحين والحين عدداً من رجالها، ليذهبوا بهم إلى حيث لا تعرف القرية لهم مصيراً.

وعندما بدأت السلطة تنتزع العدد الأول من الرجال، سرى فى وهم القرية أنهم ذاهبون إلى مصير محتوم..لن يعودوا..سيذهبون إلى غير رجعة.

وبكت القرية، وودعت رجالها بالعويل والنحيب، والزاد والدعوات كذلك.

وعاشت نساء الرجال الذين ذهبوا، كأرامل فقدن أزواجهن.

وعاش أطفالهم كيتامى.

والتفت القرية كلها حول الأرامل، بلا ترمل، واليتامى بلا يتم...تحنوعليهم وتخفف عنهم، وتحاول ما وسعها الجهد، أن تعوضهم ما فقدوه من الرجال.

وبينما أخذت القرية تتلفت بعين حانية إلى هؤلاء النساء والأطفال، أخذت تتلفت بعين حمراء إلى قطارات السكة الحديد، وهى تحمل جنوداً ذوى وجوه حمر، يعبون شراباً من زجاجات مختلفة الألوان والأحجام، ثم يلقونها بعد ذلك فارغة من نوافذ القطارات..وقد تصيب رجلا، أو تمرق من جوار امرأة، أو تصطدم بالأرض فيكون لها دوى مخيف... وقد يلقون مع الزجاجات الفارغة بقايا أرغفة لم تعرفها القرية من قبل، ويقولون إنه خبز مخصص لهؤلاء الخواجات...فينو هكذا يسمونه.

وكثيراً ما كانوا يلقون علباً بها بقايا شىء من سمك محفوظ يسمونه السردين، أو لحم أحمر مشوب بالبياض، يرجحون أنه لحم خيل أو خنزير.

على أن القرية لم تكن تعبأ بهذه البقايا أول الأمر، إلا لتفرغ العلب ويستعملها الأولاد يلعبون بها فرحين، والكبار يحفظون بها بعض الحاجيات.

والعين الحمراء تتجه إلى قطاراتهم أبداً... هؤلاء الذين انتزعوا بعض الرجال إلى المصير المحتوم.

أين يا ترى ذهبوا بهم؟..

ماذا يفعلون بهم؟..

هل دفعوا بهم إلى الحرب، حتى يوفروا أنفسهم للنصر، وما وراء النصر من مغانم وأرباح؟

وهل تراهم قتلوا؟..

وأين يا ترى؟

وكيف دفنوا؟

هل صلوا عليهم، صلاة المسلمين؟

أم تركوهم نهباً للطيور، فى عرض الطريق؟

..وتغلى الدماء فى عروق الرجال، وتتجمع النساء يندبن ويولولن..ويصمت الأطفال وهم يرقبون الأمور فى سذاجة الأبرياء.

فإن مر قطار يحمل عدداً من الجنود الإنجليز، فى صخب السكارى، واستهتار العابثيين اتجهت إليه العيون، فى حقد، وكراهية، ورغبة مكبوتة للثأر، للذين انتزعوا، وكانوا ملء السمع والبصر جميعاً.

ولكم ذهب أهل القرية يسألون العمدة عما يعرفه عن الرجال.

ولكن العمدة لم يكن يملك إلا إجابة واحدة : أخذتهم السلطة.

- وما السلطة هذه يا حضرة العمدة؟...

- ..السلطة يا أولاد السلطة.. شيء لا نعرفه، ولا نستطيع أن نقف أمامه.

- وهلا تسأل يا حضرة العمدة؟

- أسأل ... أسأل من؟

- اسأل ضابط النقطة يا حضرة العمدة.

- تريدون أن تنتهوا منى أنا أيضاً يا أولاد

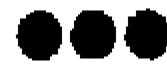
- لماذا يا حضرة العمدة؟..السؤال ليس حراماً يا حضرة العمدة.

- لا ..عن السلطة...أعوذ بالله ! حضرة الضابط نفسه لا يستطيع أن يسأل.

- ورجالنا يا حضرة العمدة ..شبابنا؟..

- الله يلطف بنا وبهم يا أولاد...هذه أيام محنة، وعلينا أن نصبر، والله مع الصابرين.

وينصـرف النـاس، بعـين تبكى على النسـاء والأطفـال الذين ذهب أزواجـهم وآباؤهم، وعين ترقب القطارات التى تحمل الجنود الإنجليز، الوحوش السكارى.



على أن "السلطة" لا تدع القرية تستـريح، فـيـقـبل ضـابط النقـطة بأوامـر جـديدة ...بانتزاع عدد جديد، من رجال القرية وشبابها.

وتشعر القرية أنها باتت لا تعرف لها مصيراً...

كل من فى القرية أخذ يرقب يومه عن قريب، أو عن بعيد.

كل رجل، كل شاب، بدأ يعيش فى كابوس رهيب من المحنة. ينام فيحلم برجال أقوياء يشدونه شدًا، إلى حيث لا يدرى له مصيراً. ويستيقظ مفزوعاً، يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم.

وكلما مر قطار به جنود إنجليز، كاد الرجال أن يتخفوا بين أعواد الذرة، وسنابل القمح.

وكل امرأة، بدأت تتوقع أن يأخذوا منها زوجها، لتنضم إلى فريق الأرامل، بلا ترمل.

وسرى فى جو القرية شعور كريه، بالخوف من المجهول.



على أن القرية تفتح عينيها ذات يوم، فتجد بعض الرجال الذين كانوا قد ذهبوا، وقد عادوا إليها كأنما قد بعثوا من جديد.

وتتجمع القرية حول العائدين، يتحسسون جباههم وأيديهم وارجلهم، لتتأكد أنهم عادوا إليها كما ذهبوا منها.

هل كنتم تحاربون؟

هل كنتم تطلقون الرصاص على الألمان؟

إلى أين أخذوكم، وكيف عاملوكم طيلة هذه المدة...؟

وهل رأيتم فلاناً، وفلاناً، وفلاناً ...من إخوانكم؟..

وتتلاحق الأسئلة، وتتلاحق الاستفسارات، وتتجمع النساء من أهل الذين انتزعوا ذات مرة...يسألن فى لهفة عن رجالهن...

وتتداخل الأصوات، وتزدحم المشاعر، حتى ليعجز القادمون عن الكلام، ويعجز المنتظرون عن الاستماع إلى الأنباء.

فما إن تهدأ المشاعر، حتى تعرف القرية قصة الذاهبين.

بعضهم أخذوه إلى القنطرة، وبعضهم إلى الواحات، وبعضهم إلى صحراء لايعرف أين تقع، وكلهم أخذوا يقومون بأعمال النظافة أو حمل المؤن، أو حراسة بعض المنشآت.

- ألم يضربوكم؟ ألم يهينوكم؟ ألم يجلدوكم؟

- بل الإهانة هى جو الفزع الذى نعيش فيه. الإنجليز يحرسوننا بالبنادق، وأصوات المدافع لا تنقطع تطن فى آذاننا دون أن نعرف أين مصدرها، ولا ماذا وراءها !

- وماذا كنتم تأكلون؟

- يصرفون لنا علباً بها لحم لا نعرفه...مثل هذه..

- لحم خيول...لحم خنازير.

- طبعاً ونحن لا نأكلها ...أتينا بها لتروها.

- وخبزكم...هذا الذى يسمونه فينو؟

- نعم، ولكنه لا يشبع... ونحن نأكله لأنه الخبز الوحيد الذى نحصل عليه هناك، على أنهم يعطوننا علباً فيها جبن أصفر وأحمر، وعلباً أخرى بها شاى، وسكر كهذا ... قطع صغيرة كما ترون.

- ولا يدفعون لكم أجراً على عملكم؟

ـ جنيهين ونصفا إلا عشرة قروش، نشترى منها بعض لوازمنا من دكان هناك يقولون عنه الكانتين ويتبقى لنا كل شهر جنيه ونصف جنيه على الأكثر.

ـ وهل يستونكم شيئا مما يشربون؟

ـ نعوذ بالله.. لا حول ولا قوة إلا بالله.

ـ وكيف تتكلمون معهم؟

ـ وهل بيننا وبينهم كلام؟.. إننا نعمل طول النهار، وأحياناً طول الليل أيضاً، فإذا كان هناك شىء يحتاج لكلام فبالإشارات، أو عن طريق ناس يتحدثون بلغتنا وبلغتهم.

ـ مسلمون هؤلاء ...مصريون؟

ـ لا لا ...فإنهم يسكرون معهم ويعيشون مثلهم، ووجوهم ليست مثل وجوهنا يقولون عنهم إنهم يونانيون، أو من بلد اسمها قبرص.

ويقضى الرجال القادمون يومين أو ثلاثة فى القرية فى فزع دائم، يهبون من نومهم صائحين، كالذين يستيقظون من كابوس مخيف، ويرددون كلاماً غريباً ...

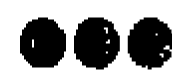
المدافع الطائرات ... لا ياخواجه... والله لم أكن أنا.

وكلام كثير من هذا القبيل، تشعر القرية أنه من أثر الحياة المفزعة التى يحيونها هناك، فى الصحراء، وفى المعسكرات، تحوطهم عيون لا تغفل، وأسلحة مصوبة إلى ظهورهم أو صدورهم...تخفى بين طياتها الموت.

وتكتم القرية غيظها، وتتمنى لو أخفت أبناءها فلا يعودون.

ولكن العمدة، ووراءه الخفراء، وفوقهم ضابط النقطة، ومن فوق هؤلاء مأمور المركز والحكمدار والمديرية، والحكومة كلها..تؤكد أن فى هذا خطراً على البلد كلها وعلى هؤلاء أن يعودوا بعد انتهاء إجازاتهم، وإلا فالويل والهول والخراب.

ـ وهل نقدر نحن على السلطة؟!



وتعيش القرية حياة كلها أمل، فى أن تستقبل بين الحين والحين بعض رجالها ممن انتزعتهم السلطة، يقضون بها أياماً، ثم يعودون...

وكلما أقبل فريق منهم تزداد كراهية القرية للإنجليز، وحقداً على "السلطة" الغاشمة، التى تأخذ الرجال ثم تعيدها ليحلموا طيلة نومهم بالقنابل والرصاص وأزيز الطائرات، ويهبون فزعين يقولون كلاماً يملأ قلوب أبناء القرية بالهول والخوف والقلق.

وكان ثلاثاء...يوم ثلاثاء: سوق القرية كل أسبوع.

وهو يوم مشهود فى حياة القرية، متجدد دائماً، تعرض فيه ما يفيض عن حاجاتها وتستقبل فيه ما يفيض عن حاجات الآخرين، من القرى المجاورة.

على أنه إلى جوار ذلك، فرصة تتلاقى فيها القرية بالأهل والأصهار والأحباب من أبناء القرى المجاورة، فتقضى يوماً جميلا فيه الأنباء، وتتعرف فيه على الأخبار.

على أنها منذ بدأت الحرب، وأخذت السلطة تنتزع الرجال، بدأت القرية تستقبل يوم الثلاثاء من كل أسبوع استقبالا فاتراً متراخياً حزيناً.

فإنها لم تعد تسأل عمن تزوج من شباب هذه القرية أو تلك، وكم دفع من مهر لعروسه الجميلة الفاتنة، وكم تلقى من نقوط يوم الصباحية ومم يتألف جهاز العروس.

ولم تعد تسأل عمن ولدت هذا الأسبوع وكيف كانت ولادتها.

ولم تعد تسأل عن الذين ذهبوا إلى رحمة الله، ومن خلفوا وراءهم من الأبناء والبنات.

لم تعد تسأل عن هذا، أو عن شىء من هذا.

وإنما أصبحت أسئلة القرية جميعاً عمن انتزعته السلطة هذا الأسبوع من أبناء القرى الأخرى، وعمن أتى من هؤلاء المساكين فى إجازة لبضعة أيام، وماذا كانت أحاديثهم، وهل يهبون بالليل إذا ناموا فزعين خائفين مذعورين ... وهل يقولون كلاماً

مهماً غامضاً يثير القلق والخوف..وهل يروون شيئاً عمن يقابلونهم هناك من أبناء هذه الناحية ... وكيف يعاملهم الإنجليز ...ألم يروا واحداً منهم، وهل جلد أو ضرب أو أهين؟

وهكذا بدأ يوم الثلاثاء يأخذ اتجاها آخر فى القرية، وأصبحت أحاديث الثلاثاء كلها حول الغائبين الذين لا يعرف أحد لهم مصيراً.

وفى ثلاثاء هذا الأسبوع، والقرية ماضية قليلا فى بيع أو شراء، للحاجات المحدودة التى تعرضها قرى الناحية، وماضية كثيراً فى أحاديث عن الغائبين، إذا بشىء كالتجريدة يهب عليهم فى غير استئذان أو انتظار.

العمدة ووراءه الخفر، وإلى جواره ضابط النقطة وعدد من العساكر.

وخلف هؤلاء أصحاب الوجوه الحمر كقطع الكبدة المحروقة، وفى أيديهم البنادق تطل منها أنصال السونكى، تبرق تحت وهج الشمس، بالوعيد والتهديد.

وكتم الناس أنفاسهم من هول المفاجأة.

مزيد من الرجال مطلوبون للسلطة...

مزيد من الشباب، سينتزعون من بين أحضان القرية الحانية...

ووجم الجميع فى هلع.

كل رجل أخذ ينتظر دوره فى أن يساق إلى حيث لا يعرف المصير !

كل امرأة سمرت عينيها فى رجلها، حتى تملأ منه عينيها قبل أن يساق إلى هذا المصير.

والأطفال الذين سمعوا من قبل قصصاً وحكايات عن آباء ذهبوا ولم يعودوا، تعلقوا بأطراف جلاليب آبائهم، يشدونهم إليهم فى خوف وفزع.

ومرت لحظات وجوم رهيبة...

ونطق العمدة أخيراً:

يا رجال..يا أهل البلد...اسمعوا...إن الإنجليز أصدقاؤنا، وهم يحاربون فى بلادنا، ليدافعوا عنا...وهم ضيوفنا، وعلينا أن نكرمهم بكل ما نملك.

أليس من أخلاقنا إكرام الضيوف؟ ولو أنهم نزلوا عندنا، فى بيوتنا، لقدمنا إليهم كل ما نستطيع من ألوان الكرم والضيافة.

على أنهم قادمون إليكم اليوم، ليشتروا حاجاتهم من القمح والطيور والدواب والخضروات والفواكه، وسيدفعون لكم الثمن. فهيا قدموا لهم كل ما تملكون

علينا أن نساعدهم، وأن نعاونهم، فلا يجوز أن يكونوا فى بلادنا، ويجوعون، وهم فى حرب من أجلنا، ونحن أهل كرم وسماحة.

هيا ... هيا قدموا لهم ما لديكم من حاجات.

وعلى الذين فى بيوتهم حبوب مخزونة ...قمح. فول. ذرة. دجاج. بيض. خضروات. جبن. لبن. أى شىء. أن يذهب لإحضاره هنا، حتى يبيع لهم ذلك ويقبض ثمنه على الفور.

ولم يتحرك أحد.

وارتفع صوت العمدة وهو يقول: هيا يا أهل بلدنا..يا عبد الستار، يا مبروك يا رابعة يا أم السعد، يا مدبولى ...هيا جميعاً.

ولم يتحرك أحد.

وتقدم الخفراء، وتقدم العساكر، وضرب الإنجليز حصاراً حول السوق.

وبدأ شيخ الخفراء يستولى على ما فى السوق من حاجات، ويفرغها فى صناديق كبيرة يحملها بعض الرجال.

ثم بدأ العمدة ينادى الرجال رجلا بعد رجل ...

أنت تذهب لإحضار العجول التى لديك...

فلا يتحرك إلا لأن خلفه جنديين شاكيى السلاح.

وأنت تذهب لإحضار البقرة التى عندك...

فلا يتحرك، إلا لأن فوهات البنادق وراء ظهره.

وأنت ...وأنت، وهذا..وذاك.



وكان ثلاثاء حزيناً مزعجاً، جرد القرية مما لديها من حاجات، وترك فى كل بيت من البيوت بضعة جنيهات جديدة وبضعة ريالات براقة.

وانفضت السوق بلا كلام، ولا سلام.

الغرباء انسلوا حزانى حيارى.

وأهل البلد هجعوا إلى دورهم لا ينطقون.

ومرت ساعات طويلة ثقيلة مملة، فلما أقبل المساء، ذهب الرجال إلى المسجد لصلاة العشاء...وهناك بدأوا يتحدثون، ويتناقشون ويتصايحون.

وقرروا أن يذهبوا إلى العمدة ليستوضحوه هذه المفاجأة، وهل ستتلوها يا ترى مفاجآت.

وكان العمدة بدوره ساهماً واجماً ..يكاد يدارى وجهه من الرجال.

- ما هذا يا حضرة العمدة؟...

- هذا أمر الله يا أولاد.

- أى ضيوف هؤلاء يا حضرة العمدة..وكيف أوجبت علينا إكرامهم...ضيوفك المسلحون بالبنادق والرصاص !.. إنهم لصوص لا ضيوف !..من دعاهم يا حضرة العمدة؟

- الله يخرب بيته...

- من يا حضرة العمدة؟

- الذى أتى بهم إلينا يا أولاد.

- تقصد الخديو يا حضرة العمدة؟

- يا أولاد...حرام عليكم...يهون عليكم عمدتكم !

- يا خسارة عرابى يا حضرة العمدة.

- مائة خسارة يا رجال.

- وماذا نعمل بهذه الجنيهات يا حضرة العمدة؟ نحرث بها الأرض، بدلا من البقر الذى أخذوه...تحلب لنا اللبن وتصنع لنا الجبن، وتخبز لنا الخبز يا حضرة العمدة؟

- الحرب يا أولادى...الحرب.

- حرب من ياعمدتنا...جهاد فى سبيل الله؟

- حرب الألمان يا أولاد.

- ومالنا نحن والألمان؟..هل آذانا الألمان؟ هل احتلوا بلادنا؟ هل أخذوا أولاد بلادنا إلى حيث لا نعرف لهم مقرًا..ما دخلنا نحن فى حربهم هم؟

- لو غلب الألمان، سيحتلون بلادنا.

- بالله يا حضرة العمدة..من قال هذا؟...الإنجليز قالوا هذا يا حضرة العمدة؟

- ما ذنبى أنا يا أولاد...ما ذنبى؟

- اترك لهم العمدية يا عمدة...

- لمن يا أولاد؟

- اتركها خالية، بلا عمدة.

- وهل يحميكم هذا منهم؟ أنا مستعد، بشرط أن تضمنوا ألا يعودوا.

- نحاربهم يا عمدة.

- بماذا يا أولاد؟

- بأرواحنا يا عمدة...الحياة التى يدفعوننا إليها كلها ذلة واستعباد، فليقتلونا جميعاً ...ليذبحونا..يريحوننا على الأقل من هذه الحياة التعسة التى نحياها.

- هذا كلام...

- لماذا كلام؟.نموت جميعاً ياعمدة أكرم لنا ولأولادنا..فليأخذوا بلداً خالياً من الرجال والنساء والأطفال، فلا يجدون فيه من يستعبدونه أو يذلونه.

- وماذا تربحون من هذا يا أولاد؟

- ولماذا نفكر هل نربح أو نخسر...المهم أن نعيش بكرامتنا، أو نموت بكرامتنا.

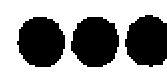
- العقل يا رجال ...الصبر يا رجال...كل محنة ولها آخر.

- آخر...آخر...وأين رجالنا؟ ...أين أولادنا؟..أين شبابنا؟هل تعرف أنت، وأنت العمدة، أين هم؟ إنهم يعودون إلينا مفزوعين صفر الوجوه من هول الحياة التى يحيونها..يا فرحتنا بالريالات التى يعودون بها..لا نريد هذه الريالات. لا نريد هذه النقود. نريد إخواننا وأبناءنا بيننا، ينامون هانئى البال ويستيقظون منشرحى الصدر، ونتقاسم لقمة العيش فيما بيننا، والستر من عند الله. إن أرض الله واسعة، وليس فى بلدنا، من يموت من الجوع.

- العقل يا أولاد. اصبروا. كونوا رجالا، وهى غمة ستزول.

- يا عمدة طاوعنا.

- وإذا قتلوا رجالنا هناك. إذا رموهم بالرصاص. إذا عذبوهم. إذا أهانوهم انتقاماً منكم...



ونكس الرجال رؤوسهم، وانصرفوا مهمومين حيارى.

وبات كل الرجال، وكل النساء، وكل الأطفال، وفى أحلامهم رؤى تختلف، وتتلاقى عند شىء واحد رهيب وحزين.

الرجال رأوا فى أحلامهم أنهم فى حقولهم يزرعون ويحصدون، ويترقبون قدوم زوجاتهم بطعام الغداء، وإذا جمع من العساكر الإنجليز، فى أيديهم بنادق، وعلى رؤوسهم خوذات، ومن أفواههم تفوح رائحة كريهة هى خليط من الخمر والتبغ.. ويتقدمون منهم فى غلظة، ليسوقوهم سوقاً إلى القنطرة، أو السويس، أو حدود الصحراء...دون أن يروا زوجاتهم أو أولادهم.

والشباب رأوا فى أحلامهم أنهم يسيرون على حافة الترعة، ينتظرون أسراب الفتيات العائدات من الحقول، ليتبادلوا معهن النظرات، ويزدادوا بهن هياماً..وإذا العمدة قادم بخفرائه، ليأخذوهم أخذاً عنيفاً إلى السلطة...قبل أن تمتلىء عيونهم برؤية فتيات الأحلام، أو تمتلىء قلوبهم بخفقات رقيقة حلوة، تغرسها نظرات ناعسة حنون.

والنساء والفتيات...رأين فى أحلامهن، مناظر فراق مخيفة، وموقف وداع، ودموع لوعة وأسى.

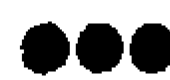
حتى أطفال القرية رأوا بدورهم أحلاماً غامضة مبهمة، لم يعرفوا لها تأويلا ولا تفسيراً...

الجميع عاشوا ليلتهم تلك فى رؤى وأحلام، حولت حياة القرية بعد ذلك إلى شىء لم تألفه من قبل.

شرود حزين متصل، وتوقع شىء ما قد يحدث فى أية لحظة من لحظات النهار أو الليل.

وبات الناس يتعاطفون، ويتوادون...كأنما مصيرهم على فراق.

ولم يعد يشغل القرية شىء، إلا أنها تنتظر شيئاً غامضاً مجهولا.



وذات صباح تردد فى القرية ان الحرب انتهت.

إذن سيرحل الإنجليز. وإذن سيعود الغائبون. وإذن سيزول الكابوس الرهيب الذى سيطر على حياة القرية كل هذا الزمن الطويل.

لن تكون هناك بعد ذلك سلطة تنتزع الناس من بيوتهم إلى حيث لا يعرف لهم أحد مصيراً.

لن تكون هناك تجريدة لسلب المحاصيل والدواب والطيور.

لن يكون هناك ضيوف ثقلاء، يفرضون وجودهم على حياة القرية بالحديد والرصاص والنار.

لن يكون هناك نهب باسم الكرم والضيافة ورعاية الضيوف الثقلاء.

لن تمر القطارات بالوجوه الحمر السكيرة العابثة.

ولن يقذف الجنود زجاجات فارغة، أو بقايا طعام حرام.

سيذهبون إلى غير رجعة إن شاء الله.

وفرحت القرية بالنبأ، وخيل إليها أنها ستستريح من الكابوس الذى خيم على حياتها هذا الزمن الطويل.

وتنفست الصعداء.



ومرت الأيام، والغائبون لم يعودوا.

وقطارات الإنجليز تروح بهم وتجىء.

والسُّكر سُكر، والعربدة عربدة، والعبث عبث.

والزجاجات الفارغة تقذفها القطارات كما تقذف بقايا المأكولات الكريهة.

والتجريدة المسلحة تأتى بين الحين والحين، لتسلب القرية ما تملكه من دواب وماشية ومحاصيل.

والسلطة تنتزع بعض الرجال، لمصير مجهول.

والعمدة عاجز عن التفسير.

- ألم تنته الحرب يا عمدة؟

- نعم، وانتصر الإنجليز.

- إذن لماذا لا يتركون رجالنا وأولادنا؟

- لا أدرى.

- إذن لماذا لا يشيحون عنا بوجوههم الكريهة؟

- لا أدرى.

- ومحصولاتنا وماشيتنا...ماذا تنفعنا الجنيهات التى يدفعونها؟..هل يشترون بها سكوتنا يا عمدة؟

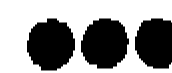
- لا أدرى.

- لماذا لا تدرى؟..ومن يدرى وأنت العمدة؟

- أيضاً..لا أدرى.

- إننا لا نريد جنيهاتهم. لا نريد هذه النقود. لقد كنا أسعد حالا، بحياتنا البسيطة المحدودة، منا نحن الآن، وقد ارتفع سعر القطن، وساد رواج زائف لا يحمل لنا إلا الهم...قل لهم هذا يا عمدة.

- لا أستطيع.



وتغلى القرية بالحقد والكراهية والغضب، وتزداد رغبتها فى الثأر، وإن كان ثمنه الموت.

ويتجمع الرجال وتتجمع النساء، يريدون أن ينتهوا إلى رأى فى طريقة أخذ الثار من هؤلاء الغزاة، الذين خدعوهم باسم الضيافة، وباسم الحماية، وباسم الدفاع عن الحرية.

وبينما هم على وشك الانتهاء إلى خطة لعمل انتقامى يريحهم مما هم فيه، إذا بشيخ وافد عليهم من بلد قريب.

شيخ يعرفونه، ويعرفون عائلته، ويثقون به ثقة لا حد لها، فهو إمام من أئمة الدين الحنيف، وله فى نفوسهم مكانة وقدر كبير.

وفى دوار العمدة اجتمع الشيخ بالرجال، وانبأهم بأنه قادم إليهم بعرائض تحمل توكيل الأمة لوفد من أبنائها، ليطالبوا الإنجليز بالجلاء عن أرض الوطن، وتنفيذ ما وعدوا به من قبل، من إعلان استقلال مصر وإنهاء الحماية الإنجليزية لأراضيها.

وفرح الرجال والنساء والأطفال، وأقبلوا يملأون هذه التوكيلات فى حماسة منقطعة النظير ...

الذين يقرأون ويكتبون، وقعوا بأسمائهم.

والذين يملكون أختاماً، وضعوا أختامهم على التوكيلات.

والذين لا يقرأون ولا يكتبون، ولا يملكون كذلك أختاماً، وضعوا بصماتهم على هذه التوكيلات.

حتى النساء أقبلن مزغردات، وهن يضعن بصماتهن على التوكيلات.

وبهذا وكلوا سعد زغلول وعبد العزيز فهمى وعلى شعراوى، لمطالبة الإنجليز بالخروج فوراً من أرض الوطن، وتطهير هذه الأرض من الاحتلال.

من وجوههم الحمراء كالكبدة المحروقة.

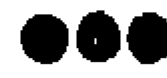
من دبيبهم الكريه، كدبيب البغال.

من عبثهم ومجونهم ولهوهم الصاخب.

من أخذهم الناس بالقوة إلى حيث لا يعلمون.

من استيلائهم على المحاصيل والماشية والدواب.

حتى من جنياتهم، والرخاء المصطنع الذى يحاولون به أن يشتروا الناس.



وأحست القرية بعد أن وقعت على هذه التوكيلات، أنها أخرجت بتوقيعاتها همّا حبيساً فى وجدانها.

وأخذت تسأل الشيخ الوقور وتستوضحه.

- وهل سيحسن وكلاؤنا الدفاع عنا، وعرض قضيتنا؟

- بطبيعة الحال، فأحدهم وكيل الجمعية التشريعية المنتخب، وثانيهم قانونى ضليع له باعه فى التوضيح والبيان، والثالث كبير له قدره وله مكانته.

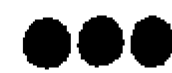
- ألا يخدعهم الإنجليز بالمراكز والأموال؟

- الأمة وكلتهم، وسيحافظون على ثقة الأمة فيهم، فإذا انحرفوا، فالأمة تملك أن تسحب التوكيل، وتمارس بنفسها حقوقها، وتطهر الأرض من الإنجليز.

- نحاربهم إذن...

- نعم...نثور عليهم، ونجعل بقاءهم فى هذه الأرض جحيما لايطاق.

- نعم ...هذا هو الواجب. أخذوا أبناءنا وسلبوا أقواتنا، وحرمونا النوم الهادىء الهانىء زمنا طويلا...متى نلتقى بهم لنثأر منهم؟



وبدأت القرية تتنسم الأخبار..

ولأول مرة بدأت تعيش مع تطورات الموقف يوماً بيوم، بل ساعة بساعة.

لم تعد حياتها تنتهى عند قضبان السكة الحديد، أو جسر الترعة، بل امتدت إلى القاهرة.. وإلى أخبار الوفد الذى وكلته عنها، ليطالب بحقوقها.

وجاءتها الأخبار أن الوكلاء ذهبوا إلى دار المندوب السامى، وأنهم قدموا طلبات الأمة إليه : الجلاء عن أرض الوطن، وأن تبر بريطانيا بوعدها فى إعطاء مصر حقوقها فى السيادة والاستقلال.

وبدأت القرية تفهم معنى الجلاء، ومعنى الحرية، ومعنى السيادة، ومعنى الاستقلال.

وبدأت هذه المفهومات الجديدة، تملأ عقلها بالاقتناع، وتملأ وجدانها بالحرارة والأمل.



ولكن الوفد الذى وكلته الأمة بالدفاع عن حقوقها قد قبض عليه. قبضت عليه السلطة ونفته إلى الخارج، إلى حيث لم يكن يعلم أحد له مصيراً.

تماماً كالرجال الذين انتزعتهم السلطة من بين أحضان القرية.

وتماماً كالسلب والنهب، الذى كانت تقوم به السلطة لتحصل على ما فى القرية من محاصيل ودواب ومواشٍ.

إذن فالإنجليز لا يريدون أن يخرجوا.

ولابد من عمل سريع، ترد به الأمة على هذا التحدى.

وسرى إلى سمع القرية، أن الثورة قد بدأت، وأن القاهرة وكل مدن مصر، قد أضربت احتجاجاً على نفى الزعماء الموكلين بالمطالبة بحقوق الأمة.

هل تسكت القرية، وهى التى قضت زمناً من عمرها مقروحة العين، مجروحة القلب؟

لا ... فلتكن هى أيضاً، ثورة على الإنجليز.

ودبرت القرية أمرها، وأعدت خطتها.

لم تكن محتاجة إلى من يرسم لها طريقها، فقد كانت تعرف هى هذا الطريق، بغريزتها وبأحقادها على الإنجليز، وبكراهيتها لهم.

وكان أول ما فعلته هى أنها رفعت قضبان السكة الحديد، لتقطع المواصلات على القطارات التى تنقلهم فى طول البلاد وعرضها. وقطعت كذلك أسلاك التليفونات.

وجاء أول قطار بعد هذا لينقلب بهم ويذهب عدد منهم ضحايا، ويصاب عدد آخر إصابات شديدة، وتتناثر الأسلحة والمؤن والذخائر، فيأخذها ابناء القرية ذخيرة لكفاح قد يطول.

وجاءت النجدة بالسيارات والقطارات لتؤدب الثوار. ولكن الثوار لم يكونوا من السذاجة بحيث يقطعون القضبان أمام القرية، أو أمام قرى أخرى يثور حولها الاشتباه، ولكنهم عمدوا إلى قطع القضبان، فى منطقة خلاء بعيدة عن القرى وعن السكان، حتى يسقط فى أيدى الإنجليز فلا يلحقون أذاهم بأحد.

وتكررت المحاولة، وتكرر الضحايا.

وقرر الإنجليز تفتيش كل القرى المحيطة بالمكان.

وفى لمح البصر اختفت الأسلحة، والمؤن والذخائر، فلم يعثر الإنجليز منها على شيء.

ومع هذا فقد جمعوا العمد والخفراء والمشايخ وأعيان البلاد، ونبهوا عليهم تنبيهات مشددة أنهم سيكونون هم المسئولين عن أى حادث يقع.

ولم تقف الحوادث أبداً، رغم هذا التهديد، وهذا الوعيد، فقد اجتمعت كلمة الأمة على الثورة، ولم يشذ منها إلا نفر قليل من العملاء، كان الشعب يعرفهم ويرقبهم ويأخذ حذره منهم.

ومضت الثورة لا تقف.

كلما مدت السلطة والحكومة قضبان السكة الحديد، تخفى الفلاحون فى جنح الظلام وحطموا هذه القضبان، لتنقلب القطارات بالإنجليز.

وكلما مدت السلطة والحكومة أسلاك التليفون، عمد الفلاحون بطرقهم الخاصة، على قطع هذه الأسلاك، حتى لا تكون هناك وسيلة من الوسائل تصل السلطة والحكومة بأجزاء البلاد الممتدة على طول مجرى النيل.

والسلطة والحكومة لا تيأس أبداً.

والفلاحون كذلك لا ييأسون ابداً.

ولكنها معركة دائمة ومستمرة لا تنقطع.

وخلال المعركة تسرى الأخبار كالريح، وتنتشر كالبرق الخاطف.

سعد ورفاقه رحلوهم على باخرة عسكرية مسلحة على مالطة ...ثم إلى سيشل.

سعد ورفاقه رفضوا التسليم بحقوق الوطن.

أم المصريين أقسمت أن تأخذ مكان زوجها فى الكفاح ضد الإنجليز.

انضم إلى أم المصريين عدد كبير من كرائم العقيلات، وخرجن فى مظاهرات، يهتفن بحياة الوطن، ويقابلن القوة الغاشمة بحناجر لا تمل الهتاف.

قبض على آخرين من أنصار سعد.

لجنة الطلبة أذاعت نداء حماسياً كطلقات الرصاص.

الضحايا من الشهداء يتساقطون، وهم يهتفون بحياة الوطن.

العمال انضموا إلى الطلبة، وكونوا جبهة مناضلة ضد الاحتلال.

القضاة خرجوا فى مظاهرة صاحبة، منضمين بذلك إلى الصف الوطنى.

بل ضباط البوليس ورجال الإدارة.

الأمة كلها جمعت صفوفها، وأجمعت على الكفاح.

عرش بريطانيا العظمى يهتز.

جميع عمال الدنيا ينتصرون لثورة المصريين.



وتسمع القرية هذه الأنباء، فتزداد حماستها للعمل ضد الإنجليز.

ولا تجد القرية أمامها إلا قضبان السكة الحديد تقتلعها، وتلقى بها فى الترعة، لتنقلب القطارات بالإنجليز، فيكون منهم ضحايا وجرحى، يذهبون على الجحيم.

كذلك أسلاك التليفونات تحطمها حتى تعجز السلطة عن متابعة أنباء الثورة المندلعة فى كل مكان.

ولكن الأنباء التى تصل إلى القرية تجعلها لاترضى عن هذا النصيب من الكفاح.

هذا لا يكفى. لا بد من عمل أقوى. لا بد من ثأر فعال. لابد من مزيد من الكفاح ومن التضحية.

وذكرت القرية رجالها الذى انتزعتهم منها السلطة.

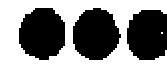
وذكرت محصولاتها التى أخذتها منها السلطة.

وذكرت المواشى واللبن والبيض والدجاج الذى جمعته منها السلطة.

على أنها ذكرت مع هذا، أن المسألة لم تعد مسألة القرية وحدها، لم تعد مسألة الرجال والمحاصيل، ولكنها خرجت من نطاق القرية إلى نطاق الوطن..كل شبر فى هذا الوطن..كل قبضة تراب من أرض هذا الوطن...كل سنبلة قمح ...كل عود ذرة ...كل لوزة قطن...كل نسمة...كل بسمة...كل صيحة...بل كل كرامة...كل عرض...كل مقدس...كل عزيز...كل ذكرى.

ذكرت أن هذا كله رهن بكفاح الإنجليز، وقتال الإنجليز.

وهل تكفى للدفاع عن هذا كله، قضبان سكة الحديد ترفع، أو أسلاك التليفونات تقطع؟



وبينما القرية تستعد لكفاح حقيقى تشنه على دوريات الحراسة الإنجليزية، التى تمر على جسور السكة الحديد، إذا بها تفاجأ ذات صباح بواحد غريب عن القرية، يرتدى زى أهل المدن، يذهب إلى المسجد، حتى إذا ما حل وقت الصلاة، وتجمع الناس فى المسجد للصلاة، صلى معهم فى تقوى وصلاح، فإذا فرغت الصلاة وقف ينادى بأعلى صوته :

أيها الناس...انتظروا ...اسمعوا كلمة يلقيها عليكم أحد أعضاء لجنة الطلبة...كلمة لله وللوطن.

ويستمر الجمع يلقى إليه بكل الآذان والقلوب ليسمع ما سيقول.

ويمضى الخطيب يتحدث عن الوطن. عن حق هذا الوطن. عن حرية هذا الوطن. عن الاستقلال. عن حياة الكرامة والشرف. عن واجب المواطن نحو وطنه فى هذه المحنة التى يمر بها.

ويروى قصة الثورة. كيف قبض على سعد ورفاقه، وكيف أن بريطانيا العظمى التى استهلكت قوى هذا الشعب، وعاشت على خيراته، عادت فتنكرت لوعودها، وقبضت على الزعماء، ونفتهم، وفى عزمها أن تحول هذا الوطن الكريم إلى سجن كبير...

وبعد أن انتهى من كلمته الحماسية النارية، نادى الجمع المتحمس : هل فيكم من يقبل أن يعيش ذليلا؟...هل فيكم من يسمح للإنجليز أن يعتدوا على أرضه، وعلى عرضه؟ هل تقبلون؟ هل تنزلون على إرادة المستعمر الجبان، فتسلمون له رقابكم، ومن يدرى، قد تسلمون له غداً نساءكم كذلك؟

وماج الجمع الحاشد، وهم يهمهمون بالحقد والكراهية والنفور.

وقالوا نحن معك... هيا. قل لنا كيف نكافح...كيف نقاتل.نحن على استعداد للموت ليحيا الوطن.

وابتسم الخطيب، وهو يرى هذه الحماسة الملتهبة.

وعقد على الفور اجتماعاً صاخباً، درس فيه الموقع فى هذه الناحية، ودرس فيه الطريقة التى يمكن أن ينظم بها كفاح وطنى لا يهزم أبداً.

وأحصى ما لدى القرية من سلاح، ومن ذخائر.

وأخرج من جيبه ورقة وقلماً، وأخذ يوزع القوة بأسماء أشخاصها على المواقع التى اتفقوا عليها.

خمسة منكم يتربصون بالإنجليز عند مدخل القرية القبلى.

عشرون يقفون يراقبون الطريق عند مدخل القرية البحرى.

خمسون هناك عند خط السكة الحديد، يتناثرون هنا وهناك، ليقضوا على دوريات الحراسة من الإنجليز.

وهكذا أخذ يوزع أبناء القرية على المواقع التى اتفقوا عليها، ويكتب أسماء المكافحين وهو يؤكد لهم أن الله لن ينسى جزاءهم. لذلك الوطن. ويوم يتم النصر، سيكون لكل من كافح جزاؤه العادل إن شاء الله.

ولم تنس القرية فى غمرة هذه الحماسة الدافقة تقاليدها المتوارثة، فبعد أن انتهى الاجتماع، صحبوه إلى دورهم، وقدموا له كل ما يملكونه من ألوان الكرم.

ذبحوا الذبائح وأعدوا الطعام، وقدموا له ألواناً مختلفة من المأكولات.

ثم جلسوا يحتسون الشاى فى نشوة بالغة.

وعادت أحاديثهم حول سعد ورفاقه.

وترددت روايات شتى عن بطولات تكاد تكون كقصص أبطال الروايات.

كيف دفع سعد العجوز المسن الجنود من أمامه، ولم يرهب السلاح ولا البنادق ولا الرصاص، وكيف كانت صيحاته أقوى من كل ما يملكون من سلاح، فارتعدت مفاصلهم أمام تهدجات الشيخ المسن العجوز.

وعبد العزيز فهمى، وعلى شعراوى.

بل الطلاب الذى سقطوا شهداء، والعمال الذين احتموا بالعنابر، وأخذوا يصلون قوات الإنجليز صنوف العذاب..

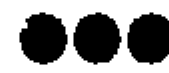
حتى السيدات، ربات الخدور، وكيف هجمن فى قوة لا تعرف التردد على عساكر الإنجليز، فجرى أمامهن عساكر الإنجليز، الذين هزموا الألمان فى الحرب.

...وحكايات شتى أخذوا يديرونها فيما بينهم فى هذا المجلس اللذيذ.

وقبل أن يوغل الليل، استأذن الضيف القادم، ليلحق بآخر قطار، ليكون غداً فى القاهرة، فيحضر مع زملائه اجتماع لجنة الطلبة، وقال إنه سيخطر اللجنة بالبطولة النادرة التى شاهدها بنفسه فى هذه القرية الرائعة.

وهمت القرية كلها بأن تخرج معه لتودعه، ولكنه أصر على ألا يذهب معه إلا اثنان مسلحان...فقد تصادفهم فى الطريق دورية من اوريات السلطة، فيكون ذلك وبالا على القرية كلها، قبل أن تؤدى دورها فى الكفاح.

واقتنعت القرية بمنطق الطالب الثائر، وأوفدت إليه اثنين من أعز رجالها عليها : "برعى" و"عبد العليم".



ولم تنتظر القرية حتى يطلع عليها صباح.

ولكنها بدأت على الفور تنفذ ما وعدت به مندوب لجنة الطلبة بالقاهرة.

وزعت نفسها على مداخل القرية، وعلى خط السكة الحديد.

ونزعت قضبان السكة الحديد، وفتكت في تلك الليلة بثلاث دوريات من دوريات الحراسة التى كانت تنظمها السلطة.

كذلك قطعت أسلاك التليفون.

وانتشت القرية نشوة لم تعهدها من قبل وهى تحمل جثث القتلى لتخفيها عن العيون حتى لا يتنبه إلى كفاحها قوات النجدة من الإنجليز.

أما ما كان مع هذه الدوريات من عربات تنتقل بها على قضبان السكة الحديد، وأما ما كان معها من مؤن ومن ذخائر، فقد أخذه الفلاحون، ليستعملوه فى كفاح المستعمرين ليردوا لهم الصاع صاعين. ليثأروا لكل دم سال. لكل شهيد، لكل يتيم، لكل ثكلى، لكل أرمل.

وعندما أشرقت الشمس، كان الفلاحون فى حقولهم يعملون، متظاهرين بالسذاجة والبراءة، كأنما الأمر لا يعنيهم فى قليل أو فى كثير...

وقضوا طول اليوم فى حقولهم، منتظرين الليل حيث ينتشر الظلام ليستأنفوا الواجب الوطنى المقدس.

على أنهم رأوا وهم فى حقولهم نجدات ضخمة من جنود الإنجليز أقبلت، وأصلحت خط السكة الحديد، واعادت شبكة التليفونات، وأقامت حراسة ضخمة على المكان.

وفى المسجد بعد صلاة العشاء، تجمع أهل القرية ليتدارسوا الموقف امام هذه الحراسة الجديدة المقيمة حول هذه الناحية.

هل يسلمون؟ هل يقضون ليلة بلا ثأر، وبلا كفاح؟

هل ينامون، وهناك آلاف من إخوانهم فى السجون، وفى المعتقلات، يلقون من أصناف العذاب والتعذيب، مالا يخطر على بال؟

وكيف ينامون، وهناك شهداء تركوا وراءهم أطفالا لا يجدون القوت، ولا الحنان، وأرامل، وثكالى...تتساقط من عيونهن الدموع مشوبة بدم فى أعمق أعماق القلوب؟

بل كيف ينامون، والزعماء فى المنفى لا يدرى أحد ماذا يفعلون بهم...ربما يلقون من الإهانات، ما يلحق العار بكل المواطنين... بكل الطلبة، بكل العمال،بكل الفلاحين.

ألم يقل سعد فى إحدى خطبه...أنا فلاح وابن فلاح، ومن بيت صغير؟

وهو الآن فى منفى...من يدرى أى عذاب يلقاه، الفلاح، ابن الفلاح، من أحد البيوت الصغيرة فى قلب الريف.

لا...لا بد من عمل ... أيًا كان هذا العمل.



وفكرت القرية أول ما فكرت، فى أن تخرج كلها عن بكرة أبيها إلى حيث جنود الحراسة الإنجليز، ليقضوا عليهم.

ولكن العقلاء منهم نصحوا بألا ترتكب القرية هذه المغامرة، لأنها لن تكون مضمونة العواقب.

إن عدد الإنجليز كبير، ومعهم سلاح وفير، ومؤن لا تحصى، وهم بلا شك متفوقون عدداً وسلاحاً، ومن الخطأ والغباء، أن تكشف القرية عن نفسها أمامهم، فلا تبقى بعد ذلك على فرص أخرى كثيرة آتية، لثأر متصل.

وأخيراً استقر رأى القرية على أسلوب جديد مبتكر فى الكفاح.

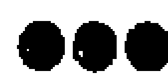
"برعى"...نسيتم "برعى" وقدرته فى إصابة الهدف، فى أحلك ساعات الظلام. إنه يصيب مصدر الصوت، دون أن يراه.

وتطأولت رقبة "برعى" فخوراً بهذا الكلام.

وصاح : اتركوهم وأنا سأدير الموقف. إنى أريد فقط واحداً معى، وسأكلفه أنا بما يفعل.

وطلبوا إليه أن يختار، فإن الجميع على استعداد للذهاب معه.

وصحب"عبد العليم" ومعهما السلاح والذخيرة، ودعوات أهل القرية جميعاً.



وعلى مسيرة نصف ساعة من حدود القرية، وقف "برعى" ومعه "عبد العليم"، يرقب طريق السكة الحديد، ويرى أشباح الإنجليز على القضبان تروح وتجىء، وهى تتلفت ذات اليمين وذات اليسار.

وكانت فى يده بندقيه محشوة بالرصاص، كما كان "عبد العليم" يحمل معه بندقيتين أخريين، واحدة لنفسه، والأخرى "لبرعى" إذا احتاج إليها، وجراباً مليئاً بالرصاص.

وحدثته نفسه : هل يطلق على هؤلاء المعتدين رصاص بندقيته؟

هل يقتل أكبر عدد يستطيع قتله منهم، وسيكون بعد ذلك مصرعه؟

أم تراه ينتظر؟...

ولو أنه فعل ...هل يكون هذا كسباً للقضية التى يدافع عنها؟



ولكنك "يا برعى" نسيت ما قاله لك مندوب لجنة الطلبة.

ألم يقل لك إن على المجاهدين أن يحرصوا على حياتهم أطول وقت ممكن، لا حرصاً على الحياة فى ذاتها، فإن الحياة مع الاحتلال عار، ولكن لأن فى امتداد هذه الحياة، امتداد للكفاح فى سبيل الاستقلال؟

ونسيت أيضاً "يا برعى" أنه قال إن على المجاهدين أن يحرصوا على حريتهم كذلك، لأن حرية الوطن هى مجموع حرية أفراده.

ولو أنك أطلقت الرصاص الآن "يا برعى" فإنك بإذن الله ستصيب واحداً .ستقتل واحداً .وسيلتفت إليك الحشد كله، وستوجه إليك النيران.

قد تستطيع أن تفلت لبعض الوقت، ولكن الكثرة ستغلب الشجاعة أخيراً.

سيقتلونك. سيقتلون كذلك "عبد العليم".

وليت الأمر سيقتصر على هذا، فكيف تتلخص من الوشم الذى فى ذراعك؟

..وهل كان لابد من هذا الوشم، تحمل اسمك، واسم قريتك؟

إنهم سيعرفونك..هذا لا يهم، فستكون جثة هامدة.

ولكنهم سيعرفون قريتك. سيعرفون أهلك. والويل عندئذ لكل أهل القرية.

..ولزوجتك، لأولادك جميعاً.

زوجتك " يا برعى" ... يعتدون عليها ... وقد ينتهكون عرضها ! وقد يهتكون سترها !

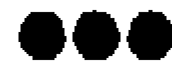
وبناتك " يا برعى" ..وأولادك ...حتى "محمود" الصغير، الذى يتعلق فى رقبتك كلما رآك.

ولكن هل من أجل هذا تتراجع "يا برعى" عن الأمانة التى اختارك لها أهل القرية جميعاً.

ألم تسمع قصص الأبطال الذين سقطوا وهم يهتفون باسم الوطن؟

وكاد "برعى" من الانفعال أن يتمزق.

على أنه آثر أن يتخذ أسلوباً آخر للثأر.



كان الليل حالكاً، والصمت مطبقاً، وهواء الصيف الرطب يملأ الجو بكثير من النشاط.

والساحة جميلة...جسر الترعة، وقضبان السكة الحديد، والحقول الممتدة على امتداد البصر.

وشدو العصافير ...وخرير المياه تتسلل بين الحقول..

هذه أرضنا..هذا بلدنا..ماذا يفعل هؤلاء هنا؟ وماذا يريدون بنا؟

وفجأة أحس أن الشمس طلعت، فقد أطلق الإنجليز كشافاتهم، وأخذوا يديرونها هنا وهناك، ليتبينوا ما حولهم ... هل هناك من يرقبهم.

وجلس "برعى" على الأرض يتخفى من هذا الضوء المفاجىء، حتى لا ينكشف أمره وأشار إلى صاحبه، ففعل مثلما فعل، ولم يتبين الإنجليز من أمرهما شيئاً.

وعاود الإنجليز إطلاق الكشافات مرة ومرة ومرة، حتى بات الأمر يحتاج إلى تصرف سريع.

لقد اصبح "برعى" وصاحبه محاصرين تماماً.

حتى العودة من حيث أتيا أصبحت مغامرة.

ولقد رأى فى وهج هذا الضوء عدداً من الإنجليز، يمضغون شيئاً فى أفواهم، كما رأى آخرين يعبون شيئاً من زجاجات معهم، كما رأى عدداً آخر يطلق صيحات مزاح دنيئة، وكأن لم يحدث شىء. كأنهم فى أرض يملكونها ! كأنهم فى بلادهم !

وعادت إليه ثورته، مع خوفه من اكتشاف أمره، مع تقديره للأمانة التى القيت على عاتقه، مع كلمات مندوب لجنة الطلبة الذى صحبه إلى المحطة حتى استقل القطار، مع قصص البطولات والتضحية، مع نداءات الحرية والاستقلال، ولو كان ثمنها هو الموت الزؤام.

واشار "برعى" إلى صاحبه ليتبعه، ومشيا فى خطوات سريعة خفيفة، حتى حافة الترعة. وخلع ملابسه، وهو يشير لصاحبه أن اسكت، وحذار أن تفتح فمك بكلمة.

وفجأة نزل إلى الماء، واختار مكاناً يستطيع أن يتبين منه شريط السكة الحديد، وأن يرقب الحركة حوله.

وأشار لصاحبه أن يستلقى على حافة الترعة، ومعه البندقيتان وجراب الذخيرة، وأوصاه أن يدارى نفسه بالشجر والحشائش على حافة الترعة، حتى لا تكشفه أنوار الكشافات، وإلا فإن كل هذه المحاولات تصبح عبثاً لا مبرر له.

ومن بين مياه الترعة اعتدل فى مكانه، ووجه فوهة بندقيته نحو شريط السكة الحديد ...ثم أطلق الطلقة الأولى، فرأى من مكانه فى الماء، واحداً منهم يسقط قتيلا، بينما فتحت القوة كلها النيران صوب مصدر الطلقة.

وغطس برعى فى الترعة، بعد أن أشار على "عبد العليم" ألا يتحرك من رقدته بين حشائش الشاطىء وخلف الأشجار، أبداً، وظل تحت الماء يطل برأسه ليتنفس، ثم يغطس مرة ثانية.

وحدث هرج ومرج شديدان ..وفتحت القوة الإنجليزية كشافاتها، وأخذت تديرها هنا وهناك، بلا جدوى.

فلما هدأت الحركة تماماً ...عاد "برعى" فأطل على شريط السكة الحديد، فلما تبين تماماً مكان الإنجليز، صوب إليهم طلقة ثانية، ورأى من مكانه فى الترعة، واحداً ثانياً يسقط قتيلا.

وعاودت القوة هرجها ومرجها، وأضاءت أنوارها، وأخذت تبحث هنا وهناك، فلم تجد أثراً لأحد.

وقضى "برعى" طيلة الليل، وهو يتنقل عائماً فى الترعة، ليغير مصدر الطلقات، فى خفة وبراعة، فإذا ما وجد مكاناً يساعده على تصويب طلقاته، صوبها نحوهم، فأردى واحداً منهم قتيلا.

كل طلقة بقتيل.

وكل قتيل بابتسامة.

"وعبد العليم" يحتمى بالشجر وحشائش الشاطىء، ولا يتحرك أبداً إلا عندما تنطفىء أنوار الكشافات ويقدم له ما يحتاج من الرصاص.

وهكذا تمكن "برعى" بمساعدة "عبد العليم" من أن يجعل الليلة من أقسى الليالى على الإنجليز.

بل لقد تمكن من إرغامهم على الرحيل من هذا المكان، حتى ينجوا بمن بقى منهم حيًا، قبل أن يقضى عليه شىء كالقدر، لا يعرفون له مكاناً.

وبعد الفجر بقليل، كان "برعى" قد عاد إلى القرية مع صاحبه.

ووجد القرية كلها فى انتظاره لم يغمض لها جفن، فقد كانت أصوات الطلقات تصلها مبهمة غامضة، فيتملكها الخوف على "برعى" و"عبد العليم" وكلما طالت بهما الغيبة، زادت هواجس أهل القرية، وزاد وجومهم، وتوجهوا إلى الله بالدعوات أن يعيدهما إلى القرية سالمين.

ولقد استقبلتهما القرية بالأحضان، مرحبة مستفسرة، فلم يقل "برعى" شيئاً، وإنما ترك "عبد العليم" يروى القصة من أولها إلى آخرها.

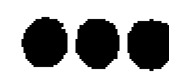
وقال "عبد العليم" : بعدد ما كان معنا من رصاص، قتل "برعى" من الإنجليز.

وكادت القرية ترقص طرباً بالبطل، وكاد النساء أن يزغردن، لولا أن صاح العقلاء منهم أن اسكتوا، وإلا كشفوا الأمر، وتصاب القرية بالأذى، وقد يشنق "برعى" نتيجة لما قام به من بطولة لا نظير لها.

على أن نساء القرية أخذن يباركن لزوجة "برعى" وبناته، بطولة البطل، وعودته من هذه المعركة سالماً.

وعاد "برعى" على داره متعباً مكدوداً، ولكنه نسى التعب، عندما وجد زوجته تنتظره بالأحضان والقبلات وكذلك بناته، وكذلك أولاده. حتى محمود الصغير أخذ يقبله ويداعبه ويقول له : كل يوم تخلص لنا على فريق منهم...حتى تخلص عليهم جميعاً.

ونام "برعى" هانئاً فخوراً، كما لم ينم فى حياته أبداً.



وفى الصباح قصد الفلاحون على حقولهم، كأن لم يحدث شىء، وأخذوا يتتسمون الأخبار.

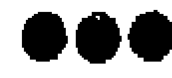
وعندما كاد النهار ينتصف، وجدوا عدداً ضخماً من الجنود الإنجليز، أقبلوا بسيارات مصفحة، وانتشروا حول شريط السكة الحديد، وعلى جسر الترعة، لمعاينة المكان. وكان معهم عدد كبير من رجال البوليس المصريين وعدد كبير من رجال الإدارة.

إنهم يدرسون المكان، ويحاولون أن يتبينوا كيف كان الهجوم المنظم المرتب الذى ذهب ضحيته عدد كبير من الجنود والضباط.

وسرى بين أهل القرية أنهم سمعوا من رجال الإدارة أن بحثهم دلهم على أن عدداً كبيراً من الفدائيين كان منتشراً هنا ليلة أمس، وأنهم كانوا من الدقة والنظام بحيث عرفوا كيف يخدعون القوة التى كانت تحرس شريط السكة الحديد،فأخذوا يهاجمونهم من أماكن متفرقة متباعدة إمعاناً فى الخداع والتضليل.

كذلك سرى بين أهل القرية أن عدد الذين قتلوا من الضباط والجنود تجاوز العشرين وإن كل النيران التى أطلقتها القوة لم تصب فدائيًا واحداً.

وضحكت القرية فى عبها، وبين ناظريها "برعى" البطل الذى حقق هذه المعجزة.



ورأت القرية من بعيد شابًا غريباً قادماً من تجاه محطة السكة الحديد، لكنها عرفته حينما اقترب من حدود القرية.

إنه هو : مندوب لجنة الطلبة.

لا بد أن الخبر سرى فى كل مكان.

لا بد أنه وصل إلى المجاهدين فى القاهرة، فأرسلوه يبارك هذا الجهاد وهذا الانتصار، وهذا الثأر الحقيقى لدماء الشهداء التى سالت فى طرقات القاهرة والإسكندرية وكل المدن المصرية.

وفرح الناس بقدومه، وتجمعوا حوله يسألونه عن الأخبار، فأخذ يهنئهم على هذه البطولة الفذة، وعلى ما قامت به القرية من واجب نحو الوطن.

وحكوا له كل شىء...

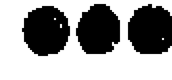
كيف أن المسألة كلها لم تعد أن "برعى" الذى صحبه إلى المحطة، استطاع وحده أن يحقق هذا كله. وإنه سيتابع المعركة كل ليلة بطريقته الخاصة، حتى يقطع رجل الإنجليز من هذه الناحية.

وقالوا فخورين : هيا...افعلوا مثلما فعلنا.

وقال مزهوا :ليتنا نستطيع...ليت كل قرية تستطيع أن تفعل مثلما فعل "برعى"، ليت كل شبر فى هذه البلاد، يتحول إلى مثل ما حولتم أنتم هذه الناحية إلى جحيم...عندئذ يخرج الإنجليز، ولا يبقون هنا دقيقة واحدة.

وأضاف : وستفعل كل قرية مثلكم. سأذهب الآن إلى القاهرة، لأطبع منشوراً ثوريًا بما حدث، لتحذو حذوكم كل ناحية فى مصرنا الحرة العزيزة.

ومضى من حيث أتى.



على أنه عاد بعد ساعة وبعض ساعة.

وعاد هذه المرة، ومعه جنود إنجليز، وعدد من الجنود المصريين، ورجال الإدارة.

عاد الخائن ليرشد الإنجيلز عن "برعى"، "وعبد العليم".

عاد العميل، ليقدم أهل وطنه، ضحايا جدداً، للطاغى المستبد.

أما "عبد العليم"، فقد نقلوا إليه النبأ، فاختفى.

واما "برعى" فقد كان نائماً فى بيته، بعد ليله قضاها فى صراع رهيب.

وذهب بهم الجاسوس القذر إلى طرف القرية، حيث البيت الصغير المتواضع وأمامه النخلتان.

بينما أحاطت القوة بالقرية كلها، وهى مدججة بالسلاح.

وانتزعوا "برعى" من نومه..من بيته.

وبينما كان بين النوم واليقظة والدهشة، أطلقت القوة عليه عدة أعيرة نارية،أردته قتيلا أمام داره.

ولم تكتف بهذا...

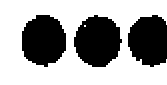
جروا زوجته إلى الفضاء الذى يقع أمام الدار، واطلقوا عليها الرصاص.

كذلك أولاده.

كذلك بناته.

وبهذا قضوا على كل أفراد أسرته، واحداً بعد واحد.

ولقد كانت القرية تظن أنهم قتلوا كذلك طفله الصغير "محمود"، حتى رأته عائداً يعدو فى هلع إلى دار أبيه.



وبدأت حملة تأديبية للقرية كلها، فقيد الرجال إلى دوار العمدة، حيث جلدوا وعذبوا. كل بمقدار ما أظهر من حماسة للنضال.

والعميل الخائن، يحدد نصيب كل واحد من الجلد والتعذيب.

والفلاحون ينظرون إليه، وفى عيونهم جمر متقد، وقد تبينوا حقيقته، وحقيقة أمره، لقد اكتشفوا أنه من رجال البوليس الذى كان يسمى بوليساً سياسياً وعرفوا أنه جاء باسم الطلبة، باسم الشرفاء، باسم المناضلين، ليضللهم، وليكشف نضالهم لأعداء الوطن.

ومن أجل هذا أخذ يخطب فى حماسة، ويدبر الأمر، ويوزع القوة، ويحصى الإمكانيات.

على أن الفلاحين، كانوا وهم يجلدون لا يتوانون، عن أن يصيحوا فيه بأوصافه الحقيقية :

يا خائن..يا جبان..هل تظن أنك بخيانتك ستقف هذا التيار..هل سينفعك الإنجليز؟

وكان هو يرد فى وقاحة وفجور :

ماذا تظنون؟ لقد أتوا إلى بلادكم ليمدنوكم يا كلاب. هل هذا هو جزاؤهم؟

هل هذه هى مكافأتهم على ما فعلوه لكم؟ عرفوكم كيف تركبون القطار.. كيف تركبون الترام..كيف تأكلون..فتهاجمونهم بالليل يا جبناء. لقد دافعوا عن بلادكم، وانتصروا على الألمان، ليضمنوا لكم حريتكم...

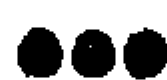
ويمضى كأنه من الإنجليز.

ولكم قال له قائل : كم دفعوا لك يا جبان؟

فكان يجيب فى خسة : خذ نصيبك من الجلد.

ولكم صاح به صائح : بكم اشتروا منك ذمتك يا مجرم؟

فكان يرد فى دناءة : لابد من تأديبكم كيف تطيعون.



وعاشت القرية عدة أسابيع فى محنة.

الجلد والضرب والتعذيب.

وقتل المواشى، لتحرم القرية من ثروتها.

وسلب المحاصيل من البيوت.

وتجريد النساء من المصاغ.

والسير طوابير وقد ربطت الأذرع من وراء.

والجوع والعطش والحرمان.

والاعتداء على النساء والأطفال.

كانوا يقبلون بطفل صغير ليكووه بالنار، أمام نظر والديه، والطفل يصرخ والإنجليز مستغرقون فى ضحك طويل.

وكانوا يأتون بامرأة عجوز..أم لرجال، ويجردونها من الثياب، هتكاً لسترها وأولادها يرون بأعينهم أمهم عارية من ملابسها كما ولدتها أمها. والجنود البواسل يسخرون وقد يخيفونها بأطراف السونكى، وهى تولول خائفة، بينما أولادها مقيدة أرجلهم وأيديهم لا يستطيعون حراكاً.

ولكم أتوا بفتاة، أو بزوجة، أمام والدها أو زوجها، وعبثوا بالمقدسات والحرمات، بينما الآباء والأزواج مقيدون فى الحديد.

وزاد إمعانهم فى الدناءة، أنهم استوفدوا الوفود من القرى المجاورة، لتشهد هذه المناظر، ليكون لها منها عبرة وعظة.

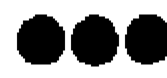
ولقد كان الناس يغمضون عيونهم من هول ما يرون.

ولكن الإنجليز الشجعان، كانوا يضربونهم بكعوب البنادق ليرغموهم على أن يروا ما لا يرى، وينظروا إلى ما لا تقبله نفس إنسان.

ولكم تصايح الناس فى وجه العميل.

هؤلاء أتوا ليمدنونا ! هؤلاء أتوا ليدخلوا إلى بلادنا السكة الحديد والترام ! هؤلاء أتوا ليدافعوا عن حريتنا ضد الألمان ! يا نذل ! يا جبان !

ولكن الحياء لم يكن له مكان فى وجه العميل، فكان يقابل ذلك بالسخرية، ويرد على تلك الصيحات بمزيد من الاستفزاز.



وتركت هذه المحنة القرية، فى حزن طويل ثقيل متصل.

البكاء والنحيب لا ينقطعان أبداً.

وقتل "برعى" وقضى على أسرته جميعاً، ولم تحفل القرية بأن تبحث عن أحد منها، حتى الصغير الطفل "محمود" فقد كانت واثقة أنه لقى مع أبيه، ومع أمه، ومع إخوته جميعاً نفس المصير.

وعاشت القرية فى حداد..

لم تعد تعبأ بأن تتسمع أخبار الثورة.

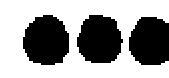
ولم تعد تهتم بتحركات الإنجليز، أو حراستهم لشريط السكة الحديد.

لم يعد عدوها الإنجليز وحدهم..ولكنه كل عميل، وكل أجير، وكل خائن.

ولكم عضت القرية على شفتيها، وهى تذكر خديعتها فى العميل الذى سبب لها هذه المنحة، وفتح لها باب المأساة.

إلى أن كان يوم، فإذا القرية تفتح عينيها، لترى "عبد العليم" وقد عاد، ليزف إليها أنه لم يهدأ حتى قتل العميل الخائن الجبان الذى سبب للقرية كل ما تعرضت له من أذى وتعذيب.

وهنا فقط تنفست القرية الصعداء..بعض الصعداء.



وبعد أن استفاقت القرية من فرحتها بدأت تسأل عبد العليم فى فضول :

- كيف تمكنت منه يا عبد العليم؟

- عند ما هربت من هنا، أخذت أسير هائماً على وجهى، لا أدرى ماذا سيكون مصيرى. هل يعثر على الإنجليز؟ هل يقبضون على؟ هل يسجنوننى؟ هل يعدموننى؟ ولم أعد أعرف عن القرية شيئاً، حتى حملتنى سيارة من سيارات النقل قدر سائقها تعاستى وخوفى، فأخذنى معه إلى القاهرة. وقال لى ونحن فى الطريق، إنه يعمل مع الثوار، وإنه يعرف أماكنهم، وإنه سيأخذنى إلى بالجنة من لجان الثورة، لتتصرف فى أمرى، وتحمينى من عيون العملاء، والأجراء، والخونة..

- وأمنت له يا عبد العليم.

- طبعاً.. لقد كان شهماً، وكان صادقاً.

ـ صحيح الدنيا بخير، ليسوا كلهم إذن، كالخائن الذى فعل فعلته بنا.

ـ أبداً ..كلهم وطنيون، كلهم ثوار...آه لو رأيتموهم وكيف يعملون ويضحون..

ـ إذن لماذا لا يقضون على هؤلاء الخونة؟

ـ يا عالم... بقدر ما يستطيعون. إنهم يعملون فى ظروف قاسية وشاقة وصعبة ... كل القوى تحاربهم وتتعقبهم. الانجليز بأساطيلهم وطائراتهم وأموالهم. السراى بنفوذها وسلطانها ورجالها. وأحزاب كثيرة...باشوات وباكوات وأعيان ...كثيرون يحاربون الثوار، ومع هذا فهم ماضون فى طريقهم لا يعبأون بالخطر.

ـ وبعد يا عبد العليم؟

وصلتنى يا إخوانى أخبار القرية وماذا حدث لها. وصلنى أن "برعى" البطل قتل وقتل أهله جميعاً. وصلنى أن القرية تعرضت لعذاب طويل لعدة أسابيع...وكنت أبكى وأنا أسمع هذه الأخبار. لم أكن أنام. فكرت فى أن أعود إليكم، أتلقى معكم هذا العذاب. فكرت فى أن أستحضر قنبلة ألقيها على القوة التى كانت تحاصركم. ولكن اللجنة التى كنت متخفياً عندها فى حى من أحياء القاهرة نصحتنى ألا أفعل. قالوا لى : وهل ستنتصر يا "عبد العليم" عليهم وحدك؟ سيقبضون عليك ويكون مصيرك هو مصير "برعى"، قلت : ليكن...قالوا : أبداً، بل تعيش لتثأر عندما تواتى فرصة الثأر. وقضيت أياماً وليالى من أصعب ما مر بى فى حياتى، وأصدرت اللجنة منشورات مختلفة تروى حكاية بلدنا، ضحاياها وبطولة "برعى" وصمودكم أبطالا لا تهابون الموت.

كانت منشورات ملتهبة، وكان لها أثرها فى كل أنحاء مصر. وكنت فخوراً بكم. ولقد حفظت لكم بعض هذه المنشورات لتروها بأنفسكم. أنا لا أقرأ، فلما كان سكرتير اللجنة يتلوها على، كنت أبكى من كل قلبى.

ـ وكيف عثرت على الجبان النذل؟..

ـ كانت هذه مهمة اللجنة، ولقد أتت لى بكل التفصيلات. أخبرونى أنه معاون إدارة، يعمل فى شىء يسمونه القلم المخصوص، ومهمة القلم المخصوص هذا أن يساعد

الإنجليز فى التعرف على الثوار، والوقوف على أماكن الخطر، وقد تولى هذا المعاون هذه الناحية، فجاء وتظاهر بأنه عضو لجنة الطلبة وخطب وتحمس، حتى خدعنا ..وذهب إلى أسياده فأخبرهم بأمرنا. فلما نفذنا خطتنا عاد كما تعرفون، ثم أخبر أسياده بما فعله "برعى" وما فعلته معه، فكان مصرع "برعى" رحمه الله. وكان فرارى كما تعلمون. وأتوا لى بعنوانه. كان يسكن فى المنيرة، وكان متزوجاً من بنت مائعة لا يهمها إلا أن يحضر لها المال لتلبس وتلعب وتعبث به وبشرفه، مع أسياده أنفسهم.

ـ ثم ماذا يا "عبد العليم"؟

ـ قامت اللجنة بتدبير الأمر، واتفقت مع صاحب البقالة، وكان يستأجر دكاناً فى نفس المنزل، ومع عسكرى الدورية، ومع البواب، وأظهر هؤلاء روحاً وطنية رائعة. قالوا إنه كلب وجبان، وأنهم يعرفون إنه يتاجر بقضية الوطن ليثرى وليصل إلى أعلى المراكز من أسهل طريق، وأخس طريق. واتفقت اللجنة مع هؤلاء على أن يعطونا تفصيلات تحركاته. وبعد الدراسة حددنا اليوم وطريقة دخول شقته. وكانت الثانية بعد منتصف الليل فذهبت ودخلت وفى يدى مسدس، بينما كان ثلاثة من اللجنة ينتظرون خارج باب الشقة لمعاونتى فى أية حالة أطلب فيها هذه المعاونة. على أنى لم أحتج إليها. فقد تسللت إلى الشقة، ورأيت ضوءاً باهتاً يطل من إحدى الحجرات فعرفت أنها حجرة النوم، فدخلت وأردت التأكد من وجهه، فقد كانت كل المعلومات التى تصلنى عنه عن طريق اللجنة، وخفت أن أقتل مظلوماً أو بريئاً. على أنى رأيت وجهه هو...لن أنساه هذا الكلب. وعلى الفور أطلقت عليه الرصاص. رصاصة واحدة كانت كافية للقضاء عليه. وهبت زوجته مذعورة فعالجتها بأخرى، فارتمت إلى جواره فاقدة الحياة. وخرجت فوجدت زملائى الأبطال فى انتظارى، وعلى الباب وجدت سيارة تنتظرنا فعدنا بها على المكان الذى كنت أختبىء فيه، وقال لى الزملاء: هل بردت نارك الآن يا عبد العليم؟ قلت نعم...بردت بعض نارى. آه لو عرفتم "برعى" آه لو رأيتموه، والله لا يكفى فيه ألف مثل هذا الكلب النجس. قالوا : هذا يكفى. أتدرى ماذا نحن صانعون؟ ولم أكن أدرى بطبيعة

الحال. ولكنهم أخبروني أنهم طبعوا منشوراً باغتياله هو وزوجته لتوزيعه فى كل مكان يحتمل أن يكون فيه خونة أو عملاء، ليدركوا أن الثوار على علم بهم وبدناءاتهم، وأنهم سينالون القصاص العادل الذى يضع حدًا لخياناتهم.

- وكيف جئت هنا يا عبد العليم؟

- أوحشتنى البلدة ...أنتم..زوجتى وأولادى... هذا التراب الذى تدوسون عليه بالأقدام...الهواء...ماء الترعة...كل شىء أوحشنى.

فقررت أن أعود ولماذا أخاف؟ واحد فقط هو الذى كان يستطيع أن يدل علىّ وقد قتلته بيدى. فمن أخاف؟ لهذا طلبت أن أعود، فدبر زملائى الأمر، فى سيارة فى سيارات النقل حتى أقرب مكان. وهأنذا بينكم يا رجال. هل أديت واجبى؟

- رجل يا عبد العليم...رجل كما عرفناك.

- الرجل الحق فقدناه يا أولاد..."برعى" رحمة الله.

- "برعى"..."برعى" قصّوه..ولم يتركوا حتى ابناً واحداً يحمل بعده ذكراه.

- نعم وصلتنا أخبار الجريمة والمجرمين..وكيف استقبل "برعى" الموقف؟

- كان المسكين نائماً بعد الليلة التى تعرفها..وكان يستعد لليلة القادمة فدخلوا عليه وهو نائم، وجروه جرًا إلى خارج الدار حيث أطلقوا عليه الرصاص قبل أن يفيق من نومه...أما زوجته وأولاده..وهكذا فعلوا بزوجته وبأولاده وبناته جميعاً..والقرية كلها تنظر وترى، مكتوفة اليدين، وقد أحاطتها قوة مستبدة مجرمة لا ترحم.

- نعم...لابد لنا من الثورة...من استمرار الثورة.

- ويحدث لنا مثلما حدث يا "عبد العليم"؟.

- فى كل ثورة خيانات يا إخوانى..اذكروا الذين خانوا عمر مكرم...

وخانوا عرابى.. بل اذكروا الذين خانوا محمداً صلى الله عليه وسلم، والذين خانوا الخلفاء من بعده. هل أوقفت الخيانة ثورة الثوار فى سبيل عقائدهم؟ ابداً...بل إننا سنواجه

خونة آخرين. عملاء، أجراء، منافقين، مرتشين، أصحاب مصالح..سنقابل هؤلاء فى كل يوم، حتى يتم لنا النصر النهائى، وعندئذ سنعرف كيف نصفى موقفنا معهم.

- وإذا حدث لنا ما حدث "يا عبد العليم"؟

- لا ...لن يحدث، فإن الناس يتعلمون من أخطائهم، ويمكننا أن نستمر فى ثورتنا محتاطين حذرين، لنحقق أهدافنا بأقل خسائر وأقل تضحيات.

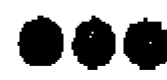
- يا واعى...وكيف عرفت هذا كله؟

- من اللجنة التى عملت معها...يا سلام..شباب يا ناس يجوعون ليطبعوا منشوراً، أو ليشتروا سلاحاً، أو ليستأجروا سيارات لعمليات الثأر والانتقام. وكلهم بسطاء جدًا...موظفون صغار، أو محامون لا يزالون تحت التمرين، أو مشايخ من علماء الأزهر يحصلون على أرزاقهم بكد الأنفس. ولكنهم أبطال، رجال.

- وكيف نثور نحن هنا؟...

- سنرى. لن نخدع مرة ثانية، ستأتينا التعليمات من اللجنة...سأذهب أنا كل ثلاثة أيام إلى المحطة، لألقى هناك سائقا من سائقى القطارات عرفونى به، وسيعطينى لفة من جريدة من الجرائد، بها ملابس بينها ورقة بها تعليمات بما يجب علينا أن نعمله.

- الأمر لله يا "عبد العليم".



واستعادت القرية البائسة ثقتها بنفسها، وبالوطن، وأدركت أنه برغم الخونة والعملاء والأجراء والمحتالين، فإن روح الشعب عالية وقوية، وراية الثورة مرفوعة أبداً

وبدأت روح الكفاح تدب من جديد بين أبناء القرية.

واخذ "عبد العليم" يذهب فى الموعد المحدد إلى محطة السكة الحديد، مصطنعاً الأسباب، ليعود إلى القرية بالمنشورات الثورية، والتعليمات المختلفة التى يجب على القرية أن تنفذها.

وانتقلت الثورة المتحمسة المندفعة، إلى ثورة أكثر نظاماً، وأكثر وعياً بما تفعل. وأصبحت تتبع ما يرد إليها من قيادتها فى القاهرة من تعليمات.

وانتظمت روح الثورة كل الرجال، وكل النساء، بل شارك فيها عدد من الأطفال كذلك.

ولكم هوت فى الترعة سيارات كانت تنقل الجنود الإنجليز، دون أن تثبت إدانة أحد فقد كانت تدبر الأمور بطريقة لا تثير شكًا فى أحد من أهالى الناحية.

تصدر تعليمات مهندس الطرق والكبارى، بقطع جسر من الجسور، ولا توزع هذه التعليمات إلا قبل الغروب، فتبدأ القرية كلها فى التنفيذ، مع عمال الطرق. وتكون لدى قيادة الثورة معلومات بأن قافلة من السيارات الإنجليزية ستمر هذه الليلة من هذا الطريق، فإن مرت كان مصيرها أن تهوى، وأن يقتل عدد من أفرادها، ويصاب الآخرون، وتتحطم السيارات، وتختفى المؤن والذخائر.

والسبب رسمى وشرعى ولا يقبل المناقشة، ولا يلقى اللوم على أحد... إلى كثير من هذه الأعمال المدروسة التى تبعد الشبهات عن الفلاحين وتجعل حياة المعتدين المحتلين جحيماً لا يطاق.

...أو ترسل السلطة رسلها لجمع اللبن من القرى، فيتسلم رجال السلطة اللبن سليما ونظيفاً، ولكنه قبل أن يقدم إلى الجنود يخلط بمواد مختلفة، تحيل المعسكر كله إلى مرضى يئنون، ولا يستطيعون حراكاً..وكذلك فى اللحوم ومياه الشرب، وفى غير اللحوم ومياه الشرب من مواد الطعام أو الشراب.

وينظم الثوار الأمر، بحيث لا يقع فى الشرك واحد من الوطنيين. قد يقع فيه خائن أو عميل أو مأجور...أما الوطنيون الشرفاء المكافحون، فلا.

إلى جوار المنشورات تكتب بالإنجليزية وتوزع داخل المعسكرات، وتوضع فى السيارات وبين صفحات صحف الصباح التى تصلهم...

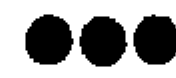
وكلها نذير بالموت إذا خرجوا لمقاومة الوطنيين.

بل لقد كانت الرسائل تصل إلى أمهات هؤلاء فى بلادهن، وإلى زوجاتهم تؤكد أن مصير الابن أو الزوج هو الموت المحقق، ما لم يترك هذه البلاد لأهلها.



القرية البسيطة الساذجة، التى لا تعرف القراءة والكتابة، إلا عن طريق نفر قليل من أبنائها، كانت تشارك فى هذه الوسائل جميعاً وهى مؤمنة بما تفعل، كبيرة الرجاء فى نصر محقق، يعوضها ما تعرضت له من أذى، ويضمن لها كرامة لا يعتدى عليها بعد ذلك أحد.

والقرية البسيطة الساذجة، كانت تتابع هذه الأعمال بالنشوة والإعجاب،وكانت تساهم فى التبرع لها، لتمضى فلا تقف، ولا تفتر.



ويكون الرجل الذى هو من طرف "الحاج سلطان" قد أقبل، فينضم إلى زميليه والجمع الذى جلس على المصطبة، يستعيد قصة القرية الصغيرة والمأساة التى عاشتها منذ سنوات.

وتطفر الدموع من أعين الرجال، وتعلو بين الحين والحين أصواتهم بنحيب، ويهزون فى كل آونة رؤوسهم فى أسى، من هول ما يسمعون.

وتنتهى القصة عند "محمود"...أو "أبو المكارم" كما أطلقت عليه القرية التى استقر فيها.

ويروى الرجال قصة عثورهم عليه، فى ليلة من ليالى مولد سيدى "أحمد الذكيرى" بعد أن فرغ الناس من حلقات الذكر، والأناشيد الدينية، وقصائد المديح فى النبى عليه الصلاة والسلام. وبعد أن فرغوا من الطعام والشراب وألوان البهجة والمتاع.

ويقولون إنهم حاولوا أن يعرفوا من هو...من أبوه...من أهله...من أى بلد جاء...فلم ينطق بحرف، ولم يجب عن سؤال.

وتبينوا أنه أخرس، وانه لا ينطق.

واعتبروه هدية سيدى "أحمد الذكيرى" إلى القرية، فى ليلة من أسعد لياليها.

وتفاءلوا به خيراً، وأطلقوا عليه "أبو المكارم" لتأتى المكارم من وجهه الصبوح وبراءته المباركة.

واحتضنه أحد كبار الأعيان : "الحاج سلطان" وتعهد أن يربيه، وأن يرعاه، ومن يومها، وهو يقيم فى كنفه وتحت رعايته...

وقال الرجل الذى هو من طرف "الحاج سلطان" : إن الحاج يعتبره ابنه.

بل يتبرك به، ويتفاءل كلما رآه.

وقال الرجلان الآخران إنه ابننا جميعاً، لقد أحببناه، قبل أن نعرف قصته هذه الأليمة، وإننا لنعتبره قطعة منا، لا نقبل له أن يهان أو يضام أو يتعرض لمكروه.

وأخذ الرجلان يرويان قصة القرية معه، حينما أرادت أن تعالج عقدة لسانه.

وصفوا له غراباً، يصطادونه له ويذبحونه، ليأكله، فتنفك هذه العقدة، ويتحدث كما يتحدث سائر الناس.

ولكن الوصفة لم تجد..وظن أهل القرية سوءاً "بالحاج سلطان" واتهموه أنه لم يقدم له الغراب الذى اصطادوه، وإنما استبدل بالغراب حمامة أو دجاجة، حتى يستمر "أبو المكارم" أخرس لا ينطق.

وأصرت القرية على أن تبحث له عن علاج، فلما قيل إن هناك أعرابيًا يقيم فى طرف بعيد من الناحية جئنا به إليه ...فقد يكون الشفاء على يديه.

ورووا جميعاً ماذا جرى عند الأعرابى، وكيف ذعر "أبو المكارم" من منظر الثعبان ذعراً شديداً، وكيف واتته قوة من عند الله، فتمكن من الإفلات من قبضات الرجال الثلاثة، ومضى يعدو حتى وصل إلى هنا.

ويضيف الرجلان : ولم نستطع أن نتركه.. قلنا لكم إنه ابننا، وهو وديعة الله عندنا، وهدية سيدى "أحمد الذكيرى" إلينا. أخذنا نعدو خلفه، وهو يعدو...لم نستطع اللحاق به، حتى جاء إلى هنا. هدته قدماه. هداه قلبه.

وتبتل عيونهما بالدموع، وهما يذكران كيف جرى "أبو المكارم" عندما تملكه الخوف إلى دار أبيه...إن ذكرى أبيه تحميه.

ويقول أهل القرية للرجال : كفى ما قدمتموه من رعاية، وها هو ذا قد عاد.

ولكن الرجال الوافدين يردون : بل كيف نواجه أهل البلد، لو أننا تركناه.

إنهم ائتمنونا عليه، ولن نستطيع أن ندخل البلد بدونه. لو رأيتم كيف ودعه أهل البلد جميعاً بالدعوات، وكيف تنافست النساء على تقديم طعام الرحلة من أجله، وكيف وقف الرجال يرقبوننا حتى غبنا عن أنظارهم.

إن "أبو المكارم" أصبح من القرية كنور عينيها..ونحن وأنتم سواء لا فرق بيننا أبداً.

ولكن أهل قريته يتشددون فى أن يبقى بينهم.

إنه أبن "برعى"...البطل الذى غدر به الإنجليز والخونة.

إنه الآبن الوحيد الباقى للبطولة التى دوخت السلطة والحكومة، فى ليلة واحدة، لم تمهله الظروف ليتبعها بليال كثيرة تنغص عليهم حياتهم.

إنه رائحة أبيه الباقية فى القرية.

فاتركوه لنا عزاء عما أصابنا فيه.

اتركوه يفتح بيت أبيه هذا المهجور، وغداً تلحقه رحمة الله، فتنفك عقدة لسانه ويتكلم، ويكبر بيننا ويشب رجلا له فى كل قلب من قلوب هذه البلدة مكانة خاصة.

ولكن الرجال الذين صحبوه يقسمون بأغلظ الأيمان أنه لا بد عائد معهم إلى قريتهم، فكلها بلاد الله، والفلاحون أهل، مهما اختلفت القرى، أو تباعدت بينهم المسافات.

وأخيراً وبعد جدل وقسم وتأكيد من كل جانب استقر الرأى على أن يبيت الجميع فى القرية ضيوفاً كراماً، حتى يصبح الصباح، ويكون كل واحد قد راجع نفسه، ليستقر على قرار.



وبعد سهرة طالت، دارت كلها حول "أبو المكارم" أو "محمود"، "وبرعى" والأسابيع العجاف التى عاشتها هذه القرية، أوى الجميع إلى نوم..بلا نوم.

أبناء القرية عاودتهم الذكريات، وتراءت لهم ملامح "برعى" الحادة السمحة فى آن وهم بين اليقظة والمنام.

والضيوف أغمضوا جفونهم على قصة بطولة لا تنسى، ومأساة من مآسى الحياة لا تزول. وزاد حبهم "لأبو المكارم" وتضاعف تعلقهم "بأبو المكارم" وودوا لو استطاعوا أن يضعوه بين ضلوعهم حتى يعوضوه عما رآه بعينيه : أبشع جريمة يرتكبها الإنسان ضد الإنسان.

غلام صغير ساذج، يرى أباه... ولطالما احتضنه بين ذراعيه، وطالما قبله، وطالما داعبه ويراه وقد أيقظوه ليطلقوا عليه النار، فيخر أمام عينيه بلا حراك.

غلام صغير ساذج، يرى أمه..وهى التى أرضعته من ثدييها، وحملته على كتفها، وسهرت إلى جواره حتى ينام. يراها وقد ربطوها إلى جذع النخلة، ليضربوها بالرصاص، فلا تكون منها إلا صيحة..ثم تموت.

غلام صغير ساذج، يرى إخوته الكبار..ولكم صحبوه معهم إلى الحقل ولكم حملوه على أكتافهم إذا تعب، ولكم تبادلوا معه الروايات والأحاديث..يراهم واحداً وراء واحد، يخرون صرعى تحت وابل النيران.

كذلك أخوته ...بنات عذارى لا ذنب ارتكبنه، ولا إثم افترقنه. ومع هذا يمتن ليتركنه وحده.

ولولا أنه صغير ساذج، حتى لا يكاد يرى، لكان مصيره، مصير الأسرة جميعاً .

ألا يفقد النطق؟ ألا يفقد الحس؟ ألا يفقد الثقة بالإنسان؟ أو لا يفقد جزءاً من مقومات الإنسان؟..كفاه أنه لم يسقط بدوره ميتاً، من هول الصدمة،ومن عمق الانفعال بالأحداث.

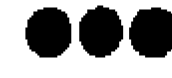
لابد أنه صرخ صرخة، ولم يستطع أمام وحشية الوحوش حتى أن يرتمى على جثة أبيه أو أمه أو واحدة من أخواته، أو واحد من إخوته يقبله قبلة وداع.

لابد أنه فر من المأساة، يحمل فى قلبه لوعة، أفقدته النطق.

ياترى ماذا تعرض له من أهوال الطريق؟ ...كيف كان شعوره وهو يعدو بين الحقول وعلى جسور الترع؟ ماذا كان يأكل؟ أين كان يبيت؟

على أن العناية قد ساقته أخيراً إلى تلك القرية من قرى البحيرة، فى ليلة مولد سيدى "أحمد الذكيرى"، ليجد أخيراً مأوى من العراء ومأمناً من الخوف.

إنها بركة سيدى "احمد الذكيرى". إنها كرامة من كراماته رضى الله عنه.



وأصبح الصباح، فاجتمعت القرية لتستأنف ألوان كرمها للضيوف.

ولكن الرجال الثلاثة أجمعوا على أن إكرامهم لن يكون إلا بشىء واحد... أن يعودوا إلى قريتهم، "وأبو المكارم"معهم، أولا يذوقون فى القرية طعاماً، أو شراباً.

وذهب رسول إلى "أبو المكارم" يرى ماذا حدث له، ويعرف كيف قضى ليلته.

وهناك فى بيت أبيه، وجده جالساً على عتبة الباب.

فلما سأل النسوة حوله، أين كان مرقده، قلن له : هنا فى بيت أبيه.

بل لقد أبى إلا أن ينام حيث اعتاد أبوه أن ينام.

سألهن : هل بكى؟

قلن : كلا، ولكنه كان يذرع البيت جيئة وذهاباً، يدخل حجرة أبيه، ثم حجرة إخوته،ثم حجرة أخواته، وفى صحن الدار كان يتطلع إلى كل شىء...

بل لقد صعد إلى السطوح، ليرى الحطب الذى لا يزال كما هو منذ وقعت حادثة الشؤم الغادر.

ولقد نام بعد ذلك نوماً هانئاً، ونامت النساء من جاراته حوله، وهن لا يكففن عن البكاء من أجله.

وعندما أصبح الصباح، استيقظ مبكراً، وخرج إلى فناء الدار، ثم خرج إلى الساحة التى أمام الدار، وذهب إلى النخلتين، وجلس إلى جوارهما بعض الوقت، وكم أخذ يتحسس كلا منهما، كما لو كان بينهما سرا من أسرار نفسه.

وهز الرسول رأسه فى أسى وسأل النسوة :

- طبعاً أنتن تعرفن السبب.

- نعرف السبب. لقد قتل أهله أمام الدار ...قريباً من النخلتين.

- إنه يتذكر المنظر المؤلم الذى شهده بعينيه. إنه يسأل النخلتين عن مصير أبيه ...عن جثة أبيه...عن أمه...عن إخوته...عن أخواته.

- وهل تجيبه النخلتان؟

- أنتن لا تسمعن ولا أنا، ولكن من يدرى، لعل بينه وبينهما حديثاً يسمعه هو وحده فيقف على جواب لكل ما يخطر بباله من اسئلة أو استفسارات. قادر ربنا على كل شىء.

- مسكين "محمود" اليتيم، فقد النطق، ولكنه لم يفقد لغة خاصة به، يتفاهم بها حتى مع الأشجار.



وكان "أبو المكارم" شارداً لا يكاد يرى مما حوله إلا الدار والفناء والفضاء الواقع أمام الدار، والنخلتين اليتيمتين مثله.

وتقدم منه الرسول، يربت على خده، فتطلع نحوه، وأطال فيه النظر، كما لو أنه يحاول أن يتذكر شكله..وسواء تذكر أم لم يتذكر، فقد اقتربت شفتاه عن بسمة حلوة سمحة تحبب الناس فيه وتقربهم إليه.

وقال الرسوْل فى نفسه : ترى هل يفهمنى...هل يدرك ما سأقوله له؟

على أنه رأى أن حل هذه المشكلة، هى أن يمد يده، ليصحبه إلى الرجال الذين كانوا غير بعيد عن الدار.

ومد "أبو المكارم" يده إلى الرسول، فصحبه إلى حيث كان الجمع ينتظر.

وأقبل عليه الرجال.الثلاثة الذين صحبوه إلى الأعرابى يقبلونه ويضمونه إلى صدورهم ويربتون على كتفه، وعلى خده، وهو يبتسم لهم فى سماحته الطيبة الطفلة.

وقالوا له بالطريقة التى يعرفها : نعود إلى البلد.

وأشاروا إلى الحمير التى تنتظرهم.

فوضع يده فى أيديهم...ومضى إلى الاتجاه الذى أشاروا إليه.

وفهم أهل قريته أنه يريد العودة مع الرجال.

وتكلم رجل مسن من أبناء القرية إلى الرجال، يوصيهم خيراً "بمحمود" فإنه أمانة الله لديهم.

وأكدوا له أنه سيكون بين عيونهم، وفى قلوبهم، ولن يفرطوا فيه أبداً.

ولن يسمحوا لأحد بأن يلحق به ضرراً.

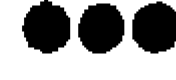
قال : إن "محموداً" ابننا، فليكن ابنكم.

قالوا : لا تزال تقول "محمود".

قال : وماذا تريدوننا أن نسميه.

قالوا : كما سميناه "أبو المكارم".

قال : ليكن "أبو المكارم". كلها أسماء خلقها الله.



ومد الرجل الذى يصحبه يده إليه، فمد "أبو المكارم" إليه يده أيضاً.

وأحس الرجل أن يد "أبو المكارم" ليست خالية، فنظر إليها، فوجده يضم شيئاً أحمر فى كفه اليسرى.

وأمعن النظر فوجدها فردة شراب أحمر.

وابتسم الرجل دون أن يفهم لذلك سبباً، ودون أن يجهد نفسه فى الوقوف على السبب.

أما "أبو المكارم" فقد كانت فردة الشراب الأحمر هذه جزءاً من مشاعر صافية ادخرها فى قلبه، وساعدته عقدة لسانه على أن يصونها عن الناس.



وأخذ الرجال الثلاثة يتجهون نحو الركائب التى كانت تنتظرهم، ولكن "أبو المكارم" جر يد صاحبه إلى طريق آخر...فتبعه صاحبه، وتبعه الرجلان الآخران، وتبعته القرية كلها...

وعجب الرجال وكادوا يسألونه إلى أين.

ولكنهم آثروا أن يتبعوه، فظل يفودهم من طريق إلى طريق، حتى انتهى إلى خارج القرية ...

واتجه إلى اليمين، فى طريق متعرج، بين الحقول.

وعلى مسافة بضع مئات من الأمتار، وقف.

كانوا قد وصلوا إلى قرافة البلد...وجر "أبو المكارم" صاحبه إلى أحد القبور كان قبراً جديداً...يبدو أنه قريب العهد باستقبال من تتسع لهم رحمة الله.

وجلس "أبو المكارم" إلى جوار القبر، واسند رأسه عليه.

بينما الجميع يبكون، فى تأثر عميق.

وبينما أخذ أحد الرجال يتلو سورة من القرآن الكريم.

وبعد فترة وجيزة...وقف "أبو المكارم" وأطال النظر إلى القبر...ثم مد يده إلى صاحبه...وعاد إلى الطريق، حيث كانت الركائب فى الطريق.

وخيم الصمت على الجمع، لولا خطو الركائب.

وتحدرت الدموع من عيون الرجال، بلا كلام.

"وأبو المكارم" قد أطبق يسراه على فردة الشراب الأحمر.

وأطبق جنباته على خفق خافت.

وعاد إلى حيث أتى.

كالطيف، كالحلم.

□□□

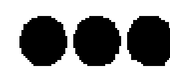
٤

«والنبى يا سيدى...كراماتك يا سيدى يا ذكيرى...نظرة منك، يعود أبو المكارم والرجال».

"هز هلالك حولهم، واحرس خطاهم من أخطار الطريق".

أبو المكارم ابنك وهديتك ليلة مولدك، فأعده إلينا سالماً هو ومن معه".

"وحياة جدك يا سيدى أحمد الذكيرى، لا تخيب رجاءنا فيك."



ويسكت صوت، لينطلق صوت آخر جديد :

"أنت حارس بلدنا يا سيدى يا ذكيرى..أنت خفير بلدنا يا سيدى يا أحمد...الرجال والنساء والأطفال جميعاً فى حماك... وأبو المكارم أيضاً فى حماك".

"أعدهم إلينا ببركاتك ونفحاتك، ومكانتك عند الله".

"أعدهم سالمين غانمين..وقد انفكت عقدة لسان "أبو المكارم"،وأخذ يتكلم مثلما نتكلم، ويتحدث مثلما نتحدث".

"والنبى يا سيدى...لا تخذلنا، ولا تخيب رجاءنا فيك".



ويسكت صوت، لينطلق صوت آخر جديد :

"يوم بطوله، وليلة بطولها، ثم هذا يوم آخر جديد، وهم بعيدون عن البلد !..

"هل يهون عليك محاسيبك يا سيدى يا ذكيرى، فتفارقهم هذا الوقت الطويل؟

"بحق أجدادنا وآبائنا وأمهاتنا، وقد أودعناهم جميعاً حماك، حطهم بعنايتك.

"إنك تسمع..إنك تنصت..إنك ستستجيب.

"تسمعنى ياسيدى ...والنبى يا سيدى".



ويسكت صوت، لينطلق صوت آخر جديد :

ثم يسكت صوت، لينطلق صوت من بعده جديد.

...وتتوالى أصوات الرجاء والابتهال والضراعة، خافتة حيناً كالهمس، عالية حيناً كالصياح...وبين الهمس والصياح، حيناً ثالثاً، كالصلوات.

وترتفع بين جموع النساء داخل الضريح، سحب البخور، وتفوح رائحة المستكة والشبه ومعها خليط من حشائش أخرى، فيها البركة والخير.

وبين الحين والحين تقف امرأة، وتمسك بأطراف ملابسها السوداء الطويلة، لترفعها إلى ركبتيها، وتخطو فوق إناء البخور سبع خطوات، وهى تتمتم بالدعوات والابتهالات إلى الله، أن يستجيب لما فى قلبها من رجاء.

فإذا ما فرغ إناء البخور، ملأته النساء ببخور جديد، فيتصل وهج لا ينقطع وتتصل السحب البيضاء من الدخان ذى الرائحة، حتى تكاد تملأ الضريح بلون كنتف القطن البيضاء حول عمامة الضريح الخضراء، حول قضبان السور الصفراء التى تحدد مكان ولى الله من الحجرة البيضاء البسيطة : ضريح سيدى "أحمد الذكيرى".

وكم قامت نساء مختلفات بكنس الضريح، ثم أخذن فى تلاوة الدعوات على التراب المتجمع من الضريح فى تمتمات غامضة مبهمة، ولكنها عميقة الأثر فى قلوبهن الساذجة.

وبرغم ما تعددت مرات الكنس هذه، فإن بعض النساء كن يتتابعن، يكنسن بلا حاجة لكنس، بعد أن زالت أتربة أرض الضريح، حتى من مس الهواء، من فرط ما قامت النساء بكنس هذه الأرض مرات ومرات.

وإلى جوار إناء البخور، وضعت بعض النساء، شموعاً صغيرة، أوقدتها تبركاً وقربى إلى ارضاء الولى الكريم، حتى تمتد رعايته إلى "أبو المكارم" والغائبين، فيعودون إلى بلدهم. إلى أهلهم. إلى أسرهم وأولادهم.

وبعض النساء أحضرن قللا وأباريق من الفخار، وملأنها بالماء ووضعنها قريباً من دخان البخور، لتكتسى فوهاتها برائحة البخور الذكية، فيكون لها من حلاوة المذاق، ما يزيد الروح صفاء من ضريح ولى الله،صاحب الكرامات.

وكم منهن صلت لله ركعات خاشعة، طلباً للرحمة، واستجداء لعناية الرحمن.

والرجال ...بدروهم تجمعوا حول الضريح، فى فضاء صغير تظلله بعض شجيرات الجميز والسنط، وتتناثر به مرتفعات صغيرة تشبه أن تكون مصاطب من اللبن وحولها بعض الحشائش البرية، تطل من بين هذه المرتفعات فى غير نظام. وبعضها منبسط مستو، والآخر ممتد فى ارتفاعات مختلفة الأطوال والأحجام.

ولقد يستبد القلق ببعض الرجال، فيقف ثم يتجه نحو الضريح فى ابتهال.

وقد تتحرك الهواجس فى بعض النفوس، فيذهب أصحابها إلى شباك الضريح، ليضعوا فوقه أكفهم، ويطأطئون رءوسهم، ويطبقون جفونهم، ثم تتحرك شفاههم بفاتحة الكتاب الكريم أو بآيات متفرقة من القرآن الحكيم.

ويسود مجلس الرجال صمت شارد.

وفجأة يرتفع صوت أحد الرجال صائحاً : وحدوه.

فترتفع أصوات الرجال : لا إله إلا الله.

فإن عاد الصمت يسود، ارتفع آخر صائحاً : صلوا على النبى.

وترتفع حناجر الرجال : عليه الصلاة والسلام...صلى الله عليه وسلم...

وتتردد بينهم مناقشات...

ـ يا ترى ماذا جرى لهم؟

ـ يا إخواننا الغائب عذره معه.

ـ المسافة من هنا إلى هناك تستغرق نهاراً، فكيف بهم وقد مكثوا الآن يوماً وليلة وهذا يوم آخر قد انتصف.

ـ أتراهم ضلوا الطريق.

ـ أم تراهم لم يعرفوا مكان الأعرابى؟

ـ أم أن الأعرابى وجد ضرورة فى استبقائهم، لاستكمال علاج الفتى المسكين، فمكثوا حتى يأذن لهم بإياب؟

ـ أم أن حادثاً قد وقع لهم؟

ـ أى حادث يمكن أن يقع لهم؟

ـ من يدرى؟..السفر أسرار، والمجهول اسرار.

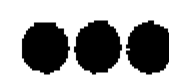
ـ يكون أحد قد اعتدى عليهم مثلا..ظنهم تجاراً ذوى مال، فطمع فيهم؟

ـ أو يكون أحد الأشرار قد ألحق بهم أذى.

ـ صلوا على النبى..ان شاء الله يعودوا بسلامة الله.

ويرتفع صوت رجل منهم، بكلمة دعاء، بكلمة رجاء :

يا سيدى يا ذكيرى مدد..مددك يا سيدى.



على أن بعض الرجال، قد آثروا على الانتظار، أن يتفرقوا حول المقابر، خصوصاً من كان منهم قريب العهد بتوديع عزيز رحل.

وإننا لنرى هؤلاء وقد تناثروا، واحداً قد أسند رأسه إلى قبر من القبور، كأنما عزيزه الذى مات يسند رأسه على القبر من الجهة الأخرى..فيتقابلان بهذا الأسلوب، خد من الخارج وطيف من داخل القبر المجهول !

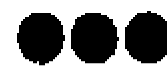
وثانياً قد انحنى أمام القبر فى تبتل وخشوع، وأطبق جفنيه، يستحضر ذكريات الحياة الحلوة مع الراحل العزيز.

وثالثاً قد أخذ يقطع سكون المكان، بتلاوة سورة من سور القرآن الكريم.

ورابعاً راح يبكى، وقد أظلمت الدنيا فى عينيه، فلم يعد يرى الأشياء من حوله إلا بقدر ما تسمح بذلك حبات الدمع المنحدر على خديه، فى غير انقطاع.

وخامساً يدعو. وسادساً يتمتم بكلام هامس يشفق أن يسمعه الناس. وسابعاً وثامناً ...كلهم...وكل منهم مشغول بشىء خاص به لا يعرفه سواه.

لكل منهم سر، يودعه زفرات أو دعوات، أو همسات داخل القبر العزيز..فكل من فيه عزيز.



وتمضى ساعات النهار ...ويقبل وقت العصر.

ينصرف بعض الرجال كسالى إلى أعمالهم، يودون لو بقوا إلى جوار الشيخ، يدعون الله ويسبحون له ليلطف بالغائبين.

وينصرف آخرون إلى دورهم، ليعلفوا ماشيتهم أو ليستريحوا من هذا العناء.

ويقبل آخرون من القرية أو من الحقول، وعلى شفتى كل قادم سؤال ودعاء.

أما السؤال فعن الغائبين.

وأما الدعاء فلكى يعود الغائبون ببركة سيدى "أحمد الذكيرى".

ويصلى الرجال العصر فى الفضاء أمام الضريح.

وتصلى النساء داخل الضريح.



وهناك على حافة القرية من الناحية البحرية، فى الخص الصغير البسيط، أمام حديقة "الحاج سلطان" كانت "تفيدة" تجلس وحدها أمام الخص، شاردة الذهن، مشغولة القلب مقروحة العين من فرط ما ذرفت من دموع.

وكم حدثت نفسها...

هل ترى يعود..."أبو المكارم" المسكين، الغريب...الأخرس؟

هل ترى يعود..وعلى شفتيه ابتسامه كإشراق الصباح، وعلى خديه ضياء وضاء، كتفتح الزهور؟

هل يعود... ومعه فردة الشراب الأحمر، التى أحبها وأعجب بها، ورقص طرباً عندما وضعها فى قدمه أول مرة، وضحك من أعماق قلبه عندما رآها محشوة بخرق بالية أو بقش الحديقة وأوراق الشجر المتساقط، فتصبح كرة يدفعها أمامه بقدميه، يتقاذفها مع "تفيدة" فى فرح وابتهاج؟

هل يعود..يتكوم كل مساء فى فناء بيت "الحاج سلطان" هو فى ناحية وكلب الدار فى ناحية..أو هو وكلب الدار فى ناحية واحدة؟

هل يعود...إلى مكانه من الساقية، بين أعواد شجرة الصفصاف، لا تكاد تظهر منه إلا عيناه، تبرقان بومض صامت معبر؟

هل يسمع الله دعاءها فيعود؟

هل يستجيب الله لصلواتها فيعود؟

إنها لا تنسى ساعة ودعته... ولحظات الصمت السريعة، التى ربطت بين قلبها وقلبه، كما لن تنسى تلك الليلة أبداً وقد أطبقت جفنيها على صورته الحبيبة، لن تنسى يقظتها

عند الفجر لتصلى لله أن يرعاه فى رحلته إلى الأعرابى، الذى يكوى الناس بالنار، ويدفنهم فى الطين، ويسقيهم شراباً كالعلقم.

وإنها لتمد أصابعها إلى بعض أوراق الشجر المتساقط من حديقة "الحاج سلطان" تعتصرها بين أصابعها، عزاء عما تختزنه فى قلبها من انفعالات.

وإنها لتمد بصرها ترقب أباها، وقد اختفى بين أغصان الشجر.

وإنها لتسمع ملاحظات أختها. "مفيدة" فلا تجيب.

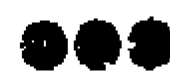
وعندما تلاحظ "مفيدة" هذا الشرود من أختها، تبدأ تداعبها...فلا ترد !

على أن "مفيدة" لا تصبر على ما تشعر به أختها، فتطمئنها إلى أن "أبو المكارم" سيعود.

وتعجب "تفيدة" من ملاحظة أختها، ولكن "مفيدة" تصرح لها أنها تفهم كل شىء...وهى لا تلومها، فالفتى مسكين وغريب وأخرس، وليس له فى القرية أهل...ليس له والد، ولا أم، ولا إخوة، ولا أخوات.

وتدمع عين "تفيدة"، فتضمها "مفيدة" إلى صدرها فى حب وحنان...وإشفاق كذلك.

وتسمع الأختان نداء أمهما على "مفيدة" فتترك أختها، وهى تربت على كتفها مؤمنة بأن الله سيطمئنها، ويطمئن القرية كلها على "أبو المكارم".



وتفاجأ "تفيدة" وهى فى شرودها ذاك، "بالحاج سلطان" واقفاً أمامها.

كانت شاردة فلم تدرك ماذا تفعل أول الأمر، فلما عاد إليها انتباهها، وقفت احتراماً وإجلالا للرجل الذى تعيش الأسرة كلها من خيره.

قال "الحاج سلطان" : كيف حالك، وفيم جلوسك وحدك يا حلوة؟

قالت : لا شىء...يا سيدى الحاج.

قال : الوحدة لواحدة أخرى...أما أنت يا قمر، فحرام أن تكونى وحدك.

قالت : الله يحفظك يا سيدى...هذا من لطفك..يا سيدى..الحاج !

قال: لطفى أنا يا ألذ بنت فى الدنيا..لطفى أنا يا أطعم مخلوقة على وجه الأرض..هذا لطف منك أنت يا لطيفة.

قالت : أنا لطيفة يا سيدى...أنا مسكينة.

قال : مسكينة ..وأنا موجود يا "تفيدة".

واقترب منها وأخذ يربت على كتفها، وعلى خدها، ويمر بكفه العجوز على شعرها، وأنفاسه تتردد بين جنباته فى سرعة وحرارة.

ولكنها أفلتت منه فى خفة، ومرقت إلى داخل الخص.

ودخل خلفها..لم يكن يستطيع أن يبتعد عنها..لم يكن يستطيع.

وعجبت "تفيدة" وهى تراه يتعقبها.

وقالت : يا سيدى...هذا ليس مقامك يا سيدى...الحاج !

قال : أى مكان تكونين فيه يا "تفيدة" هو أحلى مكان فى الدنيا.

قالت : هذا الخص يا سيدى ..ليس مكانك.

قال : بل هذا الخص أجمل وأمتع واشهى من الدوار، والدار الكبيرة،وأى مكان آخر ...أنت لا تعرفين قيمتك يا "تفيدة" أنت شىء آخر.

قالت : يا سيدى...العفو يا سيدى.

قال : تعرفين يا تفيدة..أنا أحبك يا "تفيدة".

وشهقت شهقة طويلة وهى تخبط على صدرها قائلة : أنا يا سيدى !

قالت :أنا من يا سيدى ...أنا من إلى جوار سيدتى "الحاجة زهرة"،وسيدتى "الست نبوية"، وسيدتى "الست قمر"؟

قال : أنت أحسن منهن جميعاً.

قالت : العفو يا سيدى الحاج.

قال : والله أنت أحسن منهن ...أحسن بكثير...

وهم أن يقترب منها، وهم أن يمسك بها، وهم أن يضمها إليه فى قوة بحيث لا تستطيع أن تفلت من بيد يديه أبداً.

ولكن "تفيدة"، أفلتت منه، وأخذت تعدو فى طرقات القرية، حتى وصلت إلى ضريح سيدى "أحمد الذكيرى".

وهناك وجدت الرجال متناثرين حول القبور، وفى الفضاء وأمام الضريح.

كما وجدت النساء داخل الضريح، فدخلت معهن، وأخذت تطوف حوله فى إيمان عميق بالغ، وهى تدعو الله أن يعود "أبو المكارم" سالماً.

وأحست أن حبها "لأبو المكارم" قد تضاعف، وأن تعلقها به قد زاد، وأنها محتاجة فعلا إليه الآن، أكثر من أى وقت مضى.

فهذا الرجل الذى هاجمها أمام الخص، وأباح لنفسه أن يقتحم عليها وحدتها، وأن يعتدى على فكرها الشارد الغائب عن كل شىء، إلا عن "أبو المكارم"

هذا الرجل الذى نسى ما تعانيه القرية كلها من قلق على "أبو المكارم" وصحبه من الرجال، وتجاهل اللحظات البطيئة الكسول التى تمر بها حياة القرية وهى تنتظر عودة الغائبين.

هذا الرجل الذى يملك الساقية والحديقة والجرن، ويملك كذلك الخص الذى ولدت فيه وشبت فيه، وشهد ابتساماتها ومرح طفولتها، ونزق عمرها، وهى تلعب مع أختها، ومع "أبو المكارم".

أى صنف هو، حتى ينسى هذا كله، ويقتحم وحدتها بهذه الصورة المزعجة؟

وبينما الجميع شاردون فيما عساه يحدث للقرية، يقبل هو عليها، ليقول لها كلاماً غريباً لم تكن تتوقعة أبداً.

على أنه قال إنه يحبنى...هو "الحاج سلطان"...سيدى "الحاج سلطان" يحبنى !!

وأخذت تنظر إلى ملابسها القديمة، وما فيها من رقع ! وأخذت تتحسس وجهها، وشعرها وتتلفت حولها. كانت تخاف أن يلاحظ الناس اضطرابها.

على أنها عادت تقول لنفسها : و"أبو المكارم" الأخرس الغريب المسكين؟

"أبو المكارم" محتاج إلى. "أبو المكارم"، يحبنى ويتعلق بى. ليس "لأبو المكارم" فى هذه القرية أحد. ليس له أب، ولا أم، ولا أهل ولا إخوة...ليس له إلا أنا.

أما هذا "الحاج سلطان"، فله ثلاث زوجات.

واحدة تملك الجرن.

والثانية أخت العمدة.

والثالثة من البندر، تتعلق بها أنظار أهل القرية جميعاً.

وأولاده وبناته...وإخوته وأصهاره...والاسم والنفوذ والجاه والمال.

إن عنده كل شىء، وهو يملك رقاب أهل القرية، ولا يستطيع أحد أن يرفع فيه عينيه...

ألا يكفيه هذا، فيأتى إلى ليقول إنه يحبنى؟!

وهل هو صادق فى هذا الكلام؟

هل صحيح أنه يفضلنى على كل من لديه من نساء؟

وأخذت تستعيد فى ذهنها، ما كانت تسمعه من أمها، وهى تتحدث إلى جاراتها فى همس، عن حوادث أعيان البلد وأولادهم، مع البنات الفقيرات من مثيلاتها، وكيف يعتدون عليهن، فإذا افتضح الأمر، زوجوا الضحية لأحد الأجراء ستراً للموقف...

فتصبح الضحية بذلك ضحيتين : الفتاة التى وقعت فى الفخ، والرجل الذى ارغموه على أن يدخل القفص مع الصيد المسكين.

ويضم القفص ضحيتين، يحققان للسادة ما ينشدانه من لذه ومتاع، فى ستر غير مفضوح.

وأخذت تذكر أسماء سمعتها من أمها..ومن جارات أمها...أسماء رجال، واسماء فتيات. وأخذت تذكر حوادث بعينها، ترددت هنا وهناك بين حارات القرية وأزقتها.

وشردت بذهنها تتصور نوايا "الحاج سلطان" نحوها.

هل يريد لها هذا...هل يعد لها فخًا تقع فيه؟

وهل تراه دبر الأمر بعد أن تقع فى الفخ؟

هل أعد قفصاً من ذهب، يستر به فضيحته معها؟

ومع من يضعها فى القفص؟

هل يدعها تختار شريك قفصها..."أبو المكارم" مثلا؟...أم حتى هذا لن يكون من شأنها، فيختار هو رفيق قفصها، بالطريقة التى تكفل له المضى فى تحقيق أغراضه؟

ووقفت فجاة عند رأس الشيخ، وبكت بكاء مرًا قاسياً.

وأخذت تهمس، كأنها تروى للشيخ حديثاً فى أذنه، لا تريد أن يسمعه أحد سواه.

يا سيدى...يا سيدى "يا ذكيرى"...أنا فقيرة ومسكينة، ولا أريد أن أصبح قصة فى أفواه الناس، يروونها همساً، خوفاً من نفوذ "الحاج سلطان"، وغضبه.

يا سيدى "الذكيرى" أنت تعرف حالتى...أبى، وأمى وأختى "مفيدة".

عشنا حياتنا فى الخص الصغير، لا يعكر صفونا أحد. نأكل ما يرزقنا الله، ونحمده عليه ونشرب من حافة الترعة، ونحمد الله. ونتبادل الملابس، يأخذ بعضنا عن البعض، ونحمد الله.

فابعد عنى الشيطان...احمنى يا سيدى من هذا الخطر. لا أريد أن أرى أبى يبكى فيما بينه وبين نفسه، وفضيحتى بين عينيه ! لا أريد لأمى أن تدارى وجهها خجلا من

جاراتها. وأختى "مفيدة" ستبكى بدورها من أجلى. "وأبو المكارم" المسكين الأخرس...كيف يستقبل مثل هذه الصدمة لو علم بها؟

يا سيدى الذكيرى...أنا أحب "أبو المكارم"، وليس له فى القرية قلب يخفق بحبه كما يخفق قلبى بحبه، فلا تحرمه منى...لا تدع "الحاج سلطان" ينتزعنى منه انتزاعاً.

ولكنها تتوقف فجأة عن التفكير، وهى تذكر كلماته أنه يحبها، وأنه يؤثرها على نسائه جميعاً، ويدور فى سرها هاجس...ألا يمكن أن يكون صادقاً فى حبه؟ أو لا يمكن أن يكون حقيقة يريد أن يتزوجها، زواجاً حلالاً؟ فى هذه الحالة، تصبح الفتاة الفقيرة ذات الملابس القديمة المهلهلة، زوجة "الحاج سلطان".

وأبوها "أبو عوف".. وأمها "أم الهنا"، وأختها "مفيدة". هل يظلون يحيون فى الخص البسيط أم تتغير حياتهم، وتتبدل حالهم، وتلين لهم الحياة؟

ولكنها تبعد هذه الفكرة عن نفسها. تزيحها كما تزيح هاجساً من هواجس الشيطان.

إنى سعيدة هكذا...بملابسى القديمة البالية.

سعيدة بأبى الفقير، وجلساته معنا كلما أقبل المساء.

سعيدة بأمى المسكينة، ورحلاتها كل شهر على كفر الزيات.

سعيدة بأختى "مفيدة"، وعبثها بى، ومعاندتها لى.

سعيدة "بأبو المكارم" عندما يقبل مسرعاً، ككرة من المطاط، يقفز قفزات منتظمة وعلى وجهه ابتسامة تملأ وجهه جميعاً... وفى عينيه بريق وضاء عطر ...يبحث عنى، ليلعب ويمرح ويعبث ما شاء.

فإذا انتقلت إلى بيت "الحاج سلطان" فسيصبح شأنى مختلفاً تمام الاختلاف.

سأصبح ضرة "للحاجة زهرة"، وعدواً لدوداً لابنتها وزوج ابنتها "عباس".

وسيطن فى أذنى حديثها عن الجرن، وستملأ سمعى رواياتها عن النعمة التى يوفرها هذا الجرن للأسرة كلها... ولى أنا كذلك.

كما سأغدو ضرة "للست نبوية" ...بنت العمدة القديم، وأخت العمدة الجديد وحماة "أبو سريع" شيخ الخفراء الرهيب.

...وضرة "للست قمر" الفاتنة، ذات الملابس الحرير.

وسيجتمع حولى هؤلاء بالخصومة والعداء.

ولن أكون قادرة على دفع أذاهن، فمن أنا؟

ابنة "أبو عوف" الفلاح الفقير، الحافى، الذى يعيش فى خص بسيط متواضع يأكل من فائض الحديقة. كدود الأرض.

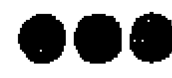
ابنة "ام الهنا"...أخت "مفيدة" !

ومن هؤلاء، إلى جوار العمد، والمشايخ، والأعيان؟

وهل يحمينى حب "الحاج سلطان" مهما بلغ هذا الحب؟

وهل سيرابط على جوارى، يدفع عنى الأذى؟

أم أنه سيعتصرنى كلما راق له أن يفعل، ثم يتركنى إلى أعماله...إلى هؤلاء الضرائر، ولك منهن طاقة على الأذى، لا أستطيع لها دفعاً؟



عندئذ تعود فتمط شفتيها أمام رأس "الشيخ أحمد الذكيرى"، لتسر فى أذنه كلاماً طويلا تختمه برجاء أن ينقذها مما يدبره لها "الحاج سلطان".

وعندئذ تعود فتتذكر "أبو المكارم" فى حنين عميق.

لماذا لا يعود؟..لماذا لا يحضر الآن؟

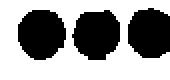
حقيقة إنه مسكين مثلها...وهو أخرس مع ذلك.

ولكنها تريده...فإن وجوده- مجرد وجوده إلى جوارها- قد يصرف عنها هذه المخاوف، وإن كان عاجزاً عن أن يفعل شيئاً أمام جبروت "الحاج سلطان".

إنه مثلها، قطعة من ممتلكات "الحاج سلطان".

يا رب : أعده إلى ...أخرس، أو ناطقاً.

قالتها هذه المرة، بكل ما فيها من صدق. بكل ما فى قلبها من أمل. بكل ما فى وجدانها من تعاسة. بكل ما فى شبابها من قلق، بكل ما فى وجدانها من سذاجة.



وكانت الشمس تؤذن بمغيب.

وقرصها أخذ يختنق.

واللون القانى الأحمر بدأ ينساب فى السماء، فيكسوها روعة وجلالا.

والنسم بدأ يرق، مداعباً أغصان الشجر.

والكلام أخذ يزحف، ليخيم على القرية، فيزداد قلقها على الغائبين من أبنائها.

وفجأة تسرى بين الجموع حول الضريح همهمة ...تختلط فيها أحاديث الرجال، حتى لا تتبين النساء داخل الضريح منها شيئاً.

وبعد أن تهدأ الهمهمة يتضح من بين الأصوات، صوت يقول إنه رأى عن بعد ثلاثة أشباح قادمة على شاطىء الترعة، من الناحية البحرية.

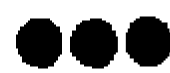
ويسأل الرجال؟ وتبينت القادمين؟

فيرد صاحب الصوت : لا ...لم أتبين الرجال بالتحديد...ولكن يظهر أنهم هم قد عادوا.

ويعدو الرجال منطلقين على الناحية البحرية، يحدوهم الأمل.

وتنتظر النساء داخل الضريح يتابعن الدعوات.

"وتفيدة" حيث هى من رأس الشيخ، تسر إليه بهمها ودمعها.



لا يدرى أحد كم من الوقت مضى على هذا النبأ.

ولم يكن من المهم أن يحسب حساب الوقت على أى حال.

ولكن الأهم من ذلك كله، أن هذه الأمسية من أمسيات القرية، شهدت عند الساقية جموع الرجال، حول العائدين...حول "أبو المكارم" وقد كونوا حلقة كبيرة، تنصت للقصة، كيف بدأت وكيف انتهت..وحول هذه الحلقة تناثر عدد من النساء، كانت بينهن "تفيدة" بطبيعة الحال.

وكان أول ما عنيت به القرية أن تعرف ماذا حدث "لأبو المكارم"..هل تكلم؟ هل عالجه الأعرابى.

وكان الرد واضحاً، لا يحتاج إلى دليل.

"أبو المكارم" نفسه..الصامت..

إنه ذهب أخرس، وعاد أخرس.

"وتفيدة" تسمع ذلك، فتطيل النظر نحو "أبو المكارم"، لعل عينيه تقعان فى عينيها.

وتلاحظ "تفيدة"، أن عينى "أبو المكارم" تدوران فى كل ناحية كعينيها.

هل هو الآخر يبحث عن عينيها؟

تتلاقى عيناه بعينيها، فلا يحرك أحدهما عينيه بعد ذلك أبداً.

لقد عثر كل منهما على صاحبه..فتعانقا.

وبدأ الجمع ينصت لقصة "أبو المكارم".

كيف كان اسمه"محمود" وكيف قتل الإنجليز أباه، وأمه، وإخواته جميعاً

وكيف انطلق "محمود" بعدها، هائماً على وجهه لا يدرى له مصيراً.

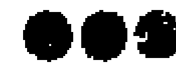
على أنه لم يكن أخرس. ولد مثلما ولدنا جميعاً، وشب والكلمات تنمو بين شفتيه، بنفس المقدار الذى ينمو به جسمه، وينمو به عقله، وينمو به إدراكه للأشياء.

ولكن الإنجليز، بفعلتهم الشنعاء، حولوه من فتى ينطق ويتكلم، إلى أخرس لا ينطق بحرف...أخرسوه. حبسوا كلماته فى حلقه، وهم يقتلون أباه، ويقضون على بقية أفراد أسرته.

وروى الرجال ما سمعوه عن بطولة "برعى" والد "أبو المكارم" وكيف استطاع وحده أن يتحدى السلطة، وما معها من مؤن وذخيرة وسلاح.

ثم حكوا حكاية الخيانة الغادرة التى تعرضت لها قريته.

ثم قالوا كلاماً طويلا عن العميل الذى أوقع القرية فى الشرك، وكيف كان مصيره على يد فلاح من أبناء القرية.



وبينما كان الرجال يروون القصة، كان الفلاحون يستمعون فى أسى، وهم يحركون رءوسهم فى حزن، ويرددون عبارات الغيظ والحقد والكراهية للإنجليز وللعملاء.

واحد فقط لم يكن يتابع هذا كله، هو "أبوالمكارم" فقد ثبت عينيه فى عينيها يستعيض عن حرمانه منها، يومين طويلين ثقيلين.

أما هى "تفيدة" فقد بادلته النظر، بفرق واحد، أن دمعها أخذ يسيل وهى تسمع الرواية الأليمة التى انتهت به إلى هذا المصير.

كانت تتصوره ولداً صغيراً، ينتظر اباه ليلاعبه، فغدا هو يراه، يسقط تحت وابل الرصاص.

ثم يرى من بعده أمه تهوى وهى تتلقى طلقات البنادق.

ثم يرى إخوته وإخواته، يذهبون واحداً وراء واحد، وواحدة وراء واحدة، ليبقى هو وحيداً، لا يعرف من أهله، ولا إلى أين يذهب !

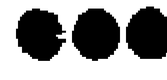
وكان "أبو المكارم" يرى دموعها تتساقط، فيغمض عينيه من فرط الأسى، ولا تنزلق من عينيه دمعة واحدة، كما كانت هى تفعل.

لقد جفت فى عينيه الدموع، كما جفت فى حلقه الكلمات.

على أنه كان يعرف أنها تبكى من أجله.

وأكد له هذا البكاء، مرة أخرى، أنها تحبه.

ولم يندم على أنه عاد مع الرجال، من أجلها...من أجل هذه الدموع التى تنزلق على خدها. كحبات تناثرت من عقد من ماس.



رجل واحد غاب عن الجمع، وكان أولى الناس بأن يكون بين الجمع :

"الحاج سلطان".

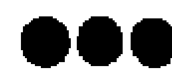
ولكنه كان فى بيته مع إخوته : "الحاج غضبان"،و "الشيخ سيد".

"وممتاز أفندى" لأمر آخر.

ولم تكن غيبة "الحاج سلطان" عن الجمع أمراً جسيماً، يثير الانتباه، فقد اعتادت القرية على أن لأعيانها بينهم وضعاً خاصًا.

وعندما وصله نبأ عودة الرجال، وبلغه أن "أبو المكارم" عاد كما ذهب أخرس هز رأسه قائلا : لم يسمع أحد كلامى..هذا ما قلته.

أما بقية ما حدث "لأبو المكارم" قصته، وقصة قريته، وبطولة أبيه، فلم يكن لديه وقت ينصت فيه إلى شىء من هذا القبيل.



على أن الجمع الذى تجمع حول الساقية، وقد احتدم بالغيظ، والكراهية والحقد على الإنجليز، وعملاء الإنجليز، قد أخذ يستعيد قصة السلطة معهم أيضاً فى هذه القرية...نفس القصة التى حدثت فى القرية الأخرى المجاورة : قرية "أبو المكارم".

الرجال الذين انتزعتهم السلطة ليعملوا فى خدمتها.

المحصولات التى استولت عليها السلطة لتطعم الجنود المحتلين.

المواشى...الخضروات...البيض...الألبان.

كل ذلك كانوا يأخذونه من غير استئذان، بقوة السلاح.

..والعبث الماجن المائع الرخيص الذى كان يبدو من الجنود، عندما يرون النساء، والفتيات، فى طرقات القرية أو حقولها.

والخوف والذعر والقلق.

والسحابة الحزينة التى عاش فيها الريف زمناً ليس بالقليل.

والثورة التى اندلعت فى كل مكان، والخطر الذى أخذ يهدد الناس، بالويل عن طريق الإنذارات البريطانية التى كانت توزع هنا وهناك تحذر الأهلين من الخروج على الطاعة والنظام.

نفس القصة...نفس السطور...نفس التضحيات.

بفرق واحد، أن القرية لم تتعرض لعميل يخونها، ويقدمها ضحية سائغة للإنجليز، كما حدث للقرية الأخرى وكثير من القرى، خاصة تلك التى كانت تقع قرب محطات السكة الحديد، وقضبان السكة الحديد، وطرق المواصلات الرئيسية، التى كانت تمر بها سياراتهم بالمؤن والذخيرة والعتاد، وألوان الاستفزاز الكريه البغيض.

وخرج الجمع من هذه المناقشات الطويلة على اتفاق، أن "أبو المكارم" أصبح من القرية، فى أعز مكان من قلبها.

لم يعد "أبو المكارم" الأخرس المسكين، غريباً وجدوه ذات يوم، فى ليلة من ليالى مولد سيدى "أحمد الذكيرى"، يبحث عن ملجأ.

بل صار ذكرى كفاح طويل، قاده أبوه ضد الإنجليز، وامتداداً لنضال طويل لا بد له من اتصال، حتى تتحقق الحرية والكرامة والاستقلال، ويجلو الغاصب عن هذه الأرض الطيبة.

"أبو المكارم"، صار رمزاً للحياة...أملا عزيز المنال، واجب المنال كذلك.

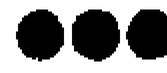
"أبو المكارم" صار فى حياة القرية كلمة صدق، انطلقت فى صيحات الصائحين بالحرية.

"أبو المكارم" أصبح فى حياة القرية، نداء حق، تردد فى صدور الأحرار.

"أبو المكارم" غدا فى حياة القرية، حارس هذه الحياة.

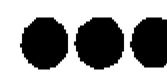
وتعاهد الجمع على أن يكونوا جميعاً فى مكان أبيه، وأهله، والذين فقدهم من الإخوة والأخوات.

واستقر عزمهم على أن يتجهوا إلى ضريح سيدى "أحمد الذكيرى" ليزوروه شكراً وعرفاناً له بالكرامة والجميل.



وبينما هم على وشك أن يتحركوا إلى الضريح، وبينهم... فى قلوبهم "أبو المكارم" وحوله الرجال، وعدد من النساء، إذا "بأبو عوف" قادم يلهث، وهو يدور بنظراته بين النساء، يبحث عن "تفيدة" ابنته.

وأخذها فى يده، إلى طريق القرية، وعينا "أبو المكارم" تتابعها، حتى غابت مع أبيها فى الظلام.



لم تدرك "تفيدة" أول الأمر، إلا أن أباها افتقدها، فلما طالت غيبتها جاء يبحث عنها ليصحبها إلى الخص، حتى لا تعود فى الليل وحدها.

ولكنها فوجئت به يقول لها وفى صوته عبرات :

ـ ماذا حدث يا بنتى؟..ما هذا يا "تفيدة"؟

وأجابت فى براءة :

ـ كنت مع أهل القرية فى ضريح الشيخ، ندعو الله أن يعود الغائبون..فلما عادوا أخذنا نسمع قصة "أبوالمكارم" المسكين...هل عرفت أن الإنجليز قتلوا أباه وأمه وإخوته جميعاً أمام ناظريه؟ ..هل عرفت أن اسمه لم يكن "أبو المكارم" وإنما كان "محموداً " إنه مسكين يا إبى ...مسكين.

ـ يا بنتى نحن لسنا الآن فى "أبو المكارم"..نحن فيك أنت.

ـ أنا يا أبى...ماذا؟...ماذا حدث؟

ـ تعالى يا بنتى نرى أمك وأختك، ونتكلم قليلا فى الموضوع؟

ـ أى موضوع يا أبى؟

ـ موضوع "الحاج سلطان".

ـ سيدى "الحاج سلطان".

ـ نعم سيدك "الحاج سلطان".

ـ ماذا حدث له؟ وما شأنى بحديث عن سيدى "الحاج سلطان" ...؟

ـ ألا تعرفين؟

ـ أبداً...أعرف ماذا؟

ـ ألم تلاحظى عليه شيئاً؟

ـ أى شىء يا أبى ألا حظه؟

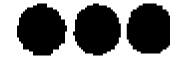
ـ ألم تلاحظى أنه يريدك؟

ـ يريدنى... يريدنى لأى شىء؟

ـ يريد أن يتزوجك؟

- سيدى "الحاج سلطان"؟

- نعم يا بنتى ..يريد أن يتزوجك.



وغامت الدنيا فى عينيها !

وأحست أن رأسها يدور، كسكرى !

وعنت لو أن الأرض انشقت لتبتلعها !

وأدركت أن أباها لن يستطيع أن يقول لا ..بل ربما أرضاه أن يقول نعم.

وأنها ستكون من نصيب "الحاج سلطان". الزوجة الرابعة "للحاج سلطان"يا ويلها من نسائه الثلاث، ومن بناته، ومن أولاده !

أما "أبو المكارم" فقد فقدته، فى اللحظة التى عاد إليها فيها، من رحلته الغامضة.

ووصلت إلى الخص، ويدها فى يد أبيه، فوجدت أمها قد راحت فى شرود عميق وخدها على كفها. وأختها "مفيدة" تنظر إلى أمها نظرات غامضة لا تدرى ماذا تقول لها فى هذا الموقف الجديد.

لقد كانت "مفيدة" هى الأخت الكبرى. وكان من الطبيعى، فى عرف تقاليد القرية ألا تتزوج الأخت الصغرى، قبل الأخت الكبرى. ولكن الموقف كله لم يكن طبيعيًا، ولا يجوز أن تنطبق عليه أيه مقاييس، من العرف أو العادة أو التقاليد. وفى غمرة الموقف الجديد، نسيت "مفيدة" أنها هى الأخت الكبرى، وأن الورد كان يجب أن يكون عليها هى، قبل أختها، نسيت كل هذا، ولم تعد تذكر إلا أن كارثه ما قد حلت بالأسرة كلها، وعليها أن تتحمل نصيبها فيها، وهى لا تعرف على وجه التحديد هذا النصيب، الذى اصبح عليها أن تتحمله.

ولما دخلت "تفيدة" ويدها فى يد أبيها، ساد فى الخص صمت غريب.ووجهت "أم الهنا" نظراتها كالشرر نحو "تفيدة".

ووجم "أبو عوف" فى سكينة، وطأطأ رأسه فى خشوع كانه يؤدى نوعاً من الصلوات.

وأخذت "تفيدة" تتطلع إلى أختها...تحاول أن تستقرىء شيئاً من عينيها..لقد أصبحت عيناها فى لحظة شيئاً غامضاً، يهمها أن تستجلى سره.

"وتفيدة" بين هذا الصمت، وهذه النظرات، وهذا الوجوم، تدور بعينيها هنا وهناك، وهى لا تدرى ماذا تفعل.

هنا فتحت عينيها على الدنيا. فى هذا الخص البسيط المتواضع.

هنا عاشت طفولتها تحبو. على هذه الأرض، وما يتناثر فوقها من الحطب.

هنا شبت عن الطوق. فى هذا الجو المحدود الذى ترفرف عليه السعادة، ويسوده تعاون وتسانده ألفة.

هنا ضحكت وبكت، وصرخت، وأكلت وشربت..وغنت مع أختها.

هنا حياتها، بكل ما فيها من أمل،وكل ما فيها من ألم، وكل ما فيها من قناعة ورضى.

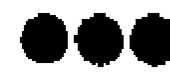
...فهل هى على وشك أن تخرج من هنا..وفجأة، لا تعود؟

وهل هناك فى الدنيا مكان يعدل هذا الخص الحبيب ولو كان بيت "الحاج سلطان"؟

وما هذه النظرات من أمها؟ أتراها مسئولة عن هذه الكارثة؟

وما هذا الوجوم من أبيها؟ أتراه يشعر بالكارثة؟

وأختها "مفيدة" ..."مفيدة" الحبيبة الصديقة، التى عاشت حياتها كلها معها، فى ضحكة طويلة لا تنتهى، وسعادة لا تنقطع ...لماذا تغيرت نظراتها إليها على هذه الصورة العجيبة؟



وفجأة أجهشت بالبكاء ...

وضعت وجهها بين كفيها، ومضت فى نجيب.

ولقد بكت مرات كثيرة من قبل.

كانت أمها مثلا تضربها، إذا ارتكبت حماقة من حماقات الصغار، إذا كسرت قلة مثلا، أو مزقت ملابسها بين أشجار الحديقة، وكانت تبكى عند ما تنال هذه العقوبة.

وكانت تتشاجر مع أختها "مفيدة" فى بعض الأحيان، فتعتدى عليها "مفيدة" بالضرب أو الأذى...وهى الكبيرة...فكانت تبكى.

أما أبوها "أبو عوف" فإنه لم يمد إليها يوماً يده...ولا رفع فى وجهها صوته...قط. ولكنها مع هذا كانت تبكى بسببه، عندما يمرض. عندما يهاجمه الربو. عندما تشتد به الحرارة فتجعله ينتفض كالمحموم. عندئذ كانت تبكى، لا منه ولكن من أجله.

على أن بكاءها هذه المرة كان شيئاً آخر.

كان قلباً يتمزق، فيخرج عن تمزقه صوت عميق رهيب.

كان حياة تقتلع من جذورها، فتصدر عن اقتلاعها آهة بعد آهة أليمة مريرة.

كان خوفاً. كان قلقاً. كان فزعاً. كان صراخاً من المجهول.

كان تمسكاً بأب تحبه، وأم لا تريد فراقها، وأخت ليس لها صديق سواها.

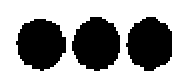
كان صيحة بطلب النجدة، قبل أن يجرفها تيار عنيد قاسٍ، فيقذف بها بين أمواج هائلة، لا تدرى كيف تقاومها، ولا تريد أن تقاومها.

وخرج بكاؤها حزيناً قاسياً، عليها وعلى الأسرة حولها.

فأخفت الأم بدورها وجهها فى كفيها، وأخذت تشاركها البكاء.

وقفزت "مفيدة" نحوها، تحتضنها، لتحميها من نفسها، ومن مصيرها.

أما "أبو عوف" فقد ظل واقفاً كالصنم، مطأطئاً رأسه فى انكسار، ودموعه تتساقط على أرض الخص، ترويه، وتسقيه، أملا وهمّا وضعفاً.



ولم تدر الأسرة ماذا تفعل.

ونظر "أبو عوف" إلى زوجته، فرآها كالطيف، بين قطرات الدمع.

ونظرت "أم الهنا" إلى زوجها، فرأته كالشبح، بين زفرات الحزن.

وفهم كل عن صاحبه، فخرج الرجل تاركاً أسرته المنكوبة، وقصد إلى الدوار...إلى حيث يريدون أن يخطفوا منه ابنته ...إلى حيث يريدون أن يدفنوها حية...إلى حيث يزفونها إلى "الحاج سلطان"، أو يطردونه وأسرته جميعاً من الخص. ويمنعون عنه الرزق، ويحولون بينه وبين الحياة.

ولم ير فى طريقه شيئاً ..كان دمعه يتساقط بطيئاً متردداً خجولا، ولقد حاول أن يتماسك، فلا يلاحظ عليه أحد شيئاً، ولكن تيار دمعه، كان أقوى من مقاومته.

وعندما وصل إلى الدوار، وقف قليلا..ومضى فى تأملات.

لا يدرى لماذا أخذ ينظر إلى ملابسه الممزقة، وإلى قدميه الحافيتين، وإلى المنديل المحلاوى الذى ربط به رأسه.

ولكنه أخذ يتأمل نفسه، للمرة الأولى فى حياته، وللمرة الأولى وهو يدخل الدوار فكثيراً ما كان يستدعيه "الحاج سلطان"، فكان يدخل الدوار غير عابىء بحالته الرثة، أو ملابسه القديمة، أو يخفى قدميه، أو منديل رأسه.

على أنه هذه المرة تأمل منظره هذا، وأخذ يحدث نفسه :

- وأنت يا "أبو عوف" تصاهر "الحاج سلطان"؟ وكيف ستصبح صهراً له وأنت هكذا مسكين فقير ضائع، تحيا لقمة بلقمة، ولا تدرى بعد كل لقمة، هل تجد لقمة أخرى جديدة تملأ بها بطنك، وتسد بها جوع أسرتك؟ أنت تصبح صهراً "للحاج سلطان" صاحب الساقية والحديقة والجرن وفدادين من الأرض لا تدرى كم عددها، وليس من شأنك أن تسأل عن عددها؟

أنت يا "أبو عوف"، تصبح صهراً لأسرة من أسياد البلد؟

وكيف ستتعامل مع، أصهارك يا "أبو عوف"؟

هبه أهان ابنتك ..هبه، أساء إلى ابنتك..ماذا أنت فاعل معه؟

تترك قطعة من قلبك..ابنتك..تتعذب، ولا تستطيع أن تدفع عنها إهانة أو إساءة أو تدافع عنها؟ يا "أبو عوف" هل هذا شرع الله؟ أليس هذا اغتصاباً؟

ولكن المأذون سيكتب الكتاب، والزفاف سيتم وفقاً للشرع الحنيف !...

ودار رأس "أبو عوف"، وهو واقف يتأمل.

وفجأة سمع صوت "أبو سريع" يقول له فى غلظة وجبروت :

- أتيت يا "أبو نسب"..شرفت ونورت الدوار..اتفضل ادخل..لماذا لا تدخل؟ هل أنت غريب يا "أبو عوف"..يا ..."أبو نسب"؟

- وتضاعف إحساسه بالمهانة، والاحتقار..والمذلة.

"أبو سريع" شيخ الخفراء، وصهر "الحاج سلطان". زوج ابنته من "الست نبوية" والقوة التى يخيفون بها القرية كلها...

"أبو سريع" يدعوه للدخول، ويقول له إنه لم يعد غريباً...

...بل أنت غريب "يا أبو عوف" وستستمر غريباً عن هذا المكان، وعن هؤلاء الناس. أنت خادمهم..أنت ملكهم..رزقك من خيرهم..لحم أكتافك هذا من جودهم ومن فضلهم..بل لحم أسرتك كله من صنع أيديهم..فكيف لا تكون غريباً بينهم، وهم سادة وأعيان؟

وكاد يعود من حيث أتى.

ولكن "أبو سريع" كان لا يزال واقفاً عند مدخل الدوار، يتابعه بنظرات نفاذة جامدة.

فخطا إلى مدخل الدوار.

وفى الفناء الخارجى، سمع فجأة قهقهة طويلة، ثم تلتها أصوات ضحك متواصل.

وجمد الدم فى عروقه، ونظر حيث مصدر الصوت، فإذا أولاد "الحاج سلطان"

و"عباس" زوج ابنته الأخرى، قد تجمعوا فى الفناء، فما إن رأوه حتى أطلقوا ضحكاتهم هذه الساخرة.

أرأيت يا "أبو عوف"؟ أصبحت أضحوكة يا "أبو عوف" !

وتوجه إلى الله يناجيه :

يا رب..ماذا جنيت؟ هل جنايتى أنى أنجبت بنتاً، طمع فيها "الحاج سلطان"، واستكثر أن يتركها لمصيرها الطبيعى، تتزوج واحداً من خص آخر فتعيش حياة طبيعية، كما يحيا سائر الناس؟ هل هذه هى جنايتى؟ ولماذا لم تخلقها يارب دميمة أو مشوهة، أو بلهاء، حتى لا يطمع فيها سيد لا يقاوم؟ بل لماذا لم تجعلها ولداً، فأنجو من مثل هذه المواقف؟..أيرضيك هذا ياربى؟..أيرضيك؟

ومضى "أبو عوف" يتعثر فى ظله.

ووصل إلى المندرة، حيث كان يجلس "الحاج سلطان" فى مكان الصدارة وشاله حوله رأسه يحاول أن تكون نظراته لينة رقيقة، فتظل مع هذا نفاذة وقاسية.

وتلفت "أبو عوف" لفتة سريعة، فوجد "الحاج غضبان" وأمامه كرشه المنفوخ، "والشيخ سيد"، "وممتاز أفندى" وقد ثبت الجميع وجوههم فيه، يطيلون النظر إليه.

وقال "الحاج سلطان" فى تواضع مصطنع :

ـ أهلا وسهلا يا "أبو عوف".

ـ أهلا بك يا سيدى الحاج.

ـ اجلس اجلس يا "أبو عوف".

ـ العفو يا سيدى...العفو ياسيدى الحاج.

ـ والله تجلس...أنت فى بيتك يا رجل، اجلس.

ومرة أخرى تأمل ملابسه الرثة، وقدميه، وكاد يرى منديل رأسه.

وأخذ يتلفت ليجد مكاناً فى مستوى ملابسه ومظهره، فلم يجد إلا أرائك ومقاعد، وكلها وثيرة تكسوها أغطية بيضاء ناصعة.

وحار أين يجلس؟.....بل كيف يجلس؟

ولكن صوت "الحاج سلطان" أخذ يلاحقة :

- اجلس يا رجل اجلس...اجلس.

وعلى طرف أحد المقاعد...على حافته...على حرف منه..أسند نفسه، فأصبح بين الجالس والواقف...

إنها المرة الأولى التى يسمح له فيها بجلوس بين هؤلاء القوم.

وقال "الحاج سلطان".

- يا ترى تشاورت مع الأولاد؟

ولم يرد...لم يعرف بماذا يرد !..

إنه لم يستشر أحداً..ولم يكن هناك مجال لاستشارة أحد..وفيم الاستشارة؟ وماذا تكون نتيجتها؟ أيمكن أن تنتهى إلى شىء؟

وعاد "الحاج سلطان" يسأل، وعيون إخوته متعلقة بـ"أبوعوف" تراقبه، فى ازدراء.

واستمر "أبو عوف" صامتاً لا ينطق.

وقال الحاج "غضبان" :

- لماذا لا ترد؟..لماذا لا ترد على سيدك؟..سيدك "الحاج سلطان"؟.

وعمق فى شعور "أبو عوف" إحساسه بالمذلة والمهانة..فأخذ ينظر نظرات تائهة شاردة، فى جمع السادة الأعيان.

بينما تلطف "الحاج سلطان" وهو يقول :

- السكوت رضى...أليس كذلك يا "أبو عوف"؟

وقال "أبو عوف" متردداً، كأنما الكلمات تتعثر بلسانه وأسنانه :

- يا أسيادنا ...هل نحن من هذا المقام؟ إننا خدمكم...وأمركم فينا مطاع.

وهز الرجال رءوسهم، وهم يتبادلون النظرات.

ومضى "أبو عوف" يقول :

- على أن "تفيدة" لا تصلح لهذا المقام. إنها طفلة صغيرة فقيرة، ولدت فى الخص، وسيدنا "الحاج سلطان"، هو سيدنا ...وسيد البلد...

وهب "الشيخ سيد" يقول فى استغراب :

- كأنك لا توافق يا "أبو عوف" ! كأنك لا ترضى أن تفتح لك طاقة القدر !

وذعر"أبو عوف" فأخذ يردد.

- لا أوافق !..أنا لا أوافق؟! أنا ...يا سيدنا الشيخ ! أنا، وأهل بيتى وأولادى، ملك "للحاج سلطان" ولكم جميعاً...أنا فقط أستكثر على البنت الفقيرة أن تكون زوجة سيد البلد، فهى لا تعرف كيف تعيش فى هذه السراى...

وقال "ممتاز أفندى" فى كبرياء :

- تتعلم... تتعلم "يا أبو عوف"..كل شىء يأتى بالتعليم..

قال "أبو عوف" :

- صحيح تتعلم...لكن إذا لم تستطع أن تتعلم، فإن "الحاج سلطان" سيغضب منا..وأنا لا أريد أن أكون، لا أنا ولا أحد من بيتى، سبباً فى غضب "الحاج سلطان".

وقال "الحاج سلطان" :

- "تفيدة" ! ...أنا أغضب من "تفيدة" ! أنت لا تعرف قدر "تفيدة" يا "أبو عوف". بنتك جوهرة...بنتك ملاك...بنتك نزلت من السماء...بنتك...أنت لا تعرف قدر بنتك بين البنات.

وضحك "الحاج غضبان" وهو يقول لأخيه :

ـ هيه...قل أيضاً ما تشاء..تكلم...اكشف نفسك يا "حاج سلطان" البنت أكلت بعقلك حلاوة ...هزت الجبل..يا...جبل!

وضحك الإخوة جميعاً ضحكات متواصلة، وهم يحتسون أكواباً من الشاى كانت أمامهم.

أما "أبو عوف" فقد وقف تفكيره عند كلمة واحدة من كلمات "الحاج غضبان".

"البنت أكلت بعقلك حلاوة".

وقال فى نفسه :

"تفيدة" بنتى...أكلت بعقل "الحاج سطان" حلاوة !

"تفيدة" لفت "الحاج سلطان" وأدارت عقله !

"تفيدة" أغرته بنفسها وبجمالها، فذاب فى هواها !

هل صحيح؟ هل صحيح يا "أبو عوف"أنك كنت مغفلا، لا تحكم بيتك !

وأين كانت "أم الهنا"؟

وهل حدث بينه وبينها شىء؟ هل تراه..؟

وهز رأسه، وهو يبعد الشيطان عن أفكاره، ويستعيذ بالله من هذا الشيطان الرجيم، ويردد فيما بينه وبين نفسه، أن ذلك أمر بعيد الاحتمال...لا...لا.لم يحدث. البنت لم تأكل بعقله حلاوة كما قال. لم تغره بنفسها وجمالها.

لم تعرض عليه مظاهر أنوثتها...هو الذى استكثر أن يكون فى البلد جمال كجمالها ولا يكون هذا الجمال ملكه وحده!..هو الدنىء الأنانى، وليس هناك لوم على البنت، أو على تصرفاتها. مسكينة...ماذا تفعل "تفيدة"؟ سيخطفونها منى..من أمها، من أختها. من

الخص. وإلا، فالله وحده يعلم ماذا يكون مصيرنا جميعاً واستفاق "أبو عوف" على صوت "الحاج سلطان" وهو يقول :

- تعال يا "أبو عوف" نقرأ الفاتحة. تعال..تعال. اقترب منى !

ولم يدرك ماذا يفعل !

هل يرفض؟..هل يستمر فى مكانه من حافة الكرسى، فلا يتحرك أبداً.

وهل يستطيع؟

فإن لم يستطع، فهذا تسليم منه..تسليم بأن تصبح ابنته "تفيدة"، الزوجة الرابعة "للحاج سلطان" وياويلها مما ينتظرها فى بيت "الحاج سلطان" من الضرائر الثلاث، ومن الأولاد، ومن الأصهار، ومن الأقارب.

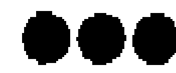
على أنه تقدم فى تثاقل نحو "الحاج سلطان".

ومد يده إليه، فأمسك بها بين كفيه.

وأحس أن يد "الحاج سلطان" فيها طراوة ونعومة، حتى لقد خشى أن يجرحها بكفه الغليظة الخشنة.

لقد كانت هذه هى المرة الأولى التى قبل فيها "الحاج سلطان" أن يضع يده فى يده، بل أن يمسك كفه بكلتا يديه.

وقرأوا الفاتحة ...وقرأها "أبو عوف"، وهو يكتم دموعه بين جفنيه.



وفى ظلمة الليل البهيم، أخذ يذرع طرقات القرية، عائداً إلى خصه..كالسر ! لم يكن يرى شيئاً فى طريقه.

لم يكن يسمع شيئاً فى طريقه.

شىء واحد، استقر بين عينيه، هو منظر الإخوة الأربعة، وقد جلسوا على الأرائك فى بيت "الحاج سلطان" وأخذوا يحتسون الشاى، بأصوات ترتفع مع كل رشفة، كالطعنات !

وبين أذنيه استقرت ضحكات أولاد "الحاج سلطان"، وهم فى فناء الدار يسخرون من منظره، كأنما هو مذنب آثم !

وعندما وصل إلى الخص، خيل إليه أن الطبيعة، والشجر، ونسمات الريح، والجدول الصغير الجارى...كل ذلك يعزيه فى فقيد !

وتردد وهو يدخل؟

وماذا تراه واجداً داخل الخص؟

وكيف يواجه عائلته الصغيرة البسيطة؟

وماذا يقول لهم؟

هل يروى لهم أن كل شىء قد تم..إنه مد يده هذه الجافة فى يد "الحاج سلطان" وانه قرأ فاتحة الكتاب الكريم، عهداً وميتاقاً، أن تكون "تفيدة" من نسائه؟

وهلا تعلم العائلة كلها هذا؟ وماذا تراها كانت تتوقع منه أن يفعل؟ أتراها كانت تنتظر منه أن يقول لا...لا..دعوا ابنتى لى.. دعوها حتى تكبر وتستوى، ويتقدم إليها واحد من مستواها...من خص آخر؟

وقال فى نفسه : لئن كان هذا ما كانت العائلة الصغيرة تنتظره منه، فقد كانت إذن تنتظر المستحيل...كانت تكلفه ما لا طاقة له به ! من هو أمام "الحاج سلطان" وهو يعلم قبل أن يعلم سواه، أن شيئاً ما لا يقف دون إرادة "الحاج سلطان" أو يتحدى رغبته. فإن غلب على أمره يوماً، فإنه لا يهدأ حتى يحقق ما يريده. قد يغير أسلوبه وقد يغير طريقته. ولكنه لن يسلم أبداً، وهو منتصر دائماً.

ودخل الخص، وفى قلبه جرح، وفى عينيه دموع.

ويا هول ما وجد !

"أم الهنا"، "وتفيدة"، و"مفيدة"، الثلاثة، وقد تكومن، التفت كل منهن بالأخرى، واستندت كل منهن على الأخرى، متشابكات !..حتى لقد أصبحن جميعاً كتلة واحدة، من

لحم البشر، لا تتميز تفصيلاته ولا جزئياته..إلا لأنه يعرفهن ويعرف أنهن ثلاثة " :أم الهنا" وبنتان.

وكانت عيونهن جميعاً مغمضة.

وكانت دموعهن جميعاً تسيل.

والصمت رهيب، والريح تعبث بالخص، فيكون لذلك صوت كفحيح الأفاعى !

ونقيق الضفادع يرتفع مرة، وينخفض أخرى، ولكنه متصل ابداً ...كالنعى !

ووقف الرجل متأملا لهذه المجموعة ...عائلته هى، جمعها الخوف، كما جمعها من قبل، طيلة حياتها، فتساندت تحتمى بالمجهول.

قبل ذلك كانت تخاف الحاجة، والعوز، والإملاق، فتتساند.

واليوم تخاف الفرقة والتمزق، والانهيار، فتتساند.

...تخاف الغنى، والغنى يطرق بابها !

...تخاف العز، والعز يتقدم نحوها !

...تخاف المال، والنفوذ، والسلطان، وهو يسعى إليها باسم "الحاج سلطان".

وقال "أبو عوف" فى نفسه :

ما لنا نحن والأغنياء، وأصحاب المال؟ لقد خلقنا الله فقراء، مساكين،ونحن راضون بما قسمه لنا سبحانه وتعالى، لماذا لا يتركوننا فى فقرنا، فقد كان أحب إلينا من غناهم وثرائهم وعزهم...إننا نأكلها لقمة جافة، بشرف وكرامة، فلماذا يريدوننا أن نتفرق لتأكل "تفيدة" معهم من لحم البشر، وتمص معهم دماء الناس؟ إن المسكينة لن تستطيع...لن تستطيع.يا رب...هذه حكمتك، لقد قرأت فاتحتك على كل حال وأمرى، وأمر هؤلاء جميعاً أليك.

وفتحت "أم الهنا" عينيها، فرأته أمامها، واقفاً فى شرود دامع.

قالت : جئت.

قال : نعم...

قالت : بم؟

قال : بفاتحة كتاب الله.



وعادت فأغمضت عينيها، وأسندت رأسها على رأسى بنتيها.

وكانت ليلة...لم تدر الأسرة كيف قضتها، ولا كيف مرت بها، حتى طلع الصباح.

ولم يكن صباح ككل صباح.

لم يصح "أبو عوف" مع الفجر، ليصلى لله فريضته، ويشرب الشاى، ويبدأ عمله داخل الحديقة.

ولم تستيقظ "أم الهنا" مبكرة كما اعتادت، لتساعد زوجها بكل ما تستطيع من ألوان المساعدة.

والبنتان كذلك، ظلتا فى نوم فزع، تتحدثان وهما نائمتان، كما كان يتحدث العائدون من السلطة، بكلام غير مفهوم، حتى طلعت الشمس.

وفى تثاقل، وفى تراخ...انسل كل فرد من أفراد الأسرة إلى عمله، بلا كلام.

"أبو عوف" دخل الحديقة كارهاً كل شجرة من شجراتها..كل شبر من أرضها. كل ثمرة من ثمراتها، فقد بدت له اليوم كما لم تبد له من قبل.

كان يحبها لأنها حياته، ومنها ررق أولاده، أما اليوم، فقد كرهها، وكره عمله فيها، وأخذ يراها على حقيقتها : نفوذاً مستبدا، وشهوة جارفة، وأنانية لا ترحم،وأكواماً من لحم البشر، أنبتت شجراً، وأنهاراً من دماء الناس، أثمرت فاكهة..لتتحول كلها إلى بطن "الحاج سلطان" وإلى جيبه، فيتزوج كما يشاء، ومن يشاء، ولا يرعى خوف الخائف، ولا

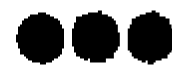
فزع المحتاج..وهو مع ذلك حج بيت الله، لا ليتوب أو يستغفر ولكن...! لا تسىء الظن بالناس هكذا "يا أبو عوف" فقد يكون قد حج إيماناً بالله سبحانه ! يا مغفل يا مجنون..ستظل ابله طول حياتك !...الحاج الذى أدى فريضة الله مؤمناً به، يخطف بنات الناس، هكذا قسراً وغصباً واستبداداً؟!

ولكم رأى فى يومه ذلك بعض ثمار الحديقة، على الأرض، فداسها بقدميه !

ولكم رأى بعض أغصان الحديقة، مثقلا يترنح من كثرة ما يحمل من ثمر، فشده إلى الأرض غير رفيق، لتتمزق الأغصان، وتئن كما يئن قلبه !

ولكم داس بقدميه، ما زرعه بيديه من قمح أو شعير، دون أن يرحم ما بذله فيه من جهد، ليهيىء لأهله رغيف العيش.

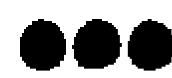
لقد أصبح كل شىء مرًّا فى فمه، حتى رغيف العيش !



أما "أم الهنا" فقد جلست أمام الخص، لا تنوى أن تفعل شيئاً.

غامت الدنيا فى نظرها، فلم تعد ترى من حولها إلا أشباحاً.

وذهبت "مفيدة" تؤدى عنها بعض الأعمال، والدموع تترقرق فى عينيها، فقد كانت تحب أختها حبًّا شديداً، فلم يكن لها من صديق سواها، وإنها لتشعر اليوم أن حاجباً كثيفاً سيحجبها عنها، فلا تراها كل ساعة من ساعات النهار، ولا تستلقى إلى جوارها، كلما أقبل ليل، تتهامسان، وتتضحكان، فى لهو ومزاح.



العروس "تفيدة" الضحية المسكينة.

كانت تشعر أنها دعوة سوء أصابت الأسرة، أو نوع من نحس الطالع حل بها أو عمل قام به ساحر، لتحل بها كارثة !

وكانت لا تستطيع أن ترفع عينيها فى أحد...إذا التقت عيناها بأمها، تكسرت أهدابها لتطأطىء إلى الأرض، فى خجل من نفسها.

كذلك كانت تفعل، كلما نظرت إلى أختها "مفيدة"، تستقبلها اليوم بالدموع بعد أن كانت لا تستقبلها من قبل إلا بالبسمات، والضحكات وكلمات المزاح.

أما أبوها، فقد كانت تمد إليه نظرها، حيث كان من الحديقة..لا تدرى أتذهب إليه تقسم له أنها مظلومة، وأن ما أصابه ليس منها، ولكنه أصابها قبل أن يصيبه؟ أن تتركه، فكفاه ما هو فيه؟

وحارت...ووجدت أنها قلقة حيثما كانت !..فأخذت تخطو فى تثاقل نحو الخلاء، والفضاء، فقد تجد فيه السلوى والعزاء.

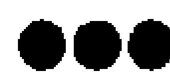
وبينما هى فى طريقها، بين الزراعات والحقول، ودموعها تنحدر على خديها تارة، وتعز عليها فلا تسعفها تارة أخرى.

وبينما هى توشك أن تبحث عن مكان تلقى فيه بنفسها، لتستريح من هذا العناء.

وبينما أفكار السوء تراودها...فتقول فى نفسها :

ما الحل؟..هل تلقى بنفسها فى الترعة فتجرفها المياه، وتخمد أنفاسها فتضع بذلك نهاية لآلامها، وقلقها؟ ولكن ...هل يضع ذلك نهاية لمتاعب أبيها وأمها وأختها؟ أم يفتح الباب لمزيد من الألم لهم جميعاً؟ قد يعتبر "الحاج سلطان" موتها، تمرداً على رغبته فيها. قد يلقى أباها فى دوار العمدة سجيناً وقد يضربونه، وقد يهيبنونه. بل قد يلفقون له تهمة تلقى به فى سجن المركز فتجوع أمها، وتجوع أختها.

وبينما هى تدير كل هذه الأفكار فى رأسها، وجدت نفسها فجأة أمام : "أبو المكارم".



كان جالساً على حافة حقل من حقول القمح، مكوماً كما اعتاد أن يفعل ساكناً جامداً، لا تتحرك فيه إلا عيناه.

لم يكن وجهه صبوحاً كما اعتادت أن تراه، لم يكن باسماً. لم يكن خفيف الحركة خفيف الروح، خفيف الدم. لو يكن يبحث عن ساعة مزاح أو لعب، يقضيها معها ومع أختها "مفيدة".

بل كان مبتئساً محزوناً شارد البال.

بل كانت الدموع تتساقط من عينيه.

وكانت سنابل القمح تحيط به من كل جانب، فيكاد أن يصبح قطعة من الحقل ومن الطبيعة التى حوله.

ووقفت "تفيدة" جامدة لا تتحرك.

ونظرت إليه فى حسرة، ولم تنطق بحرف.

ولم تكن محتاجة على أن تنطق.

كانت دموعها لغة واضحة معبرة، تروى له مأساتها.

وكانت دموعه بياناً بلغياً صريحاً، يحكى لها ما يعانيه من محنة.

وكانت لحظات الصمت بينهما، أكثر فصاحة من أى كلام.

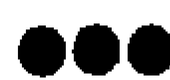
ومضت لحظات..أدركت "تفيدة" على أثرها أن الخبر قد ذاع فى البلد، وأنه قد وصل إلى "أبو المكارم".

وأدرك "أبو المكارم" أن هذا الزواج خطف وسلب..وأنه لا يتم كما سرى فى وهمه، برضاء "تفيدة" أوموافقتها.

كان قد قضى ليلته الماضية، باكياً منتحباً، يملؤه الندم على عودته إلى هذه القرية من أجلها، فأدرك على الفور أنها مسكينة، وأنها مغلوبة على أمرها.

وانحسر ندمه، ليحل محله شعور آخر جديد.

شعور الإشفاق عليها، بل وشعور المسئولية عنها.



لقد فكر طيلة ليلته الماضية، فى أن يعود إلى قرية أبيه. يعود من حيث أتى. ولقد هم بأن ينفذ فكرته، عندما أشرقت شمس الصباح.

ولكنه ذكرها. ذكر انتظارها له مع جموع القرية. ذكر نظراتها النفاذة، وقد تسمرت فى وجهه، مليئة بالحب والحنان. وقال لنفسه : إذن أراها. أملأ عينى بها، ثم أنفذ ما اعتزمته.

وذهب ليراها. وقف بعيداً يرقب الخص، وما فيه من حركة، فوجده ساكناً بطىء الحركة. فلما رآها خارجة إلى الفضاء، انتظرها بين الحقول.

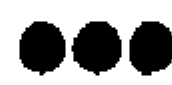
وها هو ذا يراها. يرى بنفسه دموعها. يشعر بمأساتها.

لابد أنها تحبه، وأنها لم تخن عهده.

إنها مغلوبة على أمرها. إنه "الحاج سلطان"، وهو يعرف من هو "الحاج سلطان"، طمع فيها، ولم يترك جمالها وسحرها، ليكون من نصيب أحد سواه.

وعاد يذكر كيف كان "الحاج سلطان" يتقرب منها. وكيف كان يقبل نحو الحديقة حينما يشعر أنها فيها وحدها، ويحاول أن يحتك بها، ويتقرب منها ويداعبها ويتظرف أمامها.

وعاد يذكر كيف كانت نفسه تثور، عندما كان يجده على وشك أن يحتك بها وكيف كان يرتاح عندما كانت تفلت منه، فلا تدعه يلمسها.



ووقف "أبو المكارم" وتقدم نحوها، تسبقه دموعه إليها.

ولم يقل شيئاً. لم يكن يستطيع أن يقول شيئاً، وهو لا يزال أخرس.

ولكنه أمسك بكفها بين كفيه، ثم علا منه نحيب كالعواء.

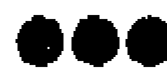
ولم تستطع أن تقاوم شعورها، فأخذته بين ذراعيها، وضمته إلى صدرها، وأسندت رأسه على كتفها.

وارتفع نحيبها خافتاً كالصلاة.

وأخذت تحادثه، وهى تعلم أنه سيفهم عنها، وإن لم يستطع أن يرد عليها :

" يا أبو المكارم" أنا مظلومة يا "أبو المكارم" أنا مسكينة، وأنت مثلى مظلوم ومسكين..كلانا يا "أبو المكارم" سندخل سجناً واحداً. سيحبسوننى أنا فى بيت "الحاج سلطان" لأكون تحت أمره، كيفما شاء. وأنت سيحبسونك عند الساقية، لتكون فى خدمته كيفما شاء. لن يكون لى إلا أنت يا "أبو المكارم" من سيكون لى سواك؟ كلهم سيكونون ضدى. كلهم سيكونون خصومى وأعدائى. كلهم بلا استثناء. "الحاجة زهرة"، و"الست نبوية"،و"الست قمر" و"أبو سريع" و"عباس" والبنات والأولاد. الجميع سيكونون ضدى. ولن يستطيع أبى أن يحمينى منهم. بل ربما لن يستطيع حتى أن يرانى، هو أو أمى، أو أختى.

و"الحاج سلطان" الذى يقول إنه يحبنى، لا يحب إلا نفسه. سيحمينى وقتما يريدنى، ثم يلقى بى بعد ذلك إليهم، ليوجهوا إلى طعنات قاتلة. سيقتلوننى يا "أبو المكارم" ولن يكون لى واحد إلا أنت. أنت وحدك يا "أبو المكارم". ستكون عزائى، فلا تتركنى وحدى يا "أبو المكارم". لتكن دائماً إلى جوارى. راقبنى كلما استطعت. وستفهم عنى، ستعرف مدى تعاستى فحاول أن تخفف عنى. لا أريد أن أعرضك للخطر، ولكن شعورى أنك معى سيكفينى. بالله يا "أبو المكارم" لا تتركنى. كن أبى، كن أمى، كن أختى. طالما أنك لن تستطيع، أن تكون حبيبى...يا حبيبى.



وبينما هما كذلك، غائبين عن الدنيا، لا يدريان كم من الوقت مضى عليهما إذا صوت يخترق إليهما الحقول يناديها.

أمها تناديها، ويبدو فى ندائها أنها مذعورة وخائفة.

فتترك "أبو المكارم" حيث هو..دموعه على خديه ونحيبه متصل كالعواء، وتعدو مسرعة إلى الخص، لترى ماذا أصاب أمها.

وتكاد من حيرتها أن تسقط.

وتصل إلى الخص، لتجد نفسها وجهاً لوجه أمام "الحاج سلطان" وقد وقف أمام الخص، بقامته القصيرة، والشال الذى يلف به رأسه، وعصاه فى يده.

ونظر إليها نظرات حادة قاتلة، يحاول أن يسبر أغوار نفسها، ويعرف أين كانت فى هذا الوقت من الصباح.

ووقفت أمامه جامدة لا تدرى ماذا تقول.

ثم دارت بعينيها فى المكان، فوجدت أباها ينظر إليها نظرات بائسة ذليلة وأمها تتطلع فى إشفاق.

ولم تدر ماذا حدث، حتى نطق "الحاج سلطان" فقال موجهاً كلامه لوالديها :

- من اليوم، وقد أصبحت "تفيدة" نصيبى، فخروجها مستحيل.

قال "أبو عوف":

- أمرك يا سيدى "الحاج سلطان".

وقالت "أم الهنا" :

- وهل نسمح لها بهذا يا سيدى الحاج ...لا وحياة شرفك.

قال فى صرامة :

- ليس لى حريم يخرجن من البيوت، وقد قرأنا الفاتحة على أن تصبح من حريمى، وليلة الجمعة القادمة نكتب الكتاب، وبعدها بأسبوع أو أسبوعين تذهب إلى الدار.

قال "أبو عوف":

- إنها خادمتك يا حاج...تأخذها من الآن إن شئت.

وقالت "أم الهنا" :

- لم يعد لنا فيها شىء يا سيدى. إنها ملكك، وأنت حر فيها.

قال الرجل العجوز القصير :

- نعم، وسأكلف الأخرس بمراقبتها . وسيدلني على كل شيء يحدث منها .

والله لولا أنها محتاجة لملابس غير هذه الخرق البالية الممزقة التى ترتديها، ولولا أنها محتاجة أن تتعلم النظافة، حتى لا تدخل دارى بهذه الصورة المزرية، ولولا أن إعداد حجرتها محتاج لبعض الوقت. لولا هذا ما أبقيتها هنا ثانية واحدة.

قال "أبو عوف".

- عندك حق يا سيدى الحاج. هذه الخص لا يناسب حريمك.

وقالت "أم الهنا" :

- نرسلها لك وقتما تشاء يا سيدى الحاج.

ونظر الرجل إلى "تفيدة" وراعه منها جمال صارخ، ولم يشغله عن هذا الجمال حزنها الواضح العميق، ولا مجارى الدموع على خديها، وثارت رغبته فيها، فلانت عباراته، وهو يقول :

- إن شاء الله ربنا يقدرنى على إسعادها .

وكاد أن ينصرف، فلما أدار ظهره، رأى أختها "مفيدة" قادمة من بعض شئونها فتوقف فجأة، وعاد ينظر على "أبو عوف" ويقول :

- و"مفيدة" أيضاً لا تخرج، أو على الأقل لا تكثر من خروجها، إنها لم تعد طفلة.

وسكت "أبو عوف" وسكتت "أم الهنا".

ومضى "الحاج سلطان" يقول :

- أنا لا أسمح بأن تكون أخت واحدة من حريمى كثيرة الخروج. ماذا يقول الناس لو رأوها ذاهبة إلى هنا وهناك.

قال "أبو عوف".

- أمرك يا سيدى الحاج...أمرك.

وقالت "أم الهنا" :

- تخرج إتخرج إلى أين يا سيدى الحاج !. لا ...لا تخرج أبداً.

وسكتت "مفيدة" وهى تسمع هذا الكلام، ولم تستطع أن تنطق بحرف.

وعاد "الحاج سلطان" من حيث أتى.



على أن هذا الكلام لم يعجب "مفيدة" فلما انصرف "الحاج سلطان" نظرت إلى أمها وهى تقول لها :

- وما دخل هذا الرجل بى؟ هل أنا الأخرى من حريمه؟ ومن يساعد أبى ! ومن يساعدك أنت الأخرى يا أمى؟

وأشار إليها أبوها أن تسكت.

وقالت "تفيدة".

- يا رب لماذا لم تأخذنى إليك، قبل أن يرانى هذا الرجل؟ يا رب، لماذا تسبب للأسرة كل هذه المتاعب بسببى؟

قالت "أم الهنا" :

- اسكتى يا بنت...ربما سمعنا أحد.

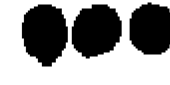
قالت "تفيدة" :

- يسمع من يسمع! إنه سيأخذنى بقوة ماله ونفوذه. فلماذا يتحكم فى أختى "مفيدة"؟ ...لماذا؟..كفى أنه سيأخذنى إلى سجنه...أنا لا أريده.

والله لو أن أمرى بيدى، لصحت فيه رافضة طلبه، هذا العجوز. إنه يملك الأرض. إنه يتحكم فى أرزاق الناس. وسيملكنى كما يملك الأرض، وسيتحكم فى كما يتحكم فى أرزاق أهل البلد.ولكن ما ذنب "مفيدة"؟

وذعر أبوها، وخافت أمها، فسحبوها إلى داخل الخص حتى لا يسمعها أحد.

وفى الخص أخذت تبكى، وقد ارتمت على صدر أختها "مفيدة"



ومضى اليوم على القرية، وهى لا تنى عن الكلام فى قصة "الحاج سلطان" "وتفيدة".

"تفيدة" ابنة "أبو عوف" و"أم الهنا"؟!

الحافية الممزقة الثياب، الجائعة..التى نشأت فى الخص الواقع عند مدخل الحديقة؟!

نعم، ولكنها أيضاً، الممشوقة القوام، الصافية البشرة، الساحرة العينين، الباسمة الفم، المتوردة الخد، الذهبية الشعر، الرائعة الفاتنة ...

هكذا كان يدور فى خلد أبناء القرية، وهم يتحدثون عن القصة الجديدة فى حياة قريتهم.

فمن قائل : هذه الشحاذة تدخل بيت "الحاج سلطان" لتصبح زوجته !

ومن قائل : هذه الساحرة، كجنية البحر، تصبح من نصيب الرجل العجوز فى آخر أيامه !

ومن قائل : ماذا عن العمدة..هل تراه وافق؟ لتصبح هذه ضرة أخته؟

ومن قائل : وهل العمدة يحارب الحلال؟ ..إنها حلاله الرابع..والعمدة نفسه فعل هذا..فهل يعارض لسواه، ما حلله لنفسه؟

ومن قائلة : "أم الهنا" ستصبح حماة "الحاج سلطان".

ومن قائلة : مسكينة "أم الهنا" لن تستطيع أن تصبح حماة، "فالحاج سلطان" لن يسمح لها بأن تمارس ما تمارسه أية حماة مع زوج ابنتها.

وهكذا مضى يوم القرية، بينما كان "أبو عوف" مختفياً بين أشجار الحديقة، لا يرى أحداً ولا يريد أن يراه أحد. وبينما كانت "أم الهنا" قابعة فى خصها وخدها على كفها لا

تسمع شيئاً، ولا تريد أن تسمع شيئاً، وبينما "مفيدة" إلى جوار أختها لا تتحدثان، بقدر ما تبكيان.

وبينما كان "أبو المكارم" يحوم حول الخص، يحاول أن يسترق النظر إلى داخله ليطمئن على "تفيدة" الضحية المسكينة البريئة.



وفى صباح اليوم التالى، أقبلت على الخص امرأة طويلة نحيفة، ولكنها على قدر من الملاحة، تخطو فى رشاقة متكلفة، وتضع الطرحة على رأسها فى أناقة، وتعمد إلى أن تظهر أذنيها من طرف الطرحة، ليظهر الحلق الذهب الذى يتدلى براقاً حتى أسفل خديها.

هذه المرأة هى "البلانة".

"وبلانة" القرية امرأة مهمتها زينة النساء. تسرح لهن شعورهن فى ضفائر طويلة، وتعالج لهن بشرتهن، لتصبح طرية ملساء، وتباشر معهن نظافة سيقانهن لتصبح كأعواد العاج، وتحضر لهن العطور، لتسبقهن إلى الرجال رائحة مغرية فتاكة.

"بلانة" القرية هى حارسة الدلال. والجمال، وطراوة الأنوثة، بين نساء القرية.

وهى فى نظر الرجال، خبيرة أهوائهم،وأمزجتهم ومقاييس الفتنة فى نسائهم.

وهى لهذا لها حظوتها بين الرجال والنساء، على حد سواء.

ولكن أى الرجال، وأى النساء؟

"أم الهنا" مثلا؟ أو جاراتها أو صديقاتها؟

لا ...بل نساء العمدة وبناته، ونساء "الحاج سلطان" وبناته، ونساء الأعيان وبناتهم، وهؤلاء لا يتجاوز عددهن أصابع اليدين فى القرية، ولكنهن سيدات القرية، وصاحبات الصيت والمال والنفوذ، وزوجات السادة الذين يملكون كل شىء فى القرية.

أما الأخريات، فقد تضع نفسها فى خدمة بعضهن، مرة فى عمر كل منهن..ليلة عرسها، وفى نظير ذلك تتقاضى ما تتقاضاه، نقوطاً وسمناً وجبناً، وهدية قيمة لا تتنازل عن تحديد ثمنها هى كما تشاء، وإلا فالويل للعروس من عريسها، عندما تلقاه بوجه الغراب كما تقول :

إن "للبلانة" فى القرية مركزاً خاصًا، وكلمة مسموعة، لا يرد لها رجاء برغم أنها ليست من نساء الأعيان، ولا من طبقة السادة...

على ان "البلانة" تحب أن تكون دائماً صورة لما تصنعه للأخريات، فإنها الإعلان المتحرك لقدرتها على أن تجعل من البوصة عروسة، أو من الفسيخ شربات، كما تردد أمثال القرية.

وتصل عنايتها بنفسها إلى حد أن تصبح هى نفسها موضع إعجاب الرجال، وكثيرا ما تصبح موضع منافسة الأعيان يتوددون إليها، ويتقربون منها بالهدايا، من مختلف الأنواع.

وعندما وصلت "البلانة" إلى الخص البسيط المتواضع، عرفت "أم الهنا" أنها قادمة من أجل "تفيدة".

وكان لابد ان ترحب بها، وأن تأمر بنتها "مفيدة" أن تعد لها الشاى.

وجلست "البلانة" متأففة من قطعة الحصير الوحيدة، التى فرشتها لها "أم الهنا" لتجلس عليها.

وبعد أن شربت الشاى، سألت عن "تفيدة" قائلة :

- أين العروس...عروس الهنا والسعد إن شاء الله.

ونادت "أم الهنا" على ابنتها، فأقبلت مقطبة الجبين، ذابلة العينين، حافية القدمين.

قالت "البلانة" :

ما هذا يا بنتى؟..أنت عروس...وعروس من؟ عروس "الحاج سلطان" اذهبى اغسلى وجهك ويديك، ونظفى قدميك، فإن الخياطة ستلحق بى بعد قليل.

ولم تجب "تفيدة" ولم تتحرك كذلك.

ونهرتها أمها وأمرتها أن تسمع كلام "الست أم سعيد" "بلانة" القرية، وزينة نسائها.

وقالت البلانة :

ـ عندها حق. البنت صغيرة ومغمضة العينين.

قالت "أم الهنا" :

صحيح والنبى...لكن لابد لها من أن تسمع الكلام. إلى متى ستظل صغيرة ومغمضة العينين؟ الصغير سيكبر، والمغمض سيفتح عينيه. اذهبى يا "تفيدة" وافعلى ما قالته لك " الست أم سعيد".

ومضت "تفيدة" بغير أن تجيب بكلمة واحدة، عمّا سمعته من كلام أمها، أو "الست أم سعيد" هذه.

وأحست أنها محتاجة لبعض الهواء. لبعض النسيم، تملأ به رئتيها، فخرجت تتنسم الهواء، وتتنسم مع الهواء، السلوى على ما هى فيه.

وكان أول من وجدته عند مدخل الخص "أبو المكارم".

كان جالساً متكوماً، متكوراً، لا تتحرك منه إلا عيناه.

وزفرت زفرة طويلة، وهى تنظر إليه.

وتنهد هو فى حسرة، وهو ينظر إليها.

إن "أبو المكارم" مكلف بتقصى أخبارها، هكذا قال "الحاج سلطان"، ولكنها على ثقة كاملة من أنه لن يفعل شيئاً يضرها، إنه يحبها. إنه معها لا عليها.

واطمأنت إليه، ولم تخش أن تطيل النظر إليه.

على أنها لاحظت الخياطة قادمة بدورها، فدخلت إلى الخص، وأصلحت بعض شأنها استعداداً لقدومها.

وأقبلت "أم السعد" الخياطة، فانضمت إلى أمها، وإلى البلانة، وجلس ثلاثتهن يحتسين الشاى وهن فى انتظار العروس.

ودخلت العروس، فانطلقت زغرودة من الخص الحزين.

أطلقتها الخياطة فى وجه العروس،وهى تقول:

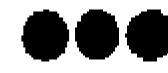
- ما شاء الله..ما شاء الله..زينة والنبى زينة..أنت التى ستضيئين بيت "الحاج سلطان" صلاة النبى...عرف كيف يختار. رجل صقر.

وضحكت البلانة متأففة.

أما "أم الهنا" فقد اكتفت بأن أخذت تدعو الله بأن يتم كل شئ بخير.

وأما "تفيدة" فقد أشاحت عنهن بوجهها، وأخذت تبحث عن أختها، لتؤنس وحدتها وتملأ فراغ نفسها.

وبدأ عمل النسوة فى المرحلة الأولى من إعداد العروس.



بدأت "أم السعد" الخياطة تأخذ مقاييس جسمها، وهى بين كل قياس وآخر تصيح :

- صلاة النبى... يا صلاة النبى... جسم غزلان والله يا عروس الهنا.

أو كانت تطلق زغرودة ترن فى الخص، فيتجمع بعض النسوة يستطلعن الخبر، أو يقبل الأطفال، ينظرون إلى داخل الخص، ليقفوا على ما يجرى بداخله.

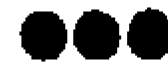
وكان "أبو المكارم" ككلب الغنم، يرد الأطفال عن التجمع حول الخص !

ولكنهم سرعان ما كانوا يعودون، عندما تنطلق زغرودة أخرى من الخياطة، وهى تأخذ مقاييس الجسم الفاتن، تمهيداً لتفصيل الملابس اللازمة لها.

وبعد أن فرغت الخياطة من عملها، بدأت البلانة فأغلقت باب الخص، لتعالج جسم الفتاة بكل ما تملكه من وسائل، ليكون لائقاً بالعريس.

"بالحاج سلطان".

وبعد أن قضت المرأتان فى الخص، بضع ساعات، خرجتا إلى عودة فى صباح اليوم التالى، لاستئناف العمل معها، حتى لا يحل الموعد المحدد، ولا تكون مهيأة تماماً للزفاف.



وعندما اقبل "أبو عوف" من الحديقة ليتناول طعام الغداء، أخذت "أم الهنا" تروى له زيارة البلانة، والخياطة وماذا فعلته كل منها مع "تفيدة" وماذا قالت كل منها عن جمالها وسحرها وفتنتها.

وكان الرجل قد بدأ يتناول الغداء، فتوقف عن الطعام وهو يسمع القصة التى ترويها زوجته. كأن شيئاً وقف فى حلقه.

ونظر إلى زوجته طويلا وهو يقول :

- يظهر أنك صرت مثل الآخرين. مسرورة أنت؟

- لا يا "أبو عوف" ولكنى أروى لك ما حدث.

- إنها مصيبة يا "أم الهنا". لعنة الله حلت بنا.

- ربما فيها خير.

- خير...أى خير يا "أم الهنا"؟

- ربما ...من يدرى؟ هل سيرضى "الحاج سلطان" لأصهاره أن يستمروا فى هذا الخص؟ هل سيرضى أن تستمر فاعلا تعيش على الكفاف؟ هل سيقبل؟

ربما كان فى هذا الفرج.

وفجأة ألقى ببقية الخبز من يده، وهب واقفاً وهو يقول :

حتى أنت ...الله يسامحك...ألا يكفى هذا الذل الذى نحن فيه؟

أتريدين مـزيداً من الـذل، ومن العـار؟ الله يسـامـحك...صـدق رسـول الله : النسـاء ناقصات عقل ودين.

وخرج...خرج ليختفى بين أشجار الحديقة، كأنما يحتمى بها عن العيون.

وعجبت "أم الهنا" من موقف زوجها فتبعته إلى الحديقة، لتخفف عنه بعض ما يعانيه، ولتحاول أن تقنعه أنه ربما كان فى هذا خير.

لكنه لم يعبأ بوجودها، فلما ألحت عليه بالكلام، صاح فيها صيحة لم يوجهها إليها طيلة حياته معها.

عودى إلى الخص...عودى...اتركينى وحدى، كفى. كفى.

وكاد يرفع عليها كفه، ليصفعها، فعادت أدراجها إلى الخص، ونوت ألا تفاتحه فى أمر "تفيدة" بعد ذلك.

على أنه تبـين بعـد أن مضت، أنه كاد يرتكب مع امرأته، ما لم يخطر يومـاً على باله فعزت عليه نفسه، وعز عليه أن يندفع هذا الاندفاع الطـائش، فارتمى تحت شجـرة من أشجار الليمون، وانكفأ يبكى...

ولم يدر كم من الوقت مر به، وهو على هذه الحـال، حتى أحس أن أقدامـاً تقـترب نحـوه فرفع عينيه، ليرى أمـامـه "أبو سـريع" بقـامتـه المديدة، وفى يده بندقيتـه الرهيبة، ونظراته الوحشية، قد تسمرت فى عينيه.

ومرت لحظات كالعمر...ثم سمع "أبو سـريع" يقول له :

- كيف الحال؟...لماذا تبكى؟

- لا شىء...لا شىء.

- لا...بل تبكى من شىء. أنا "أبو سريع" لا يخفى على شىء فى هذه البلدة.

- والله لا شىء...

- بل قل الصراحة خير لك يا "أبو عوف".

- أية صراحة؟ هل ارتكبت خطأ؟ هل أسأت إلى أحد؟ ...إنها دموعى ألست حرًا فى دموعى؟

- إياك أن تلف وأن تدور. أنت تبكى على بنتك.

- نعم ...وعلى نفسى. وعلى عائلتى.

- ماذا جرى لعائلتك...؟ ألا تحمد الله؟ هكذا أنتم يا جياع، يجيعونكم فلا ترضون، ويمدون لكم أيديهم بطعام فلا ترضون ! ماذا نفعل لكم؟

- يا سيدى نحن خدمكم..هل نحن فى هذا المقام؟

- إذن تعرف مكانك.

- طبعاً ..وانا حامد الله شاكر فضله على ما أنا فيه.

- إياك أن تفكر فى أن زواج الحاج من بنتك معناه أن تطمع فيه !...

- أنا...أنا أطمع فيه؟ أنا خادمه...أنا رجله...أنا ملكه.

- وبنتك...العروس...تحاول أن تأكل بعقل الرجل حلاوة، تكون هذه آخرتها وآخرتك...

- ما معنى هذا؟

- الرجل عجوز، والبنت صبية فائرة، وسيكون من السهل أن تضعه فى جيبها، وفى لحظات التجلى تطلب ما تشاء، فيعطيها ما تشاء !

- مثل ...ماذا؟

- يكتب لها شيئاً ...قطعة أرض. تطلب نقوداً ..مصاغاً...

- أستغفر الله. بنتى تفعل هذا.

- نعم؟ حاول أن تستغفلنى يا "أبو عوف".

- يا سيدى العفو. والله أنا نيتى سليمة، وأنت تعرف مركزك عندى.

- طبعاً. وهل مركزى محتاج إلى شهادة منك أو تزكية؟

- يا سيدى يا شيخ الخفر، ماذا تريد؟

- أريد أن أنبهك إلى أن زواج "الحاج سلطان" بابنتك ليس أكثر من زواج متعة.

- ماذا؟ زواج متعة؟...حلال هذا أو حرام؟

- حلال...حلال...لا تخف. ولكنه من أجل المتعة، فلا تكافؤ بينهما لا فى المركز، ولا فى المستوى.

- ولا فى السن.

- إياك أن تطيل لسانك يا وقح !

- أنا أقصد.

- تقصد أنه عجوز وابنتك صبية...ولكن يجب أن تعرف أن الحاج أخطأ.

كان باستطاعته أن يحظى بها من غير زواج، ولولا أنه مغفل.

- وترضى هذا يا سيدى "أبو سريع"؟ وهل يرضى الله؟

- طالما أنها نزوة كنزوات الشباب الطائش.

- حرام عليك. أنا رجل مسكين، وقد خدمتكم طول حياتى، فهل يكون هذا جزائى.

- على أى حال...سيتزوجها الحاج على سنة الله ورسوله، ولكن إياك...وإياها أن تفهم أن وراء هذا الزواج شيئاً.. كفاها وكفاك هذا الشرف الكبير.

- أمرك يا سيدى...ماذا تريدنى أن أنبه عليها به.

- تقول لها إننى سأكون مفتح العينين لها. لكل تصرف من تصرفاتها، فإذا وجدت أنها بدأت تستغل طيبة الرجل وتستغل كذلك جمالها، فالويل لها ولكم.

ـ وكيف تريدها أن تعامله؟

ـ خادمة لا أكثر ولا أقل...خادمة ...خادمة ... مفهوم هذا.؟

ـ مفهوم يا شيخ الخفراء.

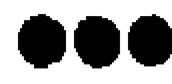
ـ وإياك أن تنسى...

ـ أمرك يا شيخ الخفراء.

ـ وتنبه على "أم الهنا" أيضاً أن توصى البنت بذلك، لمصلحتكم جميعاً.

ـ حاضر يا شيخ الخفراء.

وتركه ومضى، مارداً رهيباً، فى خطوة نذير.



وأخذ "أبو عوف" يستعيد كلمات "أبو سريع" :

هل سمعت يا "أبو عوف"...زواج بنتك "بالحاج سلطان" ليس أكثر من زواج متعة زواج متعة يا "أبو عوف" ! "والحاج سلطان" أخطأ. كان باستطاعته أن يحظى بها من غير زواج، لولا أنه مغفل !..سمعت يا "ولد" سمعت الكلام...وهو كلام من؟ كلام "أبو سريع" أو "سبع الليل"، الرجل الذى يرهب القرية، ويهز أوصالها ! الرجل الذى ترتعد منه فرائص الرجال، وتخافه حتى أعواد المحاصيل ! اسمه وجسمه وما هو معروف عنه من العنف عندما يخاصم، وقدرته على التشهير، بأعدائه، وتدبير مؤامرات تلقى بهم فى غياهب السجون ! الرجل الذى تفوح من يديه رائحة البارود، وتفوح من عينيه رائحة الشر ! هذا كلامه، وهذه تحذيراته.

و"أم الهنا" يا "أبو عوف" كانت تقول لعله خير، وهل سيرضى "الحاج سلطان" لأصهاره أن يظلوا هكذا فى الخص !..اسمعى يا "أم الهنا". إننا لسنا اصهاره..وكيف سنكون أصهاره، وزواجه من بنتنا لن يكون غير زواج متعة..بل إنه كان يستطيع أن ينال منها ما يشاء، بلا زواج..لولا أنه مغفل، كما قال "سبع الليل" اسمعى يا "أم الهنا" واطمئنى.

ليتهم يتركوننا فى الخص يا "أم الهنا" ! ليتهم يكتفون بسرقة البنت، لتكون متاعاً "للحاج سلطان" ويتركوننا فى حالنا. ليتهم ينسون أنها بنتنا، لنعيش مقروحى العين والقلب والضمير. نجرى وراء لقمة عيش نسد بها الرمق ! ليتهم يا "أم الهنا" يا مغفلة ويا مخدوعة يكتفون بهذا !

على أن "أبو عوف" لم يستطع أبداً أن ينسى طعنات شيخ الخفراء له، وهو يحذره من أن يكون وراء هذا الزواج شىء !

ويعود إلى نفسه فيقول : أنت تعلم يا ربى...هل أنا الذى سعيت إلى هذا الزواج؟ هل أنا أغريت "الحاج سلطان"، بالبنت الصغيرة...أم أننى فوجئت بطلبه لى، ليتحدث إلى بشأن الزواج منها؟ فكيف يفهم الرجل القاسى الرهيب أننى مدبر الزواج، وأننى أخفى وراء هذا التدبير شيئاً، ولهذا يحذرنى ويأمرنى بأن أحذر "أم الهنا"، وعروس الهنا !! ياخيبة بختك يا بنتى ! يا زوجة المتعة يا بنتى..يا من ..يا من كان يستطيع "الحاج سلطان" أن... وهنا يتوقف عن المضى فى التفكير.. وفى حديث نفسه، بهواجس نفسه.

بل إنه ليفزع من أفكاره هذه، منكراً أن يراوده هذا الخاطر.

لأنه يمزقه، فيلعن شيخ الخفر، ويلعن كلماته، ويقول فيما بينه وبين نفسه : قطع لسانك يا شيخ النحس !..قطع لسانك يا خفير السرقات والنهب !..

قطع لسانك، وشلت يداك، بل ترملتك زوجتك يا فاجر، يا فاسق، يا زنديق !

ومضى بين أشجار الحديقة، يردد فيما بينه وبين نفسه استغفار الله، واستعاذة به سبحانه وتعالى من الشيطان الرجيم.

ولم يتمالك نفسه فى بعض الأحيان، فأخذت عيناه تدمعان فى أسى، ولكنه سرعان ما كان يخفف دمعه، حتى لا يفاجئه الرجل مرة أخرى.

وعندما خيم الظلام على الحديقة، ولم يعد يتبين مواضع أقدامه، عاد إلى مضجعه من الخص.

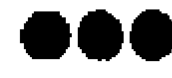
ولقد دخل هذه المرة متسللا، بلا صوت، ولا حركة كأنه تمثال.

ولم تقو زوجته على أن تسأله عما إذا كان جائعاً أو شبعاناً.

ولم تقو "مفيدة" بنته على أن تمد يدها إليه، تدلك له ساقيه، كما اعتادت أن تفعل فى كثير من الليالى.

أما "تفيدة" زوجة المتعة، فإنه لم يعثر لها على أثر. ولم يعبأ أن يسأل عنها.

لم يقو..لم يطاوعه لسانه، فقد كانت الصورة القاتمة التى رسمها شيخ الخفر أمام ناظريه تزعج ضميره، وتشل لسانه..كان فى استطاعة "الحاج سلطان" أن يفعل بها ما يريد، بلا زواج...لولا أنه مغفل ! يفعل ماذا؟ وهنا كان تفكيره يصاب بجمود وشلل، وتتحرك شفتاه بالاستغفار لله والاستعاذة به من الشيطان الرجيم.



"تفيدة" عروس النحس، فى هذا الوقت من المساء، خرجت لتتنسم بعض النسيم فى الخلاء والفضاء، بعد أن عاشت على الدمع، منذ سحبها أبوها من يدها، وروى لها قصة الزواج من "الحاج سلطان".

ولقد تلفتت حولها..فلما لم تجد أحداً يراقبها، تسللت بين المزارع، وخطت خطوات سريعة إلى الساقية.

ووجدته هناك، كأنما كانا على ميعاد.

"أبو المكارم" الأخرس.

كان فى جلسته من فروع شجرة الصفصاف، كأنه فرع من فروعها.

ساكناً، وادعاً، متكوماً، لا يتحرك منه إلا عيناه، كعقارب الزمن.

ولكنه ما إن رآها، حتى تهلل وجهه بشىء يشبه البشر، وإن شاب بشره هذه المرة حزن صامت.

واقتربت منه ومدت كفها إلى كفه، فأخذها بين كفيه.

ولأول مرة جرؤ الأخرس، على كلام ! كلام أعمق من الكلام، يحوى من الفصاحة والبيان ما يعجز عنه كثير مما نسمعه من كلام.

قبل كفها، وكان هذا أبلغ ما عرفته "تفيدة" فى حياتها، من كلام !

وكانت القبلة صامتة، ولكنها كانت دافئة مع ذلك.

وشعرت أنها تود، لو أنها تركت كفها على شفتيه إلى الأبد، فإن تياراً جارفاً يصل قلبه بقلبها، عن طريق شفتيه وكفها.

وتاهت نظراتها، وتكسرت أهدابها، وارتخت عيناها، وكادت أن ترتمى إلى جواره تضمه، وتشبع منه، قبل أن يلتهمها الغول.

وقارنت بين هذا الصدق الأخرس، والكذب الصارخ الذى كان يبديه "الحاج سلطان" وهو يتودد إليها فى تظرف رخيص.

وبدأت تتصور نفسها معه...وحدهما.

بدأت تتصور أنها زوجته، وأنها لا تستطيع أن تنفر منه، أو تفلت من بين يديه، أو تعدو مسرعة تحتمى من محاولاته.

...بينما هى الآن مستعدة- لو طلب منها الأخرس أن تعطى قلبها راضية هانئة، متمنية أن تسعده.

إن سعادته سعادتها...

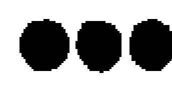
وسقطت الدموع من بين الأهداب الطويلة السوداء، وأخذت ترسم على خديها خطين متوازيين من الأسى والحسرة.

ووقف "الأخرس"، وأخذ يربت على كتفيها، ويمسح لها دموعها، ويحدثها بالإشارات والصيحات أن تطمئن...وفهمت عنه كل شىء.

فهمت عنه أنه يقسم لها أنه يعرف أنها تحبه، وأنه يقسم لها أنه يدرك أن هذا الزواج يتم قسراً وإرغاماً. وأنه سيقف إلى جوارها. وأنه سيضع حياته. دمه. رقبته فداء لها. إنه يطلب منها أن تصبر، وأن تحتاط حتى لا ينكشف أمرها. ولكنه سيكون إلى جوارها فى بيت "الحاج سلطان" كالكلب الأمين الذى يحرسها. صحيح أن الحاج طلب إليه أن يراقبها وأن يخبره بكل حركة من حركاتها، وسيفعل ذلك بطبيعة الحال. وهو على ثقة من أنها طاهرة وبريئة وأشرف من سيدخل بيته. إنه يعرف كل شىء عن البيت، وعما فيه من خبايا إنه يطلب إليها أن تطمئن، فإنه سيؤدى واجبه نحو "الحاج سلطان" برغم ما يعرفه عنه من الظلم والاستبداد، ولكنه لن يتخلى عنها كذلك. سيقف إلى جوارها دائماً. سيفعل لها كل شىء. سيحميها من الذئاب. سينبهها عندما يجد شيئاً يدبر لها. ويؤكد لها أنه يحبها، ولكن حبه لها ليس كحب "الحاج سلطان".

إنه حب بسيط وشريف وطاهر كاللقمة التى يأكلها بعرقه، لا من دماء الناس، والجلباب الذى يرتديه بكده، لا من السرقة والنهب، وكهذه الساقية التى تدور كالحياة، برغم ما يلوث الحياة من سموم البشر.

هكذا فهمت عنه، فاطمأنت نفسها، وافترقا بلا موعد، فإنه لم يعد محتاجاً إلى موعد، بعد أن كلف بمراقبتها، وقتما يشاء، وكيف يشاء.



وقضت "تفيدة" بقية أيامها فى الخص، تستقبل كل يوم "الست أم سعيد" البلانة تأتى لتهيئتها للزفاف من "الحاج سلطان".

وكانت تكرهها. لم تحس نحوها إلا بشعور العداء، وإن لم تستطع إلا أن تطيع تعليماتها، وكانت تلقيها دائماً فى طراوة لعوب، وفى نغمة عابثة، ماجنة كذلك.

وطالما قالت لأختها "مفيدة" :

- ما هذه المرأة ...مالها ومالى؟

وكانت أختها ترد عليها بأنها تهيئها للزواج، فالزواج شىء جديد على حياة الفتاة، ولابد أن تستقبله جميلة فاتنة، لتملأ نظر زوجها وقلبه وعقله.

وتصح "تفيدة".

- أنا لا أريد أن أملأ لا نظره، ولا قلبه، ولا عقله.. ثم ما معنى أن تهيئنى؟

- تغير من خلقتى ! ربنا خلقنى هكذا ! وهذا الكلب المسعور هو الذى جرى ورائى، فما معنى أن تهيئنى؟

- لكى تصبحى حلاوة خالصة..لكى يصبح كل شىء فيك كاملا ومهيئاً للرجل ليلة الزفاف.

- يا خيبتك يا "تفيدة" ! ..ليلة الزفاف..ممن؟

- "الحاج سلطان" يا بنت..سيدك "الحاج سلطان".

- تعرفين يا "مفيدة"؟ هذه العمليات التى تقوم بها "أم سعيد"، ما أظنها لى أنا؟

- ما هذا؟..إنها تهيئك للزواج.

- بل تهيئه هو للزواج، ما عيبى هكذا؟..ولماذا خطبنى وطلبنى لو أن بى عيباً؟

ولكنه يهيىء نفسه. عجوز يا بت، وتزوج ثلاث زوجات، فهو الذى يحتاج إلى هذا فريما يفتح شهوته، ويتغلب به على ما أصابه من ضعف ووهن !

- يا بنت يا شقية..عيب.

- عيب على أنا..إنها خيبة..نحس والسلام.

على أن زيارات البلانة لم تكن هى كل شىء فى حياة "تفيدة" فى تلك الأيام.

كانت هناك زيارات أخرى تقوم بها الخياطة. تقبل لتقيس عليها الملابس الجديدة التى تعدها لها.

ويوم وضعت أول هذه الملابس على جسمها، وكان لونها زاهيا براقاً، أحست "تفيدة" أنها تضع على جسمها شوكاً.

ولم تتكر فيما بينها وبين نفسها أن نوع القماش كان شيئا لم تره فى حياتها، كذلك الوانه، كذلك نقوشه. ولكنها مع ذلك لم تشعر بالراحة، وهى تضعه فوق جسمها. بل شعرت أنه يلدغها بنوع من إبر النحل أو الشوك.

ولقد تمنت لو تركوها كما هى بملابسها القديمة الممزقة. فهذه الملابس تريحها أكثر مما تريحها ملابس "الحاج سلطان".

ملابس أخذتها عن أختها "مفيدة" وأختها "مفيدة" أخذتها عن أمها، بعد أن أجرت بها التعديلات الضرورية. وأمها اشترتها من كفر الزيات، بعرقها ..بكدها، بجريها طول النهار، تربى دجاجاً وتأخذ إنتاج الدجاج من البيض، وتضع البيضة فوق البيضة لتبيع ذلك كله فيكون لها كساء.

هذه ملابسها ..ملابس تحمل رائحة أسرتها جميعاً، رائحة العرق والعمل والجهد والكد الدءوب الذى لا يمل.

ملابس تحمل ذكريات عزيزة عليها، حبيبة إلى نفسها.

أما ملابس "الحاج سلطان" فشىء آخر.

ثم هى ملابس تهيئها للزواج منه، كما هو الشأن مع البلانة عندما تشد جلدها بشىء ثقيل مزعج، يكاد ينتزع قطعاً من لحمها.

وتقول لأختها "مفيدة" عندما تخلو بها :

- وما عيبى وأنا كما أنا...؟ يريدون أن يغيروا جلدى !..

- الملابس الجديدة شىء جميل.

ـ جميل...ليتها كانت لغير هذا الزواج. إنهم لا يشترونها لى يا "مفيدة" إنهم يشترونها للحاج... للعريس ! لتبهر نظره. يريدون أن يرضوه هو...إذا كان الأمر أمرى، فإنى راضية بما أنا فيه.

على أن "أم السعد" الخياطة تأتى لها كل يوم بجديد...

وبعض الملابس لم يخطر بذهنها أبداً.

قمصان نوم حرير...بلا أكمام ...شفافة !

ملابس داخلية ناعمة، ملساء، رقيقة جدًا.

وملابس أخرى طويلة تجرر أذيالها، ذات ألوان بيضاء، وحمراء، وصفراء، وزرقاء !

و"حبرة" ...حبرة سوداء، ذات "يشمك" يخفى وجهها تحت غلالة شفافة.

وأحذيه !..ستلبس أحذية !

وجوارب من حرير !

جوارب أيضاً، وهى التى فرحت فرحة العمر، يوم وجدت فى طريق محطة السكة الحديد، فردة شراب حمراء.

سيصبح عندها جوارب...جوارب من حرير.

واخذت تهز رأسها فى عجب...

هل نسيت "تفيدة" محنتها، أمام هذه الملابس الزاهية.

هل نسيت مأساتها، وهى ترى بعض الحلى والجواهر توضع فى أذنيها وحول رقبتها معصميها!؟

إن "تفيدة" لم تنس المحنة، ولم تتغلب على المأساة.

بل ربما زاد شعورها بالمحنة وبالمأساة عمقاً.

فقد كانت ترى هذا كله، ثم ترى أمها، فى ملابسها السوداء، وأختها "مفيدة" فى ملابس أمها القديمة الممزقة.

كانت ترى أمها وأختها حافيتين، بينما هم يشترون لها أحذية وجوارب.

وكانت ترى أباها مقبلا دائماً فى شرود المذهول لا يرفع عينيه إلى ابنته، وهم يضعون هذه الأشياء حول جسمها، وتنطلق زغاريد النساء.

لم يكن يستطيع...لم يكن يقوى على هذا.

لقد كان يستعيد دائماً كلمات "أبو سريع".

زوجة المتعة ...نزوة "الحاج سلطان"...وكيف كان يستطع أن ينالها، بلا زواج.

كان هذا الكلام يدير رأسه كلما ذكره...كلما استعاده.

وكلما كان يرى النسوة يضعن الحلى والملابس حول ابنته، كانت تقفز إلى ذهنه، صورة بشعة عن زواج المتعة هذا الذى تحدث به إليه شيخ الخفر.

"تفيدة" كانت تشعر أمام ما تلاحظه، بمشاعر غامضة، تزيد المأساة عمقاً فى حياتها.

إنها تحب أمها، وأختها...وتحب أباها حبًا شديداً.

تحب حياتها، تحب ذكرياتها...تحب الخص...تحب ملابسها القديمة الممزقة...تحب فردة الشراب الحمراء، التى أعطتها لـ"أبو المكارم" تعبيراً عن مكانته فى قلبها ...

وهذه الملابس، وهذه الجواهر، وهذه الأحذية، وهذه الجوارب، وهذه البلانة التى تكاد تغسلها من ماضيها وذكرياتها غسلاً...

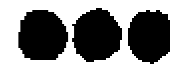
هذا كله يبعدها عن أسرتها، وعن حياتها، ويقيم حواجز كريهة بينها وبين الخص ومن فى الخص.

بل أحست "تفيدة" أن قدوم البلانة وقدوم الخياطة، كل يوم، وهذه الأشياء التى يقبلون بها إليها، قد بدأت فى إقامة هذه الحواجز بالفعل.

إن نظرة أمها إليها قد تغيرت.

وأبوها صامت لا يتكلم، ولايرفع عينيه فى عينيها.

ولولا "مفيدة" وأحاديثها المتصلة معها، لأحست أنها بدأت تصبح غريبة على حياة أسرتها، وحياة الخص الذى ولدت فيه، ونشأت فيه، وتربت فوق حبات ترابه الحبيبة، ولها فى كل ركن من أركانه ذكرى.



على أن الأيام لم تمتد طويلا. فقد تم كل شىء كما رسمه "الحاج سلطان".

جاءوا مساء الخميس الذى حدده، وأخذوا أباها لكتب الكتاب.

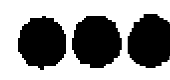
وذهب الرجل مكسور الخاطر، شارد الذهن، وعاد لا يقول شيئاً ولا ينطق بحرف فقد كتم سره، وما لقيه من ازدراء بين جوانحه، وترك أمره وأمر مستقبله إلى الله.

ولم تمض إلا أيام أخرى، وحضر عدد من النسوة : البلانة والخياطة، وأخريات لا تعرفهن "تفيدة".

وملأن ساحة الخص وغناء... تتخلله الزغاريد.

وارتدت العروس ما أردن لها من ملابس، وهيأنها كما شئن وصبغن وجهها بالمساحيق، وملأن ملابسها بالعطور.

ووضعن على رأسها طرحة بيضاء، تتدلى طويلة على ظهرها.



وعندما ما أقبل المساء، حضر شيخ الخفر ومعه عدد من الرجال، فكان هذا إيذاناً بأن على العروس أن تستعد، ليذهبوا بها إلى بيت العريس.

وأعدت ناموسية بيضاء، بأعمدة من جريد النخل، لتتحول إلى ما يشبه الحجرة الصغيرة البيضاء، لا يرى أحد من بداخلها.

ورفعوا طرفاً من الناموسية، فدخلت العروس.

واقتربت أمها منها..وكادت تنسى الموقف، فتذهب معها، لولا أنها نظرت إلى نفسها. ملابسها القديمة البالية. قدميها الحافيتين...منظرها الرقيق المسكين.

حينئذ قبلتها وخرجت من الناموسية، والدموع فى عينيها.

وفعلت "مفيدة" مثلما فعلت أمها.

أما العروس، فقد أخذت تطيل النظر إليهما، وإلى المكان، وتتلفت هنا وهناك كأنما تبحث عن شيء عزيز !..كأنما تودع أحب قطعة من أرض الله إلى قلبها، إلى الأبد !

ولم يبق مع العروس فى الناموسية إلا البلانة والخياطة وبعض القادمات من طرف العريس.

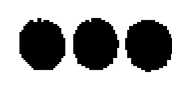
ثم أنزلوا الناموسية، فأصبحت حجرة مغلقة تماماً.

وصاح "أبو سريع" فى الرجال : هيا...هيًا بنا.

فتقدم رجال يحملون مشاعل يضيئون بها الطرقات التى سيسلكها موكب العروس وأحاط رجال آخرون بالناموسية من كل جانب، وقد أمسكوا فى أيديهم الكرابيج، يهوون بها على الأرض بين الحين والحين.

ومشى "أبو المكارم" خلف الموكب صامتاً شارد اللب.

أما "سبع الليل"، فقد كان فى مقدمة الركب، وبندقيته على كتفه، يمشى مشية صلبة جامدة، كأنه يتقدم جنازة ميت !



رجل واحد...غاب عن الجمع، وكان عليه ألا يغيب.

"أبو عوف" اختفى بين أشجار الحديقة، فلما اقترب الموعد الذى غادرت فيه ابنته الخص، اقترب من سور الحديقة، وأخذ يتطلع إلى ابنته، تدخل الناموسية...ثم تدخل أمها تقبلها ثم تتركها..وتعقبها أختها تفعل مثلما فعلت أمها.

ورأى "تفيدة" الصغيرة الحبيبة تتطلع إلى المكان وتدور بعينيها فى أنحائه، وهى تبكى.

وكاد أن يقفز بدوره إليها يفعل مثلما فعلت أمها وأختها.

أليس أباها. أليست من دمه ومن صلبه. أليست قطعة من كبده؟

ولكنه آثر أن ينتظر حيث هو...جامداً بين الشجر.

عيناه ترقبانها...

ودموعه تودعها...

وعبراته مخنوقة كإرادته...

و"تفيدة" تغادر الخص، كضمير تائه فى صفحة الغيب !

□□□

٥

كانت الساقية تدور...

يصدر عنها صوت متصل لا ينقطع أبداً.

شد إليها ثوران، قد عصبت عيونهما ووضعت عليها أغطية ثقيلة.

"وأبو المكارم" يدور خلف الثورين، بفرق واحد بينه وبينهما : أنه مفتح العينين وإن يكن مقيد اللسان.

هل كان هذا الفرق بينه وبينهما، هو السبب، فى أنه لم يكن يدور دورات متصلة مثلهما؟...لقد كان بين الحين والحين، ينتحى جانباً، فيجلس إلى جوار الساقية يرقب الثورين وهما يدوران، أو يجلس إلى جوار الأشجار التى تلتف حول الساقية، فتكاد تخفيها عن العيون.

وفى يده عصا طويلة، يضرب بها الأرض، فيكون لها صوت يدفع الثورين إلى حركة دائبة متصلة...عمياء كذلك !

آه لو أن الثورين فتحا عيونهما !

هل كانا يدوران هذه الدورات المتصلة فى غير انقطاع، حول دائرة واحدة مفرغة، لا تتغير أبداً، ولا تتبدل ولا تتجدد.

لطالما كان "أبو المكارم" يقارن بين نفسه وهذين الثورين !

ولقد كان ينتهى إلى نتيجة واحدة، ترضيه عن نفسه، وعن العاهة التى أصابته.

فلو أنه أعمى، لأصبح كهذين الثورين، يدور دورات منتظمة متصلة لا تتوقف ولا تتقطع. حول هذه الدائرة المفرغة، الجامدة.

ولو أنه أعمى لما استطاع حتى أن يتمتع بهذا المنظر البديع الرائع الذى يحيط بالمكان.

بهذا الشجر الملتف حول الساقية، كأنه يحتضنها فى حب وحنان.

بهذه الخضرة الممتدة بامتداد البصر، كبساط من سندس، لا ينتهى.

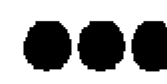
بهذا الماء الذى ينحدر من عيون الساقية، مشوباً بلون الطمى، كالشيكولاتة.

بهذه الساحة من صنع الله، وقد تجلت فيها قدرته وافتتانه وملكوته اللا نهائى.

لو أنه أعمى لدار دورات كهذه الدورات التى لا تنتهى. بل لما أصبح قادراً على أن يستمتع بهذا المنظر الجميل الساحر.

هكذا كان "أبو المكارم" يفكر كلما خلا إلى نفسه، وهو حول الساقية، يتابع الثورين المغمضى العيون، من الصباح إلى المساء.

ثم ينتهى به تفكيره إلى أن عقدة لسانه هذه، أخف كثيرا من مآس كثيرة أخرى، تصيب مخلوقات الله. كالعمى...كالصمم...كالكساح ...إلى آخر هذه النوائب التى لا تحتمل.



وكما كان "أبو المكارم" يفكر فى حالته، ويجد من وقته ما يتسع لعقد مقارنات بين نفسه وبين مخلوقات أخرى كثيرة.

كذلك كان يندفع فى التفكير فى هذه الساقية، و"الحاج سلطان"، و"تفيدة".

ولقد ساعده على التفكير أنه أخرس، وأن الناس لا يضيعون وقته بكلام كثير أغلبه ثرثرة لا تجدى ولا تنفع. كانوا يختصرون القول معه. إلى أدنى حد ممكن، لأنه أخرس ويندفعون يثرثرون كثيراً فيما بينهم، وهم مطمئنون إلى أنه أخرس لا يسمع إلا قليلا، فإن سمع، فإن كلامهم سيقف فى حلقه، فلا يخرج بعد ذلك أبداً.

فإن خرج إشارات أو صيحات، فإن مدلول الإشارات والصيحات، لا يمكن أن يقوم دليلا على شيء محدد، فكثيراً ما تتشابه، فيكون في تشابهها ما يفقدها دلالاتها تماماً.

ولقد سمع "أبو المكارم" قصة هذه الساقية بتفصيلاتها، فلم تغادر رأسه بعد ذلك أبداً.



سمعها ذات يوم من "الشيخ مرزوق" وهو الرجل الذى لا يقول إلا صدقاً، ولم يكن "الشيخ مرزوق" يزور هذا المكان إلا نادراً، فقد كانت حياته هى الجامع والصلاة والعبادة.

ولكنه أتى يوماً ليطمئن عليه، فقد كان يحبه حبًا شديداً، وكان يصحبه "العريف مختار"، الذى يساعده فى خدمة الجامع، وبعد أن اطمأن الشيخ على "أبو المكارم" جلس يروى "للعريف مختار" القصة من أولها..قال :

إن قصة "الساقية" يا بنى هى قصة الأرض التى تحيط بها من كل جانب.

لقد كانت كل هذه الأرض بوراً، لا تنبت إلا العشب والكلأ، بغير أن تمتد إليه يد الإنسان.

وكان الجدب، وكان القحط هو كل ما فى هذه الناحية من حياة، إن جاز أن يكون الجدب والقحط حياة، أو شيئاً من حياة.

وكان يعيش هنا عدد من الناس، يأكلون الجوع، ويشربون من طمى النيل، أكثر مما يشربون من مائه ! يكتسون بالعرى، ويعيشون على الحرمان !

أملاكهم بضعة ناقات أو بعض الماعز، يشربون لبنها، ويغزلون صوفها ليحتموا به من طبيعة لا ترحم...فإن تناثر بعض النخيل هنا أو هناك، فالويل للناس من قتال لا ينتهى، ليمتلك الأقوى منهم نخلة، يضيف ثمراتها إلى ما لديه من ماعز وإبل.

وتذكر "أبو المكارم" ما يرويه الناس، عن الترع والمصارف والجداول، وأنها لم تكن قد شاعت بعد.

كان هناك النهر الكبير : النيل...وحوله بعض الزراعات...ثم لا شيء !

ويقولون إن النيل كان يغرق الحرث والنسل، عندما يقبل موسم فيضانه هائجاً مائجاً لا يرحم..

ثم تطورت الحياة...وأمكن أن تسيطر تفاتيش الرى على مياه النيل، فلم تعد مياه الفيضان تغرق الحرث والنسل.

وينصت "أبو المكارم" و"العريف مختار"، يسمعان إلى الشيخ وهو يقول : وكان هناك وال من قبل الباب العالى، امتلك الأرض وجعل من الفلاحين جميعاً أجراء يعملون عنده...

ولم يكن الفلاحون يستطيعون أن يهمسوا باسمه خشية أن يسمعهم أحد !..

ويعرف "أبو المكارم" اسمه فيحفظه فى ذاكرته ولا ينساه.

"محمد على" مؤسس الأسرة، التى تملك كل هذه البلاد، وكل هؤلاء العباد.

ويمضى الشيخ يكمل الرواية :

إن "محمد على" حسن طرق الرى، ليوسع من رقعة المساحة الزراعية، فقد كان يستفيد من الأرض، بقدر ما يصلحه منها، وبقدر ما يوفره لها من مياه الرى.

وتحولت هذه الناحية، كما تحولت بلاد أخرى تقع حول النيل أو قريباً منه، إلى أرض تزرع لحسابه.

ويهز الشيخ رأسه وهو يقول :

على أن هذا التطور فى زراعة الأرض، جعل الفلاحين يا بنى عبيداً لإحسانات مولانا الوالى.

وبدأ نظام الخراج يعرف طريقه إلى الفلاح.

وبدأ الفلاحون يعرفون جنوداً أشداء يقتحمون عليهم حياتهم، لجباية الخراج، وسلب المحاصيل ويستعملون فى هذا أشد صنوف التنكيل والعذاب وخراب البيوت.

وبقدر ما استقرت هذه الناحية حول ماء منتظم، يزيد من رقعة أرضها، بقدر ما أخذت تعانى من اضطهاد عملاء محمد على وجنوده وأتباعه.

وكان يقال للأهالى كلما ضاقت بهم الدنيا، إن هذا الخراج، لا يجبى لمحمد على، ولكن للباب العالى. لسلاطين آل عثمان. لبيت خلافة المسلمين فى إسطنبول. وهم يأخذونه لحماية المسلمين من غزو الكفار. إنه جهاد فى سبيل الله !

ويضحك "الشيخ مرزوق" فتهتز ذقنه البيضاء، ويضيف قائلا :

والفلاحون قوم سذج وبسطاء، ولكنهم ليسوا مغفلين على أية حال.

كانوا يتظاهرون بالتصديق، وكانوا يبدون استعدادهم للتضحية من أجل الخلافة وجيش الخلافة حماية لأنفسهم من الطغيان، ولكنهم لم يكونوا يصدقون فى الحقيقة من ذلك كله شيئاً. كانوا يعرفون أن أغلب ما يجبيه محمد على يدخل جيب محمد على، وأقله يذهب إلى آل عثمان. ولكم ترحموا على ايام الجدب والقحط والحرية ! لكم تمنوا لو أنها دامت، برغم ما كان فيها من شظف العيش، وجفاف الحلق، وفيضانات النيل.

ويقول الشيخ مرزوق :

إن فريقاً من علمائهم بدأ ينصح محمد على بأن يخفف من هذا الخراب، الذى ذهب بحريات الناس، وجعلهم عبيداً لأطماعه.

وإن نقيب الأشراف وقف من محمد على وقفة صلبة، وقال له قف مكانك...هؤلاء الناس اختاروك لتصلح بينهم، فذلت بك رقابهم.

وتطاولت عنق "أبوالمكارم" فقد كان حريصاً على أن يعرف من هو هذا النقيب، ولقد سمع الشيخ يقول : إنه السيد عمر مكرم، وإن محمد على بعث يستدعيه إلى قصره، فأدرك الرجل نواياه، أدرك أنه سيقتله أو يقبض عليه أو ينكل به، فرفض أن يذهب إلى حتفه وآثر الفرار من وجهه.

ومضى محمد على يستبد بالناس...ليزداد خضوعهم لأغراضه، ولأطماعه.

وأدرك الناس، أنه قضاء حل بهم، وأن عليهم أن ينزلوا على هذا القضاء.



ويمضى "الشيخ مرزوق" فى عباراته الجميلة، وتعبيراته الفصيحة وحبه الحانى لـ"أبو المكارم" و "العريف مختار".

وهو يتحدث عن والٍ اسمه "سعيد باشا" سموه يوماً صديق الفلاح، وعرف "أبو المكارم" أنه ابن من أبناء "محمد على"، أحس أن البقرة الحلوب سيجف لبنها نتيجة سياسة الضغط التى لجأ إليها أبوه.

ورأى أن يغير هذه السياسة، كضرورة من ضرورات المحافظة على ولاء الناس، وامتصاص دمائهم، برضائهم.

وأعلن "سعيد باشا" توزيع الأرض على الملاك ...

تنتقل إليهم ملكيتها، إذا أصلحوها، ومهدوها، ودفعوا الضريبة التى تقدر عليها.

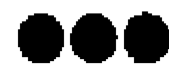
وخدع فيه الناس وسموه صديق الفلاح !

وأقبل أصحاب القوة، وأصحاب الجاه وأصحاب النفوذ، على تملك الأرض البور واستخدموا كل وسائل القوة والجاه، والنفوذ، فى تسخير الضعاف المستضعفين من الفلاحين، لإصلاح هذه المساحات الواسعة من الأرض البور.

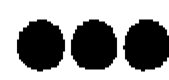
اما الآخرون من ذوى الجهد، ومن الطامعين فى الحرية، فقد حاولوا بدورهم أن يستصلحوا أرضاً . فهدتهم هذه الأرض، فهربوا منها..وتركوها متخفين عن العيون، حتى يهربوا من الضرائب التى فرضت على ما تملكوه من الأرض.

وانتهت المحاولة، بأن وجدت طبقة من الملاك..كبار الملاك، ممن عرفوا كيف يستعبدون الآخرين، ويذلون رقابهم، فى سبيل إصلاح الأرض وضمان الضريبة التى

فرضها عليهم الوالى، أما الآخرون فقد هربوا بأنفسهم من هذه المحاولة، وعادوا أجراء كما كانوا، يمسحون آلامهم فى دموع الحسرة والندم، على العمر، وعلى الجهد الذى ضاع لأنهم صدقوا ما قاله صديق الفلاح الوالى سعيد !



ويذكر "أبو المكارم" ما سبق أن سمعه من قصص عن الجنود الذين انطلقوا كالكلاب مسعورين، يجبون الضرائب من الملاك الجدد، وكيف أخذ الفلاحون يترحمون على أيام محمد على...فقد كانوا جميعاً يعملون عنده، يزرعون الأرض لحسابه هو..فلما تملكوا الأرض تعقبهم تهديد السلطات بالمطالبة بالضرائب، أو الجلد أو السجن، أو الإهانة بمختلف صورها وألوانها.



على أنه يعود ينصت لما يقوله "الشيخ مرزوق"، حتى لا يغيب عنه شيء.

وبعد أن كان مصدر الاضطهاد واحداً... من محمد على وأتباعه وكلابه المسعورة المأجورة المرتزقة. أصبح من مصدرين...من الوالى، صديق الفلاح، ومن ذوى البأس والنفوذ والقوة والجبروت، الطامعين فى تملك الأرض، من أبناء البلاد.

وانقسم البلد، نتيجة لهذا العمل الزائف الذى قام به سعيد.

كان الفلاحون من قبل فلاحين...جميعاً كانوا فلاحين...فلاحين عند محمد على، يتقاسمون العذاب الواحد، والشعور الواحد.

ولكنهم بعد سعيد، أصبحوا قسمين : ملاكاً كباراً أشراراً، وفلاحين أجراء مغلوبين على أمرهم، أمام اضطهاد الملاك الجدد...وامام اضطهاد جنود الوالى كذلك.

وأغرت المصالح الناس بالناس.

وخطف بريق الغنى أبصار بعض النفوس.

وأضعفت شهوة الملكية ضمائر الصغار، فنسوا كل شىء، ولم يعد أمامهم إلا أن يحققوا رغبة الوالى فى الحصول على الضريبة، ورغباتهم فى الحصول على أكبر مساحة من الأرض.

ويقف "الشيخ مرزوق" عند هذا الحد من القصة، فقد طال بقاؤه خارج الجامع، ويترك "أبو المكارم" بعد أن يصافحه، ويربت على كتفه، ويدعو له بالصلاح. ولكن "أبو المكارم" لا ينسى كلام الشيخ، ويظل يرقب الفرصة ليقف على بقية القصة.

ويسمع "أبو المكارم" من أهل القرية كلاماً كثيراً عن أسرة "الحاج سلطان".

وعن "سلطان الكبير"، جد "الحاج سلطان"، وكيف كان.

كان رجلا فارع العود، ضخم الجثة، قوى البدن، وهبته الطبيعة قوة هائلة فلم يكن يستطيع أحد أن يقف فى طريقه.

وقد أغرته قوته بنوع معين من السلوك.

كان معجباً بنفسه،على أبعد حد، وكان مفتوناً بقوته، حتى ليفرضها فرضاً على الناس، والويل لمن لا يخضع لنفوذه، فقد كان يلذ له أن يفتك به فتكاً، وينكل به تنكيلا.

ويقولون إنه فى شبابه دخل معركة مع جنود الوالى عندما أقبلوا يستولون على المحاصيل ويجردون الفلاحين من عرقهم طوال العام، وأنه فى هذه المعركة هزم منهم عشرات. كان يطوح بهم هنا وهناك، حتى لقد انتهت المعركة بفرارهم من وجهه، حتى لا يقضى عليهم قضاء مبرماً.

ولكن حكومة الوالى، أدركت أن أمثال هذا المارد الجبار، يجب أن يعامل معاملة أخرى، وإلا فإنه سيصبح محوراً للعصيان، يلتف حوله الفلاحون.

ولم يكن إلا فلاحاً بسيطاً، يعمل كملايين الفلاحين، عند محمد على.

وتقربت إليه الحكومة وساعده غروره، وافتتانه بقوته وسذاجته على أن يصبح

أداة فى يدها، فبعد أن كان فلاحاً بسيطاً، من عبيد الوالى أصبح من أعوان الحكومة، ومن عملائها، ومن عيونها على الفلاحين.

أصبح كرياجاً من كرابيجها.

وبسط سلطانه على الفلاحين.

وفرض عليهم الذل والخوف.

وأخذ يساعد الوالى وعماله وعملاءه وجنوده، فى جباية الخراج، على أنه كان يؤمن أن الماء لا يمر على عطشان، فكان يختصر لنفسه بعض ما يجبيه، لينفق ذات اليمين وذات اليسار عن بذخ.

وكانت الحكومة تعرف هذا. وتبارك هذا مع ذلك، فقد كان كل الذى يهمها هو أن تسيطر على الفلاحين، وتخضعهم لنفوذها، وتستعين به على تأمين مصالحها بينهم.

ومضى "سلطان الكبير" فى غيه، فأصبح حرباً على الفلاحين، بعد أن شهده الفلاحون ذات يوم حرباً على الحكومة.

أصبح صنيعة من الصنائع، نظير ما يحققه من نفوذ ويربحه من مال.

ومات ضميره، فأخذ يهدد ويتوعد، وينفذ تهديده ووعيده، وكم من مرة جلد فيها فلاحاً تمرد، أو قتل مزارعاً ضاقت ذات يده عن دفع الضرائب.

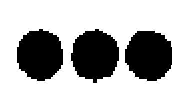
وتمكن من اصطناع فريق من الأعوان، بما له من قوة، ونفوذ، ومال.

وكان أقرب الناس إليه جد العمدة الحالى، فقد كان شقيا مثله، وكان إلى جوار ذلك صهراً من أصهاره.

وتزوج "سلطان الكبير" من النساء عدداً يحصونه مرة بسبع زوجات، ومرة بعشرة، ومرة بأكثر أو أقل، منهن دائماً أربع على ذمته، والباقيات فى الانتظار، فقد تستهويه منهن واحدة فيطلق إحدى الزوجات الأربع، ليردها إلى حين، وقد يعود هواه فيدفعه إلى استبدال جديد أو زواج جديد... كما يحلو له، وكما يغريه هواه.

وكان يزرع شجر الأفيون علناً، ويصنعه ويستعمله، ويتاجر كذلك فيه وتمكن من أن يشترى عدداً من العبيد الرجال يستعملهم فى أغراضه، والنساء جاريات.

وتطورت به الأحوال، فأصبح هو الحكومة، فى هذه الناحية، ومعه صهره جد حضرة العمدة.



ويحرص "أبو المكارم" على أن يعرف ماذا كان موقف هذا المارد الشقى، من عهد الوالى سعيد، الذى تحدث عنه "الشيخ مرزوق".

ويجيئه الجواب على ألسنة الذين يترددون عليه عند الساقية. إنه يسمعهم يروون عنه أنه فى عهد سعيد، وصل نفوذه إلى مداه، فسيطر على أرض هذه الناحية هو وصهره، وبدأ يعمل فى إصلاحها، بماله من قوة ونفوذ.

وفرض على الفلاحين نوعاً من الإرهاب والاستبداد، فعرف كيف يسخرهم فى تنفيذ أغراضه.

استولى على أرض هذه الناحية. زمام البلد كله تقريباً. وقسمه بينه وبين صهره وبدأ يصلح الأرض البور على طريقته الخاصة.

سخر الفلاحين فى هذه المنطقة للعمل ليل نهار، حتى يتمكن من القيام بالتزاماته قبل حكومة سعيد باشا، فيدفع لها الضرائب المطلوبة، حتى لا يتعرض للاضطهاد والإهانة.

والويل للفلاح الذى كان يعصى له أمراً، أو يخرج عن إرادته، أو يتهاون أو يتكاسل أو يتراخى.

عندئذ كان ينصب الفلقة ويقبل رجال أشداء يمسكون به ويشدونه إليها، فلا يستطيع بعد ذلك حراكاً، وينال جزاءه ضرباً وجلداً ...فلا يعود بعد ذلك للتهاون أبداً.

وكان يعمد إلى أن يحدث ذلك أمام الفلاحين، حتى تكون العبرة كافية فلا يوسوس الشيطان لواحد منهم بتهاون !

ويروون عنه أنه كان من الغلظة والشدة وجمود العاطفة إلى درجة أنه كان يعتبر صياح الفلاحين تحت وطأة السوط، نغماً رطباً جميلا، يشنف أذنيه، وأنه لم يكن يتورع أمام بعض الحالات عن كسر ذراع واحد من الفلاحين، أو فقأ عينه، أو إصابته بعاهة تظل تلازمه طول حياته.

وكم اختفى من الفلاحين أفراد، ولم يعرف عنهم بعد ذلك شيء، ويسرى فى أوساط الفلاحين أنه "سلطان"..."سلطان الكبير"، قتله وتخلص منه بطريقة ما.

يقولون إن واحداً من رجال القرية، كان قد بلغ به التعب والجهد مبلغه، فأراد أن يستريح ذات يوم. لكن سلطان بلغه أنه تخلف عن العمل، فلما قيل له إنه متعب مجهد مكدود، طلبه أمام جموع الفلاحين وقال له :

- أنت ...لماذا لم تحضر لعملك؟

- لأنى مرهق ومتعب، ولا أستطيع أن أواصل العمل إلا إذا استرحت يوماً أو بعض يوم.

- دمك خفيف... وإخوانك هؤلاء !

- والله أنا أتكلم عن نفسى.

- اذهب...هيا إلى عملك خير لك.

- لا أستطيع. أنا متعب والله سبحانه وتعالى لا يكلف نفساً إلا وسعها.

- وسعها..وهل فى وسعى أنا أن أوفر لكم جميعاً المأكل والمشرب والملبس والمسكن؟ هل أنا على هذه الدرجة من المقدرة؟

- إنك تفعل ذلك، نظير عمل، ينتهى بك إلى ملكية زمام القرية كلها.

- أنا أفعل ذلك لتأكل أنت وليأكل أولادك، وإلا مت من الجوع.

- وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها.

- أنت طويل اللسان. اذهب حالا إلى عملك.

- لا يا سيدى "سلطان" ...أنا ذاهب إلى بيتى.

ومضى ...ولم يعبأ بسلطان، ولا بقوة سلطان ولا بجبروت سلطان، ولكن سلطان أمسك شاربه الكثيف، وهو ينظر إلى جموع الفلاحين، وقال :

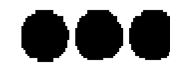
- هذا شاربى ... إن عثرتم له غداً على أثر، فسأحلق هذا الشارب.

وبر سلطان بقسمه فعلا، فإن أحداً لم يره بعد ذلك أبداً.

أين ذهب؟

لم يدر أحد عن ذلك شيئاً. بل إن زوجته وأولاده لم يعرفوا اين اختفى الرجل، ولم يجسروا على أن يسألوا عن سر هذا الاختفاء، ومضوا مع قافلة الفلاحين يعملون دون أن يفتحوا أفواههم، ولو بكلمة عتاب.

كل الذى كانوا يصنعونه، أنهم كانوا يتكومون بعد انتهاء أعمالهم، فى حجرة ضيقة من اللبن، كانت هى نصيبهم من المساكن التى أقامها سلطان...ليتبادلوا الدموع فى صمت، فحتى الصياح أصبح عليهم حراماً.



ولم يكن "سلطان الكبير" يعرف فرقاً بين رجل وامرأة...الجميع أدوات لابدّ لها من أن تعمل، حتى يحقق مطامعه.

على أنه كان يختار المليحات من العاملات، لا يهمه زوجات هن أم بنات لم يتزوجن بعد، ويسخرهن للعمل فى خدمته هو، أثناء الإشراف على العمل، وأثناء راحته من العمل.

ولم يكن زوجاته الكثيرات، ولا جواريه، قادرات على أن يقفن حائلا بينه وبين بعض النزوات، ولقد كانت الألسنة تلوك سيرته فى كثير من الأحيان.

وقد تصادف يوماً أن اختار من هؤلاء، واحدة من الفتيات الصغيرات، كان وجهها صبوحاً جميلا، وكان جسمها ينبض بالإغراء.

على أنها لم تتجاوز الخمسة عشر ربيعاً.

وعندما بدأت الألسنة تتحدث عنها، ذهب إليه أبوها، وطلب أن يتحدث معه بينه وبينه..فنظر إليه نظرات ملؤها السخرية والاستنكار...أمام رهط كبير من الناس، وقال له فى استخفاف :

- والله جميل...هل نحن أصدقاء؟

- العفو...أنا أريد أن أتحدث إليك على انفراد.

- لماذا..هل بيننا أسرار؟

- أرحنى، أراح الله قلبك.

- تريد زيادة فى نصيبك من الحبوب. أولادك جياع. الحب لا يكفيهم..

نفس الكلام ونفس النغمة ...اذهب يا رجل. هذا عيب.

- لا أريد زيادة فى نصيبى. أنا راضى بما قسم الله لى.

- امرأتك محتاجة إلى جلباب.

- ولا هذا يا سيدى.

- إذن ماذا تريد؟..تكلم.

- هل أستطيع أن أقول لك شيئاً على انفراد؟

- شيئاً يهمنى..

- بل يهمنى أنا..يمزقنى يا سيدى.

- إن شا الله يمزق قلبك. أنا ضقت بكم ذرعاً...نفد صبرى.

- اعمل معروفاً ...إنها ثوان معدودة، ولن يكلفك هذا كثيراً.

ومضى "سلطان" كالديك الرومى، متكبراً متجبراً لبضع خطوات ثم توقف عن السير وقال له فى استعلاء :

- نعم. تحدث. قل.

وبدأ الرجل يتحدث، فصاح فيه "سلطان الكبير" :

- تريدنى أن أطأطىء رأسى لأسمعك؟ ارفع صوتك لأسمعك.

وقال الرجل، وهو لا يعرف كيف يزيح كابوساً ثقيلا من فوق صدره :

- ابنتى...الصغيرة...التى فى خدمتك.

- من ...؟ من هى ابنتك؟

وذكر له اسمها، فقال "سلطان الكبير" :

- الحلوة الطرية الجميلة؟

- يا سيدى عفواً ..أنا أرجوك أن تتركها تعمل فى إصلاح الأرض، وأعدك أن تبذل جهداً يفوق جهد رجلين.

- وأنتم يا رجال..تتفرجون؟

- لا بل نعمل أيضاً.

- أنا ...أحاط بوجوه النحس هذه..يا رجل حرام عليك.

- إنها طفلة يا سيدى السلطان...طفلة صغيرة.

- تعجبنى...برغم أنها طفلة.

- ولكنها ابنتى.

- وأنت وابنتك وأهلك ملكى أنا..تعملون عندى. أنا أطعمكم لوجه الله، فهل كثير على أن أختار اللائى يخدمتنى كما أشاء؟

- بل اترك لى ابنتى.

- وإذا لم أتركها...ماذا ستفعل؟

- لا شىء يا سيدى. ولكنى أرجوك، وأعدك أن أضاعف العمل كما تشاء.

قال "سلطان" فى تكبر وتجبر وغرور :

- اسمع. سأناديها لك، وسأترك لها الخيار.

ونادى البنت الصغيرة، فأقبلت على استحياء، وهى تخترق إليه صفوف الرجال قال لها "سلطان" :

- أبوك هذا؟

قالت :

- نعم يا سيدى..

قال :

- إنه يريدك ألا تعملى فى خدمتى. يريدك أن تعملى فى إصلاح الأرض إلى جانبه. فهل تبقين إلى جوارى تخدمينى، أو تفضلين ما يطلبه أبوك؟

وسكتت البنت. ونظرت إلى أبيها، فوجدته ينظر إليها فى توسلات.

وبعد لحظة صمت قالت :

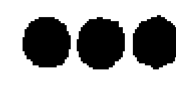
- أعمل إلى جوار أبى.

ولم تحس، إلا أن كف "سلطان" قد أصابتها، فألقت بها على الأرض، فاقدة الوعى.

ولما أفاقت، وجدت نفسها بين أربع نساء، أحطن بها، يراقبنها، وينصحنها أن تسمع كلام "سلطان"، وإلا فإن مصيرها ومصير أبيها وأهلها لا يعلمه إلا الله.

ولم تقل حرفاً.

ولكنها استمرت فى خدمة "سلطان"، ولم يسمح لها بعد ذلك أن تبيت مع عائلتها، بل كان يعمد إلى أن يعاملها باستهتار عابث، أمام أبيها، وأمام أمها، ليزيدها ذلاً على ما هما فيه من ذل.



ويسمع "أبو المكارم" من الناس عن صورة أخرى لسلطان.

لقد كان وجهه مع الفلاحين جامداً صلباً كالحاً. كان فى قلبه غلظة، وفى عينيه شرر، وفى ضميره دبيب الموت.

ولكن وجهه مع عملاء الوالى، مع رجال الحكومة، كان شيئاً آخر. كان هاشًا وكان فى رقة النسيم العليل.

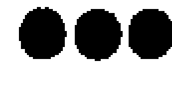
كان يستقبلهم فى كرم وترحاب، ويقيم لهم الولائم، ويدعوهم إلى ما لذ وطاب من طعام وشراب. بل كان يحضر لهم مشروبات من كفر الزيات، مختلفة الألوان، يشربونها وحدها حيناً، ومع الطعام حيناً آخر. ولم يكن الفلاحون يعرفون شيئاً عن هذه المشروبات، إلا أنها تدير رءوس شاربيها، فتخف أجسامهم، وتخف مع أجسامهم عقولهم، فيترنحون، ويتمايلون، ويتضاحكون فى أصوات عالية.

وقد يعبثون بالنساء والفتيات عبثاً سخيفاً ثقيلا، ورائحة نتنة تفوح من أفواههم.ويسمع "أبو المكارم" من رجال القرية أن هذه المشروبات تسمى خموراً، وهى رجس من عمل الشيطان، ولكن "سلطان" كان أكثر ضلالا من الشيطان.

كذلك كان "سلطان"، يقدم لضيوفه من رجال الحكومة وعملاء الوالى قطعاً من نبات الأفيون الذى يزرعه، ليضعوها فى فناجين القهوة أو يبلعوها بلا قهوة فتزداد نشوتهم، ويزداد صخبهم، ويزداد عدوانهم على نساء القرية وفتياتها، و"سلطان" يرى هذا منهم فتزداد عيناه لمعاناً..وتزداد نفسه ارتياحاً.

فإذا استعصى على أحدهم شىء، فإن "سلطان" هو الذى يلين له ما استعصى عليه، حتى تتم له النشوة، وتكتمل عناصر سروره ورضاه.

و"سلطان" لم يكن يعمل هذا لوجه الله، ولا لأنه مضياف وكريم، فقد كان له فى ذلك حكمة.



وكبار السن من أهل القرية يروون فى همس أنه كان يصل من ذلك إلى تخفيض الضرائب التى تفرضها الحكومة عليه إلى أدنى حد يستطيع. كان يضع رجال الحكومة فى جيبه كما يقولون. كان يطويهم طيًا، فلا يستطيعون أن يرفعوا عيونهم فى عينيه، وقد كسرها لهم ببذخه، وجبروته، وهداياه، والرشاوى التى كان يدسها لهم فى أيديهم عقب كل زيارة من زياراتهم.

وكان "سلطان" يصل من هذا إلى شىء آخر، أشد فائدة له من هذا التخفيض.

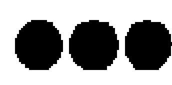
كان يستعمل هؤلاء القساة الغلاظ، فى كسر خصومه فى الناحية. فى التخلص منهم. وفى إرهاقهم بأموال أميرية وضرائب، تثقل بها كواهلهم، فيتركون الأرض وما عليها، وأمرهم فيما بذلوه فيها من جهد وعرق وضنى إلى الله.

وكانت هذه الأرض تؤول إليه بطبيعة الحال.

إنه يستولى عليها، بعد أن يكون إصلاحها قد كاد يتم، أو تم منه جزء كبير.

وهو بذلك يضرب المثل حيًا أمام الفلاحين، على أنه هو-هو وحده- صاحب النفوذ، وصاحب القوة، وأن على الذين يريدون أن يعيشوا فى هذه الناحية، أن يتركوه يدوس على رقابهم، أو هو الجوع!

وهكذا تتحقق له السيطرة الكامله على الناحية، ولا يستطيع أن يرتفع إلى جوار رأسه رأس آخر، إلا تلك الرءوس التى يرضى عنها، كرأس صهره جد حضرة العمدة.



ويروون عن "سلطان" هذا أنه وصل من النفوذ إلى درجة جعلت هذا النفوذ يمتد إلى الحكومة نفسها. إلى رجالها. إلى عملاء الوالى نفسه.

ومن الحكايات التى ترويها القرية وهى بين الكارهة والمعجبة، أن قد وصل إليه ذات يوم رجال الحكومة تحت إمرة رجل لم يكن قد تعرف عليه "سلطان" من قبل.

وحاول "سلطان" أن يقدم له طعاماً، فكان جوابه بالنفى.

وحاول "سلطان" أن يقدم له شراباً، فكان جوابه بالنفى.

وحاول "سلطان" أن يقدم له هدية، فكان جوابه بالنفى.

كان يريد شيئاً واحداً : الأموال الأميرية والضرائب.

فلما قدم له "سلطان" ما يثبت ما سبق أن ربط عليه من الضريبة، أصر رجل الحكومة وكان تركيًا جافًا غليظًا، على أن يعيد قياس ما يصلحه من الأرض، وأن يحاسبه عنها حساباً دقيقاً، وألا يعترف بما سبق أن قيد عليه.

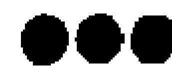
وقال "سلطان" فى صوت أجش غليظ :

- اسمع..أنا أرفض. إما أن تأخذ الأموال التى اعتدت أن أدفعها، أو تمضى من هنا..ماذا تستطيع أن تفعل؟

- بل أنا أحبسك، أنا أجلدك. أنا أطردك.

- لا تستطيع يا حضرة...أنت واهم، وموهوم.

- بل أنى أنذرك إنذاراً نهائيًا وأخيراً.



وقبل أن يضع الرجل يده على ما كان معه من سلاح، كان قد أمسك به "سلطان"، ورفعه بين يديه كالعصفور، وقذف به إلى الأرض، وسلب منه سلاحه وأخذ يضربه ضرباً شديداً مبرحاً، جعله يصيح برجاله أن ينقذوه، أن ينجدوه أن يحافظوا على هيبة الحكومة فيه.

وكم كان عجيباً..للرجل، وللفلاحين جميعاً، أن أحداً من الجنود لم يتحرك لنجدته.

لقد كانت القوة التى معه كلها من صنائع "سلطان" وممن أغرقهم من قبل بهداياه ورشاويه، حتى إنهم آثروا أن يعصوا أمر رئيسهم، وألا يمسوا "سلطان" بسوء.

ويقول رجال القرية، إن الرجل عاد إلى مكتبه، وقدم تقريراً، كذبه كل من كان برفقته من الرجال، بل شهدوا عليه بأنه هو الذى اعتدى على "سلطان"، وأنه أساء إلى سمعة الحكومة بين الفلاحين، وأن تصرفه الأهوج، قد كاد أن يسبب لهم أزمة لا يستطيعون الخروج منها.

وأضاف الشهود أنه لولا حكمة "سلطان" وهدوؤه، لكادت المسألة أن تصبح كارثة.

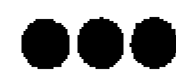
عندئذ أصبح "سلطان" فى نظر السلطات مظلوماً، بل واصبح كذلك حريصاً على كرامة الحكومة، متزناً هادئ البال، أمام صلف رجل من رجالها، كاد يهز كرامتها بين الفلاحين.

وكانت شهادة مرءوسيه وجنوده أكبر دليل على إدانته، فقد كان عليهم أن يشهدوا معه، أن يجاملوه. لكنهم لم يفعلوا، وكان هذا كافياً لإثبات براءة "سلطان".

وعندما بعثت الحكومة تطلب "سلطان"، تمنت القرية لو أنه ذهب إلى غير عودة. ولكنه لم يلبث أن عاد، ومعه قافلة من قوافل الحكومة، على رأسها موظف آخر جديد من أصدقائهِ يبالغ فى إكرام "سلطان" والتأدب معه.

وفتحت القرية فاها مستغرية ما حدث، على أنه مع ذلك...حدث !

أما الموظف الآخر، فقد اختفى من الناحية، غير مأسوف عليه.



ويروون عن مدى ما وصل إليه "سلطان" من نفوذ، أن قافلة من الجنود الألبان، من جيش الوالى، كانت تقوم بمناورة بالذخيرة الحية، فى الأرض البور فى هذه الناحية.

وقد امتدت بها المناورة إلى أرض "سلطان". فأدى هذا إلى أن فسدت زراعة للقطن كان قد أولاها عناية خاصة، وأخذ يؤمل أن يحصل منها على كسب كبير.

ووصله الخبر، فاتصل على الفور بأنصاره فى المركز، واتفق معهم على خطة.

وعندما أوغل الليلن وخيم الظلام على الكائنات، وأصبح كل شىء غامضاً كالسر، ولم يعد أحد يستطيع أن يتبين أصابع يديه من كثافة الظلمه.

عندئذ خرج "سلطان" والأشقياء الذين انطووا تحت إمرته.

وغافلوا الحراس، فأشعلوا ناراً أحرقت المعسكر كله، وساد الذعر والاضطراب بين صفوف الجنود، فانتهزوها فرصة سانحة، فاستولوا على كل ما لدى القوة من أسلحة ومؤن وذخائر..ثم عادوا سالمين من حيث أتوا.

ولم يكتف "سلطان" بهذا، ولكن أنصاره من رجال الحكومة نصحوه أن يشكو من سوء تصرف القوة العسكرية التى أفسدت زراعته.

وفى التحقيق اثبت المحققون أن الحريق قد هب، نتيجة سوء تصرف رجال الحامية، وأنه قد أتى على الحرث والزرع، ولولا مساعدة رجال "سلطان"، لأتى كذلك على النسل.

وكسب "سلطان" من هذا تعويضاً كبيراً، بل أعفاه هذا من الضريبة لعدة سنوات، إلى جوار ما كسبه من مؤن وسلاح وذخيرة، استعملها فى دعم نفوذه فى الناحية، فزادت الحياة ليناً أمام سطوته وجبروته.

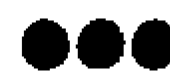
إلى كثير من هذه القصص التى تحكيها القرية كالأساطير.

وكان "أبو المكارم" يسمع هذه الحكايات ويقول فى نفسه:

لابد أن "سلطان" كان شيئاً مهولا مخيفاً، لا يقدر عليه أحد.

كان قوة هائلة تتحطم أمامها إرادة الناس، مهما بلغت بهم القوة أو بلغ بهم العناد.

كان نمرًا. كان أسداً. كان وحشاً.



ويزداد "أبو المكارم" رغبة فى أن يعرف حكايات أخرى عن الرجل.. ويسمعهم يقولون إن القرية صحت ذات صباح، فإذا بها تسمع أن رجلا غريباً قد أقبل على الناحية، وأنه بدأ يستعد ليتخذ من مكان مجاور لمحطة السكة الحديد مكاناً لإقامته.

وقالوا "لسلطان" إنه رجل غريب، شعره أصفر، وعيناه زرقاوان، معه امرأة فى أواسط العمر، بدينة مليئة، لا تضع على رأسها غطاء، وتكشف ذراعيها فى فتنة وإغراء.

وقالوا له إن الرجل يرطن بلغة لا يعرفونها، فإذا ماتحدث العربية، أطلقها متعثرة مكسورة، لا تستقيم، ولكنه يفهم عن الناس، والناس يفهمون عنه، وإن جهدوا فى سبيل فهم ما يريد الرجل أن يقوله.

وقالوا له إنه أقبل من كفر الزيات على عربة يجرها حصان، وكانت فوق العربة خيمة من قماش، وأخشاب كثيرة، ومعدات أخرى، وبعض البراميل المغلقة.

وأمر "سلطان" رجاله أن يراقبوه، وأن يخطروه بما يفعله أولا بأول.

وراقبته عيون "سلطان"، فوجدوا أنه أقام الخيمة فى الفضاء قريباً من المحطة، ومن الترعة، ثم أنزل حاجاته المختلفة، ووضعها إلى جوار خيمته.

وبدأعلى الفور يقيم من الأعشاب التى أتى بها بناء خشبيًا بسيطاً.

وما هى إلا أيام، حتى أتم إقامة كشك خشبى صغير ومحدود.

ثم مضى يعمل ليل نهار. حتى حول الكشك إلى دكان صغير، وملأ الدكان بالرفوف، ثم بدأ يعرض على الرفوف بضائع، لم يعرفها الناس إلا فى دكاكين كفر الزيات أو إيتاى البارود، أو دمنهور.

والذين ذهبوا على كفر الزيات أو إيتاى البارود، أو دمنهور، كانوا قلة نادرة من أهل القرية، وهم الذين أشاعوا بين أهل القرية أن هذا الدكان، يشبه دكاكين هذه البلاد.

ورددوا أن هذه البضائع اسمها زيتون، وجبن رومى، ونوع من اللحوم اسمه البسطرمة ونوع من الحلوى ملفوف فى أوراق ملونة اسمها الكرملة، أو الشيكولاتة.

وأشاعوا أن الزجاجات التى وضعها فيها زيت زيتون، وزيت سمك وزيت حار وفيها كذلك نوع من السوائل اسمه الخل.

وزجاجات أخرى تحوى ألوان الشربات، يضعونه على الماء، فيجعل لون الماء أحمر، ويجعل طعمه حلو المذاق.

ونوع آخر من الزجاجات يحوى خموراً مختلفة الأنواع.

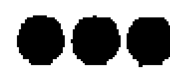


وما هى إلا أيام حتى قسم الدكان إلى قسمين، قسم لعرض هذه البضائع، وقسم آخر ليبيت فيه هو وزوجته البضة المليئة، ذات الشعر المكشوف، والذراعين العاريتين.

وما هى إلا أيام أخرى، حتى استغنى عن الخيمة التى أقبل بها.

وما هى إلا أيام، أو ربما أسابيع، حتى أقام مكاناً آخر، ببعض الأخشاب وفروع الشجر، وبنى به فرناً، يوقده بما يجمعه من أخشاب الأرض وأعشابها، لتصنع فيه زوجته أشياء غريبة...أرغفة طويلة يسمونها العيش الفينو وقطعاً صغيرة من الحلوى يسمونها البسكويت.

وبدأ الرجل يفرك يديه ويبتسم.



لقد انتهى من إعداد المكان، وأصبح مستعداً لاستقبال الزبائن.

وعرف "سلطان"، عن طريق عيونه، أن الرجل يقول إنه خواجه من بلاد اسمها اليونان، وإنه فتح هذا الدكان لخدمة الناحية كلها.

وابتسم "سلطان" الكبير، وهو يعبث بشاربه الكثيف، وادخر فى نفسه شيئاً.

كان يعلم مقدماً، أن أحداً من الفلاحين لن يقبل على دكانه، وأن أحداً منهم لن يشترى هذه البضائع، لأنها أولاً غريبة جداً على أذواقهم، ولأنها ثانية عالية السعر بالنسبة لهم.

وقد حدث ما توقعه "سلطان".

مرت أسابيع، والدكان مهجور إلا من الرجل الخواجه وزوجته.

والبضائع مرصوصة على الأرفف.

والزجاجات لا تتحرك من أمكنتها.

ومع هذا، فقد أخذ الفلاحون يتجمعون حول الدكان، ليتفرجوا على الخواجه الغريب القادم إليهم من بلاد اليونان كما يقول. ويطيلون النظر فى زوجته البضة البدينة وهى تتحدث بلغة لا يفهمونها، فإن تحدثت بالعربية، فبلغة أقرب إلى الرمز منها إلى الإفصاح.

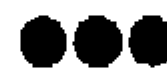
ولقد أكرموا الرجل. رحبوا به. قدموا له كل عون يستطيعون، وأذاقوه الشاى الذى يغلونه ثلاث مرات، ويصبونه بطريقة خاصة، فيرفعون البكرج إلى أقصى ما تستطيع أيديهم، ويصبونه فى الأكواب الصغيرة، المرصوصة المتجاورة فيسقط الشاى فى الأكواب كما تسقط المياه من صنبور مرتفع، ويكون لذلك صوت يطرب له الفلاحون، ويكون له منظر تتعلق به أبصارهم، ثم تتكون فوق الأكواب بعد ذلك فقاقيع، تتلاشى تحت رشفات عميقة مرتفعة.

ولكنهم برغم هذا لم يشتروا منه شيئاً.

فالعيش الفينو هذا لم يروه إلا فى أيد كريهة..هى نفس الأيدى التى كانت تهددهم، بالبنادق والرصاص. أيدى الإنجليز.

كذلك أنواع الجبن التى وضعها فى الدكان. كذلك حبات الزيتون.

أما الزجاجات، فإن فيها حرام. رجس من عمل الشيطان.



وبعد أسابيع أرسل "سلطان" الكبير فى طلب الخواجه.

ودارت بينهما مناقشة غريبة :

- أنت نورت بلدنا يا خواجه.

- إن النور نورك يا سيد "سلطان"...

- من أين جئت؟

- من بلاد اليونان. بلاد عظيمة، فى الناحية الأخرى من بحر الإسكندرية بلاد تحبكم كثيراً.

- وتريد الإقامة بيننا؟

- طول حياتى ...فأنا أحب بلادكم.

- ولماذا اخترت هذه الناحية بالذات؟

- الشمس هنا حلوة، والجو لطيف...وأنتم ناس كرماء.

- أو ليس فى البلاد الأخرى شمس حلوة، أو جو لطيف، أو ناس كرماء؟

- فى كل مكان من مصر كل شىء جميل.

- إذن لماذا اخترت ناحيتنا يا خواجه؟

- كلها بلاد مسلمين...

- وأنت مسلم يا خواجه؟

- كله دين ربنا.

- صحيح يا خواجه...لكن هل تحب المسلمين؟

- كثيراً جدًا يا سلطان "بك".

- أنا "بك"؟ الله يسمع منك يا خواجه..."بك"؟

- وتحب الإسلام؟

- كثيراً جدًا والله.

- والإسلام يبيح بيع المشروبات التى فى دكانك يا خواجه؟

- يا سلطان "بك" ساعة لربك، وساعة لقلبك.

- وساعة لجيبك يا خواجه.

- لا أفهم...

- لا ...بل تفهم يا خواجه.

- تقصد المكسب...أنا لم أكسب مليماً واحداً حتى الآن. كله مصروف.

- ولكنك تريد أن تكسب.

- وهل هناك من لا يريد أن يكسب؟

- وتكسب وحدك يا خواجه.

- أنت أيضاً تكسب كثيراً يا سلطان "بك".

- أنا مسكين ...على أقساط كثيرة، وضرائب. وعلى أيضاً التزامات مختلفة لرجال لهم نفوذ ولهم قوة.

- فهمت..فهمت يا سلطان "بك".

- ماذا فهمت؟

- فهمت كل شىء تريده يا سلطان "بك". أنا تحت أمرك.

- اتفقنا ...بالنصف يا خواجه.

- اتفقنا..بالنصف.

- بشرط...

- ما هو شرطك؟

ـ ألا يعرف أحد شيئاً .ولو عرف أحد شيئاً عن هذا الاتفاق، فأنت تعرف ...

ـ لا. عيب يا سلطان "بك". هذا سر بينى وبينك. لكن بشرط أيضاً.

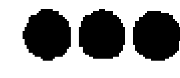
ـ وما هو شرطك؟

ـ أن نكسب كثيراً، حتى يمكن تنفيذ شرطك.

ـ وما هو المطلوب منى؟..

ـ أنت تعرف يا سلطان "بك". أنت رجل شهم ولك نفوذك.

ـ فهمت...اتفقنا.



وبدأ "سلطان" الكبير، يعمل على ترويج بضاعة الدكان.

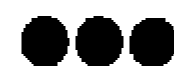
وكان أول ما فعله، أن نقل جلسته إلى الدكان، يذهب على هناك بضع ساعات كل يوم، فيقبل إليه الأقارب والأصهار والمعارف من الأعيان، وهناك يأكلون ويشربون، وتدور رءوسهم، فيبدأون يغازلون السيدة البدينة المليئة ذات الشعر المكشوف والذراعين العاريتين.

وأخذ دكان الخواجه يصبح مشهوراً فى الناحية.

وأخذ الأعيان يشترون منه حاجاتهم من البضائع، الملفوفة فى ورق شفاف، أو فى ورق ملون.

ولما كان الدكان قريباً من المحطة، فقد أصبح هو مكان الانتظار. المسافرون ينتظرون فيه حتى يقبل القطار، ومعهم عدد كبير من المودعين والمستقبلون، يجلسون فى الدكان، حتى يحين وقت وصول القطارات التى تقل القادمين إليهم.

والدكان يقدم لهم كلما أقبلوا حاجاتهم من الطعام والشراب.



ولم يعد الدكان يتسع للزيائن... فاتخذ الخواجه من فضاء أمامه مكاناً مهده وزرع به بعض الزهور، ووضع فيه بعض المناضد والكراسى، فأخذ الزيائن يتفرقون حولها، وهم

يشربون الشاى. أو يأكلون العيش الفينو وكانوا يكرهونه أول الأمر، وأنواع الجبنة الرومى مما يحضره الخواجه من كفر الزيات.

بل إن سيدات الأعيان كن يرسلن خدمهن، لشراء أشياء كالتى يأكلها أزواجهن فى الدكان.عيش فينو، وحلاوة ... وأنواع الجبن المختلفة.

وبعضهن كن يشترين لحوماً محفوظة فى علب، يأكلنها سراً، فقد كان يشاع أن اللحم الذى بها، لحم خنزير حرمه الله.

ثم اتسعت تجارة الخواجه فبدأ يبيع البقول بأنواعها، وحاجيات المنازل من العطارة.

وأصبح دكان المحطة، أو دكان الخواجه هو أهم معالم المنطقة التى تقع بها محطة السكة الحديد.

وامتاز الدكان بأنه كمحطة السكة الحديد، يفتح أبوابه ليل نهار، والخواجه وزوجته يتقاسمان خدمة الزبائن به مهما يكن عددهم محدوداً.

واتخذ موظفو الحكومة من الدكان نادياً لهم يجتمعون به ويتسامرون فيه، وهم يحتسون ألوان الشراب.

وكثرت مكاسب الخواجه وكثرت بالتالى مكاسب "سلطان" الكبير.

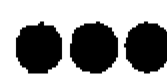
وبدأ الخواجه يبنى الدكان الخشبى، ويستبدل به دكاناً مناسباً لإقامة دائمة.

وبناه بأرخص الأسعار من طابقين.

الأول أصبح دكاناً ومشرباً للذين يريدون أن يعبوا أنواع الخمور بعيداً عن العيون.

والثانى صار مسكناً له ولزوجته.

وأمام الدكان فضاء فسيح، يحوى بعض الأشجار والزهور، وقد نثرت فيه المناضد والكراسى.



وكان هذا بداية خلاف بين الخواجه "وسلطان".

أراد الخواجه أن يخصم تكاليف البناء من حق "سلطان" !! فى حين كان "سلطان" يعتقد أن حقه فى نصف الأرباح مسألة لا يجوز أن تكون موضع مناقشة.

ولم يكن من الغباء بحيث يمكن للخواجه أن يستغله، فلا يعطيه هذا الحق تماماً، بالذمة والشرف !

وكان "سلطان" يرى أن هذا البناء خاص "للخواجه" يجب ألا تتحمله أرباح الدكان.

واحتد الخلاف واتسع، وأثار "سلطان" أن الخواجه بدأ يفتح عينيه فيه، فى جرأة !

وخشى "سلطان" أن يعرف عنه أنه شريك فى الدكان، فطلب الخواجه ليقابله فى بلدته، فلم يعبأ به.

واضطرته الحيلة إلى أن يذهب إليه ليناقشه فى الأمر.

- ماهذا يا خواجه؟ تحملنى أنا مصاريف مبانى تقيمها لنفسك؟

- نحن اتفقنا على أن تكون الأرباح مناصفة بيننا، والأرباح هى الفائض عن المصروف وهذا من المصروف يا سيد "سلطان".

- اسمع كلمة واحدة، لن أكررها بعد الآن. أنا لا أتنازل عن حقى.

والكلمة عندى ارتباط لا أتراجع عنه، ولا أسمح لك بالتراجع عنه.

- يا راجل... هل دفعت شيئاً؟ أنت تأخذ. تأخذ ... تأخذ ...ولم تدفع شيئاً !.

- هكذا ... يا خواجه !

- نعم هكذا ... أليس هذا صحيحاً؟

- والمكسب الذى سببته لك، لا قيمة له؟

- هذا مكسبى من عملى. من رأسمالى، من بضاعتى.

- وأنا وجهدى لا قيمة له عندك.

- لقد أخذت كثيراً يا سيد "سلطان"، ولا تستطيع أن تقول إننى ضحكت عليك.

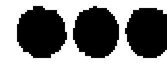
- والآن. ألا تضحك علىّ؟

- أبداً..والأصول أصول.

- أنا مخطىء...لأنى وثقت فيك.

- وماذا تستطيع أن تفعل؟

- لا شىء يا خواجه.



ولم تمض أربع وعشرون ساعة، حتى كان الخواجه قد اختفى.

لقد أحس "سلطان" الكبير أنه لو تهاون فى أمره، فإن نفوذه سيهتز فى الناحية كلها. وأنه لن يستطيع بعد ذلك أن يرفع رأسه كما اعتاد.

وقرر أن يؤدبه على تمرده.

وقرر أن يريه النجوم فى وقت الظهيرة، وإلا أفلت الزمام من يده.

إن السلطة والحكومة، وعملاء الوالى، والجميع فى جيبة، فهل يترك الخواجه ينتصر عليه، وقد يشاع ذلك عنه، فيتمرد عليه رجال الحكومة أيضاً، وقد يكون مصيره مصير أولئك الذين هربوا من أرضهم بسبب الخوف من رجال السلطة، وعملاء الوالى، وجباة الضرائب؟

هل ينهار العرش الذى بناه لنفسه بيديه؟

هل يصبح أضحوكة الناحية كلها؟

هل ينكشف أمره، أمام زوجاته وحريمه والجاريات؟

..ومن أجل خواجه غريب قادم من بلاد نائية.

وأى نفوذ يمكن أن يكون له؟

دكانه هذا؟ وزجاجات الخمر التى يدير بها رءوس الحكام، يعبون منها حتى يفقدوا الوعى، فيعودون إلى بيوتهم سكارى مخمورين؟

لا..بل لابد من عمل سريع فعال.

وكان اختفاء الخواجه.

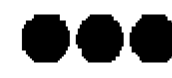
أصبح الصباح ذات يوم، فإذا الدكان خال منه. ليس فيه إلا الزوجة البدينة البضة المليئة، وعلى خدها كف ومنديل. تسند بكفها رأسها حتى لا ينزلق من فوق كتفها، وتمسح بمنديلها دموعها التى تتدحرج على خديها.

وصوتها انحبس فلا تستطيع أن ترد على استفسار.

وأصبح الدكان كسرادق عزاء.

وتردد الخبر فى الناحية جميعاً.

الخواجه اختفى...ولا يدرى أحد كيف اختفى..ولا تستطيع الزوجة أن تقول حرفاً مما تعرفه عن سر اختفائه، فقد جاءها نذير، بأن أية كلمة تقولها تساوى رأس الخواجه ثم رأسها بعد ذلك.



ويسمع "أبو المكارم" من أهل القرية أن "سلطان" أرسل إليه ثلاثة من رجاله قبل الفجر، فجلسوا فى الدكان يطلبون مشروبات مختلفة، ويتبادلون معه الأحاديث.

وناداه أحدهم إلى الخارج، فلما أصبحا فى الفضاء الخارجى، لحق به الآخران، فكتفوا يديه ورجليه وكمموا فمه، وعصبوا عينيه، ثم حملوه على الحمير، إلى جزيرة

وسط النيل مهجورة لا يذهب إليها أحد إلا بشق الأنفس، حيث تركوه وحده، ورجلين يحرسانه، وفى أيديهم بنادق وخناجر، وفى عيونهم نذير الموت.

ولما قضى يومين فى حالة من الرعب والفزع.

ينام..فيوقظونه على فوهة بندقية، تنبعث من فوهتها رائحة البارود.

ويصحو فيهددونه تهديداً وحشياً مخيفاً.

ويطعمونه الذل، ويسقونه العلقم، ويعرضونه للعراء...فى ليال قارسة البرد.

بعد أن قضى هذين اليومين، كأنهما عامان كاملان، أقبل عليه "سلطان" الكبير فانصرف الحراس، وأصبح الخواجه و"سلطان" وجهاً لوجه.

وفى غمضة عين، كان الخواجه قد انكفأ على وجهه، إثر ضربة قاسية من كف غليظة جامدة.

ثم قال "سلطان" :

- كيف ترى الحالة الآن يا خواجه...؟

- ولم يرد الخواجه فقد كان فى موقف المحكوم عليه بالإعدام.

ومضى سلطان يقول له :

- ألا تزال تعتقد أننى آخذ...آخذ....آخذ... ولم أدفع شيئاً.

قال الخواجه :

- سامحنى يا سيدى. أنا غريب. أنا ضيف وأنت تكرم ضيفك.

- أكرم ضيفى إذا كان يستحق الكرم.

- أنا مخطىء فى حقك، ولك على بعد هذا ألا أعصى لك أمراً.

- هل تعرف ما هى أوامرى؟

- أنا رهن إشارتك.

- تعرف أولا أنى أنا "سلطان"..."سلطان" هذه الناحية. لا "سلطان" هنا سواى. لا الحكومة، ولا الشرطة، ولا الموظفون...أنا كل شىء فى هذه الناحية. أنا الحكومة. أنا القانون، أنا ولى نعمتك.

- طبيعى يا سيدى...وهل أنا أشك فى هذا؟

- نفشت ريشك، وظننت أنك تستطيع أن ترفع رأسك أمامى. ترفع صوتك كذلك تناقشنى !

- معذرة. كنت مخطئاً وتبت على يديك.

- من اليوم أنذرك نهائياً. ما أقوله أنا لا يناقشه مخلوق.

- لن أناقشك أبداً. لن أحسب المبانى من أرباحك، ومن حقك ولو أردت كل ما أربحه فلك هذا.

- وإياك أن يعرف أحد شيئاً عن غيبتك هذه. وإلا فأنت تعرف النتيجة.

- لا لا ياسيدى...أبداً أبداً.

- سيسألونك أين كنت، فبماذا ستجيب؟

- كنت فى القاهرة أتفق على بعض البضائع.

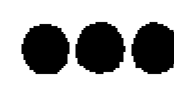
- ولماذا لم تخبر زوجتك؟.سيسألونك هذا السؤال...أجب !

- كنت أخاف أن تمنعنى، فهى لا تحب أن أتوسع. وهى كذلك تخاف الوحدة فى هذه الناحية.

- معقول ...وإذا شربت ودارت الخمر برأسك...تكلم؟

- لا...والخمر لا تؤثر على. ولك أن تراقبنى.

وتركه "سلطان" ومضى...

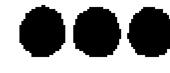


وأقبل الرجلان، ففكوا وثاقه وعصبوا عينيه، وقادوه إلى قارب نقلوه به إلى الضفة الأخرى، وهناك تركوه، فمشى محطماً مذعوراً، حتى عاد إلى زوجته.

ووجدها كما عهد الناس أن يروها طيلة الأيام والليالى التى مضت على غيبته، خدها فوق كفها، وفوق منديل يلتقط دمعاتها.

واستقبلته باكية منتحبة، وأخذت تتحسس أطرافه، لتطمئن عليه، وتسأله أين كان، فلا يجيب، ويكتفى بأن يشير إليها أن تسكت، فلما ألحت عليه بالسؤال، قال لها إنه كان فى القاهرة لبعض أمره.

واستمرت أرباح "سلطان" تصله كلما شاء، وكيفما شاء.



وبدأ الخواجه مرحلة جديدة من نشاطه.

إنه يحضر للناحية احتياجاتها من البضائع والمشروبات، يقدمها لها فى ورق شفاف وملون. وفى كؤوس تدور بالرءوس.

على أنه أضاف إلى هذا النشاط، أن بدأ يتاجر فى إنتاج الناحية، بعد أن بدأت الأرض تستقر فى حوزة بعض الملاك، أقواهم بلا شك، الرجل الذى انتزع أغلب زمام القرية لنفسه، بالسخرة والجبروت : سلطان "بك" كما كان يسميه الخواجه.

يشترى المحاصيل، خاصة القطن، ثم يبيعه لتجار آخرين كبار، ويقتسم الأرباح مع "سلطان".

وكثيراً ما كان يدفع أثمان هذه المحاصيل بضائع ومشروبات.

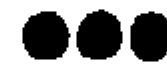
كان يرحب بالأعيان الوافدين من كل قرى الناحية التى تحيط بمحطة السكة الحديد. يعطيهم ما يشاءون من مأكولات. ويشوى لهم اللحوم، ويقدم لهم الأطعمة والمشروبات والحلوى. ويشجعهم على أن يدعوا أصدقاءهم وأحبابهم إلى ولائم يقيمونها

لديه، ولا يأخذ عن ذلك ثمناً. يقيده عليهم، نظير محصولاتهم يستولى عليها ليبيعها، ثم يخصم ديونهم ويرد لهم الباقى.

ولكم استهوت هذه الطريقة الأعيان، خاصة الشباب منهم، فأكثروا من سهراتهم عنده، وأكثروا من شربهم من زجاجات الخمر فى دكانه، وأكثروا من الولائم والدعوات، وأكثروا كذلك من التغزل فى السيدة المليئة البدينة البضة، وما كانوا ليعبأوا بشىء، وهم يعلمون أنهم لن يدفعوا شيئاً.

فإذا أقبل موسم الحصاد، أو جنى القطن، آلت محاصيلهم وأقطانهم إليه.

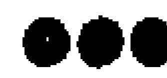
ولم يكونوا يعرفون الثمن، فقد ائتمنوه، وتركوا له الأمر.



وفوجىء بعضهم بأن محاصيلهم لا تسدد ما عليهم من ديون، وأنهم عاجزون بطبيعة الحال عن دفع الضرائب والأموال الأميرية، وأن مصائرهم أصبحت مهددة، وأن رجال الوالى لن يتركوهم بلا عقوبة، قد تحملهم على الفرار.

ولم يجدوا وسيلة إلا أن يطلبوا من الخواجه حساباً دقيقاً غير مغشوش.

على أن الخواجه ما كان ليعبأ بهم، ومعه "سلطان"..."سلطان" هذه الناحية كلها.



ويروى أهل القرية أن فريقاً من هؤلاء امتنع فى عام من الأعوام عن تسليم محاصيلهم وأقطانهم للخواجة، وأصروا على أن يبيعوها بأنفسهم، ثم يسددوا له دينه.

وكان "سلطان" يعلم تمام العلم أن الأسعار الحقيقية فى الأسواق ستكشف أمر الخواجة فيفقد ثقة أعيان الناحية جميعاً، فلا يعودون يتعاملون معه، ولا يعود هو يحقق الأرباح التى ينالها من ورائه.

حينئذ قرر أن يلجأ إلى أسلوبه الخاص، فى وقف هذه النوايا ووأدها فى مهدها.

وأخذ رجاله، وقطع الطرق على أصحاب المحاصيل والأقطان.

واختار أماكن بعينها فى الطريق الملتوى الطويل من قرى الناحية إلى كفر الزيات.

وكان الطريق يسمح لسلطان ورجاله، أن يجدوا أكثر من مكان يختفون فيه عن العيون حتى يستطيعوا أن يسطوا على أية قافلة تسير فجأة، فيستولون على ما تحمله من المحاصيل دون أن يتنبه لهم أحد، أو يخاف للنجدة أحد.

فقد كان الطريق إلى كفر الزيات، محاذياً لشاطىء النيل، يقترب منه حيناً ويبعد عنه حيناً آخر.

وعلى الجانبين تطاولت أشجار السنط والجميز والتوت والصفصاف.

وعندما تتسع الرقعة بين النيل والشاطىء، فى الأرض المنخفضة التى تتكون من طبقات الطمى عاماً بعد عام، ويسميها الأهالى الجزيرة، حينئذ يصبح من الصعب الاختفاء أو التوارى عن الأنظار، لأن هذه الأرض الزراعية تصبح مكشوفة ومطروقة للذين يزرعونها من الفلاحين.

أما حين تقترب المسافة بين الجسر ومياه النيل، فإن المنطقة تصبح كلها أحراشاً وحشية مقطوعة من الرجال، لا تطرقها قدم، خاصة وهى مأوى للشياطين كما تروى أساطير القرى فى كل هذه الناحية.

وهناك يصبح من السهل التخفى بين الأحراش توطئة للانقضاض.

وقد أرسل "سلطان" برجاله إلى هذه الأماكن. بل لقد اختارها لهم بنفسه.

وأقام عيوناً على الطريق، لترقب المارة، حتى لا يحدث انقضاض على قافلة، إلا إذا كان الجو مهيأ تماماً، وبعيداً عن أية رقابة أو ملاحظة.

وساعد على هذا أن أغلب قوافل نقل المحاصيل تتم على جمال، وتتم فى ساعات الفجر حتى يلحق أفراد القافلة الأسواق فى كفر الزيات فى وقت مبكر، وينتهوا من مهمتهم أثناء النهار ثم يعودوا إلى قراهم مع الغروب أو بعده بقليل.

وعندما أخذت أول قافلة من قوافل المتمردين على الخواجه طريقها إلى كفر الزيات، اختفى كل ما كانت تحمل من محاصيل، ولم يستطع أحد ممن كانوا مع القافلة أن يتعرف على واحد من الذين سطوا عليها، فقد كان أعوان "سلطان" كثيرين، ومن قرى متفرقة، بحيث يستحيل التعرف عليهم.

وكما حدث مع القافلة الأولى حدث مع القافلة الثانية.

ثم تكررت حوادث اختفاء المحاصيل، وعودة الرجال والدواب، بخفى حنين.

ولم تستطع السلطات أن تفعل شيئاً، فقد كان كبارها يعرفون أن وراء قصص السطو هذه قوة يرهبونها، ولا يريدون أن يدخلوا معها فى خصومات.

وأخذ السذج من القرويين يرددون أن بعض هذه المناطق مسكونة !

وأن سكانها من الجن لا يحبون أن يقلق أحد راحتهم أثناء ساعات الليل الرخية.

وردد الآخرون أن هناك يداً تدبر هذا الاعتداء، وأنها يد قوية، من العبث الوقوف فى وجهها.

وحاول بعض ثالث أن يغير مواعيد القوافل، بحيث تذهب فى وضح النهار، وأن يضاعفوا من عدد الرجال المرافقين لها.

ولكن الحوادث لم تقف مع هذا. واستمرت القوافل معرضة دائماً، وفى كل مرة للنهب والسرقة، وضياع الجهد والمال والأمل.



واضطر بعض الملاك إلى ترك أراضيهم خوفاً من رجال السلطة وعملاء الوالى وجباة الضرائب، فهربوا بكرامتهم قبل أن تهدر، وبماء وجوههم قبل أن يراق.

واضطر الباقون إلى العودة إلى الخواجه يقبلون أسعاره، وأمرهم إلى الله.

وعاد الخواجه يفرك يديه فرحاً بهذه النتيجة، وهو يغمز بعينه "لسلطان" الجبار.

ورضخت الناحية لهذا اللون من الاستسلام، وأخذ الأعيان يترددون كما اعتادوا على دكان الخواجه يأكلون ويشربون ويتغزلون، ولا يدفعون...ويسلمون أخيراً ما تجود به عليهم الأرض من خيرات، للخواجه يحاسبهم عليها كما يشاء.



وبدأ الخواجه يفكر فى مزيد من الاستقرار، فاستشار "سلطان" فى أمره، فأشار عليه بشراء أرض بعض العاجزين عن دفع الضرائب.

وكانت خطة "سلطان" أن تؤول إليه هو مساحات واسعة من الأرض، ولا بأس من أن تؤول إلى الخواجه بقايا ما يفيض عن طاقته، فإن وجوده وهو الغريب المستسلم له، أكثر ضماناً لنفوذه على الناحية بأسرها.

وبدأ الخواجه يصبح مالكاً...

وبدأت ملكيته تتسع مع الزمن.

وبدأ يحتاج إلى من يزرع أرضه، فلم يكن أمامه إلا "سلطان" يدبر له الأمر، كما كان يدبر هو أمر الاتجار فى المحاصيل.

على أنه أصبح مالكاً على أية حال.

وأصبح دكانه قائماً فى وسط أرض يملكها ويزرعها له "سلطان" نظير ما يقرره، بلا مناقشة أو جدال.

فالخواجه هو التاجر الوحيد المحتكر لتجارة المحاصيل.

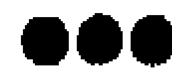
و"سلطان" هو الزارع الوحيد المتحكم فى زمام قريته وأرض الخواجه كذلك.

وباتت الناحية حكراً مسخراً لسلطان والخواجه وحدهما.

وأصبح على الذين يرغبون فى السلامة والأمان، أن يسالموا سلطان والخواجه وإلا فإن مصيرهم هو مصير من سبقوهم من الهاربين.

ويفكر الخواجه "وسلطان" : لماذا لا تقاوم فى هذا الزمام الواسع ساقية توفر الجهد والماء، وكما فعل آخرون فى قرى أخرى؟

لقد كان يمنع "سلطان" عن ذلك، أنه لم يكن قد ضمن الاستقرار فى هذا الزمام وكان يخاف أن يقيمها، ثم يتركها لسواه. ولكنه الآن يستطيع أن يقيم الساقية، وهو آمن، مطمئن على أنها لن تزول عنه إلى سواه وكان تشجيع الخواجة عاملا هامًا جعل سلطان يقرر إقامة الساقية.



إن أهل القرية يروون، أن "سلطان" الكبير، جد "الحاج سلطان"، بدأ يحس الراحة والاطمئنان، وتنفس الصعداء، بعد أن دانت له الرقاب، ولانت له الأرض الطيبة، وسيطر على الناحية بما فيها ومن فيها.

عندئذ اتجه إلى تحسين أحواله الزراعية. إلى مزيد من الأعمال، التى تضاعف نفوذه وقدرته على السيطرة.

وكانت قصة الساقية.

كانت الناحية من قبل-شأنها شأن بقية أجزاء الوادى- هبة النيل.

وكان المجرى الرئيسى للنيل هو مصدر هذه الهبة. فالأراضى التى تحيط به، هى الأراضى التى يمكن أن تنبت زرعاً، أما ما عداها من الأرض، فكانت خراباً.

إلى أن كان نظام الرى، وشقت الترع، فزادت كمية الماء، التى يمكن أن تكون مصدراً للزراعة المنتظمة.

ولقد شقت فى هذه الناحية ترعة يسمونها "الرياح"، وأصبحت قرى الناحية إما أن تكون محصورة بين النيل والرياح، أو منثورة حولها، على أن مساحة الأراضى الصالحة للزراعة، قد اتسعت رقعتها، واتسعت أطماع الطامعين فى ملكيتها.

وظل نظام الرى نظاماً عسيراً، يعتمد على قدرة الرجال، فى تحويل المياه، من مجرى النيل أو الرياح إلى الأرض، وفى دورات منتظمة حسب احتياجات الزراعة.

وكثيراً ما كان منسوب الماء يختلف عن منسوب الأرض.

مرة يكون أعلى، ومرة يكون أدنى.

وفى كلتا الحالتين كان يحتاج الأمر إلى جهد متصل، حتى تصل المياه المطلوبة فى الأوقات المطلوبة، بالقدر المطلوب.

وأصبحت القدرة البدنية والدأب والصبر أساس نظام الرى المنتظم.

وتفاوت الرجال. تفاوتت قدراتهم على تجميع قوى الآخرين وتسخيرها ليتم انتظام الرى، فيتم بذلك انتظام نمو الزراعة، ويتم بذلك الحصاد الكافى للضرائب المفروضة، وإرضاء حاجات عملاء الوالى من رجال الحكومة وقواتها.

وعلى أساس هذا التفاوت، استطاع "سلطان" الجبار أن يتحكم فى الناحية، وأن يتملك زمام القرية كله تقريباً، ولا يترك شيئاً إلا لأصهاره واقاربه. وامتد نفوذه إلى القرى الأخرى عن طريق التهديد والوعيد والجبروت، وعن طريق الخواجة عميله المطيع.

وكانت الوسيلة الوحيدة التى يلجأ إليها الفلاحون فى نقل المياه من الرياح أو النيل إلى الأرض هو الطنبور. يديرونه طول الليل والنهار، لينقل الماء اللازم للرى، لا يستطيعون أن يغمضوا جفناً، أو يركنوا لشىء من الراحة، وإلا كان القحط...أو كان قبل القحط فتك "سلطان" بهم فتكاً لا يرحم.

وفكر "سلطان" وأيده الخواجه- فى إقامة هذه الساقية، فى هذا المكان من القرية...إلى جوار الرياح..تتوسط الناحية البحرية الشرقية من زمام القرية، إلى جوار الجسر، فى مكان مرتفع، يطل على مساحة فسيحة خضراء، تتوسطها بيوت القرية المتناثرة، وتتوسط هذه البيوت المتداعية بيوت عائلة "سلطان" شامخة مستعلية.

وغير بعيد من مرمى البصر، فى الزاوية القبلية للقرية ضريح "سيدى أحمد الذكيرى"، وقد تناثرت حوله القبور واللحود والذكريات.

وزرعت حول الساقية مجموعة من الأشجار، أحاطتها من كل جانب، وأقيم خص من فروع الشجر، لحراسة الساقية من أى سوء.

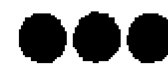
ويوم دارت الساقية، كانت مثار انتباه أهل القرية، فقد أدركوا ألا مهرب لهم بعد ذلك من "سلطان".

وربط إليها ثوران، أخذا يديرانها دورات متصلة، فتدور مع دورات الثورين، يصدر عنها صوت رفيع حيناً، غليظ حيناً آخر، ولكنه متصل أبداً.

وتمتلىء فتحاتها بالماء، من عين عميقة يتسرب إليها الماء من الرياح، ثم تصبه فى جدول صغير ينقل هذه المياه إلى الحقول، وهى حين تصبه تحدث خريراً بديعاً، قريباً من خرير الشلالات، بلا حاجة إلى جهد الرجال. فضلا عن إنتاج من الماء أضعاف أضعاف ما تنتجه دورات الطنبور.

لقد حل محل الرجلين اللذين كانا يديران الطنبور ثوران معصوبا العيون.

ونجحت الساقية فى تحقيق أغراض "سلطان".



وقد كان لهذا التغيير أثره فى حياة القرية، فأصبحت الساقية جزءاً لا يتجزأ من حياة القرية، ولعبت كعادتها بخيال الفلاحين،فأخذوا يضيفون عليها من الأساطير والروايات، ما جعلها شيئاً أقرب إلى الأحاجى منه إلى الحقائق.

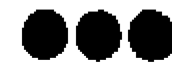
فمن قائل إن فى بئرها العميقة جنيّة، تظهر فى الليالى الحالكة، فى زينة رائعة تمدد رجليها على حافة الساقية، وتغنى أغنيات الحب والحرمان، فى صوت حزين.

ويقول البعض إن الجنية محكوم عليها بألا تتزوج برغم ما هى عليه من جمال وفتنة، وقد سبب لها هذا الحكم ضيقاً بالحياة وبالناس، حتى إنها لتشد الرجال من سيقانهم، وتعبث بملابسهم وتهمس فى آذانهم همسات دافئة، فإذا تلفتوا نحوها لم يجدوا شيئاً.. فإذا نأوا عنها رأوها فاتنة تعبث بالألباب، رائعة تفتك بالقلوب، لعوباً طروباً تغنى أعذب الألحان.

ويقول آخرون بل هى حارسة الساقية... هى التى تهب هذا الماء الذى لا يفرغ من بئرها أبداً . وهى تظهر لتطمئن على الماء ولتستنشق الهواء، وهى لا تؤذى أحداً، ولكنها لا تظهر إلا لمحظوظ، يسعى إليه حظ وافر، فينقله حظه من طبقة المعدمين إلى طبقة الملاك. ويروى هذا الفريق قصصاً شتى عن فلاحين رأوا حارسة الساقية، فربتت على أكتافهم مباركة أيامهم، وإذا هم بقدرة قادر، يصبحون ملاكاً للأرض، قطع صغيرة من الأرض، ولكنها على صغرها تحررهم من الاستعباد والإذلال الذى يتعرض له الآخرون.

ويردد الفلاحون الأغانى عن الساقية، ويضعونها فى الحكم والأمثال، وتصبح أحد المعالم المميزة لغنائهم وحدائهم الذى يتردد على الأفواه.

وتصبغ الساقية حياة القرية بنغمة حالمة، بدوراتها المنتظمة الدائبة، وخرير مائها يتساقط من الجدول الصغير، فيرى فى الحقول لامعاً براقاً، يشيع فيها البهجة والحياة.



أما حياة القرية المادية، فقد كان للساقية كذلك أثرها فيها.

لقد وفرت الساقية عدداً من الطنابير ووفرت مع الطنابير جهداً شاقًا كان يبذله الرجال، وأدرك الفلاحون بفطرتهم البسيطة الساذجة، أن هناك أملا فى تطور حياتهم هذه الشاقة، إلى ما يجعلها أقل مشقة، وأكثر رخاء.

فهذه ساقية واحدة، يجرها ثوران، حلت مشكلة من مشكلات متعددة كانوا يتعرضون لها ولا يعرفون كيف يتخلصون منها.

الجهد الذى بذل، بلا انقطاع فى تشغيل الطنابير.

والليالى التى قضوها ساهرين، حتى يوفروا الماء للزرع.

والبيوت التى هجروها أياماً وليالى متصلة، فى سبيل رى بضعة فدادين.

والزوجات اللاتى قاسين بعد أزواجهن عنهن هذا الوقت الطويل الثقيل.

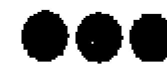
كل هذه المشكلات حلتها ساقية واحدة، يجرها ثوران، بل فاقت قدرة الساقية قدرات الرجال والطنابير جميعاً.

كل عين من عيون الساقية بطنبور، وكل هذه الطنابير ليست محتاجة إلا إلى ثورين اثنين معصوبى العيون، ووراءهما غلام يدفعهما إلى الدوران حول مدار الساقية.

وأحس الفلاحون بعد هذه الساقية، أن هذا التغيير الجديد يمكن أن يمتد إلى أشياء كثيرة أخرى فى حياتهم.

ومن يدرى؟!

وبدأت آمال باهتة بطيئة تداعب أحلامهم.



على أن الطنبور لم يختف من حياة القرية، وإنما ظل ضرورة لازمة لحياتها، فإنه ينقل الماء من الجدول إلى الحقول عندما يحتاج الأمر إلى رفع الماء إلى منسوب لا يتوفر فى منسوب الجدول.

على أن ذلك لم يكن إلا فى حدود أقل كثيراً من الحدود القديمة التى استعبد فيها الطنبور القرية، وشكل حياتها تشكيلا خاصًا.

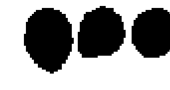
كذلك ظل الطنبور ضرورة لمساحات أخرى من أملاك "سلطان الكبير" حيث لا تصلح هذه المساحات لإقامة ساقية أخرى جديدة.

ومع ذلك، فإن استمرار اعتماد القرية على الطنبور لم ينف أن وجود الساقية كان له أثره المادى على حياة القرية، إلى جوار ما كان له من أثر فنى، وأثر نفسى.

وساعدت الساقية على انتظام الزراعة فى مساحة واسعة من أملاك "سلطان".

بل ساعدت على إصلاحها وتسويتها، وأدى ذلك إلى تحسين إنتاجها وزيادة غلاتها، فانصرف "سلطان" بعد ذلك، يبذل جهده فى مناطق أخرى، بعد أن وفرت له الساقية جزءاً كبيراً من هذا الجهد.

وبقدر ما ساعدت الساقية "سلطان" على زيادة ثروته، بقدر ما فرح الفلاحون السذج المستغلون، لأن الساقية دخلت قريتهم، كما دخلت قرى كثيرة أخرى من زمن طويل.



وأنجب "سلطان" الكبير ستة من الذكور، وستًا من الإناث.

وزوج أولاده مثنى وثلاث من أسر معروفة، وزوج بناته لأعيان المنطقة.

لعائلة العمدة وعائلات أخرى لها نفوذ، ولها عصبيات.

وبهذا زاد نفوذه، وتضاعف خطره، فقد أصبح له فى كل شبر فى الناحية صهر له شهرته وثروته وجاهه.

وعندما قامت هوجة "عرابى"، كما أطلق عليها الفلاحون، شاع فى القرية كلام كثير عن جندى فلاح، خرج من بين صفوف الفلاحين والتحق بالجيش ووصل إلى رتبة كبيرة من رتب الضباط.

وعندما لاحظ هذا الضابط أن القوة فى الجيش للضباط الأجانب، من الأكراد، ممن استقدمهم "محمد على" معه، وأن قوتهم تزداد على مر السنين، وعلى مر الولاة من أسرة "محمد على".

وعندما أحس أن زيادة هذه القوة بين صفوف الجيش تؤدى إلى أن يظل النفوذ دائماً بعيداً عن اليد المصرية الفلاحة المعروفة المكدودة المجهدة.

وعندما فكر فى مصير بلاده : لمن هو هذا المصير.

وعندما استعاد منظر الفلاحين من آبائه وأجداده وإخوته، وأقاربه، فرأى أنهم عبيد لأسرة "محمد على"، وأن وجود النفوذ الأجنبى فى الجيش، لن يمكن الأيدى المصرية من إنصاف الفلاح المصرى وإنقاذه مما يتعرض له من الهوان.

حينئذ نظم قوى الضباط المصريين، الذين نبتوا من طينة هذه الأرض، وشبوا على مائها، وخيرها، ليحدد ما يجب أن يعمله لإنقاذ هذا الموقف، وتصحيح الأمور.

وانطلق صوته يدوى بين صفوف الضباط والجنود المصريين، أن يهبوا لإنقاذ الملايين من مواطنيهم، من قبضة الحاكم الأجنبى المستبد.

وطالب "عرابى" الجندى الفلاح، بأن تكون قيادات الجيش فى أيدى الوطنيين، وأن تطهر صفوفه من سلطان الأجانب من القواد.

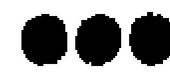
كما طالب أن تحكم البلد حكماً دستورياً، يضمن للشعب حقوقه، ويحميه من البطش، والطغيان، يحميه من أسرة "محمد على" التى ولاها الشعب، لتتنكر للشعب، وتستولى على كل مقدراته، لتوطيد نفوذها فى البلاد.

ولم يرهب "عرابى" الموقف، فذهب يطالب "الخديو توفيق" بأن يعطى الشعب حقوقه...

ورددت القرى كلماته :

لقد ولدتنا أمهاتنا أحراراً، ولن نستعبد بعد اليوم.

وهزأ الفلاحون مما قاله له "توفيق" : من أنتم؟ إنكم لستم إلا عبيد إحساناتنا.



ويسمع "أبو المكام" من الفلاحين، كيف بدأت هوجة "عرابى".

كيف وقف "توفيق" يتلقى طلبات "عرابى"، وإلى جواره قناصل الدول الأجنبية...أجنبى هو..فليس غريباً أن يستعين بالأجانب.

ولم يكن من بين الذين نصحوا "توفيق"، واحد من المصريين، فتطوع القنصل الإنجليزى بالنصيحة. وقبل "توفيق" النصيحة، فرفض مطالب "عرابى".

وزحف الأسطول الإنجليزى والجيش الإنجليزى...ليحمى "توفيق"، وانكشف أمام الشعب الموقف تماماً.

وشعر الفلاح البسيط المستعبد... أن "عرابى" ينطق بلسانه، وأن دخول الإنجليز دليل كالشمس فى وضح النهار، على أن "توفيق" هذا حاكم أجنبى دخيل، كذلك أسرته ابتداء

من "محمد على" الذى تظاهر بالدفاع عن مصالح الشعب، ليحقق أطماعه وأهواءه جميعاً.

وارتبطت القلوب "بعرابى"، وهو يعلنها هوجة كالعاصفة، تحارب الإنجليز، حتى تقضى عليهم.

وأحست القرى- كل القرى- أن نداء قد نفذ إليها لتشارك فى الجهاد الوطنى المقدس من أجل الحرية.

وأرسل "عرابى" أنصاره إلى الفلاحين...إلى المظلومين الذين هب ليدفع عنه الظلم. إلى الذين شربوا الذل والفاقة والفقر، لتسعد أسرة "محمد على" على حسابهم.

وسرت بين الفلاحين موجة عاتية من الحماسة "لعرابى"، فأخذوا يتطوعون فى صفوف جيش الفلاحين.

وشعر "سلطان الكبير" أن كبرياءه لا تسمح له أبداً بأن يتخلى عن هوجة "عرابى"، فأخذ يجمع الفلاحين والسلاح ليشترك فى المعركة.

وكان بينه وبين الخواجه حديث .

قال "سلطان" للخواجه :

- اشرح لى هذه المسألة..ما هى؟

- المسألة أن الخديو يريد ألا يعطى "عرابى" مطالبه.

- ولكنه يطالب بأن يكون جيش البلاد من أبنائها، من العسكرى الصغير حتى القائد.

- فإذا حدث هذا، فإن على الخديو أن يراجع سياسته.

- كيف هذا؟

- الخديو سيكون عاجزا عن الحكم المطلق الذى يباشره، سيكون عاجزاً عن فرض الضرائب كما يشاء. سيكون عليه أن ينزل على إرادة من فى يدهم القوة والسلاح.

ـ أليسوا أبناء البلاد؟

ـ نعم...أتذكر كيف وصلت إلى أرضك؟ ماذا بذلته من الجهد؟ كم كلفتك من العرق والتعب؟

ـ حياتى كلها.

ـ لماذا؟

ـ لأستطيع أن أدفع ضرائبها، وإلا تعرضت للإهانة والذل، أو هربت بجلدى من تعذيب عملاء الوالى.

ـ فإذا أصبح جنود الوالى، وقوادهم من الفلاحين.

ـ طبعاً يتغير الأمر.

ـ وهذا ما لا يريده الخديو بطبيعة الحال، وإلا فكيف يدفع اقساط الديون التى اقترضها "إسماعيل"؟ كيف يعيش فى عز لا يحاسبه عليه أحد؟

ـ ولهذا استعان بالإنجليز؟

ـ نعم...ليستمر على قوته. والإنجليز يهمهم أن يسيطروا على البلاد، عن طريق الخديو، لتؤول إليهم خيرات البلاد كلها.

ـ خيرات البلاد!!هذه الأرض الذى بذلت فيها عمرى، واتخذت فى سبيل إصلاحها جميع الوسائل. قتلت وسرقت وتحايلت ورشوت ودفعت ماء وجهى لمن يساوى أو لا يساوى ! هذه الأرض يأخذ الإنجليز خيراتها؟

ـ إذا استطاعوا...إذا احتلوا البلاد.

ـ ويضيع عمرى عبثاً !!

ـ إلا إذا أصبحت من رجالهم !

ـ أعود مرة أخرى مع عملاء آخرين، مع جنود إنجليز، أسلك ما سلكته مع الأكراد، والأرناؤط وسواهم؟ هل أقضى عمرى مهدداً بهذه الفئات. هل تصبح أملاكى هذه وما دفعته فيها من عمر طويل عرضة للضياع؟

- يا "سلطان بك"...الاحتلال..هذه طبيعته.

- إذن "عرابى" محق..."عرابى" بطل..."عرابى" بعيد النظر..."عرابى" يحمى مصالحنا جميعاً.

- هذا طبيعى..بل يحمى مصالحى معك.

- ولكنك خواجة وهم خواجات.

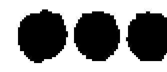
- لا يا "سلطان بك". الإنجليز إنجليز، وقد عرفهم العالم لا يؤمنون إلا مصالحهم هم، أما مصالح الآخرين. فلن تكون فى الاعتبار، نحن قاسينا منهم. العالم كله قاسى منهم.

- إذن أنت أيضاً معنا يا خواجة؟

- طبعاً معكم. أنا فى أمان مع الفلاحين الطيبين. أما مع الإنجليز فالله وحده يعلم كيف ستكون الحال. قد يطردوننا جميعاً من أراضينا. قد يعيدوننا إلى بلادنا، لتبدأ من جديد كفاحاً لا ندرى ماذا تكون نتيجته أو ثمرته. والعمر يا "سلطان بك" العمر...كم عمرنا الآن أنا وأنت. أنحن فى عمر المغامرة أو التجربة؟! لماذا لا يتركوننا نكمل حياتنا مرتاحين؟!

- سأحاربهم...سأشترك فى حربهم...لن يغلبوا "عرابى"...لن يأخذوا أرضى، لن يضيعوا جهدى.

- وصمم "سلطان الكبير" على الكفاح مع المكافحين، دفاعاً عن جهده وعن أرضه.



وجمع الفلاحين، وأخذ يتحدث معهم عن دينهم وكيف يهدده الإنجليز، وعن لقمة العيش فى أفواههم وكيف سيسلبها الإنجليز، وعن نسائهم وبناتهم، وكيف سيهتك حرماتهن الإنجليز، وأنه قرر أن يكون فريقاً من المتطوعين، ينضمون إلى جيش "عرابى".

وقال "سلطان" للفلاحين إنه سيجمع السلاح، من الناحية كلها، وسيوزعه على الفلاحين لتكون مشاركتهم فى هوجة "عرابى" مشاركة مسلحة لها وزنها، ولها قيمتها.

وبدأ بالفعل يجمع السلاح، ويجمع مع السلاح الرجال.

وارتبطت القرية بعواطفها ومشاعرها ووجدانها بهذه الهوجة التى يقودها رجل فلاح وصل إلى أعلى مراتب الجيش، ولكنه مع هذا لم ينس أهله، ولم تخدعه الحياة الناعمة التى كان يستطيع أن يحققها لنفسه ولأسرته، لو أنه سار ذيلا فى الركب، لا يفكر إلا فى مصالحة الخاصة.

وبدأ "سلطان" يتنسم الأخبار..ماذا حدث "لعرابى"...أين هو؟ وعرف "سلطان" أن "عرابى" يقود جنوده والمتطوعين من الفلاحين ليواجه عدوان إنجلترا التى توجه أسطولها إلى الإسكندرية، وبدأ يزحف نحو القاهرة.

وخرج "سلطان" بعدد ضخم من رجاله ليلحق "بعرابى"، ويساهم معه فى المعركة.

ولكنه لم يعرف على وجه التحديد إلى أين يذهب.

وفشلت محاولاته باللحاق "بعرابى" وجنوده.

وكاد يبكى غيظاً، وهو يستحث الخطى نحو غايته، ولكن خطاه لا تسعفه ليحقق أمنيته.

ووصل إلى إيتاى البارود، بينما كانت المعركة قد بدأت فى دمنهور بين "عرابى" والقوات الإنجليزية، فانتظر ليعرف مصير المعركة...

وجاءت البشرى تسرى كالبرق بين القرى فكانت لها رنة السحر فى القلوب.

"عرابى" كسر جيوش الإنجليز، وردهم على أعقابهم، فعادوا من حيث أتوا.

"عرابى" رفع الراية المصرية، وحقق كرامة الوطن.

وفى فيض الفرح بالنصر عاد "سلطان" ورجاله ليحتفلوا بالنصر الذى حققه زعيم الفلاحين "أحمد عرابى".

ولكنهم ما إن وصلوا إلى قريتهم، حتى وصلتهم الأنباء بأن الإنجليز استقلوا أسطولهم واتجهوا اتجاها آخر، لينزلوا البلد مرة أخرى، ويزحفوا على القاهرة من طريق السويس.

وأعلن الفلاحون فى إيمان بأن "عرابى" سيكسر شوكتهم...من هم الإنجليز أمام "عرابى"...أمام الفلاحين الذين استفاقوا لحقوقهم، وذاقوا طعم النصر؟

وعادت الأنباء تتوالى.

"عرابى" صمم على ردم قناة السويس، ليحول بين الأسطول الإنجليزى والمرور من القناة.

"عرابى" أخذ من مدير الشركة الفرنسى تأكيداً بأن القناة دولية، وأنها ليست ممرًا حربيًا وأنه لن يسمح للأسطول البريطانى بالمرور من القناة.

"عرابى" يرابط فى التل الكبير ينتظر معركة جديدة يقابل فيها القوات الإنجليزية.

وتمضى الأيام، والفلاحون- ملايين الفلاحين- مؤمنون بأن النصر سيكون فى صف "عرابى"، وأن الإنجليز لن يستطيعوا أن يواجهوه ومعه هذه القلوب.

...ولكنهم واجهوه يا "سلطان".

واجهوه بسلاح لم يكن يتوقعه أحد.

بالخيانة...بالعملاء...بالغدر...بالرشوة !

بالنفوس الضعيفة، والضمائر الخربة، والأطماع الصغيرة !

فقد خان مدير شركة قناة السويس الفرنسى...صديق الخديو "سعيد" ثم "إسماعيل" ...عهده، فمرت سفن الأسطول الإنجليزى من قناة السويس.

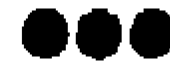
ولو قلنا إن هذا فرنسى... أجنبى، لجاز أن نصدق هذه الخيانة منه، فالكلب، كما تقول أمثالنا، لا يعض أذن كلب مثله.

ولكن خيانة الأخ...خيانة مصرى معك يا "عرابى"...صديقك...أخوك...زميلك فى الوطن وفى السلاح.

هذه هى الخيانة التى لا تغتفر.

وهى الخيانة التى جعلت الإنجلير يكسرونك يا "عرابى".

يا خيبة الأمل فى هوجتك القوية الرائعة يا بطل الفلاحين وقائدهم.



وبات "سلطان" حزيناً مكسور القلب. لا يأكل ولا يشرب، ولا يكف عن الشرود والذهول.

ماذا سيحدث بعدها؟

الخواجة قال إن الإنجليز قادمون لأخذ خيرات هذا البلد، وسيكون مصير هذه الأرض، هذه الساقية، كل شىء بنته المحنة وأيدى الرجال، فى خطر هؤلاء الإنجليز.

وطالما أخذ "سلطان" الكبير يسأل نفسه :

هل أراهم هنا قادمين لأخذ أرضى هذه بعد أن رويتها بالدم؟

هل أراهم قادمين للسطو على ممتلكاتى ودوابى؟

ومن يدرى؟ ربما اعتدوا على نسائى وبناتى وجوارىّ !

آه يا "سلطان" ...أتاك الموت يا تارك الصلاة.

كيف ستواجه الناس يا "سلطان"؟

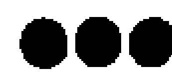
كيف ستحتمل الإهانات والظلم، وانتزاع حقك فى هذا الزمام الواسع الكبير؟

وأمام الخوف والقلق والفزع، بدأ الرجل يتودد إلى الرجال ويتقرب منهم.

بدأ يصلى معهم فى المسجد، ويكثر من الجلوس بينهم والحديث إليهم.

كان يخاف..وكان يرمى من وراء هذا إلى أن يكسب فلاحيه إلى جواره.

فقد يحتاج إليهم يوم محنة... وقد يأتى هذا اليوم عن قريب.



وخر "سلطان" الجبار، صريع مرض عضال.

لقد هده الخوف على هذه المساحات الواسعة من الأرض.

وتجمع حوله أولاده وبناته وأصهاره وزوجاته، وجواريه.

وحاول الجميع أن يتبينوا سبباً لمرضه، فلم يقف أحد على هذا السبب.

وكان الشيء الوحيد الذى يعنى المريض فى مرضه أن يتابعوا له أخبار "عرابى"، ومحاكمته.

ولم يكن يستمع لشيء إلا لأنباء المحاكمة، ولم يكن يعى شيئاً مما يسمع، إلا تطورات القضية الكبرى، التى يحاكم فيها الرجل الذى أراد أن يحمى هذه الأرض وما تدره من خير.

وسمع المريض أن "عرابى" حكم عليه بالنفى إلى جزيرة بعيدة جدًا، اسمها سيلان. وأنهم صادروا أملاكه وجردوه من رتبه العسكرية.

وتلوى فى فراش مرضه، وهو يتصور أنهم بدأوا "بعرابى" ثم يدورون على أعيان البلاد بعدها يصادرون أملاكهم واحداً بعد واحد.

وسيأتى عليه الدور بطبيعة الحال.

ونادى الخواجه فلم يجد لديه أنباء...لم يفهم عنه إلا أنه قد وسع تجارته، وأنه لا يعبأ بشيء مما حدث.

وفى صوت مريض ضعيف متهالك قال له "سلطان" :

- أنسيت كلامك عن الإنجليز...ألا تخشاهم؟

ورد الرجل ردًا زاده مرضاً على مرضه :

- الإنجليز جاءوا ليحاربوا "عرابى"، لا ليحاربوا اليونانيين، وقد سمعت من زملائى أنهم قرروا أن يحموا الأجانب.

- ماذا يعنى هذا يا خواجه؟

أجاب فى صوت لم يستطع أن يحفى فرحته :

- يعنى أصبحنا حماية.

- وما معنى هذه الحماية؟

- الإنجليز يحمون مصالحنا. قرروا معاملتنا معاملة خاصة، بقانون خاص، وبطريقة أخرى.

- قال "سلطان" وقلبه ينزف دماً :

- أنت يا خواجه أصبحت ممتازاً فى بلادنا؟!

قال فى ثقة وسرور واطمئنان، وتواضع مصطنع :

- أنا خادمك يا "سلطان بك"، لكن صحيح أننى أصبحت ممتازاً. ممتازاً كثيراً عليك وعلى غيرك من الفلاحين.

- والاتفاق الذى بيننا؟!

- سأبلغه للقنصل اليونانى...

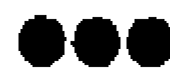
- القنصل...القنصل...يا نهار أسود.

- هل هو اتفاق مكتوب؟

- يا خواجه.!...

- هل تذكر يوم سرقتنى يا "سلطان بك"؟...

- يا خواجه.



ولم يرد الخواجة ولكنه خرج مبتسماً تكاد ابتسامته تأكل وجهه كله.

وترك "سلطان" وقد أصبح على وشك الهلاك.

ولقد جمع الرجل أسرته، وقال لهم :

أوصيكم بأرضكم. إياكم أن تسلموا فيها. إياكم...إياكم. أنتم لا تعرفون كيف حصلت عليها. قسموها بينكم وفقاً لشرع الله. أما الساقية فلتكن دائماً للابن الأكبر..ثم للابن الأكبر..وعليه أن يحافظ عليها بعينيه، فهى وحدها ثروة كبرى. وفى نظير ذلك ينزل أول وريث عن عشرة افدنة من ميراثه. ثم خمسة فى الأجيال الأخرى التالية. هل سمعتم؟

وردد الرجال كلاماً ضروريًا فى مثل هذه الظروف. أكدوا له أنه شديد، وأنه سيشفى، وأنه هو الذى سيحمى هذه الأرض، وأنهم لا يساوون شيئاً بدونه.

أما النساء، فقد أخذن يبكين فى مرارة، وهن يؤكدن له أنه سيعيش طويلاً وأنها أزمة بسيطة ستمر بإذن الله.



ومات "سلطان الكبير"، فتوارثه أولاده وبناته.

قسمت الأرض عليهم وفقاً لشرع الله. على اثنى عشر شخصاً من الرجال والنساء.

وآلت الساقية إلى "الشيخ محمد" ابنه الكبير، نظير تنازله عن عشرة أفدنه كما قال المرحوم.

وأصبح نصيب كل وارث من الورثة الرجال حوالى مائة فدان. ومن الورثة النساء حوالى خمسين فداناً.

ولقد كانت ذكرى الوالد المرحوم، وقرب عهدهم بأيام الكفاح الأولى فى إصلاح الأرض سبباً كافياً لتعاون الورثة جميعاً، وتكاتفهم فى أن يستمر الميراث موحداً، يزرعونه على المشاع ويتولى "الشيخ محمد" تقسيم المحاصيل بالعدل على الورثة جميعاً، للذكر مثل حظ الأنثيين.

ولكن الـزمن والمطامع الخـاصـة، والتنافس، أقـوى من الذكـرى، ومن الارتبـاط، بأيام الكفاح.

لقد وورى "سلطان الكبير" إحدى المقابر حول ضريح "سيدى أحمد الذكيرى" ولم تعد صلة الورثه به إلا بضع دمعات يذرفونها فى المواسم والأعياد.

وكانت هذه الدمعات ساخنة أول الأمر، ثم فترت بمرور الزمن، حتى أصبحت تعتصر اعتصاراً من عيون تتطلع إلى الأطماع أكثر مما تتطلع إلى ذكريات ولى عليها الزمن، ووريت فى قبر المرحوم.

أما أيام الكفاح، فقد مضت مع قسوة الأيام.

وتطورت حياة الورثة فأصبحت لينة طرية، تملؤها ألوان المتاع.

ونسى الذين بذلوا جهداً إلى جوار "سلطان الكبير" هذا الجهد. ولم يعودوا يذكرون أيام الكفاح القاسية، إلا للتفاخر والتغنى بما كان.

ثم دخلت الأسرة أسر أخرى.

زوجات من عائلات مختلفة الطبائع والأطماع.

وأصهار لكلامهم فى الآذان طنين، كطنين الذباب.

وأصدقاء كلامهم كثير، أغلبه تحريض على الاستقلال.

وطالب كل صاحب ميراث بميراثه مستقلا، ليعرف حدود مسئولياته فيباشرها بنفسه بدلا من ترك الأمر مشاعاً بين الأسرة فتضيع المسئولية بينهم، ويفتر جهد كل منهم اعتماداً على الآخر، أو ضنًا بهذا الجهد على الآخرين.

وتدخل عمدة البلد فحسم الأمر وقسم التركة على الورثة.

وأصبحت الأرض الشاسعة التى كونها "سلطان الكبير"، ملكيات مستقلة للأبناء وللبنات.

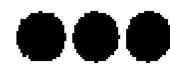
وكان بعض البنات قد تزوجن من عائلات رضخن "لسلطان الكبير" قسراً وأخفت فى نفسها عليه حقداً فجاء وقتها لتنفس عما كتمته طيلة هذه الزمن الطويل.

وظهر نوع من المنافسة بين الورثة، ولم تعد الأمور تسير بينهم سيرها المسالم كما كان الحال.

وفى وسط هذه الموجة من التنافس، بدأ الضحايا المساكين من الفلاحين يجدون منفذاً من منافذ الحرية.

لم يعودوا محتكرين "لسلطان الكبير" وحده، وإن ظلوا محتكرين لورثة "سلطان" على أن تنوع المحتكرين، واختلافهم فيما بينهم، ومنافسة كل منهم للآخر، فتحت باباً لبصيص ضئيل من النور.

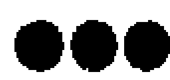
ولكن النور لم يكن كافياً ليضيء هذه النفوس التى طال عليها الظلام.



ويسمع "أبو المكارم" من رجال القرية أن "الحاج محمد" أنجب أربعة من الرجال، هم "الحاج سلطان" الذى تعرفه القرية، "والحاج غضبان"، "والشيخ سيد"، و"ممتاز أفندى".

وتنفيذاً لوصية "سلطان الكبير"، فقد آلت الساقية إلى "الحاج سلطان"، بصفته الابن الأكبر، فى الجيل الثانى "لسلطان الكبير"، نظير تنازله عن خمسة أفدنة من ميراثه.

وورث "الحاج سلطان" مع الساقية أرضاً مساحتها تقرب من عشرين فداناً من زمام القرية، تمتد من الساقية، إلى آخر حدود القرية من الجهة الشرقية، زرع جزءاً منها حديقة ترتفع أشجارها باسقة زاهرة، تملأ الأنوف برائحة جميلة عطرة.



على أن "الحاج سلطان" قد اتخذ من الساقية مورداً كبيراً من موارد رزقه.

فهى تروى حديقته وأرضه، ثم تعمل بعد ذلك لرى أرض من يشاء نظير جعل يقدره هو عن الفدان، ولا يسمح لمن لا يدفع هذا الجعل، أن ينال من مياه الرياح قطرة واحدة من الماء.

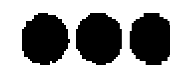
ولقد فهم من ممارسته لهذا الاستغلال حكمة جده "سلطان الكبير" من اشتراط أن تؤول الساقية للابن الأكبر. ومن اشتراط أن يتنازل عن جزء من ميراثه، مقابل امتلاكه للساقية.

إن الساقية تروى نصف زمام القرية أو ثلثها على أقل تقدير.

وعلى ملاك الأرض ومستأجريها، أن يفاوضوا "الحاج سلطان" ليسمح لهم برى أراضيهم عن طريق الساقية نظير الجعل الذى يحدده.

وفى أيام التحاريق، والأرض تمتلىء بالشقوق، مفتوحة كالأفواه، تطلب ريًّا تبل به ريقها. فى هذه الأيام يصبح "الحاج سلطان" هو السيد المطاع.

فالفلاح فى تلك الأيام يستجدى الماء. ويهمه أن يحصل عليه قبل سواه، حتى لا تموت زراعته، لا يهمه فى هذا مقدار ما يفرضه "الحاج سلطان" من الجعل اللازم لحياة الأرض، وحياته هو وأسرته بطبيعة الحال.



وقد لجأ "الحاج سلطان" إلى طريقة الخواجه فى الدكان.

فالذين لا يملكون الجعل المطلوب، يستطيعون أن يقترضوه بالفايظ من أخيه "الشيخ سيد"، فإذا لم يكن "الشيخ سيد" راضياً عليهم أو مطمئناً إليهم، فإن "الحاج سلطان" يعطى الماء اللازم، نظير استيلائه على المحصول، فيسلمه لأخيه "الحاج غضبان" ليبيعه للخواجات فى كفر الزيات، ثم يحاسب أصحابه على الفائض من ثمنه بعد أن يسوى حساباته مع "الحاج سلطان".

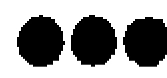
والجعل عند "الحاج سلطان" جعلان...

جعل كامل، وهو أن يسمح "الحاج سلطان" بالماء، دون أن يتحمل الفلاح شيئاً..لا يقدم الثيران اللازمة لعمل الساقية.

وجعل خاص، وهو خاص بالذين يملكون الثيران اللازمة لعمل الساقية، وهو أقرب إلى استئجار الساقية فترة معينة يتفق عليها، ولا يجوز للمستأجر أن يتجاوز هذه الفترة بحال من الأحوال.

وعلى أية حال، فقد كانت الساقية تعمل ليل نهار، على أحد النظامين.

وتدر طول الليل وطول النهار، أرباحاً مختلفة "للحاج سلطان".



واستعمل "الحاج سلطان" الساقية سلاحاً يهدد به خصومه، أو من يجرؤون على خصومته من الفلاحين، فقد كان يستطيع أن يمتنع عن منحهم الماء، أيّا كان الجعل الذى يدفعون.

وكان "الحاج سلطان" هو المنتصر دائماً، فإن أحداً لم يكن يجرؤ على أن يصبر على خصومته زمناً طويلا، لأن ذلك كان يودى بأرضه، وبرزقه، وبحياته.

حتى العمدة نفسه، لم يكن يجرؤ على خصومة "الحاج سلطان" لأنه كان يملك أن يضايقه فى رى قطعة من أرضه، واقعة فى المساحة التى ترويها الساقية من زمام القرية، ولهذا كان يلجأ دائماً إلى استرضائه، باسم ما بينهما من مصاهرة، ويدعوه معه إلى زيارة المأمور فى مكتبه فى بعض الأحيان، إشعاراً له بمكانته فى قلبه، كما كان يدعوه إلى الولائم التى يقيمها للسادة الحكام : الحكمدار أحياناً.

المأمور. ضابط النقطة. مهندس الرى. مفتش المساحة. رئيس الصيارفة. وغير هؤلاء من ذوى الضبط والربط والتحكم فى أقدار الفلاحين.

كان هذا يرضى "الحاج سلطان" كثيراً، فيقدم أرض العمدة على أرضه هو فى بعض الأحيان.

على أنه لم يكن يتنازل أبداً عن حقه فى الجعل.

وكان دائما يردد إذا ناقشه فى هذا الجعل.

- كفاك ما أخذته من أرضى.

- أرضك...أنا أخذت أرضك؟

- نعم أرضى التى جعلتك عمدة.

- أهى أرضك أم أرض أبى؟

- أرضى يا رجل. أرض زوجتى التى تنازلت لك عنها، لتكمل النصاب.

- لكنها مسألة بينى وبين أختى،

- أختك، أختك وهى فى بيتك. أما هى فى بيتى أنا، فإنها لم تعد أختك يا حضرة العمدة، إنها امرأتى، وأرضها أرضى.

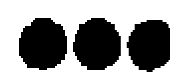
- ويشعر العمدة أن المضى فى هذه السيرة قد يفقده قطعة الأرض التى تقع تحت رحمة الحاج "سلطان" وساقيته. قد تبور الزراعة. قد يضيع المحصول.

وهنا لا يملك إلا أن يتملق "الحاج سلطان".

- نحن أهل ، نحن أقارب. هل بينى وبينك إلا الود. خذ أرضك إذا أردت.

استعدها. بل خذ مكانى فى دوار العمدة إذا شئت. ما الفرق بنى وبينك؟ ألسنا واحداً يا رجل.

ويسكت "الحاج سلطان" فيسمح له بالرى، بالجعل الذى يقرره. وكفاه أنه يعطيه الأسبقية حتى على نفسه.



على أن "للحاج سلطان" فى الطرف القبلى من القرية، قطعة أرض صغيرة ولكنها فى أهمية الساقية لحياة القرية.

كانت أرضاً زراعية صغيرة ورثتها زوجته "الحاجة زهرة" أول خيبته كما يقول.

ولقد تزوجها من أجل هذا الميراث، وهو يعلم تماماً، كيف سيستغل هذه الأرض، بعد أن زحفت مبانى القرية إليها، فأصبحت أقرب أرض زراعية إلى مبانى القرية.

فلما آلت إلى زوجته، وآلت من زوجته إليه بطبيعة الحال، حولها إلى جرن.

وتعامل فى الجرن، مع أهل القرية، كما تعامل فى الساقية، فأصبح يمنحه للفلاحين فى مواسم الحصاد، نظير الجعل الذى يحدده.

وأصبح الجرن كالساقية بيضة من ذهب، فى جيب "الحاج سلطان".

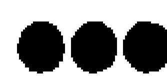
والذين، لا يملكون الجعل من أهل القرية، يقرضونه بالفايظ من أخيه "الشيخ سيد"، أو يعطونه حق الاستيلاء على محاصيلهم، ليبيعها لهم أخوه "الحاج غضبان" ويحاسبهم عليها بعد أن يسوى حساباته مع أخيه "الحاج سلطان".

وبهذا ملك "الحاج سلطان" وإخوانه مصالح الناس. احتكروا محصولاتهم، يتصرفون فيها كما يشاءون.

لم ينج من قبضتهم إلا عدد محدود من الملاك. من الأعيان. وأغلبهم أقارب أو أصهار.

وبجواره نفوذه العمدة، ومن ورائه نفوذ الحكومة.

وفى حوزته شيخ الخفراء الرهيب، "أبو سريع"، فهو زوج ابنته، وحامى حمى مصالحه ضد الصعاليك الحفاة المحتاجين.



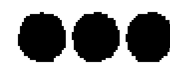
كانت الساقية تدور.

وكان "أبو المكارم" يدور خلف الثورين المعصوبى العيون، وفى يده عصاه، يضرب بها الأرض، فيخرج عن ذلك صوت، يلهب الثورين، فيدوران دوراتهما المنتظمة الجامدة حول الساقية.

وقد يمدد ساقيه على حافة الساقية فى تراخ، وهو يتطلع إلى الثورين بين الحين والحين، ليطمئن إلى أنهما ماضيان فى أداء واجبهما الثقيل الممل.

وقد يذهب إلى هذه الشجرة أو تلك ويتطلع إلى الطبيعة السمحة الحنون، يملأ منها عينيه.

وهو بين ذلك كله شارد فيما سمعه عن قصص "سلطان الكبير" الجبار، والأرض، والساقية، والجرن، والضحية الجديدة من ضحايا "الحاج سلطان" : "تفيدة" المسكينة.



وفجأة يسمع من خلفه خطواً خافتاً، يتقدم نحو الساقية فى بطء.

ويتطلع ليرى من القادم، فى هذا الوقت من النهار.

ويجدها...

"أم الهنا". أم الضحية المسكينة، وقد أقبلت نحوه تحمل فى يدها شيئاً ملفوفاً فى خرقة قديمة، وفى عينيها دمعة تتردد بين الاستقرار فى مقلتيها، أو الانحدار على خدها ...

وأسرع "أبو المكارم" نحوها.

إنه الوحيد الذى يقدر مأساتها.

ومدت إليه يدها بالشىء الملفوف فى الخرقة القديمة البالية.

وعجب..وفتحها، فوجدها تحوى فطيرة صغيرة، وقطعة جبن قديم، وبيضتين مسلوقتين !

ونظر إلى "أم الهنا" مستفسراً.

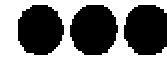
وقالت "أم الهنا" :

تعمل معروفاً فى أم مظلومة يا "أبو المكارم"؟ تذهب بهذه الأشياء إلى "تفيدة".

أنا أعرف أنها تحب ما تصنعه يداى. أنا أمها.

فطيرة صغيرة خبزتها بيدى. وهذه قطعة من الجبن القديم الذى أحفظه فى البلاص القديم الذى تعرفه، لم أفتحه إلا اليوم، ولم أشأ أن أذوق الجبن الذى وضعته فيه أنا وهى، إلا إذا ذاقته هى أولا. إن أباها رفض أن يذوقه هو الآخر. وأختها كذلك بكت وقالت إن "تفيدة" وضعت الجبن فى البلاص قطعة قطعة، ثم لا تذوقه !

وهاتان البيضتان، من بيض الدجاج الذى ربته على يديها..قل لها الكتاكيت التى ربتها هى، بدأت تضع بيضاً، وهاتان أول ما وضعته من بيض.



ودمعت عينا "أبو المكارم" ونظر إلى الساقية وهى تدور، وهز رأسه، وصدرت عنه إشارات فهمتها عنه "أم الهنا".

قالت له : ومن الذى يوالى الساقية حتى تعود؟

أشار برأسه أن هذا هو ما يقصده تماماً.

وذهبت مسرعة، وعادت فى لمح البصر، ومعها زوجها "أبو عوف" فى أسماله البالية، وقد طال شعر ذقنه فى إهمال واستسلام.

قالت "أم الهنا" :

"أبو عوف" سيوالى الساقية حتى تعود..وسننتظرك لنعرف ما حدث.

واطمأن "أبو المكارم" إلى هذا الحل، ومضى نحو القرية.

وكان صوت "أم الهنا" يتابعه :

إياك يا "أبو المكارم" إياك أن تدع أحداً يراك وأنت تعطها هذا، إياك وأنت تعلم أنهم سيسخرون منها إذا رأوا هذه الأشياء.

ومضت تقول لنفسها :

ولكنى أعلم أنها تحبها..طول عمرها وهى تقول لى إن الفطير الذى تصنعه يداك يا أمى، ألذ فطير فى الدنيا. أنا أعلم أنها ستحب أن تأكل الجبن الذى أسقطته بيدها فى البلاص منذ أكثر من عام. أعلم أن بيض الدجاج الذى ربته بيديها، سيكون له طعمه الخاص فى فمها. يا بنتى يا مسكينة يا مظلومة...أخذوك إلى الزوج وحدك، كأنهم أخذوك ليدفنوك، لا ليزوجوك. ومن يومها ولم يتحدث إليك أحد لا أنا، ولا أبوك، ولا أختك. وأنت يا "تفيدة" حنون. طالما كانت دموعك تتساقط إذا أصاب أحدنا سوء. ثم ينتهى أمرك إلى هذا الفراق؟...وأنت على بعد خطوات منا !

ونظرت إلى زوجها، فوجدته قد أمسك بالعصا، وأخذ يدور حول الساقية، خلف الثورين...كالثورين تماماً.

الثوران لا يريان شيئاً، لأنهما معصوبا الأعين.

وهو لا يرى شيئاً، لأنه معصوب الفؤاد.

□□□

٦

ومضت الساقية تدور...

ومضى "أبو عوف" يدور معها، وفى يده عصاه، وبين عينيه ثوران معصوبا الأعين مثله! بفرق واحد بينه وبينهما، أن عينيه معصوبتان بجروح ودموع ! أنه لم ير ابنته منذ تزوجت...

كم يا ترى مر عليها، وهى منه غير قريب وغير بعيد؟!

إنها على قيد خطوة منك، حتى لتحس أنفاسها تتردد، فتصل إلى سمعك، وتطرق قلبك، كأنما هى لا تزال طفلة، تهتز أنفاسها على صدرك !

ولكنها على بعد الموتى منك، حتى لا تستطيع أن تراها، فتكتحل عيناك بضحكاتها الحلوة، ولا تستطيع أن تسمعها، فترن فى أذنيك نغماتها الحنون !

كم مضى عليك وعليها، دون أن تلتقى عيناك بعينيها !

شهر...شهران...عام...عامان...يوم...يومان؟

ولماذا تتعب نفسك فى العد والتعداد؟ وما فائدة ذلك؟

أتراك تنتظر أوبتها، وقد ذهبت ولن تعود.

●●●

ويضرب "أبو عوف" بالعصا ..فى الهواء.

يضرب هواجسه وأوهامه..يريد أن يطردها بعيداً عن نفسه، لكنها لا تبتعد عنه أبداً.

"تفيدة" يا ابنتى.

لطالما جلست معك هنا، على حافة الساقية.

لطالما خطوت هنا، ولعبت هنا، تحت هذا الشجر.

"تفيدة" يا ابنتى ! ذرات التراب هنا، تعرف وقع أقدامك.

ولكن أقدامك "ياتفيدة" كانت حافية كأقدامى، تلامس هذا التراب بلا حجاب !

"تفيدة" يا ابنتى ! نسمات الريح هنا، تعرف طعم أنفاسك.

كل شىء هنا يا "تفيدة" يا ابنتى رآك طفلة، وفتاة. راقب عمرك ينمو كما ينمو نبات الأرض.

هل أسأل الساقية "يا تفيدة"؟..ستروى لى كم جلست هنا تلعبين !

هل أسأل الصفصافة "يا تفيدة"؟..ستحكى لى كم تعلقت بها تمرحين !

هل أسأل الجميزة "يا تفيدة"؟..ستعدد لى كم قطفت من ثمراتها تأكلين !

هل أسأل الريّاح "يا تفيدة"؟..ستقول لى مياه الرياح، كم شهدتك هنا تضحكين !

..هنا دمعكِ تحدر، كلما كنت تغضبين من أمك، أو أختك، وهنا ضحكك تردد، كلما كنت تداعبين المنى والأحلام !

وأغنياتك الحلوة، وجدت هنا، فى هذا الفضاء الواسع، مجالا تروح فيه، ثم تعود، كرجع الصدى !

"تفيدة" ماذا تراك الآن تفعلين؟

يا بنتى، يا قطعة من نفسى، يا حبة عينى..."يا تفيدة".



ويبكى "أبو عوف" فى صوت محبوس.

فالبكاء - مجرد البكاء - عليه حرام !

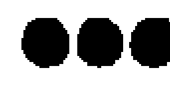
ويتطلع إلى الناحية القبلية، ليمد النظر، من خلال الدموع، فتظهر له قبة "سيدى أحمد الذكيرى"، تتوسط الحقول والقبور، فيشد نفساً طويلاً، بلا كلام.

هذه كانت دعواته، عسى ولى الله، يرسل إلى قلبه بركة، يكون له فيها أمن وراحة بال.

لقد انتهى كل شىء. وكل ما يطمع فيه أن ينعم عليه الله، ببركة "سيدى الذكيرى"، بهدوء النفس والنسيان.

ولكنه يعود يقول لنفسه :

النسيان !! كيف تنسى؟ تنسى "تميدة" ! تنسى دمك ! تنسى صلبك ! ولا يجد أمامه من العزاء، ألا أن يضرب بعصاه فى الهواء، يستحث الثورين، وهما يدوران حول الساقية، فى دائرة محدودة، وصوت الساقية يرتفع حيناً فى فزع، ويخفت حيناً آخر فى استسلام، ولكنه متصل أبداً فى إصرار.



وكاد "أبو عوف" ينسى، فى غمرة ما أصابه من ذهول، أن "أم الهنا" لا تزال جالسة تنتظر عودة "أبو المكارم" لتعرف منه الأخبار... لتطمئن إلى أن الأمانة قد وصلت إلى يدها، دون أن يلمحه أحد من أفراد بيت "الحاج سلطان".

ولكن نظره وقع عليها وهو يدور خلف الثورين، كالتائه.

كانت جالسة، فى ثوبها الأسود، فى ركن قصى، إلى جذع الجميزة، نظرها إلى الأرض، تداعب التراب فى غير وعى، بأصابع خشنة، ترتعش من القلق والانفعال.

ولم تلاحظ أن "أبو عوف" زوجها يطيل النظر إليها، وإلا لبادلته النظر، فقد كانت هذه النظرات الصامته بينهما، هى اللغة الباقية التى يتفاهمان بها، منذ أخذوا "تفيدة" إلى بيت "الحاج سلطان".

لم يعد بينهما كلام، أو ابتسام، أو حديث.

وأصبحت العلاقة بينهما، علاقة من نوع غريب، لم تتعرض له حياتهما من قبل.

هل يخافها؟ وهل تخافه؟

لقد قالت له بعد أسبوع من غياب "تفيدة" إنها ذاهبة لرؤية ابنتها، وستأخذ معها "مفيدة". إنه سبوع العروس، ولا يجوز ألا تعد لها أمها طعاماً خاصاً، وتشترى لها فاكهة الموسم، وتذهب بذلك كله إليها. هذه تقاليد القرية، وعلينا ألا نخرج على هذه التقاليد.

ولم يجب "أبو عوف". ظل صامتاً كصنم. ولكنها كررت له هذا الكلام فى شىء من التفصيل.

- عندنا زوجان من الأوز. أذبح منهما زوجاً. وأعد فطيراً، وأشترى أقة من اللحوم أطبخها. وعند جارتى حمام أشترى منها زوجين أعده فى طواجن أرز.

وأشترى فاكهة الموسم...وأذهب إليها بذلك لتفرح به. أليست عروساً؟

قال فى اقتضاب :

- لا داعى "يا أم الهنا".

قالت فى صياح :

- يا رجل إنها بنتك. بنتك "تفيدة". ألا تريد لها أن تفرح كما تفرح كل عروس؟ ألا تريد لها أن تشعر بأن أهلها يقدمون لها ما يقدمه كل أهل لكل عروس؟

قال فى ألم :

- لسنا أهلا ككل أهل، وليست هى عروساً ككل عروس.

قالت :

- هكذا أنت...هكذا أنت. المسألة انتهت، ولا داعى لأن نقلبها مأتماً، لقد صارت "تفيدة" زوجة "الحاج سلطان"، أكبر رأس فى البلد. انس يا رجل هذا الحزن، والزمن كفيل بإصلاح الحال.

قال :

ـ ستندمين يا "أم الهنا"...لا تنسى مكانك من هؤلاء.

قالت وهى متبرمة به وبكلامه :

ـ تريد أن تقتل بنتك من الهم. ألا نطمئن عليها؟ ألا نعرف حياتها؟ كيف تعيش؟ ماذا تريد؟

قال لها، وفى حلقه جفاف الموتى :

ـ "تفيدة" يا "أم الهنا" ماتت. التى هناك واحدة أخرى ليست هى "تفيدة" بنتى.

قالت وهى تشير بيديها :

ـ حرام عليك. بنتى حية، وستعيش سعيدة، لتنجب أولاداً، وسترى أولاد أولادها. سترى فى غد كيف سيصبح "الحاج سلطان" عبداً خاضعاً لها ولجمالها.

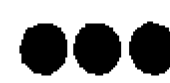
من فيهن مثلها؟

قال فى ضيق وضجر :

ـ افعلى ما تشائين يا "أم الهنا"، أنا خلصت ذمتى. أمرى إلى الله. إذا صادفك مالا يرضيك، فقولى "أبو عوف" قال لى هذا.

قالت فى عناد :

ـ إذن سأفعل الواجب، ولن يحدث إلا كل خير.



وأخذت "أم الهنا" تعد العدة، لتذهب لابنتها بكل ما تملكه، يوم سبوعها.

وكان يوماً شاقاً عليها وعلى "مفيدة" فقد أخذتا تعملان فى تهيئة أصناف جميلة لم تذقها الأسرة إلا مصادفة، فلما انتهتا إلى ما أرضاهما، وضعتا كل شىء فى مكانه فى

صينية واسعة، كانت لإحدى معارفها، وحملت "مفيدة" الصينية فوق رأسها وسارت بسبوع أختها خلف والدتها.

وكان الوقت عصراً، وكان الفلاحون قادمين من حقولهم، يجرون دوابهم.

وكان منظر الصينية الكبيرة، وما عليها من أوان ملفتاً للأنظار، فأخذت النساء يتطلعن فى فضول وكم ارتفعت من بعضهن صيحات العجب :

"أم الهنا"..وبنتها الكبيرة "مفيدة". وصينية عليها ألوان مختلفة الأشكال.

لا بد أنها ذاهبة لبنتها...العروس.

وكم من صيحة من هذه الصيحات وصلت إلى أذنيها. ولكن "أم الهنا" لم تكن تعبأ بهذه الصيحات بل ربما أحست أنهن يغرن منها. أليست حماة "الحاج سلطان"؟ أليست فى طريقها إلى بيت العريس؟

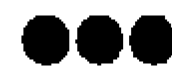
وأرادت بعض النسوة من أهل القرية، من صديقاتها فى الفاقة والفقر والحرمان، أن يجاملنها، فأطلقن بعض الزغاريد، تحية لسبوع العروس.

وأقبل بعضهن عليها يباركن لها، فكانت ترد متمنية لهن أفراحاً دائمة بإذن الله.

وأخريات أخذن يضفن إلى عبارات التهانى، عبارات التمنى بأن تجد "مفيدة" ابن الحلال الذى يسعد ايامها.

وكانت "مفيدة" وهى تسمع ذلك، تهتز على رأسها صينية السبوع حياء وخجلا.

ووصلت "أم الهنا" إلى بيت "الحاج سلطان" قبيل المغرب وكانت الأنباء قد سبقتها إلى أهل الدار، أنها قادمة بصينية السبوع.



وعندما خطت قدماها الخطوة الأولى داخل بيت "الحاج سلطان" فوجئت بوجه كوجه الشيطان، قد جحظت عيناه، وأطل منهما شرر مخيف، وانتفخ منخاراه فى غضب، وفى يده بندقية تحمل نذر الموت.

شيخ الخفر "أبو سريع" كان هناك ينتظرها. بلغه أنها قادمة، وأنها تريد أن تكون حماة ككل حماة، لحماه هو "الحاج سلطان"، فذهب على الفور يقف لها عند عتبة الباب.

وأحست أن شواظاً من نار يواجهها، فتوقفت لتتبين إتجاه النار.

ومضت لحظات...لا عيناه تتحركان، ولاعيناها بقادرتين على أن تواجهه.

ولكن هذه اللحظات الصامته كانت أشد هولا عليها من حريق يدمر كيانها.

وتسمرت "مفيدة" وراءها، تنتظر ماذا يسفر عنه هذا الصمت المحرق المخيف ونطق "أبو سريع".

- أين؟ إلى أين؟...يا امرأة !

وأرادت أن تلقى بعض الماء على النار، فتصنعت ابتسامة، وهى تقول.

- العوافى يا سيدى.

ولم يرد على التحية. مضى يقول :

- إلى أين يا امرأة؟!

- العقبى لأولادك يا شيخ الخفر.

وانتفض الرجل، وهو يكاد يدك الأرض دكاً ببندقيته...وصاح فيها صيحة هائلة :

- أولادى !...إياك أن ترددى اسم أولادى على لسانك يا امرأة !..

وشعرت بخوف هائل، من منظره، ومن سحنته، ومن حركته، ومن صيحته، وتمنت لو أن الأرض انشقت لتبتلعها. بل لقد تمنت لو أنها سمعت نصيحة "أبو عوف" زوجها.

وعاد "أبو سريع" يقول :

- ذاهبة للعروس؟! ألست ذاهبة للعروس؟ يا أم العروس !!

ولم ترد..ماذا تقول؟ الأمر واضح. هى فعلا قادمة للعروس...وهى فعلا أم العروس.

ولكنها أرادت أن تكسر حدة الموقف فقالت :

- أجبر بخاطرها وانصرف.

قال لها فى احتقار وازدراء :

- تجبرين بخاطرها؟! ألم يكفها الكنز الذى انفتح لها؟!

قالت فى استعطاف :

- أنا أمها...أيضاً أنا أمها يا سيدى.

- شرفت يا أمها. يا "أم الهنا"!!

ونظر إليها طويلا، وإلى الفتاة التى وراءها وعلى رأسها صينية تحوى أوانى مختلفة الأحجام ثم قال وهو يضحك ضحكاً طويلا متصلا :

وهذا هوالسبوع ! سبوع العروس يا "أم الهنا" !

وعاد يضحك طويلا...فى سخرية عصفت بكل آمالها وأمانيها.

قالت فى حياء وتردد :

- ربنا يطيل عمرك يا سبع بلدنا...لكى تفرح البنت. هذه أشياء بسيطة ولكنها كل ما نقدر عليه.

قال فى صوت أقرب إلى الصياح، وهو يمد كفه إلى وجهها، كمن يوشك أن يلطم بها خدها :

- يا امرأة...ألا تستحيين؟ ألا تخجلين من نفسك؟ تفضحيننا بهذا المنظر البشع ! الصينية على رأس ابنتك، أخت زوجة "الحاج سلطان" وأنت أمامها حافية، فى هذه الملابس المهلهلة؟

قالت فى سذاجة :

- والنبى هذا جلبابى الجديد...اشتراه لى "أبو عوف" منذ شهرين اثنين.

وصاح صيحة فصلت قلبها عن صدرها :

ـ اسكتى. اقفلى فمك. لا تتكلمى. كفى. كفاك أن الله انتشل ابنتك من الفقر والحرمان. احمدى الله على نعمته، ودعيها مستورة..تريدين أن تفضحيها وتفضحينا معها. صحيح الأصل الخسيس، خسيس؟!

قالت فى اعتذار وقد بدأت تشعر بغرابة موقفها :

ـ سامحنى...سامحنى يا سيدى. أنا مخطئة. سامحنى.

وتلفتت وراءها، فوجدت دموع ابنتها "مفيدة"، قد أخذت تسيل على خديها، والصينية فوق رأسها تهتز فى عصبية.

وأخذت تفكر فى موقفها هذا الغريب.

إنها على بعد خطوات من ابنتها العروس. إن أنفاسها تكاد تلامس وجهها وهى فى مكانها على عتبة دارها. تنهداتها تكاد تصل إلى أذنيها. أفلا تدخل لتلقى عليها نظرة ثم تعود ! إنها لم تراها منذ أسبوع. لم تر وجهها الصبوح الحلو. لم تسمع كلماتها المرحة الباسمة.

ألا يزال وجهها صبوحاً حلواً كما خلقه الله. ألا تزال كلماتها مرحة باسمة كما اعتادت أن تراها؟

أكثير عليك يا "أم الهنا" أن ترى ابنتك، وقد رآها قلبك، وهى جنين فى أحشائك؟ تلقين عليها نظرة..نظرة واحدة ثم تعودين؟

ولكنها أمام الوحش الكاسر الذى يسخر بكل هذه المعانى، ويدوسها بقدميه.

بل هلا سمعته يا "أم الهنا"؟ إنه يراك بقعة سوداء، فى ثوب أسرته النظيف؟

إنه لا يريدك أن تفضحى ابنتك، أو تفضحى زوجها السيد الكبير..بل لا يريدك أن تريها. تلقى عليها النظرة السريعة التى تطمعين فيها.

وهذه ابنتك "مفيدة"، ألا ترين أنها مكسورة الجناح؟ لقد أمطرت الأرض بدموعها، وقد جاءت المسكينة بدورها، وفى قلبها شوق لرؤية أختها، ومبادلتها الضحك والسمر والمزاح كما اعتادتا أن تفعلا منذ ولدتا؟ لطالما قالت لها وهما تعدان هذا الطعام إن "تفيدة" يا أمى تحب هذا الصنف، ولا تحب ذاك. أنا أريد أن أطعمها إياه بيدى.

ألا ترينها، وقد تحطمت كل آمال يومها يا "أم الهنا".

أمرى وأمرها إلى الله...لنعد من حيث أتينا، بما نحمل من شوق، وما نحمل من طواجن وآنية، وما نحمل من هم.

"تفيدة" لم تعد منا. أخذوها. أخفوها. خطفوها. والله وحده يعلم حالها.

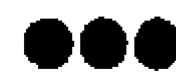
مسكينة يا بنتى. ألم يقل أبوك إنها ماتت..."تفيدة" ماتت.

وما الموت يا "تفيدة"؟

ليتك مت يا "تفيدة" يا بنتى، إذن لأمكننى أن أزور قبرك، وأبكى عند القبر ما سمحت به مجارى دمعى. إذن لخففت شوقى إليك بالبكاء، وأطفأت لهفتى عليك بالدموع.

أما اليوم، وأنت حية. زوجة ... وزوجة من؟ "الحاج سلطان" !

أنا عاجزة حتى عن أن أبكى عليك، فى مقابر "الذكيرى".



وبدأت تتصرف...أدارت ظهرها لتخطو عتبة هذا الباب وتعود، وخلفها ابنتها "مفيدة" تجران أذيال الخيبة والألم، والندم.

وبينما هى تدير ظهرها لتعود، إذا صوت منفر قادم من بعيد يصيح صيحات مجنونة:

ـ انتظرى...يا امرأة ! ...يا قليلة الحياء يا فاجرة...انتظرى.

وتلفتت وراءها، لترى "الست نبوية"، تسبقها ركبتاها، وقد انتفخت عروق رقبتها فى نذير رهيب :

ولم تترك لها "الست نبوية" فرصة لكلام، ومضت فى صوتها الرفيع كالعواء تقول فى لهجة مجنونة.

ـ أنت "يا أم البلاوى" يا سبب المصائب، جئت بقدميك، أخذت الرجل، وضحكت عليه ولعبت بعقله، وقدمت له ابنتك الحقيرة الدنيئة لتعبث بشيخوخته. أنت يا فاجرة...ألا تخافين الله؟ لكن من أين يعرف أمثالك الله يا رعاع البلد يا ديدان الأرض. آويناكم فى نعمتنا، فتنكرتم للنعمة وخطفتم الرجل ماذا تريدون منه. نقوده؟ ثروته؟ جاهه؟ والله لن تصيبوا من ذلك شيئاً. الكلاب. يستمرون طول حياتهم كلاباً، مكانهم عند أقدام السادة..وماذا تظنين بنتك هذه؟ هذا البياض الكالح فى وجهها ! هذا الشعر الباهت فوق رأسها !...أهذا جمال هذا؟ هذا قبح لا يطيقه رجل، لولا أنه عجوز، وأنتم ضحكتم على عقله. والله لأسودن عيشتك ! هذا ذقنى لإن لم أجعل عيشتك سوداء !

وتاهت "أم الهنا" فى هواجسها...

لم تدر ماذا تقول؟ كيف ترد؟

وأخذت ألفاظ "الست نبوية" تتردد فى سمعها :

ـ نحن خطفناه؟ أنا فاجرة ! أنا قدمتها له ! ضحكنا على عقله. تجعل عيشتنا سوداء! يارب...مالنا نحن وهؤلاء الناس. إنهم ...إنهم قادرون على الأذى، ولسنا نستطيع أن نواجه سلطانهم أو قدرتهم على خراب البيوت. يا رب... عشنا فى ستر، فهل تريد أن تفضحنا؟ وماذا جنينا؟ أنجبنا "تفيدة" إنها عطيتك أنت، وأنت وحدك الذى تملك مصائر خلقك. يا رب...احمنا من هذا الذل، وهذا العار..يا رب..أنقذنى من هذا الموقف الرهيب.

على أن الموقف لم ينته.

كانت صيحات "الست نبوية" مجنونة، تخرج كما هى عادتها، من ركبتها.

وكان صوتها عالياً متكبراً وهى تقول :

- تعرفين من أنا؟ أنا بنت العمدة، وأخت العمدة...أنا "ستك نبوية" يا حافية، يا جائعة، يا فاجرة. لم يربك أحد، وأنا التى ستربيك، وتعرفك مكانتك وحقيقتك..أنت وبنتك العروس، وزوجك المغفل الذى تركك تلعبين لعبتك، والأيام بينى وبينك يا أم العفاريت، يا أم المصائب، يا أم النوائب يا أم العروس !

كان صوتها هذا العالى، كدقات الجرس، أقبلت على رناته ذات الصدأ ابنتها "ست الناس".

مسخ كأمها...صورة طبق الأصل، من هذه الزرافة، فى حديقة الحيوان.

نفس الوجه النكر، والأنف الأفطس، والشعر الأشعث، والفم القبيح، والرقبة المعروفة والركبتين المدببتين.

نفس اللوح من خشب، المستقيم، كتلك الألواح التى يقيمونها فى سرادقات العزاء.

نفس الطريقة التى تتحدث بها أمها، يخرج الكلام من عروق رقبة طويلة منفرة..

نفس الضحكات، تتصاعد كالشهقات من ركبتها، مدببة كأطراف الإبر.

نفس المنظر الجامد، كأنها لوح من شجرة سنط مصموغ.

وقد ورثت من أمها- مع ما ورثته من هذا القبح - الكبرياء - والتعالى على عباد الله.

فهى دائماً تردد أصلها وحسبها ونسبها. جدها عمدة، وخالها عمدة، وابن خالها سيصبح عمدة، وهم أسياد البلد بلا جدال. ولهم عصبية تهز الجبال.

بل هى تفوق أمها فى أن زوجها هو "أبو سريع" وهذا يكفيها، لتلقى فى النفوس الرعب، وتبذر فى القلوب بذور الخوف.

وهى ابنة "الحاج سلطان" والناس جميعاً يعرفون من هو "الحاج سلطان".

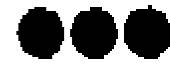
ولقد أقبلت على صيحات أمها، فلم تحاول أن تسأل عن سبب لهذا الصياح، فقد كان وجود "أم الهنا" ومعها "مفيدة" وعلى رأسها صينية السبوع، كافياً لأن تعرف سبب هذا الصياح.

ودخلت على الفور المعركة بالسباب والشتائم والإهانات، أخذت تقذفها فى غير وعى، وترميها فى غير اكتراث :

وأيضاً تجيئين هنا يا أم النحس؟ ما أجرأك!! من أنت حتى تدخلى هنا. هنا بيت ناس...ليس خصاً...ليس زريبة بهائم...ليس تكية من التكايا، ولا ملجأ للقاذورات، تجيئين بقدميك. وتجرئين. تعالى...تعالى أولا لتعرفى كيف يكون الأدب، تعالى لى أنا. أنا التى سأربيك، لا "ستك نبوية" فأنا لا أريد أن تتجس يديها. تعالى.

وهمت بأن تتقدم نحوها، لتنفذ هذا الوعيد، لولا أن تدخل "أبو سريع" ليحول بينهما وبين ذلك، وهو يقول :

اتركيها...هل أنت مثلها حتى تمدى إليها يديك؟ اتركيها لى أنا، وسأعرف كيف أربيها لك.



ولم ينته الموقف عند هذا.

أقبلت "درة زمانها" بنت "الحاج سلطان" من "الحاجة زهرة" وزوجة "عباس".

أقبلت بدورها لتدلى بدلوها فى البئر.

أقبلت لتضيف إلى المعركة وقوداً جديداً...

وأخذت تقول فى برود :

ـ "أم الهنا" ما شاء الله! أنت جئت يا ست؟ فهمت أنك أصبحت ممن يدخلون هنا بلا إذن أو استئذان.طبعاً...الست حماة"الحاج سلطان".

طبعاً. من البيت، من العائلة. يا ناس استحوا، وضعوا فى أعينكم فص ملح.

صحيح المثل : الذين اختشوا ماتوا.

وتحضرين سبوع العروس؟ ! ما هذا السبوع؟!...أريد أن أراه...تعالى هنا.لأرى من أين سرقته؟ من أين خطفته كما خطفت أبى؟ تعالى أرى ماذا أعددت لابنتك فى سبوعها...أنتم أيضاً تسمعون عن السبوع. ما شاء الله، ما شاء الله !

وذهبت إلى "مفيدة" المسكينة، التى ترتعد، وأخذت تقول لها :

تعالى يا عروسة. يا ترى أنت أيضاً ستخطفين من؟! تعالى يا شاطرة لأرى ماذا تحملين؟

واقتربت منها فى ازدراء، وشدتها من جلبابها الأسود الذى أخذته عن أمها، فزاد اضطرابها.

ولم تدر "أم الهنا" ماذا تفعل !

هل هى قادرة على حماية ابنتها "مفيدة"؟

وهل استطاعت أن تحمى الأخرى، "تفيدة"؟

ولكنها مع هذا اقتربت من ابنتها، تحاول أن تزيل عنها بعضاً من مخاوفها.

وقالت "درة زمانها" :

أنزلى الصينية من فوق رأس العروس يا "أم الهنا". ألا نرى هديتك؟

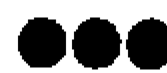
أرينا...أرينا.

وضحكت ملء شدقيها...

وحاول "أبو سريع" أن يحول بين "درة زمانها" والفتاة، ولكن "عباس" زوج "درة زمانها" كان قد حضر فقال :

اتركها يا "أبو سريع". اتركها لترينا ماذا أعدت للعروس.

واقترب من صهره، وهمس فى أذنه همسات، ضحك لها الاثنان، وهزا رأسيهما وتركا "درة زمانها" تتصرف مع "أم الهنا" و"تفيدة".



ولم تستطع "أم الهنا" أن ترفض رغبة الست "درة زمانها"، فأنزلت الصينية من فوق رأس ابنتها، ووضعتها على الأرض فى فناء الدار.

وتجمع من فى البيت حول الصينية.

"الست السيدة" بنت العمدة، وزوجة "غضبان" ابن "الحاج سلطان" من زوجته "الست نبوية"، وشيخ البلد، وهو الذى ينوب عن العمدة إذا غاب.

سيدة صغيرة سمراء، فى سمرتها حلاوة وجاذبية، وفيها سمنة وبدانة، تأسر لب زوجها شيخ البلد "غضبان".

ولكنها متعالية متعجرفة، لا تنسى فى أية خطوة من خطواتها، أو أية حركة من حركاتها، أوأية كلمة من كلماتها، أنها ابنة العمدة، وأنها تمثل أكبر رأس فى القرية. لذلك تخطو بحساب، وتتحرك بحساب، وتتكلم بحساب يفسد عليها جاذبيتها...وإن كانت تضحك من غير حساب، يزيد إفساد هذه الجاذبية السمراء.

"والست نعمت" بنت" الحاج غضبان"، وزوجة "سيد" الابن الثانى "للحاج سلطان" من "الست نبوية".

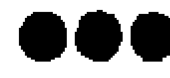
سيدة صغيرة، فى لون مياه النيل، رفيعة القد هيفاء، على عكس أبيها، فى عينيها عمق غائر، وقد زادها الكحل عمقاً وإغراء. فى صوتها رنين، كرنين الذهب الذى يملأ خزائن "الحاج غضبان".

وإنها لتنضم إلى الأخريات، ولكن فى فتور، ولا يبدو عليها أنها كارهة "لأم الهنا"، بنفس المقدار الذى يظهر على حماتها "الست نبوية" أو ابنة عمها "ست الناس".

و"الست عطية الله" بنت "الشيخ سيد"، وزوجة "ممتاز" ابن "الحاج سلطان" من "الست نبوية" أيضاً.

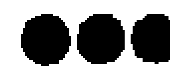
متحفظة فى حركاتها، محتشمة...خجول، وإن تكن تخفى من الفضول الشىء الكثير. يبدو عليها الاعتزاز بعلم أبيها الواسع، وفقهه، ومكانته فى المحاكم الشرعية.

ومع هؤلاء تقبل "الحاجة زهرة" الزوجة الأولى "للحاج سلطان" أو نبيذه المعتق، كما يسميها، صاحبة الجرن الذى يدر ذهباً على "الحاج سلطان" وتتعالى به "الحاجة زهرة" على كل ضرائرها، وتمن به عليهن، لأنه فى نظرها الخير والبركة والنعيم الذى يفيض على الأسرة كلها.



يجتمع هؤلاء حول "أم الهنا"، والصينية التى تحمل أعز ما تملكه الأسرة من طعام، أرادت أن تقدمه طائعة فرحة للابنة التى اختفت عن عيونها أسبوعياً، لا تعلم كيف انقضى عليها، ولا تكاد تعرف من أمرها خلاله إلا ما تتناقلة الألسن فى مبالغات، أو تحوير.

وتبدأ "درة زمانها" تنزع عن الأوانى أغطيتها وهى تعلق على كل إناء وما يحويه تعليقات لاذعه أليمة ساخرة، تطعن قلب المسكينة، "أم الهنا" وابنتها طعنات قاتلات.



الله الله...زوج من الأوز محمر. لا والله شىء هائل، ولذيذ. كيف حصلتم عليه ... بكم هذا الزوج يا حماة أبى؟

وتضج بالضحك الطويل، ومعها زوجات إخوتها، و"أبو سريع"، و"عباس".

وتظل "الست نبوية" وابنتها "ست الناس" كاتمتين الغيظ، وإن راق لهما هذا التشهير.

وتمضى "درة زمانها" :

أم إنك سرقته من خص قريب؟ يا "أبو سريع" إذا جاءك أحد يشكو ضياع زوج من الأوز، فأعده إليه، مطبوخاً ومحمراً...ولذيذاً جداً.

وتستمر السيدات بين الضحك، والصمت الشامت.

ولا تسكت "درة زمانها" ...

تكشف غطاء آخر، لترى إناء يحوى أرزاً محشواً بالحمام.

وتكاد تستلقى على قفاها من الضحك :

حمام...أم إنه يمام..يا روحى يا أبى...ربما كان هذا أغرية...

هل أنت الآخر أخرس يريدون أن يحلوا عقدة لسانك.

ويرتفع الضحك. و "عباس" فخور بزوجته ذات اللسان اللاذع.

ويزداد وجوم "الست نبوية" و"ست الناس".

وتكشف "درة زمانها" غطاء آخر...ثم تصيح :

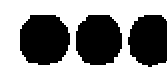
فطيرة يا بنات...ألا ترين؟ فطير! يا ترى بالسكر أم بالملح؟...

ينقصه شىء. الفم الجميل الذى يستحقه...ولكن واحسرتاه. أين هو هذا الفم...العروس؟ فمها ليس معتاداً على الفطير. إنها تفضل الجبن المملح القديم.

والضحك العالى يملأ فناء الدار.

ولاذعة اللسان "درة زمانها" تتدارك الأمر فتقول وهى تشهق :

لا...لا يا ستات. إنها لم تنس ابنتها..تعد لها الجبن الذى تربت عليه..هذا هو...أما الفطير فلأبى العريس.



وعلى صوت الضحك العالى الماجن، يقبل رجال الأسرة من أبناء "الحاج سلطان" شيخ البلد "غضبان"، و"سيد" و"ممتاز"، فيسألون عما حدث، وعن هذه الضجة، التى سمعوها وهم من الدار غير قريب.

ووجدوا "أم الهنا"، و"مفيدة"، والصينية، والنساء.

قالت "درة زمانها" :

انظروا..هذا عشاؤكم يا رجال. سبوع العروس، ستملأون بطونكم بأصناف لذيذة، وتدعون "لأم الهنا" التى أطعمتكم ما لم تذوقوه فى حياتكم.

ويصيح شيخ البلد :

ما هذا العبث؟...إن أصواتكن ملأت الطريق كله، ماذا يقول الناس؟..وأنت يا امرأة. اخرجى. عودى إلى الخص...والله يفتح عليك. كفانا ماجرى.

وترد أخته الكبرى "درة زمانها" :

ماذا جرى يا شيخ البلد. صل على النبى. هذه فرصة العمر...اتركنا نضحك. لقد مضى علينا وقت طويل لم نضحك فيه من قلوبنا.

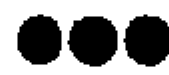
ويقول شيخ البلد :

تضحكين؟..هل هذا وقته؟

وتجيب :

نعم وقته. ماذا حدث؟ أبى تزوج. ربنا يهنيه. بالعكس إن هذا هو وقت الضحك الحقيقى...دعنا والله ولا تقم من نفسك شيخاً للبلد هنا...أنت شيخ البلد، لا شيخ البيت.

وينزوى "غضبان" شيخ البلد فى ركن من فناء الدار، وهو يهز رأسه، ويكتم ضحكاته فى شدقيه !



وتظهر فى آخر الفناء فتاة صغيرة بديعة، فيها جمال صارخ وأنوثة طرية.

ولكنها ما إن ترى هذا الجمع حول "أم الهنا" وابنتها والصينية، حتى تعود مسرعة إلى داخل الدار.

وما هى إلا لحظات، حتى تظهر "الست قمر" وخلفها ولداها : "ناجى" و "مختار" ابنا "الحاج سلطان"، و "وردة" آخر العنقود من أسرته.

وتقف فى آخر الفناء، وأركان حربها من أولادها يحيطون بها، وقد أخذت تتطلع إلى هذه المجموعة من أفراد الأسرة.

وتبدو فى جمالها فاتنة، تتسمع ما يدور فى سخرية. على أنها لا تتدخل أول الأمر وتكتفى بوقفة متدللة مغرية، وذراعاها العاريتان فى بياض اللبن الحليب، وشعرها العارى يتوج وجهاً فاتناً رائعاً.

وتلاحظ من مكانها ما يدور عند عتبة الدار.

"أم الهنا" مطأطئة رأسها فى ذلة. "مفيدة" تمسح دموعاً لا تنقطع عن المسيل. صينية السبوع وقد كشف سترها، فأصبحت سخرية الجمع.

وترى " درة زمانها" تلقى ملاحظات لاذعة فترتفع الضحكات الساخرة، ثم تبدأ تنادى كلاب الدار والقطط الضالة فى فناء الدار. ثم تأخذ فى إلقاء الطعام للكلاب والقطط، والجمع يضحك، و"أم الهنا" و "مفيدة" فى حالة من الذل تحطم القلب.

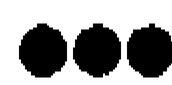
على أنها لا تتوقف عن التعليقات اللاذعة، وهى تلقى بالطعام إلى الكلاب والقطط.

وتسمعها "الست قمر" تقول :

- خذ...كل هذا...تمتع بهذه القطعة من اللحم المشوى.

- وأنت هل يكفيك نصف أوزة...لا...لا، كفى هذا.

- تعالى يا قطة الهنا، خذى من صنع يدى "أم الهنا".



ولم تستطع "أم الهنا" أن تصبر على هذه التصرفات.

لقد هدتها تهكماتهم وسخرياتهم.

ومدت يدها إلى "مفيدة"، فتعلقت المسكينة بيد أمها، وبدأت تنسحب من المكان بلا كلمة واحدة تقولها.

ولكن "درة زمانها" ذهبت فى النكاية بهما إلى أبعد حدود الوحشية الوقحة، فأمسكت بذراع "أم الهنا" وهى تقول :

- إلى أين؟ وماذا سيأكل "أبو عوف"؟ حرام.. سنجمع العظام لكم حتى لا تبيتوا هذه الليلة جياعاً !..

هنا نطقت "أم الهنا". قالت :

- حرام عليك يا ستى. اتركينى أعود من حيث أتيت.. أنا أخطأت، وقد لقيت جزائى.

وردت "درة زمانها" :

- والنبى أبداً. لابد من أن يجمع لك الخدم العظام، وهل نرضى لكم أن تناموا ببطون خالية؟

وأجابت "أم الهنا" :

- ربنا يستر عرضك. اتركينى يا ستى.اتركينى.

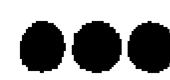
قالت :

- "أبو سريع"... كيف نتركها.. هل ترضى؟

وتدخل "أبو سريع"، وتقدم نحوها وفى يده بندقيته، وقد أخذ يتبادل مع صهره "عباس" ضحكة مكتومة، وقال :

- انتظرى يا امرأة. انتظرى حتى تأخذى معك عشاءك.

وأخذت "أم الهنا" و "مفيدة" تبكيان فى صمت، وقد تساندتا فى استسلام المغلوب.



وفجأة تقدمت "الست قمر"، تشق طريقها إلى "أم الهنا" بذراعيها، وقد تجهم وجهها تجهماً مخيفاً، وظهرت أمارات الشر فى عينيها الكحيلتين.

ولما وصلت إليها، أخذتها بين ذراعيها، وأخذت تربت عليها، وعلى ابنتها.

ونظرت إلى "أبو سريع" وهى تقول :

- كنت أظن أنك رجل...وأن فيك شهامة...ولكنك ظهرت لى ذيلا لامرأتك.

وحاول أن يتكلم فصاحت فيه :

- شيخ خفر أنت، أم شيخ عصابة. يا رجل يا كالح يا قليل الأدب.

وهب يدفع عن نفسه هذا الاتهام، فتركت "أم الهنا" وتقدمت نحوه، وأطالت النظر فى عينيه دون كلام، ثم ضحكت ضحكة من ضحكاتها المعروفة، وهى تقول :

- صلاة النبى على شيخ الخفر ! امرأة مسكينة كهذه..فى بيتكم يا أعيان..يا أسياد...تهينونها هذه الإهانات ! ما ذنبها؟ ما جنايتها؟ وأنت واقف تشاركهن ! انظر إلى...انظر وأطل النظرات...كلنى بعينيك...أخفتنى يا "سبع الليل".

وكان ولداها وبنتها قد أحاطوا بها، وأصبحت "الست قمر" تتوسط هذا الجمع ومعها أولادها، تدافع عن "أم الهنا"، على غير ما كانوا جميعاً يتوقعون.

قالت لها "درة زمانها" :

- ومالك أنت بها؟ ألم تتزوج ابنتها زوجك أنت الأخرى؟

وصاحت فيها صيحة مدوية :

- اسكتى يا بنت. وما ذنبها؟ وما ذنب "تفيدة"؟ بنت فقيرة فى خص على شمال الدنيا..أهى التى اغتصبت أباك...زوجى العزيز "الحاج سلطان" أم هو الذى جن بها، واختطفها إلى منزله.إلى هذا السجن الذى تحيا فيه.

لقد أتعسها الله يتعسه.

وهبت "الست نبوية" فى صيحاتها التى تخرج من ركبتها :

- وأنت المحامى عنها.

قالت فى حدة :

- نعم أنا المحامى عنها، طالما أنكم جميعاً مجردون من الإنسانية. طالما أنكم جميعاً مجردون من الإحساس...

وأخذت "الست نبوية" تشهق شهقات محمومة، وهى ترفع عقيرتها قائلة :

- والله لأجعلن حياة "تفيدة" وعائلتها سوداء. والله لأحيل حياتهم إلى جهنم...والله...

وقاطعتها "الست قمر" فى تحد :

- الغيرة نار يا أختى...ولكن هذه النار لن تحرق أحداً غيرك. ما لها "تفيدة"؟ من فيكن جميعاً مثلها جمالا وخفة؟ إنها ستقتلكن جميعاً بجمالها الساحر. اذهبى وابحثى لك عن قبر وادفنى نفسك فيه، حتى تدارى هذا الوجه البغيض. أما أن تداريه بهذه التصرفات والإهانات، فهذه وسيلة المغلوب. اذهبى إلى زوجك واسأليه لماذا تزوجها بل لماذا تزوجنى أنا قبل أن يتزوجها. ألانه وجد الجمال فى عينيك؟ فى عنقك هذا الكريه المعروق؟ فى ركبتيك يا زرافة آدم.

اخجلى من نفسك واسكتى...ثم ماذا تريدين يا عجوز؟ ...ابنتك هذه انظرى إليها. امرأة كادت بدورها تصبح عجوزاً مثلك. إلا يزال فى قلبك مكان للغيرة؟ لو كنت مكانك، لعكفت على الصلاة والصوم، فى انتظار الأجل المحتوم. استحى...واعملى لآخرتك.

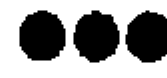
ولم تستطع "الست نبوية" أن تواجه هذه العبارات المتلاحقة، من "الست قمر" لم تقو على مواجهة كلماتها، فأخذت تبكى بكاء كئيباً، تشحذ به همة الجمع من حولها.

ولم يستطع "أبو سريع" أن يرى منظر حماته هذا الكئيب، دون أن تتحرك فيه نخوة الدفاع عنها، فقال يرد على "الست قمر" :

- عيب "يا ست قمر". هل فاتحك أحد فى شىء؟ هل كلمك أحد عن شىء؟ مالك أنت، وامرأة من رعاع البلد كهذه؟ هل هذه مسألة تهمك؟ وأجابت فى تلميح يعرفه هو، وفى صوتها تهكم لعوب :

ـ يا شيخ الخفر. اسكت أنت يا شيخ الخفر خير لك. أنت عارف، وأنا عارفه. آه لو أن لك فيها شيئاً. عندئذ كان الحرام يصبح حلالا، والحلال يصبح حراماً. آه منك...اسكت أحسن لك، وإلا فأنت تعرف...أم أنك لاتعرف؟

وأحست "أم الهنا" أن هذا الدفاع عنها وعن بنتها قد يزيد اضطهاد هذه الأسرة لها، وكاد قلبها ينخلع، وهى تسمع هذا الدفاع. بل إنها بقدر ما كانت خائفة على مصيرها، فقد كانت مع ذلك معجبة بشجاعة "الست قمر" وكانت تعجب كيف واتتها هذه الشجاعة، وهى غريبة عن البلد كلها.



وبدأت كل واحدة من الواقفات وكل واحد من الواقفين، يتبادل مع "الست قمر" عبارة، أو حديثاً، ويدخل معها فى مناقشة هادئة حيناً، وحامية فى أغلب الأحيان.

ولم تسكت "الست قمر" على شىء، ولم تترك كلمة ولا جملة ولا حديثاً، إلا ردته على نحو قائله..وكانت أحاديثها كشفاً صريحاً لكل منهم، وضح ما كانوا يخفونه عن أنفسهم وعن الناس، فهتكت سترهم جميعاً فى غير استحياء.

حتى الذين لم يكونوا بين الجمع تناولتهم واحداً بعد واحد، فى صراحة حادة غير مترددة، فأعلنت بذلك رأيها فى غير مواربة...

حتى زوجها "الحاج سلطان" لم ينج من لسانها.

قالت عنه ترد على "ست الناس" :

ـ أبوك "الحاج سلطان" صلى الله عليه وسلم ! تقولون اسمه كأنه نبى من الأنبياء.

أنا أعرفه، وأدرك كيف يفكر وكيف يسلك فى سبيل غاياته مختلف الطرق.

اسألونى أنا عنه. إنه رجل لا يتورع عن شىء، طالما أنه فى مصلحته. حاج هو..شيئاً لله يا حاج !!

ألم يكن متزوجاً "الحاجة زهرة"، و "الست نبوية" أيام أن كان يتردد علينا فى كفر الزيات؟ ألم يكن صديقاً لزوجى السابق "عبد المقصود أفندى"؟

لقد تعرف به فى البنك، فلما توطدت بينهما الصداقة، أخذ يدعوه على منزله.

فلما رآنى وليته ما رآنى فقد عقله. كيف يحظى "عبد المقصود أفندى" بما لا يحظى به هو. هل يقبل؟ أبداً . أنا أعرفه. أسألونى عنه.

لقد حاول بشتى الطرق إيقاعى فى حبائله. كان يريدنى. كان يستكثر أن يجد أمامه طعاماً ولا يكون هذا الطعام له وحده. كان يستكثر أن تكون لدى سواه نعمة ليست لديه.

هل أحكى لكم كيف كان يتصرف معى؟ هل أكشف لكم ستره؟ هل أروى لكم قصة الحاج التقى الورع، الذى يذهب إلى الجامع ليصلى مع الناس، وهى يخفى بين جوانحه آثاماً وخطايا؟ أنا أعرفه. اسألونى أنا عنه !

لقد كان يتعمد أن يحضر على المنزل بالنهار، و"عبد المقصود افندى" فى البنك.

وكم حاول أن يغرينى، وأن يجرنى إلى التسليم له.

ووسائله التى استعملها ...أنا لا أزال أذكرها . يشترى لى هدية، يقدم لى خاتماً من ذهب. يحضر لى مأكولات من البلد . كل الوسائل. كل الطرق استعملها ولم تجده شيئاً ..فلما طلقت من "عبد المقصود أفندى" وأتممت العدة، جرى ورائى كالمجنون. ولو أنى سلمت له نفسى من قبل لأنكرنى، ولما فكر فى الزواج منى.

وقد تزوجته مخدوعة فى كلامه وغزله وهيامه...ماذا وجدته بعد ذلك؟ رجلا لا يعرف إلا نفسه. لا يعرف إلا مصلحته. لا يهمه إلا شهواته الخاصة. كل شىء يهون عنده، أمام مصالحه وشهواته. أنا أعرفه. أسألونى أنا عنه.

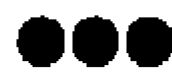
اليوم تدافعون عنه، وتعتبرونه ضحية ! ضحية من؟ ضحية "أبو عوف" المسكين، الحافى، الذى قضى حياته كلها تحت جذوع الشجر، محنى الرأس، مقوس الظهر، يكسب حياته بعرقه؟ ضحية من؟ "أم الهنا" هذه البلهاء، التى لا تعرف من أمر دنياها

أكثر من حدود الخص والحديقة والساقية، تساعد زوجها لتوفر له ولنفسها ولبنتيها مجرد الخبز الجاف؟ ضحية من؟ قولوا ضحية من؟ ضحية "تفيدة" البنت الصغيرة الساذجة التى لم تشب عن الطوق إلا أمس؟ الطفلة التى لا تزال تحتاج إلى حجر أمها، لتستريح فيه، وتريح عليه أنفاسها! وماذا تستطيع "تفيدة" أن تفعله حتى يصبح الرجل الأرقم العجوز، الأنانى، ضحية لها؟ إنه ضحية شهواته. ضحية أنانيته. ضحية استكثاره لما فى أيدى الآخرين عما يجب أن يكون فى قبضته. ضحية ريقه يسيل نهماً فيما يملكه الآخرون. ضحية طمعه. ضحية جشعه. أما الضحية الحقيقية فهى "تفيدة".

هى هذه المرأة التى تجمعتم حولها كالذئاب، تنهشون لحمها : "أم الهنا"؟

هى هذه البنت الطيبة التى جاءت ترى أختها، فأخذتكم تكيلون لها الإهانات :

"مفيدة"؟ الضحية هو "أبو عوف" الفقير، الذى تملكون أن تطردوه فلا يجد قوت يومه! هؤلاء هم الضحايا، لا "الحاج سلطان" الذى افترس البنت، ليجدد شبابه من شبابها.



وعندما أرادت "الست نبوية" أن تهددها بالعمدة، صاحت فيها قائلة :

- تخيفوننى بالعمدة. سبحانه وتعالى ! شيئاً لله يا عمدة ! أخيفوا به الآخرين ممن لا يعرفونه، أما أنا فإنى أعرفه. اسألونى أنا عنه.

العمدة الذى يفرض على كل بيت ضريبة، يعيش من ورائها، حتى المساكين المحتاجين لا ينجون من ضرائبه...هذا البيت يقدم له الدجاج، وهذا يقدم الحمام. وهذا يقدم الأرز، وهذا يقدم السمن. حتى اللبن. حتى القمح والذرة يجمعها من الناس !

ويعيش هو على حساب الناس، لأنه عمدة.

العمدة الذى يردد دائماً بين الناس أنه صديق الحكمدار، وصديق المأمور، وصديق الضابط، وصديق مهندس الرى، وصديق هذا وذاك من ذوى النفوذ وأنه مضطر أن

يجمع هذه الضرائب لتوزيعها عليهم فى المواسم والأعياد. وهو فى الواقع يتقاسمها معهم. هل هذا العمدة هو الذى تخيفونى به؟ أنا أعرفه اسألونى أنا عنه.

العمدة الذى أكملت له أخته "الست نبوية" النصاب، حتى يصبح عمدة؟

العمدة الذى يجبر الفلاحين المساكين على العمل فى زراعته، بلا مقابل. ويأخذ دواب الناس تعمل له فى حقله، بلا أجر. ويروى محاصيله من ساقية "الحاج سلطان" ولا يدفع عن ذلك إلا القليل، بينما "الحاج سلطان" لا يترك لأحد مليماً واحداً..فإن ترك ذلك فإنه يتركه بفايظ يرهقه، ويقصم ظهره.

العمدة الذى تمتلىء حظيرته بالبهائم، ولا يتكلف فى سبيل علفها شيئاً.

كل من فى القرية يساهم له فى علفها، والويل لمن يفضل نفسه عليه. عندئذ يصبح الدور على ابنه فى التجنيد، وفى السخرة، وفى كل ألوان التكليف الذى تطلبه منه الحكومة.

أهذا هو العمدة؟..ثم ألم يتزوج العمدة ثلاث مرات؟ لماذا وزوجاته جميعاً جميلات؟ ألم يحاول كل واحد منكم أن يسأل نفسه لماذا تزوج العمدة كل واحدة منهن؟ لأنه يريد أن يحمى منصبه عن طريق أصهاره. أليس كذلك؟ كلما وجد أن رأساً يمكن أن يرتفع أمامه فى القرية، يهدد نفوذه، أسرع يتزوج أقرب واحدة إليه. وبهذا يكسب الناس، ويقوى مركزه بهؤلاء الأصهار !

ثم هل يكتفى العمدة بهذه الزوجات ...اسكتوا جميعاً فهذا أحسن، وإلا فإنى سأضطر إلى الكلام...أنا أعرفه، اسألونى أنا عنه.



قالت "نعمت" بنت " الحاج غضبان" وزوجة "سيد" الابن الثانى "للحاج سلطان" من "الست نبوية" " هذا كثير، والله لأقولن لأبى "الحاج غضبان".

وثارت "الست قمر" وهى تقول :

ـ المدير العام للبنك !! الكرش الذى يتسع لملك سليمان !! الرجل الذى يأكل مال النبى!! كفى كلاماً فارغاً، وقولوا الحق عن الناس.

تنسون الذى يفعله "الحاج غضبان"؟

تنسون البيوت التى خربها، بطمعه، وجشعه واستغلال الناس؟

تنسون الأموال التى يعطيها بالفايظ، وما يجره الفايظ على الناس من خراب؟

الفلاحون الذين يعجزون عن الحصول على الأموال يشترون بها البذور، أو يحصدون بها المحاصيل، يرحب بهم، ويعطيهم ما يريدون من أموال. بضعة جنيهات، ولكنها عزيزة لدى الفلاح. وتتحول الجنيهات البسيطة المعدودة إلى أضعاف ما أخذوه. ويأتى يوم المحصول، فإذا رجاله وأعوانه، يقفون على رءوس الفلاحين كعزرائيل.يأخذون المحصول، بالقوة أو الرضا، ويبيعه هو بأعلى سعر يستطيع، ويحاسب الفلاح على أقل سعر طول شهور بيع المحصول، والفرق.. فى جيبه. فى كرشه. أليس كذلك؟ هو يكسب الفايظ ثم يكسب بعد ذلك فروق الأسعار، وهو قادر على أن يخزن المحصولات عند اللزوم حتى يضمن أنها ارتفعت إلى الحد الأعلى، والفلاحون المساكين ينتظرون المليم بفارغ الصبر.

وأصحاب الأرض لا يرحمون المؤاجرين. ومياه الساقية تباع لهم من عند أخيه "الحاج سلطان" والذى لا يدفع يتعرض زرعه للموت.

أليس هذه هو أبوك "الحاج غضبان". يتصيد حاجة المحتاج. يتاجر فى احتياجات الناس. فى أعذارهم. أليس هذا هو عمله؟

والذين يروون حقولهم بالعرق والدمع والأسى، لا يأخذون منها مثلما يأخذ "الحاج غضبان". وكل ميزة "الحاج غضبان" انه صاحب قوة، يفرضها على الفلاحين. وأنه يعرف التجار فى كفر الزيات، وأن الفلاحين مساكين، لا يعرفون الطريق إلى التجار، وليست لديهم الشجاعة لمواجهة احتمالات السوق، خاصة أن "الحاج غضبان" يوهمهم أن المسألة ليست من السهولة كما يظنون، ويصور لهم ما يبذله من الجهد فى سبيل تسويق محاصيلهم، وكيف يقدم الهدايا للتجار، ويقيم لهم الولائم، ويجاملهم مجاملات تكلفه كثيراً.

أليس هذا هو حاجكم ! غضبان؟!

كم من بيت فى هذه البلدة أقفله "الحاج غضبان" عندما عجز أهله عن دفع الفايظ الذى يتقاضاه ! كم من بيت خربه "الحاج غضبان" لأن المحصول لم يف بما على الفلاح من ديون والله يعلم أن كل هذه البيوت مظلومة، وأن حقوقها ضاعت فى كرش "الحاج غضبان".

حتى القراريط البسيطة التى كان يملكها فلاحون صغار، اشتروها منهم واحداً بعد واحد، بالربا والسمسرة والاستغلال.

والذين وقفوا أمامه تعرضوا لنوع من الحصار، لم يستطيعوا مقاومته طويلا، لا يجدون المال إذا أرادوا مالا. لا يجدون من يشترى محصولاتهم فى مواسم بيع المحصولات، فإذا أرادوا هم بيعه، فإن فى ذلك مشقة ومصروفات وغموضاً لا يعرفون كيف يتبينونه.

حتى الماء...ماء الساقية يصبح عليهم حراماً.

حتى الجرن...إعداد المحصول وتهيئته للبيع، لا يصبح لهم حق فيه.

كل أنواع الحصار.

حتى الأولاد، يسوقونهم للسخرة، وللجندية، فيفقدون عصب العمل فى الحقول.

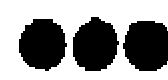
إلى محاضر الرى، وألاعيب الصيارفه، الذين اشتروهم، ووضعوهم فى جيوبهم بوسائلهم المختلفة..بملء البطون. بملء الجيوب. بالكيوف المتنوعة.

بالنفوس الصغيرة يملأونها لهم بما يستطيعون.

أليس هذا هو "الحاج غضبان"؟

هل تريدوننى أن أمضى فى كلام آخر يطول؟

كفى ...كفى. لا تتحدثوا عنه. أنا أعرفه، اسألونى انا عنه.



ويقول "أبو سريع" فى تهكم :

- لقد حطمت كل الناس. حرام عليك ! لم يبق إلا "الشيخ سيد" وهو لن ينجو هو الآخر من لسانك.

وصاحت "الست قمر" فى صراحة :

- يا قوة الله ! "الشيخ سيد" اسم النبى حارسه. باشكاتب المحكمة الشرعية.

فى المحكمة وفى بيته كذلك. بل المحكمة فى الحقيقة هى بيته، والويل لمن يحاول أن يغالط فيتجاهل هذه المحكمة الخاصة ! اسألوا أهل كفر الزيات، وإيتاى البارود، وطنطا، وكوم حمادة، ودمنهور، اسألوهم عنه، كم يأخذ منهم كلما كانت لهم قضية أو حكم.

"الشيخ سيد" يؤدى عمله الرسمى بأجر، خلاف ما يتقاضاه من مرتب الحكومة، وبهذا يصبح "الشيخ سيد" الشهير الغنى صاحب النفوذ.

لا تحاولوا أن تخدعونى أنا. اخدعوا الآخرين بالملابس الفضفاضة التى يرتديها وبالكلام المعسول الذى يقوله، وبما يردده من حكم وأمثال. أما أنا فلا.

أنا أعرفه، اسألونى أنا عنه.

باشكاتب محكمة شرعية، وعالم من العلماء، يعطى هو الآخر نقوده بالفايظ.

والمواعظ التى يذيعها، والخطب التى يلقيها فى المناسبات، والذبائح التى ينحرها فى بعض المواسم ويوزع أنصبة منها على الفقراء. واشتراكه فى مولد "سيدى الذكيرى". وذهابه إلى المسجد وصلاته مع الجماعة.

ألا يستحى الشيخ، وألا تستحون عندما ترددون اسمه، على أنه شىء يرهبنى ويخيفنى ! أنا أعرفه. اسألونى أنا عنه.

وليته يصرف ما يكسبه على نفسه. ليته يحيا حياة نظيفة لائقة به وبما يربحه.

ألم تروا شال عمامته، وكيف يتركه، حتى يمتد إليه العرق، ويكاد يغطيه بالتراب المزوج بهذا العرق.

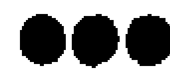
ألم تلاحظوا ملابسه، وكيف يبدو فيها "كالأراجوز" من فرط ما يستعملها.

إنه حتى الآن يأخذ زوادته كما كان أيام طلبه العلم. طبعاً. كيف يشترى من البندر رغيفاً واحداً من الخبز؟ ولماذا يدفع ثمن رغيف خبز، والخبز هنا كثير والخير هنا كثير!..

كيف يدفع أجراً لسكنه؟ من يخدمه؟ إنه رجل صناعته أن يكنز المال كنزاً وأن يسعى لزيادة ثروته بأى ثمن. هل سيأخذها معه إلى القبر؟ يا ساتر يا رب ! هل هذا هو الصنف الذى تعدونه من الأسياد، وتخيفون الناس بهم، أنا أعرفه، اسألونى أنا عنه.

حتى حديثه سمج. ألم تسمعوه يحكى حكايات عن الأزهر، وعلبة النشوق مئات المرات. يتظرف وهو يحكى، بينما ضحاياه فى البلد يئنون من الفقر، ومن الحاجة.

إنه كإخوته. ابن حلال. أنا أعرفه، اسألونى انا عنه.



وتضرب "عطيه الله" بنت "الشيخ سيد" وزوجة "ممتاز" أصغر أولاد "الحاج سلطان" من "الست نبوية" يداً بيد وهى تقول :

حتى أبى "الشيخ سيد" ! سبحان الله ! لم يبق إلا عمى "ممتاز أفندى".

يا ترى ماذا ستقول عنه؟

وتضحك "الست قمر" ضحكات تملأ وجهها كله. ولا تتوانى أن تتحدث عنه بمثل ما تحدثت عن الآخرين :

ـ حضرة المحضر. يا قلبى عليه ! محضر لا يحضر لنا إلا فى الأعياد ومواسم الحصاد. كالتلاميذ. يقضى أجازة طويلة فى الصيف. شهرين. ثلاثة شهور.

مرة أجازة سنوية. ومرة أجازة عرضية. ومرة أجازة مرضية.

وأسأله أنا : ولكنك لست مريضاً يا حضرة المحضر، فيقول : هل يلزم أن أكون مريضاً. البركة فى الدكتور. يدفع للدكتور، ليمد له أجازته كما يريد، ويكتب له أنه مريض.

وماذا يدفعه إلى جوار ما يكسبه؟ رجل محضر كبير ومحترم، ويشارك الفقراء على البهائم. هل فى البلد فى غير عائلاتكم جاموسة، ليس "ممتاز أفندى" شريكاً فيها؟ هل فى البلدة بقرة، ليس "ممتاز أفندى" شريكاً فيها؟ هل فى البلد عجل أو حمار أو بغل، ليس "لممتاز أفندى" نصيب فيه.

يشترى العجول صغيرة، ويتركها لدى أحد الفلاحين. فيطعمها ويرعاها، ويكون مسئولا عنها أمامه. وتلد. وتؤول الذرية "لممتاز أفندى".. كلها، ولا يستفيد الفلاح إلا لبن البقرة أو الجاموسة، وإلا أن يستغلها فى أعمال الزراعة، وعندما يقرر "ممتاز أفندى" بيعها، يؤول نصف ثمنها له، ولا يتقاضى الفلاح بعد كل ما تكلفه عليها من العلف والرعاية، إلا النصف.

لكن "ممتاز أفندى" يقول فى وقاحة : واللبن الذى شربته منها، والسمن الذى أخذته منها، والجهد...كل هذا بلا مقابل؟

أليس هذا هو "ممتازكم أفندى" يا أسياد البلد؟ أنا أعرفه، اسألونى انا عنه.

و"ممتاز أفندى" هذا، له وسائله لخراب البيوت هو الآخر.

قد يكون شريكاً لمالك صغير. مالك لبضعة قراريط، فى عدد من البهائم وهو يعلم أن هذه البهائم هى عماد حياته، ولكنه يقرر فجأة بيع هذه البهائم لأى سبب يراه. ربما لأنه اساء التعامل مع أحد إخوته. وربما لأن حضرة المحضر طمع فى بضعة القراريط التى يملكها، وربما لأسباب أخرى خاصة به.

عندئذ يحطم له حياته تحطيماً كاملا، فيضطر أن يسلم "لممتاز أفندى" بما يريده منه، وإلا تعرض للجوع والفاقة.

أليس هذا هو "ممتاز أفندى" المحضر المحترم الذى تتحدثون عنه؟ ترهبوننى به ! أنا أعرفه. اسألونى أنا عنه.

"وممتاز أفندى" يا روحى، يحضر فى كل أجازة من أجازاته وجيوبه مملوءة بالغوايش البراقة، والحلقان المدلاة، والخلاخيل المختلفة. وحقائبه مملوءة بالكراملة والشيكولاته.

هل أقول لكم لماذا يحضرها؟ هل أروى قصصها؟

لمن يحضر هذه الحلقان والخلاخيل والغوايش والمناديل المحلاوى؟

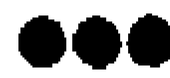
لمن يأتى بهذه الكراملة والشيكولاتة؟

اذهبوا إليه هو واسألوه، فإن أجاب، فأنا واثقة أنه لن يقول الحق أبداً، حضرة المحضر.

كم منكن نالت شيئاً مما يحضره معه؟

إنه يخفيه عن العيون، لا يظهر منه إلا القليل، أما الباقى فيختزنه، وكلما هفت نفسه إلى شىء، دس شيئاً منها فى جيبه وخرج كالسر الغامض يعسعس فى طرقات القرية وبيوتها وحقولها. ولا تظهر هذه الأشياء المدسوسة فى جيبه، إلا عندما يجد الجو المناسب لظهوروها.

ولكنى أعرفه. أعرفه... اسألونى أنا عنه.



وتنظر "الست قمر" طويلا إلى "سبع الليل".

ولكن "سبع الليل" لا يقوى على الصمود أمام نظراتها.

وتضحك "الست قمر" من الوحش الكاسر، وهو يبعد عينيه عن عينيها، ثم توجه الكلام إليه.

وأنت ...أنت يا شيخ الخفر. أنت يا صهر "الحاج سلطان" يا زوج "ست الناس".

لماذا تقف هكذا كالصم؟ لماذا لا تستطيع أن تنظر إلى؟ انظر...ثبت عينيك فى عينى إن كنت تستطيع. لكنك لا تستطيع، لأنك تعرف أنى أعرفك.

أعرفك أكثر مما تعرف نفسك.

هذه البندقية التى صرفتها لك الحكومة. لماذا صرفتها لك؟

ألكى ترهب بها الناس؟ ألكى تخيف بها عباد الله؟

أم أن الحكومة صرفتها لك، لكى **تحمى بها الناس** من أى اعتداء؟

لماذا لا تحميهم من اعتداءات العمدة؟ لماذا لا تحميهم من الضرائب التى يفرضها العمدة على الفلاحين دون وجه حق؟ لماذا؟ ...تكلم. لأنك صنيعة من صنائعه، ولأنه هو الذى وضعك فى هذا المكان لتسهل له أغراضه؟

لماذا لا تحمى الفلاحين من اعتداءات "الحاج سلطان"؟ ألأنه حموك؟

ألأنه صهرك؟ هل تخافه؟ هل ترهب نفوذه وسلطانه؟

تكلم ..قل الحق مرة فى حياتك يا "سبع الليل".

أنت تستعمل هذه البندقية، وبنادق الخفر جميعاً فى تسهيل مصالح العمدة وتسهيل مصالح "الحاج سلطان" ومصالح العصبة ذوى البأس من أهل الناحية.

بل إنى سأكشفك، وأكشف اللصوص الذين تأويهم.

كم حقلا سرق، وأنت تعلم من السارق. بل أنت الذى حرضت على سرقته؟

ومن أصحاب هذه الحقول؟ هل هى حقول العمدة؟ حقول "الحاج سلطان" أو أسرته؟ حقول الأعيان؟ ...أبداً، وإنما هى دائماً حقول ناس بسطاء لا بأس لهم ولا قوة. ناس وضعوا فى هذه الحقول قلوبهم وآمالهم. ناس أخذوا يحلمون بموسم الحصاد، ليشبعوا. ليكتسوا. ليذوقوا اللحم فى حياتهم قبل أن يموتوا. فجئت أنت "يا سبع الليل" وخطفت اللقمة من أفواههم قبل أن يبتلعوها، وخطفت الملبس من فوق أجسادهم قبل أن يعد. وخطفت الأمل فى سداد الديون التى ترهقهم، قبل أن يرى هذا الأمل النور.

أنت فعلت هذا، وأنت تفعل هذا كل يوم.

لئن كان السارق عادياً، ففيم يفرق حقل وحقل، المهم عنده هو أن يسرق، وسواء أسرق من حقل العمدة، أم من حقل المؤاجر الصغير، فالسرقة سرقة. لماذا إذن لا تسرق إلا حقول الصغار المساكين البسطاء؟

كذلك بيوتهم. كذلك دوابهم.

وأنت يا "سبع الليل" موجود، وتدعى أن شيئاً ما لا يخفى عليك.

أم أن الآخرين يدفعون لك؟ يستأجرونك؟ تأخذ مرتب الحكومة، وبندقية الحكومة، ولابد لك من مرتب آخر يدفعه لك هؤلاء. والمرتب يختلف ويتنوع، وأنت الذى تحدد أوجه الخلاف، ونوع هذا المرتب.

ألم تفاخر بأنك قادر على أن تنسف أى شخص يقف فى طريقك؟

ألم تتظاهر دائماً بأن عليك التزامات كثيرة، يجب أن توفيها؟

لمن هذه الالتزامات يا شيخ الخفر..للصوص الذين تستعين بهم؟ لمن؟ قل لى لمن؟ أنت الآخر تقدم الهدايا للحكام فى المواسم والأعياد؟ هل تقيم لهم أنت الآخر الولائم؟ قل لمن؟ يا شيخ الخفر. خف الله فيما تفعل.

لقد تصورت أنك رجل، وأنك شهم، ولكنى وجدت اليوم ذئباً تحرضه "ست الناس"؟؟ بل تحركه مصالحه. تحركه شهواته. تحركه المنافع التى تنهال عليه.

الماء لا يمر على عطشان يا شيخ الخفر. والأشياء التى تأخذونها من الناس للعمدة تمر عليك... ولا تستطيع أن تتركها تمر وأنت عطشان.

وقعت فى يدى يا شيخ الخفر. مالك أنت وهذه التعسة المسكينة؟ لماذا تنكل بها كل التنكيل؟ ألأنها مسكينة وخائفة منك؟

أما أنا فلا أخاف...لماذا أخافك. أنت تعرفنى وأنا أعرفك. تذكر ماذا أعرفه عنك..تذكر، ولو أنك شجاع، لقلت الآن ما أعرفه عنك. واجهنى إن كنت أكذب. انظر إلى. ثبت عينيك فى عينيى.

يا "سبع الليل"...أى ليل ! وماذا تفعل فى الليالى الحالكة؟

تسهر على أمن البلد...انظر إلى وقل نعم أسهر على أمن البلد.

آه منكم يا سادة. يا أعيان !

واستبد الغيظ "بعباس" زوج "درة زمانها"، وهو يرى صهره وقد تخاذل على هذه الصورة.

وصاح عباس فى "الست قمر" وهو يقول :

ـ ما هذا الذى تقولين؟ ألا يعجبك أحد من هذه الأسرة؟

وأخذ يضحك ضحكات عالية مستهترة.

قالت "الست قمر" فى صوت يغلى :

ـ وأنت يا "عباس". يا زوج "درة زمانها" تضحك ملء شدقيك.ترى فى هذه المأساة ما يضحكك.

وتنسى نفسك. تنسى مأساتك أنت.

تنسى يوم أحاط الذئاب بأبيك. وأنت تعرف من هم هؤلاء الذئاب.

الذئاب الذين يعطون الناس أموالا بالفايظ، ويشاركونهم على الدواب بأنواعها ويبيعون لهم الماء.

تنسى يوم قرروا أن يعصفوا ببيتكم، وأن يرغموا أباك على أن يبيع أرضه وبيته، ويعمل أجيراً، أو يغادر البلد إلى غير رجعة.

وتنسى أنهم قرروا هذا يوم قرر أبوك أن يرفع رأسه فى وجوههم ليدافع عن حقوقه فى المحاصيل أمام "الحاج غضبان".

يومها يا شاطر وضعوا خططهم.

الفايظ ارتفع. وماء الساقية امتنع عن الأرض. و المحاصيل لم تعد تجد الجرن الذى تعد فيه للتخزين، ثم للبيع. والبهائم التى لديه مشاركة، طلب الشريك صاحب الحق فيها أن تباع. بل كثرت الاعتداءات على زراعتكم، حتى لقد بتم تحيون فى رعب دائم، ولم تستطيعون أن تعرفوا من أين يأتى الفزع.

من أين يأتى هذا الاعتداء.

وكنتم على وشك الوقوع فى الكارثة.

لولا أنك تقدمت إليهم، وبعت نفسك لهم.

عرضت أن تتزوج "درة زمانها" فكان مهرها سلسلة من الجرائم ارتكبتها لهم، فى شجاعة يا شجاع !!

فلما أدركوا أنك تستطيع أن تكون مفيداً لهم، محققاً لأغراضهم تحقق كل شىء.

أنت تزوجت "درة زمانها".

وأبوك خفوا عنه الفوايظ، وتركوا له البهائم، وأعطوه ما يريد من الماء، وصرحوا له بالجرن يستعمله لدرس المحصول، ووقفت الاعتداءات على أرضكم، وعلى زراعتكم. لم يجرؤ واحد بعدها أن يتحرك صوب عود ذرة مما تزرعون.

أنسيت يا "عباس"؟ أنسيت القصة التى عشتها، لتسخر من قصص الناس؟

أفما كنت على وشك أن تصبح "كأبو عوف" المسكين، تحرس حديقة، وتخوض فى مائها حافى القدمين؟!...لولا أنك بعت نفسك. بعت شبابك. بعت شهامتك ورجولتك. لتنقذ أباك؟! ودفعت ثمناً لا أظنك تنساه.

ومم تعيش الآن يا "عباس".

من أين لك ثمن المخدرات التى تتعاطاها؟

من أين لك النقود التى تشترى به الأفيون، والسجائر، والشاى والسكر، وأرضكم محدودة؟ وأسرتكم ما شاء الله كبيرة؟

ألا تعرف أنت من أين؟ ومن الذى يدفع؟ ولماذا يدفع؟

لياليك يا "عباس" أين تقضيها؟ ومع من؟

أنا أعرفك، وأعرف سرك، فحذار أن تنكر شيئاً أعرفه تمام المعرفة، يا أعيان، يا سادة، يا أسياد !!



وأحس الباقون أن الموقف يتحرج، فأخذوا يتمتون بكلام غامض متداخل ولكنه ملىء بالسخط على "الست قمر".

ولكنها تطلعت إليهم فى سخرية.

وقالت "لغضبان" الصغير شيخ البلد، ابن "الحاج سلطان" من "الست نبوية" :

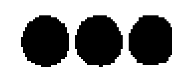
ـ وأنت..سموك باسم عمك "الحاج غضبان" تيمناً وبركة لتصبح على شاكلته..ما أنحسك بعمك !

لتحتكر المحصولات، وتتاجر فى الأرزاق، وتتصيد المصائب، وتخرب البيوت، يا شيخ البلد !!

وزوجوك بنت العمدة "الست السيدة"، حتى يثبتوا مركزك، وتصبح الخليفة الشرعى لعمك الجبار...لتمتص الدماء يا مسكين !

على أنك لا تزال بعد فى صباك.

على أنك تستطيع أن تختار لنفسك الطريق الذى تسلكه، وعساك أن تسلك الطريق الذى يرضاه الله والناس.



وقالت "لسيد" الصغير، ابن "الحاج سلطان" الثانى من "الست نبوية" وزوج "الست نعمت" ابنة عمه "الحاج غضبان" :

وأنت يا مسكين...يا فرحتك، بما يحققه حماك من أرباح. إن كل الذى يهمك هو أن تنام قرير العين مرتاح البال، لا تفكر فى شىء. طالما أن الطعام يصلك مطبوخاً... مخطئون. كان يجب أن يصلك مهضوماً. حتى لا تتعب فيه معدتك !! لا يهمك إلا أن تجد كل شىء معداً لك...لراحتك يا رقيق الحال.

ألا تستحى من نفسك؟ ألم تفكر يوماً فى الذين يقبلون أقدام والدك وعمك، وهم مهددون بالجوع؟ لماذا يذلون أنفسهم هذا الإذلال؟ ألأنهم ممن يحبون أن يذلوا نفوسهم لآخرين؟ ألأنهم أخطأوا يكفرون عن ذنب؟ أم لأنهم محتاجون؟

واقعون فى حبائل قوم لا يرحمون؟

ولكنك مسكين. هل تستطيع أن ترفع فى وجههم صوتك؟ هل تستطيع حتى أن تسألهم عما يفعلون؟ ومن تكون، وأنت طفل دللوه، وعودوه أن ينعم...يعيش لينعم...بلا تفكير !

وتنظر إلى أخيه الآخر "ممتاز" الابن الأصغر من أبناء "الحاج سلطان" من "الست نبوية"، وزوج "الست عطية الله " ابنة عمه "الشيخ سيد".

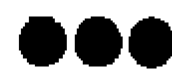
تنظر إليه طويلا ثم تقول :

- كذلك أنت "يا ممتاز" ...أملس كالرخام، تمر عليك الأشياء، فلا تحسها، ولا تشعر بها، أنت كالدواب التى ترعى فى الحقل. لا تدرى إلا أنها ترعى، ولا يهمها أبداً أن تدرى.

أطعموك. كسوك. كبروك. زوجوك.

ولابد أنهم على حق حين فعلوا كل ما فعلوه بك.

ولكنك قد تفهم يوماً...قد تصبح أسوأ منهم، وقد يتغير سلوكك. الله وحده يدرى ماذا سيكون عليه حالك يوم يتركونك ليفطموك.



على أن الست "قمر" لا تكتفى بهذا. إن عليها أن تواجه النساء، كما واجهت الرجال وأن تكشف أسرارهن كذلك، فقد اشتركن مع الرجال فى مهاجمتها.

وقد بدأت بالسن.

اتجهت إلى "الحاجة زهرة" وقالت لها :

- وأنت يا حاجة، يا من زرت بيت الله، وقبر رسوله صلوات الله عليه. أنت تعرفين عن هؤلاء الناس، أكثر مما أعرف، ولكنك تخفين الحقائق حتى عن نفسك، ليستمر الحال على هذا المنوال مستوراً، ولله فى خلقه شئون.

ولكنى أسألك سؤالا واحداً

لماذا تزوجك "الحاج سلطان"؟

من أجلك؟ من أجل أهلك؟ من أجل ماذا؟

من أجل الجرن الذى تملكينه فى قبلى القرية. القراريط المحدودة التى ورثتها عن أهلك.

إنه رجل محنك، وبعيد النظر.

كانت هذه الأرض أرضاً زراعية. وكانت القرية تحار كل موسم حصاد فى مكان تستعمله جرناً. ولقد شعر بأهمية هذه القراريط القريبة من البلد، فقرر أن يستولى عليها، ليحولها إلى جرن، يستعمله الفلاحون بالدور فى مواسم الحصاد، فإذا ما فرغت هذه المواسم تركها لتجار البلح ممن يقبلون لشراء إنتاج النخيل، يجففون فيها نوعاً من البلح، ويعدونه فى أبراش ليصبح عجوة يبيعونها فى قرى الناحية جميعاً.

ولم تكن هناك وسيلة للاستيلاء عليها إلا أن يتزوجك، وأن يشترط أن تكون هذه القطعة بالذات هى ميراثك.

وقد تم له هذا، فأصبحت له ساقية بحرى البلد، يبيع ماءها للناس، وأصبح له جرن قبلى البلد يبيع شهوره للناس، يعدون فيه محاصيلهم.

وحقق لنفسه من الجرن، ما كان يحلم به من تحكم فى الفلاحين، فمن لا تقع أرضه فى نطاق الساقية، ولا يحتاج بالتالى إلى مائها، فإنه يحتاج إلى الجرن ليدرس المحصول.

وأمسك برقبة الفلاحين بين يديه، هو يمنح الماء والجرن بجعل خاص، ويطاول المعذورين من الفلاحين، على أن يزيد هذا الجعل، وعلى أن يستولى على المحصول ليسلمه إلى أخيه "الحاج غضبان" يبيعه بطريقته الخاصة، ثم يخصم من ثمنه حق "الحاج سلطان" وحقه فى الأرباح أو فى الفايظ ويعطى ما تبقى إن تبقى لصاحب المحصول.

وأصبحت القرية كلها فريسة بين يديه.

أليس هذا هو السبب الذى جعله يتزوجك يا حاجة؟

أم هو الحب والهيام بعثه إليك، يخطبك، ويدفع مهرك؟

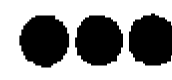
ومن يومها وجرنك يا مسكينة فى يديه.

ومن يومها وهو يمن عليك ببعض أرباحه، إذا اضطر إلى أن يدفع لك بعض هذه الأرباح، أو يدفعها لابنتك "درة زمانها" لتعطيها إلى زوجها "عباس" ينفقه على مزاجه الخاص.

أنت مظلومة كذلك يا حاجة..مظلومة ولكنك لا تتكلمين.

أنا أعرف أنك تتسلين عن هذا الهم الذى تحسين، بطريقه أو بأخرى.

ولكنى والله أعذرك، فأنت لا تحيين إلا لحظات...كل عدة أسابيع !! أنت طبعاً تعرفين ماذا أقصد، والسر بيننا مكتوم.



وتنتهى الست "قمر" من "الحاجة زهرة" لتلتفت إلى "الست نبوية".

وتطيل إليها النظر فى اشمئزاز، ثم تقول :

- أما أنت يا ست، يا أخت العمدة، وبنت العمدة، وعمة العمدة القادم إن شاء الله. يا "ست نبوية" فاللهم اجعل كلامى خفيفاً على قلبك.

لماذا أنت مهمومة هكذا؟ لماذا تتحسرين وتأكل الغيرة قلبك.

لأنك تحبين "الحاج سلطان"؟ أنت كذابة، فأنت لا تطيقين النظر إليه، وأنا أعرف كل شىء. أعرف إلى أين تتجهين.

وتنظر "الست قمر" إلى الناحية التى انزوى فيها "أبو سريع" ولا تقول شيئاً.

ثم تستأنف كلامها قائلة :

أنت تحبين نفسك. أنت تستكثرين على نفسك أن تكون واحدة مثل "تفيدة" المسكينة فى مستواك.

ولكن أنا..أنا أيضاً ضرتك. ألم يتزوجنى عليك؟ فلماذا لم تصل بك الغيرة منى مثلما وصلت بك اليوم؟ لأن "تفيدة" مسكينة وفقيرة، وجاءت إلى هذا المنزل من خص حقير ! أليس هذا هو السبب؟ ولكن ليتها لم تأت لتتضم على ركب الضحايا. ركبنا هذا التعسة

اعقلى يا ست، واستعيذى بالله من الشيطان الرجيم.

لا تعيشى لنفسك فحسب...أنت انتهيت، ولا داعى للتشبث بالأوهام.

أم أن النار تحرق فؤادك، وتكوى قلبك، فلا تطيقين؟

صحيح أبوك كان عمدة. ولكن العمد وأنت تعرفين يعيشون على عرق الفلاحين.

وأخوك عمدة، وأنت التى جعلته عمدة.

ليتصل نفوذك وليستمر العز مقصوراً على بيتكم.

قولى الحق، ولو لنفسك، لا تضللى نفسك إلى هذا الحد. أفيقى من هذا النوم وافتحى عينيك لترى كل شىء.

ألا تعرفين أن أباك كان يفرض على الناس إتاوات لا يقدرون عليها.

ولا يستطيعون أن يرفضوها. ألا تعرفين أن لحم جسمك هذا، من أقوات الناس؟ ألا تعرفين أن هذه الكبرياء كلها جوفاء.

وأخوك...ألا يسير سيرة أبيه؟

وابن أخيك...ألا يعدونه ليعيش بنفس الطريقة، وبنفس الأسلوب؟

فيم هذه الكبرياء الزائفة التى تملك عليك كل تفكيرك؟

وماذا جنت "تفيدة"؟ ماذا جنت "أم الهنا"، حين خطف الرجل ابنتها؟

وماذا جنت "أم الهنا" عندما حرمت نفسها من كل شيء، لتحضر لابنتها سبوعاً تفرح به، كما تفرح كل البنات العرائس؟

تجمعين هؤلاء حولها ينهشون لحمها. ثم تذلونها هذا الإذلال !!

ترمون ما جمعته بالعرق والضنى، للكلاب والقطط ! طبعاً أنتم لا تشعرون بحاجات الناس. لا تشعرون بما بذلوه من جهد حتى يوفروا هذا الطعام يقدمونه هدية عزيزة لابنة يحبونها. لا تشعرون...وكيف تشعرون والطعام يأتيكم جاهزاً، بلا تعب ولا شقاء ولا كد؟

وتطردونها من بيتكم، لأنها حافية القدمين؟

وهل تريد هي أن تكون حافية؟ أم أن الزمن سلبها كل شيء حتى لا تستطيع أن تضع شيئاً في قدميها؟

ارحميها يرحمك الله.

وماذا تريدين من "الحاج سلطان"؟ أخذته منك "تفيدة"؟ أبداً. أخذته مني أنا لا منك، فإنه لم يعد يطيق أن يراك، منذ تزوجني. فلماذا هذا الهياج وهذه الثورة، وهذا الهجوم على مسكينة لا تعرف كيف تدافع عن نفسها من عدوانكم؟

ألم تؤثر فيك دموعها...ودموع الصغيرة التي معها؟

ألم تشعري أنها أم، حملت ابنتها في بطنها تسعة شهور كاملة، ثم وضعتها جنيناً، وأرضعتها من لبنها، وشبت في حجرها ترقب نموها يوماً بيوم.أسنانها وهي تشق طريقها إلى فمها. شعرها وهو يكتمل. صدرها وهو يتكور...جسمها وهو يفور...

ألم تشعري بهذا الشعور؟

ألم تتصوري أن ذلك قد يحدث لك؟

وماذا يكون شعورك لو أنك فى مكانها؟

أترضين أن تكونى فى مكانها، "ياست نبوية".

الله يسامحك يا "ست نبوية" ويسهل لك غاياتك...غاياتك التى أعرفها وتعرفينها ويعلم الله بها.



ولما انتهت من مواجهة ضرتها نظرت إلى السيدات الصغيرات فقالت لهن :

- أما أنتن يا صبايا.

أنت يا "درة زمانها" لماذا أهنت "أم الهنا" هذه الإهانات البالغة؟ ألكى ترضى أمك؟...أم لكى ترضى زوجك؟ أرضى الله قبل إرضاء أحد. هل يرضى الله بما فعلته معها؟ ...هل يرضى؟

وأنت "ياست الناس" فيم صياحك، هذا "سبع الليل" إلى جوارك كالأسد..ولو أنه جبان، لا يستطيع النظر إلى.

أمن أجل أمك. أمن أجل أبيك؟ أمن أجل زوجك؟

إن كان من أجل أمك، فأمك مخطئه فى غيرتها، وأمك أنانية تحب نفسها ولا ترضى أن تكون واحدة فى مستوى "تفيدة" ضرة لها.

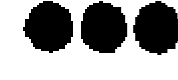
وإن كان من أجل أبيك، فأبوك الذى خطف البنت لشهواته الطارئة ونزواته التى أعرفها عنه.

وإن كان من أجل زوجك، فزوجك لا يزال إلى جوارك. فلماذا هذه الثورة؟

لماذا تتجمعون كلكم على واحدة فقيرة، لا تستطيع أن تفتح فمها أمامكم؟

وأنت يا "ست السيدة" هل هى ضرتك أنت الأخرى؟ إن "شيخ البلد " لا يزال تحت قدميك فأنت بنت العمدة وهو مرءوس للعمدة، ولا يستطيع أن يخرج عن طوعه.

وأنت "يا ست نعمت"..وأنت "ياست عطية الله" ماذا جرى لكما، ولماذا تتضمان إلى هذه المجموعة التى تتجنى على سيدة مسكينة، لم ترتكب فى حقكما خطأ. هل خطؤها أنها أنجبت فتاة طمع فيها "الحاج سلطان"؟ حرام عليكما.



كانت الست "قمر" تتكلم فى صوت يهدر كالموج، وكلمات تتدافع كطلقات الرصاص.

ولم تترك فرصة لواحد، أو لواحدة، حتى تقاطعها، وتحول بينها وبين المضى فى هذا الحديث المتصل، فى سخرية ووضوح.

وكان هجومها سريعاً ومفاجئاً، حتى لقد فقدت الجماعة كلها، قدرتها على الدفاع فأخذت تنصت مذهولة، تتلقى الطعنات طعنة وراء طعنة، ولا تستطيع لها رداً.

ولكن المعركة بطبيعتها بعد أن تتجاوز مرحلة المبادأة، يأخذ كل طرف من طرفها يجمع شمله، لاستئناف القتال.

ولقد بدأ السجال بين الطرفين..بعد أن أفرغت " الست قمر" شحنة الذخيرة التى كانت فى قلبها، وفوق لسانها.

وكان أول من تكلم "الست نبوية" بطبيعة الحال، قالت لها فى صوتها المجروح وعروق رقبتها تنتفض وركبتاها تطلان من فمها الكريه :

- لم أكن أعرف أنك محامية "يا ست قمر".

قالت "الست قمر" فى تحد :

- بل اعرفى يا أختى...نعم محامية يا روحى...اعرفى...خير لى أن أكون محامية من أن أكون قاتلة ...

وارتفعت من هنا كلمة، ومن هنا كلمة، وتعاقبت كلمات متقطعة متداخلة سريعة لم يستطع أحد أن يستبين منها إلا هذه الكلمات...

"طويلة اللسان- قليلة الحياء- طبعاً- الطيور على شاكلتها تقع ".

ولما هدأت العاصفة قليلا، انبرت "ست الناس" تقول :

- هل هناك من يتكلم عن زوجها ورب نعمتها، بهذه الطريقة؟..أبى "الحاج سلطان" هل يتعرض له أحد بهذا الكلام؟..ومن زوجته؟ ..منك أنت "يا ست قمر"؟

وتقول "الست نبوية" :

- لقد أطالت لسانها، حتى على حضرة العمدة. سيد البلد. لقد جنت والله.

وضحكت "الست قمر" على طريقتها وهى تقول؟

- نعم جننت...أوَ لا يجن من يعيش معكن؟ أوَ لا يجن من يعيش فى هذه العصابة؟ أوَ لا يجن من يحيا وسط هذه المجموعات؟

قالت "درة زمانها" :

- استحى "يا ست". عصابة من التى تتحدثين عنها؟ أسياد البلد عصابة؟ سرقوا من؟ قتلوا من؟ نهبوا من؟

قالت "الست قمر" :

- قولى أنت : من لم يسرقوه؟ من لم يقتلوه؟ من لم ينهبوه؟ حتى أنت "يادرة زمانها" كنت أظنك أكبرهن وأعقلهن، ولكن المصلحة أعمتك عن الحقيقة.

قال غضبان "شيخ البلد" :

- ومن أنت؟...من تكونين؟...

قالت "الست قمر" :

- أنا ...أنا "قمر" يا روحى. تعرف من هى "قمر"؟ واحدة سرقها أبوك ضمن ما سرقه من ممتلكات الناس. واحدة ضحك عليها أبوك، مثلما ضحك على ذقون الناس. واحدة كانت تعيش عيشة هادئة فى بيت أهلها، فتقدم إليها بكلام مزيف، كالعملة

المزيفة، ليشتريها لمتاعه الخاص. ولكن هذه الواحدة عرفته وفهمته، ولكن بعد أن كان الأوان قد فات. بعد أن رزقت منه بأولادى هؤلاء.

قال "أبو سريع" :

- احمدى ربنا، فقد وجدت رجلا يلمك، بعد أن طلقك "عبد المقصود أفندى".

وأدركت "الست قمر" أنها لو تركت لهؤلاء الناس الحديث، يدور كهذا سجالا، لتمكنوا من التجمع عليها وهم كثرة، وربما تمكنوا من إهانتها، والإساءة إليها.

وأرادت أن تحسم الموقف، وهى تعرف دائماً كيف تحسمه بصوت كالرعد ويدين تروحان وتجيئان فى الهواء، تحملان النذير بالعدوان، وعينين تبرقان بالشر ووجه يتجهم فى صلابة.

ولقد فعلت، وأخذت تصيح فيهم جميعاً :

"الحاج سلطان" لمنى !! لماذا؟ كنت مبعثرة؟ كنت موزعة؟ كنت أبحث عن رجل يلمنى؟ لا يا حبيبى. "الحاج سلطان" جاء يسعى ورائى، يسيل لعابه طول الطريق. وأحضرنى من المحلة الكبرى إلى هذه القرية الخراب..وكنت أظن أنه رجل نظيف وبسيط ويكسب عيشه بعرق جبينه. ولكنى جئت لأجده على رأس جماعة من العاطلين، تخصصوا فى مص الدماء. كنت أظنه مظلوماً مع زوجتيه فوجدته ووجدتهما من معين واحد...ما جمع إلا ووفق ! يا ليتنى انتظرت حتى يأتينى من يستحقنى. رجل بمعنى الكلمة، يكسب بكده وجهده وكفاحه، لا عنكبوتاً ينصب الشباك لصيد الذباب! ثم تتحدثون عنى؟ أنتم ! من أنتم ! حتى تتحدثوا عنى، وعن أبيكم الذى لمنى؟! ألا تحمدون أنتم الله، على أنى قبلت أن أعيش بينكم. واحدة كل ميزاتها أن لها جرناً يصيد به "الحاج سلطان" الناس، والثانية لها أخ كل عمله أنه عمدة يفرض على الناس أن يطعموه باسم السلطة، وباسم الحكومة. وأخريات على شاكلتها...أما أنا، فليس لى جرن، ولا أخ يعمل عمدة. ولكنى من بيت نظيف شريف، يكسب كل من فيه رزقه بالأمانة والاستقامة، وينفق ما يكسب على أولاده،

وبيته، لا يكنز المال، ولا يبخل على الناس، ولا يضحك على الذقون، ولا يحج ليخفى وراء حجته، سوءته، ونيته.

وتسمع "الست قمر" من يقول، دون أن تعبأ بأن تعرف من يكون :

- ولماذا تعيشى معنا، ونحن هكذا فى ظنك؟

ويزداد صوتها ارتفاعاً صخباً وهى تقول :

- من أجل هؤلاء..ناجى وسامى ووردة. انظروا إليهم. هل ترونهم مثلكم؟ هل هم مثلك يا شيخ البلد يا"غضبان"؟ أم مثلك يا "سيد"، أو مثلك يا "ممتاز"؟ انظروا إلى هذه التحفة الناعمة الجميلة الرقيقة...يا وردة من قلب أمك يا ستى يا جميلة...أتظنين أنها مثلك "يا درة زمانها". أو مثلك يا "ست الناس".

صحيح إنهم إخوتكم، ولكن البطن الذى ولدهم بطن آخر غير هذه البطون المملوءة بحقوق الناس! خرجوا من بطن نظيف، ومن قلب نظيف، ولهذا ترونهم شيئاً آخر غيركم. إنهم كأخوالهم فى المحلة الكبرى، يعرفون معنى الحياة، ومعنى حقوق الناس، وكيف يحافظون على الغير، مثلما يحافظون على أنفسهم. أولاد ناس، لأنى ربيتهم تربية أخرى. لن يكون منهم شيخ البلد، يتبع العمدة كخياله.

لن يكون منهم شيخ خفر، يحقق المثل القائل "حاميها حراميها". لن يكون منهم عاطلون متسكعون لا عمل لهم إلا أن يأكلوا ويشربوا على حساب الفلاحين المساكين.

لا، لن يكونوا مثلكم. أنا أرسلهم إلى المدارس لدى أخوالهم ليتعلموا. لينفعوا أنفسهم وينفعوا الناس، لا ليستغلوهم ويستغفلوهم ويعيشوا عالة عليهم. هل عرفتم لماذا أعيش معكم؟ من أجل هؤلاء تحملتكم هذه السنين الطويلة. من أجلهم هانت الأيام الثقيلة التى قضيتها بينكم. هل عرفتم الآن؟

ويقول "ممتاز" متطاولا :

- خذيهم وعيشى بهم هناك عند أهلك...

وتجيب صائحة فيه :

ـ حتى أنت يا "**ممتاز**" !! يا طرى!! ما صنعتك **أنت؟** زوج "**الست عطية الله؟**

ويجيبها:

ـ بل عين من أعيان هذا البلد، وابن أكبر أعيانها. ولدى من الأرض، ومن الدخل ما يكفينى. هذه صنعتى.

وتقول ضاحكة من قلبها :

ـ اسم النبى حارسك يا "سيد ممتاز". الآن فقط عرفت أن لك عملا ! كنت أظنك عاطلا تصحو لتنام، وتنام لتصحو. تبحلق فى بلاهة فى "الست عطية الله" ثم تعود فتغط فى نوم عميق !! أنا مخطئة فى حقك يا ابنى. هل تسمعين يا وردة...أخوك "ممتاز" له عمل.

ويرد "ممتاز" :

ـ دعى "وردة" لا تسممى أفكارها. إنها أختى.

وتقول له :

ـ يا قلبى...أختك ! تحبها إلى هذا الحد؟

ويقول :

ـ طبعاً أحبها. وإذا أردت أن تغادرينا، فغادرينا أنت وحدك، وقد نسمح لك بأن تأخذى معك "ناجى" و"سامى"، أما "وردة"، فهى أختنا. هى عرضنا ولابد أن تكون فى حمانا...

قالت فى تهكم لاذع :

ـ حماكم...هل لكم حمى يا عينى؟ آه لو رويت لكم الحقائق...آه لو طاوعنى لسانى على رواية ما فى قلبى. عندئذ كنتم تخجلون، وتدارون وجوهكم من الناس. أليس كذلك يا "أبو سريع" ! رد على صهرك. قل له أنت...

ولم يرد "أبو سريع" وأخذ الجميع يتطلعون، كل منهم للآخر، وكل منهن للأخرى.

ومضت هى تقول :

- ثم جدّ سبب آخر، يدفعنى الآن إلى البقاء هنا. المسكينة التى فى داخل هذه الدار : "تفيدة". لقد خطفها أبوكم، وأتى بها إلى هذا السجن الكريه.

وكلكم مقروح منها. كلكم يود لو استطاع أن يؤذيها. وهى وحيدة. هذه أمها أ ت لتراها، فأريتموها نجوم الظهر. هذه أختها أتت تحمل على رأسها صينية السبوع فانزلتموها من فوق رأسها، وأخذتم تعبثون بما أتت به، ثم لم تستحوا فألقيتموه للكلا والقطط بلا رحمة ولا شفقة ولا تقدير لعواطف الأم، ولا لشعور الأخت. تريدون أن تنفردوا بها لتقضوا عليها. تريدون أن تتخلصوا منى ليخلو لكم الطريق إلى التنكيل بها. لكن لا. أنا أحس أنها ابنتى، لا ضرتى..هى مسكينة وأنا مسكينة مثلها. هى مظلومة وأنا مظلومة قبلها. هى ضحية، وأنا ضحية معها.

وواجبى يحتم على أن أحميها من غدركم. من تدبيراتكم. من وحشيتكم. وأعلم أن أباها مسكين، ذهب عقله منذ أخذتموها منه قوة واقتداراً. وهو لا يستطيع أن يرفع وجهه فى السيد الكبير الذى يؤويه فى الخص على رأس الحديقة. وأمها خطت خطوة إلى ابنتها فكان هذا مصيرها. وأختها ليست أحسن حالا من أمها.

من يكون لها إذن؟ أنت يا "سبع الليل" يا شيخ الخفر؟ أم أنت يا "عباس" ياصاحب المزاج والأصدقاء وجولات الليل بين الحقول. أم أنتِ..أم أنتَ..أم أنتِ...أم..؟ أنا التى لها هنا. أنا محاميها ضد الظلم والغدر والوقيعة. أنا سندها ضد الاستبداد والطغيان والافتراء. أنا ظهرها. أنا عصبيتها. فلتقفوا جميعاً ضدها، وسأكون وحدى معها. والويل لمن تحدثه نفسه بأن يؤذيها.

ونظرت "الست قمر" إلى "أم الهنا"، وكانت لا تزال مذهولة لما ترى وما تسمع، وقالت لها :

ـ اتركى "تفيدة" على أنا. أنا كفيلة بحمايتها من هؤلاء جميعاً. وطمئنى أباها إلى أنى لن أتخلى عنها أبداً. تعرفين؟ هؤلاء جميعاً جبناء. إنهم شجعان على البؤساء والمحتاجين، أما أمام الأقوياء، فما أعجب ما ترينه منهم. هذا السبع الذى يقف على شواربه الصقر، يخر صغيراً أمام ضابط النقطة، وهو فى عمر أولاده.

وتنظر "الست قمر" إلى ولدها "ناجى" وتقول له :

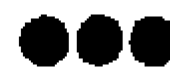
ـ ربنا يا ابنى يجعلك ضابطاً لنقطة، حتى أراك تذل "أبو سريع" وأمثاله.

وتنظر إلى ابنها "سامى"، وتقول له :

ـ وأراك يا "سامى" يا ابنى مهندس رى، يقبل أمثال هؤلاء أقدامك.

وتنظر إلى "وردة" الفاتنة، لتقول لها :

ـ أما أنت يا وردة، فلا يجعلن الله لك نصيباً فى واحد من هذا البلد، ولا واحد من هذه العائلة. وإنما ربنا يرزقك بابن حلال، لا يستغل أحداً، ولا يأكل حق أحد. يعيش من كده وعرق جبينه، ويعرف طعم الحياة فيتذوقها، لا طعم المال فيكنزه، أو طعم الاستغلال فيسعى إليه.



ويفتح الله على "الحاجة زهرة"، فتفتح فاها كمن تتثاءب، وتوجه كلامها إلى العائلة الكريمة، التى اجتمعت على غير ميعاد :

ـ هكذا ...هكذا يثبت لكم جميعاً يا أولاد، أن الغريب غريب، وسيظل غريباً...أرأيتم؟ لو أن هذه من بلدنا، أو من ناحيتنا، أو فلاحة، حتى ولو من قرية بعيدة نائية، لما وقفت منا جميعاً هذا الموقف..لاستحت ووضعت فى عينها حصوة ملح!! تعالى "يا حاج سلطان" اسمع كلام الست، التى أتيت بها من البندر، ولا نعرف لها أصلا ولا فصلا..وأنتم ...أنتم...اشهدوا بماذا تقوله الست، لترووه للحاج. "الست قمر" تدافع عن ضرتها. عن واحدة من أصل خسيس تدخل بيتنا كالسرطان ! أولاد الأصول يعرفون الأصول..لكن الأصول لا تشترى ! إنها من ربنا!

وهز الرجال رؤوسهم يؤمنون على كلام كبيرة البيت، صاحبة الجرن، وتطاول "عباس" زوج "درة زمانها"، وهو يمد عنقه فى زهو وخيلاء..كأن كلمات الحكمة تقطر من بين شفتى حماته كالشهد.

وردد النساء كلمات مهمة غامضة متداخلة، أقرب إلى الهمهمة منها إلى الكلام، ولكنها جميعاً تؤدى إلى أن هذا صحيح...صحيح أن أولاد البندر غرباء مهما حاولوا التقرب من حياة القرية..وأن الخسة طبيعة فى الوسط الفقير لا يمكن أن يعوضها الجمال.

أما "الست قمر" فإنها لا تسكت. ليس من طبيعتها أن تسكت.

ولكنها ـ وهى أكثر ازدراء لقنينة الخمر المعتق ـ تنظر طويلا إلى "الحاجة زهرة" قبل أن تجيب، كالصائد يتعرف أولا على صيده، قبل أن يلقى إليه الشباك.

وإنها لتضرب كفا بكف وهى تقول فى سخرية :

ـ والنبى كلام معقول. "الحاجة زهرة" لا تقول إلا كلاماً معقولا. يا زينة عقلها. طبعاً عجوز، ولها خبرة، ولها عقل، وموازينها لا تخيب ! ليتنى أعيش حتى أصل إلى سنك يا جدة !...

ويظهر على "الحاجة زهرة" انفعالات مختلفة، وتتراقص تجاعيد الزمن فى وجهها، ولكنها لا تدرى ماذا تقول لهذه السليطة، صاحبة اللسان الطويل.

وتضحك "الست قمر" من منظرها، وهى تقول :

ـ لابد أنك تكرهين كل جميلة يا "حاجة زهرة"، لأنك لم تعرفى فى حياتك معنى الجمال. وأنا أعجب من المثل الذى سمعناه ونسمعه حتى الآن : "يا واخذ القرد على ماله. يروح المال ويبقى القرد على حاله". وسبب العجب، أن القرد بقى على حاله، والمال أيضاً بقى على حاله.

وترتفع أصوات فى وجه "الست قمر" محتجه على إهانتها "للحاجة زهرة" أكبر نساء "الحاج سلطان"وتهم "درة زمانها" أن تتشابك معها بالأيدى، ويهم "عباس" زوج درة زمانها، أن يتدخل فى صف زوجته، لولا أن "أبو سريع" يتدخل وهو يصيح :

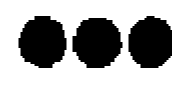
ـ ما هذا؟. تريدون أن يتفرج علينا الناس ! هبوا أنها واحدة فلت لسانها.

هل من طبع أولاد الأصول، أن تفلت ألسنتهم أيضاً. اسكتوا.

وتحس "الست قمر" أنها على وشك أن تقضى على "الحاجة زهرة" فيغريها هذا بالمضى فى الكلام :

ـ أنا غريبة. نعم غريبة عنكم. أنا صحيح من البندر. وميزة البندر، أن فيه حرية. ليس فى البنادر أرض، حتى يستعبد الناسُ الناسُ بهذه الأرض. وإذا كان هناك نوع آخر من أنواع الاستعباد فإنه لا يصل أبداً إلى هذا الاستعباد الذى أراه هنا. ثم ما حكاية الأصول هذه. وما أصلكم أنتم؟ ماذا كان جدودكم؟ من كان "سلطان الكبير" الذى تتحدثون عنه؟ ألم يكن واحداً من هؤلاء الفلاحين؟ واحداً من الملايين "كأبو عوف" كل ميزته أنه عرف كيف يستفيد من الظروف، وكيف يفرض نفوذه على الناس بالقوة، وكيف يقطع الطرق، وكيف ينكل بالأبرياء؟! وما هى حكاية الأصول التى لا تشترى، وأنها من ربنا؟! ربنا قال إن واحداً رزقه الله قوة فى الجسم، يفرض هذه القوة على الناس، ليفرض لنفسه ولعائلته من بعده ما تقولون إنه أصول ! ربنا قال إن واحداً يعرف كيف يتملق الحكام، ويتملق عملاء الأتراك، يصبح من هذه الأصول التى تتفاخرون بها اليوم؟! هل هذا ما قاله ربنا؟ لا تختفوا وراء ربنا، فربنا منك براء. وهبوا أن "سلطان" الكبير خاب فى مغامرته، كما خاب آخرون كثيرون مثله، وفى مثل ظروفه، فأى مصير كان ينتظره وينتظركم. وأين كانت تتأتى لكم حكاية الأصول التى ترددونها كالنشيد كلما أعوزتكم الحجة؟ ألم يكن الطبيعى أن يهرب من الأرض. ومن هذه الناحية، ليعمل أجيراً هنا أو هناك ! "كأبو عوف" وكأنه فلاح بسيط. عندئذ كنتم تتحدثون عن الأصول التى لا تشترى، والتى هى شىء من عند ربنا؟ أم أنكم كنتم تتحدثون عن ظلم الذين يدعون أنهم أولاد أصول، إذا جاء واحد منهم وخطف واحدة من بناتكم. ثم تهاجمون "الست قمر" لأنها ليست من صلب شقى "كسلطان" الكبير فرض نفوذه وقوته البدنية على الناس، وسلك مع الحكام سلوك النفاق والملق والرياء والهدايا والرشوة وشراء الذمم، ليحمى

نفسه من الطرد، ويحمى لكم هذه الأصول لتتحدثوا عنها اليوم فى خيلاء، عندنا فى البنادر..فى المحلة مثلا، **لا نفكر فى هذه الخيالات،** لأننا أحرار، أو على الأقل أكثر حرية منكم، و"الحاج سلطان" لم يجدنى كقطعة خبز ملقاه على الطريق. لا، لقد أتى بى من بيت، ومن عند ناس، ليسوا أقل منكم، إلا فى شىء واحد، إنهم لا يتحكمون فى الناس هذا التحكم، باسم الساقية والجرن والأرض، والأصول ! يا أولاد الأصول ! إن كنتم أولاد أصول، فلماذا تؤذون هذه المسكينة وابنتها؟ لماذا تعاملونها هذه المعاملة الشاذة؟ لماذا تظلمونها، كما ظلم أبوكم ابنتها؟ أهذه أيضاً هى الأصول !



كانت "أم الهنا" طوال هذه المناقشة، واقفة تسمع، وهى لا تكاد تصدق ما تسمعه !

وكانت تتبادل مع ابنتها "مفيدة" نظرات صامتة، تعبر عن الدهشة والعجب والحزن معاً.

وكانتا منعزلتين عن الجمع الحاشد، الذى تجمع فى هذا الفناء، قريباً من عتبة هذه الدار لا تدريان، هل تتسللان إلى الخارج، هل تخطوان خطوة واحدة فتصبحان فى الطريق، تعدوان عائدتين إلى الخص تحتميان به مما ساورهما من خوف، وانتابهما من قلق، وهل هذا الخص بقادر على حمايتهما؟

فإن اعتبر هذا التسلل تمرداً؟ إن اعتبر احتجاجاً؟ فماذا تفعلان، والتمرد والاحتجاج لهما من الجزاء مالا قبل لهما به !

أو تراهما تبقيان؟...وأمرهما على الله؟

لم يكن أمامهما خيار، فقد مضت الأحداث، على صورة مباغتة ومفاجئة وسريعة، فلم يكن أمامهما إلا أن تنتظرا عسى أن يفتح الله لهما فرجاً.

ولقد كانتا تسمعان ما دار فى دهشة بالغة.

إن آخر ما كانتا تفكران فيه، أن تقف "الست قمر" هذا الموقف.

أن تدافع عنهما بهذه الحرارة، وهذه الحماسة، وهذا الاستبسال.

أن تدافع عن "تفيدة" هذا الدفاع الجرىء العجيب، وهى ليست من بلدها، ولا من أهلها، ولا تربطها بها أية رابطة سابقة.

أن تكشف عن حقيقة شعورها نحو هؤلاء جميعاً، وفيهم زوجها نفسه "الحاج سلطان".

أن تجد هذه الجرأة النادرة، لتناقش كل شىء، ولتتعرض لكل إنسان، لا تتعرض له ألسنة رجال القرية إلا همساً.

العمدة مثلا...العمدة ! هل هناك من يجرؤ على حديث عن حضرة العمدة؟ شيخ البلد. شيخ الخفر. كل هؤلاء، تناولتهم بلا خوف، ولا تردد، تكيل إليهم الاتهامات، وكأنها تروى قصة عن أشخاص من الصعاليك.

والسيدات اللائى تعرضت لهن..سيدات البلد. ماذا جرى لها "الست قمر" حتى يصل بها الحال إلى هذا الحد؟ هل فقدت وعيها؟

لم تكن "أم الهنا" ولم تكن ابنتها "مفيدة" تدريان مما يجرى شيئاً.

ولقد نسيتا ما لحقهما من إهانة، نسيتا السبوع، والصينية، والطعام الذى تعبتا فى إعداده، يلقى فى بساطة وسخرية إلى الكلاب والقطط. ثم يطلب إليهما أن ينتظرا ليعودا إلى الخص بعشاء الأسرة : ما يتركه الكلاب والقطط من عظام.

نسيتا هذه كله أمام ما رأتاه، وما استمعتا إليه.

وظلتا واقفتين فى حيرة، وبلا كلام.

كان كل ما يدرو فى خلدهما : متى؟.متى يفرجون عنا؟ متى يتركوننا إلى حالنا لنعود إلى "أبو عوف"، نطمئن عليه، ونتبادل معه الدموع والآلام؟

بل لقد نسيتا "تفيدة" أيضاً.

لم يصبح بهما شوق على رؤيتها.

استقر فى ذهنهما ما قاله "أبو عوف" أبوها : إنها ماتت وإن "تفيدة" التى عند "الحاج سلطان" ليست تفيدة ابنتنا.



وفجأة تتطلع "أم الهنا" فتجد وجهاً صغيراً نحيلا، يطل على الجمع فى حذر، وقد تسمرت عيناه فى شخصين : "أم الهنا" و "مفيدة".

وتصيح صيحة مدوية..بلا وعى :

"تفيدة".

ويلتفت الجمع إلى وراء ليرى عند الباب، بين الفناء وداخل الدار، "تفيدة" تطل فى خوف وحذر وألم، على أمها وأختها، والدموع فى عينيها.

ويصيح "أبو سريع" :

- ماذا؟..ماذا أتى بك أنت؟ ادخلى. عودى إلى حجرتك.

وتجمد المسكينة فى مكانها. قلبها لا يطاوعها أن تترك أمها وأختها على قيد خطوة منها دون أن تقبلهما قبلة شوق.تضع فيها كل روحها، وكل قلبها، وكل عواطفها وكل مخاوفها كذلك.

ولكن صوت "أبو سريع" يلاحقها :

- أدخلى يا بنت...اسمعى الكلام أحسن لك.

ولا ترد..ترد عنها "الست قمر" :

- يا ظالم اتركها ترى أمها. أليس لك أولاد. ألا تعرف شعور الأم.

أما "أم الهنا"..فإنها تخطو نحو ابنتها. تدور حول الجمع الحاشد الذى تجمع فى هذا الفناء، وهى مخدرة، مأخوذة اللب، شاردة، كل ما يهمها أن تتحسس أجزاء بنتها. أن

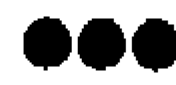
تطمئن إلى أنها هى "تفيدة" كما ولدتها. "تفيدة" الجنين الذى طالما أرق لياليها. "تفيدة" الطفلة التى طالما ارتمت على حجرها.

"تفيدة" الفتاة التى طالما تحدثت معها واستمعت إليها. "تفيدة" الشابة التى اكتمل عودها، وسبا حسنها عقل "الحاج سلطان".

وأما "مفيدة" فقد مضت وراء أمها، خطوة، لا ترى مما حولها شيئاً إلا أختها التى عاشت معها يوماً بيوم ولحظة بلحظة، فى الخص، وأمام الحديقة، وفى الحقول، وحول الساقية، وتضحكان، وتمزحان، وقد تظلهما سحابات حزن طارىء، عندما يصيب الأسرة مكروه.

وخلفهما كان "أبو المكارم" الأخرس، الذى كلف برقابة "تفيدة" فى بيتها، كما كان مكلفاً برقابتها فى خصها.

كان يتحرك كالشبح...يكمل هذا الثالوث التعس الذى شاء له حظه أن يقف فى هذه الدائرة المغلقة، من الظلم والظلمة معاً. لم يكن فى ذهنه شىء إلا هذا الوجه الذى أطل من البـــاب المؤدى من فناء الدار على داخل الدار...إلى حـــريم الدار. وهاجس باهت يراوده. لون أحمر يتحرك بين عينيه : فردة الشراب الأحمر التى ربطت بينه وبينها فى ود لا ينفصم وحب لا يزول.



وكان منظراً حزيناً...بطيئاً...مؤثراً...

ولم يستطع الجمع أمام جلال هذا الثالوث المتحرك أن يقول شيئاً..

لم تستطع "الحاجة زهرة" أن تفتح فمها بكلمة عن الأصول ولا عن سطان.

ولم تقو "الست نبوية" عن أن تحرك ركبتها بما يحرك شفتيها بكلام أو ابتسام.

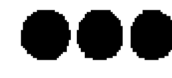
كذلك "درة زمانها" صمتت، ولم تنبس ببنت شفة. "وست الناس" تطلعت فى بلاهة. كذلك النساء الأخريات.

وشيخ البلد، وشيخ الخفر، والآخرون عجزوا عن الوقوف فى وجه هذا الطابور الحزين.

كان الحزن أكثر جلالا من أن يستطيع أحد أن يتعرض طريقه.

وكانت المأساة أعمق أثراً من أن يتمكن واحد من أن يعوق سيرها.

وكانت دموع العروس تهطل كمطر فى يوم عاصف.



وبعد جهد..وبعد وقت طال كأنه الزمن. التقت الأم بابنتها، فتعانقتا، فى غير كلام..وماذا كان يجدى الكلام؟

وارتمت "مفيدة" على أختها، ليتكون من ثلاثتهم، شىء واحد، لا تكاد تتبين العين تفصيلاته ولا آحاده.

و"أبو المكارم" واقف يرقب الموقف الأليم الجليل.

وكلاب الدار تنهش ما أعدته الأم لابنتها يوم السبوع.

وقطط الدار تتخاطف ما فى الأوانى من طعام.

وترتفع أصوات مبهمة متداخلة، فى هذا الفناء الرحيب.

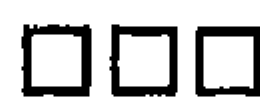
عواء قطط تتصارع مع الكلاب.

ونباح كلاب تزيح القطط عن بقايا الأوانى.

ونشيج ثلاث إناث، لا يعرفن لهن مصيراً ولا مستقبلا ولا أملا.

ورءوس رجال ونساء، أرغمها المنظر الرهيب على أن تطأطىء فى انتظار.

والأخرس يحاول أن يكتم دمعات ترقرقت بين مقلتيه، وظلام الليل بدأ يزحف ليضيف على هذه اللوحة ما كان ينقصها من خطوط وظلال.



٧

إن "أبو عـوف" يدور خلف الثورين، والساقية تدور ويتنازعه الخوف والقلق، ولكنه عاهد الله فيما بينه وبين نفسه، منذ خطفوا ابنته، ومنذ ذهبت "أم الهنا" بغير موافقته إلى زيارتها تلك المنحوسة، أن يترك كل أمره لقضاء الله وقدره.

ولقد رتب نفسه على أن يتلقى أى شىء، فى استسلام ورضى.

وماذا كان يملكه "أو عوف" غير هذا الاستسلام وهذا الرضى؟

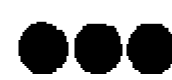
هل لديه سلاح آخر؟ هل يملك وسيلة أخرى؟

إما الاستسلام بهذا القضاء والقدر، وإما ...! وعندها كان "أو عوف" يشرد فى خيالات ورؤى مبهمة وغامضة ومخيفة فى آن واحد.

ولطالما سمع عن رجال يأخذونهم إلى الدوار، وفى الدوار أماكن مظلمة لا يعرفها أحد، وفى هذه الأماكن يتلقون الهول والعذاب القاتم الأليم. وقد يقتلونهم دون أن يدرى أحد عنهم شيئاً، أو يعرف أحد لهم مصيراً.

ولقد سمع عن أفاع وعقارب يضعونها فى هذه الأماكن المظلمة، تنهش فى رجال أبرياء ليس لهم ذنب إلا أنهم وقفوا يوماً فى طريقهم، أو حاولوا معارضة مشيئتهم.

وسمع عن آخرين لقوا حتفهم بطريق لا يعرف أحد عنها شيئاً، ويتناقل الناس أنباءهم همساً، عند حافة هذه الساقية، فى جنح الظلام.



وكانت "أم الهنا" تصادف عينيه مرة، كل دورة من دوراته خلف الثورين وراء الساقية..وكان يراها كما هى، عيناها فى التراب، وأصابعها تبعث بذراته، تبحث عن المجهول.

كانت تنتظر عودة "أبو المكارم" من بيت "الحاج سلطان" بعد أن أرسلته ببعض الأطعمة التى أعدتها لبنتها، وذكريات الزيارة المنحوسة لهذا البيت، وما لقيته من الجمع هناك تلاحقها. وتعمق فى قلبها، حتى لتقفز إلى عينيها، دمعات ملتهبة محرقة.

على أنها لا تنسى موقف "الست قمر" منها، وقد نصبت من نفسها مدافعاً عنها.

وتقول فى نفسها، وهى تستعيد هذه الأحداث.

ربنا يطيل عمرك "يا ست قمر". أصيلة من بيت كريم. لكن يا ترى لماذا وقفت منا هذا الموقف، وليس بيننا وبينك معرفة سابقة، ولم تربطنا بك رابطة ما؟ بل إنك آخر زوجات الرجل، قبل زواجه الأخير، والطبيعى أن تشتد الغيرة بين آخر الزوجات والزوجة الجديدة.

إنها داخله عليها. إنها الصفحة الأخيرة من صفحات حياته، والصفحة الأخيرة تغطى على الصفحة التى تسبقها مباشرة، لابد أنها إنسانة كبيرة القلب والعقل، أم يا ترى لأنها جميلة وفاتنة وبضة، وموضع أحلام رجال القرية جميعاً، لا تعرف الغيرة إلى قلبها سبيلا، فهى واثقة من نفسها، ومن جمالها، ومن فتنتها، بينما "الست نبوية"...أعوذ بالله!! والثانية العجوز "الحاجة زهرة"، دعوة من دعوات السوء فى ليلة القدر، استجابت!

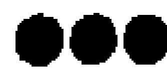
وتشرد "أم الهنا" ذاهلة، ثم تستجمع شتات نفسها، شتات ذكرياتها وتعود صورة "الست قمر" ودفاعها الحار عنها وعن بنتها، وشجاعتها فى الهجوم على كل الأعيان والسادة، تثير تفكيرها، فتعود تسأل نفسها :

هذه الغريبة...القادمة من المحلة الكبرى. ما أشهمها ! لكن ما هذه المحلة الكبرى؟ ماذا تكون المحلة الكبرى هذه يا "أم الهنا"؟ هل هى قرية مثل قريتنا هذه، فيها أعيان لا

يستطيع أن يخالفهم أحد؟ إن هذه يا "أم الهنا" فلابد إذن أن تكون "الست قمر" من بيت كبير، كبير جداً..ربما أكبر من بيت "الحاج سلطان"، ومن بيت العمدة، وأن لها ظهراً يسندها، ويحول بينها وبين أى أذى يمكن أن يلحق بها، عندما تقف هذا الموقف الشجاع. وإن تكن المحلة الكبرى شيئاً آخر، غير قريتنا هذه. مدينة من مدن البندر مثلا، فلا بد إذاً أن لها طبيعة أخرى، تسمح للناس فيها أن يرفعوا رءوسهم أمام السادة والأعيان، بلا خوف، ولا رعب، ولا احتراس، لا يعبأون بشىء.

وتعود "أم الهنا" إلى نفسها فتقول :

لكن ليس هذا معقولا. السادة سادة فى كل مكان. هل معقول أن تتساوى الرءوس مع الأقدام؟ وهل ترتفع العين على الحاجب؟



وترفع "أم الهنا" رأسها عن حبات التراب التى تعبث فيها بأصابعها، فتقع عيناها فى عينى "أبو عوف" وهو يدور كالثورين حول الساقية.

ولكنهما لا يتبادلان أى تعبير، ولو فى صمت.

لقد قامت بينهما عزلة غريبة، منذ خطفوا البنت، بل لقد أصبحت هذه العزلة سداً منيعاً غليظاً، منذ ذهبت "أم الهنا" رغماً عنه بالسبوع إلى بيت الحاج سلطان" وتردد فى القرية ما حدث، ووصل إلى آذان "أبو عوف" فلوى عنه عنقه، يريد أن يبعد هذه السيرة عن سمعه.

وتشعر "أم الهنا" أن رجلها لم يعد معها..ولم يعد كذلك لها. لقد انتهى ما بينهما، فلم يعد يربطهما ما كان بينهما من حب، وإنما أصبح الذى يربطهما ما فى قلبيهما من ألم، وحزن وقلق.

وتستعيد "أم الهنا" أيام أن كان "أبو عوف" معها، ولها : الحب، والحنان وشيئاً آخر أشد من الحب والحنان، هو مسئوليتهما المشتركة عن لقمة العيش يوفرانها لأنفسهما وللبنتين اللتين أنعم الله بهما عليهما.

لكم شقيت "يا أبو عوف". لكم بذلت من نفسك، ومن جهدك ! لكم دفعت من صحتك ومن نور عينيك، ومن أنفاس صدرك، من أجلنا كلنا.

يا "أبو عوف" يا مسكين...ولكم كنت تنسى كل ذلك، عندما تجلس بيننا تداعب بنتيك، وتضحك معى، وتمزح، وتعبث كالأطفال، فى سذاجة ورضى وقناعة.

أنا "أم الهنا" يا "أبو عوف"...أنا أنا لم أتغير يا رجل. صحيح لقد راودنى يوماً حلم من الأحلام، أن مصاهرتنا "للحاج سلطان" ستكون فاتحة خير لك. ستعفيك من هذا الشقاء. وصحيح أننى أسرفت فى حلمى، فتصورت أننا انتقلنا إلى بيت من بيوت "الحاج سلطان"، وأن الرجل وفر لنا فيه مقاعد، وأطباقاً، وسريراً ننام عليه. وأن واحدة من خادماته، ستقوم على خدمتنا، وأنت يا "أبو عوف" يا ولى من أولياء الله. أنت وحدك كنت تعرف هذا المصير.

كنت تعرف طبيعة هذا الثعلب الجبان. سامحنى يا "أبو عوف". لم يكن ذلك إلا حلماً! سامحنى يا "أبو عوف". لم يكن ذلك إلا سراباً ! أنا مخطئة يا "أبو عوف" فإنى لم أسمع كلامك أول مرة...أنا امرأة ضعيفة يا "أبو عوف". عاودنى حلم آخر، ولكنه لم يكن هذه المرة، إلا حلم أم...أم تريد أن تكتحل عيناها بمرأى بنتها، وقد غابت عنها لأول مرة فى حياتها أسبوعاً...أسبوعاً كاملا...سبعة أيام بلياليها يا "أبو عوف"، وخيل إلى أنى لابد أن أذهب إليها، لأجبر خاطرها، وأراها. هل كانت هذه جريمة يا "أبو عوف". لكن أنا مخطئة يا "أبو عوف" فأنت قلت لى إن "تفيدة" لم تعد بنتنا، وإنها ماتت...ماتت ! ليتنى صدقتك، ولم أذهب إليها.

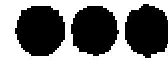
لكنى أم يا "أبو عوف" أم...هل تعرف ما شعور الأم؟ أنا حملت "تفيدة" فى بطنى هذا تسعه أشهر...عاشت فى داخلى...بجوار قلبى. كنت أراها فى بطنى كل ثانية من ثوانى هذه الشهور التسعة، بقلبى، قبل أن اراها بعينى ! هى ابنتك أيضاً يا "أبو عوف" ولكنك أب..رجل، الأم شىء آخر يا رجلى..هل تعود إلى كما كنت معى دائماً؟

لكنها تراه ماضياً يدور...يبعد عينيه عن عينيها، كلما كادت عيونهما أن تلتقى، شارداً مذهولا...

وتهز رأسها فى حسرة، وهى تقول :

عوضى على الله فيك يا "أبو عوف". عوضى على الله فيك يا زوجى، ويا حبيبى. إنى أخاف أن تكون أنت أيضاً لم تعد "أبو عوف" الذى أعرفه.

أخاف أن يكون "أبو عوف" رجلى قد مات، وأن "أبو عوف" هذا الذى أراه شخص آخر جديد على. يا مسكين !



وفجأة تظهر من بعيد نقطة باهتة متكورة، تستحث السير نحو الساقية.

وتطيل "أم الهنا" النظر، وإذا هذه النقطة تكبر وتكبر كلما اقتربت منها.

ثم تتبينه أخيراً : "أبو المكارم".

"أبو المكارم" عاد من رحلته إلى البيت المخيف !

وتهب "أم الهنا" واقفة كالمسحورة !

وتكاد أن تعدو إليه، لتقابله فى منتصف الطريق، فإنها تريد أن تعرف منه هو : هل رآها بعينيه؟ هل شاهدها؟..هل نقل إليها ما فى قلبها من شوق إليها؟ هل قدم إليها ذوب نفسها، فى هذه المأكولات البسيطة المتواضعة؟ وهل أكلتها أمامه؟ هل أحبتها؟ هل استعادت ذكرياتها مع كل قطعة من هذه المأكولات؟ هل عرفت أن البيض وضعه دجاج، ربته بيديها؟..هل أدركت أن قطع الجبن هى التى ألقتها فى المش القديم، فى ركن مظلم من أركان الخص؟

وبينما هى كذلك، تتنازعها هذه المشاعر الساذجة الفياضة، تكاد تدفعها دفعاً إلى أن تعدو إليه، تسابق الريح نحوه، لتعرف منه الإجابة عن كل سؤال يتردد بين جوانحها، إذا نظرة جامدة صلبة تلاحقها من "أبو عوف" فتشدها شداً إلى المكان الذى هى فيه.

لقد شعرت أن "أبو عوف" يأمرها ألا تتحرك، ويطلب إليها أن تنتظره هنا..إياك أن تتحركى نحوه...ووقفت تتململ، وتتلفت، وعلى شفتيها ابتسامة، وفى عينيها دمعة!

ووصل "أبو المكارم" فأخذته بين ذراعيها..ومضت تتحسسه.

لقد كان عندها. إنه قادم من عندها. كيف وجدها؟ ماذا فعل هناك؟ عشرات الأسئلة، وعشرات الانفعالات، تتلاقى فى نفسها فتفقدها القدرة على الكلام وتكاد تصبح مثله خرساء، تعبر عن نفسها بالإشارات والصيحات والحركات.

بينما "أبو عوف" قد التفت إليه...صامتاً جامداً قلقاً.

لم يكن أقل فضولا من "أم الهنا" ولكنه كان أكثر منها صبراً واستسلاماً.

وبدأ "أبو المكارم" يحكى ما حدث على طريقته الخاصة، بالإشارة، والصيحة، والحركة، وتمثيل الحوادث والأحداث، وتقليد الأعمال والتصرفات.

وكانت لغته أفصح من اللغة الصريحة الواضحة.

وكانت "أم الهنا" و"أبو عوف" قد اعتادا عليها، حتى لقد كانا يفهمانها، أعمق مما يفهمان عن الآخرين، ممن ليست فى ألسنتهم عقد، وممن لم يحبس ألسنتهم شىء.



ولقد فهما عنه، أنه ذهب إلى المنزل الكبير. تسلل خفية، وفى يده اللفة تحمل ألوان الطعام التى أعدتها "أم الهنا".

وبينما هو فى طريقه إلى الداخل، وجد فى الفناء الواسع الكبير "أبو سريع".

ولطمت "أم الهنا" خديها، وهى تفاجأ بأن "أبو سريع" قد ضبط الواقعة.

وتوقعت أن يحدث منه مع "أبو المكارم" مثلما حدث معها، يوم السبوع.

هل تراه قد أخذ منه اللفة، وألقى بالطعام إلى الكلاب والقطط؟ هلى تراه قد عبث بكل ما أعدته لابنتها، ولم يرحم مشاعرها...لقد أعدت الفطيرة التى أرسلتها إليها بدموعها..بأشواقها، بما تدخره فى قلبها لها من حب وشوق وحنان.

وماذا تراه قد فعل مع البنت المسكينة الغريبة، فى هذا البيت الكبير؟

وهل يا ترى وقفت "الست قمر" إلى جانبها، تدفع عنها الأذى؟ لقد قالت إنها باقية فى المنزل من أجل "تفيدة"، لتحميها من العصابة الظالمة. ولكن ربما لم تكن "الست قمر" فى المنزل وقتها. ربما كانت مشغولة بشىء آخر، فوجد "أبو سريع" فرصته فى عينيها للتنكيل بالبنت و"بأبو المكارم" معاً.

ولكن "أبو المكارم" يمضى فى روايته، على نفس الطريقة، وبنفس الأسلوب.

وتفهم "أم الهنا" أن "أبو سريع" استوقفه وقال له :

ـ ماهذا؟...ماذا تحمل يا أخرس؟.

ولم يكن الأخرس من البلاهة أو السذاجة، بحيث لا يجد طريقة للإفلات من هذا الوحش اللعين.

أشار إليه أنه اشترى شيئاً كلفته بشرائه "الست قمر".

وتركه "أبو سريع" يدخل الدار، ولم يعبأ بما فى اللفة من أشياء.

وهنا تنفست "أم الهنا" الصعداء، وهى تقول صائحة.

ـ الحمد لله. أنت كريم يا رب. أنت ستار.

وأخذ "أبو المكارم" يتمم روايته..

دخل باللفة إلى "الست قمر" فوجدها فى حجرتها، مشغولة ببعض أمرها، فوضع اللفة أمامها وأشار إليها إشاراته المعروفة، فأدركت أنها من "أم الهنا" لابنتها، وأنها لم تجد وسيلة لإرسالها لها، إلا عن طريقها هى.

واطمأنت "أم الهنا" وهى تسمع هذه الرواية، على أنها ظلت حريصة على أن تعرف ماذا فعلت "الست قمر" باللفة وبالطعام.

أشار "أبو المكارم" على خده. وقلد قبلة طويلة دافئة، تلقاها على خده هذا المحظوظ..لقد قبلته "الست قمر". قبلته شاكرة له شهامته، من أجل فتاة مغلوبة على أمرها.

وضحكت "أم الهنا" ضحكة فاترة...كانت أول ضحكة افترت عنها شفتاها منذ بدأت رواية "أبو المكارم" عن مهمته.

ولكنها مضت تسأل عن بقية القصة.

وفهمت عنه، أنه طلب إليها أن تعطيها "لتفيدة" قبل أن ينصرف. لابد له من أن يراها تسلمها إليها أمامه الآن.

ولم تتوان "الست قمر" عن تنفيذ هذه الرغبة؟ أدركت أن هذه هى رغبة "أم الهنا". رغبة أم مغلوبة على أمرها، وعلى مشاعرها.

وخرجت من حجرتها، ثم عادت بعد لحظات، وهى تمسك بيدها يد "تفيدة". وأجلستها أمامها فى حجرتها.

قالت لها :

هذا من أمك. افتحيه لابد أنه طعام جميل، من صنع يدى أمك الحبيبة.

كليه هنا بعيداً عن هؤلاء اللئام، الذين يتعقبونك فى كل خطوة من خطواتك.

لن يجرؤ واحد منهم على أن يدخل هنا، وإلا أريته نجوم الظهر. كلى يا بنتى.

واستمرت "أم الهنا" تتعجل بقية الرواية.

وفهمت عنه أن "تفيدة" فتحت اللفة، ووجدت الفطيرة، والبيض والجبن، والمخلل، ففرحت بذلك فرحاً شديداً.

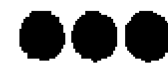
قالت :

- ربنا يطيل عمرك يا أمى. ربنا يصبرنى ويصبرك..لم تنسنى..هذه الفطيرة أنا أعرفها. أنا غسلتها بيدى وهى لا تزال قمحاً. نظفت حبات القمح قبل أن تطحن. أنا أكاد أتبين فيها كل حبة.الله ! وهذا الجبن، أنا التى كنت أسقطه فى بلاص المش، وهذا المخلل والبيض المسلوق. كبرت الكتاكيت التى ربيتها، وأطعمتها، وأصبحت دجاجاً...ما

أجمل هذا الطعام ! ما ألذه ! ما أنظفه ! أبى زرع القمح بين أشجار الفاكهة، وغذاه بدمه وعرقه وصحته، ونحن جميعاً سهرنا عليه. حرسناه. رعيناه حتى نما، ثم حصدناه معاً وأعددناه.

وأمى ذهبت إلى كفر الزيات وطحنته. والدجاج من عندنا، من جهدنا.

والجبن اشتريناه، ودفعنا ثمنه قمحاً أو شعيراً. وهذا المخلل من بيتنا. كلى معى يا "ست قمر" ذوقى صنع أمى وأختى "مفيدة" ستشعرين أنه طعام ألذ كثيراً مما نأكله هنا فى هذا البيت. إن له مذاقاً آخر. لذة أخرى.



وأكلت معها "الست قمر"وهى تربت على كتفها.

بل لقد طلبتا من "أبو المكارم" أن يأكل معهما، فأكل معهما أيضاً.

الثلاثة أكلوا وشبعوا كما لم يأكلوا ويشبعوا من قبل.

وقالت "أم الهنا" :

ـ ليتنى أرسلت طعاماً أكثر مما أرسلته، حتى يشبعكم جميعاً.

وأخذ "أبو المكارم " يشير إشاراته يؤكد بها أن الطعام أشبعهم جميعاً، شبعت "تفيدة" وشبعت "الست قمر" وشبع هو كما لم يشبع أبداً. لقد كان طعاماً لذيذاً جداً لم يذق مثله فى حياته.

ونسى "أبو المكارم" أن يؤكد إلى جوار ما أكده، أن شعوره بلذة هذا الطعام لا ترجع إلى جودته فى ذاته، ولكن إلى شعوره الخاص نحو "تفيدة"، كان يأكل معها طعاماً تحبه. وكانت سرية الأكل كسرية اللقاء بين حبيبين، تعطى اللقاء طعماً خاصاً، لا يوفره اللقاء العلنى الواضح الصريح.

وكانت "أم الهنا" حريصة على أن تعرف ماذا تم بعد هذا.

ماذا قالت "تفيدة" "للست قمر" وماذا قالت "الست قمر" "لتفيدة"؟

وفهمت من الأخرس أنه قد دار بينهما بعد ذلك حديث مختلط بانفعالات متناقضة من الحزن والفزع والخوف والقلق.

"تفيدة" قالت "للست قمر" :

- كأنى رأيت أمى اليوم، وأبى، وأختى. كأنهم زارونى، كأنى زرتهم.

- اصبرى "يا تفيدة". ربنا معك.

- الخص الجميل الذى عشنا فيه "يا ست قمر" أجمل من هذا البيت الكبير. ليته دام. ليت أيامه لم تنته ابداً.

- كنت سعيدة فيه يا "تفيدة" طبعاً مع أهلك؟

- سعيدة؟ كنت "تفيدة" الحرة الطليقة التى تستقبل كل يوم فرحة سعيدة. كنت "تفيدة" كما خلقها الله، لا "تفيدة" كما حبسها هؤلاء الناس !

- وألم تحبى "الحاج سلطان"؟

- كيف أحبه "يا ست قمر"؟ أحب الرجل الذى خطفنى من بين أحضان أهلى؟! أحب السيد الذى يأتينى كلما وجدنى وحيدة، يحاول أن يغتصبنى؟ أن أعرف أنه لم يتزوجنى إلا عندما وجد أن الزواج هو الطريق الوحيد إلى ! أعرف هذا.

- ولم تحبى أحداً سواه؟

- فى قلبى نار "يا ست قمر". والنبى اتركيها هادئة. حتى لا تشب الآن فتحرق ضلوعى.

- ولماذا لم يحل حبيبك بينك وبين هذا الزواج؟

- ولماذا لم يحل أبى بينى وبين هذا الزواج؟ إنه العجز "يا ست قمر" العجز هو الذى جعله يقرأ معهم الفاتحة. وضعوا يده فى يد "الحاج سلطان" لأول مرة ليقرأ الفاتحة ثم

وضعوها فى يده مرة أخرى، ليكتب الكتاب. ولن يقبل "الحاج سلطان" بعد ذلك أن يضع يده مرة أخرى. إنه يخاف على يده من يد أبى. مسكين يا أبى.

والله إن يد أبى أطهر من يد "الحاج سلطان" وأنظف وأشرف. لكن هكذا نعيش.

ـ وكيف لا تقولين هذا "للحاج سلطان"، وأنتما وحدكما.

ـ أنا أقول هذا للحاج. أنا أتحدث معه. أنى أخافه. إنى أرتعد منه. إنى فقط أطيعه. يقول ما يقول، فيكون له ما يريده منى..وانتهينا.

ـ لا تتحدثان؟

ـ أبداً على الإطلاق.

ـ لا تتناقشان؟

ـ كيف "يا ست قمر"..من أنا هنا؟ أنا عبدة من عبيده. إن رزق أبى بين يديه. وأنا أخاف على أبى منه.

ـ لكنه زوجك !

ـ لا يا "ست قمر".

ـ كيف هذا؟ لا تقولى هذا...!

ـ الزواج يا "ست قمر" ليس هكذا! أن أعرف الزواج كزواج أبى وأمى.

اثنان مسكينان تزوجا..قرب بينهما البؤس وربطت بينهما الحياة. أملهما واحد.

ألمهما واحد. يحلمان أحلاماً واحدة. كل همه أن يعيش، وكل همها أن تساعده على أن يعيش. الرباط واحد. الحبل الذى يشدهما إلى بعضهما واحد. أما أنا فماذا يربطنى "بالحاج سلطان"؟ أنا أحب الخص، وأتمنى أن أعود إليه، وهو لم يدخل الخص إلا مرة واحدة ليلاحقنى، يخطف قبلة، أو يحاول أن يضمنى إليه. لم يكن يرى فى الخص إلا أنا..أو إلا نفسه الجائعة إلى.أنا لا أريد من الدنيا! إلا أن أعيش مستورة، وهو يريد

أشياء كثيرة، لا تخطر لىّ على بال. أنا بنت صغيرة، وهو رجل كبير، أسعد أوقاتى أن أمزح مع أختى "مفيدة" وأن أساعد أبى فى عمله فى الحديقة، وأن أخبز مع أمى وأن ألتقى بمسكين مثلى يسعده منى لحظة نقف فيها بين الحقول. أما هو فأسعد أوقاته مع العمد والمشايخ والحكام، وتحصيل أجرة الساقية والجرن لمن يستعملهما ومنافع أخرى أنا لا أعرف عنها شيئاً. صحيح أنا زوجته فى الشرع، ولكنى لا أعتبر هذا زواجاً كما فهمته أنا. ستقولين إنى صغيرة، هذا صحيح، ولكنى أفهم هذه الأشياء "يا ست قمر".

- من يدرى؟ ربنا سيفرجها بكرمه.

- والله يا "ست قمر" لولاك هنا فى هذا البيت، لقتلنى الهم والخوف، أنت الوحيدة هنا التى تصبرنى على ما ابتلانى الله به.

- أنت كابنتى يا "تفيدة".

- وألا تغارين منى؟

- أغار ...لا والله. أنا أشفق عليك. أنا لا يهمنى هذا الحاج أبداً.

لقد غشنى فتزوجته، ولكنى اكتشفت أنه لم يكن لى ولم أكن له. والذى أبقانى هنا، الأولاد. ولولا هذا لتركته. أنت لا تعرفين أهل المدن وكيف يعيشون.

إننا فى المدينة فى المحلة الكبرى، عندما عشت مع أهلى، وفى كفر الزيات عندما عشت مع زوجى الأول، نرى الحياة على غير ما يراها هؤلاء.

فى المدينة كما فى القرية أناس مثل "الحاج سلطان"، لا تهمهم إلا مصالحهم ولا يشغل بالهم إلا فوائدهم، ولكن المدن كبيرة، ونفوذ هؤلاء لا يمتد إلى كل مكان وكل شخص كما يحدث هنا.

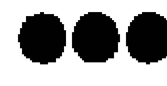
والناس العاديون يكدحون ليعيشوا، ولكنهم أحرار فى حياتهم، يحاولون أن يتستمتعوا بالحياة وأن يقضوا أيامهم فى هناء. وفى المدن مدارس وموظفون فى الحكومة، وطبقات كثيرة متقاربة يسند بعضها بعضاً. وفى المدن نور، يكشف هذا الظلام الذى نحيا نحن

هنا فيه. إن الظلام فى القرية يسرى فى كل شىء فى طرقاتها، وفى حقولها، وفى نفوس الناس كذلك. وهو يساعد أصحاب المصالح على أن يفتكوا بالآخرين. آه لو استطعنا أن نحطم هذا الظلام، يا بنتى !

- تنادينى يا بنتى؟!

- نعم ...يا بنتى.

- أنت أمى هنا. أنا أرى فيك وجه أمى. أحس من نبراتك قلبها وهو يخفق بحبى..كأنها معى، كأنها تضمنى إلى صدرها كالطفلة ترتمى على ثديها. ترضع مع لبنها، الحب والعطف والأمن والحنان. ضمينى إليك يا "ست قمر" يا "أمى".

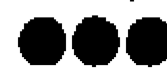


وتبكى "أم الهنا" من قلبها، وهى تفهم عن "أبو المكارم" هذه الرواية.

أما "أبو عوف" فإنه يشيح بوجهه بعيداً عنهما، حتى يخفى دموعه الضنينة العصية ويقول فى نفسه :

- وجدت لها هناك أماً. فهل تجد أباً؟

وبعد لحظات من ألم صامت، ونحيب.. يتجه "أبو المكارم" إلى "أبو عوف" يأخذ منه العصا، يضرب بها الهواء، فيكون لذلك صوت يستحث به الثورين على المضى فى دوراتهما المتصلة، فتدور الساقية، ويرتفع صوتها، كالعويل!



ويعود "أبو عوف" مطأطىء الرأس فى طريقه إلى الحديقة.

وخلفه "أم الهنا" تستعيد ما فهمته عن "أبو المكارم" والدموع تبلل خديها. وعندما يصل "أبو عوف" إلى مدخل الحديقة، يتسلل إليها، ليختفى بين الشجر.

أما "أم الهنا" فإنها تلقى "مفيدة" وقد استبد بها القلق والخوف، فتأخذها بين أحضانها وتحكى لها ما حدث للفة الطعام التى أرسلتها، وماذا كان بين "تفيدة" و "الست قمر" من أحاديث.

وفى صوت واحد، تتجه الأم وابنتها بالدعاء على من فرق شمل الأسرة، و "للست قمر" أن يحميها من أى سوء.



إن "أبو عوف" و "أم الهنا" يمضيان بعد ذلك فى الحياة، كسفينة بلا شراع، أمرها متروك لإتجاهات الريح وللتيار.

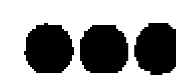
على أن شيئاً جديداً عاد يربط بين قلبيهما : رغبتهما المشتركة فى الوقوف على أنباء المسكينة الوحيدة "تفيدة".

ولم تكن لهما من وسيلة يقفان بها على أخبارها، إلا من "أبو المكارم"، يذهبان إليه كلما شعرا بأنه وحيد عند الساقية، وأن أحداً لا يرقبهما، ليستمعا إلى رواية عنها وعما يحدث فى بيت "الحاج سلطان". أو يقبل هو إليهما ليجلس أمام الخص يقص عليهما القصص، ويحكى لهما الروايات.

وعندما كان "أبو عوف" يعلم أن "أبو المكارم" وحيد عند الساقية، كان ينادى "أم الهنا" فتتبعه إلى هناك لتشاركه الإنصات إليه، والاستماع إلى رواياته، فإن أقبل "أبو المكارم" وكانت "أم الهنا" وحدها عند الخص، دخلت إلى الحديقة تبحث عن "أبو عوف" ليستمع إلى "أبو المكارم".

وكان هذا هو الرباط الجديد الذى قام بينهما.

أن يتتبعا ما يحدث فى بيت "الحاج سلطان" وما يحدث "لتفيدة" ثم يتبادلان النظرات فى عبادة صامتة إلى الله أن يكمل أيام ابنتهما بالستر، فى هذا البيت المخيف، وأن يطمئنهما دائماً عليها.



لقد بدأ بيت "الحاج سلطان" يشهد تطوراً جديداً منذ دخلته العروس المخطوفة "تفيدة".

وكان أول مظهر لهذا التطور هو "الشيخ مرزوق"، شيخ الجامع، ومؤذنه وإمام الناس فى كل صلاة، ومعلم أولادهم القرآن، والقاضى الذى يعقد العقود، ويفتى الناس فى أمور دينهم، ويهديهم إلى الصراط المستقيم.

وهو رجل عاش عمره فى القرية. أخذ العلم والاسم عن والده الذى سبقه إلى صحن الجامع فأقام فيه يقرأ القرآن، ويرتله، ويعلمه طلاب العلم، ويفسره للناس، ويؤم المصلين، ويخطب فيهم أيام الجمع والأعياد، ويكتفى بما يرسله إليه أهل القرية من حبوب، لم يفرضها عليهم بنفوذه، فإنه لم يكن يملك إلا نفوذ العلم بكتاب الله وسنة رسوله، ولم يطلبها صدقة وإحساناً، وإنما جرت بها عاداتهم وشعورهم بأن الرجل يسخر حياته كلها لله ولهم.

فلما مات هذا الرجل المبروك، ترك مكانه "للشيخ مرزوق"، فسلك نفس الطريق وأصبحت حياته هى جامع القرية.

يذهب إلى الجامع قبل الفجر، ليفتح أبوابه، ويعده للصلاة، فإذا ما أقبل الفجر، وقف يؤذن للناس أمام الباب، ثم يؤم المصلين، وبعد الصلاة - صلاة الفجر خاصة - يتوجه إلى الله بالدعاء، طالباً منه الرحمة والغفران لعباده المؤمنين الصالحين.

وكانت له طريقة خاصة فى دعاء الفجر، يحبها أهل القرية جميعاً.

وكان له صوت يتهدج وهو يدعو، يؤثر فى قلوب المصلين.

ولهذا كان عدد كبير منهم يحرص على أن يؤدى صلاة الفجر، ليستمتع بهذه اللحظات النورانية المباركة وصوت الشيخ يرتفع فيها بآى الذكر الحكيم، ثم بالدعاء العميق المؤمن.

وكثيرون كانوا يحيطون به بعد الصلاة، يقرأون معه الأوراد، ويسبحون معه بحمد الله، ثم يقبلون يديه ويتوكلون بعد ذلك على الله، يضربون فى الارض باحثين عن رزقهم، ورزق عيالهم.

كذلك كان "الشيخ مرزوق" يفعل فى صلاة الظهر، وفى صلاة العصر، وفى صلاة المغرب، وبين المغرب والعشاء كان يتوسط صحن الجامع، قريباً من القبلة، يلقى عظاته، ويشرح لحلقة من الفلاحين حوله، آيات من كتاب الله، ويرد على أسئلة كثيرة لهم، يختزنونها فى نفوسهم، فإذا ما أقبل وقت الصلاة، انصرفوا يصلون خلفه، ثم أخذوا يختمون الصلاة فى اصوات مرتفعة حيناً، خافتة حيناً آخر، شاكرين فضل الله على يوم من الأيام قد مضى بالستر والبركة راجين يوماً جديداً، يقبل إليهم بالستر والنعمة كذلك.

ولم يكن "للشيخ مرزوق" أحد يعينة على هذه المهمة التى يقوم بها إلا غلام صغير ينظف الجامع، ويساعد الشيخ على بعض أمره، كما يساعده فى تحفيظ الأولاد القرآن، ولهذا أطلقوا عليه اسم العريف.

وكان الشيخ يرسله إلى بيته فى بعض الأحيان، يسأل أهل بيته عما يريدون، فقد كان منقطعاً تمام الانقطاع للجامع ولله.

وفى يوم من الأيام طلبوا "الشيخ مرزوق" فى بيت "الحاج سلطان"، فذهب إلى البيت، وهو معتقد أن الحاج نفسه هو الذى يريده.

وعندما وصل إلى البيت، دعوه إلى الداخل، ليقابل "الست نبوية".

ولم يكن هذا عجيباً، فقد اعتاد أن يطلب إلى البيوت فى بعض الأحيان خاصة بيوت المحجبات، ليبارك طفلا مريضاً، أو يقرأ آيات من القرآن يطلب بها الرحمة لأحد فى ضيق.

ولما قابل "الست نبوية" وجدها معفرة الوجه، مبعثرة، ملتهبة العينين، متورمة الخدين، فهاله أمرها.

وكان "أبو المكارم يقف منها غير بعيد، لا تعبأ هى به ولا يعبأ به أحد غيرها.

أخرس...أبكم...لن ينطق بحرف مما يسمع !

ولكنه وعى كل شىء، وحكاه بعد ذلك بطريقته "لأم الهنا" و "أبوعوف".

قالت "الست نبوية" :

ـ أنقذنى "يا شيخ مرزوق"...أين بركاتك يا "شيخ مرزوق".

ـ ماذا بك يا بنتى...بسم الله الرحمن الرحيم. ما هذا الذى يبدو عليك؟

هل كدرك شىء حتى تظهرين هكذا؟..صلى على النبى يا بنتى واحكى لى.

ـ تسألنى ماذا كدرنى ! اسألنى ماذا قتلنى ! أنا جننت يا "شيخ مرزوق".أنا كفرت يا "شيخ مرزوق".

ـ أستغفر الله العظيم...أستغفر الله العظيم.استغفرى يا بنتى ربك سبحانه وتعالى.

لكنها لم تستغفر وأخذت تبكى بين يديه وهى تقول :

ـ انتهى. لم يعد فى العالم خير ولا بركة !

ـ العالم بخير يا بنتى...إن لله فى كل شىء حكمة، ونحن ضعاف لا نعرف حكمة الله.

ـ وأى حكمة فى أن تدخل واحدة وضيعة حافية إلى بيتنا، وتصبح مثلى فى البيت؟

ـ من هذه يا بنتى؟ صلى على النبى.

ـ "تفيدة" بنت "أم الهنا" يا "شيخ مرزوق"، أصبحت مثلى تماماً.

ـ أليست زوجة الحاج وأنت زوجته؟

ـ وبهذا تصبح مثلى..بلا فرق يا "شيخ مرزوق" !! أنت أيضاً يا "شيخ مرزوق" !!

ـ لا حول ولا قوة إلا بالله يا "ست نبوية" ألست مؤمنة. كلكم لآدم وآدم من تراب.

ـ لا...أبداً.

ـ استغفر الله العظيم. لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى.

- إننى سأجن يا "شيخ مرزوق". اعمل معروفاً فى وافهمنى جيداً.

- ماذا تريدين يا بنتى؟

- أريد منك أن تقرأ عليها سورة يس..بالمقلوب، حتى تنقلب حياتها ويطردها الرجل المجنون الذى ضحكوا عليه وزوجوها له.

- لا حول ولا قوة إلا بالله. أنا يا بنتى أقرأ عليها سورة يس..بالمقلوب ! أدعو الله عليها، لتصير حياتها نكداً ! أطلب من الله أن يسىء إلى واحدة من خلقه ومن عباده ! أنا يا بنتى ! تريدين أن تفضحينى فى آخر أيامى؟ تريدننى أن أخون أمانة الكتاب والسنة؟ حرام عليك يا "ست نبوية" افهمينى...

ولم تدعه يكمل ما يقول فصاحت فيه صيحة غليظة نابية :

- نعم لابد أن تفعل ما أقوله لك. أنا أخت العمدة. أنا بنت العمدة.

أنا ست البلد كلها، وإذا قلت لك شيئاً، فإياك أن تناقشنى فيما أقول.

- نعم هذا صحيح أنت أخت العمدة، وبنت العمدة، أنت سيدتنا وعلى رأسنا، ولكن أوامر الله أقوى من أوامرك، وحدود الله أبقى..وأنا رجل عشت فى المسجد. حبوت فيه طفلا، ودرجت فيه غلاماً، ونشأت فيه شاباً، ولم تسمع أذناى إلا ترتيل القرآن، وتلاوة الأحاديث النبوية الكريمة.

رحم الله أبى "الشيخ مرزوق الكبير". لم يكن بينى عن أن يردد اسم الله واسم نبيه الكريم، ما سمعته يوماً إلا وهو يدعو الله أن يهدى عباده. حتى الذين كانوا يسيئون إليه، وفى الجامع كان يدعوا لهم بأن يهديهم الله إلى سبيل الرشاد. كان يقول لى إذا أذاك أحد، فادع الله بقدر ما يؤذيك، فإنه ضال يستحق العطف والرثاء ! وقد عشت على القرآن، ووضعت بين صفحاته النورانية بصرى وبصيرتى ومن كتب السنة والشروح تزودت بزاد لا يزول. فهل أنا يا "ست نبوية" أهل ذلك؟ ترضين أنت لى ذلك؟

- نعم لابد لك من ذلك.

- بل اطلبى أن أتلو لك آيات من كتاب الله ليهديك، وليدخل على قلبك الأمن، ويزودك بزاد التقوى والصبر.

- بل أطلب منك أن تدعو عليها عند الفجر، فإن دعوة الفجر أقوى، وتقرأ سورة يس بالمقلوب عليها، لتخرج من البيت طريدة...لتعود إلى الوحل الذى جاءت منه. إلى الخص. على أبيها الحافى العريان. إلى أمها الصعلوكة. إلى أختها القذرة.إن هذا ليس مكانها يا "شيخ مرزوق". وأنت لا ترضى للناس بأن يكونوا فى غير المكان الذى خلقهم الله ليكونوا فيه.

- ادعى الله يا بنتى ولا تشاركيه حكمه. إنه حكيم ورحيم وقادر على كل شىء. تحدثى عن نفسك، وعن همك، ولا تحاولى أن تتدخلى فى أمره، أو تشاركيه حكمته.

وعادت تلين معه، وتبكى له، فقد رأت أن أسلوب القوة والتهديد لن يجدى مع الشيخ العجوز.

- وهل يرضيك يا "شيخ مرزوق" هذا النكد الذى أنا فيه؟ هل يرضيك هذا الهم المتلاحق الذى لا أستطيع منه خلاصاً؟ هل ترضى لى بهذا الذل وهذا الهوان؟

أنا طلبتك، وقلبى ملىء بالأمل فى أنك لن تخيب لى رجاء. إنك بركتنا، وشيخنا وقاضينا. أنت الذى عقدت لنا على سنة الله ورسوله. أنت الذى زوجتنا. هل كنت تريد أن تتعسنا يوم عقدت لنا؟ يا "شيخ مرزوق" اعمل فى معروفاً، وافعل أى شىء يرحمنى من هذه الحياة. إذا كنت عاجزاً عن أن تعمل شيئاً يا "شيخ مرزوق"، فادع الله على أنا، لأموت...لأرتاح من هذه الحياة.

- يا بنتى حرام عليك هذا الذى تقولينه، أنت تعارضين إرادة الله.أنت تثورين على حكمته.

- حكمته وإرادته أن يتعسنى؟ ألا ترى وجهى؟ ألا ترى عينى؟ هل يرضى الله لواحدة من عباده، أن تقوم على البكاء، وأن تنام على البكاء.

ـ وما الذى يبكيك يا بنتى؟

ـ هل هذا قليل يا "شيخ مرزوق" أن أصبح أنا فى مقام "تفيدة"؟!

ـ "تفيدة" خلقها الله كما خلق الناس جميعاً.

ـ خلقها الله لتصبح من مقامى.

ـ خلقها الله لتواجه مصيرها فى الحياة كما يريده هو سبحانه وتعالى.

ـ وأنا. أنا...أنا يا "شيخ مرزوق" !

ـ ماذا جرى لك؟ أنت.أنت كما كنت أنت يا بنتى. لماذا تثورين؟ لأن واحدة من الصعاليك فتح الله عليها وارتفعت إلى منزلتك؟ كنت أظن أنك تثورين لو أنك أنت التى هبطت على مستواها. وحتى هذا ليس سبباً للثورة على رحمة الله وعلى عدالته، فإن تصرفاته سبحانه لها من الحكم، ما لا تدركها عقولنا. ولكنها هى التى ارتفعت. احمديه سبحانه وتعالى، أنه أنعم على واحدة من بنات آدم وحواء، فوفر لها هذا الحظ فى الحياة.

ـ أحمده...وقد أخذت "الحاج سلطان" منا جميعاً، منى ومن "الحاجة زهرة" وحتى من "الست قمر" التى كان يموت عليها ! و"الست قمر" سامحها الله تقف برغم هذا إلى جوار "تفيدة". تدافع عنها.

ـ والله محسنة. اللهم زدها عقلا.

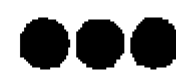
ـ وأنا مجنونة...مجنونة. أهذا ما تريد أن تقوله يا "شيخ مرزوق"؟

ـ أستغفر الله يا بنتى. انا لم أقل هذا ولم يخطر لى ذلك على بال.

ـ اسمع يا شيخ أنت. إما أن تفعل ما أطلبه منك، وإلا فسيكون لى معك شأن آخر.

ـ والله أنا لا أفعل شيئاً يغضب الله يا "ست نبوية".

ـ لا تفعل...ترفض. إذن...



وصاحت بصوتها الكريه صيحات متكررة، تطلب زوج ابنتها "أبو سريع" وجاءوها به، بعد لحظات، فدخل وفى يده كرباج ملفوف، وعلى كتفه بندقية، وفى عينيه شرر مخيف، فقد ظن أن مكروهاً قد وقع، وأنه مطلوب لنجدة حماته.

وعندما دخل، كان "الشيخ مرزوق"، قد أسبل جفنيه، وأخذت أصابعه تداعب حبات مسبحته، وهو يردد اسم الله ويصلى على نبيه.

قالت الست نبوية" :

ـ هذا الرجل يرفض طلباتى. يعارضنى. هل فى البلد من يستطيع أن يعارضنى يا "أبو سريع"؟ ما هذا الهوان؟ هل انتهينا يا "أبو سريع"؟ هل أصبحنا ضعافاً عاجزين عن تنفيذ ما نريده يا "أبو سريع"؟ وأنت شيخ خفر، وأنت رجل ملء ثيابك، ولك شارب الصقر يغطى فمك؟ ما أضعفك. ما أتعسك يا "نبوية" ! لم يعد لك أحد يا "نبوية" !

ولم يسأل "أبو سريع" عن شىء.

وإنما نظر إلى الرجل نظرة ملتهبة، كأنما يريد أن يأكله أكلا.

وكان يتوقع أن تهتز فرائصة خوفاً ورعباً، فيركع تحت قدميه.

على أن "الشيخ مرزوق" لم يتبين حتى مكانه منه، فقد كان مسبلاً عينيه، وعلى لسانه تسبيحات لله القوى المتعال.

وظل "أبو سريع" ينظر إليه، عسى أن يتطلع إليه فيراه، ولكنه لم يعبأ به، ولم يحفل بوجوده.

وأحس "أبو سريع" موجة باردة تهب عليه.

ما سر هذا الرجل؟ كيف يتسرب إليه أمامه شعور بالضعف والهوان؟

أهى كلماته هذه الهامسة المبهمة، أقوى من سلاحه ونفوذه وسلطانه؟

أم أن فى الرجل سراً آخر. بركة من عند الله، تحطم قوة الأقوياء، فلا يستطيعون أن ينالوه بسوء.

ولأول مـرة، بدأ على "أبو سريع" انه ضعيف، وأنـه منهار، وأنه خـائف، من رجل عجوز أعزل، مسبل عينيه، تتحرك شفتاه بكلام لا يسمعه أحد.

ونظر إلى "الست نبوية" كأنما يستنجد بها أن تعفيه.

ولكنها نظرت إليه فى استفزاز وهى تقول :

- تتركه يتحدانى يا "سبع الليل". والله هنت يا "نبوية". أستأجر لى رجلا يحمينى. إذا كان أخى العمدة لا يعبأ بى ويكرهنى، وأنا التى أنقذته. وزوج بنتى لا يهتم بى، وهو شيخ خفر يرعب الناس جميعاً. وزوجى...زوجى فقد صوابه، وعقله، وباع نفسه لواحدة من الغجر. لم يبق لى بعد ذلك إلا أن أحنى رأسى مستسلمة ضعيفة. أو أجد لى رجلا يحمينى.

وعاد "أبو سريع" ينظر إلى الرجل، فيجده كما هو، لم تبد عليه ظاهرة لخوف. عيناه مسبلتان فى تقوى، وشفتاه تتحركان بالتسابيح، وجسمه يهتز اهتزازات خفيفة، مع ما تردده شفتاه.

ثم ينظر إلى حماته فيجدها مسعورة لا تحتمل الصبر.

ولم يدر "أبو سريع" ماذا يفعل، وكيف يتصرف.

ثم استطاع بعد جهد، أن يستجمع قواه، وأن يقول "للشيخ مرزوق" :

- يا "شيخ مرزوق". لماذا لا تسمع كلام "الست نبوية"؟

وفى هدوء وفى اتزان، وقف الرجل عن تسبيحه، ووقفت أصابعه على إحدى حبات مسبحته، وفتح جفنيه فى بطء، ثم نظر إلى "أبو سريع" الواقف أمامه كالمارد...كالشيطان...وأطال النظر..فى هدوء غريب لم يألفه "أبو سريع" من أحد.

وقال الشيخ فى فتور :

- أستغفر الله العظيم. نعم، ماذا تريد يا شيخ الخفر؟

ـ لماذا لا تنفذ ما تقوله لك " الست نبوية"؟

ـ لأنه لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق.

وهبت "الست نبوية" فى صوتها الكريه تقول :

ـ معصية الخالق أن تدخل هذه بيتنا، معصية الخالق أن يأتى "الحاج سلطان" بواحدة من الخص ليضعها فى منزلتنا . هذه هى معصية الخالق.

ولم يرد الشيخ. ولم يرد "أبو سريع" .

قال الشيخ بعد لحظة صمت :

ـ "الست نبوية" تريد منى أن أقرأ سورة يس بالمقلوب على "تفيدة" حتى تتقلب حياتها، ويطردها الحاج من بيته، تريدنى أن أدعو عليها بعد صلوات الفجر، حتى تبتلى بالسوء، أليس كذلك "يا ست نبوية"؟

ولم تجب "الست نبوية" ونظر إليها "أبو سريع" متأملا .

ومضى الشيخ يقول :

ـ والذى يجب أن تعرفه "الست نبوية" أن الله يستجيب الدعاء، وأنه قريب يلبى دعوة الداعى إذا دعاه. ولكنه سبحانه ونعالى لم يقصد الدعاء على الناس، وإنما قصد أن يدعوه عباده ليدفعهم إلى صالح الأعمال. ليزيل عنهم المكروه. أما أن توجه الدعوات ضد عباد آخرين خلقهم، فهذا مالا أفهمه أنا من الدعاء وسواء دعوت الله على "تفيدة" أم لم أدع، فإن ذلك لن يكون له أثر أى أثر– على "تفيدة" . إن لله مشيئته، وهى نافذة بإذنه سبحانه وتعالى. أما قراءة سورة من كتاب الله بالمقلوب على الناس، فهذه خرافات، وهى حرام...القرآن الكريم نزل هكذا، والذين يحاولون أن يعكسوا سورة، أو يقرأوه مقلوباً يكفرون بالله وبكتابه. "والست نبوية" تطلب منى أن أكفر بالله، حتى ترضى !

سامحك الله يا بنتى. سامحك وغفر لك.

وقالت "الست نبوية" :

- كل الناس يفعلون هذا. أنت فقط الذى لا تريد أن تفعله، لأن قيمتنا نزلت فى البلد. الله يقلل قيمتك يا "حاج سلطان". أنت السبب فى هذا. طبعاً أصبحنا "كتفيدة" "كأم الهنا" هل بقيت لنا بعد ذلك فى البلد قيمة، حتى مع الشيخ مرزوق !!

وانتفخت أوداج شيخ الخفر فصاح فى الشيخ مرزوق :

- افعل ما تقوله لك "الست نبوية" يا "شيخ مرزوق".

قال "الشيخ مرزوق" فى هدوء :

- لا يا شيخ الخفر. لن أفعل هذا. سأفعل شيئاً آخر. سأدعو الله "للست نبوية" عقب كل صلاة أن يهديها، وأن يزيل عنها تأثير الوسواس الخناس.

قال "أبو سريع" :

- بل ستفعل ما تقوله لك.

قال "الشيخ مرزوق" :

- لا لن أفعل ما تطلبه.

- بل ستفعله بالقوة، أنا "أبو سريع".

- أعلم أنك "أبو سريع"؟ ثم ماذا؟

- تتطاول على أنا ! تستقلنى فى نظرك !

- لا يا بنى. أنت على عينى ورأسى. لكن الله أقوى منى ومنك.

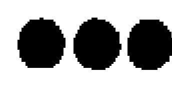
- تهددنى بكلامك هذا؟

- أنا لا أهدد أحداً، ولا أقوى على شىء، الفعل يا ابنى فعل الله، فإن كان الله قد أراد بى سوءاً، فسيسخرك لإيذائى. وأنا راض بما قسمه لى. إن من عناصر الإيمان الرضاء بقضاء الله وقدره.

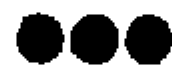
ـ والله إن لم تفعل يا شيخ مرزوق، لأرينك ...

ـ لا تكمل يا ابنى. هل تستطيع أن تمنعنى عن العبادة؟ عن ذكر الله؟ لن تستطيع. أما ما عدا هذا فأنا أتركه لله يدبره. تقطع رزقى؟ لن تستطيع ذلك، إلا إذا أراد الله سبحانه. تخطف بنتى؟ تهدم بيتى؟ افعل ما تشاء. الله أقوى منك، وسيكفينى عوضاً عن الرزق، وعن الأهل، وعن البنت، ذكر الله والصلاة له وعبادته، سبحانه...

وانتهت هذه المقابلة، وخرج "الشيخ مرزوق" كما دخل، شفتاه تتمتمان بالتسبيح وأصابع يديه تحرك حبات مسبحة طويلة.



ويروى "أبو المكارم" بإشارته وحركاته، وأصوات مختلفة، روايات أخرى. وهو جالس فى مكانه الحبيب من الساقية، بجوار شجرة الصفصاف وقد أخذت "أم الهنا" "وأبو عوف" ينصتان إليه فى اهتمام...آذانهما متعلقة بيديه وشفتيه.



ولم تسكت "الست نبوية" على ما فعله "الشيخ مرزوق" فاتفقت مع "أبو سريع" على أن يقطع عنه المسنية، وهى المعونة السنوية العينية التى يدفعها الفلاحون الذين يقومون بخدمات عامة للقرية، كشيخ الجامع، وحلاق الصحة، والداية، والبلانة.

وطلبت من "أبو سريع" أن يحرص أكبر عدد من أهل القرية عن الامتناع عن إرسال المسنية إلى "الشيخ مرزوق"، حتى يعرف قدره.

وفعل "أبو سريع" ما طلبته منه حماته، ولكن أهل القرية أرادوا أن يعرفوا سبباً لهذا.

هل ارتكب الشيخ إثماً؟ هل فعل شيئاً؟

إنهم لم يلحظوا عليه تغييراً فى سلوكه، ولا فى أدائه واجباته نحو الجامع.

ولم يعبأ الشيخ بشىء. لم يرد على الذين يسألونه عن سر غضب "أبو سريع" عليه، واكتفى بأن أسبل عينيه يذكر الله ويحمد ..

وكان تسامحه هذا، أكبر من حرب "أبو سريع" له، فلم تنقطع عنه المسنية من أحد إلا من بيت "الحاج سلطان" أما بقية بيوت القرية، فقد أرسلتها إليه سراً خوفاً من "أبو سريع".

لقد خافت القرية على نفسها وعلى رزقها النحس، إن هى قصرت فى حق "الشيخ مرزوق"، ولهذا استمعت إلى "أبو سريع" ووعدته بتنفيذ ما طلب، ولكنها لم تف بما وعدت.

وبينما كان "أبو سريع" ينتظر أن يسعى إليه الشيخ، زاحفاً على بطنه، من فرط الجوع رآه كما هو غنياً عنه لا يسأله شيئاً.

وساور "أبو سريع" هاجس أن هذا الرجل مبروك، وأن الله يرزقه برغم إرادته فاستولى عليه شعور بالخوف منه، وآثر أن يبعد عن طريقه.

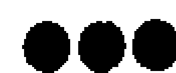
بل لقد كان يعتمد أن يذهب إلى الجامع ليصلى خلفه، حتى يغفر الله موقفه منه. وكان يفعل هذا سراً، حتى لا تعلم به حماته، كما فعل أهل القرية معه هو، عندما أخذوا يرسلون المسنية إلى الشيخ حتى لا يعلم شيخ الخفر.

ورددت القرية أشياء غريبة عن "الشيخ مرزوق".

فمن قائل إن للرجل كرامات، ظهرت حتى على "أبو سريع" وإن أظهر هذه الكرامات، أن "أبو سريع" انطوى تحت جناحه، كالطير الصغير، يحتمى به من الأذى.

ومن قائل إن "أبوسريع" أراد أن يؤذى الرجل، فأطلق عليه النار، ولكن النار صارت عليه برداً وسلاماً، كما حدث لإبراهيم عليه السلام.

ومن قائل إن الشيخ أتى "لأبو سريع" فى المنام ينذره بأنه عاقبته وخيمة إذا لم يرتدع ويقف عند حده فى إيذاء الناس التنكيل بهم.



وترددت قصة الشيخ مع "الست نبوية" على كل لسان.

القرية هكذا كالطبيعة، مكشوفة، سرها كإشراق الصباح.

وأدرك الجمع أن "الست نبوية" أرادت أن ترغم "الشيخ مرزوق" على أن يقرأ سورة يس بالمقلوب على العروس الجديدة، ليكون مصيرها الطرد من بيت "الحاج سلطان" ولكن "الشيخ مرزوق" رفض لأن هذا حرام، وآيات الله لم تنزل مقلوبة حتى تتلى مقلوبة، ولكنها نزلت مستقيمة، وعلى الذين يريدون أن يتلوها، ألا يغيروها، وإلا كفروا بها، وبكل العقائد والمقدسات.

والقرية المغلوبة، تتطلع دائماً إلى لون من ألوان الفروسية والبطولية والشهامة تنفس به عما تشعر به من ضعف وحرمان.

ولقد أحس الفلاحون أن "الشيخ مرزوق" فارس مغوار. بطل من أبطال الروايات كالزناتى خليفة. بل ربما أشجع من الزناتى خليفة.

إن أحداً لا يستطيع أن يقف فى وجه "الست نبوية" حتى العمدة نفسه.

إن "الحاج سلطان" يخاف منها، وإن كان تزوج عليها مرتين. إنها سليطة اللسان، قوية جبارة.

ولكن "الشيخ مرزوق" استطاع أن يكون أقوى من العمدة، ومن "الحاج سلطان" ومن "أبو سريع" ومن كل الذين يرتجفون من نظراتها وصيحاتها وعروق رقبتها التى تنتفض، كلما نوت الشر، وهى دائماً على موعد مع الشر.

"الشيخ مرزوق" هذا العجوز المسكين، الذى لا يملك من دنياه شيئاً؟

هكذا كان يتهامس الناس.

ولكن آخرين كانوا يردون على هذا قائلين :

بل هو يملك كل شىء. كتاب الله، والأحاديث النبوية الكريمة. يملك البركة والستر ورحمة الله الواسعة.

ويعود الهامسون يرددون :

هذا عجب ! "الشيخ مرزوق" يا عالم يستطيع أن يقول لا "للست نبوية"؟

ثم لا يحدث له شيء.

ويرد الآخرون :

إنه كلمة حق، وضعها الله فى جامع القرية. وهى أقوى من كل الأقوياء فى هذا البلد. إنه الضمير. إنه ولى من أولياء الله الصالحين. وأولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون. أبوه كان هكذا والولد مثل أبيه.

والهامسون يعجبون ويلحون فى السؤال :

رجل أعزل، لا حول وله ولا قوة ولا ولد يحمى ظهر أبيه. كل ما يملكه هو لقمة عيش جافة، وشربة ماء عكرة، وامرأة مسكينة، وبنت واحدة، يقف فى وجه عائلة العمدة، وعائلة "الحاج سلطان" ! إن كل أفراد هاتين العائلتين يدينون بالطاعة والولاء "للست نبوية" أخت العمدة، وأم شيخ البلد وحماة شيخ الخفر..وهى صاحبة الكلمة، ولا كلمة إلا لها.

ويردد أهل القرية من الذين قضوا حياتهم يصلون خلفه، ويسمعونه يخطب الجمعة مرة كل أسبوع، ويسمعونه خطيباً فى الأعياد، فوق المنبر، وفى يده سيف خليفة المسلمين. هؤلاء يجيبون بأن أهله الملائكة، وولده كل من فى القرية من الرجال..

ويصبح "الشيخ مرزوق" بين أهل القرية شخصية خرافية. أسطورة يحكون عنها المعجزات، ويلتف الناس حوله فى حب وفى إعجاب. ويزداد تعلقهم به. حتى ليؤم الجامع كل رجال القرية، حتى الذين اعتادوا أن يتخلفوا عن صلاة الجماعة، جامعة. فإذا انتهت الصلاة التفوا حول "الشيخ مرزوق" يستمعون إليه يدعو الله أن يوفق الناس إلى صالح الأعمال وأن يهديهم الصراط المستقيم، وأن يبعد عنهم ما يوسوس به الشيطان الرجيم.

ولقد أخذ الرجال يفسرون دعاءه تفسيرات مختلفة.

يقولون إنه يقصد العمدة. إنه يقصد "الحاج سلطان" وإخوته وأولاده. إنه يقصد شيخ الخفر. بل يقصد "الست نبوية".

ويزدادون إقبالا عليه، ويطالبونه بأن يكثر من عقد حلقات التفسير والوعظ.

فلا يتوانى الرجل المسن عن تلبية رغباتهم.



ويروى "أبو المكارم" أن هذه الأنباء وصلت إلى "الست نبوية".

قالوا لها إن الرجل يقصدها بدعائه بعد كل صلاة.

وقالوا لها إن حلقاته تدور كلها حول ضبط النفس، والتحكم فى الأهواء، وإن المسلم لا يكون مسلماً، حتى يسلم المسلمون من لسانه ويده وإن هذه المعانى كلها، ترمز إليها هى.

وقالوا لها إن "أبو سريع" يتردد مع الرجال على الجامع، وإنه يصلى خلفه وإنه يجلس فى حلقاته فى بعض الأحيان.

بل قالوا لها إن بعض الناس رأوه،وهو يقبل يد الشيخ بعد أن ختم الصلاة.

وهاجت "الست نبوية" وسألت عن المسنية وهل تصله، فقالوا لها إن الرجل لم ينعم فى حياته بخير كما ينعم الآن.

وزاد هياجها، فأرسلت تطلب "الشيخ مرزوق" و "أبو سريع".

ولم يتأخر عنها "الشيخ مرزوق" فذهب إليها فى سماحته الطيبة، وعلى وجهه ابتسامة رضى وتفاؤل.

كان يقول فى نفسه :

- نعل الله هداها، ولعله يجدها اليوم على غير ما وجدها فى المرة السابقة.

ولكنه وجدها أسوأ مما وجدها من قبل.

سارعت تقول له عندما دخل عليها :

- أنت تدعو على يا "شيخ مرزوق".

قال لها فى سماحة طيبة.

- أنا يا بنتى أدعو عليك !!. أنا لا أدعو على أحد. أنا أدعو للناس جميعاً بالهداية والتوفيق.

قالت فى غيظ وصوتها الكريه يملأ المكان رعباً :

- بل أنت تدعو على بعد الصلاة.

قال فى براءة :

- كيف هذا يا بنتى، ماذا قلت؟

قالت :

- تصيح بصوتك هذا العجوز أن يحمى الله الناس من أذى الناس.

قال:

- نعم وسأظل أدعو بهذا ليحيا الناس فى أمان.

قالت :

- وتنادى من أمام المحراب : اللهم الطف بعبادك، وقهم شر أنفسهم.

قال :

- نعم..وسأظل أنادى ربى أن يقى الناس شر أنفسهم.

قالت :

- وترفع يدك للسماء، وأنت تصيح : اللهم إن كان هذا يرضيك فزدنا منه

قال :

- نعم وأنا مؤمن يا بنتى بهذا، وسأظل أطلبه فى السر والعلن.

قالت وقد ضاقت به ولم تعد تحتمل ما تسمعه منه :

- إذن أنت تدعو على ! أنت تعرض بى فى صلاتك ! أنت تشهر بى أمام الناس ! أمام الحفاة العراة من الحثالة والرعاع ! أنت تتحدانى ! تتحدانى ! تتحدانى !

قال :

- اسمعينى يا "ست نبوية" أنا لا أتحداك أبداً. وأنا أستغفر الله سبحانه، وتعالى إن كنت قد أخطأت فى حقك، أنا لم أقصد إلا الدعاء لله أن يحمى الناس من أذى الناس، وأن يقى عباده شر أنفسهم، وأن يزيدنا مما يرضيه ويرضاه سبحانه لنا.

قالت :

- أنت تقصدنى بهذا الكلام. الناس كلهم يقولون إنك تقصدنى أنا بهذا الكلام. هل كل هؤلاء الناس كاذبون، وأنت وحدك الصادق الذى لا تكذب يا شيخ يا كذاب؟!

ولم يستطع الرجل أن يجيب، وعاد يسبل عينيه، ويداعب مسبحته، وشفتاه تتمتمان بالدعاء والابتهال.

ولم تطق "الست نبوية" صبراً على هذا المنظر الذى تراه.

وكان "أبو سريع" واقفاً يملك الصمت عليه كيانه، لا يدرى ماذا يفعل.

كان بين عاملين : هذا الرجل مبروك. هذا الرجل مرزوق فعلا من حيث لا يحتسب، وقد يكون غضبه من غضب الله. ولكن حماته، وهى لا تعرف الرحمة، ولن تغفر له صمته، لن تسكت عليه إن هو لم يقف إلى جوارها ضد "الشيخ مرزوق".

ولم يدر ما يفعل، وإلى أى الجانبين يميل؟!

إنه فى قرارة نفسه يخاف من "الشيخ مرزوق".

ولكنه مضطر إلى أن يخاف من حماته أيضاً.

ومضت عليه لحظات صمت شاردة، استفاق منها على صوت حماته وهى تصيح فيه:

- وأنت يا سبع الليل. إنك لم تعد سبع الليل بل صرت كلب الليل.

أنت تقف هكذا ضعيفاً كالسيدات ! وفى يديك بندقية، وعلى وجهك شارب مبروم ! لو كنت مكانك لطلبت إعفائى من عمل شيخ الخفر، لأن شيخ الخفر يجب أن يكون رجلا لا يخاف يا جبان !

حاول أن يجيب. لكنها لم تعطه فرصة ليجيب، ومضت تقول له :

- ألم تذهب إلى الجامع مع المخدوعين المضللين؟ ألم تصل وراء "الشيخ مرزوق" ! ألم تقبل يديه بعد الصلاة؟ ألم تسأله الدعوات؟ يا منافق يا جبان !

وهم بأن ينطق، ولكنها قطعت عليه الطريق وهى تصيح :

- تسمعه بأذنيك يدعو على حماتك .!..تسمعه بأذنيك يشهر بى بين الرعاع وأنت جالس كالصنم، لا تتحرك رجولتك ونخوتك ! أنا لم يعد لى أحد فى هذا البلد. أخى الله يسامحه، أخذ أرضى ليصبح عمدة، حتى علىّ ! و"الحاج سلطان" رجل أنانى، ارتمى فى الوحل، ليمرغ فيه وجهه كالمسعور ! وأنت يا زوج بنتى..يا "سبع الليل"، أصبحت كالنعجة، وعلى كتفك بندقية، وفى يدك كرباج تدارى بهما ضعفك ! من سيسمع كلامنا بعد هذا فى البلد؟ بل فى الناحية كلها؟ إذا كان هذا الشيخ قد تطاول على شرفى، وعلى سمعتى، وعلى عائلتى، وهو كما ترى يعيش عالة على البلد، ويحيا على صدقاتنا، ولحمه ودمه من خيرنا...حتى هذا الشيخ قد أصبح يجاهرنا بالعداء وبالخصومة، ويدعو علينا فى الجامع بين المصلين. غداً عند ما يمسكك الناس من شواربك ويجرونك كالكلب... غداً عندما يثور الرعاع عليك وعلى كل ما بقى لنا من نفوذ. غداً عندما تذهب هيبتنا، وتهتز كرامتنا. غداً عندما يحدث هذا كله ويصبح العمدة، وأسياد البلد، فى أسفل سافلين، لا تشك يا "أبو سريع" ! لا تأت إلى باكياً كالنساء !

ومرة أخيرة حاول "أبو سريع" أن يوضح الموقف، وأن يفسر حقيقة ما يقوله "الشيخ مرزوق"، وإذا به يفاجأ بزوجته "ست الناس" وقد أقبلت من بيته، ومعها أطفالها الصغار، ومن خلفها امرأة تعمل فى خدمتها، تحمل بعض المتاع.

وعجب "أبو سريع" مما يراه، وصاح فى "ست الناس" يقول :

- وأنت ماذا أتى بك؟.وما هذا الذى أراه؟

وأجابت عنها أمها "الست نبوية" :

- إن عشرتها معك أصبحت حراماً يا شيخ الخفر. لقد أرسلت إليها لتأتى مع أولادها. تعيش معى، طالما أنك لم تعد أهلا لها.

وثار "أبو سريع"، ولكن "الست نبوية" كانت أشد منه ثورة وهى تقول له :

- اذهب "للشيخ مرزوق" ينفعك. اذهب إليه يدعو لك بالهداية والتوفيق، فإنك لم تعد سبع الليل الذى يستحق "ست الناس".

قال لزوجته :

- وأولادى...لماذا جئت بهم معك؟

قالت حماته :

- يعيشون معى أنا، حتى يصبح أبوهم رجلا يستحق أن يكون له أولاد.

قال :

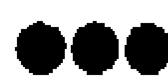
- وهذه اللفائف؟ ...هذا المتاع؟

قالت حماته :

- ملابسها، وملابس أولادها. اسم الله!! هل أنت الذى اشتريتها أيضاً؟! هل دفعت ثمنها من كيسك ومن مالك؟ أنا الذى أكسوها وأكسو أولادك. وأكسوك أيضاً يا شيخ الخفر. تفضل أنت وابحث عن البركة فى صفوف المصلين...تفضل، وإياك أن تنسى هذا الرجل...خذه فى يدك، حتى تستمر البركة تلاحق خطواتك!

وخرج "أبو سريع" لا يدرى ماذا يفعل.

وتسلل "الشيخ مرزوق" من هذه الدار، فى طريقه إلى الجامع.



ومضت الأيام ...

"الشيخ مرزوق" يذهب قبل مطلع الفجر إلى الجامع، يتوضأ ويتهجد، حتى مطلع الفجر، فيؤذن لصلاة تحفظ الناس من الأذى، وترد عنهم الكيد، وتحمى كيانهم وزراعاتهم من غضب الله.

ويلبى المصلون النداء فيتوافدون على الجامع فرادى أو جماعات، وما إن تنتهى الصلاة، حتى يتوجه "الشيخ مرزوق" بالدعاء إلى الله أن يحمى الناس من أذى الناس، وأن يلطف بعباده يقيهم شر أنفسهم. نفس الدعاء الذى عرفه أهل القرية عنه. نفس التوسلات التى نشأوا يسمعونها منه.

وإنه يختم هذا الدعاء كما اعتاد منادياً ربه قائلا : اللهم إن كان هذا يرضيك فزدنا منه.

..هكذا بلا تغيير ولا تبديل ولا خوف.

وكأنما لم يحدث بينه وبين "الست نبوية" شىء.

ويقبل المصلون عليه يقبلون يديه، ويسألونه الدعوات، بينما يذهب الشيخ فى شبه غيبوبة، وقد أسبل جفنيه، وأصابعه تداعب حبات مسبحته، وشفتاه تتمتمان بهمس كالنجوى.

وعندما يفرغ المسجد من المصلين، ويفرغ الشيخ من مناجاته لله، تكون الشمس قد بدأت تشق لنفسها طريقاً بين طيات السماء.

ويهجع الشيخ قليلا، ليستيقظ بعدها يشرف على أعمال المسجد بنفسه، ينظفه فى عناية كأنه قطعة من قلبه. يرمم الأجزاء التى تحتاج إلى ترميم، سواء فى البناء أو فى الحصير الذى يتبرع به أهل القرية لفرش أرضه. يسوى أمامه حتى لا يتعثر المصلون وهم فى الطريق إليه، بينما "العريف مختار" يحفظ بعض الأولاد القرآن ويرجع للشيخ بين الحين والحين.

وعند الظهر يعاود ما فعله فجراً..وكذلك يفعل عصراً..ثم مغرباً.

وبين المغـرب والعشـاء يتجـمع حـوله أهل القـرية يسـألونه عـن دينهم وعن دنيـاهم فيجيبهم بما نزل فى كتاب الله، وفى الأحاديث النبوية، فإذا حل وقت العشاء، أم المصلين وتوجه إلى الله بدعواته المعروفة.

أن يحمى الناس من أذى الناس.

أن يلطف بعباده ويقيهم شر أنفسهم.

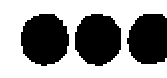
ثم ينادى الله : اللهم إن كان هذا يرضيك فزدنا منه.

ويسبل عينيه ومسبحته بين أصابعه، وشفتاه تتمتمان، وهو يتلو بعض الأوراد.

ثم يغلق المسجد، ويتوجه إلى داره، ويهجع ساعات حتى ما قبل الفجر.

وفى اليـوم التـالى، يعـود على مـا كـان..فـى المسـجـد، لا عـمل له إلا الصـلاة والعـبادة وتبصيرالناس بأمور الدنيا والدين فى هدى من كتاب الله وأحاديث الرسول.

والناس يقبلون عليه متبركين به، مؤمنين بكل ما يقول.



وتعود القرية تهـمس بما حدث مرة أخرى بينه وبين "الست نبـوية"، وكيف وقف الرجل الأعـزل يرفض أن تكون الأمـانة التى أودعـهـا الله قلبـه، لعبـة بين يدى "الست نبـوية". ويروون أنه قال لها كلاماً كثيراً، وأنه أعطاها درساً لن تنساه.

- ما أشجعك يا "شيخ مرزوق" ! إنها بركة من عند الله.

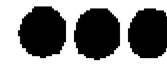
- هل تعرف أنه قـال لها صائحاً فـيها إن القرآن أمـانة، ولن أفرط فيهـا، أو أسمح لك بأن تعبثى بها.

- بل قال لها عند ما هددته بالطرد من البلد، إن رحمة الله واسعة، ولن تستطيعى أن تطردينى من رحمته سبحانه وتعالى.

- لا ...لا .الأعـجب من هذا كله، أنه انتصـر علـى "أبو سـريـع"!! إن أمـر "الست نبـوية" هين. أمـا "أبو سـريـع". تصـور "أبو سـريـع" يصبـح تابعـاً من تابعيـه يصلى وراءه فى طاعـة، ويقبل يديه مثلنا، لابد أنه رأى منه كرامة هدت قواه.

- رجل من أولياء الله، وأولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

- اللهم اجعلنا من بركاته ...



على أن الهمس يتزايد خاصة بين النساء، عندما ينتشر فى القرية النبأ، أن "ست الناس" غضبت، وأنها تركت بيت زوجها، وذهبت لتعيش مع أمها، وأنها أخذت ملابسها، وكذلك أولادها.

وتروى القرية كلها القصة، كما يصورها لها خيالها، وكما تصورها لها آلام مكبوتة فى صدرها، توارثتها جيلا عن جيل.

- إن "الشيخ مرزوق" جاء "لأبو سريع" فى المنام، وخنقه بيديه الضعيفتين.

وكاد الرجل ان يموت، لولا أنه توسل له أن يتبعه، وأن يصبح فى خدمته، وألا يقف فى صف "الست نبوية" التى تريد أن تقلب آيات الله.

- وأيضاً حاول "أبو سريع" ورجاله أن يطردوا الرجل الطيب المسكين من البلد، فلما ذهبوا إليه ليلا، وجدوا أمام باب بيته أسدين كادا يفتكان بهم، فأنقذوا أنفسهم بالفرار. ومن يومها وهم يخشون الرجل ويخافونه.

- الرجل محروس..محفوظ...حوله سر من أسرار الله.

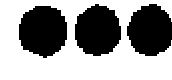
- و "الست نبوية" لا تريد أن تصدق كل هذا عنه، وقد خيرت "أبو سريع" بين الشيخ وبين زوجته، فاختار الشيخ. معذور ! لقد رأى بعينيه ! رأى الكرامات تتوالى أمام عينيه ! هل ينكر الكرامات التى وقعت له هو؟

- و "ست الناس" لماذا تسمع كلام أمها.

- أمها ...إنها أمها !...وهى ليست ككل أم..إنها "الست نبوية" وكفى !

- وما ذنب الأولاد الصغار، تحرمهم من أبيهم؟

ـ مساكين. ربنا يسمع دعاء الشيخ، ويحمى الناس من أذى الناس، ويلطف بـ ويقيهم شر أنفسهم.



وتقبل القرية على "الشيخ مرزوق" كما لم تقبل أبداً.

وترى فيه القرية شخصية بطل. على جوار ما تراه فيه من شخصية ولى من أولياء الله.

وتعتبره القرية أملا من آمالها، وأمنية من أمانيها.

كلمة الصدق هو، تنطلق بين الأكاذيب !

وصوت الحياة هو، يتردد بين القبور !

ونداء الضمير هو، يقرع ناقوسه النيام !

دموع الحرمان، وآهات العذاب وأنات الألم...هو !

بشائر الأمل، وخطوط الضحكة، وظلال السعادة...هو !

"الشيخ مرزوق".

وإن القرية لتزداد تقديراً له ولقدرته، عندما تجد "أبو سريع" دائماً خلفه فى صفوف المصلين، ودائماً بين يديه أثناء الدعاء، ودائماً مقبلا يديه بعد كل صلاة.

"أبو سريع" القوى الرهيب العنيد. نقطة الدم التائهة من كل قتيل. ونوبة الفزع الغامضة فى كل منام !

وترى القرية فى هذا التحالف بين "الشيخ مرزوق" وشيخ الخفر، أن قوة الروح وقوة الجسد، قد اجتمعتا فى جبهة واحدة، وراءها كل الضعاف. كل المحتاجين. كل الذين أكل التراب أقدامهم أكلا. كل الذين برى البرد أجسادهم بريا. كل الذين جرح العطش حلوقهم جرحاً !

وعادت القرية تسأل الشيخ أن يحكى لها حكاية رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكيف نجحت دعوته بفريق من المستضعفين والأذلاء الرقيق، صبروا وثابروا، حتى كان لهم النصر على القلة القليلة التى عاشت على البطش والتعالى والخيلاء، والاستبداد بالناس وبالأرزاق، لا عمل لها إلا الشهوة، ولا شاغل لها إلا المتاع.

والشيخ يروى من هذه القصص ألواناً.

بلال مؤذن الرسول، وكيف عذبوه.

ويتمنى كل أهل القرية، لو أنه بلال، يفتدى بعذابه آلافاً من الأرقاء.

و"أبو سريع" بين الناس يسمع للشيخ، ويهز رأسه فى تقوى.

والبشر يعلو الوجوه، وبريق عميق يلمع فى عيون الفلاحين، بأمل قريب.



ويروى "أبو المكارم" بطريقته، وبأسلوبه الخاص بقية القصة...

إن بوادر عصيان بدأت تظهر بين الفلاحين. لقد بدأوا يشعرون بالظلم، وبأنه قد آن الأوان لهذا الظلم أن يزول. إنهم لا يريدون شيئاً كثيراً. يريدون العدل.

يريدون أن يأخذ كل منهم حقه، لا حق سواه، يريدون أن يعيشوا. يريدون لقمة عيش تصلهم بالحياة، وجلباباً يقيهم البرد. يريدون نسمة حرة يتنفسونها دون خوف أو فزع.

ولكن بوادر هذا العصيان تصل على العمدة، وإلى شيخ البلد، وإلى "الحاج سلطان".

حينئذ يشهد دوار العمدة اجتماعاً محموماً.

العمدة، و "الحاج سلطان"، وشيخ البلد، و"الحاج غضبان"، و"الشيخ سيد"، وبعض أولادهم ممن أقلقتهم هذه الظاهرة الجديدة.

وعرض العمدة الحالة وما آلت إليه، وسألهم الرأى فيما عساهم يفعلون.

قال "الحاج سلطان" :

إنها أختك سبب كل هذا. "الست نبوية" يا سيدى لم يعجبها الحال.جنت على كبر. فقدت عقلها، وفقدت مع عقلها "أبو سريع"، سبع الليل.

قال العمدة :

بل أنت يا "حاج سلطان" السبب. أنت الذى جئت لها بواحدة من بنات السفلة، لتصبح رأسها برأسها. هل كان يجب أن تتزوج هذه؟ يا أخى لم يقل لك أحد أن تبتعد عنها، خذ منها ما تشاء، هل كان زواجها لابد منه؟

قال "الحاج سلطان" :

شرع الله يا عمدة، وأنا حر أفعل ما أشاء، ألم تتزوج أنت مثنى وثلاث؟ لماذا تحرم على غيرك ما تحلله لنفسك؟

قال العمدة :

أنا لم أنحدر إلى هذا المستوى من النسب يا "حاج سلطان". أنا أتزوج ممن هى كفء لى قدراً ومقاماً.

وتدخل "الحاج غضبان" ليقول :

يا ناس. نحن لسنا هنا لنتباهى أو لنتعاتب. نحن هنا لندرس موقفاً طارئاً على بلدنا.. نحن الآن مهددون بأن نفقد مكانتنا بين الفلاحين الرعاع. لو سكتنا على هذه الحال، فسيأتى يوم نصبح نحن فى الذيل، وهؤلاء الجياع على رأسنا، هل تقبلون أن تضيع قوتكم، وأن تذهب ريحكم، وأن يطمع فيكم من لا يساوى شيئاً، هؤلاء الدواب بدأوا يشعرون أن لهم حقوقاً. بدأوا يحاسبوننى على تجارتى فى محصولاتهم. منذ أيام جاءنى واحد منهم يقول لى أريد أن أعرف حسابى.ماذا أخذت، وبكم بعت، وماذا تبقى لى؟ أنا ! يناقشنى كلب عريان ويريد أن يعرف كم عليه، وبكم بعت، وماذا تبقى له ! أنا "الحاج غضبان" ! يا للهوان !

وانتفض "الشيخ سيد" من مقعده، واعتدل فى جلسته وأخذ يشرح القضية :

- المسألة هى أن "الست نبوية" أرادت أن ترغم "الشيخ مرزوق" على أن يدعو على العروس الجديدة، لتخرب حياتها. وطلبت كذلك منه أن يقرأ لها سورة يس بالمقلوب، ليقلب الله عيشتها. الشيخ رفض. وله عذره، فإن هذا حرام. "الست نبوية" عدت هذا منه إهانة، لأنه عصى مشيئتها، وحرضت عليه "أبو سريع" ليقطع عنه المسنية ويحمل الآخرين على أن يقطعوها عنه. الحقيقة "أبو سريع" فعل هذا فى الحدود التى استطاعها، ولكن أهل البلد كانوا يرسلون له المسنية سراً، وبكثرة. لقد رقت له قلوبهم واعتبروه مظلوماً، والناس تنتصر عادة للمظلوم.

قال العمدة :

- أختى "نبوية" ليست على حق فى هذا.

ومضى الشيخ سيد يقول :

- "أبو سريع" والحقيقة تقال، لما رأى أن رزق الشيخ قد زاد، وأنه لم يتحرك بخوف منه ولا من "الست نبوية" اعتبر أن هذه كرامة من الكرامات، فارتعد خوفاً منه بدلا من أن يرتعد الشيخ ويخاف، فبدأ يتودد إليه.

وقال العمدة :

- "أبو سريع" ليس على حق فى هذا.

واستأنف "الشيخ سيد" الحديث فقال :

- على أن "الست نبوية" ازدادت غضباً وهياجاً، وجن جنونها عندما علمت أن "أبو سريع" وهو زوج بنتها قد خانها هو الآخر. ونقل الناس إليها أن الشيخ يدعو عليها هى، وبدلا من أن يدعو على الأخرى، أخذ يدعو لها، وأن "أبو سريع" يسمع هذا الدعاء ولا يحميها. وأرسلت تطلب من ابنتها أن تترك زوجها ففعلت.

وقال العمدة :

- أختى "نبوية" ليست على حق فى هذا.

وعاد "الشيخ سيد" يقول :

ـ وتعقدت المسألة، وثار عناد "أبو سريع" ولم يشأ له كبرياؤه، ولم تشأ له كرامته أن يتراجع، اندفع فى اتباع الشيخ اندفاعاً شديداً كأنه أحد أتباعه.

وقال العمدة :

ـ "أبو سريع" ليس على حق فى هذا.

وقال "الشيخ سيد" :

ـ البلد وجدت فى هذا كرامة جديدة من كرامات الشيخ. وجدت أن انطواء "أبو سريع" تحت لوائه معجزة من معجزات الأنبياء، فتشجعت، لأن الرجل الذى كان يخيفها، أصبح يحميها، ويؤيدها تأييداً علنياً. هذه هى حقيقة الأمر.

قال العمدة :

ـ ما رأيك؟ ما فتواك يا عالم البلد وقاضيها؟

ـ قال الشيخ سيد:

ـ نقضى على السبب من جذوره. طالما أن له جذوراً فلا فائدة. تعود "ست الناس" الليلة إلى بيتها، هى وأولادها. وبعد يوم أو يومين، يعود "أبو سريع" إلى عقله، ويتنازل عن عناده. ولا بأس من أن تتحفه حماته وحماه بالأشياء التى يحبها. كلنا نعرف "أبو سريع" ونعرف أنه أكول، وأن بطنه واسع، وأنه يحب المال حباً جماً ويحب كذلك الملابس النظيفة، ويحب أن يتملقه الناس. إنه يريد أن يستعيد ثقته بنفسه، فيستعيد بذلك ما فقده من العقل والاتزان. أما "الست نبوية" فعليها أن تصبر، لا داعى لهذا الجنون والحماقات التى ترتكبها. ألم يتزوج عليها "الحاج سلطان" من قبل؟ ألم يتزوج "الست قمر"؟ المسألة ليست جديدة عليها. ولا يجوز لها أن ترتكب ما ارتكبته من أعمال. لماذا تطالب الشيخ بالدعاء على ضرتها الجديدة؟ وماذا سيجدى الدعاء؟ ولماذا تطالبه بأن يقرأ لها القرآن مقلوباً؟ هذه خرافات نساء ناقصات عقل ودين. وطالما أن الشيخ رفض.

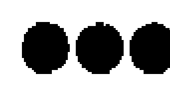
فلماذا تصر على هذا وتهدده وتتوعده، وتحاول أن تحمل القرية كلها على أن تقطع عنه المسنية؟ لماذا؟ لقد أرادت أن تؤذيه. فكسب بهذا عطف الناس جميعاً عليه. بل لقد كان في هدوئه وضبط أعصابه مثلا للقرية كلها.

كان في صموده في وجهها وأمام تهديدها دليلا على أن في الإمكان الخروج عن طاعتها وتحدى إرادتها، حتى لقد خاف "أبو سريع" نفسه من هذا الهدوء وضبط الأعصاب، وعد ذلك كرامة من الكرامات. لماذا فعلت هذا؟ لقد أفسدت كل شيء بفعلتها هذه الشنعاء. مجنونة هذه المرأة ! وماذا كنا نستطيع أن نفعل مع هذا الشيخ العجوز؟ نقتله؟ وإذا علمت القرية؟ إن الأمر يزداد صعوبة وخطراً، فإن الفلاحين قد يقبلون أي شيء، إلا أن يقتل شيخ الجامع. أنا رأيي أن يذهب العمدة، وينفذ هذه الأمور الليلة، وإذا لم تقدر "الست نبوية" هذا فإنها ستخرب علينا البلد.

وساد الجميع صمت.

وبعد لحظة تفكير مرت على الجمع، وكلهم شارد، وقف العمدة، وأخذ يلف عباءته حول كتفيه، ثم قال :

- هيا بنا يا شيخ البلد، وناد أحد الخفراء ليمشي وراءنا، طالما أن شيخ الخفر قد تمشيخ !



وفي بيت "الحاج سلطان" جلس العمدة ينفذ ما اتفق عليه أهل الرأي من أعيان البلد. قال في صرامته :

- "ست الناس"، اجمعي حاجاتك، وخذي أولادك، وعودي إلى بيتك الآن.

وتدخلت الست نبوية بصوتها الكريه تقول له :

- حتى أنت يا عمدة، تريد أن تذل أختك هذا الإذلال؟!

وصاح فيها صيحة كادت تتكفيء بسببها على وجهها :

- أنا لن أسمح بكلام. ما أقوله أن ينفذ على الفور، وهذا ابنك شيخ بلد طويل عريض، يعرف أننى أعمل ما فيه الصواب. "ست الناس". نفذى ما قلته لك الآن، ولن أغادر هذا المكان، إلا إذا صحبك الخفير إلى بيتك، وعاد يخطرنى بأنك رجعت إلى زوجك وبيتك.

وفى لحظات كانت "ست الناس" قد جمعت حاجاتها، وأخذت أولادها وخرجت من الدار، بينما صوت "الست نبوية" لا ينقطع، تندب حظها فى رجالها الذين لا يعرفون كيف يحافظون لها على كرامتها.

وبعد أن خرجت "ست الناس" وأولادها، التفت العمدة على أخته وقال :

- أما أنت، فتعدين الليلة عشاء طيباً جداً. لزوج بنتك وأولاده، وترسلينه حالا. كذلك تفعلين غداً، وبعد غد.

قالت فى صوت تخنقه العبرات :

- وأطعمه كذلك. إلهى ربنا يسمه. لقد جعل حياتى جحيما. لقد أصبح شيخاً هو الآخر ! إنه يشارك "الشيخ مرزوق" فى الدعاء على. القاتل السفاح. تاب ربنا يقلب توبته! تاب على حسابى أنا، وأنا حماته ! والله لن يقبل الله له التوبة. أنا أعرف "أبو سريع" أعرفه...

قال العمدة :

- تنفذين ما أقوله لك. وغداً سأشترى له أنا جلبابين من الكشمير وشالا طيباً وعصا بمقبض من العاج، وسيكون لى معه شأن آخر.

قالت فى عصبية وغضب :

- أيرضيك هذا يا شيخ البلد ! كأنى لم أحملك فى بطنى هذه تسعة شهور ! لكن من يشهد للعروس؟ أليس حماك؟! إن شا الله تصبح الكسوة ناراً على جسده، ويصبح الشال شوكاً حول رقبته، وتصبح العصا حية تلدغه.

قال العمدة :

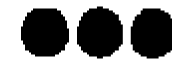
- اسمعى "يا نبوية" هل تريدين أن تخربى البلد؟ أنت ستخربين البلد بحمقك. أنت ستذهبين بهيبتنا بين الرعاع. أنت "يا نبوية" بهذا الجنون ستجعلين وجوهنا فى التراب. إياك أن تسيئ معاملة "أبو سريع" لابد من أن تصححى موقفك معه. إننا لا نستطيع أن نستغنى عنه. زوج بنتنا، وشيخ الخفر، وأقوى رجل فى بلدنا. دمنا ولحمنا، هو منا ونحن منه، والدم لا يصبح ماء. أنت حماته. أتركى الغيرة العمياء واصبرى لعل هناك فرجاً.

وقالت ودموعها تنحدر على خديها، وقد بدا عليها استسلام للموقف الذى تواجهه :

- لم تعد لى قيمة فى البلد، ولا فى هذا البيت. ليتنى مت قبل أن أرى بنت "أم الهنا" ضرتى. ليتنى ذهبت إلى "سيدى الذكيرى" قبل أن تدخل على بنت "أبو عوف".

وربت العمدة على كتفها الخشبية، وهو يقول :

- اسمعى كلامى. اسمعى كلام أخيك. أنا أكثر منك علماً بمصلحتك، ومصلحتنا كلنا. نفذى ما قلته لك، وإن غداً لناظره قريب.



ومضت الأيام، وعاد "أبو سريع" إلى بيته، وإلى زوجته، وإلى أولاده، وانهالت عليه هدايا حماته، أكلا دسما وألواناً شهية من الطعام. أما العمدة، فقد أرسل إلى كفر الزيات من اشترى له جلبابين من الكشمير، وشالا فاخراً من الصوف، وحذاء أسود يلمع كالمرآة، وجوارب ومناديل.

وعادت القرية تشهد "أبو سريع" مقطب الوجه رهيباً، يلوى وجهه عن الناس، وينظر إليهم فى تعالى وازدراء.

وانقطع "أبو سريع" عن الجامع. لم يعد يذهب إليه كل صلاة، ولم يعد يردد الدعوات خلف "الشيخ مرزوق"، ولم يعد يقبل يديه، بعد أن يفرغ من الدعاء.

وأصاب القرية ذهول، وجم الناس.

وإذا الأمل الذى كان قد بدأ يراود أحلامهم، يتعثر فى الخطوط القاسية الصلبة الجامدة، التى عادت ترتسم على وجه شيخ الخفر.

أما "الشيخ مرزوق"فقد مضى فى طريق الله. حياته فى الجامع، صلاة وعبادة ودعاء، وحديث متصل مع الناس، فى شئون دينهم ودنياهم.

ولقد لاحظ انصراف "أبو سريع" عنه، فلم يعبأ بذلك فى أول الأمر، ثم عاد يسأل عنه، لعل مكروهاً قد أصابه.

وظن أهل القرية من المصلين، أن الشيخ يخاف من انصراف "أبو سريع" عنه، ولكن الشيخ لم يكن خائفاً منه، وإنما كان خائفاً عليه.

ظنه مريضاً أو محتاجاً أو حل به سوء.

وقال له أهل القرية :

ـ مريض !.."أبو سريع" يمرض يا سيدنا الشيخ !

قال ربما أصابته حاجة، فقالوا .

ـ حاجة !.."أبو سريع" يحتاج يا سيدنا الشيخ !

قال ربما حل به شىء من السوء. قالوا :

ـ سوء !.."أبو سريع" أقوى من السوء يا سيدنا الشيخ !

وهز الرجل رأسه، وأخذ يداعب لحيته البيضاء، وأسبل جفنيه، وأخذ يداعب بأصابعه حبات مسبحته، ويتمتم بدعوات هامسة.

وبعد أن استفاق لنفسه قال لمن حوله :

ـ اسألوا عليه. إنه أخوكم. لا تسيئوا الظن به. اذهبوا إليه وقولوا له إن "الشيخ مرزوق" يسأل عنك، ويريد أن يطمئن عليك. قد يكون له عذره.

وعجب الناس : كيف يطلب "الشيخ مرزوق" هذا؟ لقد عاد "أبو سريع" كما كان ولن يكون لسؤال الشيخ عنه أى أثر فى نفسه، إلا أن يزيده صلفاً وكبرياء.

ونظر كل منهم للآخر، يكاد كل منهم يسأل الآخر : ومن ذا الذى يذهب إليه؟ وكيف يكون وقع هذا على نفسه؟ ربما أساء إلى الرسول، وهو رجل إساءته لا تقف عند حد من رحمة أو مجاملة.

على أنهم أمام إصرار الشيخ، أوفدوا أحدهم إلى "أبو سريع" ليبلغه رسالة الشيخ إليه.

وذهب الرسول متردداً خائفاً، يقدم رجلا ويؤخر أخرى، ولكنه على أى حال كان يعتمد على بركة الشيخ وكراماته، لتنقذه من خطورة هذه المهمة الشاقة.

ولم يجد الرسول "أبو سريع" فى بيته، ولا فى بيت "الحاج سلطان". وقيل له إنه عند العمدة فى الدوار.

وساورته نفسه أن يؤجل تنفيذ رغبة الشيخ، ولكنه توكل على الله وذهب حتى لا يغضب الشيخ، وغضبه من غضب الله.

ووقف على باب الدوار، يسأل الخفير الواقف بالباب عن شيخ الخفر.

ونظر الخفير إليه فى ازدراء ثم قال :

ـ وماذا تريده أنت من شيخ الخفر.

قال فى تواضع وخوف :

ـ أنا العبد المأمور. عندى رسالة إليه.

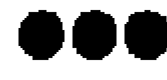
قال الخفير :

ممن هذه الرسالة؟

قال الرسول :

ـ من "الشيخ مرزوق".

وضحك الخفير ضحكة ساخرة، ولكنه أمام إلحاح الرجل دخل إلى الدوار ليبلغ شيخ الخفر.



وكان العمدة جالساً فى الدوار وحوله "الشيخ سيد"، وشيخ البلد، وشيخ الخفر يتحدثون ويضحكون، وقد عاد إليهم البشر بعودة "أبو سريع" إليهم كما كان.

وعندما دخل الخفير سأله العمدة فى نفور :

- ماذا؟..ماذا تريد؟ ألا تتركوننا أبداً نتحدث فى حرية؟ هذه المشاغل المختلفة وراءنا، تتعقبنا حتى فى ساعات راحتنا؟

قال الخفير :

- أنا أريد شيخ الخفر.

قال العمدة :

- هذا شيخ الخفر، ماذا تريد منه؟

قال الخفير :

- كلمة خاصة. رسالة خاصة.

وسأل العمدة ممن تكون هذه الرسالة.

قال الخفير :

- رجل بالباب قادم برسالة إليه، ولما سألته ممن هذه الرسالة، قال إنها من "الشيخ مرزوق" لشيخ الخفر.

وضحكت الجماعة كلها، فى صوت واحد. وكانت أعلى الضحكات، هى ضحكات "أبو سريع" نفسه. الرجل الذى جاء الرسول بالرسالة إليه !

قال "أبو سريع" :

ـ اذهب وقل له يتوكل. يعود للشيخ يقول له انتهى ...كان هذا أيام زمان.

ليحفظ الرسالة لنفسه، فأنا مشغول بما هو أهم من رسالته.

وهم الخفير بالانصراف، ولكن "الشيخ سيد" استوقفه قائلا :

ـ اسمع يا خفير. انتظر فى الخارج، ولا تقل للرجل شيئاً، حتى أناديك مرة ثانية.

وخرج الخفير وانفردت الجماعة بنفسها.

وتحدث الشيخ سيد فقال :

ـ ما هذا الذى تقولون؟ هل جننت يا "أبو سريع"؟ يجب أن تذهب إليه، فإنه ليس من مصلحتنا الآن أن نغضب "الشيخ مرزوق" فإن أهل البلد جميعاً يغضبون لغضبه، اذهب إليه بين الحين والحين، ولا تدعه يشعر أنك انقطعت عنه، أو أنك تأخذ منه موقفاً عدائياً. إن السياسة تقضى عليك بأن تكون ليناً معه، لبقاً، مجاملا، بحيث لا تغضب أهل البلد.

يجب الا نظهر بأننا ضد عواطفهم أبداً، وعواطفهم بلا شك مع "الشيخ مرزوق". واترك لى أنا تدبير أمر "الشيخ مرزوق".

وهز "أبو سريع" رأسه وهو يقول :

ـ لا تهتم هكذا بأهل البلد، أو عواطفهم . إنهم جنس لا يعامل باللين.

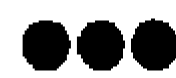
اتركهم لى أنا، وأنا كفيل بتأديبهم.

قال "الشيخ سيد" :

ـ لا يا ابنى، اسمع كلامى. أنا أكبر منك. وأعرف تماماً ما يجب علينا عمله.

وعاد "أبو سريع" يحاول مقاطعة "الشيخ سيد" فقال العمدة :

ـ اسمع كلامه يا "أبو سريع" إنك لا تزال "أخضر". مغروراً بقامتك هذه وشواربك ! اسمع كلامه ونفذ ما يقول.



وخرج "أبو سريع".

وانفرد العمدة "بالشيخ سيد" وشيخ البلد، وأخذ الثلاثة يتداولون الأمر فيما بينهم، ويبحثون جميع الاحتمالات.

وكان فارس الحلقة بالطبع، هو "الشيخ سيد" فقد كان الجميع يعتبرونه صاحب الرأى الذى لا يخيب؟ أليس عالماً واسع الباع؟ أليس "باشكاتب محكمة" عن طريق الخطأ والنسيان، وكان يمكن أن يكون رئيس محكمة؟ ثم هو فضلا عن ذلك رجل ماكر يعرف من أين تؤكل الكتف كما يقولون.

قال "الشيخ سيد" للعمدة، و "لغضبان" شيخ البلد، وصهر العمدة، وابن أخيه "الحاج سلطان" :

- رأيى يا عمدة أن تأخذ "الشيخ مرزوق" بالرفق وسيكون واجب "أبو سريع" هو أن يجامله، ويقترب إليه، كما كان يفعل، أيام أزمته مع حماته وزوجته.

بل علينا نحن أيضاً. أنت يا عمدة، وأنا، و "الحاج سلطان"، و"الحاج غضبان" و " ممتاز أفندى" وأولادنا وأقاربنا. علينا جميعاً أن نرضى "الشيخ مرزوق" بكل وسائل الإرضاء. بهذا نحقق أغراضنا، ولا نمتح باباً لأهل البلد ليعبروا فيه عن سخطهم علينا، عن طريق الدفاع عن "الشيخ مرزوق" واستغلال مكانته فى قلوب الناس. أفهمت يا عمدة؟

قال العمدة :

- والله رئيس محكمة يا "شيخ سيد" !..مفتى المسلمين !..إنك رجل عميق ...بئر كلها أسرار.

قال "الشيخ سيد" :

- بل إن لى اقتراحاً آخر. لا تسخر منه، ولا تأخذه ببساطة. أنا أريدك أن تعاون "الشيخ مرزوق" ليحج بيت الله ويزور قبر الرسول عليه الصلاة والسلام.

قال العمدة :

ـ لا يا "شيخ سيد" هذا كثير. نجامله نعم. نرضيه نعم. لكن ندفع له مصروفات الحج فإن هذا كثير.

قال "الشيخ سيد" :.

ـ نحن هنا ثلاثة لا رابع لنا. والذى سأقوله لكم سر يجب ألا يعرفه أحد سوانا حتى نتفق عليه، وننفذه.

وفتح العمدة عينيه وأخذ يحملق فى "الشيخ سيد". كذلك فعل "شيخ البلد".

ومضى "الشيخ سيد" يقول :

ـ يحج وفى صحبته "أبو سريع".

قال العمدة :

ـ وما الحكمة؟ ...ما الرأى فى هذا؟ هل أستطيع أن أعرف ماذا تفكر فيه؟

قال "الشيخ سيد" :

ـ سيكون لك هذا وحدك بعد أن يتحرك الشيخ بصحبة "أبو سريع"، فى طريقها ما إلى الحجاز.

قال العمدة :

ـ ألا أستطيع أن أطمئن على ما تريده يا "شيخ سيد"؟

قال "الشيخ سيد" :

ـ تستطيع أن تطمئن تمام الاطمئنان. ألا تثق بى؟

قال العمدة :

ـ وهو كذلك يا "شيخ سيد". فقط ستكون المصاريف كلها على حسابك، إذا لم تؤد خطتك إلى تحقيق المصلحة.

قال "الشيخ سيد" :

ـ لك هذا.

واتفقا.



وشهدت القرية بعد هذا "أبو سريع" يكثر من التردد على حلقات الشيخ، ويحرص على أداء الصلوات خلفه، وترديد دعواته مع من يرددونها من الفلاحين، ثم تقبيل يديه فى احترام.

بل شهدت القرية العمدة نفسه، وأقاربه، يترددون على الجامع بين الحين والحين، ليؤمهم "الشيخ مرزوق"، ويدعو لهم بالهداية والتوفيق.

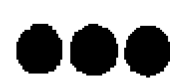
"الحاج سلطان" وإخواته وأولاده، كانوا بدورهم يترددون على الجامع للتبرك بالشيخ، والاستماع إلى ما يديره من أحاديث.

وعاشت القرية الطيبة فترة من حياتها، فى جو من الحب والحنان. ارتاحت النفوس إلى هذا التطور فى حياة القرية، وأحبت العمدة وأعيان البلد، حباً مخلصاً وصادقاً.

وعاش العمدة والأعيان كذلك فى جو من راحة البال. لم يعد أحد يناقشهم فى حق له، فقد آمنت القرية بأن أعيانها قوم صادقون، لا يمكن أن يتسرب عليهم شك.

إنهم يترددون على الجامع، ويصلون خلف "الشيخ مرزوق"، ويرددون دعواته بعد الصلاة، وكثيراً ما تشهدهم الحلقات التى يعقدها، وهم ينصتون إليه فى تقوى وإكبار.

وانتهز الأعيان هذه الفرصة. انتهزها "الحاج غضبان" فأسرف فى الأرباح التى يحققها من وراء محاصيل أهل القرية. انتهزها كذلك "الحاج سلطان"، فأخذ يحاسب على مياه الساقية واستعمال الجرن، بالطريقة التى يراها. كذلك "ممتاز أفندى". أما العمدة، فقد سهل عليه الحصول على ما يريد، طالما أنه يحب "الشيخ مرزوق" هذا الحب، ويرعى الجامع هذه الرعاية.



وزادت مكانة العمدة فى قلوب اهل القرية، وزادت معها مكانة الأعيان جميعاً، عندما سرى فى القرية نبأ، أن العمدة قرر أن يدفع نفقات سفر "الشيخ مرزوق" إلى الحجاز، لحج بيت الله وزيارة مدينة الرسول، تقديراً لخدماتة لأهل القرية، وتكريماً لما يسبغه على الناس من بركات.

استقبلت القرية هذا النبأ فرحة سعيدة، داعية للعمدة بطول العمر، وعلو المكانة، وزيادة النعمة.

وقضت القرية أياماً من عمرها فى أفراح، تلتقى كل مساء "بالشيخ مرزوق" تحتفل به قبل أن يذهب للحج، وتسأله الدعاء.

وكان الرجل فرحاً بما أكرمه به الله. إنه سيحج وسيزور مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم. إنها أمنية عمره، قد أذن الله أن يحققها له قبل أن يموت.

وأحس أهل القرية أن "الشيخ مرزوق" استعاد عشرين عاماً من عمره المديد، فقد كانت حلقاته تطول. لم يعد يغلق الجامع بعد صلاة العشاء، ويأوى إلى بيته، يهجع بضع ساعات، ليعود إلى الجامع مرة أخرى قبل طلوع الفجر. وإنما أخذ يعقد حلقات أخرى بعد العشاء، قد تمتد به إلى ما قبل طلوع الشمس، فلا يذهب إلى بيته إلا بعد صلاة الفجر، يهجع قليلا ثم يعود إلى الجامع، نشيطاً مبتسماً سعيداً.

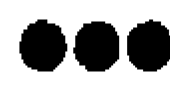
وأخذ "الشيخ مرزوق" يعود المريض، ويسأل عن المحتاج، ويصالح المتخاصمين. كان يريد أن يرد للقرية جميلها عليه. إنه جميل لن ينساه لها، فمن رضاها، رضى عنه الله، فأكرمه هذا التكريم، وأتاح له فرصة لم يكن ينتظرها قط.

وكان يريد أن يكون رد جميل أهل هذه القرية اطمئناناً عليهم وعلى أحوالهم قبل أن يغادرهم، وينأى عنهم شهوراً طويلة، سيحظى فيها بأداء فريضة الله، وإن كان بعده عن القرية، سيسبب له من الوحشة، ما يرجو أن يحتمله حتى يعود.

وكان يقول للرجال : لا شك أن ستكون لكم وحشه يا أولادى. ولكنى سأراكم عند الكعبة، وعند قبر رسول الله، فى "أبو سريع". سيكون معى "أبو سريع" يذكرنى بكم

جميعاً. بكل واحد منكم، وسنتحدث طويلا عن أحوالكم، راجين لكم ونحن فى اقرب الأماكن إلى الله، وأعزها عنده، التوفيق والسداد وصلاح الحال.

وفرحت القرية لأن "أبو سريع" سيكون مع الشيخ، فالشيخ رجل عجوز مسن، ولا شك أن "أبو سريع" سيعاونه على قضاء حاجاته. وقد أثبت "أبو سريع" فى المدة الأخيرة أنه من المخلصين للشيخ، المقبلين عليه، المنتفعين ببركاته.



وعندما أخذ موعد السفر إلى الحجاز يقترب، انشغلت القرية كلها، تعد زاد الرحلة للشيخ العزيز، الذى نشأت على دعواته الصالحات. كل بيت أخذ يعد ما لديه من زاد للرحلة. وتسابقت بيوت القرية فى إعداد ما تتطلبه الرحلة من مؤونه، وفى تقديم الهدايا للشيخ، بل فى تقديم المسنية مقدماً لسنوات قادمة، ليطمئن بال الشيخ إلى أن بيته سيظل مستوراً حتى يعود.

وكان أكثر الذين جادوا فأسرفوا فى الجود، هم فقراء القرية الطيبون السذج البسطاء الذين يدخرون للشيخ وداً حقيقياً خالصاً من شوائب المصلحة أو المنفعة.

هؤلاء الذين عاشوا على مدد من روحه، استعانوا به على الفاقة والحرمان.

وفى الأيام القليلة التى سبقت السفر بدت على "الشيخ مرزوق" نوارنية غريبة.

ولاحظ أهل القرية أن وجهه الصبوح، ازداد إشراقاً، وأن نظراته ازدادت نفاذاً، وأن الله سبحانه قد كشف عن بصيرته، فأصبح يرى مالا يراه الناس.

واخذوا يلقبونه "بالحاج" قبل أن يحج على عادة أهل مصر.

وعندما كان الشيخ يوصى الناس بأهل بيته، وأنه سيتركهم وديعة الله عندهم، كانوا يهبون واقفين تترقرق الدموع فى عيونهم يقسمون له أن بيته سيكون فى أعز مكان من قلوبهم، وأن زوجته وبنته ستكونان موضع رعاية أهل القرية جميعاً، فهما منه، وهو أبو

القرية الروحى وقد قضى حياته راكعاً ساجداً لله يطلب لأهل القرية جميعاً صلاح الحال والسداد، ويدعو لهم أن يقيهم شر أنفسهم، وأن يحفظهم من السوء.

ولقد كان آخر ما فعله الشيخ قبل أن يغادر القرية أن قصد إلى بيت "الحاج سلطان" وطلب أن يقابل "الست نبوية" إنه لا يريد أن يغادر البلد ولأحد فيها عليه عتاب.

ولما رآها دمعت عيناه وهو يقول لها :

- إن كنت قد أخطأت فى حقك يا ابنتى، أو سببت لك يوماً ألماً، أو رددت لك رغبة فسامحينى قبل أن أغادر البلد. سامحينى وسأدعو لك فى الكعبة، وعند قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم.

قالت وهى تلوى عنه وجهها :

- حج مبرور يا "شيخ مرزوق"، إن شاء الله تذكرنا عند ربك، وتذكر نعمتنا عليك.

قال وهو يكتم دموعه :

- بارك الله فيكم يا بنتى. النعمة من الله، يوفق المخلصين من عباده أن تعم هذه النعمة على أيديهم، ويكفيهم سعادة ورضى أن قد اختارتهم إرادة الله وسيلة لنعمه على خلقه.

ولم تحاول "الست نبوية" أن تفهم ما يقول "الشيخ مرزوق" فقد كان قلبها لا يزال منطوياً على الحقد عليه، والكراهية له، ولولا خوفها من أخيها، ومن أهلها جميعاً، لما هدأت ثورتها عليه، أو اضطهادها له.

وعاد الشيخ يسألها :

- ألا تريدين شيئاً أحضره لك معى من الحجاز؟ كله من خيركم يا بنتى.

قالت :

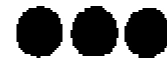
- أرجو أن تفى بوعدك، وألا تنسانا هناك.

قال :

- إن شاء الله. أستودعك الله يا بنتى. قولى إنك تسامحيننى.

وقالتها فى سرعة واقتضاب، كأنها تقتلعها من حلقها اقتلاعاً.

ولما علمت القرية بهذا زادت إكباراً للشيخ وحباً فيه وتعلقاً به.

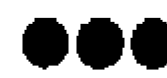


وفى الليلة التى سبقت سفر "الشيخ مرزوق" اجتمع ثلاثة فى دوار العمدة :

العمدة نفسه، والشيخ سيد، وشيخ الخفر "أبو سريع" وتحدث "الشيخ سيد" طويلا إلى "أبو سريع" عن رحلته إلى الحجاز، بصحبة "الشيخ مرزوق" وأوصاه أن يفعل ما يقوله له تماماً، بلا مناقشة فهو يعرف مصلحة البلد، وهو يعرف كيف يحفظ للسادة الأعيان حقوقهم وهيبتهم أمام الفلاحين.

وبعد أن أنتهى من الحديث نظر للعمدة يسأله الرأى، فصاح العمدة فى فرحة ساذجة:

- والله رئيس محكمة "يا شيخ سيد"...مفتى...يا مكار.



وأصبح الصباح وفى صلاة الفجر، كانت القرية كلها تصلى خلف "الشيخ مرزوق" وصوته وهو يؤم المصلين يجلجل فى المسجد، فيستقر فى القلوب الخاشعة المؤمنة.

ودع الشيخ أهل القرية ومر بأهل بيته يودعهم قبل أن يسافر إلى الحجاز.

كان يتماسك حتى لا تسيل دمعة على خديه.

كان يقبل أهل القرية، ويضمهم إلى صدره فى حنو وحنان.

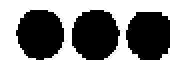
كان يربت على النساء داعياً، ويقبل الأطفال رفيقاً رقيقاً.

وفى بيته سلم على الزوجة الطيبة التى عاشت معه عمرها هذا، تواجه معه المحن كما تواجه النعم، راضية مرضية قنوعاً.

ثم ضم بنته إلى صدره، وأخذ يداعب شعرها الطويل، ويقبل رأسها وخديها، وهو يسألها : ماذا تريد أن يحضره لها من الحجاز..وهى لا تجيب بأكثر من أنها تريد عودته سالما بإذن الله، وأنها ستنتظر أباها الحاج، وقد عاد من كعبة المسلمين، ومدينة الرسول، بمزيد من البركة والنور.

ومضى الشيخ، بصحبة "أبو سريع"، فى طريقهما إلى سفر طويل...إلى حج بيت الله وزيارة قبر رسوله صلوات الله عليه.

وأحست القرية بعد أن سافر الشيخ، أن فراغاً هائلا قد طرأ على حياتها وأن هذا الفراغ لن يملأه بعد الشيخ أحد.



ولم يعد للقرية حديث إلا رحلة الشيخ، وإلا الأمل فى أن يعود.

قال الناس، بعضهم للبعض الآخر :

ألا تحسون أننا يتامى، بعد "الشيخ مرزوق"؟ إننا لم نكن نعرف قدره تماماً إلا بعد أن سافر وتركنا هكذا بلا أب يرعانا. ألا ترون الجامع بعده؟ إن صوته وهو يؤذن للناس بالصلاة، لا يزال يرن فى آذاننا. إن حلقاته الشيقة، لا تزال تملأ قلوبنا. ولولاه..لولاه...إننا لا ندرى ماذا كانت تصبح حياتنا فى هذه القرية لولاه.اللهم أعده إلينا سالماً. اللهم ظلل رحلته إليك ببركتك. اللهم إنه منك ولك، يهدى خطانا إليك، فلا تسئنا فيه، فإننا نضل الطريق.

ومع هذا فإن إقبال الناس على الجامع ظل متصلا، فقد كان كل مكان فى الجامع يحمل ذكرى ويطوى أنفاس الشيخ الطيبة.

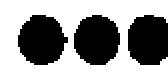
أما زوجته وأم ابنته، فقد كانتا موضع رعاية القرية كلها.

وزاد تعلق القرية بالعمدة وبأهله، عندما وجدوهم فى مقدمه السائلين عن بيت الشيخ، العاملين على توفير حاجات زوجته وبنته.

وتدخل العمدة، فحمل "الست نبوية" حملا، على أن توالى السؤال عن زوجة الشيخ وبنته، وأن تقدم لهما كل ما تطلبانه من حاجات.

كذلك تدخل العمدة، فكان موقف أولاد "الست نبوية" بنين وبنات، من بيت "الشيخ مرزوق" لا يقل عن موقف أمهم كرماً وسخاء.

وكان "الشيخ سيد" وراء هذه المجاملات جميعاً، حتى تتم الخطة كما رسمها.



وعندما أخذ عيد الأضحى يقترب، أخذت القرية تتساءل :

من الذى سيمسك السيف، ويصعد على المنبر، ويخطب فينا خطبة العيد؟

أين أنت يا "شيخ مرزوق"؟ ربنا يعيدك إلينا سالماً، حتى لا تتقطع لنا عادة معك.

وفى يوم وقفة عرفات، كانت القرية كلها، كما لو أنها مع "الحاج مرزوق" وفى الأراضى المقدسة، تقف على عرفات، تشاركه الدعوات.

وفى صباح العيد، فوجئت القرية، "بالشيخ سيد" يتطوع للقيام بواجبات "الحاج مرزوق" فدمعت عيونها وهو يتحدث عن الحج، وعن وقفة عرفات، وعن دعواته أن يعود الحجاج إلى بيوتهم وبلادهم سالمين.

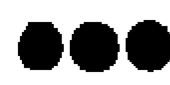
لقد ذكرت القرية رائدها الروحى، فيما جرى على لسان الخطيب من عبارات فلم تتمالك نفسها من تحيته بدموع الشوق إليه، والدعاء له أن يعود سالماً، يستأنف حياته بينهم، ويحدثهم فى أمور دينهم ودنياهم.

ومن عادة أهل القرية أن يخرجوا من المسجد بعد صلاة العيد، والاستماع إلى خطبة الخطيب، قاصدين المقابر، فيزورون موتاهم، ويترحمون عليهم، ويزورون ضريح سيدى الذكيرى، ويقرأون له الفاتحة وهم يتمتمون بالدعوات.

على أنهم فى هذا العام، ولأول مرة فى حياة القرية، غيروا هذه العادة، فقد خرجوا من المسجد إلى بيت "الحاج مرزوق" أولا، يعيدون على زوجته وبنته، ويقدمون لهما تحية العيد، وهدايا العيد.

إن الرجل بعيد، ويجب أن تشعر زوجته وبنته، أن البلد كلها هى "الحاج مرزوق" كأنه بينهما موجود، لم يفارقهما قط.

وتأثرت الزوجة بهذه الروح الطيبة الكريمة، ودمعت عينا البنت، وهى تدعو لأهل القرية جميعاً بطول العمر، وأنها ستبلغ أباها عندما يعود، أن القرية لم تنسها فى غيبته.



وما هى إلا أيام، حتى ذاع فى القرية أن العمدة تلقى خطاباً من الحجاز، وأنه ما إن فتح الخطاب، حتى دعا إليه شيخ البلد، و"الحاج سلطان" و"الحاج غضبان" و"الشيخ سيد"، والأهل من المقربين.

وتردد أن العمدة يبدو متأثراً واجماً بعد تلاوة الخطاب.

وذاع أن "الشيخ سيد" يهز رأسه فى أسى وحسرة.

وقيل إن "ست الناس" ذهبت بنفسها إلى بيت "الحاج مرزوق"، وقد بدت حزينة مكتئبة.

ووجم الناس. ثم أخذوا يتساءلون. ثم تجمعوا فى حلقات.

وسرى النبأ إلى الحقول، فعاد من كانوا فى الحقول.

وانتشر الكلام فى البيوت، فخرجت النساء من البيوت.

ولم تطق القرية صبراً على هذا الغموض، فذهب الرجال إلى العمدة يسألونه الخبر.

وهناك وجدوه فى جمع من أهله، وهو يخبط كفاً بكف، ويردد فى أسى :

ـ لا حـول ولا قـوة إلا بالله. لا حـول ولا قـوة إلا بالله. لا حـول ولا قـوة إلا بالله.

وتطاولت الأعناق تسأل العمدة عما حملته رسالة الحجاز من أخبار.

وقال العمدة فى حزن :

البقية فى حياتكم يا أولاد. البقية فى حياتكم جميعاً. لن نستطيع أن نعوضه أبداً.

قالوا جميعاً :

ـ من؟...من يا ترى؟ أتقصد "أبو سريع" يا عمدة؟

وتبادل العمدة مع "الشيخ سيد" نظرة طويلة، قال على أثرها :

ليته "أبوسريع". إننا نستطيع أن نعوض "أبوسريع". أما "الحاج مرزوق" فلن نستطيع أن نعوضه.

قال الرجال فى هلع :

ـ مات؟

قال العمدة :

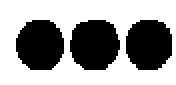
انتقل الى رحمة الله، وليا من أولياء الله. ناداه الى أطهر مكان من أرضه، لتكون نهايته هناك، فى مدينة الرسول. ليدفن قريباً من الشهداء والصديقين.

وفقد أهل القرية القدرة حتى على البكاء.

جمد الدمع فى عيونهم، كما جمدت الصيحات فى حلوقهم.

وشعروا بأنهم صاروا فعلا يتامى، بعد أن فقدوا الأب الحانى العطوف.

ولم يعرفوا ماذا يفعلون. ماذا يقولون.



وفى سرادق عزاء كبير، أقامه العمدة على نفقته، تجمع أهل القرية صامتين، مطأطئى الرءوس، حزانى، حيارى، شاردين.

وبينما كان المقرئ يرتل آيات من الذكر الحكيم كان العمدة يتبادل مع "الشيخ سيد" نظرات سريعة غامضة، لايعرف أحد سرها، ولامعناها.



وعرفت القرية معنى الحداد.

وأدركت معنى اليتم، فى قلبها، وفى وجدانها.

وعاشت فى دمع متصل.

ثوبها سواد.

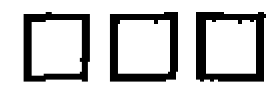
ولغتها نواح.

والأمل الحلو، والرجاء الحبيب.

انتفاضة الضمير، وكلمة الحق.

بركة الله الواسعة ورحمته.

... قد اختفت جميعاً، مع الرسالة، التى جاءت تحمل نعى الرجل الذى شبت القرية على صلواته، ودعواته.





وعندما شاع فى القرية أن "أبوسريع" قادم من الحجاز، عادت القرية تذكر "الشيخ مرزوق" أو "الحاج مرزوق" فى أسى.

وكان عند الساقية فلاحان، من صغار المزارعين من أهل القرية، ممن يشترون الماء من "الحاج سلطان"، ويدفعون له الثمن، من عرقهم ومن جهدهم:

محاصيل من كد أيديهم.

أما أولهما، فكان على وشك أن ينتهى دوره فى رى زراعته. وأما الثانى فكان على وشك أن يستقبل دوره فى مياه الساقية.

وكان "أبوالمكارم" فى مكانه من شجرة الصفصاف، يتطلع اليهما فى جمود ساذج، وينصت الى حديثهما فى اهتمام بالغ.

قال أحدهما لزميله :

ـ هل سمعت النبأ؟ "أبوسريع " فى طريق عودته من الحجاز.

قال الثانى :

ـ قل الحاج.. "الحاج أبوسريع" شيخ الخفر !

ومضى بينهما الحديث :

ـ رحم الله مولانا الشيخ. كنا ننتظر عودته على أحر من الجمر.

- رحمه الله، لقد استبقاه الله فى أرضه

- كأنه كان يشعر أن الله استبقاه فى روضه المقدسة.

- وكأنه كان يشعر بالوداع الأخير فى زيارته...

- نعم لقد كان الوداع الأخير. زارنا فى بيوتنا واحداً واحداً، واطمأن علينا، ودعا لنا دعواته الصالحات حتى عن الأطفال

- وكان يسأل حتى عن الأطفال الصغار. كأنه كان يعرف.

- بالتأكيد كان يعرف. لقد كشف الله عن بصيرته، فرأى أنها آخر مرة. يرانا فيها، ولهذا حرص على أن يوصينا وأن يطلب منا أن نعيش جميعاً...

- أتذكر لياليه الأخيرة فى الجامع؟ وحلقاته، ومناقشاته، ودروسه الدينية المشرقة الوضاء المباركة.

- كانت رائعة. كنا نذهب إليه تملؤنا الهموم، فنخرج من حلقاته تملؤنا القناعة والرضى

- وهل تذكر دعواته الصالحات وهو يرددها فى صوت متهدج عميق، أن يحمى الله الناس من أذى الناس وأن يحميهم شر أنفسهم.

- وكان يختم المسألة بجملة تقليدية...

هل تعرف أنك سألته عن السر فى تمسكه بهذا الدعاء.

- وماذا قال لك؟

- قال: هذا الميراث الوحيد الذى ورثته عن أبى. دعوة صدق أطلقها من قلبى.

- وهل فسرها لك؟

- تفسيراً سريعاً.. قال إننا عبيد الله، خلقنا لنعبده، ولنتلمس رضاه وعلينا أن نرضى بما يرضاه، فهو أكثر حرصاً علينا من أنفسنا. ألسنا عبيده؟ ألسنا من صنعه؟ فإذا كان هذا يرضيه فإننا نسأله أن يزيدنا منه.

- ما أجمل الإيمان بالله ! وهل ننسى الشيخ العجوز الفقير الأعزل، وكيف انتصر بهذا الايمان على العمدة والأعيان جميعاً؟

- نعم عقب حادثته مع " الست نبوية ". لقد كان بطلا. استمد من إيمانه قوة، صرع بهم قوتهم جميعاً.

- "وأبوسريع". "الحاج أبوسريع". لقد أقبل على حلقاته تابعاً مطيعاً، يتلمس بركاته، ولم يجرؤ على أن يؤذيه، أو أن يقضى عليه. وكلنا يعرف "أبوسريع " وكلنا يعرف أنه وحش لايتورع عن شرب الدم، والقضاء على حياة الذين يغضب عليهم، ولكن بركات الشيخ كانت أقوى من "أبوسريع " فانطوى طيعاً مطيعاً.

- والله إنك لساذج. "أبو سريع" لم يفعل ذلك إلا عندما كان على خلاف مع حماته. كانت حماته تكره الشيخ، فانضم إلى الشيخ ليغيظ حماته.

- لكنه استمر على صلته بالشيخ حتى بعد أن عادت إليه زوجته، وعادت المياه إلى مجاريها، بينه وبين حماته.

- ربما. الله أعلم بما فى النفوس !

- لقد كنا نراه بأعيننا يا رجل.

- ولكنك نسيت أنه لم يعد على الشيخ إلا بعد أن أرسل عليه يدعوه ويسأل عنه.

- نعم. هذا صحيح.

- وفى الفترة التى أعقبت عودة زوجته إليه، وانقطع فيها عن الشيخ حتى أرسل يسأل عنه. فى هذه الفترة، ماذا كان يفعل؟

- ماذا كان يفعل؟..

- نسيت يا رجل..نسيت أنه عاد أسوأ مما كان.

- ولكنه عاد مرة أخرى بمجرد سؤال الشيخ.

- من يدرى؟ لعله عاد لسبب لا نعرفه.

- هل تشك فى صلته بالشيخ؟ هل تريد أن تقول..

- يا سيدى أنا لا أريد أن أقول شيئاً. أنا رجل صاحب عيال، ولا أريد أن أتعرض لأذى أو لمكروه. أنا لست مثل "أبو سريع"، ولا اريد أن أفقد لقمة العيش التى أحصل عليها..

- لكن.. معنى هذا أن "أبو سريع" كان مضللا، كان يخدعنا ويخدع الشيخ.

- الله أدرى بما فى قلوب الناس.

- إن صح هذا، فكيف ذهب فى صحبته إلى الحجاز؟ هل نأتمن الذئب على الشاة؟

- وماذا كنت تستطيع أن تفعل؟ العمدة دفع نفقات الحج، وهو الذى أوفد "أبو سريع" ليكون فى صحبته. والشيخ كان سعيداً راضياً فرحاً بفرصة العمر، وقد واتته.

- الشيخ لم يكن يعلم أن "أبو سريع" غير صادق.

- الشيخ كان يعلم، ولكنه وهو الذى عاش حياته يردد دعوته إلى الله أن يزيده مما يرضيه، أقبل غير هياب، لأنها كانت إرادة الله، والرجل عاش راضياً بما قسمه له الله.

- الله !! هل معنى هذا أن "أبو سريع" !..أن موت الشيخ !..اللهم هذا فظيع، هذا شنيع. هذا غير معقول.

- غير معقول !! ونحن نعرف من هو "أبو سريع" !!

- لكن كيف عرفت أنت؟ كيف وصل إلى علمك شئ من هذا؟

- أى هذا الذى تقصده؟ هل قلت أنا شيئاً؟

- أرجوك. ممن تخاف؟ من الأخرس؟ منى أنا؟

- اسمع. أنا لست نبيا، ولا ولياً، ولا علم لى بالغيب، ولكن أنا فهمت هذا منهم هم. من الذين أوفدوه مع الشيخ.

- من العمدة مثلا؟

- لا: العمدة !! وهل سيتحدث إلىّ العمدة بشئ من هذا؟

- إذن ممن؟ إن العمدة هو الذى أرسله.

- العمدة ليس إلا واحداً منهم، وكلهم على شاكلته.

- إذن من أحد أقاربه، أو أصهاره. من أحد الأعيان مثلا؟

- هل تذكر يوم أن إختلفت مع "الحاج غضبان" على بقية حسابى عن البرسيم؟ لقد وجدته قد حسب على حساباً لا أعرف له أولا ولا آخراً. شيئاً عن مياه الري، وشيئا عن الجرن، وشيئاً من حساب الفايظ الذي أخذته. وشيئاً عن أجرة النقل. وأشياء أخرى كثيرة لا أذكرها. يومها كنت مديناً لأكثر من واحد. وكان أملى كبيراً جداً في الحصول على ربح معقول من المحصول، فلما وجدت أن الباقي لى شيء لا يكاد يذكر. ساعتها جننت وفقدت عقلى. فثرت فيه، وأخذت أصيح إن هذا ظلم، وإني أريد أن أعرف تفصيلات الحساب. هل تعرف ماذا قاله لى "الحاج غضبان"، الرجل الذى حج بيت الله، وزار قبر رسوله صلوات الله عليه.

- ماذا قال؟

- لقد صاح فىّ قائلا: إنتهى. إنتهى هذا العهد. "الشيخ مرزوق" مات. كان يحميكم. كان قدوتكم. كنتم تلجأون إليه ليقول لكم كلاماً كله تخريف. إنتهى هذا. لقد مات. استريحوا.

- يا نهار اسود !!

- نعم وزاد على ما قاله أن أخذ يقسم لى بأغلظ الأيمان أن أى إنسان يفتح فمه بعد اليوم سينال جزاءه الرادع.

- ولكن هذا عجيب...

- بل اسمع ما هو أنكى من هذا. لقد ذهبت أستفيث "بالشيخ سيد" على اعتبار أنه عالم من علماء الدين، وأنه يحل محل "الشيخ مرزوق" فى كثير من الأحيان. يؤمنا فى الصلاة، ويخطب فينا الجمعة...تعرف ماذا قاله "الشيخ سيد".

- "الشيخ سيد" باشكاتب المحكمة الشرعية !!

- نعم ...باشكاتب المحكمة الشرعية. قال بدوره الكلام نفسه الذى سمعته من "الحاج غضبان" وأضاف مستنكراً موقفى : ألا تحمدون الله؟ من الذى كان يستطيع أن يقدم لكم الخدمات التى يقدمها لكم "الحاج غضبان"؟ رجل يشقى ويعرق ويحفى، من أجلكم، ومن أجل بيع محصولاتكم. وأنتم تأكلونها مقشرة !!

لا تعرفون الجهد الذى بذل، ولا ما أنفقه على اتصالاته ومجاملاته للتجار من تعب ومال ! ومع هذا لا تحمدون الله ولا تشكرون فضله ! اذكروا أنكم لولانا، لكنتم تتعرضون للجوع ! ماء الساقية تأخذونه جاهزاً. الجرن تستعملونه دون أن تعرفوا قيمته. تتعرضون للحاجة، فنمد لكم أيدينا بالسلف. فإذا حاسبناكم حساباً عادلا بعد هذا قلتم حقوقنا...أية حقوق هذه التى تدعون أنها لكم؟! قل لى أية حقوق؟ إنه العقوق ! ماذا نفعل فى هذا العقوق؟ ولكنها أخلاق اللئام ! ماذا نفعل بأخلاق اللئام؟

- شىء غريب !

- وأغرب منه أنه أضاف قائلا : إذا كنتم تظنون أن "الشيخ مرزوق" سيحميكم عن طريق التأثير على "أبو سريع" والسيطرة على "أبو سريع"، فقد مات "الشيخ مرزوق" ولم يعد "أبو سريع" لعبة فى يد أحد. هل هذا مفهوم؟

- هذا شىء لا يصدق !

- ولكنه حدث يا سيدى...حدث !

- وماذا فهمت أنت من هذا الكلام؟

- فهمت أن هناك سراً وراء موت الشيخ. لا يمكن أن يكون موته طبيعياً.

ـ يعنى ماذا؟ هل "أبو سريع" يكون قد...أستغفر الله العظيم !

ـ الله ورسوله أعلم.

ـ ولكن كيف يتحدث هؤلاء الناس بهذا الكلام، وقد ظهروا أمامنا حزانى على الشيخ؟ لقد كانوا يتحسرون عليه. أنا لا أنسى أن العمدة قال لنا عندما وصله النبأ : ليته كان "أبو سريع" فإننا كنا نستطيع أن نعوضه. أما "الشيخ مرزوق" فكيف يمكننا أن نعوضه؟

ـ لا أدرى ..هذا ما علمته وسمعته بأذنى هاتين.

ـ لقد نبهتنى إلى شىء هام سمعته من قبل.

ـ ممن ...؟ لابد من أحد الأعيان.

ـ من شيخ البلد نفسه، وأنت تعرف أن شيخ البلد هو زوج بنت العمدة،وهو أكبر أبناء "الحاج سلطان" وهو ابن "الست نبوية" التى كانت تكره "الشيخ مرزوق" كراهة التحريم.

ـ وكيف سمعته؟

ـ كان جالساً يتحدث مع أخيه "سيد" هنا عند الساقية، تحت شجرة الجميز هذه. وكنت أنا جالساً خلف الشجرة، فلم يكن أحدهما يرانى. لم أكن والله مختبئاً، ولم يكن قصدى أن أتسمع عليهما، ولكنى كنت أنتظر الأخرس لأعرف منه دورى فى الرى. ولما أقبلا، جلسا من الناحية الأخرى دون أن يتنبها لوجودى. كان يتحدثان عن جدهما "سلطان الكبير"، والجهد الذى بذله فى إصلاح هذه الأرض، والنوادر التى تحكيها عنه الأسرة، وتتوارثها جيلا عن جيل. ولما فرغا من حكايات جدهما وهما يتضاحكان فخورين مزهوين بأصلهما ونسبهما العريق، قال شيخ البلد لأخيه : "والله لولا جدنا، لما كانت هذه الأرض قد عمرت بالناس".

فيرد أخوه : " وهل يعرف الناس له هذا الفضل؟" "قال شيخ البلد : "أى ناس؟ هل هؤلاء ناس يا سيد؟ أنت بسيط التفكير، ساذج". قال سيد: ألم تر كيف أخذوا يرفعون أصواتهم وهم يحاسبون عمك "الحاج غضبان"، ويطالبونه بحسابات عن محصولاتهم؟

أنت تظن أنهم قوم ذوو إحساس وشعور ! وأنهم يقدرون لنا هذا الجميل ! بينما يظنون هم أنهم هم الذين أصلحوا هذه الأرض، وأنه لولاهم لما تمكنا من أى إصلاح أو تعمير؟ فرد شيخ البلد : لقد كان هذا عندما توهموا أن انضمام "أبو سريع" إلى "الشيخ مرزوق" وتردده عليه فى الجامع، معناه أن القوة قد صارت فى جانبهم. ولكن عمك "الشيخ سيد" رسم خطة مدهشة، ستعرف نتيجتها عما قريب.

ومضى الرجل يتمم حديثه فقال :

وكان "سيد" حريصاً على أن يعرف هذه الخطة، ولكن شيخ البلد لم يقلها له صراحته، ولكنه قال له فى تخابث : ماذا يفعل "أبو سريع" فى الحجاز..يحج بيت الله !! "أبو سريع" السفاح يحج بيت الله، ويزور قبر النبى...إنه ذهب لمهمة أخرى. وستسمع قريباً عن هذه المهمة. ستبكى القرية. وسنبكى معها، ولكنا سنقضى على أصل هذا البلاء.

وضحك الأخوان ضحكاً متصلا، كأنهما يرويان نكته من النكات !

- نعم يا سيدى...أصل البلاء ! "الشيخ مرزوق" أصل البلاء.

- شىء غريب. إن رأسى يدور !



وأخذ موعد عودة "أبو سريع" من الحجاز يقترب، وبدأت القرية تعيش فى تناقض شديد. أتفرح بعودة شيخ الخفر، من رحلته، أم تبكى، لأن "الحاج مرزوق" لم يعد، وكانت تنتظر عودته، فى لهفة واشتياق.

أتقيم ساحة استقبال؟ أم تقيم سرادق عزاء؟

أترسل ضحكة سعيدة، أم تذرف دمعة حزينة؟

هل تتحدى بيت العمدة، وبيوت الأعيان، وهل هى قادرة على هذا التحدى؟ أو هل تتجاهل ما فى قلبها من جرح يدمى، مع القلبين الكسيرين، فى حارة ضيقة من حوارى القرية، حيث تقيم أرملة عجوز، وفتاة يتيمة؟

وهز قلوب أهل القرية عويل متصل، كأنه أرغول حزين، حطم سكون القرية، وبدد هدوءها. وكان الصوت ينبعث من الحارة الضيقة التى تتلوى فى غموض، وتنتهى إلى الجامع. من البيت الصغير الذى كان يسكنه "الحاج مرزوق".

إن ابنته "راضية" قد اتكوت بالنار، وهى تسمع أن موعد عودة أبيها قد حل، ولكنه لن يعود. سيعود الذى كلف بمرافقته، أما هو، فقد استقر هناك، فى بلاد نائية، لا تعرف الطريق حتى إلى زيارة قبره.

ولقد كانت نارها حامية الوطيس، فأنستها ما عاهدت أمها عليه، أن تستعين بالصبر والإيمان على مواجهة الكارثة.

إن أمها العجوز قالت لها ذات يوم، بعد مضى أيام الحداد، إن أباها كان يعظ الناس دائماً بالصبر والإيمان والتحكم فى النفس، عندما تواجه المحنة أو تقابل الخطوب، وكان يكره أن يستبد الحزن بالناس، فينسيهم رحمة الله، والإيمان بقضائه وقدره.

ونصحتها أمها أن تكون مثلا حياً لبنت "الحاج مرزوق" وأن تتزين بما كان ينصح به الناس.

ووعدت "راضية" أمها أن تكون كما أراد لها أبوها أن تكون. ستصبر على قضاء الله، وستقابله بإيمان مستمد من إيمان أبيها الراحل.

على أنها وهى تسمع أن الموعد الذى كانت سترى أباها فيه قد واتى، ولن يأتى أبوها. لن ترى حتى جثته. لن تعود تنتظره بعد كل عشاء، لتعد له الطعام، ولتسمع كلماته المتهدجة الطيبة، وهو يداعبها ويمزح معها، ويروى لها قصص الرسل والأنبياء، وزوجات رسول الله. لن تعد له الشاى قبل طلوع الفجر. لن تراه يتوضأ وشفتاه تتمتمان بالدعاء. لن تراه. لن تراه. لن تسمع صوته. لن تتلقى دعواته.

وفقدت قدرتها على الصبر.

النار أكلت قلبها أكلا، كأنها الحريق.

ومضت فى عويل متصل، وهى تقول فى صوت تخنقه العبرات :

- لماذا لم تعـد يا أبى؟ لماذا مت وتركـتنى وحـدى يا حـبـيـبى؟ من لى سـواك؟ أمى عجوزة، وسنكون معاً عاجزتين عن الحياة بدونك. ليتك لم تذهب يا أبى إلى الحجاز. ليتك بقيت معنا، لنراك فى آخر أيامك. لنراك حتى وأنت تموت. يا ترى يا أبى كيف وافاك أجلك؟ هل تمنيت ساعتها أن نكون إلى جوارك؟ هل دعوت دعواتك الصالحة، وأنت تلفظ أنفاسك الأخيرة؟ هل طلبت أن ترانى؟ وهل طاوعك قلبك أن تموت قبل أن ترى "راضية" التى عاشت حياتها، تراك كل يوم، لم تغب عن عينيها يوماً واحداً، إلا يوم سافرت؟ كيف سنعيش بعدك يا والدى؟ ألم تفكر فى هذا؟ كان يجب أن تعيش. كان يجب أن تبقى حتى ترعانا أنا وأمى.

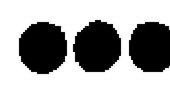
لم تكن يوماً فظاً غليظ القلب. كيف إذن طاوعك قلبك على أن تتركنا وحدنا، فى هذه الدنيا، دون رجل يحمينا؟

أجبنى يا أبى ! الإجابة عزت على سمعى !

ليتنا متنا قبل أن تموت، أو ليتنا متنا معك !

أين نذهب يا أبى؟ ليس لنا أهل ولا أقارب ولا إخوة. أنت كنت أبى وأخى وأهلى جميعاً.

ولماذا لم تأخذنا معك، لنموت إلى جوارك؟



والأم العجوز، قد أصبحت شبحاً.

تجلس فى ركن من أركان البيت تسمع بنتها الوحيدة فلا تتمالك نفسها من أن تشاركها الدموع، ولكنها تتماسك حتى لا تنهار.

وفى صوت مخنوق تقول لابنتها :

- كفى "يا راضية" اذكرى ماذا كان أبوك يقوله للناس. أنت صورة أبيك يا "راضية" ولم يكن أبوك رجلا كسائر الناس. أبوك كان ملاكا من ملائكة الرحمن،! وليس مما يليق بمقامه أن تودعه ابنته بهذا العويل. يا "راضية" إن أحداً لم يسمع يوماً صوتاً يخترق هذه

الجدران، فاصبري يا بنتى، واكتمى صوتك، فإن بيت "الحاج مرزوق" يجب أن تكون له مكانته بين بيوت أهل القرية. إن مكانة أبيك عند الله كبيرة، ويجب أن نحافظ على هذه المكانة، حتى بعد موته.

ولكن "راضية" لم تسمع كلام أمها لأول مرة فى حياتها.

ومضت تقول :

- إن كل شىء ضاع يا أماه. أبى مات يا أماه. ألا تعرفين؟ إن "الحاج مرزوق" قد مات. من بقى لنا يا أماه أنا وأنت؟ من بقى لنا فى هذه الدنيا. لقد كتب الله عليك الترمل، وكتب على اليتم. وسنحيا بعد ذلك وحيدتين. الم تشتاقى لصوت أبى يا أماه؟ ألا تحسين هذا الفراغ الهائل الذى يحيط بحياتى وحياتك؟ لم يعد لنا الرجل الذى يحمينا يا أمى. ضعنا يا أمى ضعنا. ومن يدرى كيف سنواجه الحياة فى غد؟!

قالت الأم :

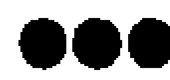
- أبوك لم يمت يا "راضية" أبوك حى عند الله، فقد كان ولياً من أولياء الله.

وصاحت "راضية" فى عويلها المتصل :

- أو لم نكن نحن أولى به يا أماه. لماذا اختطفه الله من بيتنا وليس لنا سواه؟

قالت الأم :

- استغفرى الله يا "راضية" واستعيذى به من الشيطان الرجيم. لا تكفرى بالله يا بنتى. لا تكفرى بالله. ولا تنسى أنك بنت "الحاج مرزوق".



وعندما وصل عويل "راضية" إلى آذان أهل القرية، أسرعوا إليها، وتجمعوا حولها. الرجال والنساء جميعاً، لا يقوى أحدهم على أن يقول شيئاً، أو يحدثها عن شىء. إن فجيعتهم فيه، هى فجيعتها، وهم جميعاً شركاء فى النكبة التى حلت بالقرية كلها.

لقد ذكروا معها أباها. لم يكن أباها وحدها. كان أباهم جميعاً. الكف الرطبة الندية التى طالما مسحت جباههم، والعاطفة الصادقة المجلوة، التى طالما آنست وحشتهم، والنداء والدعاء والبركة.

المهمومون كانوا يجدون لديه ما يخفف الهموم فى قلوبهم. والمعذبون فى الأرض، كانوا يجدون لديه الدواء لمحنتهم. والضعاف والمستضعفون كانوا يجدون لديه، قوة الاحتمال، بالتواصى بالصبر والتواصى بالرحمة.

واليوم، وهم يفتقدونه فلا يجدونه، يحسون أنهم ضاعوا بين المجاهل، وضلوا بين خفايا طريق طويل لا يعرفون له آخراً.

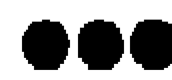
وهذه أرملته العجوز، تجلس هامدة جامدة، مقطوعة النفس. تحاول أن تخفف عن ابنتها، بما يزيد عمقاً فى قلب ابنتها. إنها هى فى ذاتها محنة ومع هذا فهى تحاول أن تخفف المحنة !

و"راضية" المسكينة، وهى تقف على مشارف طريق الشباب، عروساً فى ربيع الحياة. "راضية" التى كانت مثالا تحتذيه فتيات القرية جميعاً، ولا يستطعن أن يصلن إليه. "راضية" اليتيمة تحول ربيع حياتها إلى خريف. تحطمت، تهدمت، وتخطت سن الشباب، وهى بعد فى سن الشباب !!

من يكون لها؟ من يرعاها؟ هل يتزوجها أحد، وقد ذهب العاهل والعائل والراعى؟ وإن تزوجت، هل تترك أمها، وهى اليوم فى أشد حاجة إليها، مما كانت فى أى يوم مضى؟

وهنا يبكى الرجال، فى عويل أكثر اتصالا وايلاماً، من بكاء "راضية".

وتنوح النساء، وهن يكدن يشققن ملابسهم على الولى الذى ذهب، ولم يعد.



وتصل أصوات العويل والنواح، إلى آذان السادة فى الدواوير، فتقرع آذانهم كدقات الناقوس !

وتصيح "الست نبوية"، فى صياح أعلى من صياح أهل القرية جميعاً، وفى عويل لا تقصد به العويل، ولكنه طريقتها فى التعبير :

ـ أهل البلد الجياع الحفاة، يبكون عند عودة زوج بنتى "ست الناس" سالماً ! أهل القرية يندبون لأن شيخ الخفر عائد بإذن الله.

وترد عليها "ست الناس" :

ـ يبكون على أنفسهم إن شاء الله. ويندبون وينوحون على أشخاصهم بلا إذن الله. أما "أبو سريع" فسيعيش طويلا، وسيسعد بحياته، وسيدفنهم جميعاً بيديه. هؤلاء الكلاب الأنذال.

ويتجمع حول "الست نبوية" أولادها الرجال، وزوجاتهم.

شيخ البلد غضبان، وسيد، وممتاز.

وتصيح فيهم "الست نبوية" فى صوتها الكرية :

ـ هل أنتم رجال؟ القرية كلها تندب "أبو سريع" !! القرية كلها تبكى لأن شيخ الخفر، زوج أختكم عائد بسلامة الله. كانوا يتمنون أن يموت هو، وأن يعود إليهم شيخ الفقر، الذى مات.

ويقول شيخ البلد :

ـ صبرك يا أماه، سترين أن كل هذا لا قيمة له.

قالت؟

ـ هل أنت شيخ البلد؟ هل تسمح لهم بهذا؟ إنهم يتحدوننا بهذه الدموع، وهذا العويل! لم يعد فى البلد رجال يقفونهم عند حدهم؟ ألا تستطيع أن تحمى صهرك؟ زوج أختك؟ بل إنه إلى جوار هذا شيخ الخفر. أهكذا يكون استقبال القرية لشيخ الخفر؟

ويرد "سيد" ابنها :

- وهل نملك نحن أن نحملهم على الابتسام والضحك؟ هل يمكننا أن نجبرهم على الفرح واستقبال القادم بالرقص والطبول؟

وضربت صدرها بيديها المعروقتين، كرقبتها، وقد ملكها الغضب وقالت له :

- طول عمرك خائب ! أنت هكذا ! أنت لست ابنى، ولم يحملك بطنى هذا ! أنا بريئة منك، ولن تكون منك فائدة لأحد. غداً سترى كيف يركبك الفلاحون وساعتها إياك أن تشكو أو تبكى أو تستغيث !.لمن نشأت؟ أبوك رجل ملء ملابسه، لولا أنه فقد عقله أخيراً وأتى لنا بعروس الهنا، بنت "أم الهنا" ! وأعمامك كلهم رجال. وأخوالك. أما أنت فيظهر أن وحمتى فيك كانت على كلب ذليل !

وحاول الرجل أن يرد. وحاولت زوجته "نعمت" بنت عمه "الحاج غضبان" أن ترد عنه، ولكن محاولاتهما ذهبت هباء أمام العصبية التى ملكت على "الست نبوية" كيانها كله، فأخذت تهتز كمن لسعتها النار.

وتدخل "ممتاز" ابنها الأصغر، فقال لها.

- إن "سيد" لا يقصد هذا يا أماه. إنه يريد فقط أن يهدئك، ولا يريد أن تزدادى غضباً وسخطاً. ولكن كونى على ثقة أنه قادر على أن يقف من هؤلاء الرعاع الموقف الذى يقفهم عند حدودهم. وإذا أردت الآن فإنى سآخذ الخفر، ومعى أخى "سيد" لنربى هؤلاء الكلاب.

قالت فى لهفة متعجلة :

- وماذا تنتظر يا روح أمك؟ تنتظر حتى يعلقوا لنا المشانق، ويضربونا بالكرابيج !!

قال :

- هيا ...هيا بنا يا رجال.

وهم بالخروج، يتبعه أخوه "سيد" وهما يتبادلان النظرات البلهاء.

ولكن أخاهما شيخ البلد قال لهما :

- إلى أين تذهبان؟ إلى بيت الشيخ؟ إن أهل القرية قد تجمعوا هناك، فهل تذهبان إليهم، لتقولا لهم اخرجوا من بيت الشيخ؟! أظن هذا غير معقول. سيبدو الموقف غريباً، فهم هناك يواسون أهل الشيخ، ويخففون عن زوجته وابنته.

وصاحت "الست نبوية" فى شيخ البلد :

- حتى أنت يا شيخ البلد؟ لقد صرت شيخ جامع، لا شيخ بلد بدلا من الشيخ الذى خلصنا منه الله ! اقرأوا له الفاتحة يا أولاد وقبلوا يديه، واسألوه الدعوات ! كيف تجرؤ على أن تقول لهما هذا الكلام. اذهب "يا ممتاز". اذهب يا "سيد" ولا تسمعا كلام هذا الرجل الجبان. لا تظننا أنه شيخ البلد، وأن له عليكما حق الطاعة اذهبا. اسمعا كلامى أنا، واياكما أن تتركا أهل القرية يفعلون ما يشاءون. يتحدوننا ! يستفزوننا ! هل هذا هو الذى كان ناقصاً؟ هيا... هيا وخذا معكما كل الخفر، وكل التملية. وإياكما أن تعودا إلا بعد أن تحنيا رءوسهم، وتغمسا أنوفهم فى الرغام.

وبينما الأخوان "سيد" و "ممتاز" فى طريقهما إلى الخارج، وبينما أخوهما شيخ البلد يحاول أن يتدخل لمنعهما من الاندفاع فى هذا التيار، إذا صوت يشق الأصوات جميعاً، فى حدة وصياح.

إنها "الست قمر"، سمعت هذه المناقشات. سمعت أن "الست نبوية" تدفع ابنين من أبنائها إلى بيت المرحوم "الحاج مرزوق" للتنكيل بالحزانى الباكين فى حسرة وألم، حول أرملته العجوز المريضة، وبنته "راضية".

حينئذ قررت أن تتدخل.

إن الموضوع بالنسبة لها قد أصبح لا يحتمل.

وارتفع صوتها فوق أصواتهم جميعاً وهى تقول:

- ماذا تريدون أن تفعلوه؟ هل حرمتم الدموع على الناس؟ هل البكاء أصبح فى نظركم استفزازاً وتحدياً؟ ألم يعد الناس قادرين حتى على الحزن؟ لقد حرمتموهم لقمة العيش،

واحتكرتم مصالح الناس ومحاصيلهم، وسيطرتم على مصائرهم، فلم يعد لهم بعد ذلك إلا قلوبهم، فإذا تألموا لشىء، فهذا الألم جريمة، وإذا حزنوا على شىء، فهذا الحزن إثم ! يا ناس، اتركوا الناس للناس، اتركوا المشاعر والقلوب تتحرك كما تشاء. ماذا تريدونهم أن يفعلوا؟ يطربون؟! يغنون؟! والرجل الذى أحبوه، قد اختفى عن عيونهم، ولم يعد هناك أمل فى أن يلقوه؟! أتستكثرون عليهم الحزن، كما تستكثرون عليهم الفقر؟! لو أن الميت ميتكم، لحملتم القرية كلها على البكاء، حتى لو كان الميت من أبغض الناس إلى قلوب الناس. ولكنه مسكين، ليس له أحد يحميه فى قبره منكم. من هذا التعسف وهذا الاضطهاد. ولكن ثقوا أن حزن الحزين أقوى من جبروت الطاغى. والدمع الصامت أعلى من طلقات الرصاص. والله موجود، سينصف هؤلاء المساكين منكم فى يوم من الأيام.

ودخلت "الست نبوية" فى المناقشة بصوتها الفظ الكرية فقالت :

- كفى هذا. لسنا محتاجين اليوم إلى محامين أو محاميات. وفرى هذا كله على نفسك. أنت آتية من البندر، وحياة البنادر قلة قيمة ! لا احترام للسادة، ولا تقدير للأعيان. لا حياء ! أما هنا فلكل واحد قيمته، وقدره، والفلاحون هنا فلاحون. فقط فلاحون. تريدين أن تخلطى الحابل بالنابل، فيرفع الفلاح عينيه فى سادته الأعيان. ما شاء الله ! إنها الفوضى، ونحن المسئولون عن إقرار النظام، ليكون كل فى مكانه لا يتجاوزه إلى أعلى. فاسكتى أنت يا "ست قمر" واتركى أمور القرية لأصحاب القرية.

وبدأت "الست قمر" ترد، ولكنها قبل أن تمضى وجدت "الشيخ سيد" داخلا فى سرعة واهتمام، قالت له :

- تعال يا "شيخ سيد" اسمع كلام أقاربك. يريدون أن يمنعوا الناس من البكاء. يريدون أن يسدوا مجرى الدمع فى عيون المنكوبين.

قال فى تخابث :

- لا لا. لا "يا ست قمر" ليس هذا قصدهم. إنهم يريدون أن يفرحوا بعودة شيخ الخفر.

قالت :

- ويحملون الناس جميعاً على أن يفرحوا معهم؟ الفرح لا يفرض على الناس، كما لا تفرض عليهم الأحزان.

قال :

- عندك حق...هذا صحيح.

قالت :

- والنكبة التى حلت بالبلد بموت "الشيخ مرزوق"، ليس لها حساب؟

قال :

- والله "يا ست قمر" لقد عز موته علينا، وحز فى قلوبنا، وأثر فينا.

قالت :

- ولهذا تريدون أن تنكلوا بالذين يبكون عليه؟

قال :

- من قال هذا؟!

قالت :

- لا تسألنى أنا. أنا غريبة من البندر، لا أعرف قيمة العمد والأعيان. اسأل شيخ البلد، فقد حاول منع ارتكاب مثل هذه الأعمال، فلقى من أمه ما لقى. أليست "الست نبوية" بجلاله قدرها ! بنت العمدة، وأخت العمدة، وأم شيخ البلد، وحماة شيخ الخفر والزوجة الثانية "للحاج سلطان" !

قال :

- من أجل هذا أتيت على عجل، فإنى لا أقر هذه التصرفات. كل واحد حر فى إحساسه وفى شعوره. بل إننا لنشارك أهل القرية جميعاً أحزانهم على المرحوم "الحاج مرزوق" وحسرتهم على بنته "راضية" وقد أصيبت بشبه الذهول.

قالت "الست قمر" :

- لو كنت مكانك لمنعت أي احتفال بعودة "أبو سريع". لا تؤاخذيني "يا ست نبوية". قصدي "الحاج أبو سريع".

قالت الست "نبوية" :

- طبعاً "الحاج أبو سريع". ألا يعجبك؟

قالت "الست قمر" :

- يعجبني ! وهل أقدر على أن يعجبني. أنا سيدة أحترم شعور الأخريات. لا أحب أن آخذ حق أحد، وأترك الحقوق لأصحاب الحقوق.

وأجابت "ست الناس" صائحة :

- نعم؟...ماذا تقصدين؟ أنا لا أريد أن أرد، ولكن طالما ذكرت زوجي، فاعلمي أن أصحاب الحقوق الذين تقصدينهم يا "ست قمر" يعرفون كيف يحافظون عليها.

قالت الست "قمر" في تهكم :

- أصحاب الحقوق !والله إن الحقوق قد ضاعت في هذه الدنيا، فلم يعد أحد يدري من هم أصحاب الحقوق !!

وختمت كلامها بضحكة طويلة عالية، لم يعرف أحد لها معنى، إلا أنها كانت طعنة جديدة من طعنات "الست قمر" توجهها في الوقت الذي تراه مناسباً.

وانتهت المناقشة، بإن أصدر "الشيخ سيد" تعليماته صريحة واضحة، وهي أن يترك كل واحد في حالة، وألا يتدخل أحد في أمور الفلاحين. لهم أن يحزنوا إذا شعروا بحاجتهم إلى الحزن، ولهم أن يفرحوا إذا أحسوا رغبة في الفرح. وعندما يعود الحاج "أبو سريع" فحذار أن يستقبل بأفراح أو زغاريد أو أعيرة نارية، فإننا لا نريد أن نقض مضجع الشيخ الذي فقدناه، ولا أن نجرح شعور أرملته وابنته. إنهما منا. ولهما علينا حق الرعاية والحنو والحنان.

وكانت تنبيهاته شديدة وصارمة، لم يحاول أن يتركها موضعاً للمناقشة أو الجدل، لأنه- كما قال - يعرف ما يقول، وهو أدرى بتقدير المصلحة.

وختم "الشيخ سيد" كلامه قائلا :

إن ما تم يكفى !...ماذا نريد بعدها؟



وعاد "أبو سريع" ...الحاج "أبو سريع".

لم يستقبله إلا عدد محدود من أهله، ولم يحفل بقدومه أحد.

كان كنبأ السوء، سرى بين جماعات الناس، أو ساعة النحس، حلت بالقرية !

وكان "الشيخ سيد" قد رسم طريقة استقباله، بعد التفاهم مع العمدة وشيخ البلد وكان من رأهة ألا يستقبل إلا فى أضيق الحدود، وأن يكون أول ما يفعله، أن يذهب إلى بيت الفقيد الراحل، يعزى أهله فيه، وأن يقدم لهم فيما يقدمه لهم من منح ومساعدات بقايا حاجات الشيخ الذى مات، إن كان لا يزال يحتفظ بهذه الحاجات.

وكان منطق "الشيخ سيد" قوياً فإن "أبو سريع" إن لم يفعل ذلك كان موقفه غير طبيعى على الإطلاق، وكان الموقف داعياً الناس لأن يزدادوا سخطاً وغضباً، وقد تحملهم غرابة التصرف على تفكير يجب ألا يتجهوا نحوه.

واستقر الرأى على أن ينفذ ما قاله "الشيخ سيد".

ودخل "أبو سريع" القرية فى الظلام، سراً غامضاً فى ضمير قلق.

وذهب "أبو سريع" فى صباح اليوم التالى إلى منزل "الحاج مرزوق" متقلص الوجه، جامد النظرات، شارداً مذهولا.

وفوجىء به الناس يخطو بين طرقات القرية وحواريها يدب دبيباً يوقظ ذكرياتهم الحزينة، فتتزلزل قلوبهم، وتهتز عواطفهم.

لكنهم لم يعبـأوا بأن يقبلوا عليه مباركين له الحج، والعودة من الحجاز سالماً، ومنهم من اكتفى برد السلام عليه، ومنهم من صافحه فى غير اكتراث، وأكثرهم طأطأوا رءوسهم وهم يرونه لأول مرة بعد حجه، ليتفادوا أن تستقر عيونهم فى عينيه.

وأحس شيخ الخفراء أن تياراً بارداً يسرى فى ضلوعه.

وأدهشه أن يعامل هذه المعاملة. أن يجرؤ الفلاحون على معاملته هذه المعاملة.

وأخذ يفكر فيما بينه وبين نفسه، وقد سار وراءه ثلاثة من الخفر :

ماذا حدث للقرية؟ ماذا جرى للفلاحين؟ أنا "أبو سريع" شيخ الخفر الذى يرهب الناس والحيوانات والطيور كذلك ! أتراهم تغيروا، أم أنا الذى تغيرت؟

وكان يقابل هذا البرود من جانب الفلاحين، بأسلوب التحدى، الذى اعتاد أن يستعمله معهم.

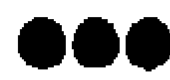
ولكنه آثر أن يسمع كلام "الشيخ سيد" وأن يمضى يخلص ذمته، وليتحمل هذا المظهر الغريب، مرة واحدة فى حياته، ثم يكون له بعد ذلك مع الفلاحين شأن آخر.

وعندما وصل "أبو سريع" إلى منزل "الحاج مرزوق"، دخل أحد الخفر، ليستأذن أهل البيت ويخطرهم بهذا الشرف ! بينما كان خفير آخر يحمل لفة كبيرة.

وتلفت "أبو سريع" خلفه فرأى الحارة الضيقة، قد تحولت إلى عيون تركزت كلها فيه وأعناق تطاولت كلها تتابع حركاته. ولأول مرة، لم تكن لالتفافته هذه الأثر الذى اعتاد أن يراه لها من قبل. لم تتراجع العيون ولم تتداخل الأعناق. بل ظل الرجال والنساء والأطفال يتطلعون إليه فى فضول، يريدون أن يخترقوا الحجب إلى ما فى داخل نفسه من أسرار.

ولم تمض لحظات حتى سمعت الحارة الضيقة عويلا يمزق القلوب، يخرج من بيت "الشيخ مرزوق". وتكاثرت العيون التى تنظر، والأعناق التى تطل.

ثم دخل شيخ الخفر الدار، بين نواح متصل، وعويل مثير.



وترددت قصة هذه الزيارة فى كل مكان من القرية، ووصلت إلى الساقية يرويها "أبو المكارم" بطريقته وأسلوبه، و"أبو عوف" و "أم الهنا" يسمعان فى صمت والدموع تبلل عيونهما، وهما يذكران مع الرجل الذى ذهب، بنتهما "تفيدة" وقد لقيت نفس المصير. ذهبت هى الأخرى، ولم تعد.

لقد دخل شيخ الخفر، بين صيحات "راضية" وبكائها وعويلها.

كانت تنادى أباها وتناشده أن يعود، وتسأله فى حزن رهيب : لماذا لم تأت معه؟ لماذا لم تعد معه؟ هل تفضل الغربة علينا، ونحن محتاجون إليك؟

وكانت أمها تحاول أن تخفف من حدة أحزانها، فلا تملك إلا أن تشاركها هذه الأحزان، فتبكى بكاء تحاول أن تكتم ما ينبعث عنه من صوت عميق فلا تستطيع.

وشيخ الخفر واقف، شاحب الوجه، مذهول، لا يدرى ماذا يفعل ! كيف يتصرف؟ وماذا يقول؟ إن الموقف دقيق، وإن هذا الحزن العميق، أقوى منه.

وتمسك "راضية" بملابس شيخ الخفر، وتتعلق برقبته وهى تقول :

قل لى : كيف مات؟ ومتى مات؟ وأين مات؟ هل رأيته بعينيك وهو يموت؟ هل مرض قبل أن يموت؟ هل خدمته؟ هل قدمت له ما يريد؟ هل كنت تطعمه وتسقيه أو تركته يعانى سكرات الموت وحيداً مسكيناً، ليس إلى جواره أحد؟

قل لى : كيف مات، ومتى مات، وأين مات؟

وحاول شيخ الخفر أن يتحدث.

بل لقد حاول أن يخلص نفسه منها، فلم يستطع.

وبدأ يشعر أن قلب هذه الفتاة نداء خفياً، يدفعها إلى أن تمسك به، كما يمسك رجل الأمن بالمتهم !

وغامت عيناه، وزاد وجهه شحوباً، وأحس فى حلقه جفافاً.

وعندما حاول أن يجيب، تابعته أسئلتها إليه :

قل لى: " أين كنت ساعتها، وأين دفنته، بل كيف تركته يموت؟ هل ذهبت معه ليموت على يديك؟ وهل نسيت أننا محتاجون إليه؟

وكاد الرجل المارد يسقط أمام صيحات "راضية".

وامتلأت دار الفقيد بالنساء والرجال والأطفال، وأخذ الجميع يشاركون "راضية" البكاء، وإن حاولوا جميعاً أن يخففوا عنها هذا العناء.

ولم تخف حدتها، إلا بعد أن كادت أنفاسها أن تخمد من فرط الانفعال.

وتلعثم "أبو سريع" وهو يقول :

- البقية فى حياتك يا "ست أم راضية" البقية فى حياتك يا بنتى يا "راضية".

ومضى وكلماته تصطدم بلسانه، وبشفتيه، وبشىء قلق فى صدره :

- والله عز علينا فقده. كان والدنا جميعاً. كان روح هذه القرية، وبركتها. ليتنى لم أكن معه فقد كان موته أمامى، وفى حجرى، كالحجر سقط على قلبى فحطمنى. الله يرحمه ويحسن إليه. الله يرحمه "الحاج مرزوق".

قالت أرملة "الحاج مرزوق" :

- ربنا يطيل عمرك يا ابنى. وربنا يعوضنا فيه خيراً.

قال وهو يحاول أن يدارى بالشجاعة، الشىء القلق فى صدره :

- كلنا فداؤك يا"ست أم راضية" كلنا عوض عن "الحاج مرزوق" كلنا أبناؤه وأبناؤك. لا تعتبريه قد مات. اعتبريه فى بيته. ونحن جميعاً فى مكانه.

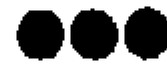
ونظر إلى "راضية" وهو يقول :

- اصبرى يا "راضية". هذا قضاء الله. أتذكرين ماذا كان يردده مولانا الشيخ؟ كان دائماً ينصحنا بالرضا بالقضاء والقدر. والنبى يا بنتى لقد كنت على شفتيه حتى اللحظة الأخيرة من حياته.

وعادت "راضية" تصيح، ويخرج عنها صوت جرحه طول البكاء.

ـ الله يرحمك يا أبى. كنت تذكرنى حتى آخر لحظاتك. كنت تفكر فى لماذا تركتنى وأنا هنا أنتظرك على أحر من الجمر. يا أبى..يا عزّى ... يا شبابى..يا ماضى..يا مستقبلى...لقد ذهبت فذهب معك ذلك كله. دفن معك فى قبرك. وسأعيش من اليوم لذكراك يا أعز أب، لأتعس فتاة.

وبعد أن هدأت هذه الثورة الباكية، أخذ "أبو سريع" يروى القصة من أولها :



كان "الشيخ مرزوق" عندما وصلنا إلى أرض الحجاز، فرحاً سعيداً مسروراً. كان كطفل صغير حقق له والده أمنية من أعز أمانيه ، كاد المرحوم يرقص طرباً وهو يرى أرض الحجاز، ويطؤها بقدمه. قال لى رحمه الله :

هذه الأرض المقدسة شهدت الوحى. وشهدت نزول القرآن. وشهدت كفاح رسول الله صلى الله عليه وسلم فى سبيل نشر رسالة الله.

هذه الأرض المقدسة، شهدت عبيداً عاشوا فى ذل وفرقة وفقر، ولكن النبى صلى الله عليه وسلم، جاءهم برسالة من الله. رسالة تحررهم، وتحقق كيانهم الانسانى، وتسوى بينهم وتجعل لهم حقوقاً ثابته مقررة يجب أن ينالوها.

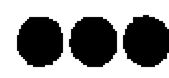
هذه الأرض المقدسة، شهدت أروع صراع بين الحق والباطل، وبين الخير والشر، وبين الحقيقة والزيف.

هذه الأرض المقدسة، شهدت شهداء يقدمون أنفسهم ضحايا، ونفوسهم راضية مرضية، إيماناً منهم بأنهم أول الطريق، إلى إنسان متحرر من الذل، متحرر من الخوف، متحرر من التحكم والاستبداد.

هذه الأرض المقدسة، نطؤها بأقدامنا. والله لولا أننى أخشى لومة لائم، لقبلتها.

من هنا يا ابنى تحركت الضمائر نحو الحرية.

من هنا يا ابنى ارتفعت الصيحة بالحق.



وهكذا كان رحمه الله، سعيداً راضياً، يملؤه الحب والانفعال.

وبعد أن حججنا، ذهبنا لزيارة قبر الرسول صلوات الله عليه وسلامه. تعلق بفتحات الضريح وهو يقول :

الصلاة والسلام عليك يا سيدى يا رسول الله. أنت وسيلتى، قلت حيلتى. أنقذنى. أنت لها ولكل كرب عظيم.

وأخذ يكرر هذا النداء مرات طويلة، وهو مسبل عينيه، يكاد يكون مغشياً عليه، ودموعه تترقرق بين أهدابه.

وأخذ يدعو عند الضريح، كما كان يدعو عند الكعبة :

اللهم بحق نبيك، استر سوءاتنا واشف مرضانا، واغفر لنا ذنبنا، واهد شقينا ويسر الأمر لمعسرنا، وخذ بيدنا إنك حليم ستار.

وأخذ يدعو لك يا ست "أم راضية"، وكان دعاؤه حاراً من قلبه.

وأخذت "الست أم راضية" تهتز وهى تبكى، وقد غطت وجهها بطرحتها السوداء.

وأخذ "أبو سريع" يكمل القصة".

كذلك أخذ يدعو لابنته "راضية" دعاء لم أسمعه من أحد قبله، كان رحمه الله يقول : اللهم سهل لها حياتها. اللهم املأ عينيها بالقناعة والرضى. اللهم اقصر طموحها، على ما ترضاه أنت لها. اللهم وفقها للتضحية من أجلك، ومن أجل المعانى الكريمة الشريفة فى الحياة. اللهم وألهمها الصبر كلما صادفت عقبة فى طريقها. اللهم أبعد عنها أولاد السوء.

وعندما كانت "راضية" تسمع هذا من "أبو سريع" كانت تنادى بأعلى صوتها الجريح :

- يا أبى...آه يا أبى. يا لوعتى. يا حسرتى عليك.

وأكمل "أبو سريع" القصة فقال :

وبينما نحن فى المدينة، وبعد أن قضينا فيها ثلاثة ايام، وثلاث ليال، قلت "للحاج مرزوق" نعود يا سيدنا الحاج، فإن الطريق شاق وطويل.

ولكن "الحاج مرزوق" قال لى فى عتاب : يا ابنى نحن هنا فى مدينة النبى صلى الله عليه وسلم، ولن نغادرها إلا بإذنه.

قلت له : كيف يأذن لنا يا مولانا؟

قال : سترى ...سترى.

ولم أعرف ماذا كان يقصده "الحاج سلطان" ولكنى أحسست فى كلماته رهبة، فانتظرت إلى جواره. كان يصحو قبل الفجر كما كانت عادته هنا. يتوضأ ويصلى ركعتين لله، ثم يقصد الحرم النبوى، ليصلى الفجر مع الجماعة، ويظل إلى جوار الحرم طول النهار، لا يغادره إلا بعد صلاة العشاء. ولم يكن يأكل إلا قليلا. كان زاده العبادة، والقيام بين يدى الله، والصلاة والسلام على النبى صلوات الله وسلامه عليه.

وكنت أجلس إلى جواره أغلب الوقت، وأخرج إلى المدينة أتجول فى طرقاتها بعض الوقت.

على أنى كنت أحرص على الصلاة فى الحرم إلى جواره، فإذا ما فرغنا من صلاة العشاء جلس يقرأ بعض الأوراد، ويتلو بعض الأدعية ثم نعود معا إلى المنزل الذى كنا نقيم فيه.

وبعد مرور بضعة ايام أخرى، صحا الشيخ من نومه قبل الفجر، وأيقظنى فى رقة ووداعة، ثم قال لى: اسمع يا حاج "أبو سريع" يبدو أنك ستعود وحدك.

وخفت من هذه المفاجأة، فسألته ماذا يقصد؟ قال : جاءنى النبى صلى الله عليه وسلم فى المنام، وقال لى فى عطف وود وحنان ورضاء : ستبقى إلى جوارى. ستبقى إلى جوارى.

قلت له : يا شيخ استغفر الله العظيم.

قال : هذا هو ما حدث يا بنى..وأنا سعيد برضائه عنى. سعيد بأن يوسع لى فى مدينته مكاناً بين أحبابه وعشاقه والهائمين شوقاً إليه.

قلت : "يا حاج مرزوق" صلى على النبى.

قال : عليه الصلاة والسلام يا بنى...أنا باق هنا.

قلت له : وأنا باق إلى جوارك.

قال : ولكنك لست مطلوباً هنا.

قلت له فى شدة : ومن أجل رؤيا رأيتها، تقول هذا الكلام؟ ومن أدراك أنها رؤيا صادقة؟

قال : النبى صلى الله عليه وسلم لا يأتى فى رؤيا إلا إذا كانت صادقة. فقد يأتيك الشيطان فى المنام فى أية هيئة، وفى صورة أى أنسان. أما النبى فهو الذى يأتى فى المنام والرؤية، ولا يمكن لشيطان أن يجسر على أن يصطنع نور النبى ويقلد جماله الباهر.

قلت : وهل رأيته؟ وكيف عرفت أنه هو... صلى الله عليه وسلم.

قال : مسكين "يا أبو سريع" بصيرتك لا تزال بصيرة شيخ خفر. النبى صلى الله عليه وسلم لا يأتى بوجهه، إنما يأتى فى صورة هالة من النور. تشعر أنه هو محمد رسول الله عليه صلوات الله وسلامه.

قلت : "يا حاج مرزوق" ..قل كلاماً غير هذا.

قال : أخالف طلب النبى..حاشا لله يا بنى. أنا باق هنا.

وبرغم أنى أخذت أجادله، إلا أنى شعرت بالرهبة، وأنا أستعيد كلماته وعباراته.

ولم يمض إلا أربع وعشرون ساعة، واستيقظنا قبل الفجر، وذهبنا فصلينا فى الحرم وجلسنا بجوار الحرم قليلا، وإذا "بالحاج مرزوق" يقف فجأة ويتعلق بأستار الحرم وينادى بأعلى صوته : لبيك يا رسول الله لبيك..ويسبل جفنيه، ويصمت صمتاً رهيباً.

ووقفت إلى جواره أتطلع إليه، فوجدت وجهه قد استحال إلى قطعة من قطن أبيض، وعرقه يتصبب على جبينه، ونفسه يتردد فى صدره سريعاً لاهثاً.

ومددت له يدى فمد لى يده. وخرجت أسنده، وهو يتلفت بين كل لحظة وأخرى على الحرم، ويبتسم. وكان وجهه يشع بالنور، وكانت بسماته تتفتح كالزهور.

ولما عدنا إلى المنزل، سألته : هل أحضر لك أحداً يراك؟

قال : أحداً ...تقصد طبيباً مثلاً؟

قلت : نعم يا سيدنا.

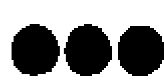
قال : وما حاجتى إلى طبيب، وأنا أعلم أن ساعتى قد دنت. هذا وعد النبى صلى الله عليه وسلم لى. إنه هو الذى طلبنى إلى جواره.

وبعد ساعة فارق الحياة، وهو يوصينى بك يا "ست أم راضية" و"راضية" خيراً ويدعو لكما بالستر. ولقد دعا لكا أبناء هذا البلد، ولكل المسلمين.

وناديت أهل البيت الذى كنا نقيم فيه، فتعاونا على دفنه فى مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وما إن بلغ هذا الحد من الرواية، حتى كانت القرية كلها قد احتشدت فى دار "الحاج مرزوق" أو خارج الدار، حتى لقد امتلأت بهم الحارة إلى المسجد، وقابل الذين سمعوا الرواية من فم شيخ الخفر، النهاية التى لقيها شيخهم المحبوب بدموع صامتة بللت خدودهم.

أما الذين كانوا خارج الدار، فقد انتقلت إليهم أنباء القصة، جملة وراء جملة، فانتقلت الدموع بالتالى إلى خدودهم، دمعة وراء دمعة.



ويستطرد "أبو المكارم" على طريقته يحكى بقية ما كان من "شيخ الخفر" فى بيت "الحاج مرزوق" :

ولقد صعب على أن أفارق المرحوم، فبقيت فى المدينة أسبوعاً، أذهب إلى قبره كل صباح وكل مساء، أذرف عنده الدموع، وأناجيه وأترحم عليه.

ثم وجدت أنى هالك لا محالة، لو أنى بقيت إلى جواره مدة أطول، فعدت، وأنا أستودعه الله.

ونظر شيخ الخفر إلى الخفير الذى معه، فوضع ما كان يحمله على الأرض بجوار "الست أم راضية" وقال شيخ الخفر :

هذه ملابسه "يا ست أم راضية"، عدت بها، فقد تريدين الاحتفاظ بها بركة من الحاج وذكرى طيبة، فيها رائحته الزكية. ومع الملابس بعض مما جاد به الله على، أرجو أن تقبليه.

قالت "الست أم راضية" : أمن عنده هو، هل كان قد اشتراه لنا؟

وتلعثم شيخ الخفر، وبلع ريقه العصى الجامد، ثم قال : نعم...منه هو! كان قد اشتراه، ولو أنه عاد معى، لكان أحضره لكما بنفسه.

قالت "الست أم راضية" : إن كان هذا حقاً، فإنى آخذه. وإلا فليس هذا يا ابنى وقتاً نقبل فيه الهدايا من أحد.

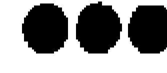
قال : بل منه هو "يا ست أم راضية".

وفتحت الست "أم راضية" اللفة، ووجدت ملابس زوجها.

وأخذت تقبلها قطعة قطعة، وهى تنشج بالبكاء، و"راضية" تولول من فرط انفعالها... وجمدت يد "الست أم راضية" على جلباب أبيض كان يكثر من ارتدائه.

وأخذت تطيل النظر، كأنها تراه فيه..كأنها ترى وجهه، وترى عينيه، وترى ابتسامته الحانية وتشم رائحته العطرة، وتسمع دعواته المباركة. كأنه عاد... كأنه جالس بين يديها، يروى لها قصة من قصص القرآن، أو يفسر لها موقفاً من مواقف الأنبياء.

وأقبلت إليها ابنتها "راضية" فأمسكت بطرف الثوب، كأنما هى لا تزال طفلة تتعلق بذيل أبيها..وما برحت الاثنتان تبكيان، حتى كاد الدمع يزهق روحيهما، ثم انكفأتا على الرداء الأبيض الشفاف، هذه نحو صدره، وتلك فى أطراف ذيله، ودفنتا وجهيهما فيه..تبللانه بدمع يقطر من قلوب أضناها الفراق.



على أن شيئاً فى قلب القرية لم يكن يرتاح لما يراه. كان يرقب، وكان يلاحظ، وكان يعجب مما يراه عجباً شديداً.

لقد كانت رواية "أبو سريع" مؤثرة، حتى لقد أدمعت عيون الجميع، فبكوا كما لم يبكوا قط..إلا هو شاهد الوفاة، ودافن الجثة.

لم تسقط من عينه دمعة واحدة وهو يروى هذه الرواية كلها، منذ فارق البلد فى صحبة الشيخ، حتى فارق الشيخ فى مدينة الرسول.

لم ترتجف فى وجهه عضله.

وكان يتلعثم حيناً، وتصطك أسنانه حيناً آخر، وترتعد فرائصه بين الحين والحين.

على أن الحزن لم يكن يبدو عليه عميقاً.

حتى دموع القرية لم تفتح مجارى الدمع فى عينيه.

حتى شهقات أهل القرية، لم تحمله على المشاركة فى البكاء.

حتى العويل، حتى النحيب..حتى الشكل الرهيب الذى تبدو به "راضية" و"أم راضية". حتى ملابس الميت، وهى تنشر أمام الناس، رسالة مفتوحة من الشيخ لأحباب الشيخ وأبنائه الروحيين.

كل ذلك لم يحرك فى "شيخ الخفر" ما كانت تنتظر القرية أن يتحرك فيه.

فلما مضى فى طريقه، عائداً إلى داره، أخذ الناس يتبادلون النظرات، وهم يعجبون، وهم ذاهلون شاردون، لايدرون ماذا يقولون أو يفعلون.

وزاد من عجب أهل القرية، أنه لم يكد شيخ الخفر يعود إلى دار أصهاره : دار الحاج سلطان، حتى ارتفعت من تلك الدار زغرودة عرف الناس منها أن "ست الناس" هى التى أطلقتها فرحاً بعودة زوجها إليها.

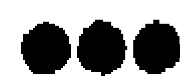
وأنصتوا ليسمعوا هذه الزغرودة ترن هناك، ثم أداروا أذانهم ليسمعوا نشيج البكاء، يتلوى هنا !

ثم علموا بعد ذلك أن آل "الحاج سلطان"، وآل العمدة تجمعوا للغداء على مائدة فاخرة، بمناسبة عودة "الحاج أبو سريع" من الحجاز.

ويروى "أبو المكارم" لأم الهنا و "أبو عوف" أن واحدة فقط لم تشاهد على هذه المائدة، هى العروس الصغيرة "تفيدة" وأن واحدة أخرى ذهبت ثم عادت أدراجها ساخرة من الجمع كله، هى "الست قمر".

وقالت "أم الهنا" : الحمد لله على أنها لم تأكل معهم، وإلا كانوا قد تصرفوا نحوها تصرفاً لا يليق. الحمد لله.

وهز "أبو عوف" رأسه، فى بلاهة مستسلمة.



ولقد كان موقف "أبو سريع" وهو يروى قصة موت "الحاج مرزوق" حاجزاً جديداً بينه وبين أهل القرية.

كانوا من قبل يخشونه، فأصبحوا يخشونه ويكرهونه فى آن.

وأصبحت الجفوة والجمود، هى الطابع الذى يميز علاقة أهل القرية جميعاً "بأبو سريع".

لقد شعروا بشىء لم يعرفوه، ولم يدركوا له تفسيراً، وترددوا أول الأمر فى أن يتصارحوا به، أو أن يصارحوا به أنفسهم، ومع مضى الأيام بدأ هذه الشىء، يلح عليهم

إلحاحاً شديداً، فتتقبض له نفوسهم، وتهتز له قلوبهم، ثم أخذوا يتصارحون به، فيرويه بعضهم لبعض فى همس خافت، خشية أن تسمعه الجدران. إن للجدران آذاناً.

وكان "أبو المكارم" يسمع هذا الهمس يدور بينهم، فيعجب لما يسمع، ويرويه كما سمعه "لأبو عوف" و "لأم الهنا" :

- أرأيت كيف كان "أبو سريع" يروى قصة المرحوم الفقيد : "الشيخ مرزوق"؟

- لقد كان يروى القصة فى جمود غريب، كأنها قصة لا تتصل به عن قريب أو عن بعيد !

- لم تدمع له عين !

- تتصور رجلا مثله، مات رائد القرية وبركاتها بين يديه، ودفنه فى بلد ناء، وعاد إلى القرية بدونه، وهو الذى ذهب لصحبته..تتصور هذا الرجل لا يبكى ابداً وهو يستذكر ما حدث؟

- وكان الموقف مثيراً للبكاء. أرملة فقيرة عاجزة، أهلكتها المحنة حتى كادت أن تقضى عليها ، وفتاة صغيرة فى عمر الزواج، تبكى أباها فى حسرة ولهفة وصياح !

- البلد كلها يا أخى كانت تهتز بالبكاء من هول المصاب. النساء. الرجال. الأطفال، كل البلد كانت تحيط به وهو يحكى القصة، ولا ترى دمعة واحدة تنحدر من عينيه تخزى الشيطان !

- بل قدم ملابس الفقيد. الملابس التى فاضت روحه وهو يرتديها. الملابس التى تحمل رائحته، ولا تزال تحتفظ ببقية أنفاسه المباركة. قدمها غير عابىء، كأنه يقدم هدية كريمة أتى بها إلى الأرملة وابنتها من الحجاز.

- رجل فاجر، بلغ به الفجور أنه لم يعد يعبأ بعواطف الناس، أو شعورهم أو إحساسهم.

- والله يا أخى ربما كان فى الأمر سر.

- كيف يكون هناك سر؟

- كيف لا يكون هناك سر؟ لو أنه كافر للان قلبه، ولاهتزت مشاعره، وقد دفن المرحوم فى المدينة كما يقول. مهما يكن قاسياً، فأنا لا أصدق أن القسوة تبلغ به هذا المبلغ إلا إذا كان فى الأمر سر لا نعرفه !

- أى سر تقصد..ماذا يمكن أن يكون هذا السر؟

- يمكن أن يكون أى شئ؟ ربما لم يحج الشيخ على الإطلاق ! وربما زار الكعبة وأدى الفريضة. ولكنه لم يذهب إلى المدينة، ليزور الرسول...أى شئ وكل شئ جائز يا أخى، طالما أننا نرى الرجل بهذا الجمود، وهذا الفجر، وهذه القسوة !

- لكن ماذا يمكن أن يكون قد حدث؟

- علم ذلك عند الله، ولكنا نأخذ الأشياء بالظواهر، أما الباطن فعلمه عند الله. هل كنت معهما؟ ليتنى كنت معهما، لأعرف الحقيقة.

- إن هذا الكلام يجعلنى أكاد أجن !

- لا يا أخى لا تجن، فإنا نعيش تحت رحمة هؤلاء الناس، وفى أيديهم كل شئ، يملكون أن يضللونا كما يشاءون.

- الله يرحمك "يا شيخ مرزوق". الله يحسن إليك. هل يكون مصيرك هكذا غامضاً، بعد أن عشت حياتك كلها واضحاً كالحق، مستقيما كالسيف، مشرقاً كالشمس؟

- وابنته، وأرملته...أى مصير ينتظرهما؟

- إن الله لن ينساهما أبداً. لقد كان الرجل صالحاً، وأعماله ستبقى لذريته،وأنا واثق أن الله سيكرمه فيهما. إن الله لا ينسى عبيده الصالحين المخلصين، ولكنه يرعاهم بعنايته ولطفه.

- والله أنا أخاف عليهما من "أبو سريع" إن كان هناك حقيقة سر يختفى وراء موته.

- لا تخف إننا جميعاً سنقف إلى جوارهما إذا لزم الأمر.

- وماذا نملكه لهما، ومن أجلهما؟ نحن مثلهما مساكين محتاجون.

- إذا ألحق بهما "أبو سريع" ضرراً، أفلا نستطيع أن نتكاتف جميعاً لمنع هذا الضرر؟

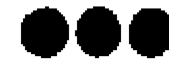
- وهل سيستشيرك "أبو سريع"؟ هل سيأخذ رأيك؟ هل سينال موافقتك؟ إنك قد تصبح ذات يوم، فتجده قد أتم ما يريده لهما، فإن سألت- إن تمكنت من السؤال- فسيأتى دورك فى انتظار الأذى الذى نالهما. يا رجل. رحم الله امرأ عرف قدر نفسه.

- ومعنى هذا أننا هنا مسوقون إلى مصير لا نعرفه.

- طبعاً. وهل فى ذلك شك. هذه إرادة الله.

- أوّلا نستطيع أن نفعل شيئاً، لنحمى أنفسنا على الأقل.

- متى يريد الله.



والقرية لا تسكت أبداً، تردد هذا الكلام هامسة واجفة، ولكنها لا تستطيع أن ترفع به صوتها، فإن فى ذلك عصياناً "لأبو سريع" والويل لمن يعصى "أبو سريع".

وكل ما كانت القرية تستطيعه، هو أن تتجنب هذا الوحش الكاسر، ما أمكنها أن تتجنبه، تاركة له الأمر يقرر فيه ما يشاء.

ولا يعبأ "أبو سريع" بموقف القرية منه، فهو دائماً يردد أن أهل القرية من الفلاحين كالدواب، محتاجون إلى سوط يلهب ظهورهم. وكان ينصح العمدة، وينصح شيخ البلد، وينصح أصهاره جميعاً، أن التهاون مع هؤلاء الناس، معناه التسليم لهم. وهو رجل لا يسلم أبداً !!

وطالما وصف أهل القرية من الفلاحين بالخسة والدناءة، مردداً بيت شعر كان يحفظه عن ظهر قلب، دليلا على أنه ليس شيخ خفر فحسب، ولكنه متعلم أيضاً.

كان يقول فى صوته الجامد الجاف :

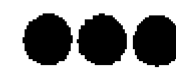
إذا أنت أكرمت الكريم ملكته   وإن أنت أكرمت اللئيم تمردا

على أن الذى كان يغيظ القرية منه، أنه لم يكرر زيارته بعد ذلك لبيت "الشيخ مرزوق"، وكان الناس يصفون زيارته الوحيدة بأنها واجب أداه مضطراً، ولو أنه استطاع أن يفلت من أدائه ما فكر فى الذهاب قط.

وزادهم هذا كرهاً فيه، وسخطاً عليه.

ولكن وحشيته فى معاملتهم، والكرباج السودانى الذى يحمله دائماً فى يده، يضرب به من يشاء، كما شاء، وقتما شاء. والبندقية المعلقة فوق كتفه، والخفيران اللذان يتبعانه كظله. والروايات التى تروى عنه، ومغامرات الليل التى تسرى فى القرية كالألغاز. كل ذلك جعل الناس يكرهونه من قلوبهم، ولكنهم يخافونه أشد الخوف، ويرتعدون لمجرد ذكر اسمه. وبرغم هذه الكراهية، فقد كانوا يبتسمون له وينافقونه كلما اضطروا إلى الاتصال به أو الحديث إليه، حماية لأنفسهم و لمحصولاتهم، ولحبات العرق التى بذلوها طوال العام، يروون بها زراعاتهم.

وكانت هذه الابتسامات التى يقابل بها، وعبارات النفاق التى يسمعها تزيده كبراً وتكبراً وتجبراً، فيزداد اضطهاده للفلاحين، وتزداد كذلك مطالبه منهم، حتى لقد كانوا يحرمون أنفسهم وعيالهم من لقمة العيش، ليسدوا حاجاته التى لا تنتهى عند حد، ولا تقف عند مطلب.



ويروى "أبو المكارم" أن أهل القرية بدأوا يحسون أنهم يدورون حول أنفسهم أصبحت حياتهم معتمه جافة، لا روح فيها. المسجد فقد روحانيته ورهبته، بعد "الحاج مرزوق" وأصبحت صلاتهم فيه مجرد أداء للواجب.

لم تعد ارواحهم مجلوة كما كانت أيام "الحاج مرزوق" لم تعد قلوبهم مرهفة كما كانت أيام "الحاج مرزوق" لم تعد نفوسهم صابرة، كما كانت أيام "الحاج مرزوق".

إن الإمام يتغير. يتناوب الإمامة أحد المصلين كل صلاة، فالعريف الذى كان يساعد "الحاج مرزوق" لم يزل بعد غلاماً، لا يصلح لإمامة المسلمين. وكثيراً ما يفتقد المصلون إماماً فلا يجدون، فيضطرون إلى قبول أكبرهم سناً، وقد لا يكون حافظاً لآيات من كتاب الله، فتصبح الصلاة الجامعة بلا طعم ولا رائحة.

وظهرت على المسجد علامات الإهمال، لأن الراعى الأمين قد مات.

وقل عدد المترددين على المسجد، حتى لا تزداد نفوسهم حسرة على ما فقدوه.

وحلقات الدرس والمذاكرة انتهت، فلم تعد تعقد فى الجامع بعد "الحاج مرزوق".

والبركة قلت، وكاد الناس يستشعرون النحس فى كل ما يعملون.

..ومن جانب آخر زاد اضطهاد "أبو سريع" للفلاحين، وزاد ضغطه عليهم، وزادت طلباته منهم، فلم يجدوا متنفساً لما يكابدونه من ظلم. لم يجدوا من يقول لهم اصبروا فهذا قضاء من الله، وعلينا أن نرضى بقضاء الله. لم يجدوا ثغرة تفرج كروبهم، ولا جدولا يحمل همومهم فلا تترسب فى نفوسهم ظلاماً قاتماً حالك السواد.

بل لقد نشأت فى القرية ضرورة أخرى.

إن "الحاج مرزوق" لم يكن مجرد شيخ للجامع. لقد كان يلقب بالقاضى.

وكان من مهامه أن يعقد عقود الزواج، وأن يصالح الأزواج المتخاصمين، حتى إذا تبين أن عشرتهم محال، ارتضى لهم الطلاق.

كذلك كان هو الذى ينظم الاحتفال بمولد "سيدى الذكيرى" كل عام.

إلى غير ذلك من خطب الجمعة، وخطب الأعياد، وقد أخذوا يستمعون كل مرة إلى خطيب يتهجأ، بعد أن كان "الحاج مرزوق" يسترسل فى خطبه التقليدية، فينظف قلوب المصلين مما يكون قد تراكم فيها من الهموم.

وتساءل الناس : إلى متى تظل بلدتنا بلا قاض أو إمام؟

إن الجامع محتاج إلى شيخ يرعاه. إلى روح طاهرة مباركة ترفرف منه على أرواح هدها الاضطهاد، وحطمها البؤس، ويددها الظلم والظلام.

ولم تعرف القرية كيف تحقق هذا الحلم.

إن "الحاج مرزوق" لم ينجب ولداً، وإلا لأقاموه فى مكان أبيه. ولقد كانوا على ثقة من أن العمدة لم يكن ليعارض هذه الرغبة، وقد ورث "الحاج مرزوق" هذه المكانة عن أبيه، وليس عجيباً أن يورثها ابنه. ولكنه مات بلا ولد ذكر يرث هذه المكانة عنه.

وليس هناك فى القرية رجل بعد ذلك يفقه أمور الدين، إلا الشيخ "سيد". و "الشيخ سيد" باشكاتب محكمة من محاكم الشرع، ومركزه فيها كبير، وليس بمعقول أن يضحى بمرتبه ومصالحه، ليجلس فى الجامع من الفجر حتى العشاء.

ويقول واحد : والله هذا أبقى له عند الله.

ويقول آخر : مجنون أنت ! "الشيخ سيد" لا يهمه ما هو أبقى.

ويقول ثالث : ولكنه الوحيد الذى يصلح لهذه المكانة بين أبناء البلد.

ويرد رابع : وهل هو من أبناء البلد يا ساذج. إنه من أعيانها من ساداتها الكبار.

ويستقر رأى الناس على الذهاب إلى "الشيخ سيد" يرجونه أن يرشح لهم هو، واحداً جديراً بهذه المكانة فى قلوب الناس.

ويذهب وفد من أهل القرية يقولون "للشيخ سيد" إن الجامع لا شيخ له، وليس بمعقول أن نظل هكذا بلا شيخ يصلى بنا. ويخطب فينا، ويرعى أمور مسجدنا.

ويقول الشيخ سيد : أنتم على حق. لابد للجامع من شيخ.

ويقول الناس : إن هذا يعز علينا. فنحن واثقون من أن أحداً لن يملأ مكانة "الحاج مرزوق" ولكن هكذا أراد الله بنا.

ويرد "الشيخ سيد" : هذا صحيح يا أولاد. لكن ربما يكون الله قد ادخر لكم عنده رجلا يملأ بعض هذا الفراغ. المهم أن يكون هناك من يرعى الجامع ويسهر عليه، ويؤم الناس، ويؤدى حق الجامع عليه.

ويتفق "الشيخ سيد" مع الفلاحين على أن يبحث لهم عن شيخ للجامع،تتوفر فيه ما يشترطه الشرع الحنيف فى الإمام من صفات. وهو يطلب منهم الدعوات، كى يوفقه الله إلى اختيار شيخ يرضون عنه.

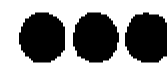
قالوا له : هل فى بلدنا من يصلح لهذه المكانة؟

أجاب : أنتم تعرفون البلد فرداً فرداً ..من يصلح شيخاً للجامع؟ وفى مكان من؟ فى مكان المرحوم "الحاج مرزوق" ! لا سأبحث عن واحد من أى مكان، والمسلمون إخوة، والعرب جميعاً من دم واحد، وأصل واحد، ولا فرق بين أحدهم وآخر إلا بالتقوى.

وهز الرجال رءوسهم وهم يقولون : صدقت يا سيدنا "الشيخ سيد".

وقبلوا يديه، وانصرفوا من عنده، مطمئنين راضين.

أما هو فقد أخفى بين شدقية ابتسامة صفراء، وهم ينصرفون !



وعاد "الشيخ سيد" ظهر يوم من أيام الخميس، يمسك فى يده رجلا يلبس عمامة خضراء، ويلف حول رقبته شالا قديماً من الصوف، ويترك شعره الفاحم طويلا مسدلا على كتفيه. أنفه عريض أفطس، وعيناه تبرقان دائماً ببريق غامض، يثبتهما فى كل شىء يراه. فى وجوه الناس، فى المناظر التى يراها، فى المأكولات التى يضعونها أمامه، فى ألوان الشراب التى يقدمونها إليه.

لم يكن طويلا كالنخلة، ولا قصيراً كشجرة الباذنجان. على أنه كان مقوساً.. تميل قامته إلى الأمام، لتمكن لعينيه فرصة النظر الثابت البراق.

ولم يكن سميناً كالجميزة، ولا نحيفاً كعود من التيل. على أنه كان مفتوح الشهية دائماً، يبتلع كل شىء يوضع أمامه، بغير أن يمر بما فى فمه من أسنان.

وكانت فى يده مسبحة طويلة، ولكن حباتها كانت من خشب مقشور، وكان دائماً يحرك حباتها، دون أن تتحرك معها شفتاه.

وكان صوته غليظاً جداً يطلقه من غير مبالاة حتى ليبدو وكأنه صنبور تركوه مفتوحاً، أو بلا ضابط يزن به ما يخرجه من كلمات.

وكان له دبيب غريب، يمشى كأنما يدك شيئاً تحت قدميه.

ولقد أسرع "أبو المكارم" مع من أسرع من أهل القرية، ليعرف أنباء الوافد الجديد.

من يكون؟!

ولما علم أنه شيخ الجامع، الذى وعد "الشيخ سيد" بأن يأتى به ليحل محل "الشيخ مرزوق" وعلت الوجوه سحابة من وجوم، أخذ يعدو نحو الساقية، ليخفى دموعه بين كفيه.

وهناك عند شجرة الصفصاف، أسرعت إليه "أم الهنا" وأسرع إليه "أبو عوف" :

- ما هذا؟ من هذا؟ وماذا يقول الناس؟

وأجاب "أبو المكارم" بطريقته الخاصة، ودموعه فوق خديه :

- إنه قادم ليحل محل "الشيخ مرزوق". رجل يقولون إن اسمه "أبو طاقية" و "الشيخ أبو طاقية"، والقرية كلها تنظر إليه فى عجب، وتتأمل وجهه فى استغراب، فإنه طراز فريد من الناس.

ويمضى "أبو المكارم" يشير بيديه ويصيح صيحات ذات مدلول عميق، يعبر بها عن خيبة أمل القرية كلها فى "الشيخ الجديد".



على أن أهل القرية لا يعرفون ماذا يقولون، ولا كيف يتصرفون.

ويصحب "الشيخ سيد" الشيخ الجديد إلى الجامع ليقدمه للناس، فيروى لهم عنه أنه رجل درس العلوم الدينية فى الأزهر الشريف، وأنه كان زميله ايام الدراسة، ولكنه لم يتم تعليمه لأن أباه توفى قبل أن يتم سنوات التعليم، ودعوه لأن يأخذ مكان أبيه وكان أبوه

معلماً له كتاب يلقن فيه أولاد القرية القرآن، وكان كذلك شيخاً للجامع، وقاضياً يعقد القران للأزواج.

وعاد الشيخ أبو طاقية إلى قريته، مؤثراً مصلحة الناس على مصلحته الخاصة، وانصرف إلى الصلاة والعبادة وتلقين الأولاد آيات الله، وتحفيظهم القرآن الكريم؛ فأكسبه هذا نوراً وبركة ترونها ظاهرة على وجهه الصبوح، وفى عينيه الصافتين.

ويمضى "الشخ سيد" يؤكد لأهل القرية أن "الشيخ أبو طاقية" رجل مبروك، وأنه يكاد يصل إلى درجة الكشف والولاية، وأن له كرامات يعرفها عنه أهل بلده.

إن دعوته لله، تشفى المرضى، وتفك عسر المعسر، وتخفف من ضيق المحتاج.

ويقول "الشيخ سيد": إنه لولا زمالته القديمة له، وصداقتهما أيام طلب العلم بالأزهر ما قبل هذه المهمة، ولما حضر إلى بلدنا إلا ليؤدى الخدمة لله، وللجامع، ولنا جميعاً.

ويسأله أهل البلد :

- ترك جامع بلده بلا شيخ؟

ويقول "الشيخ سيد" :

- إن له ابناً كبر، وأصبح مثله على درجة من العلم والطيبة، مكنته من أن يأخذ مكان أبيه، ولولا هذا لما قبل أن يأتى إلينا يؤدى لنا هذه الخدمة الكبيرة الجليلة.

وسكت الناس، وتبادلوا نظرات ساذجة بلهاء، وهم يرون عينيه البراقتين تتجهان نحوهم فى نفاذ.

ولما حل وقت صلاة العشاء، أم "الشيخ أبو طاقية" الناس فأخذ يتلو آيات من كتاب الله فى صوت أجش غليظ، والناس خلفه قد شردوا عن الصلاة وعادت بهم ذكرياتهم على أيام "الشيخ مرزوق" عندما كان صوته ينطلق بهذه الآيات طيباً رقيقاً حنوناً، يتهدج فى تقوى، ويعلو وينخفض فى فهم عميق للقرآن، وشعور صادق بما تحويه آياته من حكم.

ولقد بلغت بهم دهشة المقارنة، والشرود عن الصلاة إلى حد أنهم فقدوا وحدة الصف وانتظام المراسم. كان بعضهم يركعون، بينما آخرون لا يزالون واقفين، لم يتنبهوا بعد إلى أن عليهم أن يركعوا ! وكان بعضهم يسجدون، بينما الآخرون مشغولين بالشيخ الجديد، والشيخ القديم معاً، عن السجود !

ولما انتهت الصلاة، انتظر الناس أن يتوجه الشيخ إلى الله بالدعوات، ولكنه اكتفى بأن ختم الصلاة، ومد يده إلى الناس ليصافحوه، فتقدم بعضهم يصافحه، ففوجىء بأنه يرفع يده إلى أفواههم، ليقبلوها !

ثم خرج من الجامع، إلى دوار العمدة، حتى لا تفوته وجبة العشاء، كما ردد أهل القرية !

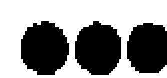
وانتظرت القرية يوماً بعد يوم، وهى تتوقع أن يعقد الشيخ حلقة يتدارس معهم فيها أمور دينهم ودنياهم، ولكنه لم يفعل إلا مرة واحدة، وبعد أن مضى عليه فى القرية أسبوع.

وذهب الناس ليسمعوا الدرس، وهم فى الحقيقة، يريدون أن يقفوا على مزيد من العلم به هو، لا بالدرس الذى سيلقيه.

وبدأ الشيخ يتحدث عن الزواج، وحكمته، وكيف أن الله فرضه ليخفف ما فى أجسام الرجال والنساء من حدة وظمأ كل منهما إلى الآخر.

وأخذ يتكلم عن هذه الحدة، وهذا الظمأ، ويتعرض لمسائل لم يعتادوا أن يسمعوها من قبل، ولم يعرفوا أنها تدخل فى نطاق النصح والإرشاد وتدارس شئون الدين.

ومضى يروى القصص والنوادر عن حياة الأزواج والزوجات، بل عن بعض أسرار لم يعرفوا أن لها صلة بدروس الدين.



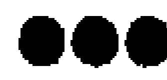
وخرج الناس من المسجد، وهم يتبادلون غضبهم من هذا الشيخ الجديد.

على أنهم لم يستطيعون أن يقولون شيئاً. وهل يعارضون إرادة "الشيخ سيد"؟

وهل يقفون ضد زميل "الشيخ سيد"؟

ثم اكتفوا بأن أخذ كل منهم يقول لزميله :

- أمرنا إلى الله. إن للبيت رباً يحميه. لنترك بيت الله الله.



وفى صلاة الجمعة سمعوه، فلم يفهموا مما قاله شيئاً.

كان يخطب، وكأنه غراب ينعق، أو بوم يحمل إليهم نذر النحس والخراب !

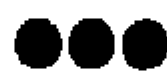
وأحسوا أن غضب الله قد حل بهم، وأنهم يقبلون على أيام صعبة قاسية عجاف.

وأخذو يرددون أن "الشيخ أبو طاقية" يسهر مع العمدة والأعيان، وأنه يقدم لهم نصائح غريبة.

يقولون إنه يقدم لهم عقاقير بعضها يتناولونه مع الطعام، وبعضها الآخر يتناولونه مع فناجين القهوة أو الشاى، وشىء منها يحتفظون به للساعات التى تسبق النوم، لتكون لياليهم هانئة سعيدة !

وبقدر ما كرهت القرية "الشيخ أبو طاقية" بقدر ما ترحمت على "الحاج مرزوق" وأخذت تذكر أيامه فى حسرة، وتتردد على بيته لمساعدة أرملته وابنته.

وكان عليهم أن يقدموا مسنية "للشيخ أبو طاقية" ولكنهم لم يقطعوا مسنية "الحاج مرزوق"، فأخذوا يرسلونها إلى بيته دائماً، قبل أن تدخل المحاصيل بيوتهم.



ويروى "أبو المكارم" أن "الست نبوية" نادت "الشيخ أبو طاقية" وقالت له :

- اسمع "يا شيخ أبو طاقية" إن لى عندك طلباً.

قال لها فى صوته الغليظ، ونظراته تخترق عينيها :

- أنا عبدك المأمور. اطلبى ما تشائين يا "ست نبوية".

قالت وقد ارتاحت نفسها إلى الشيخ، وإلى بريق عينيه :

- أنت رجل مبروك. أليس كذلك؟

قال فى تواضع وعيناه لا تزالان مثبتتين على عينيها :

- البركة فيك أنت يا سيدتى.

ودارت بينهما المناقشة التالية :

- هل تعلم ماذا أصابنا فى هذا البيت؟

- نعم يا سيدتى أعلم. إن نفسك محطمة، وقلبك مهموم، ولا تطيقين أن تكون واحدة من أسافل أهل القرية فى مرتبتك، ضرة لك.

- وكيف عرفت هذا يا " شيخ أبو طاقية"؟

- من الله يا سيدتى. من الله.

- وماذا تعرف غير ذلك؟

- أعرف أن "الست قمر" تنتصر لها، وتدافع عنها، وتقف إلى جوارها لسبب غير مفهوم. أليست ضرتها كذلك هذه المجنونة؟ كنت لأفهم أن تنضم إليك وإلى "الحاجة زهرة" ليتخلص منها بيت الأكابر والشرف. ولكنها تقف على جوارها.

- نعم "يا شيخ أبو طاقية" تقف إلى جوارها. لكن كيف عرفت هذا أيضاً؟

- من الله يا سيدتى. من الله.

- وماذا تراه أنت، والله قد أكرمك ببركته. لماذا تفعل "الست قمر" هذا؟

- اسمعى يا سيدتى. "الست قمر" هى التى كانت على الحجر ! ولم يكن يهمها أن تغضب "الحاجة زهرة" أو تغضبى أنت. كان يكفيها أنها هى، كل شىء، برغم أى ضيق بها

يبدو منكما. ومضى عليها وقت طويل، وهى تكتم أنفاسكما ولكنها لا شك شعرت يوم فكر "الحاج سلطان" فى زواج هذه الصعلوكة أنكما أنت و "الحاجة زهرة" فرحتما فيها، بقدر ما أساءكما أن تكون واحدة "كتفيدة" نداً لكما. وساءها أن تشمتا فيها، وهى التى لم تكن تنتظر أبداً أن يفكر "الحاج سلطان" فى استبدال أخرى بها أياً كانت هذه الأخرى. عندئذ وجدت أن المعركة ليست بينهما وبين الست الجديدة، بقدر ما هى بينها وبينكما أنتما. و"الست قمر" ذكية، وتعرف تماماً أن "تفيدة" ستكون غريبة فى هذا البيت، ولو أنها انضمت إليكما ضدها، لما مكنها هذا من الرد على ما شعرت به من شماتتكما فيها. ووجدت نفسها بين جانبين : الأول اثنتان امتلأتا شماتة فيها، والثانى واحدة جديدة دخيلة على هذا البيت وعلى هذا الوسط. ولكى تثبت لكما أن الشماتة التى ظهرت منكما مردودة إليكما، قررت أن تأخذ جانب الزوجة الجديدة، لتدخل معكما فى صراع ترد به على هذه الشماتة. ولو أنها أخذت جانبكما، لما كفل لها هذا أن تتغلب على هذه الشماتة ولأخذت تصارع الشماتة والغيرة فى وقت واحد، فيكون حربها فى جبهتين، ولعلها آثرت أن تحارب فى جبهة واحدة فأخذت جبهة العروس لتغيظكما.

أليس كذلك يا سيدتى؟

- إنك غريب يا "شيخ أبو طاقية" إنك رائع.

- من الله يا سيدتى. من الله.

- والآن، كيف أتخلص منها.

- طبعاً تقصدين "تفيدة".

- طبعاً. وهل يرضيك أن واحدة "كتفيدة" تصبح ضرتى. ألا تعرف من أبوها، ومن أمها؟

- "أبو عوف"، و"أم الهنا".

- لابد من خروجها من هذا البيت، لابد من أن نقلب عيشتها جحيماً.

- لك هذا يا سيدتى. لك هذا. اعتمدى على الله، وعلى عبد الله "أبو طاقية".

- اقرأ عليها سورة يس مقلوبة، لتنقلب على رأسها.

- أنت طيبة يا سيدتى. أنت طيبة جداً.

- ماذا تقصد؟

- هناك وسائل أخرى لا تعرفينها، ولكنها ستجعل حياتها ناراً، تأكل قلبها وعقلها وعواطفها.

- أنا أريد أن يكرهها "الحاج سلطان" ويطردها كالكلبة، لتعود إلى أمها تعوى أمام الخص.

- تغارين يا سيدتى على "الحاج سلطان" إلى هذا الحد؟

- أبداً والله، إنه لا يهمنى فى كثير أو قليل. أنا أغار على نفسى. هذا فظيع، وأنت تعرف من أنا، ثم أجد نفسى فى مستوى واحدة "كتفيدة" !

- ربما تدارين غيرتك عليه بهذا الأسلوب !

- انتهينا "يا شيخ أبو طاقية". كبرنا وانتهى الأمر. أنا الآن جدة وحماة، وأنا لا يهمنى إلا حسن الختام. ولكن كيف نصل إلى حسن الختام، وهذه العريانة، الصعلوكة، دخلت على حياتنا، لتصبح واحدة من بيتنا، رأسها برأسنا؟

- تقصدين يا سيدتى أن "الحاج" لم يعد يهمك على الإطلاق؟

- أبداً أبداً..على الإطلاق.

- ومن يهمك إذن؟

- لا أحد !..

- لماذا يا سيدتى. ألأنك أصبحت جدة وحماة. العمر ليس بالسنوات، ولكنه بالجمال والحيوية والشباب. وأنت والحمد لله جميلة وشابة، ومليئة بالقوة والحيوية.

ـ يا رجل ! قل كلاماً آخر.

ـ أنا أقول الحق "يا ست نبوية"، والله لو عنيت قليلا بنفسك. لو تزينت لو استعملت العقاقير التى أعرف عنها كل شىء، لأصبحت أكثر فتنة من "تفيدة" هذه. من "الست قمر". منهن جميعاً. وحينئذ تصبحين ست القرية كلها، حسباً ونسباً وجمالا وفتنة وإغراء.

وشردت قليلا وهى تضحك ضحكة خجولا..وظهر أمامها وجه "أبو سريع" الصارم الجامد، بشواربه الكثة الكثيفة. وبدت لها قامته الطويلة أطول من نخلة.

وتراقصت أمام عينيها أحلام غامضة.

وسألت نفسها :

ـ هل صحيح يمكن أن يحدث هذا؟ هل صحيح يمكن أن أصبح أكثر فتنة وإغراء من النساء الأخريات، اللائى يقضى معهن "أبو سريع" لياليه فى مغامرات طويلة. ومن يا ترى هؤلاء النسوة؟ إنها لم تستطع أن تتأكد من شىء، ولكنها تسمع كلاماً كثيراً، وربما كان أغلبه شائعات. على أن الشىء الذى لا ريب فيه، هو أن "لأبو سريع" مغامراته الخاصة، وعلاقاته الكثيرة، وإلا لما زهد فيها وهو يعرف أنها ذائبة فيه، وأنها تتمناه لنفسها وتشتهيه. لماذا إذن يتركها تصارع نفسها إليه، وتعيش فى اضطراب دائم، كلما أرادته هرب من طريقها. طبعاً إنه لا يفعل ذلك من أجل خاطر ابنتها "ست الناس"، فهى تعلم تمام العلم أنه لا يحب "ست الناس" إلا بمقدار، وأنه يخونها كلما واتته فرصة الخيانة. وإذن فهو يبعد عنها، لا لأنها حماته، فهو رجل فاجر لا تهمه هذه المقاييس، ولكن لأنه يجد من هى أجمل منها.

وبينما كانت شاردة هذا الشرود، كانت عينا الصقر مثبتة فيها. لم يكن "الشيخ بأو طاقية" يرفع عينيه عنها أبداً. كان يحاول أن يخترق صدرها إلى أعماق قلبها وضميرها.

ولما طال شرودها، أدرك "الشيخ أبو طاقية" بخبرته، أن تأثيره قد بدأ يتسلل إلى نفسها، فقال فى صوت هامس :

- تحلمين بالفارس الشديد الذى يداعب منامك.

قالت وقد بدأ فى صوتها حزن وأسى، وشهقة طويلة سبقت ألفاظها :

- اترك هذا الموضوع الآن. اتركه الآن. أرجوك. تقول إن عندك عقاقير تعيد الصبا؟

- نعم يا سيدتى، وسترين بعد قليل.

- ولكن ستقرأ سورة يس مقلوبة على "تفيدة".

- سأسبب لها جنوناً، وسأجعل "الحاج سلطان" لا يطيق النظر إليها. لن يراها كلما نظر إليها إلا مسخاً مشوهاً كريهاً. شيطانة منفرة؛ لا يستطيع الاقتراب منها.

- وكيف ذلك يا "شيخ أبو طاقية".

- أنا لى وسائلى. إن لى إخوة من الجن، وأنا أعرف كيف أنفذ أغراضى وارتعدت وهى تسمع كلامه هذا وقالت :

- من الجن..تقول من الجن؟

قال فى اطمئنان وثقة :

- نعم من الجن. تصورى الجن. هل يعصى على الجنى شىء؟

- لا طبعاً. الجن... الجن. وهل تستحضرهم.

- سأضع لك خطة كل شىء. وإياك ألا تفعلى ما أقوله لك حرفياً. ثم سأقرأ أنا تعاويذى وأورادى، والله الذى خلق الإنس والجن، قادر على كل شىء.

- إذن سأترك الموضوع لك يا "شيخ أبو طاقية"، وستحقق أنت هذه الكرامة.

- من الله يا سيدتى ! كله من الله.

- وستكون لك حلاوة لا تحلم بها أبداً.

- حلاوتى رضاك يا سيدتى.



ويردد "أبو المكارم" "لأبو عوف" و "أم الهنا"، ما بدأت القرية تردده عن الشيخ الجديد. وهم جالسون جميعاً حول الساقية عندما يقبل المساء، وتبدأ نسماته الرقيقة تداعب الشجر والطبيعة، وتملأ أخيلة الناس بأشياء غريبة، ورؤى غامضة.

إن أهل القرية بدأوا يلاحظون على الشيخ أشياء غريبة.

فهو كثير التردد على "الست نبوية" فى ساعات النهار وساعات الليل، وهو يذهب إليها رافع الرأس مطمئن البال، لا يخشى أحداً. أليس شيخاً؟ أليس مبروكاً؟ أليس صاحب كرامات؟

وهو لا يذهب إليها فارغ اليد أبداً، ولكنه يحمل إليها من بين طيات ملابسه وفى يديه أوراقاً ملفوفة فى عناية، وأوانى صغيرة مملوءة أشياء سائلة أو لزجة أو جامدة ولكنها ذات ألوان مختلفة، كتباً، وأطعمة لا يدرى أحد ما هى.

ولقد انزعج أهل القرية مما أخذوا يسمعونه عن هذه الأشياء.

وأخذوا يرددون فيما بينهم وبين أنفسهم أن هذه الأشياء أحجبة يوضع بعضها تحت الإبط، وبعضها تحت وسادة النوم، وبعضها على الرأس.

وأن هذه الأحجبة مؤذية وشديدة المفعول فيمن توجه ضده. إنها تؤذيه وتلحق به الضرر، وتصيبه بالنحس.

وهذه الأوانى التى تحمل هذه الأشياء. إن بعضها يشرب على الريق، وبعضها يخلط بالطعام، وبعضها يؤكل فى غير أوقات الطعام.

وبعض هذه السوائل، ترش فى طريق من ينوى الشخص أن يؤذيه.

وبعضها يرش على سرير النوم. وبعضها للبخور... كلها بلا استثناء موجهة ضد "تفيدة".

وقال رجال القرية عن الرجل أشياء غريبة لم تكن عقولهم الساذجة تستطيع تصديقها بسهولة.

قالوا إنه يدخل غرفة مظلمة، ويخلع ملابسه جميعاً، ويقوم بحركات عنيفة غريبة، ويصيح فى الظلام صيحات تتخلع لغرابتها الأفئدة.

إنه يستحضر الجن.

إنه يضع الخبز..النعمة تحت قدميه !

وهو يتوضأ باللبن الحليب.

وهو كذلك يدهن شعره بمادة تجعله دائماً أسود براقاً، وهو مسبل على كتفيه.

هذا هو تحضير الجن لا شك.

هكذا كان الرجال يرددون.

بل إنهم ليقولون إن "الست نبوية" بدورها تفعل هذه الأشياء، وتطلق نوعاً من البخور غريب الرائحة، وتتلو جملا غير مفهومة لمن يتصادف أن يسمعوها منها.

ويقولون إنها ترسل رسلها إلى حجرة "تفيدة" يتسللون إليها فى الخفاء، ليرشوا سوائل مختلفة الألوان تحت وسادتها، أو على عتبة حجرتها.

وفى الوقت نفسه، بدأت "الست نبوية" تكثر من زينتها بشكل ملفت للأنظار.

"أبو المكارم" نفسه، وجد مرة من المرات، إحدى خادمات "الست نبوية" تتسلل إلى حجرة "تفيدة" فلما خرجت، دخل مسرعاً ليرى ماذا وضعته فى الحجرة، فإذا هى قد ألقت تحت سريرها بعضاً من العشب الجاف الغريب، وبضع حصوات من الملح الرشيدى كالكرات الصغيرة البيضاء.

ولقد خاف على "تفيدة" من هذه الأشياء فابعدها، وأزالها، وذهب إلى "أبو عوف" و"أم الهنا" يروى لهما ما حدث.

وضربت "أم الهنا" بكفها على صدرها وهى تقول :

- إنه سحر يضعونه للبنت. يريدون أن يخربوا عليها.

ونظر "أبو عوف" طويلا إليها وهو يقول :

- يخربوا ماذا؟ أليس خراباً هذا الجو الذى تعيش فيه. ليت سحر "الشيخ أبو طاقية" يؤدى إلى غرضه، فينقذها الله، وينقذنا معها من هذا العذاب.

وفكرت "أم الهنا" قليلا ثم قالت :

- يا "أبو عوف" أنت على حق. ولكن الخراب قد تم وانتهى، وخروجها من بيت "الحاج" بالطرد أو الطلاق سيزيد الدنيا ضيقاً علينا. سنكون أعداء "الحاج سلطان". نحن الآن مساكين مغلوبين على أمرنا. أخذوا بنتنا منا. أبعدونا عنها. عرضونا لسخرية الناس. ولكن وجودها فى البيت يحمى وجودنا هنا. يصون لقمة العيش التى نحصل عليها فلا يمنعوها عنا. أما إذا خرجت. إذا نفع السحر الذى يعملونه لها، فإن مصيرنا إلى الهلاك.

قال "أبو عوف" وهو يرفع وجهه على السماء :

- لماذا ...لماذا كل هذا يا رب؟..لماذا.

ومضت الأيام، وسمع "أبو سريع' فيما اعتاد أن يسمعه عن أهل القرية، أن موجة من الغيظ بدأت تسرى على ألسنتهم، وأن اسم "الست نبوية" يقترن بهذا اللغط الكثير.

وذهب إلى بيت "الحاج سلطان" ثائراً، منتفخ الأوداج، يريد أن يضع حداً لهذا كله.

ووجد حماته مشغولة بما اعتادت أن ترتله من الجمل والعبارات التى لقنها إياها "الشيخ أبو طاقية".

لم تتنبه لوجوده داخل حجرتها، ولم تقف عن ترديد هذه الجمل والعبارات، المبهمة الغامضة، ولما انتهت منها، قامت إلى ركن من أركان حجرتها، وأخذت إناء به سائل غريب، وأخذت ترش أرض الحجرة بهذا السائل، وهى تردد بعض الأدعية على ضرتها، وعلى "الست قمر" كذلك.

ولمحت "أبو سريع" واقفاً مذهولا لما يراه.

وتركت كل شىء وذهبت إليه، لتلقى بنفسها على صدره.

لكنه استوقفها وهو يصيح بها :

ـ ما هذا الذى تفعلين. أجننت؟

قالت :

ـ قل أولا...ألست أبدو أجمل وأصبى؟ ألا ترانى فاتنة مغرية؟

قال فى صرامة :

ـ يا "ست نبوية" فكرى فى عمرك. واتركى هذا لأحفادك.

قالت وهى تلوى عنه وجهها :

ـ دائماً أنت هكذا...مغرور ! أجبنى أولا..ثم إن العمر ليس بالسنوات التى يقضيها الإنسان فى الحياة، ولا دخل له بالأولاد والأحفاد. العمر بالشباب، والجمال، والصبا، والفتنة. هل أصبحت صبية فاتنة؟ ألا ترانى أصبحت مغرية؟

ألا تتمنانى الآن؟

ـ قولى أنت أولا. ماذا كنت تفعلين؟

ـ قالت له فى همس :

ـ ولا تروى شيئاً لأحد.

قال :

ـ أهو سر إلى هذا الحد؟

قالت :

ـ سر جداً ...سر خطير.

قال :

- ماذا يكون؟

قالت :

- على أن تقول لى أولا هل أصبحت حلوة وصبية؟

قال :

- ما أجملك يا حماتى !

قالت :

- إذن تقبلنى قبل أن أحكى لك السر.

واقتربت منه وصدرها يعلو ويهبط، وأنفاسها تتقطع كمن تلهث، وارتمت عليه فى ليونة، ومطت له شفتيها الواسعتين، لتتلقى منه قبلةً سريعة محمومة.

وبعد أن استفاقت، وأرسلت زفرة طويلة قالت له :

- هل تعرف أن "الشيخ أبو طاقية" يحضر الجن، وأنه ساحر من الدرجة الأولى؟

قال :

- أبداً ...لا علم لى بشىء من هذا. كل ما أعلمه أن القرية كلها تتحدث كثيراً عن زياراته المتكررة لك، وأنت تعلمين أن مركزنا فى البلد لا يسمح لنا بأن نكون موضع كلام الناس.

قالت :

- القرية ...أهل البلد ...عيب يا "أبو سريع" يا "سبع الليل" أنت رجل تعرف كيف تقطع لسان من يتكلم. ثم من هم هؤلاء الذين يتكلمون " كلهم تملية عندنا وخدم، أو مستأجرون جياع رعاع. وهؤلاء هم الذين يتكلمون عنا، وتهتم أنت يا "سبع الليل" بكلامهم ! لا يا شيخ الخفر.

قال :

- يا حماتى أنا لا أهتم بهم، وأنت تعلمين أنى قادر على أن أجلدهم بالسياط، وأن أدخلهم بيوتهم من المغرب. ولكنى أريد أن أعرف كل شىء. ألست حماتى أم زوجتى؟

- ولم تقل ما أتطلع إليه، وما أتمنى سماعه.

- وحبيبتى؟..

- يا شيخ الخفر، يا "سبع الليل"، يا رجل الرجال، يا روح حماتك. يا عمر حبيبتك.

- إياك أن ترفعى صوتك، وألا نقل هذا الكلام "لست الناس".

- "ست الناس" المغفلة التى تتركك كالوحش الهائج مع النساء.

- لا تقولى هذا يا حماتى. إنها شائعات !

- يا فاجر...ألست أولى منهن بك. من هؤلاء؟ قل لى " هل هن أجمل منى؟

ولوى عنقه بعيداً وهو يقول :

- دعينا من هذا الآن. ما حكاية "الشيخ أبو طاقية"؟

- إنه يحضر الجن، ويأمرهم بتنفيذ ما يريد، فيكون له ما يريد. ولقد أعطانى من الوصفات والأحجبة والبخور، ما سيطرد البنت "تفيدة" من هذا البيت عن قريب.

- وكيف يحضر الجن؟

- له طرقة الخاصة. إنه رجل صاحب كرامات. كرامات ! بل معجزات !

- شىء غريب. ويستطيع أن يحقق للناس الرغبات.

- كالهواء. إنه غريب جداً.

- وماذا رأيت منه؟

- البنت "تفيدة" من يوم أن بدأ فى عمله، وهى دائماً باكية. إن دموعها دائماً على خديها. واختفت نهائياً من فناء الدار. لم تعد تغادر حجرتها إلا لضرورة، وطول النهار

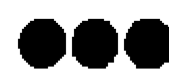
والليل سجينة حجرتها لا تغادرها أبداً. بل قد فترت صلتها "بالست قمر" تماماً. لم أعد أراهما معاً كما كانتا من قبل. و "الست قمر" نفسها. ألا تراها الآن، وقد اسود بياضها، وذبلت كما تذبل الزهرة؟ إن الرجل غريب. إنه يقلب الدنيا كلها بما يفعله. أين كان هذا الرجل من قبل؟

ـ وهل يقرأ سورة يس بالمقلوب؟

ـ لا ...إن له وسائل أقوى مفعولاً من سورة يس المقلوبة. ألا تلاحظ هذا التغير الذى حدث فى هذا البيت؟ إن "الحاج سلطان" نفسه لم يعد يطيق البيت. لاشك أنه يعامل "تفيدة" معاملة سيئة جداً. لقد بدأ يراها كالشيطان، وبعد ايام لن يستطيع أن ينظر إلى وجهها. سيطردها يا "أبو سريع" وساعتها أكون أنا قد انتصرت. هل هانت الدنيا إلى هذا الحد؟ واحدة من السفلة، تدخل بيتى أنا، لتصبح نداً لى. ربنا يطيل عمرك يا "شيخ أبو طاقية". ربنا يزيدك نوراً وتوفيقاً.

ـ إنى لا أكاد أصدق.

ـ اعرف إذن أن مجيئه هنا من أجل هذا. أفهمت؟ أما ما يقوله الناس عنى أو عن "الشيخ أبو طاقية" فلا يهمنى، ويجب ألا يهمك أنت أيضاً. اعقل يا "سبع الليل".



وتركها "سبع الليل" ليذهب إلى "الشيخ أبو طاقية".

لم يجده فى الجامع، ولكنه وجده فى بيته، فلما دخل عليه، وجده واقفاً شبه عار، يردد صيحات مفزعة، رهيبة، ولما حياه لم يرد عليه التحية، فانتظره حتى فرغ من صيحاته تلك وجسمه ينتفض من الخوف.

قال شيخ الخفر :

ـ أنا عرفت كل شىء يا سيدنا. عرفت أن لك سراً باتعاً. فهل تخدمنى؟

وأجابه فى تعال شديد :

- هذا رهن بإرادة الأسياد. لابد من استئذانهم، فهم أصحاب الأمر والنهى.

أنا لست إلا وسيلة يا ابنى.

قال شيخ الخفر :

- ولكنك تستطيع على أى حال أن تقنعهم بخدمة محسوبك "أبو سريع" أنا لست غريباً عنك، وستجدنى بعد ذلك فى خدمتك.

- لا تيأس يا بنى. احك لى مشكلتك وسنرى.

وبدأ شيخ الخفر يروى له فى سذاجة وصراحة كيف لا ينام من فرط حبه "للست قمر" وأن فى جسمه شوكاً يؤرق لياليه وأن فى قلبه ناراً تأكل كيانه وأنه لن يرتاح حتى ينالها. أرأيتها يا "شيخ أبو طاقية"؟ إنها حلوة بضة بديعة.

وقال الشيخ :

- وتريد أن تطلقها من "الحاج سلطان" لتتزوجها.

قال شيخ الخفر :

- ولماذا الطلاق "يا شيخ أبو طاقية"؟ أنا لا أريد هذا. أنا أريدها أن ترضى عنى، وأن تشعر نحوى بمثل ما أشعر به نحوها. أريد أن أسمع أنها تتمنانى كما أتمناها، وسأدبر يومها الأمر، فلا يشعر أحد بما بيننا من علاقة.

قال الشيخ :

- وحماتك؟..

وحاول شيخ الخفر ألا يفهم ما يقصده "الشيخ أبو طاقية"، وآثر أن يأخذه بمعنى آخر، وهو أن حماته قد يضايقها منه أن يخون ابنتها. فقال :

- طالما أن ابنتها راضية، ولا تعرف شيئاً، فما شأنها؟

ولم يترك "الشيخ أبو طاقية" الفرصة لتمر، دون أن يجعل شيخ الخفر يفهم تماماً أنه يعرف عنه كل شيء. فقال :

- وهل تهمها ابنتها؟ تهمها نفسها يا شيخ الخفر.

وسكت شيخ الخفر، وقد أيقن أن الرجل قد عرف سره، وأنه قد يستعمل هذا السر، عندما يجد ضرورة لاستعماله، ويومها تكون فضيحة كبرى لا يدرى كيف يواجهها.

ولكنه خاف منه، وآثر أن يطويه تحت جناحيه، وأن يضمن دائماً سكوته، فقال له فى استسلام.

- لن تعلم حماتى شيئاً.

قال الشيخ :

- كلكم تطلبون منى حراماً. أنا أريد واحداً يطلب حلالا. أليست حماتك تريد أن تطلق "تفيدة"، والطلاق أبغض الحلال عند الله. و "الحاجة زهرة" تريد أن تستولى على قلب "الشيخ عبد الباقى"، والد "عباس" زوج ابنتها، وهذا أيضاً حرام.

وصاح "أبو سريع".

- حتى "الحاجة زهرة". يا نهار أسود !

قال الشيخ :

- ولماذا تسود النهار يا "أبو سريع". حلال لحماتك، وحرام على "الحاجة زهرة"؟ بل ها أنت تطمع فى أن تسيطر على قلب "الست قمر". أو ليس هذا حراماً؟! يا شيخ الخفر، حلل للناس ما تحلله لنفسك.

قال شيخ الخفر :

- لكن "الحاجة زهرة" ! إنها..

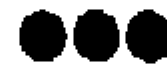
قال الشيخ :

ـ إنها ماذا؟ إنها أنثى ! إنها امرأة، أهملها زوجها منذ سنوات طويلة أليس لها هى الأخرى قلب؟

وعاد شيخ الخفر يتحدث عن مشكلته هو، ويرجو "الشيخ أبو طاقية" أن يفعل له هذا المعروف ولن ينساه له أبداً. سيكون تحت أمره، وفى خدمته، وسيضع رجاله جميعاً : الخفر، واللصوص، وقطاع الطرق. كل هؤلاء سيتحركون فى أى وقت بإشارة من إصبعه.

وأخذ الشيخ "أبو طاقية" يتطلع إليه، وعلى شفتيه ابتسامة رضا وارتياح، وعيناه مثبتتان فى عينيه، كأنما يريد أن يأخذ عليه عهداً بالوفاء، وإلا فإن عدم الوفاء سيكون له آثار أخرى لا يقدر عليها برجاله، ولصوصه، وقطاع طرقه.

بينما كانت نظرات "أبو سريع" إليه استعطافاً وتودداً وملقاً.



ما كان أشد حزن أبناء القرية، وهم يسمعون ما حدث، ويشاهدون أمارات الود والمودة بين "الشيخ أبو طاقية" وبيت "الحاج سلطان"

إن "أبو سريع" قد أصبح هو الآخر ذيلا "للشيخ أبو طاقية" يتبعه كالظل !

ولقد أخذ بدوره يتصرف تصرفات عجيبة. يختفى فى بيت من بيوت الخفر. لينفذ تعليمات الشيخ، من صياح بجمل لا يعرف أحد لها معنى، إلى استعمال أنواع من البخور، تزكم الأنوف، إلى شرب سوائل مختلفة الألوان، إلى الاستعانة برجاله على وضع الأحجبة فى حجرة "الست قمر" ورش السوائل فى طريقها.

وما كان أكثر ما أصاب القرية من خيبة الأمل، وهى ترى الجامع مهجوراً، أو كالمهجور، يذهب إليه "الشيخ أبو طاقية" مسرعاً غير ملتفت إلى شىء، ليؤم الناس وهو ذاهل، ثم يسرع إلى بيت "الحاج سلطان" أو إلى داره ليستقبل "أبو سريع".

وما كان أعمق ما أصاب القرية من الأسى، وهى تستعيد أيام "الحاج مرزوق" وكيف كان يرعى الجامع رعايته لأهل بيته، وكيف كان يتفانى فى خدمة الناس، ونصحهم بما أنزله الله على نبيهم صلوات الله عليه.

وقال الناس فيما قالوه :

ثم إنه رفض "للست نبوية" طلبها، عندما أرادته أن يفعل ما يخالف الله، وما يتنافى مع كتابه الكريم.

لم يشأ أن يقرأ سورة يس مقلوبة، ليقلب بذلك حياة "تفيدة"، ولم يقبل أن يدعو الله على "تفيدة" لتفسد بذلك حياتها.

ولقد تعرض للأذى والاضطهاد. اضطهدته "الست نبوية"، واضطهده "أبو سريع" وحرضوا الناس على ألا يرسلوا إليه المسنية كما اعتادوا أن يفعلوا.

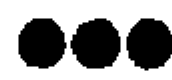
وكان يمكن أن يجوع "الشيخ مرزوق" وتجوع معه أسرته ولكنه صمد متكلا على الله. وقاوم ونصره الله.

وانطوى "أبو سريع" تحت جناحه، ليصلى، ويصوم، وليعبد الله !

ثم ذهب معه إلى الحجاز، ليكون رفيقه فى حج بيت الله الحرام، وزيارة نبيه عليه الصلاة والسلام.

أما ما حدث فى الحجاز، وكيف مات الشيخ، فإن الله وحده هى الذى يعلم سر ذلك.

ولكن القرية مع هذا تؤمن أن هناك سراً، وأن موت الشيخ لا يمكن أن يكون، طبيعياً أبداً. والسر فى بطن "أبو سريع"، ولن يبوح به "أبو سريع".



ومضت الأيام تلو الأيام.

"الست نبوية" مستغرقة فيما هى فيه.

"أبو سريع" ينفذ تعاليم الشيخ.

و"الشيخ أبو طاقية" ينال كل ما يريد، وفوق ما يريد.

وفى القرية غضب، وفى القرية ألم، وفى القرية أسى ولكنه كله صامت مكتوم.

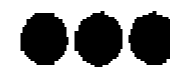
والعمدة وشيخ البلد والأعيان، مرتاحون لما صار عليه الحال، فقد انتهت سيطرة "الشيخ مرزوق" على الناس، وانتهى ما كان يضر به لهم من مثل، وزال العهد الذى سرت فيه بين الرجال موجة من شبهة الشجاعة فى الرأى وفى التصرف، طالما أن ذلك لا يغضب الله.

وبعد أن كانت القرية قد بدأت تشعر بالثقة والاطمئنان، وبعد أن كانت القرية قد بدأت تحيا فى جو من الإيمان بالله وبقدرته على أن يحمى الضعاف من الأقوياء، عادت مرة أخرى تعيش فى قلق، وفى ذعر، وفى خوف، كلامها همس، وخطوها حذر، والتفاتاتها توجس.

وكاد الناس يفقدون الثقة بأنفسهم، وكاد كل منهم يفقد الثقة فى أخيه، خوفاً من أن يصل أمره إلى مسامع قوم لا يرحمون، طووا تحت نفوذهم، الرجل الوحيد الذى كان يستطيع أن يملأ قلوبهم صبراً، ويملأ نفوسهم أمناً، ويملأ ضمائرهم طهراً.

وكان "أبو المكارم" يجلس إلى "أم الهنا" و "أبو عوف" يروى لهما ما يحدث على طريقته، وبأسلوبه، بعيداً عن مسامع الناس، عند الساقية، وأشجار الجميز والصفصاف والنخيل تسمع ولا تعى، ولا تشى.

ولولا هذا لما كان هناك من يقدر على أن يتعرض لهذا الذى يحدث بكلام.



وأتم "أبو سريع" كل ما أعطاه الشيخ من تعاويذ ووصفات، وأصبح على قلق كالنار، منتظراً اليوم الذى تتحقق له فيه أمنيته الحبيبة.

وذات يوم، ذهب إلى بيت "الحاج سلطان" وكان يعلم مقدماً أن الجو مهيأ له تماماً. كانت "الست قمر" هناك وحدها.

ولما قابلها، كان يظن أنها ستلقاه بالأحضان والقبلات، ثم تجره من ذراعه جراً، إلى ساعات من المنى، يعيش عليها بقية عمره.

وكانت المفاجأة قاتلة، فقد بادرته ساخرة منه ومن منظره.

كان يتسلل على أطراف أصابعه، وكان قد ارتدى أعز ما عنده من ملبس، وحلق شعره، وسوى شاربه، وبدت منه نظرات لينة رطبة، مهيأة لساعات هيام، طال انتظاره لها.

وكان هذا كافياً ليجعل "الست قمر" تصيح فيه ضاحكة :

- ماذا جرى لك يا شيخ الخفر؟ إنك لا تبدو فى هذا المنظر سبع الليل.

لماذا مسخوك هكذا؟! إلى أين أنت ذاهب يا جميل ! ألا تشعر بالخجل من منظرك هذا؟ أين شاربك؟..أين بندقيتك وكرباجك السودانى؟ اذهب يا رجل وارتد جلدك، فما أظن إلا أنك قد غيرت جلدك القديم.

وضحكت من قلبها ضحكة تعثرت بها كل آماله.

قال لها :

- إنى قادم إليك ...إنى ملهوف عليك.

قالت فى سخرية أشد إمعاناً :

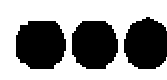
- ألا تستحى يا رجل؟ قلت لك ألف مرة أنى أكرهك وأحتقرك ! تصدقنى؟ والله لو أنك زوجى، لأصابنى منك غثيان. الله يجازيك. إنك تضحكنى بمنظرك هذا يا مسكين.

ومضت تنادى أولادها، وتملأ بصيحاتها فناء الدار.

وتسلل خارجاً إلى الشيخ، ليروى له ما حدث، ولكن الشيخ الذكى ثار فى وجهه ثورة شديدة وأخذ يعنفه قائلا له :

- هل أذنت لك؟ هل قلت لى إنك ذاهب؟ لقد أفسدت كل خططى.

لقد فقدت الأسياد الذين يعملون معى. إنك مخطىء. إنك مجرم. أنك لا تعرف أن هذا يؤذيك، ويؤذينى معك؟ اذهب، وإياك أن تعود إلى مثل هذا قبل أن آذن لك.



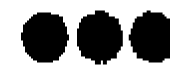
ولما أتمت "الست نبوية" كل وصفات الرجل، أخذت تفرك يديها فرحة، منتظرة عن قريب، أن ترى "تفيدة" طريدة هذه الدار.

ومن يدرى : ربما أكمل " الشيخ أبو طاقية" كراماته، فترى "الست قمر" كذلك إما طريدة، أو مطلقة، أو لا تأثير لها على "الحاج سلطان".

وأخذت تمنى نفسها بهذا اليوم، وتبتسم للناس جميعاً، وهى تتحدث إليهم حتى فيما لا يحتمل الابتسام.

الأمل الذى تعيش عليه جعلها رقيقة وديعة وهادئة.

وفجأة وبلا مقدمات، سرى فى البيت أن "تفيدة" حامل !



وطار صوابها.

جن جنونها.

فقدت عقلها.

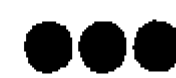
ونادت "أبو سريع"، وروت له روايتها، وكيف خانها هذا الشيخ الدجال، وحطم كل آمالها، بعد أن ابتز أموالها.

وذكر "أبو سريع" موقف "الست قمر" منه، فطار صوابه هو الآخر، وجن جنونه، وفقد عقله، وصاح بأعلى صوته :

- إنه دجال. إنه دجال. أنا واثق من دجله وكذبه وخداعه. لقد كشفته بنفسى، بعد أن جعلنى أحيا فترة من حياتى فى أمان وأحلام. والله لأقتلنه. والله لأفتكن به.

ومضى مسرعاً يبحث عنه فى كل مكان.

والخفر وراءه، ورجاله يتبعونه، وفى أيديهم بنادق وعصى.



ولكن "الشيخ أبو طاقية" كان قد علم بما حدث، فترك القرية على عجل، واختفى بين الحقول، فى طريقه إلى مكان آخر يجرب فيه لعبته هذه على سذج آخرين أبرياء جدد.فى حين كان صوت "الست نبوية" يشق فناء بيت "الحانه سلطان" وهى تصرخ قائلة:

ـ أريد هذا الدجال لأشرب من دمه.

"وأبو سريع" ورجاله، يبحثون عنه فى كل ركن من أركان القرية، بلا جدوى.

□□□

٩

كان "أبو المكارم" إذا فرغ إلى نفسه، أمسك بيده غصناً من أغصان شجرة الصفصاف. غصناً يكون قد مال به زمانه، ولم يستطع أن يثبت للزمن وللريح، فمال متعباً مكدوداً، ينتظر يداً تشده، فينخلع عن الشجرة، ويكون لذلك صوت كصيحة وداع !

ويمضى "أبو المكارم" والغصن المخلوع فى يده، يضرب به فى الهواء.

ويدور مرة أو مرات حول الساقية الصامتة الساكنة، التى لا تدور. ولكنها العادة، أو ربما الرغبة فى دورات لا ترتبط بالواجب، بقدر ارتباطها بمزاجه الخاص.

فإذا ما بدأ رأسه يدور مع دوراته حول الساقية، وقف قليلا على حافة الساقية يتطلع على هذه الساحة البسيطة التى تحيط به من كل جانب، ويحس دائماً أنه وإن لم يكن يملك شبراً من أرض فيها، إلا أنه يملكها جميعاً.

الهواء ملكه هو، يتنفس منه كما يشاء.

والطريق ملكه هو، يذرعه جيئةً وذهاباً، كلما شاء.

والحركة ملكه هو، يحرك ذراعيا إذا أراد، ويطلق ساقية للريح، إذا شاء.

وإنه ليرى شجرة الجميز، منفوخة "كالحاج غضبان" ! وشجرة السنط كالحة "كالست نبوية" ! والنخلة فارغة "كأبو سريع" ! وشجرة الصفصاف مستسلمة "كتفيدة" !

وعندما كان يصل فى التشبيه إلى "تفيدة" كان تفكيره يقف، وخياله يتكىء على شىء كأنه الوسادة من حرير..وقد يغمض جفنيه، كما يطبق طفل شفتيه على قطعة من حلوى ليحتفظ فى ريقه بحلاوتها، أطول مدة يستطيع.

"تفيدة" ! فاكهة من الجنة خطفها شيطان عجوز !

"تفيدة" ! نسمة من نسمات الربيع، أدركتها ريح الخماسين !

"تفيدة" ! روح تألقت ذات يوم، فلبسها جسد ثقيل !

يا قبساً من نور الله، فى قبضة أنانى مجرم !

يا قطرة من العسل، تعرضت للسان مفجوع، يحاول أن يلعقها، قبل أن يحظى بها سواه !

يا ظلاً من النعيم، يتفيأ تحته كلب مسعور !

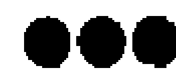
"يا تفيدة" يا روح "أبو المكارم" ونفسه، وقلبه، ومناه.

يا كلمة الحق، اختفت تحت لسانه، مع ما اختفى من أسرار.

يا سر الحياة، يا حكمة الوجود، يا رائعة، يا فاتنة.

يا سجينة !! يا أسيرة ما وهبك الله من تفوق الخلق والخلقه.

ليتك لم تكونى على هذا القدر من البراعة والجمال، لتتحررى من رقك ولتكونى لى أنا التائه المسكين الصامت..وإن يكن خفق قلبى، أعلى من كل صوت، وأبلغ من كل لسان.



على أن "أبو المكارم" لا يستطيع أن يمكث طويلا أمام هذه الخيالات والرؤى، فإنها لتثقل قلبه بالهم، وتملأ نفسه بالحسرة.

حينئذ يترك الساقية، ليسير على جسر الرياح، فى ناحية "سيدى الذكيرى"، ويمر بحقول يغمرها الماء، فيهز رأسه وهو يتصور يوم أن تتحول هذه المياه إلى أموال فى جيب "الحاج سلطان" أو "الحاج غضبان" أو هماً معاً. ويمر بحقول أخرى قتلها الجفاف، فيضحك من قلبه ضحكةً حزينة، وهو يقول لنفسه :

عقلاء هؤلاء...طالما أن النتيجة واحدة ! عجزوا عن دفع ثمن الماء، أو استكثروه فآثروا أن تمتلىء زراعاتهم بهذه الشقوق، كالأفواه العطشى، على أن يقبلوا أسعار "الحاج سلطان" وشروطه، فلا يكون لهم من كد أيديهم، إلا ما يكون لهم من شقوق الأرض الجائعة وربما اختصروا بعض المأساة بهذا القبول، ولكن المأساة هى المأساة على كل حال.

وعندما يواجه ضريح "سيدى الذكيرى" يقف "أبو المكارم" متفتح النفس متهلل الوجه وهو يذكر أول ليلة له فى هذه القرية، وكانت ليلة مولد ولى الله.

هل كان يعلم ماذا ينتظره هنا من ألوان الحياة؟

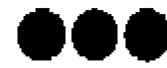
هل كان يعلم أن قلبه سيخفق بهوىً لن يزول من قلبه صداه؟

هل كان يعلم أنه سيلقى هنا "تفيدة" وسيعرف منها طعم الحب، بما بينهما من تعبير كانت وسيلته الأولى فردة الشراب الأحمر؟

هل كان يعرف أنه سيذوق هنا طعم الحرمان، وطعم الوصال فى آن؟

أما الحرمان فلأن "تفيدة" قد دهبت منه إلى الأبد، وأما الوصال فلأنها دائماً تحت عينيه؟

هل كان يعلم كل هذا، وهل كان يقدر أنه سيصبح من الساقية مثلما أصبح اليوم منها.



ويضرب "أبو المكارم" ما فى يده من غصن الصفصافة فيما حوله من نبات على حافة الرياح.

ولكنه يعض شفته، وهو يقول :

ضربتهما !..وهل أنا أيضاً أضربهما؟

إنهما كهذا النبات البرى، ينبت على حافة الترع : "أبو عوف" و "أم الهنا" !

ما أتعسك يا "أبو المكارم". بل ما أقساك !

وتخطر على باله "مفيدة" الأخت الكبرى "لتفيدة" ويذهب بعيداً وهو يفكر فيها.

وإنه ليذكرها ايام أن كان يذهب إلى "تفيدة" فيجدها دائماً مع أختها تتضاحكان، وتتغامزان وتعيثان بكل شيء تقع عليه أيديهما.

كانتا أختين، وصديقتين معاً، وكانت أقرب إلى التوأمتين، لا تكاد تعرف أن هناك فرقاً بينهما.

ويقول لنفسه وهو يذكرها، ويتذكر نظراتها الماكرة إليه، عندما تشرق عيناه بالفرحة وهو ينظر إلى "تفيدة".

يا ترى بماذا تحسين اليوم يا مسكينة، وأنت تدركين، أنك أصبحت مثلها ضحية، وإن لم تمتد إليك يد الجزار؟

ذبحوك بلا سكين، لأنهم خصصوا السكين لأختك، فلم تعد السكين حتى السكين- قادرة على ذبحك !

على أن مصيرك كمصيرها ..واحد.

هى ذبيحة ينهشون لحمها.

وأنت ذبيحة لا تزال حية، لا يجرؤ أحد على الاقتراب من لحمك.

ومن الذى يجرؤ على أن يتقدم إليك، لا بخير، ولا بشر؟!!

أنت فى حكم الشرع أخت زوجة "الحاج سلطان"، وهذا معناه، أن عمرك، وأن أملك، يجب أن يقف بك هنا...لا يزيد، ولا ينقص !

فإن كانت لك قسمة فى الزواج، فيجب ألا يتم إلا برضاء الرجل الذى يحكم مصيرك، بلا حكم من شرع أو قانون.

ومن أين لك ذلك العريس، الذى يرضى عنه "الحاج سلطان"؟

إن له مواصفات يجب أن يضعها له "الحاج سلطان" بنفسه، وإلا فإنها الطامة الكبرى، أن يتقدم إليك واحد من جنسك، ومن عرقك، ومن مستواك البسيط المتواضع.

الله وحده يدرى ماذا يكون عليه أمرك، وماذا يكون مصير أبيك !

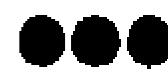
إن عليك أن تنتظرى يا مسكينة فى جمود الموتى، لا تتقدمين ولا تتأخرين !

والويل لك يا منحوسة الطالع، لو أشيع عنك، حتى إن فى قلبك هوى مكتوماً ! أترين؟ أتقدرين ما أصبحت عليه الآن؟

لابد أنك عالمة بكل ذلك، وإلا ففيم إذن هذا الصمت اللعين، الذى كاد يجعلك مثلى خرساء، لا تنطقين؟ وفيم إذن هذا الذهول الشارد، الذى يعجز حتى عن أن يمتد إلى مجهول؟ وأن يكون هذا المجهول خوفاً؟!

إن "تفيدة" ذاقت حكم الإعدام علانية، أما أنت، فإن الحكم ينفذ فيك بغير إعلان؟

وذهبت ابتسامتك الحلوة، وذهب مرحك الخفيف، واختفى ما كان يزينك من الدعابة والفكاهة وفراغ البال.



على أنه يعود ينظر إلى ضريح الشيخ، وهو يحرك شفتيه بلا كلام.

هذه كانت صلاته، وهذه كانت نداءاته.

ويتجاوز فى مشيته تلك ضريح "سيدى الذكيرى" فى اتجاه محطة السكة الحديد، وعندما يصل إلى مكان الهويس حيث يحجزون مياه الرياح، فتبدو مرتفعة من جانب، منخفضة من الجانب الآخر، ولا يفتحونه إلا بمقدار.

عندئذ يقف قليلاً، وهو يتأمل اندفاع الماء من المستوى العالى إلى أعماق الرياح.

ويلاحظ أن دوامة كبيرة تتكون من هذا الاندفاع.

الماء يندفع إلى أعـمق أعـمـاق الرياح، حـتى يصل القـاع، ثم يكوّن دوائر مـتـداخلة مضطربة، كهذة القرية التى تعيش فى قلق وخوف.

لقد زادت الدوامة فى القـريـة، وتداخلت دوائرها، حتى لقد أصبح من العسير على المرء أن يميز شيئاً فيها.

اختلطت العواطف، وتداخلت الانفعالات، حتى أصبحت الحياة فيها تنذر بشىء هو الشر الذى لا بد منه.

"الست نبوية"، ساءت حالتها وأصبحت عروق رقبتها، تنتفض أبداً حتى وهى صامته لا تتكلم ولا تصيح...لقد كانت تتكلم وهى صامتة، تتكلم مع نفسها ولنفسها، وفى شجار دائم.

والكلمات التى كانت تنطق من ركبتيها، أصبحت أكثر عمقاً، حتى لقد أخذت تنطلق من ركبتيها ومن قدميها معاً !

والصوت الخشن الجاف الكريه، أصبح ذكرى أنغام موسيقية حنون، إذا قورن بصوتها الجديد، وقد أصبحت شيئاً كقرع طبول مثقوبة !

والضحكات الهستيرية المجنونة، أصبحت ميزان العقل والاتزان، إلى جوار الشهقات المحمومة التى تطلقها تحاول بها أن تخفى دموعاً تقطر داخل قلب حاقد حانق أسود، يأكله وقود متوهج !

وشعرها وذقنها، وفمها، ووجناتها عليها لعنة، تتطاير منها اللعنات الكافرة بكل شىء، وبكل إنسان.

إنها تحارب كل الجبهات...

تحارب "تفيدة"، وتحارب مع "تفيدة" جنيناً مستقراً فى أحشائها، لا يزال سراً غامضاً فى ضمير الغيب !

وتحارب "أبو سريع" ذلك المتهاون الكسول الجبان، الذى سمح لأفاق بأن يتسلل إلى ثقتها، وآمالها، ثم يهرب من قبضة يديها قبل أن يحقق لها الأمل، أو يدنى منها الرجاء.

وتحارب الرجل الأشيب العجوز : زوجها، "الحاج سلطان" الذى بدا لها أنه زاهد فى عروسه الجديدة، وخدعها عن الواقع، ليهبها بعد ذلك جنيناً، سيهد كيانها إلى الأبد.

وتحارب أخاها العمدة الذى أضاع هيبة القرية، فأوقعها بسذاجتة وبلاهته، فى حبائل نصاب أفاق، اختلس وقتها وجهدها ومالها كذلك، بل اختلس ما هو أعز من الوقت والجهد والمال : كرامتها، وكبرياءها.

وتحارب "الشيخ سيد" العالم الذى يتفاصح بكلام عن الدين والدنيا والمحاكم الشرعية، والأحكام، ويتحذلق كأنما هو إمام المسلمين، بينما هو دابة لا يفرق بين الصالح والطالح، ولا يعرف الفرق بين الألف وعود الذرة !

وتحارب بنتها "ست الناس" التى تدافع عن زوجها، وتحاول ما استطاعت أن تنفى عنه الاتهام بالتفريط والإهمال والغفلة.

وتحارب ابنها شيخ البلد "غضبان" لأنه كان مغفلا مثل "أبو سريع" فلم يستطع أن يتبين من أمر الشيخ شيئاً، ولم يستطع أن يمنع أباه عن أن يهب جنيناً لضرة أتت من الوحل وستضع غلاماً أو فتاة، أخاً أو أختاً له... ويالعار ما سيصير عليه الحال، عندما يصبح هذا الغلام أخاً لأبنائها، أو هذه البنت أختاً لهم.

وتحارب كل من فى البيت...أولادها وزوجاتهم، لأنهم جميعاً سيصيرون فى نظرها من الحقارة والتفاهة، لأن أخاً من إخواتهم، أو أختاً من أخواتهم، ستهبط عليهم من عرق دنس حقير...جده "أبو عوف" ! وجدته "أم الهنا" !

وتحارب "الست قمر" التى أقامت من نفسها خطاً للدفاع عن "تفيدة"، لتصبح "تفيدة" أماً لولد يحمل اسم هذه الأسرة الكريمة.

وكادت أن تجن.

حدقتا عينيها، أصبحتا تتطلعان فى كل من تراه، فى كراهية واحتقار، وشرر يندفع من هاتين الحدقتين، تضطر أسرتها أمامه، أن تتفادى النظر إليها.

وصوتها لم يعد يخفت أبداً.

ترى زوجها فى الصباح خارجاً من حجرة العروس، فتصيح فى وجهه :

- صباحك ندى يا عريس الهنا. مبروك عليك الولد الآتى لك فى الطريق.

ويجيبها فى خشونةٍ :

- كفى هذا الهذيان ! أنت مجنونة !

وترد عليه فى تطاول:

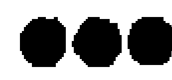
- ربنا ينتقم منك. مرغت شرفنا فى الوحل.

ويصيح فيها مهدداً :

- والله إن لم تعودى إلى عقلك، لأطلقنك على الفور. لقد زاد الكيل، وأنا لا أتحمل هذا الجنون الذى لم يعد يحتمله حتى أولادك. اسكتى.

ولكنها لا تسكت. تظل تتابعه بالكلام المقذع، حتى يغادر الدار، فلا يعود إلا آخر الليل.

فإذا لمحت "أبو سريع" فإن لها معه دوراً آخر. إنها تؤنبه، وتعنفه، وتصوره لكل من يسمع بأنه لم يعد رجلاً ...إنه "نعجة" البلد، لا يستطيع أن يسيطر على شىء فيها.



على أن "أبو سريع" نفسه، كان يعانى مأساة أخرى.

إنه يستكثر على شواربه هذه الكثة الكثيفة، أن يلعب عليها دجال.

الرجل خدعه هو أيضاً، فصور له أشياء غريبة، وجعله يحيا فى آمال عريضة، يمنى نفسه "بالست قمر" سراً، وتحت جنح الظلام.

وهذا هو يختفى من البلد، ولا يستطيع أن يقف له على أثر. وهو "أبو سريع" الذى يعرف مكان حبة قمح خطفها طير عابر ! هو "أبو سريع" الذى لا تخفى عليه خافية فى هذا البلد.

وإنه ليرى حماته، فى هذا الهياج المزرى، فيحمد الله على أن الشيخ الدجال قد ذهب، ولولا ذهابه لظلت حماته تتوهم أنها تزداد فتنة وجمالاًوإغراء، فتزداد تعلقاً به، ومطالبة له أن يكون لها، دون أن تعلم بذلك ابنتها "ست الناس".

على أنه يرى "الست قمر" تروح وتجىء فى فناء الدار، وذراعاها تترجرجان فيرتج جسده مع ذراعيها العاريتين.

حينئذ يذكر "الشيخ أبو طاقية" الذى فرش له أرض الأحلام، شهداً مذاباً.

ويعض على شفتيه فى أسى وحسرة، ويقول لنفسه :

- ليته لم يكن دجالاً، ليحقق أمنية عمرى.

ولكنه يعود إلى رشده، وصوت حماته يقرع أذنيه.

ويحاول أن يخفف عن حماته بعض ما تعانيه، ولكن صوته يضيع بين صيحاتها، فيتراجع ويخرج بدوره من البيت، حتى ينقذ نفسه من هذا الموقف العاصف.

وفى طريقه إلى خارج الدار يلتقى "بالحاجة زهرة"، فيطيل النظر إليها، ويعود يذكر ما عرفه عنها هى الأخرى.لابد أنها بدورها ثائرة، على "الشيخ أبو طاقية" الذى ملأها أملا، ثم تحطم هذا الأمل، مع آمال حماته، وآماله هو أيضاً.

ويذكر "الشيخ عبد الباقى"، والد زوج ابنتها "درة زمانها". إنه فارس أحلامها، هذا الرجل الأرمل العجوز. ماذا تراها تقول الآن لنفسها. إنها "حاجة" تعرف كيف تتحكم فى نفسها، ولهذا لا تبدو منها أمارات تدل على غضبها على الشيخ الذى فر، حتى لا تثير ريبة أحد فيها، أو شكه فى أنها لجأت إليه، كما لجأت إليه ضرتها "الست نبوية".

على أن "أبو سريع" لا يترك الفرصة تمر، فيقول لها :

- أرأيت "ياحاجة زهرة" كيف خدعنا هذا الرجل الدجال؟

وتجيبه فى هدوء :

- الذنب ذنبكم أنتم. من قال لحماتك تثق فيه هذه الثقة العمياء؟

قال لها فى تخابث :

- لم تكن حماتى وحدها هى التى تثق فيه، ولكن آخرين كثيرين كانوا يثقون فيه، ويكلفونه بقضاء بعض حاجاتهم.

قالت فى مكر :

- شئ غريب. أما حماتك، فنحن نعرف أسباب التجائها إليه، أما الآخرون فلماذا لجأوا إليه؟

قال فيما يشبه الإشارة إلى أنه على علم بأشياء كثيرة :

- الناس أسرار يا "حاجة زهرة"...ربنا وحده هو الذى يعلم أسرار الناس.

قالت بدورها فيما يشبه كشف سر تهدد بإذاعته :

- والله من يريد "القمر"، يسهر من أجله الليالى، فإن هده برد الليل، فعليه ألا يشكو ويتوجع.

وفهم "أبو سريع" على الفور، أن الشيخ "أبو طاقية" لم يخصه وحده بأن حكى له حكايات الآخرين، وإنما لابد أنه حكى للآخرين حكايته. وحار كيف يجيب. ولكنه آثر السكوت قليلاً، فلما أفاق إلى نفسه، بدأ يغير موضوع الحديث.

قال لها :

- وما رأيك فى الضيف الجديد الذى شرف بيتنا؟

قالت وهى تمط شفتيها :

- لست أدرى عمن تتكلم. مرحباً بالضيف على أى حال.

قال والدهشة تعقد لسانه :

ـ مرحباً بمن ...بالحمل الجديد.. ماذا جرى لك يا "حاجة زهرة".

قالت، وقد أدركت ما يعنيه :

ـ تقصد الجنين...صهرك الجديد، الذى لا يزال فى بطن أمه؟

قال :

ـ نعم، ما رأيك فى الموقف؟

قالت وهى تشيح بوجهها عنه :

اتركونى فى حالى. أنا سيدة على حافة القبر، ولى ابنة واحدة، لا أخ لها شقيق. ولا أريد أن يرثنى أحد غير ابنتى، لا أريد أن يشترك "الحاج سلطان" فى ميراثى، ليؤول هذا الميراث من بعده إلى رعاع البلد. بنتى أولى بهذا الميراث.

قال فى استهتار :

ـ ولماذا كل هذا يا "حاجة"؟.. علام تخافين؟ على العزبة؟

قالت فى شدة :

ـ استح يا ولد..أنت شيخ خفر على الآخرين، أما أنا فلا. ألا تعرف من أنا يا "أبو سريع"؟

قال "أبو سريع" فى تهكم :

ـ بضعة قراريط عمياء، تخافين عليها هذا الخوف. ماذا لو كانت عزبة كبيرة ...

ولم تدعه يتم فقالت تقاطعه :

ـ هذه القراريط العمياء، لها فضل عليك. لحم أكتافك هذه منها يا جاحد. لولا هذه القراريط العمياء، ما تزوجنى "الحاج سلطان" إنها جرن البلد يا ولد.

وأكثر من نصف البلد يحتاج إليه ويستأجره أغلب شهور السنة، وتنال أنت من خيره الشىء الكثير.

قال لها :

ـ وماذا تريدين أن تفعلى بها؟

قالت :

ـ بنتى أحق بها. والله البنات الأخريات لهن أشقاء. أما "درة زمانها" فليس لها أخ واحد شقيق.حرام عليكم.

قال فى استفزاز :

ـ ليأخذه "عباس"...ليبتلعه ليشترى منه المكيفات التى تعدل مزاجه.

قالت فى حدة :

ـ وما دخلك أنت؟ "عباس" زوجها، وهو الذى سيتكفل بها بعد موتى.

هل ستسأل عنها أنت؟ هل ستنفعها؟

قال فى خبث :

ـ لو أنه "الشيخ عبد الباقى" لقلنا رجل له تجاربه، ويستطيع أن يدير الجرن بمقدرة...

وقاطعته "الحاجة زهرة" وهى تقول له :

ـ "الشيخ عبد الباقى" لا يحب سهر الليالى فى الجرن "يا أبو سريع" لأن ليالى "القمر" تضره ! صحيح إنه يحب "القمر" ولكن "القمر لا يحبه" !

وعاد "أبو سريع" يبلع ريقه، بعد أن أيقن أن "الحاجة زهرة" تعرف حكايته تماماً، وتدرك سره الذى يخفيه عن الناس جميعاً، وأخذ يبتعد عنها حتى لا يطول هذا الموقف الحرج الكريه.

وخاف "أبو سريع" أن يكون الشيخ الدجال، قد حكى هذه الحكاية لحماته.

وعاد يذكر كلماته، محاولاً أن يستعيد كل لفظ من ألفاظها، ليرى إن كانت قد قالت له شيئاً يشتم منه أنها تعرف عن قصته هذه شيئاً.

وسكت قليلا وهو يحاول أن يتذكر، لكنه لم يتذكر أنها قالت له شيئاً ما، يدل على أنها تعرف هذه القصة، وتدرك هذا السر.

على أنه ارتعد وهو يتخيل أن "ست الناس" قد تكون على علم بشيء من هذا وعندئذ سأل أسئله مختلفة :

- لكن كيف يتأتى "لست الناس" أن تعرف؟ إن الشيخ "أبو طاقية" لم يتطوع بأن يخبره شيئاً عن "الحاجة زهرة"، أو عن حماته، إلا عندما ذهب إليه هو بقدميه، يطلب منه أن يقضى له حاجته مع "الست قمر" ! أتراها هى الأخرى "ست الناس" قد ذهبت إليه لحاجة فى ضميرها، طالبة إليه أن يحققها لها؟ وماذا هذه الحاجة؟ إن ذلك لشىء فظيع...فظيع...حتى "ست الناس".."ست الناس" لها سر تخفيه، وتذهب إلى "الشيخ أبو طاقية" لييسر لها أمورها...

وألحت عليه فكرة عاصفة :

- ومن هو...من يكون؟ بل من أكون أنا، إذا كانت "ست الناس" زوجتى، تعبث بى، أنا "أبو سريع" شيخ الخفر، وسبع الليالى جميعاً. وصاحب المغامرات مع كل من أهوى من النساء، باستثناء "الست قمر" التى تمنعت على، لسبب ربما لا أدريه.

وكاد يصيح بغير أن يدرى :

- يا نهار أسود...إنها طامة. طامة كبرى.

وفى هذه اللحظة دخلت زوجته "ست الناس".

وبادرها قائلاً، وهو يرفع كفه فى وجهها :

- ماذا أتى بك؟ لقد هرب الذى أتيت تبحثين عنه !

وفوجئت "ست الناس" مفاجأة أفقدتها صوابها، فصاحت بدورها :

- لابد أنك أهنته. أخفته. أنت وحش. أنت مجرم.

قال لها، وقد أخذ الشرر يتطاير من عينيه :

- وأنت نادمة على هربه، خائفة عليه. وتلومينني أيضاً، لأنى سبب هربه.. يا فاجرة !

قالت وهى تضرب صدرها بكفها ضربة ندم وأسى :

- الله يجازيك يا شيخ. رجل مسكين فقير، لا يخالف لى رغبة.

قال، وقد هم أن يفتك بها. وهو يرى أمام عينيه شياطين الدنيا تتراقص بين جفنيه، وشرفه ينهار ملوثاً يقطر بالدم والعار :

- وتدافعين عنه يا مجرمة يا فاجرة ! تتحمسين له هذه الحماسة، حتى لكأنه...

وتقاطعه وهى تصيح فيه بأعلى صوتها :

- وكيف لا أدافع عنه، ولا أتحمس له. إنه هو الذى ينفعنى، ويضع نفسه فى خدمتى. أنت تخرج نهارك ولياليك، ولا أعرف عنك شيئاً. والبيت له مطالب وله احتياجات، ولولاه ما كنت أدرى ماذا أفعل بأولادك، ولا ببيتك.

وجن "أبو سريع"، وكاد يلطم خديه، وأخذ يردد فى غير وعى :

- ينفعها..يضع نفسه فى خدمتها. وأنا دائماً خارج البيت. وهو الذى كان يحل محلى فى البيت !..يا خيبتك "يا أبو سريع" يا مخدوع !

وأخذت "ست الناس" تدير عينيها فى الرجل المجنون الذى أخذ يخاطبها بهذه اللهجة الغريبة..ولكنها كانت منفعلة أشد الانفعال، وهى تتصور أنها لن تراه بعد الآن. إنه يقول عنه إنه هرب..ذهب..لن يعود. كيف تستطيع أن تستغنى عنه، وهو الذى يملأ عليها بيتها، ويؤدى لها مطالب البيت..ومطالبها.

وتقف عند مطالبها هذه، وتغمض عينيها فى شىء من الحنين، وهى تقول لنفسها :

ـ كان رقيقاً حنوناً...كان مطيعاً..كان سريع التلبية لما أطلبه منه...لطالما عوضني عن وحشية الوحش، وقسوته وجبروته، بكلامه الرطب، ومناجاته، وحديثه عن جمالي وفتنتي.

وعندما كان يمسك كفي بين يديه المعرقتين، كنت أحس أنه يضع قلبه في كفيه.

وعندما كنت ألقي برأسي على كتفه، كنت أشعر برغبته الصادقة في.

وعندما كان يحتويني، بكل كياني، بين ذراعيه، كنت أتصور الدنيا كلها قد دنت لي، وأصبحت ملك يدي.

وكنت أذكر عند ذاك كيف أن "أبو سريع" مختلف عنه تماماً.

لم أكن أهمه في قليل أو كثير. كل مطالبه أوامر. حتى العطف بالأمر، حتى الحنان بالسلاح. شيخ خفر، حتى وهو معي. والدنيا ظلام، والأولاد في سبات عميق.

ليس له صبر على نجوى، أو غزل أو دعابة...

إنه اعتاد على أن يحدد رغباته، ويحدد لهذه الرغبات أوقاتها، ولا يسمح أبداً

بأن تتجاوز رغبة من هذه الرغبات، الوقت المحدد لها، فإذا ما حقق رغبته، غسل منها يديه، وانصرف يبحث عن رغبة جديدة، في زمن محدود.

وأخذت نفساً طويلاً وهي تقول له :

ـ ماذا فعل بك. إن "مدبولي" رجل طيب ومسكين.

وصحا شيخ الخفر من خيالاته، ومن تصوراته، وكانت النقلة بعيدة جداً، فنظر إليها وهو غير مصدق لما يسمع، ثم قال :

ـ عمن تتحدثين؟

ـ عن "مدبولي"، الخفير الذي وضعته في حراستنا وخدمتنا.

- "مدبولى" !! أنا أتحدث عن "الشيخ أبو طاقية".

- "الشيخ أبو طاقية". وما شأنى أنا به؟

- ألم تكونى تتحدثين عنه؟

- لم يخطر لى ببال..وهل لى ضرة أنا أيضاً، حتى أبحث عن المشايخ والدجالين؟ لقد كانت صلته بأمى، وقد ضحك عليها وانتهى الأمر، والحمد لله على أنه هرب بجلده.

- إذن لم تكونى تزورينه.

- أزوره...أزور هذا المسيخ الدجال !

- ولم يكن يزورك؟

- يا رجل اعقل. الشيخ "أبو طاقية". لماذا يزورنى؟ ليعمل لى حجاباً ! ليتلو لى الدعوات ! أنا لست محتاجة إلى أحجبته، ولا إلى دعواته، وكل ما أحتاج إليه فى يدى...رجلى، ورجل الرجال..شيخ الخفر !

- سامحك الله. ولماذا لم تقولى هذا منذ سألتك؟

- سألتنى عمن؟ أنا ظننت فعلا أن "مدبولى" هرب، وأنك فعلت له شيئاً فخاف منك، فآثر أن يختفى من طريقك.

- "مدبولى" أنا الذى وضعته خفيراً. أنا الذى عينته، ليكون فى خدمتك وخدمة الأولاد. إنه محسوب من محاسيبى، ورجل من رجالى فكيف تظنين هذا؟!

وضحك "أبو سريع" من زناد بندقيته، فخرجت ضحكاته، كالطلقات.

وأخذ يسخر من "مدبولى" وشكله التعس، سخرية لاذعة، فيصفه أوصافاً تثير ضحكاته هو، ولا تضحك لها "ست الناس"، وإن لم تستطع أن تعترض عليها.

ثم قال "أبو سريع" :

- وأين هو الآن...هذا الخنزير؟

قالت "ست الناس" :

ـ لا أدرى. لكن لعله قد وصل الآن إلى البيت، ليكون فى خدمة الأولاد.

قال وهو يضحك :

ـ على الله يستطيع أن يرضعهم ! إنه لا يصلح إلا لما تصلح له النساء، حتى كلامه المائع، يذكرنى بأصوات النساء.

ولم تقل "ست الناس" شيئاً، واكتفت بما تردد فى خاطرها من أن "أبو سريع" يلقى كلاماً على عواهنه، فهو يحكم على "مدبولى" أحكامه هو، ولو أنه منصف لترك لها هى هذا الحكم فإنها لتعرف أنه رجل...بل أكثر رجولة من "أبو سريع" !

وخرج "أبو سريع" وهو يضحك ملء شدقيه، فقد ذهب عنه الوسواس الذى صور له أحلك التصورات.

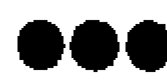
ولم يعد يفكر فى الشيخ "أبو طاقية" ولا فى أن امرأته كانت تذهب إليه لأمر يخافه ويهز رجولته أمام نفسه وأمام الناس.

ولم يعد كذلك يفكر فى أنها ربما وقفت على سره من الشيخ الدجال، الذى أباح للسانه أن يردد الأسرار الخفية، بلا تحفظ، وبلا حساب.

إذن هى لا تدرى شيئاً عن هواه، ولا عن الليالى الطوال التى يسهرها تحت ضوء القمر، شارداً فى "قمر" ! فى ذراعيها العاريتين، تترجرجان تحت وهج الشمس. فى شعرها الفاحم يتدلى على جبهتها فى فتنة وإغراء. فى بياض بشرتها كاللبن الحليب. فى ابتساماتها كإشراق صباح فى فصل الربيع. فى مشيتها. فى صخبها، فى شفاه تفوح منها رائحة الورد. فى جسم بض مثير. فى اللهب الذى يحرق قلبه. فى الأمنية التى تؤرق منامه. فى اليوم الموعود الذى يتمنى ألا يموت قبل أن يراه.

وسره أنها لا تدرى.

وغادر المنزل وقد افتر ثغره عن ابتسامة رضى وأمل.



وعندما خرج "أبو سريع" التقت "ست الناس" بأختها الكبرى "درة زمانها". إنهما ليستا شقيقتين، وكل منهما رضعت من ثدى. ولكنهما كانتا أول بنتين، شبتا فى هذا البيت، ولعبتا فى أرجائه، فنشأت بينهما صداقة خاصة، فيهما كثير من الثقة والصفاء.

وحينما ولدت "ست الناس" فرحت بها "درة زمانها" فرحاً شديداً، فقد كانت وحيدة فى هذا البيت الواسع، ولم تجد من أمها ما ينفرها منها، فقد كانت "الحاجة زهرة" تعذر زوجها وترثى له، لأنها لم تستطع أن تعطيه أولاداً ذكوراً، يعتز بهم ويسند ظهره إليهم. بل كانت هى التى شجعته على الزواج، فقد تعوضه الزوجة الجديدة ما لم تستطع أن توفره هى له.

ولم تكن علاقة الضرتين الأوليين سيئة بشكل عام.

كذلك لم تكن علاقة الأختين مشوبة بكراهية أو حقد، إلا فى النادر من الأحيان.

وعندما تزوجت "درة زمانها" "عباس" فرحت لها "ست الناس" فرحاً شديداً، وأطلقت الزغاريد، تملأ جو القرية بالسرور.

كذلك عندما تزوجت "ست الناس"، "أبو سريع". فرحت "درة زمانها" وردت لها الجميل مضاعفاً.

وظلت الأختان صديقتين بعد الزواج.. سر كل منهما فى قلب الأخرى مصون.

وعندما التقتا فى فناء الدار، بعد خروج "أبو سريع"، قالت "درة زمانها" :

ـ ماذا كان يقول لك هذا المجنون؟

وردت "ست الناس"، وهى تتلفت حولها حتى لا يسمعها أحد :

ـ هل سمعت شيئاً مما قال؟ إنه فقد عقله. كان يظن أن قد كان بينى وبين الشيخ "أبو طاقية" شىء !

ـ مساكين هؤلاء الرجال. ومغرورون.

وعادت "ست الناس" تتلفت حولها وهى تضيف :

ـ ومخدوعون !!

وضحكت الأختان، ثم استأنفت "ست الناس" الحديث :

ـ والله لقد ظننت أنه يتحدث عن "مدبولى"، وأن المسكين هو الذى هرب.

قالت "درة زمانها" فى خبث :

ـ وهرب قلبك، عندما علمت أنه هرب !

قالت "ست الناس" فى مكر :

ـ كما يقولون لك إن "عبد الستار" قد هرب...

قالت وهى تتنهد :

ـ "عبد الستار" ! يا خيبتى ! لقد هرب وانتهى منذ ذهب إلى مصر. الله يخرب بيت الخواجه، هو الذى أرسله إلى هناك يعمل فى حراسة مصنع أحد أقاربه الخواجات.

قالت "ست الناس" :

ـ ويكسب كثيراً من النقود. إنهم يقولون إنه يأخذ ستة جنيهات فى الشهر، غير أكله وشربه وسكنه.

قالت "درة زمانها" فى حسرة :

ـ وغير ما يجده هناك من سيدات خواجات ! الله يخرب بيتك يا خواجه ! كان يوماً أغبر، يوم اختاره لهذا العمل.

ـ ولكنه يأتيك بين الحين والحين. فى الأعياد والمواسم، وكثيراً ما يقضى فى البلد بضعة أيام.

ـ ولكنه لم يعد يلتفت إلى. تصورى يا أختى. أنا التى خدمته، أيام أن كان يعيش معنا، بعد موت أمه وزواج أبيه. لم تطقه زوجة أبيه، فجاءنا وفى عينيه الدموع، وأوصانى

"عباس" زوجى به خيراً، فهو ابن عمه، وكما قال لى أخوه وقد كنت أخدمه أكثر مما أخدم "عباس" زوجى.

- طبعاً...كما كان يخدمك هو الآخر.

لا تذكرينى بالذى مضى...ولكن الخواجه، الله يخرب بيته، رآه قوياً شديداً جميلاً، فأخذه منى، وارسله على مصر.

- ولكنه يحضر البلد...لمن يحضر؟ لك يا مغفلة !

- لو أنه يحضر من أجلى، ولى، لما كان يتجاهلنى كما يفعل فى أغلب الأحيان. وليست له فى ذلك حجة، إلا أنه يخاف أن يعرف أمرنا أحد. إنه يقول إنه يحب ابن عمه "عباس" ولا يريد أن يفقده، لو علم بما بيننا. لم يكن يقول لى هذا من قبل. ألم يكن "عباس" ابن عمه من قبل؟ ألم يكن يحبه من قبل؟ ولكنها حجة يرددها ليتخلص لا أكثر !

- ولكنه لا يستغنى عنك أبداً...ربما كان صادقاً فيما يقول.

- إنه لا يستغنى عنى طبعاً. ولكن ليس بالقدر الذى كان من قبل.

- وأين يجد مثلك يا أختى؟ إنه لن يجد مثلك أبداً.

- الستات الخواجات يا "ست الناس". إنه يحكى لى أن حجرته فى حديقة واسعة، بعيدة عن العيون والأنظار، ويخطىء أحياناً فيحكى لى أن زوجة الخواجه صاحب المصنع تعزه كثيراً، كذلك صديقاتها وقريباتها، وأن بنات الخواجه لا يجدن مكاناً يلعبن فيه إلا امام حجرته. وأنا أعرف "عبد الستار"وعينة الزائغة.

ثم هو كما تعرفين جميل وفيه إغراء الرجال. هل تظنين أنه لا ينتهز الفرص لاقتناص من يستطيع من هؤلاء السيدات والبنات؟ وهن لا يهمهن الشرف، ولا العرض، وأزواجهن يتركن لهن الحبل على الغارب، فيعملن كل شىء يردن.

- لا تصدقى يا "درة زمانها". وهل أصبحت الدنيا فوضى بهذا الشكل؟

- إنهن خواجات يا مغفلة !

- وهل لأنهن خواجات يصبحن طليقات من كل شئ؟ لا لا. المسألة ليست مسألة خواجات أو غير خواجات.

- إن لهن الحرية المطلقة فى أن يفعلن ما يشأن.

- حتى هذا ليس دليلا على شئ. ها نحن أولاء. لا تتضايقى من كلامى، فأنا أقوله على نفسى قبل أن أقوله عليك. أية حرية لنا هنا؟ ألا ترين "أبو سريع" وكيف كان على وشك أن يأكلنى أكلاً لمجرد ظنه أن بينى وبين "الشيخ أبو طاقية" شئ؟ ومع هذا فنحن برغم هذا السجن الذى نعيش فيه- لنا طريقتنا فى الوصول إلى ما نريد.

- لكننا لسنا مطلقات من كل قيد كالخواجات.

- لكنا مع هذا...

وقاطعتها "درة زمانها" مستنكرة لما تقول :

- لكن فى الستر..ربنا أمر بالستر.

- فى الستر أو فى غير الستر...ما النتيجة؟..

- يا بنت عيب...نحن شئ آخر.

- صحيح. لكن لا تخافى من وجوده هناك. لن ينساك. إنه لا يحضر البلد إلا من أجلك. ومَن مِن الستات الخواجات تصل إلى مكانتك فى قلب "عبد الستار"؟

القلب له واحد. واحد فقط يا أختى.

- والله أنا قلبى مملوء بالهم "يا ست الناس".

- وهذا جماله...النار فى الحب، تدفئ القلب.

- طبعاً أنت تقولين هذا لأنك لا تشعرين بمثل ما أشعر به.

- أنا ...والله مظلومة. طول النهار والليل أعيش فى رعب. "أبو سريع" ليست له مواعيد، يحضر فجأة ويخرج فجأة. وأنا ألاقى الويل، حتى أدبر وقتاً لا يهبط علينا فيه كالكابوس. ويا ويلى لو شم شيئاً. ويا ويل "مدبولى" هو الآخر. أنت تعرفين "أبو سريع". غير الفضيحة، والمصائب التى تترتب على هذا. أنا يا أختى فى نار مثل نارك. بل ربما كانت نارى أشد. على الأقل أنت عندك "عباس" يحب "عبد الستار" حباً شديداً. ينتظره فى لهفة، وعندما يحضر يتركه فى البيت معك حتى منتصف النهار، ويقول للناس إنه متعب، وإنه مسكين يعمل طول النهار والليل فى حراسة مصنع الخواجه وليس من يعاونه هناك. يجب أن يرتاح، وإذا لم يجد الراحة فى بلده، وبين أهله، فأين يجدها. أليس كذلك؟

- نعم. هذا صحيح.

- وتتعمين أنت كما تشائين ! من مثلك؟ ليتنى مثلك.

- تحسدينني على عدد من الأيام طول السنة؟!

- اليوم منها بسنة يا مغفلة ! أليس هذا أفضل من عمر طويل، فى رعب دائم، وخوف متصل؟! إلى جوار الفراق. الفراق له لذة "يا درة زمانها" لا تعادلها لذة.

- يا خبيثة...

- أنا الخبيثة...يا ليتنى كنت خبيثة مثلك.

وبينما هما ماضيتان فى هذا الحديث الشهى، تتلفت "ست الناس" خلفها، ثم تقطع ما كانتا فيه من الحديث لتقول فجأة :

- اسكتى...ألا تدرين..."السيدة" زوجة أخيك قادمة. إنها ستفضحنا لو سمعت من ذلك شيئاً.

وترد "درة زمانها" فى تهكم :

- اسم النبى حارسها. ترى أولاً ما تعمله هى !

وتقول لها أختها فى همس :

ـ أنت لا تعرفين، على ما يظهر !..

ـ أعرف ماذا؟ هل من جديد؟

ـ تركها...

ـ والله العظيم.

ـ ثلاثة بالله العظيم.

ـ منذ متى؟

ـ منذ أسابيع.

ـ أحسن ! كانت تظن أن أحداً لا يستطيع أن يقاوم نفوذها، لأنها بنت العمدة.

ـ الحب يا أختى لا يعرف عمداً ولا غير عمد. هذا شىء وذلك شىء آخر.

ـ وهى. ماذا فعلت؟

ـ يا حسرة !...تبكى ليلاً ونهاراً، وقد قلبت حياة أخيك شيخ البلد، إلى جحيم، ولها كل يوم طلب، حتى تثيره، فتجد فرصة تبكى فيها وتصرخ كالمجنونة !

ـ و"مرسى" مع من هذه الأيام؟

ـ لم أعلم بعد. ولكنى أسمع أنه دائم الذهاب إلى الساقية كل مساء. ليقابل من؟ لست أدرى بعد. ولكنى سأعرف.

ـ لابد أنه وقع على واحدة من بنات الفلاحين، من مثيلات "تفيدة".

ـ مثل أبيك يا روحى.

ـ أنا لا أعرف كيف خلق الله الرجال ! لابد أنه خلقهم من طينة الكلاب، يحبون العظام أكثر مما يحبون اللحوم.

- يتركون بنات الأصول، ليبحثوا عن قاذورات.

- كالصراصير !

- أو الثعابين !

- مساكين.. ذوقهم غريب، متبطرون. لا يحمدون الله على نعمته !

- عيون فارغة، لا يملؤها إلا الرصاص !

- وريقهم دائماً يسيل على المش !

- ويتركون الفراخ الرومى !

- ولكنى مع هذا سعيدة لأن "مرسى" ترك "السيدة".

- كان أنفها فى السماء.

- طبعاً زوجة شيخ البلد، وبنت العمدة، وقد وقع فى غرامها أجمل فتيان الأعيان.

- والله أنا لا أطيق النظر إليه.

- لأنك لا تستطعين الوصول إليه.

- أبداً والله إن دمه ثقيل جداً.

- لا لا. حرام عليك. هو جميل جميل !

- لكل واحدة ذوق.

- إن له نظرات كالسهام. ومشيته كالطاووس...و...

- الله الله. شيئاً من الاتزان. يظهر أنك بدورك وقعت فى هواه.

- أقول الحق...يا ليت !

وضحكتا وهما تحاولان تغيير الحديث، فقد كانت "الست السيدة" قد وصلت إليهما، فأخذ ثلاثتهن يتبادلن بعض الأحاديث عن " الشيخ أبو طاقية" والفصل البارد الذى مثله فى بلدهم، وكيف خدع الناس جميعاً، عن حقيقته.

وقالت كل منهن جملة فى حق الشيخ، ولم تذكر واحدة منهن كلمة عن سلفه الذى مات فى الحجاز، "الشيخ مرزوق".

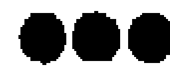
وأكدت الست "السيدة" أن والدها العمدة فى غاية الضيق، وأنه عاتب "الشيخ سيد" على اختياره له عتاباً شديداً، وأنه لن يسمح لدجال آخر، أن يدخل بلدنا بعد ذلك.

وسألتها الأختان عن مصير الجامع، ومن الذى سيتولاه، فأجابت بأنها لا تعرف، ولكنها واثقة من أن أباها سيجد حلاً موفقاً، فإن عقله كبير، وهو أدرى بمصلحة البلد من سواه. إنه عمدة البلد، وسيتصرف بما فيه مصلحتها من غير شك.

وانضمت إلى النساء بعض الخادمات، وتبادل جمعهن أحاديث شتى، كان أساسها هذا الرجل الذى جاء البلد، وضحك على ذقون رجالها جميعاً.

وترددت عن الرجل الدجال روايات شتى، وأخذت كل خادمة من الخادمات تقص عنه قصة تؤكد أنها لم ترتح يوماً لا لشكله، ولا لتصرفاته.

والسيدات، بنات الأصول يسمعن فى عجب، ويتساءلن كيف استطاع هذا الرجل أن يقلب حياة القرية بهذا الشكل الغريب.



ويمضى "أبو المكارم" يتأمل الدوامة التى أمام عينيه، وهو يرى فى كل قطرة ماء من قطراتها واحداً أو واحدة، من أهل القرية، التى تحولت بدورها إلى دوامة قطراتها رجال ونساء.

وتطفر من عينيه دمعة، وهو يذكر ذلك اليوم الذى وصل فيه جنون "الست نبوية" أقصاه، فقد اعتدت على "تفيدة" بالضرب. ضربتها هذه المجرمة، بيديها ورجليها، وأخذت تدفعها بركبتيها. فارتمت المسكينة على الأرض فاقدة الوعى.

وكان صوت "الست نبوية" لا يسكت عن أن يردد وهى تضربها :

ـ أنت سعيدة بما فى بطنك. أنا سأقتله لك بيدى. لن يكون لك خلف يصبح أخاً أو أختاً لأولادى. أبداً سأقتله..وسأقتلك معه، ولن يخيفنى "الحاج سلطان" ولو فتح فمه،

فويل له هو الآخر.

وكان هو واقفاً فى ذلك اليوم. وشهد كل شىء من أوله.

لم تفعل الفتاة شيئاً. لم تخرج على حدود العبد مع سيده. كانت خارجة من حجرتها، لقضاء بعض أمرها، فإذا "الست نبوية" تقابلها فى الفناء وتقول لها بلا مقدمات:

- اسمعى يا بنت. مستحيل يكون لك خلف، ليصبح فرداً من أفراد هذه العائلة. ألا تعرفين ما معنى ذلك؟

ولم تجب...لم تنطق بحرف.

واستمرت "الست نبوية" تهدر كالموج فى اندفاع :

- لن نسمح لك بأن تلوثى هذا البيت بأن يكون من أفراده فرد أمه أنت. هل تفهمين ما أقول؟ إن رءوسنا جميعاً ستصبح فى التراب. أولادى لن يسمحوا بهذا وإذا سمحوا فلن أسمح لك أنا بهذا. كفى أننا قلبناك محظية للرجل العجوز. شيئاً يفتح شهيته. وقلنا خادمة تخدمه فى شيخوخته. أما أن تحملى، وتصبحى أماً لفرد يصبح واحداً من هذه العائلة، فهذا مستحيل.

وقالت البنت فى استسلام.

- وماذا أفعل؟ هذه حكمة ربنا.

قالت :

- أنت أيضاً تعرفين حكمة ربنا ! أنت تردين على يا بنت؟

وعادت فصمتت، وأطرقت رأسها إلى الأرض، ولم تفتح فمها.

واستأنفت "الست نبوية" الكلام، فقالت :

- أنا سأحضر لك الداية لتخلصنا من العار الذى يهدد كيان عائلتنا.

وإياك أن تفتحى فمك بشىء من هذا "للحاج سلطان". فاهمة؟ إذا قلت له شيئاً، فسأعرف، ويومها سيكون مصيرك أسود، بل أشد سواداً من الليل الحالك.

وارتعدت "تفيدة" وهى تسمع هذا، وقالت فى تلعثم :

- وماذا تصنع بى الداية؟

قالت "الست نبوية" :

- لها هى طريقتها. هل أنت أول واحدة تعمل لها هذا؟ سأجعلها تحكى لك كم فعلت هذا لبنات أمثالك، ممن يرتمين تحت أرجل الأعيان، فيحملن منهم، ثم يلجأن إليها، ليتخلصن من الجنين. الداية تتولى هذا. بل تعيدهن عذارى كما كن، ليجدن الذين يتزوجونهن...من أمثالهن. من طبقتهن. من التملية أو الفلاحين المغفلين.

قالت "تفيدة" :

- ولكنى لم أفعل شيئاً حراماً.

قالت فى صياح :

- هل ما تفعلينه هذا حلال؟ ما فرق ما أنت فيه، مما يحدث لمثيلاتك؟ إنه هو نفسه. أتظنين أنك زوجة "الحاج سلطان" بحق؟ إنك جارية من جواريه، كاللواتى كن يبعن فيما مضى بالمال. الجوارى أيضاً كن يفعلن هذا. كان أسيادهن يمنحونهن أولاداً...ونحن لا نريد ابنا من أبنائنا من جارية. بل أنت أقل من الجارية. الجوارى كن من بيوت، وربما يكون التجار قد خطفوهن فى غفلة من أهلهن. أما أنت فنحن نعرف من أنت.

ولم تعرف "تفيدة" بم تجيب، ولا كيف تجيب.

وبعد لحظة صمت رهيبة قالت لها :

- والنبى يا سيدتى أنا خائفة. أنا خائفة.

قالت فى تهكم لاذع :

- أنت خائفة. اسم الله عليك يا روحى. خائفة مم؟ خائفة علام؟ خائفة من شىء يؤلمك؟ لا يا بنت لن يكون أكثر ألماً من حياة الخص. خائفة على عمرك؟ وماذا يساوى عمرك أمام العار الذى ستسببينه لنا جميعاً؟

وبكت "تفيدة"، وأخذت تستعطفها ألا تفعل، فإنها خائفة.

ولم تستطع "الست نبوية" أن تتحكم فى أعصابها، ولا أن يرق قلبها لدموعها، فهوت عليها تضربها بيديها ورجليها، وركبتيها جميعاً.

وانخلع قلب "أبو المكارم" من مكانه، وهو يرى حبه، وقلبه، وهواه، أصبح لعبة فى رجل سيدة بلغت بها الوحشية هذا الحد المخيف.

وتقدم يحاول أن يحميها منها، وناله ما ناله من الضرب، ولكنه لم يستطع أن يخلصها من يديها.

لولا أن "الست قمر" سمعت الصياح والعويل، فخرجت لترى ماذا هناك، فلما رأت هذا المنظر الوحشى القبيح، اقتحمت الجمع، وعرفت كيف تخلص البنت المسكينة من بين يدى المرأة التى فقدت عقلها.

لولا هذا، لما استطاع أحد أن يفعل معها شيئاً.

ومن يومها و "تفيدة" لا تغادر حجرتها أبداً.

بل إنها لتغلقها عليها إغلاقاً محكماً، حتى لا تقتحمها "الست نبوية". ولا تفتح لأحد بابها، إلا بعد أن تتأكد أنه زوجها العجوز، أقبل عليها مع الظلام. أو "أبو المكارم" أقبل إليها بحنانه، وحنان أمها وأبيها وأختها جميعاً. أو "الست قمر" أقبلت عليها بالحماية والرعاية والإيناس.

ولم يشأ "أبو المكارم" أن يحكى هذه القصة "لأم الهنا" ولا "لأبو عوف" فقد أدرك مدى ما قد تصيبهما به من ذعر وقلق.

ولما تردد نبأ ذلك بين أهل القرية، ووصل على سمع "أم الهنا" سألت عنه "أبو المكارم" فتعامل معها كأخرس، لا يفهم مما تستفسر عنه شيئاً، ولا يجيب على ما تسأل عنه بشىء.

ورجحت "أم الهنا" أن النساء يشعن هذه الشائعات لإثارتها، ولو أنهاحقيقة، لرواها لها "أبو المكارم" مع ما يرويه لها من التفصيلات، فإنها لم تعهده يكتم عنها شيئاً أبداً.

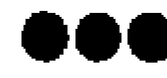
على أن حياة "تفيدة" بعد ذلك لم تتجاوز الظلام الذى تعيش فيه، فى حجرة مغلقة كالسجن. وفى الظلام تكثر الأشباح، وتتراقص الشياطين، فإن نامت، فرؤاها كلها امرأة مجنونة تمسك بتلابيبها، وتمزق جلدها بأظافرها، وتنهش لحمها بأنيابها، وتكاد أن تقتلها وتقتل الجنين المستكين فى بطنها بركبتيها !

ولولا ما أخذ "أبو المكارم" يبديه نحوها من إشفاق وحنو.

ولولا ما أخذت "الست قمر" تظهره لها من مودة وعطف.

ولولا ما بدأت تشعر به من أمومة ...لولا الشعور الرطب البديع الذى يتولد فى قلب الأم، مع أولى لحظات الجنين فى بطنها.

لولا هذا، لقضى عليها الظلم والظلمة والظلام، والخوف والقلق والفزع.



ويقول "أبو المكارم" لنفسه :

ـ ترى هل بدأت "تفيدة" تحب؟..إنى أغار من عاطفتها هذه المبهمة الغامضة. إنى أغار من جنينها. أيكون ولداً أم فتاة يا ترى؟

ولكنك "يا أبو المكارم" تسرف فى شعورك. ماذا تنتظر من أم، بدأت تحس حركة فى أحشائها؟ جنيناً يتحرك قريباً من قلبها؟ ماذا تنتظر من فتاة صغيرة، بدأت خيالاتها تتجه نحو المستقبل، فيبدو لها هذا المستقبل مشحوناً بما فى خيالاتها عن الطفل الجديد القادم إليها. شكله، طوله، ابتسامته، مداعباته، طباعه، طبيعته. كل ذلك يتراءى لها، وهو يتقلب بين ضلوعها. إن "تفيدة" التى حكم عليها بهذا الذل وهذا الهوان تنتظر من غير شك أول طفل تضعه، لا يهمها ممن. من "الحاج سلطان" أم منك أنت يا "أبو المكارم".

وأخذ يحك أنفه كأنما ارتكب إثماً ! ثم عاد يصحح نفسه، ويكفر عن ذنبه :

ما كان يجدر بك يا ولد، أن تفكر فى هذا. إنها تحبك بلا شك، ولكن هذه ليس مبرراً أبداً. لأن تربط بين هذا الحب، وطفولة طفل لا يزال فى ضمير الغيب. إن حبك لها

وحبها لك، يجب أن يتجرد عن هذه المعانى، خاصة أنها قد تزوجت وحشاً. هذا صحيح. تزوجت بلا إرادة. هذا صحيح. خطفوها قوة واقتداراً. هذا صحيح. ولكنه صحيح كذلك أنها الآن فى عنق رجل سواك، وفى ذمة رجل آخر وأنت وهى، وأهلها، ونصف البلد، تعيش من هذا الرجل، لا يجوز بعد هذا أن تعود تفكر فى هذا الربط بين الطفل وبينك، أو تعقد مقارنة بين "الحاج سلطان" وبينك.

ثم يقول لنفسه، بينه وبين نفسه :

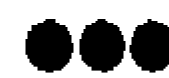
إنك قليل الأدب يا "أبو المكارم". أنت تتجاوز حدودك. من تكون أنت، ومن يكون "الحاج سلطان"؟!

على أنه عاد يشرد فى حبيبته..ويقول فى نفسه :

أما أنها حبيبتى، فلا ضير فى ذلك، ولا عيب فيه كذلك، طالما أنه حب صادق وعميق، وبعيد عن أى شىء...فى هذا هى حبيبتى، وأنا حبيبها. ولكنها مشغولة اليوم شيئاً ما عنى بجنينها !

إنها تنتظر هذا الجنين، ليعوضها عما هى فيه من ذل وتعاسة. وهى فى الوقت نفسه تشفق عليه بين هذه العصابة من المتربصين لها، بزعامه السيدة التى طاش صوابها : "الست نبوية".

وعندما يصل "أبو المكارم" إلى هذا الحد من التفكير فى الأم والأمومة، يجد نفسه قد وقف فجأة ليذكر أمه، فيبكى، لكنه سرعان ما يحاول أن يسلى نفسه فى تفكير آخر، فيستعيد ما سمعه عن حكاية "الزار".



ما هذا الزار الذى يتحدثون عنه؟

ماذا يكون الزار هذا؟!

لقد سمع "الست قمر". إنها سيدة طيبة جداً ولا بد أنها من أصل طيب فعلاً، تصور "يا أبو المكارم" أنها رغم ما نالته من "الست نبوية"، وما لقيته على يديها من طعنات سافرة ومستترة، ولولا أنها امرأة قوية لا تبالى بشىء، لنالت منها فوق ذلك كثيراً، ولجعلت منها مثلما جعلت من "تفيدة".

تصور أنها بدأت ترثى لها عندما وصل بها الجنون هذا المبلغ، وأخذت تعتدى بالضرب على "تفيدة" وعلى "ست الناس" كلما عارضتها، وتشتم أولادها الذكور، وهم رجال متزوجون ولهم عيال. ولما رأتها على هذه الصورة، بدأت تحاول أن تجد حلاً لمشكلاتها. ونادت "أبو سريع" وقالت له إن حماتك تحتاج إلى علاج...قال لها وهل للجنون علاج يا "ست قمر"؟ قالت له : أرسلوها إلى طبيب، فكانت إجابته : إن هذا معناه الفضيحة والعار. ماذا يقول الطبيب. مجنونة ! لا يا "ست قمر"، واقترحت "الست قمر" أن يأتوا لها بالزار وقالت عن الزار إنه علاج لحالتها. إن "الست قمر" تعتقد أن شيطاناً قد مسها، وأنها واقعة تحت تأثير شيطان عنيد.

ولا يمكن لمثل هذه الحالة أن تعالج إلا بالزار ولم يكن "أبو سريع" يعرف الزار تماماً، فقال لها : إنه سمع عن الزار ولكنه لا يعرف أين يكون، ولا كيف يجىء. ووصفت له مكاناً فى كفر الزيات وأوصته بأن يذهب إلى هذا المكان، ويقابل امرأة سمتها له، ويتفق معها على أن تحضر إلى البلد مرة كل شهر، لإقامة الزار "للست نبوية". وأضافت : إنها حماتك يا "أبو سريع" مثل أمك، ولا يجوز أن تتركوها هكذا...لا يا "أبو سريع" إن الله يحاسبكم على ذلك. ولكن "أبو سريع" لم يستطع أن ينفرد وحده بقرار، فأخبر العمدة بطبيعة الحال، كما أخبر شيخ البلد، وكان "الشيخ سيد" موجوداً.

وفكر العمدة فى حالة أخته، وهو مطرق إلى الأرض.

وفكر شيخ البلد فى حالة أمه، وهو حزين.

وقال "الشيخ سيد" : هذا كفر بالله. هذه خرافات.

وأجاب العمدة : ولم تكن خرافات حكاية الشيخ الدجال الذى أتيت به إلينا "يا شيخ سيد".

ومط "الشيخ سيد" رقبته وهو يقول : والله ليس ذنبى. أنا لم أكن أعرف عنه هذا.

قال العمدة : ولماذا قدمته لنا على أن يؤمنا فى الجامع، ويخطب فينا؟ زميلك فى الدراسة ! ما أحسن ما اخترت ! الله يسامحك.

قال "الشيخ سيد" : ماذا جرى يا عمدة؟ هل فقدت الثقة بى إلى هذا الحد؟

قال العمدة : اقول لك الحق. نعم. ولهذا فأنا أوافق على أن يأتى هذا الزار إلى بلدنا. من يدرى؟ نجرب نصيحة أخرى غير نصائحك يا قاضى القضاة.

واستقر الرأى على أن يأتى الزار.

وذهب "أبو سريع" إلى كفر الزيات، واتفق، وحدد الموعد، دون أن يدرى أحد عن الأمر شيئاً، فقد تكتمه "أبو سريع" تكتماً شديداً.

ويستأنف "أبو المكارم" حديثه مع نفسه وهو يتساءل :

وماذا يكون هذا الزار؟

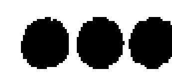
بل كيف يلبس الجن أجسام الناس؟

هل فى جسم "الست نبوية" جنى؟

وهل هذا الجنى، هو الذى يحرك إرادتها، بهذه الصورة العجيبة الطائشة؟

هل هذا الجنى هو الذى ضرب "تفيدة"؟

إن كان هذا حقاً، "فالست نبوية" لا ذنب لها يا "أبو المكارم" ولكن كيف يخرج الزار الجن من الأجسام؟ كيف؟.. هذا شىء عجب.



على أن "أبو المكارم" حافظ على السر، حتى لا يكون هو مصدره، واكتفى بأن طواه فى قلبه، ينتظر اليوم الموعود، ليعرف ماذا يكون الأمر، وماذا تكون النتيجة.

ويستأنف سيره فى اتجاه محطة السكة الحديد، فيمر بحقول خضراء يانعة، وحقول أخرى يابسة وتصادفه هنا نخلة، وهناك جميزة، وبعدها صفصافة، ثم نبت صغير متناثر...

ويضرب الأرض بعصاه مرة، ثم يهوى بها فى الهواء مرة،وهو لا يكف عن تفكيره الحالم.

ويجد نفسه أخيراً عند محطة السكة الحديد، وهناك يلاحظ دكان الخواجه، قائماً حيث هو، فى المكان الذى سمع أنه أقيم فيه، يوم أتى صاحبه أول مرة.

إن موت صاحبه، وتعاقب ورثته على هذا الدكان، لم يغير من الأمر شيئاً.

الدكان حيث هو، والخواجه الجديد الذى ورثه عن آبائه، لا يزال يسكن فى البناء المتصل به. وحول الدكان حديقة صغيرة تناثرت فيها بعض الموائد، وعليها مشروبات ذات ألوان مختلفة.

والخواجه وزوجة الخواجه.يقومان بخدمة الزبائن. إن لهما معاونين ولكنهما هما اللذان يقدمان الخدمة للزوار.

وقد استطاع أجيال الخواجات أن يمتلكوا أرضاً فى هذه الناحية. وهى أرض واسعة وخصبة، وتغل لهم الخير الكثير. واستطاع أجيالهم كذلك أن يتاجروا فى محاصيل القرية، شركاء "للحاج غضبان" وأسرته، حتى لا يفقدوا نفوذ الأعيان.

وأصبح لأجيالهم أموال كثيرة...كثيرة جداً. وبرغم هذا فالخواجه وزوجة الخواجه يخدمون الزبائن بأنفسهما.

ويهز "أبو المكارم" رأسه، وهو يقول :

ـ إما أنك أنت مجنون، أو أن هذا الخواجه هو المجنون. ماذا يدفعه إلى هذا؟!

ولماذا يتمسك حتى بهذا "الدكان"؟ إن له أرضاً وأموالا. لماذا لا يفعل مثلما يفعل السادة فى الريف. ولماذا لا يبنى لنفسه بيتاً كبيراً، يملؤه بالخدم، ويستمتع فيه بالحياة كما يريد؟ لماذا يصحو مع الفجر هو وزوجته، لتعد هى أصناف الخبز الفينو والبسكويت، ويشرف هو على تنظيف الدكان؟ لماذا لا ينام حتى مطلع الشمس سعيداً مرتاحاً.

ألا يرى أعياننا ماذا يفعلون وكيف يعيشون؟ إن الأعيان عندنا شىء آخر.

على أنه يحك قفاه بيده ثم يشد شعره وهو يفكر تفكيراً سريعاً :

ربما كان الخواجه على حق. من يدرى ! ربما كان هو طبعهم فى بلادهم، لا يمنعهم عن العمل، الغنى أو الثراء أو الحماية.

الحماية ! هذا الخواجه مع هذا حماية ! إنه أقوى من ضابط النقطة. يفعل ما يشاء ولا يستطيع رجال البوليس أن يقتربوا منه. إنه حماية..

يحميه الإنجيلز، ومع هذا فهو يخدم بنفسه فى الدكان.

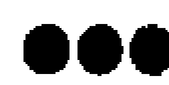
وأطل إلى داخل الدكان، فوجد "الحاج غضبان" وقد جلس إلى مائدة، امتدت عليها أصناف الطعام والشراب وشاركته المائدة زوجة الخواجه نفسه.

وقال فى نفسه :

يانهار أسود..."الحاج غضبان"..هنا ! ما هذه الزجاجة؟ أليست هذه هى الخمر التى يقولون عنها؟ إنه يسكر..ومعه هذه المرأة، مكشوفة الذراعين، وشعرها الأصفر يبدو كالذهب، يتدلى على خديها. إن "الحاج غضبان" يسكر مع الحماية ! ...أترى هو الآخر حماية كالخواجات؟!

وخشى أن يراه "الحاج غضبان"، فعاد أدراجه فى طريقه إلى الساقية.

على أنه أخذ يفكر على عادته. وكانت الدوامة التى أصابت القرية، وقلبت عاليها سافلها وهزت أعماق الناس، لا تزال تسيطر على تفكيره.



إن الفلاحين حزانى على ما وصلت إليه الحال.

فقدوا "الحاج مرزوق" ولم يعرفوا كيف مات، وهم لا يصدقون أنه مات كما يموت سائر الناس، فلا بد أن وراء ذلك سراً.

وصدقوا "الشيخ سيد" عندما أقبل إليهم بشيخ يرعى بيت الله، وإن لم يحبوه، من أول نظرة ألقوها عليه.

ثم ظهر لهم أنه دجال، وأنه نصاب، وأنه ذئب خطير.

شغلته الأحجبة، والسحر، والتفنن فى استحضار الأرواح والشياطين، عن حق الله عليه، فإذا الجامع يصبح خراباً، وإذا هم يحسون الضياع.

فلما فشلت كل محاولاته، ليحمل "الحاج سلطان" على كراهية "تفيدة" فيطلقها، وبدلا من أن تطلق، حملت من "الحاج سلطان" طردوه...وهرب قبل أن يدركوه، وإلا كان مصيره القتل لا محالة.

ولا يزال الجامع خالياً، خاوياً، ينطوع الخيرون برعايته، ويتناوبون السهر عليه.

ويسأل الناس أنفسهم : ولكن إلى متى؟!

ولا يجدون لذلك كله جواباً.

فى المرة الأولى ذهبوا إلى العمدة، فترك الموضوع "للشيخ سيد".

فهل يذهبون هذه المرة للعمدة ثانية؟

ولو أحس العمدة، أنهم بهذا يعيرونه. يذكرونه بالخطأ الذى وقع فيه، فأساء استقبالهم...ماذا يكون الحال؟

ولم يدر الرجال ماذا يفعلون.

ولكنهم استخاروا الله بينهم وبين أنفسهم، فقالوا نسأل "الست أم راضية"، فقد عاشرت "الحاج مرزوق" طول حياته، وقد تكون سمعت منه شهادة خير فى أحد، فيستعينون به.

وذهب جماعة منهم فعلا يسألونها الرأى.

ولم تبخل عليهم بهذا الرأى، كما لم تبخل عليهم ببضع دمعات، أرسلتها حارة على زوجها المرحوم.

قالت "الست أم راضية" :

ـ والله أنا كنت أسمع دائماً الحاج، يمدح فى "مختار" فقد كان ذراعه اليمنى فى الجامع، وفى تحفيظ الأولاد كتاب الله. ولم يقل عنه يوماً كلمة سوء. وقد ظل الولد على عهده، وعلى ولائه للشيخ، فهو لا ينساه أبداً، وهو يحضر إلينا كل يوم تقريباً، يقضى لنا حاجاتنا، كما كان يفعل فى حياة الشيخ.

ونظر الرجال كل منهم للآخر. ومرت لحظات صامته، ثم قال أحدهم :

ـ وهل يوافق العمدة والأعيان على اختياره؟

ورد آخر :

ـ سيقولون لنا وما علمه بالشريعة وكتاب الله، وما درايته بأمور الدنيا والدين؟

وتدخل ثالث :

ـ ولكنه عاشر "الشيخ مرزوق" طول عمره، وشب على يديه، فلماذا لا يتولى هذا بعده؟ ألا بد من أن يأتوا لنا بدجال آخر؟ ألا بد من أن تكون بلدنا موضع تجربة لا تنتهى؟

وبعد أخذ ورد، اتفق الرجال، على أن يتبعوا أسلوباً ليناً مع العمدة والأعيان، وأن يحققوا رغبتهم فى الوقت نفسه، وبغير أن يحس أحد.

قالوا : نأخذها واحدة واحدة..

واتفقوا.

وبدأ "العريف مختار" كما كانوا يسمونه فقد كان عريف الكتاب- يتولى أمور الجامع ويؤم الناس فى الصلاة.

على أنه لم يحاول أن يخطب الجمعة أول الأمر، وإنما ترك هذا الموضوع، لرجال آخرين يتناوبونه فيما بينهم.

وبعد عدة أسابيع، تركوه يخطب الجمعة، وكان قد تعاون عدد من رجال القرية فى تحفيظها له، وتصحيح بعض أخطائها، وأعدوا الخطيب إعداداً خاصاً، يكفل له أن يتولى بعد ذلك أمور الجامع بلا منازع.

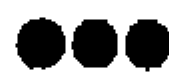
وبات عدد من أهل القرية يعلقون على نجاح "العريف مختار" فى خطبة الجمعة آمالا كباراً. إنه منهم، وهو فضلاً عن هذا من رائحة "الحاج مرزوق".

وإنهم ليتوقون إلى أن يروه شيخاً، وأن ينادوه "بالشيخ مختار"، بدلا من ندائه "بالعريف" فإن هذا النداء يجعله أقرب إلى الفتيان الصغار منه إلى الشيوخ، وهم يريدون أن يشعروا أنه قد كبر وأصبح شيخاً للجامع.

وساد هؤلاء الرجال شعور بأن انتصارهم فى هذا الأمر، انتصار القرية كلها، فإن "مختار" ابن من أبناء القرية، مسكين فقير، نشأ نشأتهم، وتربى تربيتهم، وليس له من يسنده إلا الله.

وإذا كان "الشيخ مرزوق" قد ورث مركزه عن أبيه، وملأ المركز بورعه وتقاه، فإن "مختار" ابن فلاح صغير مسكين، يكدح طول اليوم، ليأكل من أجره آخر اليوم. وسيكون لوجوده فى هذا المكان معنى كبير فى قلوب أبناء القرية جميعاً.

شعور آخر دفين، استقر بين هؤلاء الرجال : إن منصب شيخ الجامع، هو المنصب الوحيد الذى بقى لهم من كل مناصب القرية. هو المنصب الوحيد الذى لا تحيطه الحكومة بجاه أو نفوذ أو سلطان...أو خفر أو بنادق أو دوار. هو المنصب الوحيد المجرد من كل شىء، إلا رضاء الله، جزاء على قيام صاحبه على دين الله. وطالما أنه هو المنصب الوحيد الباقى لهم، فلا أقل من أن يكون الذى يتولاه واحد منهم...من عامتهم، لا حول له ولا قوة، حتى لا يكون بينه وبين الناس حجاب من رهبة أو خوف.



وجاء يوم الجمعة. ومنذ الصباح، والرجال الذين أعدوا الأمر، يمسكون قلوبهم بأيديهم، ويدعون الله أن يستر الموقف، وأن يخرج "العريف مختار" من الامتحان ناجحاً ليصبح شيخاً للجامع وراعياً له.

وأخذوا يقرأون الفاتحة لروح "الحاج مرزوق"، يسألون الله أن يلهم "مختار" التوفيق، إكراماً لذكرى الشيخ الذى انتقل إلى رحمة الله.

وذهبوا فزاروا ضريح "سيدى الذكيرى" وقرأوا الفاتحة، وتوسلوا إلى الله عند الضريح ألا يرتج على "مختار"، وهو فوق المنبر، فسيخر العمدة والأعيان، ويعودون يفكرون فى واحد آخر غريب، يحل محل "الحاج مرزوق". ومن يدرى ! ربما كان هذا الجديد، أسوأ من الشيخ "أبو طاقية".

أما "العريف مختار" فقد انصرف بعد صلاة الفجر، يحفظ الخطبة، أول خطبة يلقيها من فوق هذا المنبر.

وأخذ ينظر إلى المحراب مرة وإلى المنبر مرة أخرى.

وبدا له المنبر عالياً جداً، أعلى كثيراً من المأذنة...حتى لا تصل إليه عيناه.

وأخذ يقول فى نفسه :

وسأصعد هذه الدرجات جميعاً؟ وسأمسك هذا السيف فى يدى وسأجلس جلسه الشيخ رحمة الله، والعيون كلها تتجه نحوى، تتعلق بشفتى.

وكادت أعصابه أن تتمزق. كاد يجرى هرباً من الموقف، وهو يتصور نفسه فوق هذا الكرسى العالى، ومئات من العيون ترقبه، ولا تصدق أن الجالس فوق المنبر، هو الفتى الصغير الحافى الذى طالما ضربه "الحاج مرزوق" بمقرعته، عندما كان يتبين أنه لم يحفظ سورة من سور القرآن الكريم.

وسيكون أبوه بين الذين ينظرون إليه.

وماذا يا ترى سيكون شعور أبيه.

إن أباه فلاح أجير، بسيط، حافى القدمين، رث الثياب، يدخر جلباباً واحداً سليما لمثل هذه المناسبات. لصلاة الجمعة، أو الأعياد، أو الذهاب إلى سرادق عزاء.

وسيكون قلب أبيه بين شفتيه، فإن هو انطلق يخطب الجمعة فى فصاحة، فإن رأس أبيه سيرتفع إلى السماء. والويل له لو خاب. سيبكى أبوه من الخجل، وسيدارى وجهه خزياً. وهو يحب أباه حباً شديداً، فهو وحيده، وقد رهبه للجامع وللقرآن، و"للشيخ مرزوق" رغم أنه كان محتاجاً إليه، ليعمل معه أجيراً مثله، يساعده على توفير الخبز لأمه، وإخواته البنات.

وقال فى نفسه :

إنى لا أريد أن أحطم آمال أبى، فهل يا ترى، أهرب من هذا الموقف، قبل أن أتورط فيه. هل أختفى من القرية كلها؟

وعاد يفكر فى الرجال الذين أخذوا يعدونه أياماً، ويحفظونه الخطبة، ويعلقون عليه الآمال.

واتجه فكره إلى بيت "الحاج مرزوق" شيخه وأستاذه ورائده الروحى.

وهناك وقف عند السمراء الحلوة اليتيمة التى لم يعد لها أهل فى هذا البلد، إلا أمها الأرملة المقعدة، أو كالمقعدة، من المرض والشيخوخة.

وخفق قلبه خفقاً رقيقاً.

لقد رآها طفلة، وراقبها وهى تنمو، وأدرك عنها كل تفصيلات حياتها.

وإنه لمعجب بها، لا تشغل باله فتاه غيرها. فهى تصلى وتصوم، وتكثر من التعبد وقراءة القرآن. وهى صورة مصغرة لأبيها وأمها معاً. فيها حلاوة، وفيها بركة كذلك.

ولكم كان يتمنى فيما بينه وبين نفسه، أن يجد فرصة يطلب فيها يدها من أبيها، ولكنه كان كلما هم بهذا، أشفق على نفسه، وهو لا يجد لقمة العيش إلا بشق النفس، أن

يضيف إلى فمه فماً آخر لابد له أن يأكل، وجسما آخر لابد له أن يكتسى، وقلبا آخر له مطامعه فى بعض ألوان المتعة وراحة البال.

ولم يكن يريد أن يشقيها معه.

ولكنه كان يزداد فيها حباً، كلما رآها، وكان يراها كل يوم، فنما حبه لها يوماً بيوم حتى أصبح جزءاً لا يتجزأ من كيانه.

ولما كاد الكيل أن يطفح، قرر أن يخاطب أباها، وليكن ما يكون.

وكان واثقاً من أن الشيخ يحبه، وأنه لن يرفض له طلباً.

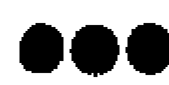
واعترضت رحلة الحجاز طريقه إلى الكلام مع الشيخ، وأجل الأمر حتى يعود، ولكنه لم يعد...حتى جثته دفنت هناك، فى الحجاز كما قال "أبو سريع" فى مدينة رسول الله صلوات الله عليه.

وفى غمرة الحزن والأسى، لم يكن من اللائق أن يفكر "مختار" فى مثل هذه الأمور.

وقال "مختار" لنفسه، وهو يستعرض هذه الذكريات :

و "راضية" !...ماذا يكون شأنها لو علمت بإخفاقى؟ إنى لا أدرى حتى الآن، إن كانت تحبنى كما أحبها، ولكن الذى أعلمه أنها تثق بى، وتقدرنى وتحب لى الخير. ولو أنى أخفقت لكان فى هذا طعنة لها، فإنها ستعود تذكر أباها وتولول عليه. ولو أنى نجحت فى مهمتى فقد يكون فى هذا عزاء لها عن أبيها الذى ذهب ولم يعد.

ثم إن هذا النجاح سيقربنى منها. سيسهل أمر زواجى بها، فإنى سأصبح شيخاً لهذا الجامع، فأحتل مكانة الأب والزوج فى قلبها.



وبعد أن كان "مختار" يرى المنبر عالياً جداً.

وبعد أن كان يذكر ما كان يقوله شيخه له من أن منبر المسجد قد اعتلاه النبى صلى

الله عليه وسلم وخطب من فوقه المسلمين، ثم اعتلاه بعده خلفاؤه الراشدون، وأنه لهذا مكان له من الكرامة كا يجب أن يحرص عليها كل من اعتلاه.

بعد أن كان يرى ما رآه، ويتذكر ما سمعه عن الشيخ، فترتعد للموقف فرائصه، وينتابه خوف وقلق ورهبة.

ذكر "راضية" وحلاوتها الطيبة الزاهدة، وحبه الذى نشأ فى قلبه مع طفولتها، ونما فى شعوره مع نموها، وأصبح اليوم عملاقاً يطرق ايامه ولياله، فاطمأن وتملكته رغبة أكيدة فى أن ينجح، وأن يفرض نفسه على العمدة والأعيان فرضاً.

وذهب إلى ضريح "سيدى الذكيرى" وحده، ووضع يده قريباً من رأسه وأخذ يناجيه وقد أغلق عينيه :

أنت يا "سيدى الذكيرى" صاحب كرامات، ولك عند الله مكانة كبيرة.

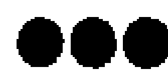
بل أنت بالنسبة لى "سيدى الذكيرى والحاج مرزوق معاً"، فأنا لا أعرف أين استقرت جثة "الحاج مرزوق".

فاشفع لى عند ربك...اشفعا لى عنده معاً، أن يفك عقدة من لسانى، ليفقهوا قولى. لا تخيب أملى، وسأرد جميل "الحاج مرزوق" بأن أتزوج "راضية" وستكون بإذن الله راضية عنى، وعن حياتها معى، لأنى سأكرم الشيخ فيها.

وخيل إليه أنه سمع نداء خافتاً وقوراً يقول له :

توكل على الله. لا تخف من شىء. الله معك.

وصلى ركعتين فى الضريح، ثم عاد إلى المسجد، وهو يحس أن قوة الدنيا كلها قد تجمعت فى لسانه، وبين شفتيه.



وأذن المؤذن للصلاة، ففوجىء الناس "بالعريف مختار" يتقدم فى بطء نحو المنبر ويمسك بيده السيف، ويصعد درجاته واحدة واحدة.

وتطلع العمدة ليرى ما الخبر.

واتسعت حدقتا "الشيخ سيد".

وتبادل العمدة "والشيخ سيد" نظرات صامته.

وبدت على أولاد الأعيان من الشباب السخرية مما يرون.

وخفقت قلوب الرجال، الذين أعدوا العدة لهذا اليوم.

أما أبوه فقد كاد قلبه أن يتوقف عن الحركة، فإنه لم يكن يعلم أو يقدر أن ابنه سيصعد هذا المنبر ذات يوم، إلا لينظفه ويعده لشيخ ستصعد درجاته.

ولكن "العريف مختار" كان بادى الاطمئنان والثقة.

وعاد المؤذن يؤذن الأذان الذى يسبق الخطبة، و "العريف مختار" مسبل عينيه فى تقوى وورع، والعيون كلها متعلقة به، تنتظر ماذا سيقول.

وبعد انتهاء الأذان، وقف الخطيب، فحمد الله وصلى على رسوله، ثم بدأ يخطب خطبة الجمعة، فتلاها فى صوت قوى تقى، لم يتلعثم أو يضطرب أو يتردد. والناس معجبون فخورون، يدعون له بطول العمر.

ولما انتهت الخطبة، أخذ ينزل درجات السلم متئداً مطمئناً، وقد تملكه شعور بالرهبة والثقة معاً. وتوجه نحو المحراب، فأم الناس للصلاة، وكان فى مقدمتهم العمدة و "الشيخ سيد".

ونظر العمدة إلى "الشيخ سيد" وقال :

- والله شيخ بحق. أسمعت؟ أى فرق بين هذا العريف البسيط، وشيخك الذى أتيت لنا به؟!

هذا هو شيخ الجامع : "الشيخ مختار".

ولم يستطع "الشيخ سيد" أن يرد.

ولما انتهت الصلاة، استدار "مختار" فوجد العمدة هاشاً له، فتقدم منه وصافحه.

قال العمدة :

إنى أهنئك بهذا التوفيق. شرفتنا ورفعت رأس بلدنا. من اليوم أنت شيخ الجامع ودعك من كلمة العريف هذه. أنت "الشيخ مختار".

وتحرك "الشيخ سيد" قلقاً فى مكانه. ولكن "الشيخ مختار" تلقى هذه التهنئة سعيداً فرحاً.

وكان كلام العمدة على ملأ من الناس جميعاً، قراراً بتعيينه خلفاً "للحاج مرزوق".

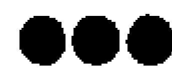
وفرحت القرية بذلك فرحاً شديداً.

وأحست أنها استعادت ثقتها بنفسها.

وأقبل الفلاحون الأجراء على والد الشيخ الجديد، يقبلونه ويضمونه إلى صدورهم مهنئين الرجل، بل مهنئين أنفسهم، بأن واحداً منهم تولى هذا الأمر.

قالوا له :

ـ هذا رضاء كبير من الله عليك. أنت رجل طيب، وهبته لله، فطرح الله عليه بركته. ربنا يزيده نوراً وهدى.



وفى الطريق التفت "الشيخ سيد" إلى العمدة وقال :

ـ ألا ترى أنك تسرعت فى كلامك اليوم مع "مختار" يا عمدة؟

وأجاب العمدة فى حزم :

ـ كفانا منك نصائح وفتاوى يا حضرة القاضى ...إنه أحسن ألف مرة من النصاب الدجال الذى أتيت لنا به.

ولم يستطع "الشيخ سيد" أن يجيب.

وأصبح "العريف مختار"،"الشيخ مختار"، شيخاً للجامع وقاضياً للبلد، يعقد قران الأزواج، وملقناً لأبناء القرية آيات الذكر الحكيم.

وإنه ليغادر المسجد بعد صلاة الجمعة إلى ضريح "سيدى الذكيرى" وحوله عدد من رجال القرية ليزوروا وليهم مقدرين له هذه الكرامة التى حققها فى "الشيخ مختار".

ويعكف "الشيخ مختار" على خدمة الجامع بكل ما يملك من طاقة وشباب، فيصلح ما كاد الدهر أن يفسده وينظف ما كاد الشيخ "أبو طاقية" أن يزيده قذارة وعفناً، ولا ينقطع مع هذا عن بيت "الحاج مرزوق"، فيذهب كل يوم يضع نفسه فى خدمة أهله كما اعتاد أن يفعل.

وتعود إلى الجامع الروح الطيبة، التى افتقدها الناس فيه، منذ سافر "الحاج مرزوق" ليحج بيت الله ويزور قبر نبيه الكريم.

ويقبل الناس على الجامع متهللين فرحين.

ويعقد "الشيخ مختار" حلقات الدرس، ليحدث الناس فى أمور دينهم ودنياهم، ويدعوهم إلى تقوى الله وعبادته، والصبر على المكروه.

وفى يوم من الأيام يذهب "الشيخ مختار" إلى العمدة ليقول له :

- أنت تعرف يا حضرة العمدة، أنه إن كان لى فضل، فهو من الله ومن شيخنا "الحاج مرزوق" رحمة الله. وأنت تعرف أنه لم يترك فى هذه الدنيا، إلا أرملة مقعدة، وبنته "راضية". وليس "لراضية" يا حضرة العمدة أحد يرعاها، وقد أصبحت شابة. وقد جئتك لأخطبها منك، فأنت عمدة البلد، وأنت والد من لا والد له.

وأكبر العمدة هذا الموقف من "الشيخ مختار" فقال له على الفور :

- إنك أنت أحق الناس بها يا "شيخ مختار". جزاك الله عن وفائك لشيخك خيراً. توكل على بركة الله.

وكلف العمدة "أبو سريع" ليذهب، على الست "أم راضية" ويخطب منها راضية "للشيخ مختار".

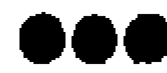
ولم تمض أسابيع حتى كان "الشيخ مختار" قد تزوج من "راضية" ولم يشأ أن يغير الجو الذى نشأت فيه، وهو يعلم أنها شديدة التعلق بذكريات أبيها، فعاش معها، ومع أمها، فى البيت الصغير، الذى قضى شيخه حياته فيه.

وكان زواج "الشيخ مختار" "براضية"، هو الفرحة الأولى، التى عاشتها القرية، منذ غادرها "الحاج مرزوق" فطربت كما لم تطرب من قبل، وفرحت كأنها لم تفرح قبل ذلك قط، وأرسلت كل البيوت ما استطاعت أن ترسله إلى العروسين من هدايا، ليستعينا بها على مواجهة أعباء الحياة الجديدة.

واطمأن بال "الست أم راضية" على بنتها، فعادت البسمة تزين وجهها، وعادت الفرحة تملأ قلبها.

وكبر "الشيخ مختار" فى عيون أهل القرية، حتى كانوا يرون فيه "الحاج مرزوق" ...

وفرح به أبوه فرحاً شديداً، وشكر الله على أن جعل من ابنه شيخاً لجامع القرية، وهادياً الناس إلى طريق الله.



كان "أبو المكارم" يذكر هذا وهو عائد من طريق محطة السكة الحديد.

ولقد استبد به شعور جارف، وهو يذكر أن هذا الطريق له عليه فضل لا ينساه.

ألم تقل له "تفيدة" يوماً إنها عثرت على فردة الشراب الأحمر وهى عائدة من هذا الطريق، ففرحت بها فرحاً شديداً.

أو لم تكن هى أول رسالة غرام تلقاها منها، ليلة سفره إلى الأعرابى؟

وأخذ "أبو المكارم" يسأل نفسه :

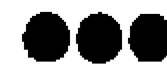
ترى ماذا تحسه الآن "تفيدة" ولديها جوارب مختلفة، من الحرير، والصوف؟

اتراها لا تزال تذكر فردة الشراب التى عثرت عليها هنا، ففرحت بها كما لم تفرح من قبل؟

أما هو، فإنه لا يزال يحتفظ بها فى مكان من شجرة الصفصاف إلى جوار الساقية !

وإنه ليمسك بها بين الحين والحين، ويضغط عليها فى حنان..كأنما يمسك بكف "تفيدة"، فى لحظة غرام، بل إنه ليقبلها فى نشوة وذهول، على ما بها من قدم، وعلى ما بها من ثقوب، فقد كانت أول ما أكد حب "تفيدة" له، ولولاها ما عاد إلى هذه القرية.

ألم تكن فردة الشراب الأحمر هذه هى أول شىء ربط قلبه بقلبها؟



وعندما يذكر "تفيدة" يذكر فجأة "الست نبوية" و الزار الذى سيعدونه لها الليلة.

ويستحث الخطى مسرعاً إلى بيت "الحاج سلطان" ليرى هذا الزار، وكيف يخرج الجنى من جسم "الست نبوية".

ويعدو وهو فى طريق عودته إلى القرية، فإن قرص الشمس قد غاب، ولابد أن السيدة التى سمتها "الست قمر" "لأبو سريع" قد أتت من كفر الزيات، لتقيم هذا الزار.

ويلقى بغصن الصفصاف من يده، ولا ينسى قبل أن يلقيه، أن يمارس عادته فى أن يضرب به الأرض مرة، والهواء مرة أخرى.

ويصل "أبو المكارم" إلى بيت "الحاج سلطان" فيلمح وهو مقبل عليه أن جواً خاصاً، قد خيم عليه. إن فى البيت جلبة وفيه كذلك حركة لم تعتد أن يراها فيه من قبل.

ويدخل إلى الفناء، فيرى خدم الدار، وقد أخذن يعددن مأكولات شتى.

هذه تخبز خبزاً طازجاً من القمح.

وتلك مشغولة بدجاج تذبحه وتنظفه، لتطبخه قبل العشاء.

والثالثة معها عدد من الحمام، كادت تنتهى من تنظيفة، لتحشو به طواجن الأرز.

والرابعة تعد نوعا من الخضراوات.

وفى ركن من أركان الفناء، وجد عدداً من النساء، لم يرهن فى البيت من قبل.

كن من البندر، عيونهن كحيلة، وقد طلين وجوههن بالمساحيق، وبدت شفاههن فى حمرة الطماطم التى استوت على شجيراتها.

كن قرابة عشر من السيدات، يتضاحكن، ويتغامزن، ويتراقصن، ويؤدين حركات مثيرة، بلا خجل أو حياء، ومعهن بضع رجال يبدون كالنساء، بل ربما أكثر طراوة وليناً.

وكان فى أيدى بعضهن طبول. وفى أيدى الرجال زمامير، وفى أيدى فريق ثالث منهن طارات كبيرة يسمونها البنادير علقت بأطرافها حلقات نحاسية.

وكن جميعاً يتدربن...هذه تطبل، وهذا يزمر، والثالثة تضرب على الطار.

وكانت تخرج عنهن أصوات مختلطة لا يستطيع أن يفهم لها معنى، ولا مغزى ولا غاية...ما هذا الذى يراه؟ هل هذا هو الزار؟

وتخرج إليهن من حجرة "الست نبوية" سيدة سمينة، تتحرك بمقدار...وتخطو فى هدوء وأناقة وكبرياء، وقد ابتلعت وجهها ابتسامة عريضة.

وتلقى كلماتها إليهن أوامر، فيطعنها بلا مناقشة.

ولا يفهم مما تقوله لهن شيئاً، فقد كانت تعطى تعليماتها بشأن هذه الطبول وهذه الزمامير، وهذه الطارات.

ثم تتلفت إلى خادمات الدار، فيسرعن إليها فى طاعة واحترام.

وتطلب ماء ساخناً، وتطلب معه وعاء وزجاجة عطر من نوع خاص.

وتدير وجهها هنا وهناك، ويتابع "أبو المكارم" لفتاتها فقد كان ملهوفاً على أن يعرف كل شىء.

ويرى "الست قمر" قادمة، وقد شمرت عن ساعديها، لتعاون فى هذه المناسبة، فإنها هى صا- بة الاقتراح، ويهمها أن تكون له ثمراته ونتائجة.

ويسمع "الست قمر" تقول للسيدة التى تلقى بالأوامر ذات اليمين وذات اليسار :

- والنبى، أنت لست محتاجة إلى وصية...إن شاء الله يكون قدومك خيراً.

وترد السيدة البدينة المتعالية :

- خير إن شاء الله. المسألة واضحة تماماً. ملبوسة. لبسها جنى يظهر أنه عنيد. وشديد.

وتقول "الست قمر" :

- مضبوط. أنا قلت هذا، ولم أجد إلا أنت ألجأ إليها، والبركة فيك ...

تريدين أن نحضر شيئاً؟...

وتقول السيدة :

- لا ... إن الجنى هو الذى يطلب..نحن لا نعرف ماذا يريده هو.المهم عندنا أن نخرجه لنعرف رغباته، وساعتها نفعل له ما يريد.

ولم يفهم "أبو المكارم" شيئاً. ولكنه شعر بالخوف. أصابه خدر. وخشى على نفسه من الجن. تكفيه عاهته. ليس فى جسمه مكان لعاهة أخرى أو لجنى يلبسه هو الآخر.

وأخذ يبحث عن "الست نبوية"، ولكنه لم يجدها. لابد أنها فى حجرتها، فهى اليوم كالعروس...كل هؤلاء جئن من أجلها. وهذه الآلات. الطبول والزمامير. كلها من أجلها أيضاً. ليخرج منها الجن الذى دفعها إلى ضرب "تفيدة".

ويبحث عن "تفيدة" فلا يجد لها الأخرى أثراً. لابد أنها فى حجرتها ترتعد من الخوف.

ولكنه يجد "أبو سريع" يروح ويجىء، يعطى الأوامر ويصدر التعليمات، حتى يتم كل شىء كما يجب أن يتم.

وعندما يمر "أبو سريع" بالنساء القادمات من كفر الزيات، يتلكأ قليلاً، ليداعبهن ويتلطف معهن، ويرحب بهن، ويكاد لولا الموقف، يفترسهن بنظراته الجائعة النهمة.

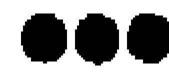
وكن يقابلن هذا منه بالضحك والمزاح والارتياح إلى ما فى عينيه من هوى وهيام.

وأخذ فناء الدار يزدحم.

كانت هناك طبعاً "ست الناس" و "درة زمانها"، و"وردة" بنت "الست قمر".

وأخذت زوجات أبناء "الست نبوية" يقبلن الواحدة بعد الأخرى : "السيدة" زوجة ابنها شيخ البلد "غضبان"، و "نعمت" زوجة ابنها "سيد"، و"عطية الله" زوجة ابنها ممتاز، كما أقبلت "أم سيد" البلانة و "أم السعد" الخياطة.

وجاء أولاد صغار من كل سن، إناثاً وذكوراً، من أبناء الأسرة، ليتناولوا عشاء خاصاً بهذه المناسبة الخاصة، وليكونوا بجوار أمهاتهم فى هذه الليلة التى لم تر لها القرية من قبل مثيلاً.



وبدأ "أبوالمكارم" يشعر بشىء من الاطمئنان، وهو يرى الزحام يشتد حوله فى هذا الفناء، ولكنه لم يفهم حتى الآن، ماذا سيكون هذا الزار !

وأخذ يتطلع هنا وهناك، لعله يفهم شيئاً عن طبيعة هذا الجو الغريب.

ورأى السيدة البدينة، صاحبة الأوامر، تعود مرة أخرى إلى حجرة "الست نبوية" وخلفها بعض الخادمات يحملن ما طلبته من الماء الساخن والوعاء وزجاجة العطر.

ويحاول "أبو المكارم" أن يمد بصره إلى داخل حجرة "الست نبوية" ولكن الباب يغلق قبل أن يتبين شيئاً.

على أنه يسمع "ست الناس" و "درة زمانها" تتحدثان :

ـ لابد من استحمامها أولاً، حتى ينفع الزار.

ـ ولابد كذلك من أن ترتدى الملابس الجديدة البيضاء، التى أعدت لهذه المناسبة.

ـ والعطر أين يضعونه. هل فى ماء الاستحمام، أو يعطرونها به بعد ذلك؟

ـ والله لاأعرف. هل قال لك أحد إننى أقمت قبل ذلك مثل هذا الزار؟

ـ ألم تسمعى؟

ـ ممن؟ إن أحداً هنا لا يفهم شيئاً على الإطلاق، ولا "الست قمر".

ـ لا لا. "الست قمر" تفهم كل شىء.

ـ هذا ما أظنه، ولكنى سألتها، فوجدتها مثلى ومثلك.

ـ وأنت لماذا لم تدخلى معها. أليست أمك؟

ـ إنى أخاف. يقولون الجنى قد لبسها. ومالى أنا بهذا.

ـ تخافين أن يتركها ويلبسك أنت.

ـ إن شاء الله يلبسك أنت.

وتضحكان فى فتور، فقد كان الموقف من الغموض، بحيث يحمل على الرهبة والحذر.

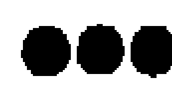
ويفهم "أبو المكارم" أنهم الآن يعدون "الست نبوية" بحمام ساخن وعطور، وملابس جديدة بيضاء.

ويعجب : لماذا بيضاء؟

هل الجنى يحب اللون الأبيض؟

وهل هو جنى؟ إنه يحب هو الآخر- فيما عدا فردة الشراب الأحمر- اللون الأبيض.

وهز رأسه ليبعد ما خطر بذهنه عن الجن، وحرك شفتيه فى دعاء صامت، أن يحرسه الله من هذه الأشياء.



وبعد العشاء، خرجت السيدة البدينة من حجرة "الست نبوية" وأشارت بإصبعها إلى النساء الأخريات، فوقفن، واتجهن نحوها، وبدأن يدخلن الحجرة واحدة وراء واحدة.

وتمكن "أبو المكارم" هذه المرة من أن يرى ما بداخل الحجرة، فلم يجد إلا أبسطة حمراء مفروشة، وعدداً من الشموع موزعاً فى أنحاء الغرفة، وشيئاً كالشبح، فى ملابس بيضاء. لابد أنها "الست نبوية".

قالت "درة زمانها" "لست الناس" :

ـ ألا تدخلين؟

ـ ماذا جرى لك؟ ادخلى أنت.

ـ أمك يا مجنونة...تتركينها وحدها.

ـ البركة فى "الست قمر" قلبها جامد.

ـ لكنك بنتها الوحيدة.

ـ لا "يا درة زمانها" إن كنت تريدين أن تدخلى أنت فادخلى.

ـ تريدين أمى أن تفتك بى.

ـ تدخل أمك.

ـ هل رأيتها هنا؟ إن أمى "حاجة" وهى لا تعتقد فى الزار تقول إنه خرافة من الخرافات.

ـ على مذهب "الشيخ سيد".

ولم تضحكا هذه المرة، فقد بدأ باب الحجرة يغلق، بعد أن دخلت "الست قمر"، وخيم على البيت جو من الصمت والرهبة، جعلت القشعريرة تسرى فى الأبدان.

وبعد لحظات بدأ هذا الصمت يتحطم تحت طرقات النساء على الطبول.

وارتفع صوت الطبول والمزامير والطارات، يحطم هذا السكون.

وارتفعت مع هذه الأصوات أصوات غناء، لم يفهم منه أحد شيئاً.

ثم عادت ترتفع أصوات أخرى لحركات عنيفة تنبعث من داخل الغرفة، أظهرها صوت دبيب أقدام تروح وتجيء فى غير وعى أو نظام.

ورأى "أبو المكارم" النساء، والخادمات يتكومن كل جماعة منهن فى مجموعة، تتساند حتى لا يفرقها الخوف، ويمزقها الرعب.

ولم يدر أين يذهب... مع من يتساند، وهو وحده من الرجال، وليس معه فى هذا الفناء، إلا رجل لا يعرف الخوف طريقاً على قلبه : "أبو سريع".

وكاد يعدو خارجاً يبحث لنفسه عن مفر.

ولكنه خجل من نفسه. وأحس أن عليه أن ينتظر، فإن "تفيدة" هنا، وقد يخرج الجنى من جسم "الست نبوية" ويقفز إليها. من يحميها عندئذ؟

وعاد يسأل نفسه :

إنك مجنون. هل أنت قادر على حمايتها؟ ومن الجن؟! إذا كنت عاجزاً عن حمايتها من "الست نبوية" ومن "أبو سريع"، فهل تقدر على الجن؟

وعاد يفكر فى الفرار. ولكنه آثر أن يبقى، ليلقى مصيره مع مصيرها.

على أنه أخذ يتراجع، حتى وجد نفسه ملتصقاً بجدار الفناء، يحمى ظهره على الأقل من أى جنى يخرج من غرفة "الست نبوية".

وطالت السهرة وامتدت.

وعندما قارب الليل من الانتصاف، فتح باب حجرة "الست نبوية" فتطلعت إليه الأنظار، وتعلقت به، وأطلت من الباب "الست قمر" تنادى الخادمات أن يدخلن بالعشاء.

وقالت لها "ست الناس" :

ـ والنبى قولى لى...ماذا حدث؟

قالت الست قمر، وهى تضحك .

ـ ظهر..ظهر وبان، عليه الأمان. ظهر وطلب العشاء ...

وتبادل النساء النظرات. ماذا ظهر؟ لابد أنه الجنى. وكيف ظهر؟ وماذا قال؟ إن "الست قمر" تقول إنه طلب العشاء. الجنى طلب العشاء !!

وفى لمح البصر كان العشاء قد أصبح فى حجرة "الست نبوية" .

الفطير، وطواجن الأرز، وأوانى اللحوم، والخضروات، والخبز الطازج.كل شىء دخل إلى الحجرة.

وسكتت الأصوات، ولم يعد أحد يسمع إلا قضماً.

إن الجنى يأكل !

لكن أيأكل وحده، أم تشاركه كل النساء فيما يأكل؟

ومر الوقت بطيئاً ثقيلا، حتى أطلت "الست قمر" مرة أخرى، وطلبت من الخادمات أن يدخلن ما بقى من طعام.

وأسرعت الخادمات، يحملن ما بقى من الطعام.

وفى هذه المرة سمح لهن بالدخول. فى المرة الأولى كن يناولن الطعام "للست قمر" وهى التى تتولى إدخال الطعام.

ولكنهن فى هذه المرة دخلن الحجرة ليحملن بقايا الطعام.

وما إن خرجن، حتى التفت حولهن النساء، يسألهن ماذا وجدن، وماذا سمعن، وكيف الحال.

ولكن الخادمات لم يكن قادرات على أى كلام، فقد بلغ بهن الخوف والانفعال مبلغاً جعلهن لم يتبين شيئاً، ولم يدركن مما حولهن شيئاً.

حتى "أبو سريع" كان خائفاً.

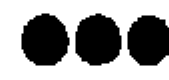
كان يخرج إلى خارج الدار، لينبه على الخفر، أن يمنعوا أى شخص يحاول أن يتسمع أو يقترب من الدار.

وكان يعود بكبريائه المعهودة، فما إن يرى ما يراه داخل الفناء، حتى يبدو عليه الخوف، ويكاد يتعثر فى خطاه، وينتهز أول فرصة واتيه، ليخرج مرة أخرى، بحجة المرور على الخفر وإعادة التنبيه عليهم باليقظة والانتباه.

ومرت الليلة فى هذا الجو الصاخب الغريب. طبول ومزامير وطارات، تملأ جو البيت ضجيجاً، وغناء يختلط بالنغمات، فلا تستطيع أن تميز منه شيئاً، ودبيب عنيف جداً يكاد يهز البيت هزاً !

وبين الحين والحين، تسكت الأصوات، وتسمع بعض المناقشات، ولكن أحداً لا يتبين منها شيئاً، ثم يعود الضجيج كما كان.

و"أبو المكارم" حيث هو من جدار الفناء، التصق به، حتى كأنه قطعة منه.



ولما أصبح الصباح، بدأ البيت يتبين ما حدث.

السيدة البدينة التى لا تعرف الكلام إلا أمراً، و"الست قمر" معاً، أخذتا ترويان ما حدث.

وعلم البيت أن الجنى الذى لبس "الست نبوية" شاب صغير جميل وقوى.

وأنه حضر طول ليلة أمس، وقضى فى حلقة الزار أوقاتاً ممتعة، وقال إن اسمه "نقرزان".

تحدث طويلاً عن حبه "للست نبوية" وهيامه بها، وأنه لبسها منذ سنوات ولكنه لم يكن يؤذيها أبداً، كان رقيقاً لطيفاً، لأنها كانت بدورها لطيفة معه، فلما فقدت أعصابها فى الشهور الأخيرة، ساءه ذلك منها، فصمم على أن يؤدبها.

وهزت النساء رءوسهن متعجبات.

ومضت بقية القصة، ترويها "الست قمر" :

ـ ولكنا أخيراً وقفنا على طلباته. إنه يريد أن تكون "الست نبوية" دائماً هادئة، وأن ترتدى ملابس بيضاء، لا تغير هذا اللون أبداً.

وطلب كذلك أن تضع حول عنقها كرداناً وفى أذنيها حلقاً من العقيق الأحمر وأن تلبس غوايش ذهباً فى كل معصم من معصميها.

وكل يوم جمعة تذبح عجلاً بنى اللون، توزعه على الفقراء، ولا تأكل منه شيئاً.

وفى هذا الموعد من كل شهر، يحضر هو فى حلقة الزار، على أن تقدم إليه دجاجة واحدة بيضاء، محمرة فى سمن بقرى.

أما بقية الطعام للحلقة فترك أمره لأفراد الحلقة أنفسهم.

وقالت "ست الناس" :

ـ أهو الجنى الذى قال هذا؟

قالت السيدة البدينة.

ـ طبعاً هو الذى قال هذا. من إذن الذى قال؟

وسألت "ست الناس" :

ـ وكيف تكلم...هل سمعتموه بأنفسكم؟

قالت الست قمر :

ـ يا بنت لا تكونى مغفلة. إنه حضر على أمك. وساعتها تغير صوتها، وتغيرت حركاتها، وأصبحت شيئاً آخر. لم تعد هى، ولكنها تحولت- باسم الله الرحمن الرحيم إلى "نقرزان". فطلب هذه الطلبات.

قالت "ست الناس" :

ـ باسم الله الرحمن الرحيم، له طلبات أخرى.

قالت "الست قمر" :

ـ لا. هذه هى كل طلباته.

وعادت "ست الناس" تقول :

ـ لكن ماذا جرى لأمى. إنها تبدو مذهولة، لا تذكر شيئاً على الإطلاق.

قالت السيدة البدينة :

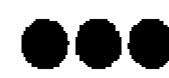
ـ يا بنتى لقد كانت فى حالة أخرى. ماذا ستتذكر؟

ونادت "ست الناس" زوجها "أبو سريع"، وطلبت منه أن يحضر طلبات " باسم الله الرحمن الرحيم" حالاً.

وأجابها بأنه ذاهب مع السيدات إلى كفر الزيات، وأنه لن يعود إلا بطلباته.

وعند الظهر غادرت النساء القرية عائدات إلى كفر الزيات بصحبة "أبو سريع" وفى اليوم التالى عاد "أبو سريع" ومعه طلبات "نقرزان".

وأخذت "الست قمر" تحقق طلبات الجنى فوضعت الكردان العقيق الأحمر حول رقبة "الست نبوية" كما ألبستها الحلق والغوايش الذهب.



ولاحظ "أبو المكارم" بعد ذلك أن "الست نبوية" قد هدأت بعض الشىء، وأنها لم تعد كما كانت ثائرة تغلى بالحقد.

وأخذ يعجب مما يرى ويسأل نفسه :

إذن كان صحيحاً أن جنياً لبسها، وأن هذا الجنى غضب عليها فأراد تأديبها.

وأخذ يلتمس لها الأعذار، يوم اعتدت بالضرب على "تفيدة".

ولم تعد "الست نبوية" ترى إلا فى ملابس بيضاء، يتدلى من رقبتها كردان من العقيق الأحمر، كذلك من أذنيها. وحول معصميها غوايش من ذهب.

وكل يوم من أيام الجمع، كانت تشترى عجلاً بنياً، وتذبحه، وتفرقه على الفلاحين الأجراء، فيتقبلون هذه المنحة شاكرين حامدين الله على نعمته عليهم، فإن بعضهم لم يكن يذوق اللحم إلا عن هذا الطريق.

وتكررت زيارة الحلقة للقرية، ولدار "الحاج سلطان" مرة كل شهر، تنفيذاً لأوامر "بسم الله الرحمن الرحيم" الجنى "نقرزان"!



على أن "تفيدة" مع هذا، ظلت على موقفها. لا تغادر حجرتها أبداً.

بل إن خوفها زاد، عندما ترامى إلى سمعها أن هناك جنياً، يلبس جسم "الست نبوية" وأن هذا الجنى جميل وقوى، وعنيد وشديد فى آن واحد.

وقالت لنفسها :

من أدرانى : ربما يعاوده عناده، وتعود إليه طبيعته، فألاقى ما لقيته من قبل.

وبرغم تأكيد "الست قمر" لها أنه طالما تستجيب "الست نبوية" لهذه الطلبات فإنه لن يفعل شيئاً مؤذياً، فإنها ظلت على حالها، من الوحدة، ومن العزلة، ومن الابتعاد عن طريق "الست نبوية" خشية أن يتكرر منها ما حدث.

وكلما كانت الشهور تمضى، كان حرصها على أن تتفادى رؤيتها أو مقابلتها تزداد.

إن الجنين يكبر فى أحشائها، وقد بدأ يتحرك فى بطنها. إنها تشعر به يداعبها، مداعبات ثقيلة، أحياناً تتعبها، ولكنها تحبه، وتحرص عليه، ولا تريده أن يتعرض لمكروه.

ثم هى تخاف على نفسها، ولا يريد أن يحضروا لها الداية، لتخرج الطفل من بطنها. ألا يكفيها ما هى فيه؟ أيريدون كذلك أن يقتلوها؟..

ليتركوها وحدها. وهى مكتفية بالسجن الذى فرضته على نفسها، وغداً عندما يصبح لها ولد، ستعرف كيف تتسلى معه وتسليه. سيكون كل شىء فى حياتها، وليت "الحاج سلطان" يتزوج واحدة سواها، ليتركها مع وليدها وحدهما، فى عزلة عن البيت كله.

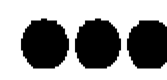
ولقد حاولت "الست قمر" أن تخرجها عن عزلتها فما استطاعت، وأقسمت لها أن شيئاً ما لن يحدث لها، فما صدقت، وتعهدت لها أن تمنع أية محاولة للاعتداء عليها، فما ألقت لذلك كله بالاً.

واكتفت بأن تستقبل "الست قمر". "وأبو المكارم" وزوجها.

أما "الست قمر" فعرفاناً بجمائلها عليها، وتقديراً لمعروفها.

وأما "أبو المكارم" فلأنه الخيط الوحيد الباقى، الذى ترى فيه أمها وأباها وأختها.

وأما زوجها، فلأنها لا تستطيع إلا أن تستقبله، كلما شاء.



وكانت "أم الهنا" حريصة على أن تتبع أخبار ابنتها. كانت تتنسمها فى لهفة وشوق ولم تكن تريد أن تصدق ما ترويه لها جاراتها، فإنهن ليبالغن فى وصف ما تلاقيه من اضطهاد، وما تعيش فيه من هم، فيقلبن حياتها جحيماً.

أما "أبو المكارم" فإنه لم يكن يبالغ فى شىء، وكانت تعتقد كذلك أنه لا يخفى عنها شيئاً. إنه يروى لها، بطريقته التى أصبحت تفهمها أكثر مما تفهم الكلام الواضح، كل شىء، فى بساطة وأ مانة وصدق.

وهو رسولها إليها، ببعض الأطعمة التى تعرف أنها تحبها. لم تكن تذوقها أو تسمح لأحد من الأسرة أن يذوقها، إلا بعد أن تذوقها "تفيدة" وتطمئن من "أبو المكارم" أنها وصلتها وأنها أكلتها بالفعل.

و"أم الهنا" تعرف تماماً أن "أبو المكارم" يحب "تفيدة"، وكان هذا يحملها على الاطمئنان عليها بين قوم يكرهونها.

ولم يكن "أبو عوف" أقل ثقة، "بأبو المكارم" من "أم الهنا". بل لقد كان يحبه حباً شديداً، ويستمع إليه، وهو يروى حكاياته عن "تفيدة"، ثم يهز رأسه فى أسى، دون أن ينطق بكلمة واحدة.

وكانت لهم- "أم الهنا" و "أبو عوف" و "أبو المكارم" جلسة بعد أن تردد أن "تفيدة" قد حملت من "الحاج سلطان"، وبعد أن ذاع بين أهل القرية أن "الست نبوية" قد فقدت أعصابها لهذا النبأ، وأن "الشيخ أبو طاقية" قد هرب خوفاً من بطشها وبطش زوج بنتها "أبو سريع"، وأنهم لم يعرفوا لها علاجاً إلا بحلقة الزار.

وقالت "أم الهنا" :

- ربنا انتقم منه المؤذى. كان يريد أن يؤذى ابنتى فآذاه الله. كشف حيله وخداعه.

وروى "أبو المكارم" قصة الحمل، وكيف طلبت "الست نبوية" من "تفيدة" أن تتخلص منه، حتى لا يكون لها من "الحاج سلطان" ولد أو فتاة.

وردت "أم الهنا" :

- سبحانك يا رب ! لماذا؟ هل جاءت به من الحرام؟ أليس هو الذى طلبها وتزوجها؟ لماذا يحرمون عليها هذا؟

ونظر إليها "أبو عوف" نظرة حزينة طويلة، ثم هز رأسه ولم يتكلم.

وفهمت "أم الهنا" أن زوجها لا يوافقها الرأى، فعادت تقول :

- حتى أنت !..أنت الآخر معهم فى هذا؟

قال لها فى ألم :

- نعم يا "أم الهنا". ويا ليتها سمعت كلامها وتخلصت من هذا الحمل.

قالت :

- لماذا؟ أليست زوجته؟ لقد خاب ظنهم. جاءوا برجل دجال، أخذ يسحر للبنت حتى يصيبها الأذى، فأخرجه الله من البلد بالفضيحة والعار. وها هى ذى حامل من "الحاج

سلطان" وسيكون لها منه ولد إن شاء الله. ولد يملأ العين ويسر القلب ويملأ عليها حياتها سعادة وبهجة.

قال "أبو عوف" وهو يهز رأسه :

ـ سعادة وبهجة..إنك دائماً مغفلة يا "أم الهنا".

قالت :

ـ طبعاً. إن صلة "الحاج سلطان" بها ستقوى بعد هذا الولد. لن يكون عنده فى بيته سواها. ستقتل الغيرة "الست نبوية" و "الحاجة زهرة"، وكل أولادهما، رجالاً ونساء. وربنا سينصر ابنتى عليهم جميعاً.

قال "أبو عوف"، وقد فقد هدوءه :

ـ إنك تهذين يا "أم الهنا". إنك تتكلمين بما لا تعرفين. وغداً سترين أن هذا الولد سيكون كارثة علينا جميعاً. إنهم أقوياء. إنهم فجار. إن لهم طرقهم التى لا نستطيع أن نقف ضدها. أنت مجنونة، تقولين كلاماً لا تعرفين معناه.

قالت وهى تصيح فى وجهه :

ـ بل أنا أعرف كل شىء. إن الولد سيكون ابن "الحاج سلطان" سيكون له حق فى كل شىء يملكه، مثله مثل شيخ البلد، وإخواته الآخرين. سيكون له نصيب فى هذه الساقية.

وسخر منها "أبو عوف" وهو يقول :

ـ إلا هذه الساقية، فإن وصية "سلطان الكبير"، أن تكون من نصيب الولد الأكبر. أنت جاهلة. أنت تتحدثين بما لا تعرفين.

قالت :

ـ لا نريد له الساقية. يأكلونها. المهم أنه سيكون ابنه مثلهم تماماً. ويومها سيزيد قدر "تفيدة" عند زوجها، وستكون لها الكلمة النافذة فى البيت، وسأعلمها أنا كيف تثأر من الذين آذوها وأهانوها وسببوا لها كل هذا الضيق.

قال :

ـ أنت !! أنت تعلمينها! هل تستطيعين أن تخطى داخل بيت"الحاج سلطان"؟ أنسيت الفضيحة التى سببتها لنا يوم ذهبت؟ أنسيت يوم السبوع، عندما ألقوا بما حملته لها، للكلاب والقطط...أنت امرأة جاهلة. أنت امرأة بلا كرامة.

قالت :

ـ كل شىء يصحح يا رجل. ومن أجل هذا علينا ألا ننسى هذا أبداً وعلينا أن نفرح بهذا الحمل، لأنه سيعوضنا عن كل شىء. ستدخل "أم الهنا" بيت "الحاج سلطان". ستدخله رغم أنف الجميع، وسيستقبلونها بالترحاب وسترى يا "أبو عوف"

قال وهو يشيح بوجهه عنها :

ـ أنت موهومة...قولى ما تشائين. احلمى، فإذا طلع النهار لم تجدى من الحلم إلا أنك رأيته فى المنام.

قالت :

ـ يا رجل اصبر. غداً تتغير حالنا جميعاً. ستصبح أنت جداً لابن "الحاج سلطان" وسأصبح أنا جدته، وستصبح "مفيدة" خالته. ولن يستطيع "الحاج سلطان" أن ينكر هذه القرية، وسيكون عليه أن يغير معاملته لأصهاره، لأهل زوجته، وأقارب ابنه، وسيكون أعز أبنائه عنده، لأنه سيكون آخر العنقود يا رجل.

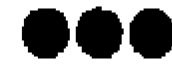
قال :

ـ لن أرد عليك كلامك هذا. وإنما اسمعيها منى كلمة واحدة، قلتها مرة فلم تسمعيها ولكن لا بأس من أن أكررها، لتسمعيها مرة أخرى، فإنى لن أكررها بعد ذلك أبداً. إن "تفيدة" لم تعد بنتك ولا بنتى. "تفيدة" بنتنا ماتت يا "أم الهنا" وهذه التى حملت أخيراً من "الحاج سلطان" والتى تنجب بدل الولد عنده أولاداً، واحدة أخرى فلا أنا سأصبح جداً ولا أنت ستصبحين جدة، ولا "مفيدة" ستصبح خالة. أبداً "يا أم الهنا" افهمى جيداً. إنى

أخاف من هذا الحمل، وكنت أتمنى لو أنها سمعت كلام "الست نبوية" وتخلصت منه. حينئذ كنت أرتاح. إنى أشعر بثقل فى قلبى وأحس أن هذا الحمل آت إلينا بنحس جديد.

ونظر الرجل إلى السماء وهو يقول فى ضراعة :

ـ يارب..يا رب..ماذا جنيت يا رب، حتى تفعل بى كل هذا؟



وبينما هم كذلك، إذا هم يسمعون صوت أقدام.

وتلفتوا نحو مصدر الصوت، فتبينوا وجهاً جامداً صلباً آتياً يدب دبيباً مخيفاً.

لقد كان "أبو سريع" شيخ الخفر.

وأصيب "أبو عوف" بذعر، وارتعدت "أم الهنا" خائفة، ووقف "أبو المكارم" يتطلع فى بلاهة وفضول.

ولم يقل "أبو سريع" شيئاً.

لم يلق حتى بالتحية.

لم يبتسم.

لكنه مر بهم كأنه لا يراهم ولا يشعر بوجودهم، ومضى إلى الرياح، حيث أخذ يطل هنا وهناك، وبندقيته على كتفه، وكرباجه فى يده، وخفير يتبعه كظله.

ثم عاد من حيث أتى، صامتاً لا يتكلم.

وتبادل ثلاثتهم نظرات ملؤها الدهشة.

ولم يقل "أبو عوف" شيئاً، ولكنه أخذ ينظر إلى زوجته نظرات جامدة.

ولم تستطع "أم الهنا" أن تواجه هذه النظرات، فأخذت تنظر إلى الأرض فى اضطراب.

أما "أبو المكارم" فقد نزع غصناً من أغصان الصفصافة، وأخذ يضرب به الهواء، "وتفيدة" خلال ذلك بين جفنيه.

كأنما يدفع عنها شيئاً مجهولاً يخافه ويخشاه !

□□□

١٠

"أبو المكارم" لم يغمض له جفن، منذ رأى "أبو سريع" ينقض مع الغروب كالصاعقة وفى وجهه نذير السوء، وعلامات الشر ! وصمته هذا المريب، وجفوته، وعدم مبالاته بوجود ثلاثة يعرفهم : هو و "أبو عوف" و "أم الهنا".

إنه لم يكن يتوقع منه أن يبدأهم بتحية. لا.. ومن هم حتى يحييهم أو يحفل بهم؟ ولكنه كان ينتظر منه على الأقل أن يشتم أو يسب أو يتهكم كعادته مع الفلاحين. فإن لم يسعفه اللسان بمثل ما اعتاد عليه، فلا أقل من أن يوجه إليهم نظرة، تحمل ما يخفيه اللسان.

لكنه لم يفعل ! لم يطلق كلمة، ولم يوجه نظرة. ومضى كالسيف صارماً قاطعاً، وكأنهم عدم !

لا يمكن ألا يكون قد رآهم، وقد هبوا واقفين، وأخذوا يتطلعون إليه، يتصيدون منه نظرة، لترتسم على وجوههم الابتسامات، أياً كان ما فى قلوبهم من الدمع المحبوس !

لابد أنه رآهم، كما يرى السيد كلبه يهز ذيله، فلا يعبأ به، ولا يهتم بوجوده !

ولابد أنه قد تعمد أن يهملهم هذا الإهمال المزرى، كأنهم فراغ !

ثم ما هذه النظرة إلى الرياح، والوقفة عند الجسر، والتأمل فى بعض الأماكن حول الساقية؟ وفى هذا الوقت بالذات، بعد الغروب؟

أهذه هى طبيعة "أبو سريع" أو عمله، أن يطمئن إلى مياه الرياح؟ أو الجسر؟ أوالساقية؟

أم أن له غاية أخرى من وراء هذه الزيارة، أو المعاينة السريعة المفاجئة.

وحاول "أبو المكارم" أن يتخيل هذه الغاية. ماذا تكون؟ ولكنه كان يهش على وجهه، ليبعد عن نفسه أوهاماً تلح عليه إلحاحاً شديداً، كأنها ذبابة لحوح لا تبارح وجهه إلا لتعود !

والشئ الذى كان يزعجه، ويكتمه فى نفسه، ويخفيه عن العيون، كما يخفى فردة الشراب الأحمر، أن هذه الأوهام كانت تتصل بالقلب الذى عاد إلى هذه القرية من أجله..."بتفيدة".

وكان "أبو المكارم" يحس شيئاً ساخناً فوق خديه دون أن يتنبه أنها دموع، تسقط من عينيه، فى غفلة منه ! بلا وعى ولا إدراك !

وكان يترك هذه الدموع تتساقط، لتغسل قلبه من هذه الأوهام، ولتنظف خياله من الرؤى القاسية التى كانت تظهر له بين جفنيه، فلا يرى شيئاً سواها.

على أنه لم يشأ أن تنتقل هواجسه إلى "أم الهنا" أو "أبو عوف".

لا...يجب أن يحفظها لنفسه، وفى نفسه، فربما كانت مجرد خرافة من الخرافات، يختلقها لنفسه، ليبكى من أجلها، وليجد مبرراً لهذه الدموع الساخنة تتساقط على خديه.

وعندما كان يرى "أبو عوف" قادماً، كان يتعمد الضحك والابتسام، حتى ليبدو عليه أنه يتصنع أكثر مما يجب أن يفعل. كذلك عندما كان يرى "أم الهنا".

وكان يتعرض لحالة سيئة، فدمعه محبوس فى مقلتيه، وضحكاته منطلقة من بين شفتيه، وإنه ليجمع الدموع والابتسامات، فى كيان عاجز أخرس، فيزداد بذلك سوءاً ومحنة.

وشعر فى هذه الأيام أنه محتاج إلى أن يذهب إلى الخص...ليرى مدخله، والأرض الفضاء التى أمامه. والحقول الخضراء التى تحيط به.

وكانت نفسه ترتاح عندما لا يجد أحداً عند الخص. كان محتاجاً إلى أن يستعيد أعذب ساعات عمره، تلك التى قضاها مع "تفيدة" قبل أن يبتلعها وحش عجوز !

وكثيراً ما استعاد هذه الساعات، وعادت كلماتها ترن فى أذنه...

لم يعد لى إلا أنت يا "أبو المكارم". كن لى يا "أبو المكارم". سيأخذوننى إلى دار لا أعرف كيف فيها مصيرى، فلا تتركنى ولا تخذلنى يا "أبو المكارم".

أنا أحبك يا "أبو المكارم" ولكنهم أخذونى منك. الرجل العجوز خطفنى منك.

فلنظل على حبنا صامتين، تاركين أمورنا لله.

ويجلس "أبو المكارم" فى المكان الذى ذهب إليه غداة عودته، وعلمه بأن "تفيدة" خطبت.

ويتكور بين الحقول الخضراء، لا تتحرك منه حتى عيناه.

إن عينيه قد جمدتا، ولم تعودا تقويان على الحركة. إنهما تقويان فقط على الدمع، يرسله ساخناً، يكاد يحول وجنتيه إلى قطعة من الفحم، بلا نار ! ولا لهب ! ولا دخان !

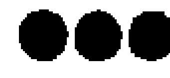
وعندما كان يرى من بعيد "مفيدة" أختها، كان يذكر ماضياً عزيزاً بديعاً جميلاً، انطلق ثلاثتهم فيه يلعبون ويعبثون، ولا يشعرون بشىء يقيدهم، أو بآلام تشل حركاتهم أو محن تتعثر فيها ابتساماتهم.

وكان يهز رأسه وهو يرثى لها، ويتمنى لو أنقذها الله من مصيرها، وقد خلا من المستقبل. لم يعد لها مستقبل. أصبح كل مستقبلها ضياعاً، بعد أن اقتحم حياة الأسرة رجل عجوز، سد عليها مسالك الحركة والنمو، إلا إذا أراد.

وتمضى الأيام، "وأبو المكارم" على حاله هذه التعسة، بين الساقية والخص، وبيت "الحاج سلطان".

وقد تعاونت الصدفة مع حظه العاثر، فلم ير "لتفيدة" وجهاً طيلة هذه الأيام وفكر فى أن يقتحم حجرتها ليراها، ولم يكن ذلك يثير انتباه أحد. ولكنه خاف عليها من نفسه.

من مـدمعـه. من أوهامـه، فكان يكتفى بأن يتطلع إلى بابهـا فى حسـرة، وأن يقف على أخبارها من "الست قمر" ويعود...إلى مكانه من الساقية، أو مسرح هواه القصير العميق على باب الخص، أو بين الحقول الخضراء.



وتزداد هواجسه ذات مساء، عندما يجد "أبو سريع" قادماً فى مظهره البشع الصلب، وخلفه خفير يتبعه كظله، وعلى كتفه بندقية كالحة كوجهه، وفى يده كرباج أسود كقلبه.

على أنه يقبل هذه المرة، ومعه شيخ البلد "غضبان".

ويجلسان عند الساقية. على حافتها. وينظر "أبو سريع" إلى الخفير، مشيراً إليه إشارة متكبرة متجبرة من يده، فيبتعد ليترك لهما مجال الحديث.

وكان "أبو المكارم" فى مكانه من شجرة الصفصاف خفياً كالسر المكتوم، لا تراه عين، ولا يشعر بوجوده إنسان، فأنصت فى وعى وفهم إلى كل ما دار.ولقد جاهد نفسه، حتى لا تقفز من قلبه انفعالات تنم على وجوده. كانا يتآمران على المسكينة "تفيدة"، ويدبران أمراً ما، حمله على الخوف والقلق، وثورة اضطرمت بين جنباته.

قال "أبو سريع"، وهو يمدد ساقية :

ـ هل تعرف لماذا أتيت بك إلى هنا يا شيخ البلد.

قال شيخ البلد فى ضحكة طويلة :

ـ ربما لتقتلنى يا "أبو سريع" !

وعلا صوت "أبو سريع" وهو يقول :

ـ عيب يا رجل. هذا ليس وقت مزاح. أنا أتحدث فى الجد من الأمور. ودارت بينهما المناقشة التالية :

ـ إذن لماذا أتيت بى إلى هنا. لابد أنه سر خطير، لا تريد أن يسمعه أحد. ماذا سنفعل فى المصيبة التى تواجهنا جميعاً؟

ـ أية مصيبة؟

ـ أنت نائم، تغط فى نومك غطاً. اصح من نومك يا شيخ البلد.

ـ قل أية مصيبة. أمى، وقد هدأت أعصابها، وأصبحت شيخة فى ملابسها البيضاء، والطرحة البيضاء تجلل رأسها كالعمامة. وهى تقوم بواجبات الجنى "نقرزان" فى مواعيدها. وأنت البركة فيك تدبر لها كل طلباتها على طريقتك الخاصة، من بيوت الناس، الذين يعيشون من خيرنا، ولولانا لماتوا من الجوع.

وعلاقتها "بالست قمر" قد تحسنت، ولم نعد نرى كل يوم شجاراً كما كنا نرى من قبل. والله أصيلة "السهت قمر"، هى التى تسببت فى هذا رغم ما كان بينها وبين أمى.

وضاق شيخ الخفر ذرعاً بما يسمع، وصاح فيه قائلاً :

ـ يا رجل أنت لن تفهم أبداً. أنا لا أدرى كيف عينوك شيخ بلد ! أنا أتحدث فى موضوع آخر. افهمنى جيداً.

ـ إذن قل لى ما هذا الموضوع الآخر، أو ما هذه المصيبة التى تشغل بالك؟

ـ الحمل. "تفيدة" حامل.

ـ نعم. أنا أعلم هذا.

ـ ولا تفكر فى الأمر أكثر من هذا ! لا تقول شيئاً على الإطلاق أكثر من أنك تعلم هذا! اسم النبى حارسك يا شيخ البلد. ماذا أفعل؟ لابد فى مثل هذه الحالة أن أخاطبك مثلما تخاطبك أمك.

ـ وماذا تريدنى أن أفعل؟

ـ هل تعرف ما معنى أنها حامل؟ إذن دعنى أشرح لك الموقف. ستضع ولداً أو بنتاً، وسيكون هذا الولد أو هذه البنت، أخاك أو أختك. سيكون لك أخ جده "أبو عوف"، وجدته "أم الهنا" يا شيخ البلد، يا ابن الأكابر. بل سيشترك معك هذا الولد فى الميراث.

ستصبح رأسه برأسك تماماً، لا فرق بينك وبينه. أنت جدك عمدة. أنت خالك عمدة. أنت من أصل كريم. كل هذا لن يقيم فرقاً بينك وبينه. تصور أن "أبو عوف" هذا سيصبح فى مستوى جدك العمدة، فى ميزان القرابة والنسب؟ تصورا.. ثم إن "تفيدة" لا تزال صبية، والأعمار بيد الله. وقد يصبح الولد الواحد عدة أولاد، وعدة بنات، وتصبح كارثة ومصيبة علينا جميعاً.

قال شيخ البلد فى بلاهة :

- والله لم أفكر فى هذا أبداً. لم يخطر هذا ببالى. صحيح، هل أصبح أنا كالمولود الجديد؟ إن العمدة أسر لى فى أذنى مرة، أنه يرشحنى عمدة بعده. أنا زوج ابنته، وأكبر أولاد "الحاج سلطان" وشيخ البلد. وقال لى فى بساطة إن عائلتكم أكثر أصالة من عائلتنا، وكان جدك الكبير "سلطان"، سيد هذه الناحية، وله فضل على أجدادى، ولولا هذا لما كنا نستطيع أن نصل إلى هذا أبداً. وسواء أكانت العمدية فى أسرتنا أو أسرتكم، فالأمر سواء. نحن أهل وأصهار، ودمنا واحد. وسنظل كذلك دائماً.

قال شيخ الخفر :

- وعندما تصبح عمدة، ستجد إخوة لك جدهم هذا الحيوان، الذى يعيش فى الخص...لو أنك مددت بصرك قليلا، لرأيته : بيت جد إخوتك، يا حضرة العمدة !

قال شيخ البلد :

- لكن ما العمل؟

قال شيخ الخفر :

- فكر معى فيما علينا أن نعمله. ألسنا رجالا يا "غضبان"؟ فكر معى فى طريقة ننقذ بها اسمنا وهيبتنا من هذه الكارثة. إن "تفيدة" قد تسيطر على قلب أبيك، فتحمله حملاً على أن يكتب لها شيئاً باسمها، وقد تضحك على ذقنه بكلمة أو ابتسامة أو ما تعرفه أنت من النساء، ألست متزوجاً يا أخى؟ وعندها قد يفضل أولادها عليكم فى الميراث.

قال شيخ البلد :

ـ لكن أبى لن يفعل هذا.

قال شيخ الخفر :

ـ ولو قالت له إن أولادك جميعاً كبروا، وتزوجوا، ولهم أولاد. إنهم رجال لهم مراكزهم، والبنات من خلفك، تزوجن رجالا قادرين على كفالتهن، أما أنا فقد أخذتنى فى آخر عمرك، وستتركنى بقطط صغيرة محتاجة إلى زمن طويل لتنال ما ناله الآخرون من النشأة. حينئذ ماذا يقول لها، وهو يراها جميلة فاتنة صغيرة لعوباً؟ بالطبع سيفضل أولادها عليكم جميعاً، وسيحاول أن يبرر عمله بأنكم أصبحتم رجالاً، أما هؤلاء فصغار. أطفال لا يزالون محتاجين إلى كثير من الجهد ومن المال، حتى ينشأوا مثلما نشأتم.

قال شيخ البلد :

ـ يا نهار أسود. أبى يفعل هذا؟

قال شيخ الخفر :

ـ هل كنت تتصور أنه يتزوج هذه الحافية العريانة؟

قال شيخ البلد :

ـ أبداً، وكانت مفاجأة لنا جميعاً.

قال شيخ الخفر :

ـ والذى يفعل هذا، يفعل ذاك. الرجل فقد عقله. أصبح عجوزاً يهمه أن يوهم نفسه أنه لا يزال شاباً تهواه النساء. إنى لا ألومه، أفكر فقط فى طريقة أنقذ بها الأسرة كلها. وعليك أن تفكر معى.

قال شيخ البلد :

ـ والله يا شيخ الخفر أنا أحس أن عقلى قد أصيب بالشلل. لم أعد أقوى على التفكير.

قال شيخ الخفر :

ـ والأدهى من هذا كله، أن مصير ما سيكتبه لأولاد "تفيدة" سيؤول إلى "أبو عوف" عملياً.

قال شيخ البلد مذعوراً :

ـ لا لا يا شيخ. لا تقل هذا.

قال شيخ الخفر :

ـ هل تستطيع أن تقول لى من الذى سيزرع الأرض "لتفيدة" وأولادها؟ أنت؟ أنا؟ هل تأتمن أحداً منا؟ أبداً. ستضعها تحت تصرف أبيها، وسنرى "أبو عوف" "وأم الهنا" فى الأرض التى مات جدكم "سلطان الكبير"، ليورثها لكم...سنرى "أبو عوف" و "أم الهنا" فى الأرض، ملاكاً حقيقيين، باسم مصالح أولاد "تفيدة".

عندئذ صاح شيخ البلد "

ـ لا لا.. يظهر أن القيامة ستقوم. عندما يتساوى العبيد بالسادة، فهذا معناه أن آخر العالم قد اقترب...مستحيل. مستحيل.

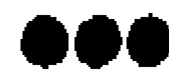
قال شيخ الخفر :

ـ إذن فكر معى، قبل أن يضيع الوقت فى غير طائل.

ورد شيخ البلد :

ـ بل فكر أنت، وأنا معك فى كل تفكير فيه.

وأكد شيخ الخفر أنه سيدبر الأمر، وسيكون عليه أن يساعده فى تنفيذ ما سيستقر عليه عزمه، وسيخطره بذلك، وبالطريقة التى تخلصهم من هذه الكارثة.



وبعـد أن مـضـيـا عـائدين إلـى القـرية، أخـذ "أبو المكارم" يـفكر فى هذا الأمـر الذى سيدبره "أبو سريع" والذى سيكون على شيخ البلد أن يساعده على تنفيذه.

وخاف "أبو المكارم"، حتى لقد أخذ يقـفز من مكان إلى مكان، كجـرادة نافرة، يطاردها صياد !

ولم يدر : هل يقول "لأبو عوف" مثلا. دعك من "أم الهنا" فالنساء قلوبهن رقيقة، ولكن "أبو عوف" أبوها. هل يقول له؟

وعاد يسـخر من نفسـه، ومن "أبو عوف" وهو يقول : ومـاذا سيستطيع أبوها أن يفعل؟ سيزداد بؤساً على بؤسه !! وشقاء على شقائه!! ولا غير.

هل يقول "لأم الهنا"، وليكن ما يكون.

ومن "أم الهنا" يا "أبو المكارم"؟

أليست هى تلك التى مزقوها إرباً، ولم تستطع حتى أن ترفع عينيها فيهم؟

إذن هى "تفـيدة" نفسـهـا. يجب أن تعـرف. يجب أن تتنبه إلـى مـا يدبرونه لهـا. وعـاد يقول : ماذا جـرى لعقلك يا "أبو المكارم". "تفيـدة" التى تخاف أن تخرج من حجـرتها، حتى لا يتخطفـها أحد؟ "تفيدة" التـى رضيت لنفسها حـجرة مغلقة لا تغـادرها إلا للضـرورة، ولا تفـتحهـا إلا إذا عرفت من بالبـاب ! لا لا، يا "أبو المكارم"، إن كل مـا فـى الأمـر أنك ستـزيد الأمر فى نفسها سـوءاً، وهـى حامل، بطنها مكورة أمامها، تعانى آلاماً، ولكنـها تتحملها فى صبر، تطلعاً إلى الروح المتوثب فى بطنها، وكيف سيكون مصيره ومصيرها.

"الست قـمـر" وحـدهـا هـى التى تستطيع أن تقـدر الموقف، وتستطيع كذلك أن تحـتـاط له.

على أنه خـاف على نفسـه، فإنـه ليعـرف أن "الست قـمـر" قـوية، إلا أن مـا فـى قلبـهـا، يقفز دائماً إلى لسانها... وقد تفشى سره، وهـى تصيح فيهم منذرة مهددة، ويومها ستحل عليه اللعنة، ويواجهه "أبو سـريع" الوحش الضارى وجهاً لوجه.

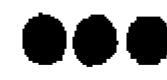
ولو أن الأمر يمكن أن ينتهى عند هذا الحد، لقبله، فإنه ليرجو لو استطاع أن يضحى بنفسه من أجل "تفيدة" ! إن هذا هو غاية ما يتمناه.

ولكن الأمر لن يكون هكذا. لن يقف عند هذا "يا أبو المكارم".

إنه سيكون كصوت النذير، ينبههم إلى شىء، ولا يحول بينهم وبين أى شىء. وسيعرفون يا ساذج كيف يتفادون أن يخرج سرهم مرة أخرى أو يذاع، ولكنهم سيمضون بأسلوب آخر يحققون ما فى قلوبهم من حقد.

وانتهى الأمر "بأبو المكارم" إلى أن خير طريقة يتبعها هى السكوت. هى أن يستمر على ما هو فيه، وقد يمكنه هذا من أن يتابع ما يدبرون. وقد يمكنه الله من أن يتدخل عند اللزوم لإحباط ما يدبرون.

وبرغم ما استقر عليه رأيه فإن "أبو المكارم" لم يشعر بسكون أو هدوء أو راحة مضى يقفز من هنا إلى هناك، كمن لسعته النار، وأصابه مس من شيطان رجيم.



وفى أمسية أخرى من تلك الأمسيات، وبعد أن مرت أسابيع، كاد "أبو المكارم" خلالها أن ينسى ما سمعه من حديث "أبو سريع" وشيخ البلد.

وكان حيث اعتاد أن يستقر من شجرة الصفصاف، مكوراً كأنه قطعة من جذعها، لا يميزه عنها إلا حدقتان تتحركان كعقربى الزمن.

رأى من بعيد "أبو سريع" مقبلا، فى تؤدة واتزان.

ولم يكن هذا طبعه، إلا أنه كان هذه المرة فى صحبة "الحاج سلطان" نفسه، ولم يكن من اللياقة أو الأدب أن يدب فى مشيته معه دبيبه المعروف.

وكان وراءهما الخفير الذى يتبع شيخ الخفر كظله.

وترامى إلى سمعه صوت "الحاج سلطان" يقول :

ـ ما هذا يا "أبو سريع"؟ إلى أين تريدنى أن أذهب؟ إنى لم آت إلى هنا منذ مدة طويلة رغم ما لهذا المكان من جمال. لابد أنك تعرف كيف أحب هذا المكان، فذكرتنى به وكادت معالمه أن تضيع من بين عينى.

ورد "أبو سريع"فى صوته العالى :

ـ وماذا ستستوعبه عيناك يا حاج؟ جمال المكان أم جمال العروس.

وكأنما أحس الحاج أن "أبو سريع" يحيى ذوقه فى الاختيار، فضحك ضحكاً طويلاً، وهو يقول له :

ـ يا خبيث. تحسدنى عليها؟ أما كفانى ما بذلته من عمرى لأوفر لكم ما أنت فيه !

ورد "أبو سريع" يقول :

ـ استغفر الله العظيم يا حاج. أعمارنا كلها فداك.

وكان قد وصلا إلى مكانهما من حافة الساقية، فجلسا متربعين، على حين انصرف الخفير، لينتظر بعيداً، حتى يناديه شيخ الخفر.



ودار بينهما حديث غريب، كاد أن يدفع "أبو المكارم" إلى الجنون، فيصيح مقاطعاً محتجاً غامضاً.

قال "الحاج سلطان" :

ـ نعم يا شيخ الخفر. ها نحن أولاء وحدنا. فيم تريدنى إذن؟

قال "أبو سريع" فى مكر :

ـ والله أنا خجلان منك يا سيدى "الحاج سلطان".

قال "الحاج سلطان" :

- إن كنت تريد مالاً فارفق بى، واصبر قليلاً حتى أدبر الأمر.

قال "أبو سريع" :

- لا لا يا حاج. أبداً. مالاً؟ الحالة مستورة والحمد لله. بالعكس أنا تحت أمرك، إن كانت بك حاجة إلى المال.

قال الحاج فى استغراب :

- يا ولد !..يا خبيث !.. منذ متى هذا الكرم الحاتمى؟

قال "أبو سريع" :

- والله يا حاج إنك لا تفهمنى. أنا هكذا دائما، ولكنك تأخذنى على أنى طماع لا أفكر إلا فى المال.

ومضى بينهما الحديث على نحو غريب :

- إذن قل لى ما حكايتك؟

- أخشى أن تغضب منى.

- هات ما عندك، ولا تلف ولا تدور.

- وإذا قلت شيئاً يضايقك؟

- يا ابنى أنا تجاوزت سن الغضب والانفعال، وعندما تصل إلى سنى ستعرف كيف تكون حال أمثالنا من الشيوخ.

- العفو يا حاج. أنت لا زلت شاباً، وعريساً أيضاً !

- ذكرتنى بأنى عريس. والله يا "أبو سريع" كان هذا ضرورياً. ألا ترانى قد صغرت؟

- وأراك قد عدت إلى الوراء عشر سنوات على أقل تقدير.

- المسألة دائماً متوقفة على العروس. وإذا كانت شابة صغيرة، فإنها تمنحك الشباب. أما العجائز ! أعوذ بالله ! يبددن ما بقى من سنوات العمر.

- و "تفيدة" والحمد لله غزال.

- ما رأيك فيها حقيقة يا ثعلب؟..ألا تراها تزداد حسناً وجمالاً؟

- نعم ...إنها شيء نادر يا حاج.

- وخصوصاً بعد أن حملت يا "أبو سريع".

وهنا سكت "أبو سريع" قليلا، وهو يرسل زفرة طويلة عميقة، ثم عاد بينهما الحديث.

قال "أبو سريع" :

- ليتها ما حملت يا حاج.

- لماذا يا ولد؟..ليقول الناس عنى أنى لم أعد رجلا.

- بل ليبقى سرها، بلا ثمرة.

- لا أفهم...ماذا تريد أن تقول؟

- أنت فاهم يا حاج.

وذعر "الحاج سلطان"، وهب واقفاً وهو يقول :

- لا ...لا أفهم. قل لى. ماذا تعنى بهذا الكلام؟

- هل تعرف ممن حملت يا حاج؟

- من زوجها. منى أنا يا ولد.

- ليتنى لم أتكلم..يا رب، لماذا لم تقطع لسانى هذا فلا أقول شيئاً يؤذيك.

- شيء يؤذينى !

وأخذ يصيح فيه أن يتكلم. أن ينطق. ألا يتركه نهباً للشك والجنون.

ولكن "أبو سريع" كان يحاول أن يسكت عند هذا الحد الخبيث.

ولما ألح "الحاج سلطان" عليه، بدأ يستأنف معه الحديث.

- ألم أقل إنك ستغضب؟

- وهب أنى غضبت. هل هذا شىء يسكت عليه؟

- والله لم يكن فى نيتى أن أقول لك شيئاً على الإطلاق، لولا أن عائلتك على وشك أن تستقبل ولداً ابن حرام. والله لا يرضى هذا، ولا أنت ترضاه. إنك حماى. أبى. أبو "ست الناس"، ولا أقبل لك هذا. إن شرفك هو شرفى، وكرامتك هى كرامتى، وأنا لا أرضى لك أن يقال عنك إنك..

- اسمع "يا أبو سريع". لابد أن تقول لى كل شىء. كل شىء. كل شىء. إياك أن تخفى عنى شيئاً، إذا كنت حقيقة تحرص على، وعلى شرفى وعلى كرامتى والله إن أخفيت على شيئاً، ليكونن ذلك نهاية ما بينى وبينك.

وهز "أبو سريع" رأسه فى رضى عن نفسه، وأخذ يرسل زفرة طويلة وهو يقول :

- الإناء القذر ينضح بما فيه. وماذا كنت تنتظر من واحدة أصلها بهذه الخسة وهذه الدناءة؟ كنت تنتظر منها أن تحافظ على شرفك؟ وهل يعرف هؤلاء معنى الشرف يا "حاج سلطان"؟ أين عرفوه؟ فى الخص؟! تحت أشجار الحديقة؟ بين الحقول؟ الله وحده يعلم كيف كان سلوكها قبل أن تأويها فى بيتك ! ألا نعرف مئات القصص عن البنات من مثيلاتها؟ ماذا يفعلن؟ يتعففن عن شىء؟ يا "حاج سلطان" لماذا لم تحسن الاختيار؟ أنت رجل، وأنا رجل. ودعك من أنك حماى. انس هذا قليلاً. أنا مثلاً. هل أنا معصوم؟ ألست رجلاً لى أخطاء وأهواء؟ على أنى أقضى ما أشاء من الوقت، مع من ألقاهن من مثيلاتها، ثم تذهب لحال سبيلها. أما أن أتزوج، فهنا تكون على مسئولية الاختيار. "ست الناس" بنتك، هل تفكر يوماً بأن تلعب بذيلها؟ مستحيل ! مستحيل! لأنها بنتك، وأصلها الطيب كفيل بأن يجعلها تدرك معنى الشرف، ومعنى الكرامة. أما هؤلاء من الحثالة، فإنهن لا يعرفن شيئاً اسمه الشرف. ومن أين لهن لهذا؟

ولم يطق "الحاج سلطان" صبراً فصاح فيه :

- لكن قل لى. كيف حدث هذا؟

قال :

- فتاة صغيرة كالغزال، وحولها عدد من الشباب، معها فى بيت واحد. تحت سقف واحد. وزوجها الكريم يثق بها، ويتركها بلا رقابة ولا حذر. ولا تؤاخذنى إذا قلت وتزوجت شيخاً مسناً، أكبر من أبيها. وخسيسة الأصل والطبع. ماذا تفعل؟ أنها وحدها أغلب النهار والليل. معها شبان يتغزلون فى جمالها. صغيرة كالغزال.. وفيها دناءة خلقها الله فيها وفى مثيلاتها. قل لى ماذا تفعل؟

قال الرجل وقد اصفر وجهه، ولم تعد ألفاظه تسعفه :

- شبان يتغزلون فيها !..ماذا تقول يا "أبو سريع"؟ من هؤلاء؟

قال :

- أخاف لو قلت لك أن ترتكب معهم جريمة. أو ترتكبها ضد نفسك.

قال فى حدة :

- قل من هم، وسأقتل من خولت له نفسه خيانتى والاعتداء على عرضى وشرفى.

قال :

- لا يا حاج...لن تستطيع. فإنهم من صلبك.

وكاد الرجل أن يجن. ما هذا الذى يسمعه؟ ماذا يقول "أبو سريع"؟ وأخذ يروح ويجيء، وهو يضرب كفاً بكف، بينما "أبو سريع" يفرك كفيه، ويبتسم فى نشوة !

وعاد "الحاج سلطان" يصيح فى جنون :

- قل لى من تقصد؟ من من أولادى فعل هذه الجريمة البشعة؟

وكاد يبكى ويولول.

ولكن "أبو سريع" قال له وهو يعاتبه :

ـ هل تسبب لنا فضيحة يا حاج؟ ألا يكفى ما حدث لنا من هذه المنحوسة التى دخلت البيت لتفسده؟ لا ياحاج. لن أقول لك إلا إذا أقسمت لى بالله العظيم، وبكتابه الكريم، وبنبيه الذى زرته مرات، ألا تقول شيئاً، وألا تفعل شيئاً.

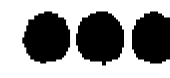
وأمسك الرجل بتلابيب "أبو سريع" وهو يقول :

ـ وتريدنى ألا أفعل شيئاً؟ ألا أقول شيئاً؟ إنك تريد أن تقضى على؟

قال "أبو سريع" فى هدوء :

ـ واسمك؟ وسمعتك؟ وشرفك؟ ألا تفكر فى هذا كله؟ وأولادك وبناتك وأحفادك؟ أليس لهولاء وزن عندك؟ هل تظن إن فعلت شيئاً، أو قلت شيئاً أن الناس سيسمعون ويقولون إنك مظلوم ومجنى عليك، وأن الذنب ذنب المجرمة التى حملت من سواك؟ ماذا سيقولون؟ سيقولون إنك أنت الذى أخطأت. شرفك هو الذى تمرغ فى الوحل. من يعرف "تفيدة" هذه، ومن تهم من الناس؟ ومن أبوها؟ من أمها؟ وماذا يصيبهم هم؟ لا شىء. الذى سيصاب هو أنت. هم أولادك. هو مستقبلهم الذى عشت عمرك كله تبنيه لهم. أتفهمنى؟ أنا ابنك، واسمع كلامى، فإن شرفك من شرفى.

وهدأ الحاج هدوءاً مستسلماً يائساً، فجلس، وقد وضع وجهه بين كفيه.



وكان "أبو المكارم" ينتفض فى مكانه كالطير المذبوح.

كان يهم بأن يصيح مذعوراً..ولو أنه قادر على الكلام لقال : "تفيدة" شريفة. أنتم الذين تريدون أن تتخلصوا منها.

ولكنه كان يعرف أنه أخرس، وأنه لا يستطيع أن ينطق بما يريد.

كذلك كان يعرف أنه إن فعل ذلك، فإنه لن يستطيع بعدها أن يتابع الأحداث، لأنهم سيتخلصون منه من أسهل طريق.

وأحس أن وجوده الآن ضرورى، وأن هذه هـى الساعة التى يجب أن يحرص فيها على نفسه وعلى صمته، وعلى حياته، حتى ينقذ "تفيدة" إذا استطاع.

ولكنه لم يستطع أن يتحكم فى مجرى دمعه مع هذا، فأخذت قطرات ساخنة من قلبه، تتساقط على خديه، وهو صامت كالجماد.

وفوجىء "أبو المكارم" مفاجأة لم يكن يتوقعها، عندما قال "أبو سريع" "للحاج سلطان":

ـ تعدنى أولاً ألا تفعل شيئاً؟

فلما وعده، وأقسم له على ذلك قال له :

ـ إنه ابنك ناجى...وسامى كذلك. الاثنان يتقاسمانها كلما خلت منك الدار.

وانكفأ الرجل على وجهه وهو يئن من طعنة لم يكن يتوقعها قط.

ولما استفاق، نظر إلى "أبو سريع" وهو يقول فى صوت خافت كالهمس :

ـ لا أظن هذا يا "أبو سريع". إن هذين الولدين، هما أكثر أولادى أدباً.

قال له "أبو سريع" فى تخابث

ـ يقولون يا حاج "يؤتى الحذر من مأمنه" !

قال :

ـ كيف هذا؟ إنهما تلميذان متعلمان مؤدبان. ربيتهما وتعهدتهما وبذلت لهما كل ما أستطيع، ولا يزالان يتابعان دراستهما، عند أخوالهما فى المحلة الكبرى، وكنت أنتظر منهما خيراً كثيراً. كنت أتطلع إلى اليوم الذى ينتهيان فيه من دراستهما لأفرح بهما. غير معقول هذا الذى تقول.

قال "أبو سريع" :

ـ غير معقول طبعاً، لأنك مغمض العينين لا ترى. ولكن أجبنى. ألم تسمع بقصة "الست قمر"، وكيف وقفت تدافع عن "تفيدة" دفاعاً باسلاً، وتشتمنا جميعاً من أجلها.

لقد شتمتك أنت أيضاً معنا، واتهمتك بأفظع التهم. ولم تترك واحداً من العائلة أو أقاربها أو أصهارها إلا شرحته تشريحاً. لماذا فعلت هذا؟

- ربما كانت غيرة نساء.

- وممن تغار؟ منك أنت؟ منا نحن؟ أم من العروس الجديدة التى دخلت عليها؟

- غاظها منى أنى تزوجت عليها.

- ولا تصب غضبها على العروس الجديدة، بل تحميها. وبهذه الحماسة !! يا "حاج سلطان" إن هذا شىء غريب. لقد كنت أسمعها وأنا أعجب من موقفها هذا الشاذ، ولقد ظللت أعجب حتى عرفت السبب.

- وما السبب؟

- ولداها وما تعرفه هى عن علاقة كل منهما بها !

- يا نهار أسود..وهل هذه أم؟ تشجع ولديها على خيانة والدهما؟

- طالما تزوج والدهما عليها. كيف تنتقم منه؟ أنا لا أقول إنها دفعتهما إلى ذلك، ولكنها لما علمت بالأمر، ارتاحت له، وأخذت هذا الموقف من "تفيدة" وهى أولاً وقبل كل شىء، سيدة من البندر، لها طبعها الخاص، وتفكيرها الخاص.

تربيتها مختلفة عن تربيتنا، وأهل البندر ليسوا مثلنا. إنهم يتساهلون فى مسائل كثيرة نتمسك بها نحن.

وهز رأسه عجباً وهو يقول :

- ويصل بها الأمر إلى هذا الحد؟

قال "أبو سريع" :

- أنت رجل مجرب. ألا تعرف النساء، عندما يغرن؟ الغيرة عمياء تقتل القلب والعقل. ألا تذكر كيف كانت حماتى تجن !!..وأخذت تقول إنها لا تغار ولكنها لا تقبل أن تكون

واحدة "كتفيدة" فى مستواها؟ هى الغيرة بشكل آخر "يا حاج سلطان". ومع هذا فحماتى ليست الزوجة الأخيرة، وبينها وبين العروس الجديدة "الست قمر". فكان أولى "بالست قمر" أن تكون أعدى الناس "لتفيدة" فما بالك، وقد بسطت عليها حمايتها فأصبحت "تفيدة" كالخواجه... حماية ! إن هذا شىء عجيب لا يصدقه أحد. اسأل الناس جميعاً. اسأل أى أحد تختاره، وستجده ينظر إلى هذا الموقف نظرة عجيبة جداً.

وفكر "الحاج سلطان" قليلاً ثم سأل "أبو سريع" :

ـ ولكن كيف وقفت "قمر" إلى جانب "نبوية" وأحضرت لها الزار فهدأت بعد أن كانت على وشك الجنون؟

قال "أبو سريع" فى استخفاف :

ـ يا رجل ...إنها تعرف شيخة الزار...، وتريد أن تخدمها.

قال الحاج :

ـ تخدم من؟

قال "أبو سريع" :

ـ تخدم شيخة الزار طبعاً.

قال الحاج :

ـ ولكنها خدمت حماتك.

قال "أبو سريع" :

ـ وهل الذى تناله شيخة الزار من وراء ذلك..قليل؟ إنها خدمة كبيرة تقدمها لها، إلى جوار أن هدوء حماتى يخلصها من كثير من المنازعات، ويصرفها عن مراقبة "تفيدة" وهى تستقبل العشيقين الصغيرين.

وعاد "الحاج سلطان" يضطرب ويثور ويصيح :

- إنى أقتلهما بيدى، إنى أشرب من دمهما، ومن دم أمهما كذلك.

ووقف "أبو سريع" يهدئه ويطيب خاطره، ويذكره باسمه وشرفه، ومكانة أسرته، ومصير أولاده.

ولما هدأ قليلا قال "أبو سريع" :

- اترك لى الأمر، وسأدبره أنا بطريقتى. أنت تعرف أنى ابنك، وأن ما يهمك يهمنى.

قال الحاج فى عصبية :

- ولكنى أريد أولا أن أتأكد. كيف أتأكد مما تقوله لى؟

قال :

- أنا كذاب يا حاج؟ أنا أضلك؟ إذن اسأل ابنك شيخ البلد. أسأل "سيد" و"ممتاز" أليسوا جميعاً أولادك؟

وهز الحاج رأسه وهو يردد :

- أنا اسألهم ! أقول لهم ماذا. هل اعتدى أخوان لكما على شرف أبيكم؟ هل هان أمرى بينهم إلى هذا الحد؟ هل جننت يا "أبو سريع"؟ هل أستطيع أن أواجه أولادى بضعفى هذا؟ أنت تريد أن تقتلنى. أن تهز كبريائى ! أنا أسألهم !

وقال "أبو سريع" :

- يا حاج سامحنى..أنا مخطىء. كان يجب أن أخفى عنك كل شىء وأخذ يحدث نفسه قائلا :

- لماذا فعلتها يا "أبو سريع"؟ رجل من سن أبيك، وهو حموك. لماذا تسبب له هذا الضيق؟ لماذا لم تتركه موهوماً بأن زوجته الحبيبة إلى نفسه، عروسه الجديدة، هى أشرف الزوجات؟ اللهم لماذا لم تقطع لسانى قبل أن يتحرك بمثل هذا الكلام، اللهم لماذا لم تخترنى إلى جوارك حتى لا أسبب هذا الحرج للرجل الذى أحبه وأجله وأحترمه؟

وصاح "الحاج سلطان" فى قوة :

- أبداً. أنت لم تضايقنى. كان يجب أن تقول لى. كان يجب أن أعرف وأنا صحيح فوجئت بهذا مفاجأة سيئة جداً. ولكنى قادر على تحملها. اسمع يا "أبو سريع" سأترك لك الأمر، ولكنى لا أطيق أن أرى "تفيدة"، ولا "قمر" ولا ولدى "ناجى" و "سامى" لابد من التخلص منهم جميعاً.

قال "أبو سريع" :

- اترك هذا الأمر لى. وإذا كنت تريد أن تسمع نصيحتى، فسافر إلى مصر، وامكث هناك بعض الوقت بحجة عمل من الأعمال. بحجة زيارة أهل البيت. بأية حجة، ولا تعد من مصر إلا إذا أرسلت أخطرك بأن تعود. وسأقنع أنا "الست قمر" بأن مصلحة أولادها تقضى بأن تكون إلى جوارهم لتباشرهم أثناء الدراسة، ولتخدمهم، وبهذا نتخلص منها ومن أولادها. أما "تفيدة" فاترك أمرها لى.

قال الحاج :

- عندك حق. سأبيت الليلة عند أخى "غضبان"، وسأسافر غداً إلى مصر. ولن أعود وهم هنا ابداً. أنت مسئول يا "أبو سريع".

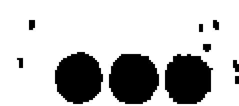
قال "أبو سريع" :

- أنا فى خدمتك دائما، إنى أريد منك فقط أن تفكر فى أمر الميراث، هل تترك هؤلاء يرثونك بعد عمر طويل؟

- أنا ... أتركهم يرثوننى بعد أن عبثوا بكرامتى واعتدوا على شرفى! مستحيل سأحرمهم جميعاً من الميراث.

وافتر فم "أبو سريع" عن ابتسامة خبيثة وهو يقول :

- أنا كنت أعلم أنك رجل، وأن كرامتك فوق كل اعتبار. ربنا يطيل لنا فى عمرك. أنت أبونا وكبيرنا، وأنت عزنا ولا عز لنا بغيرك.



وعاد "الحاج سلطان" بصحبة "أبو سريع" وخلفهما الخفير الذى يلازم شيخ الخفر كظله.

وخرج "أبو المكارم" من مكانه من شجرة الصفصاف وقد اضطربت نفسه بمشاعر القلق والخوف، وامتلأ قلبه هماً.

ماذا سيفعل هؤلاء الناس؟

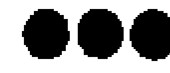
هل بلغ الحقد الأسود فى قلوبهم هذا المبلغ؟

هل وصلت بهم الحالة إلى هذا الحد؟

ما هذا الظلم؟ وما هذا التجنى؟

ونظر إلى السماء، ثم رفع يديه إلى الله، ودموعه تجرى على خديه.

كان يستجدى الله أن يرسل من عنده معجزة من معجزاته، تحول بين هؤلاء القوم والبنت المسكينة، التى تآمرت عايها قوى الباطل، بلا ذنب جنته أو إثم ارتكبته.



وفى صباح اليوم التالى، غادر "الحاج سلطان" القرية إلى مصر، ليزور أهل البيت، ويقضى بعض أعماله دون أن يودع أحداً من أهله، أو يصحبه أحد فى هذه الرحلة.

وأخذت القرية تتساءل فى همس عن هذه الرحلة المفاجئة، ولكنها لم تستطع أن تصل من همسها إلى جواب.

وخلا الجو "لأبو سريع" ليعمل.

وكان هم "أبو سريع" هو أن يتخلص أولا من "الست قمر"، فإنها خطر يهدد ما ينوى أن يدبره من أمور.

وكان عليه أن يأخذ الأمر باللين والمعروف.

وكان الجو ممهداً لهذا اللين، خاصة بعد أن أبدت "الست قمر" اهتماماً "بالست نبوية" وطلبت لها الزار، وأثمر الزار ثمراته، فزالت الحدة التى كانت تنتاب "الست نبوية" فتصل بها إلى درجة من الهياج والجنون لا تطاق.

وبدأ "أبو سريع" ينفذ خطته.

تودد إلى "الست قمر" فظنت ذلك منه محاولة أخرى للتقرب إليها، والتغزل فى جمالها، فاستقبلت ذلك بما اعتادت أن تستقبله به من السخرية.

ولكن "أبو سريع" لم يكن المرة ساعياً وراء جمالها، ولا طامعاً فى الوصول إلى قلبها، وإنما كان يريد أن يقنعها بأن تسافر مع ولديها، حتى تكون معهما وإلى جوارهما، فلا ينحرفان أو يضلان الطريق. لا تلعب بعقلهما الفتيات الفاتنات من البندر، فينصرفان عن الدراسة والمذاكرة إلى شىء آخر لا ينفعهما.

وعجبت "الست قمر" من هذه النغمة الجديدة. من اهتمام "أبو سريع"، "بناجى" و"سامى" ولديها، ولم يكن قبلها يعبأ بأمرهما أو يهتم بمصيرهما.

ولكنه قال إنهما من أصهاره. أليسا أخوين لامرأته؟

وأخذ يروى لها كيف أن النجاح الذى يحققانه، نجاح للأسرة كلها، ويوم يصبح أحدهما ضابطاً للنقطة، والآخر مهندساً للرى فإن رقاب الأسرة كلها ستطول بهما. أليسا أخوينا ومن دمنا، وهل يتحول الدم إلى ماء "يا ست قمر"؟

ومضى "أبو سريع" يقول لها إنه يعرف أن أخوالهما يعنون بهما بلا شك. ولقد نجح الولدان فى دراستهما نتيجة لهذا الاهتمام. ولكنهما وقد كبرا، وسيواجهان مسئوليات جديدة فى التعليم، يحتاجان إليها. إلى أمهما. حتى لا تنحرف اتجاهاتهما فى الحياة. إن الشباب قد يغرى فى كثير من الأحيان بالانحراف، ومهما تكن عناية الأقارب، فهى لا تصل إلى عناية الأم أبداً.

ـ يا رجل يا مكار. ماذا تدبر من أمر؟ هل تريد أن تتخلص منى؟ بهذا المكر الخبيث؟..وما شأنك أنت بأولادى؟ ولماذا تتخير وقتاً يكون أبوهما على سفر، لتفتح هذه السيرة؟ والله يا شيخ الخفر، أنا غير مطمئنة إليك.

وانتهت بينهما المناقشة، "والست قمر" مصرة على أن يدعها تصرف أمور أولادها كما تريد، وأنها ليست فى حاجة إليه.

ولكن "أبو سريع" لم يكن لييأس، فأجل الأمر، ثم عاد يكرر الكلام فيه، باللين والدعابة، وأسرف فى احترام "الست قمر"، حتى استطاع أن يصل إلى ثقتها، فقالت له أخيراً :

ـ عندك حق. إن ولدى يحتاجان إلى، ولكن "وردة" لابد أن تكون إلى جوارى، وأخشى ألا يوافق أبوها على ذلك.

وعجب "أبو سريع" من هذا. لماذا لا يوافق أبوها؟ ألست أمها؟ أنت أكثر حرصاً عليها منه.

قالت : إذن ننتظر حتى يعود.

قال "أبو سريع" " إنى اتفقت معه على أن أسافر إليه. وسأنال موافقته، فإن موعد المدارس اقترب، وقد تطول غيبته فى مصر، ولا داعى لأن يتعطل الأولاد حتى يعود.

وشردت "الست قمر" قليلا ثم قالت :

ـ ولكن لى شرطاً يا "أبو سريع" أن تكون أنت شخصياً المسئول عن "تفيدة" فإنى أخشى لو سافرت أن تتعرض لاضطهاد، وهى حامل، وعلى وشك الولادة، ومحتاجة إلى العناية وأنتم جميعاً تكرهونها.

قال "أبو سريع" فى شهامة:

ـ عيب يا "ست قمر". هل يجسر أحد على الاقتراب منها؟ لقد هدأت "الست نبوية" والفضل لك، وقد كانت هى التى تثيرعليها الأسرة كلها. ثم هى ستنجب لنا ولداً أو بنتاً، وسيؤكد هذا وجودها هنا وصلتها بنا. لقد كانت المسألة لا تعدو نساء، والزمن كفيل بحل كل شىء. والحالة هدأت الآن والحمد لله.

وترددت "الست قمر"، وظلت خائفة على البنت الصغيرة، ثم اقترحت أن تذهب إلى أمها حتى تضع مولودها.

وتردد "أبو سريع"، وعجبت "الست قمر". فقالت ساخرة :

ـ طبعاً لا يرضى الحاج أن تعود إلى الخص؟ مع أنى واثقة من أن الخص عندها أفضل من هذا البيت. لكن الحاج. هل يرضى؟

قال :

ـ طبعاً لن يرضى؟ ولكنى سأستأذنه أيضاً وسأحاول أن أقنعه. وربنا قادر على أن يلين قلبه ولكنى لا أضمن شيئاً.

وعادت "الست قمر" تقول فى سخرية :

ـ يا شيخ الخفر ! إياك أن تكون هناك خطة للتخلص منى أو الانفراد بالضحية المسكينة "تفيدة" ! إنى أعرف أساليبكم، ولكن والله لو حدث شىء من هذا، لأفضحنكم جميعاً.

ولكن شيخ الخفر أكد لها أنه مسئول عن كل ما قاله، وأن عليها أن تطمئن.

حينئذ وافقت "الست قمر"، وبدأت تتطلع إلى السفر مع أولادها، لترعاهم أثناء السنة الدراسية، ولتطمئن عليهم دائماً.

وبعد مضى أيام، أعلن "أبو سريع" أنه ذاهب إلى مصر ليقابل حماه، وأنه لن يمكث إلا ليلة واحدة، أو ليلتين ثم يعود.

ولما عاد أبلغ "الست قمر" أنه نجح فى مهمته. وافق "الحاج سلطان" على سفرها مع أولادها. وافق على أن تذهب "وردة" معها. وافق كذلك على أن تذهب "تفيدة" إلى أمها، حتى تضع مولودها.

وعجبت "الست قمر" لهذه الأنباء، فقد كانت تشك فى أن يوافق الحاج على كل ذلك وقالت "لأبو سريع" تداعبه :

ـ إياك أن تكون قد خطفت رجلك إلى كفر الزيات أو إلى طنطا، ولم تر الرجل على الإطلاق. إياك أن يكون هذا الكلام من اختراعك أنت !

قال "أبو سريع" :

ـ عيب يا "ست قمر"، ولماذا أذهب إلى كفر الزيات أو إلى طنطا؟

قالت :

ـ ستقول لى يا زائغ العينين؟ صديقاتك هناك !..أتظنني لا أفهمك؟!

قال لها :

ـ والله يا "ست قمر" ما من واحدة أسرت قلبى إلا أنت، ولكنك...

وقاطعته وهى تقول :

ـ ستعود إلى كلامك الفارغ. لا يا "سبع الليل". أنا لست من هؤلاء. حدثنى عن "الحاج سلطان". ماذا قلت له وماذا قال لك؟

قال :

ـ أفهمته أن مصلحة الأولاد فى أن تكونى إلى جوارهم، وأن عليه أن يقدر الموقف على أساس هذه المصلحة، فتردد أول الأمر، ثم عاد ووافق.

قالت :

ـ و "وردة". سآخذها معى. لا أستطيع أن أتركها هنا أبداً. من يرعاها؟

قال :

ـ وفتحت له موضوع "وردة" فوافق بعد أن تعبت فى إقناعه. ولكنه طلب منى أن أوصيك بألا تخرج من البيت، وألا يراها أحد من الغرباء. تعيش عيشتنا، كأنها لم تنتقل من القرية. أما حياة البندر فهو لا يوافق عليها أبداً. وأكدت له أنك ستفعلين هذا.

وضحكت وهى تقول "لأبو سريع" :

ـ كلكم تظنون أن حياة البندر، حياة فيها خروج، والصحيح غير هذا من قال إن أهل البندر قوم لا يحافظون على أنفسهم، وإن لهم تقاليد خارجة؟ إن الوهم الذى تعيشون

فيه، هو سبب هذه النظرة إلى البندر، ولا يزال البندر بخير. بل ربما كان أفضل من حياتكم فى القرية. فيه الحرية، ولكن فيه إلى جوار الحرية فضائل كثيرة جداً، والحرية لم تفسد هذه الفضائل، بالعكس إنها أضاءت الجو، فوضحت هذه الفضائل أمام الناس، واصبح كل شىء مكشوفاً ومعروفاً. أما هنا، فالمستور أكثر من الظاهر الواضح. وفى جو الظلام تكثر كما تعرف يا "أبو سريع"... واسمح لى ...أنت تعرف كل شىء.

قال "أبو سريع" :

ـ لا يا "ست قمر". إذا كنت ستأخذين "وردة" لتغيرى من طبائعها أو حياتها فلا "الحاج سلطان" ولا أنا، ولا أحد من العائلة يوافقك على هذا. إننا نحب حياتنا، ولا نرغب فى تغييرها أبداً. إن مركزنا هنا لا يسمح أبداً لواحدة من دمنا ومن عائلتنا أن تعيش كما يعيش أهل البندر.

قالت وهى تضحك :

ـ لا تخف. سأفعل ما تقولون. إنما أردت فقط أن أبين الأمر، حتى لا تظلموا أهل البندر، كما تفعلون، كلما واتتكم الفرصة.

وانتهيا إلى اتفاق : أن تبدأ فى إعداد نفسها للسفر.

على أنها قبل أن تنتهى مناقشتهما قالت :

ـ اسمع...والبنت المسكينة "تفيدة". ماذا سيكون مصيرها؟ إنى أخاف عليها.

قال لها فى حماسة :

ـ عيب يا "ست قمر". لقد كانت غيرة النساء هى التى عرضتها لما تعرفينه، أما الآن وبعد أن حملت، وأصبحت على وشك أن تضع لنا ولداً أو بنتاً، فقد انتهى هذا لحاله. إنها صارت منا. ستصبح أماً لشخص من عائلتنا ومن دمنا. لا لا. أنا كفيل بأن تعيش مرتاحة هانئة البال.

قالت وهى تهز رأسها غير مصدقة لما تسمع :

- إنى أخاف عليها، برغم كل هذا. ستكون وحيدة هنا. لا تسمحون لأمها، بزيارتها، ولا لأبيها، ولا لأختها. ما معنى هذا؟ حرام عليكم، لمن تشكو إن كانت لها شكوى. لمن تحكى حكاية تقلق بالها؟ ممن تطلب النصيحة إذا احتاجت إلى هذه النصيحة؟ هذا ظلم يا "أبو سريع". ولو أنها بنتك ما قبلت أن تعامل هذه المعاملة !

قال فى احتجاج :

- بنتى يا "ست قمر"؟ هل تريديننى أن أتساوى بهؤلاء؟

قالت :

- ربنا كان قادراً أن يجعلك مثلهم. هل أنت كبير حتى على الله؟ لو أن الله خلقك فى هذا المستوى، أكنت تقبل لبنتك أن تعامل هذه المعاملة؟

وخفض رأسه إلى الأرض وبعد أن فكر قليلا قال :

- الحقيقة لا. لم أكن أقبل مثل هذه المعاملة. لكن الله يخلق الناس فوق بعضهم درجات يا "ست قمر". وقد شاء لها أن تكون من درجة لا تتناسب مع درجتنا وهى حكمة الله على أى حال.

قالت وهى تسخر :

- حكمة الله.. الله عادل يا "أبو سريع"، وهو لا يرضى الظلم.

قال فى استنكار :

- والله لا يرضى أن نذل لأن "الحاج سلطان" تزوجها. إن السماح لأهلها بزيارتها ينزل من قيمتنا أمام أهل الناحية جميعاً. هل يرضى الله بهذا؟ إن الله أنعم علينا بهذه المكانة بين الناس، وأمرنا أن نتحدث بنعمته، فهل من التحدث بنعمة الله أن تهتز مكانتنا بين الناس، وأن يهتز قدرنا؟ الله لا يرضى بهذا.

قالت :

ـ ولكنها إنسانة لها أم وأب وأخت. ألا تراهم؟

قال :

ـ لا يا "ست قمر". إن كان الأمر أمر رعايتها فنحن نرعاها. أما أن يحضروا إليها فلا.

قالت :

ـ أنت رجل، ولا تعرف البنت فى هذه الظروف، وهى تحمل لأول مرة فى حياتها. إنها تحتاج إلى أمها. تحتاج إليها فى كل لحظة. ويمنعها الحياء من أن تسأل أحداً غير أمها. يا "أبو سريع" قدر ظروف الناس.

قال :

ـ لا يا "ست قمر". هذا البيت له كرامة، ولا يجوز أن نهده نحن بأيدينا.

قالت :

ـ إذن. نفذ ما تحدثنا عنه. أرسلها إلى أمها حتى تضع هناك.

قال :

ـ فى الخص !

قالت :

ـ نعم فى الخص. ما عيب الخص؟ أأنت الذى ستذهب أم هى؟ إنى واثقة من أن الخص أحب إليها، من هذا البيت الكبير. نشأت فيه، وهى تحبه، وستكون إلى جوار أمها وأبيها وأختها. كلهم سيخدمونها بأعينهم، إن هذا هو أحسن حل للموقف.

وصمت قليلا، ثم رفع رأسه إليها متردداً، وبعد أن شرد بفكره بعيداً قال :

ـ على كل حال يا "ست قمر". هذا حل والسلام.

قالت :

- إذن تنفذه، طالما أنك توافق عليه.

قال :

- ألا ننتظر "الحاج سلطان" حتى يعود؟

قالت :

- إذا رأى الحاج رأياً آخر، فالخص قريب. تعود منه وقتما تشاءون. وهل تستطيع أن تخالف أوامركم؟ يا سيدى اتكل على الله.

قال :

- وهو كذلك. ويوم يغضب على الحاج، سأتحمل غضبه من أجل عيونك الساحرة الجميلة.

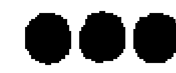
قالت :

- عيب يا شيخ الخفر. ألم نتفق على ألا تكرر كلامك هذا الفارغ.

وافترقا على اتفاق : أن تسافر هى مع أولادها ترعاهم أثناء الدراسة.

وأن تصحب معها "وردة"، على أن تسير حياتها هناك، على الطريقة نفسها التى اعتادتها فى القرية.

وأن تذهب "تفيدة" إلى أمها، لتخدمها حتى تضع مولودها.



وبدأت "الست قمر" تستعد للسفر.

على أنها بشرت "تفيدة" بأنها ستذهب إلى أمها حتى تضع مولودها.

ولم تصدق "تفيدة" هذا الكلام. لم تتصور أن هذا كان يمكن أن يحدث.

لقد فقدت القدرة على الاستفسار، أو التعبير، وأخذت ترسل صيحات قلقة وإشارات غامضة...كأنها أصبحت خرساء.

وبعد أن زالت عنها المفاجأة، دارت بينهما المناقشة التالية :

ـ صحيح...صحيح ما تقولين؟ لا يمكن ! إنك تضحكين على !

ـ والله صحيح. وأنا أيضاً سأغادر هذا المنزل ...

ـ لا لا يا "ست قمر". هل يطلقك "الحاج سلطان"؟ هل تخرجين غاضبة؟

هل أنا السبب يا "ست قمر"؟ لا..أنت تبقين. أنت منهم، وأنا الغريبة فى هذا البيت. أنت أولى بهذه الحياة. أنا جئت من الخص، ويسعدنى أن أعود إليه. أما أنت. أنت ليس لك خص، لست مثلى. أنت شىء آخر. لماذا تغادرين البيت يا "ست قمر"؟ من أجلى أنا !

ـ اسمعى أولا لتعرفى أن كل شىء على ما يرام، وأننى لن أغادر البيت من أجلك ولن يطلقنى الحاج، ولست غاضبة. أبداً. وليته يا بنتى يطلقنى. أتظنين أنى متمسكة به. أبداً. إنما الحكاية هى أن "ناجى" و "سامى" كبرا، وليس معهما أحد يرعاهما أثناء دراستهما فى المدارس، وصحيح أنهما يلقيان فى منزل أخوالهما العناية والرعاية ولكنهما محتاجان إلى. لهذا سأسافر معهما لأكون إلى جانبهما، وستكون معى "وردة". ولكنى خفت عليك أن تعيشى وحدك هنا، وأنا على سفر بعيد، خصوصاً وأنت حامل فأقنعت "أبو سريع" أن تذهبى إلى أهلك، حتى تضعى المولود. وإن شاء الله يكون ولداً، ويكون جميلا مثلك، ويملأ قلبك وحياتك سعادة ورضى. هل فهمت الآن.

وعادت "تفيدة" لا تصدق ما تسمعه، ولا تستطيع أن تتصور أنهم سيسمحون لها برؤية أمها أو أبيها أو أختها مرة أخرى.

قالت :

ـ ألا تذكرين يوم السبوع، والذى فعلوه يومها؟

قالت "الست قمر" :

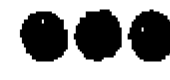
ـ اصبرى يا بنتى كل شىء يهون. من يدرى؟ ربما كان الفرج قريباً.

قالت :

ـ والنبى يا "ست قمر" لا تتركينى وحدى. يرسلوننى أولا إلى أهلى، قبل أن تسافرى أنت، فأنا أخاف منهم، ولا أستطيع أن أكلم أحداً منهم كلمة واحدة.

قالت "الست قمر" :

ـ وهو كذلك. لن أغادر حتى تذهبى أنت أولا.



وبدأت "الست قمر" تتصل "بأبو سريع"، ليسرع بتنفيذ ما اتفقا عليه.

بينما أخذت "تفيدة" تعيش فى حلم جميل رائع.

سأعود إلى الخص. إلى العش الجميل الذى ولدت فيه، وعشت فى ظله أجمل أيام حياتى. سأرى أبى. وسأرى كذلك "مفيدة".

سأصحو كل صباح، لأمتع عينى بجمال الطبيعة، ومفاتن الحقول.

وسأرى أمى، فى اللحظة التى أفتح فيها كل يوم، سأملأ قلبى منها، وسألعب مع "مفيدة". سأحكى لها أشياء كثيرة جداً لا تعرفها. سأشكو لها المحنة والعذاب اللذين أعيش فيهما. وسأرى كذلك "أبو المكارم" الصادق الأمين الوفى.

سنلعب جميعنا بفردة الشراب الأحمر، كما كنا نفعل من قبل.

وسأدور هنا وهناك، أضع الماء فى المسقاة لدجاجى.

يا ترى كم صار عدد الدجاج الآن؟ ولن نتشاجر أنا و "مفيدة"، على جمع البيض من عشش الدجاج. أبداً. ليس هناك وقت للشجار. سنعوض هذه الأيام التى فاتتنا وسندخر ذكريات جميلة، أعيش عليها، عندما يعيدوننى مرة أخرى إلى هذا السجن.

وأخذت تحلم...لا تنام أبداً، ولا تهدأ أبداً.

صورة أمها بين عينيها دائماً.

وأبوها. المسكين المريض. ستراه. وستغلى له ورق الجوافة، وستعد له قطرة الندى، وستسمع مرة أخرى حكاياته وقصصه الجميلة.

متى...متى؟

وأخذت تتعجل الأيام، تكاد أن تقفز جسر الزمن، لترى نفسها هناك.

وفى مساء يوم من الأيام، جاءتها " الست قمر"، وعلى شفتيها ابتسامة كبيرة، ثم أخذتها بين ذراعيها، وقبلتها.

قالت "تفيدة" :

ـ متى ...متى أذهب يا "ست قمر"؟

قالت "الست قمر" :

ـ هل أنت على استعداد؟

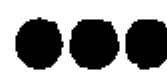
قالت فى لهفة :

ـ طبعاً...متى...متى؟

قالت "الست قمر" :

ـ الآن تذهبين...

ولم تصدق إلا عندما وجدت نفسها فى الخص، بين أهلها.



وكانت المفاجأة مذهلة لأسرتها الصغيرة، فقد ظهرت لهم "تفيدة" فجأة، كما اختفت عن عيونهم فجأة، وبلا انتظار، كأنها البرق.

لم يكن فى صحبتها أحد، إلا خفير كلف بمرافقتها، و "أبو المكارم" يمشى خلفها تخنقه عبراته، من الخوف عليها.

بل إن وداعها لبيت "الحاج سلطان" كذلك، قد تم فجأة ولا انتظار.

لم تودع فيد أحداً إلا "الست قمر". قبلتها فى صدق، وكادت من فرط ما أثر فيها جميلها، أن تقبل يديها...انحنت فعلا على يدها، لولا أنها سحبتها منها، وهى تتمتم فى تأثر بالغ : أستغفر الله يا بنتى. أسنغفر الله.

وكان الوقت مساء، بعد العشاء، فى ليلة من ليالى الصيف، حيث يرق النسيم فى القرية، فيستقبله الناس فى بهجة وارتياح.

فلما وصلت الخص، يصحبها أحد الخفراء، لم يكن الخص موصداً، وليس فى الخص ما يوصد من أجله، إلا برد الليالى فى الشتاء أو هجير الجو فى نهار الصيف، فدخلت...أطلت على الأسرة الصغيرة وقد طفح وجهها بشراً.

ولم تحس إلا أنها ترتمى على أمها، تقبلها، وتبكى من شدة الانفعال.

وتقفز إلى أبيها، ثم إلى "مفيدة"، وتكرر قفزاتها من هذا إلى تلك، إلى هذه، بلا كلام.

أما الخفير فقد وضع لفة تحوى ملابسها، وانصرف من حيث جاء.

وأما "أبو المكارم" فقد تكوم أمام الخص، تخنقه العبرات.

ولم تعرف "تفيدة" ولم تعرف الأسرة كلها كيف تتكلم من هذه المفاجأة. ماذا تقول؟ واكتفت بأن عبرت عن نفسها، فى قبلات تبللها دموع.

ولما مضت لحظات المفاجأة بدأت "أم الهنا" تسأل :

ـ لماذا جئت يا بنتى...ماذا حدث؟ هل طردوك؟

وقال "أبو عوف" :

ـ إن سيدى الحاج فى مصر، ولم يعد بعد. من يا بنتى أذن لك بأن تأتى؟

وكيف سمحوا لك بالمجىء؟

وقالت "مفيدة" :

ـ والله !!...طردوها. طلقوها. المهم رأيناها..والله لك وحشة يا مضروبة.

الله الله. ما هذا؟ إن ابنك على وشك أن يقفز إلى الخارج. تسجنينه هكذا يا ظالمة؟

قالت وهى تبكى وتضحك معاً. على خدها دمعة، وعلى شفتيها ابتسامة :

ـ المهم أنى جئت. إذا كنتم تريدوننى أن أعود فإنى أعود ثانية. لكن بالله عليكم جميعاً لا تفعلوا. إنى لا أصدق أنى بينكم. لا أصدق أنى أرى أبى. كنت أظن أنى سأموت قبل أن أراك. ولكن الله كريم. استجاب لدعواتى. لا أصدق أنى عدت إلى الخص وإليك يا أمى ..."مفيدة" كيف حالك يا أختى؟...كيف حالكم كلكم؟ كان يوم نحس يوم فارقتكم جميعاً. كانت ساعة غضب من الله، يوم تركتم جميعاً. هأنذا معكم. هل أنتم فرحون بى. احتفظوا بى هنا. إياكم أن تعيدونى.احمنى منهم يا أبى. ليس لى رجل يحمينى إلا أنت. أنا بنتك أنا بنتك.

وألقت بنفسها فوق صدره، فبلل شعرها بدموعه، وهو يردد.

ـ أنا أحميك بروحى يا بنتى. بحياتى. آه لو قبلوا أن يسلبونى الحياة، وتعيشين أنت فى المكان الذى يسعدك، ويريح قلبك وبالك. ولكن هل تكفيهم حياتى؟

ماذا بك يا بنتى؟ قولى لى كيف جئت؟ قولى لأبيك.

وأخذت "تفيدة" تروى قصة "الست قمر"فألاودها، وكيف أنها ستسافر معهم إلى البندر، لتكون إلى جوارهم، وكيف أنها طلبت قبل أن تسافر، أن تطمئن على، وأقنعت "أبو سريع" أن آتى إليكم لأضع مولودى هنا، فأجد من يخدمنى.

وانتهت من قصتها وهى تقول :

ـ وكان أهم شىء عندى أن أراكم، ولو ألقيت عليكم نظرة واحدة، أغلق بعدها عينى، ولا أفتحهما بعد ذلك أبداً. ولو مت بعدها، لمت مستريحة القلب، مطمئنة البال. أراكم

أولا. وهأنذا أراكم. هذا أنت يا أبى. كيف صحتك الآن؟

وصدرك ألا تزال تعانى من الربو، وعيناك؟ وكلك يا أبى؟

وأجابها "أبو عوف" :

ـ أنا كما أنا يا "تفيدة" والله يشهد أنك لم تغادرى بالى، ولا قلبى أبداً.

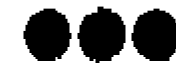
بل كنت معى فى صحوى ومنامى. كنت معى، وأنا بين يدى الله أصلى. أراك، وأدعو لك.

وبدأت الأسرة تتبادل القصص والروايات.

لم ينم أحد تلك الليلة. كثير جداً من الأشياء كانوا يريدون أن يعوضوها.

زمن طويل ضاع كانوا يستردونه.

وتحدثوا طول الليل، مرة همساً، ومرة أخرى ضحكاً، ومرة ثالثة صخباً.



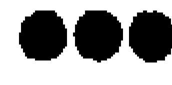
وعندما أشرق صباح اليوم التالى، وصحت "تفيدة" من نومها، فتحت عينيها على أجمل منظر رأته عيناها. الدنيا كلها حواليها تبتسم لها. الحقول ممتدة على مدى البصر، من باب الخص الصغير. أشجار الحديقة تهتز راقصة، تعبر معها عما فى قلبها من فرح وغبطة. أصوات الدجاج خلف الخص تصلها كنغمات موسيقى حنون. وهذه أمها، وهذه "مفيدة". حتى المولود الذى تنتظره ليغير مجرى حياتها، فيملؤها بشىء أى شىء- بدلا من الفراغ القاتم الثقيل الذى تحيا فيه، منضم إلى الأسرة فى بطنها. لم يغب إلا أبوها، فقد خرج إلى عمله فى الحديقة.

وتساءلت "تفيدة" وعلى شفتيها ابتسامة فرحة سعيدة :

ـ لماذا لم ترى هذا الجمال من قبل، وكيف لم تتبينى سحره هذا الرائع؟ أكان لابد من حرمان طويل، حتى تتبينى حقيقة ما فيه من سحر ومن جمال؟ أكان لابد من بعاد،

لتظهر لك هذه الفتنة على ما تظهر به الان؟ وهل يا ترى تحسها أمى مثلما أحسها؟ و"مفيدة"؟ أم لابد لهما ...

وكتمت الأفكار فى نفسها، فإنها لا تتمنى لأحد أن يواجه ما واجهت من حرمان. حتى لمن تكرههم من الناس، فكيف بأمها، و "بمفيدة" أختها؟ لقد بدأت تجرب معنى الأمومة. بل بدأت تمارسها، والجنين يتقلب بين أحشائها، فزاد ارتباطها بأمها وتضاعف شعورها نحوها. وقد كان أول شىء فعلته فى أول لحظة من أول صباح واجهته فى الخص بعد فترة الحرمان التى عاشتها عنه بعيداً، فى بيت "الحاج سلطان" أن احتضنت أمها، وأخذت تقبلها فى خديها ورأسها ووجنتيها.



وقضت "تفيدة" فى حياتها هذه أجمل ايام حياتها.

الدنيا بين يديها. حولها أهلها الفقراء البسطاء السذج. وبين عينيها "أبو المكارم" الحب الوحيد الصادق الدافىء الذى أذاب قلبها.

ولقد خلعت ما اعتادت أن ترتديه فى رجليها من النعال والأحذية. وعادت حافية القدمين سعيدة... كانت تتلهف على أن تقبل أرض الخص الطيبة، بقدميها...حافيتين بلا عازل أو مانع أو حائل !

بل ألقت جانباً كثيراً من ملابسها الحرير، وحاولت أن ترتدى بعض ملابس أختها "مفيدة" لولا أنها كانت حاملا، وعلى وشك الوضع، فلم تتسع لها ملابس أختها، فارتدت أرخص ما عندها من ثياب، وكانت أكثر سعادة وهى فى ملابسها القديمة، منها فى الملابس الغالية.

واستأنفت حياتها مع أسرتها، كأنها لم تفترق عنها أبداً، تلعب وتمرح، وترى الدنيا باسمة دائماً، وتختلس بعض الوقت مع "أبو المكارم" تداعبه وتلاعبه وتلاطفه، وتشكو إليه ما تعانيه من هم.

ولكم عبرت له عن حبها، وهى تقول له :

- لولا أنت يا "أبو المكارم" ما كنت أطيق البقاء فى هذا البيت الكبير. والحمد لله. ربنا أرسل لنا "الست قمر" لتقف إلى جوارنا، ولولاها لما استطعنا لا أنت ولا أنا أن نحمى أنفسنا من هؤلاء الناس. إنى أعزك يا "أبو المكارم".إن صورتك لم تغادر قلبى أبداً. ولكم ضحيت من أجلى. أنت الوحيد الذى يذكرنى بأسعد أيام عمرى، فى هذا الخص البسيط الحقير كما يقولون عنه هناك فى البيت الكبير.

أنا أحب هذا الخص يا "أبو المكارم". أحب هذه الطبيعة. أحب أهلى وأحبك أيضاً كما تعرف يا "أبو المكارم". أما هذا البيت الكبير فإنى لا أطيقه. إنى كلما ذكرته وذكرت أننى قد أعود إليهم يوماً ما، أفضل أن يدركنى قضائى قبل أن أعود.

إن بوابته الحديد تذكرنى بالسجن. السجن أيضاً لابد أن له بوابة كهذه.

ثم تدخل لتجد نفسك فى فناء كبير واسع، وعلى جدرانه تناثرت حجرات وأجنحة كثيرة.

هل تتصوره الآن يا "أبو المكارم"؟ هذا جناح "الحاجة زهرة" ويليه جناح "الست نبوية" ثم جناح خاص بابنها شيخ البلد، "غضبان" ثم جناح ابنها "سيد" ثم جناح ابنها "ممتاز"..ثم جناح "الست قمر" وأولادها.

وتذكر حجرتى؟... على طرف بعيد من هذا الفناء، كالمنبوذة.

ولكن هذا هو الترتيب الذى فرضه الدور...أنا آخر الدور يا "أبو المكارم" فلا بد من أن أكون فى آخر الفناء. على أنى أحمد الله، لأن الجناح الملاصق لحجرتى هو جناح "الست قمر" وإلا كانت الكارثة تتضاعف، لو أنى جارة الست "نبوية" مثلا.

وفى ناحية أخرى من الجناح، غرف الخدم. هل تذكرها؟ وبجوارها الفرن، وحظيرة الماشية؟..

أما الدوار فإنى لم أره أبداً. أنت رأيته طبعاً. يقولون إن له مدخلا خاصاً، وفناء خاصاً، وبه عدد من الحجرات للاستقبال والضيافة.

هل تذكر سطوح الدار؟..هل تذكر مخازن الحبوب فوق السطوح؟ وبرج الحمام؟

وهل تذكر عشش الدواجن بأنواعها؟

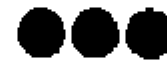
ومع ذلك فإن الخص البسيط الحقير، أفضل عندى من هذا البيت الكبير.

ترى هل أعود مرة أخرى إليه؟ ادع الله معى أن أموت يا "أبو المكارم" قبل أن أعود.

ولكن "أبو المكارم" يشير بيديه، ويصيح صيحات استنكارعالية، وتفهم منه حديثاً عجباً :

ـ أنت تموتين؟ ومن يعيش على هذه الأرض، يكسبها جمالا وفتنة؟ من يبقى لى فى هذه الدنيا إذا مت أنت؟ أنا وحيد يا "تفيدة" ولا أب ولا أم ولا أهل، وأنت أمى وأبى وأهلى. أنت سعادتى. أنت هنائى. كفانى أن أراك ولو من بعيد، وللحظة واحدة. إن هذا هو زادى فهل تحرميننى حتى من الزاد؟

وتدمع عيناه فتدمع عيناها، ثم تمضى بهما الحياة رقيقة هانئة مع بقية أفراد الأسرة البسطاء السذج.



إن أهل القرية يسمعون أن "تفيدة" قد عادت إلى الخص.

وأهل القرية لا تنقصهم الملاحظة الذكية فيتساءلون عن سر هذه العودة، و"الحاج سلطان" غائب عن البلد فى مصر.

ويقول واحد : لابد أنه طلقها.

ويجيب آخر : ربما أذن لها برؤية أهلها أثناء غيبته.

ويقفز سؤال : لكن لماذا لم تلد فى بيتها؟

وتكون إجابة : ومن الذى يخدمها إذا لم تخدمها أمها؟

وتحيا القرية كلها، لا حديث لها إلا "تفيدة" وعودتها إلى الخص وتنتشر الروايات عن حياتها فى الخص مع أهلها، وكيف عادت كما كانت تماماً.

ويتلصص الرجال ليروا امرأة "الحاج سلطان" كيف أصبحت بعد أن قضت فى بيت سيد البلد ما يقرب من عام.

ويذهب النساء ليسألن عنها، فتستقبلهن "أم الهنا" بألوان الكرم والترحيب.

وحينما ينتشر فى القرية أن "الست قمر" بدورها، ستسافر مع أولادها إلى البندر لتكون إلى جوارهم فى أثناء الدراسة، تبدأ القرية تحاول أن تفسر الموقف، والحاج غائب و "تفيدة" فى خص أبيها !

ويسمع "أبو المكارم" عند الساقية أحاديث الرجال فيعى ما يسمع :

- إن "الست قمر" غضبت عندما طردوا "تفيدة"، فنوت أن تترك لهم هى الأخرى البيت.

- لا لا. لا أظن هذا، وما دخل "الست قمر"، فى موقف الأسرة من "تفيدة"؟

- ألم تعرف أنها هى التى وقفت تدافع عنها، يوم السبوع، وقد دخلت مع العائلة كلها فى معركة سبتهم جميعاً فيها، حتى العمدة؟

- لكنها ضرتها مع ذلك. وربما أسعدها أن تزول من طريقها.

- يقولون إنها تحبها كابنتها تماماً.

- يا رجل. هل تحب واحدة ضرتها؟

- لابد أن هناك سراً على أى حال.

- كسر موت "الحاج مرزوق"؟

- من يدرى. "الحاج سلطان" غائب، وابنه شيخ البلد كما نعلم جميعاً ضعيف ولا كلمة له، والكلمة كلها "لأبو سريع".

- و "أبو سريع" هو الذى صحب 'الحاج مرزوق" إلى الحجاز.

- ولم يعد "الحاج مرزوق" من الحجاز.

- ما معنى أن تعود العروس الجديدة إلى الخص، وما معنى أن يقولوا إن "الست قمر" ستسافر إلى البندر، لتكون إلى جوار أولادها؟

- هؤلاء الناس محاطون بالأسرار.

- ولكن لا تصدق أن السر يظل دائماً مخبوءاً.

- ولكن ستظهر الحقيقة يوماً.

- من يدرى؟..إن الله ستار حتى على عباده الضالين.

ويحس "أبو المكارم" من هذا الحديث وأمثاله، أن أهل القرية يدركون بذكائهم أشياء كثيرة، وإن كانوا يستطيعون الجهر بها.

ويزداد خوفه على "تفيدة".

ويسأل نفسه :

هل من العقل، أن تعرف "تفيدة' ماذا يقال؟ إنه سمع بنفسه، بأذنيه، أن هناك أمراً يدبره "أبو سريع" .دبره مع شيخ البلد، ولا بد أنه دبره مع ولدى "الحاج سلطان" الآخرين، من "الست نبوية". فلما اطمأن إلى تدبيره، بدأ عمله مع "الحاج سلطان" نفسه، فكانت رحلته إلى مصر، تاركا "لأبو سريع' أن يتصرف، بحيث لا يرى "الست قمر" وولديها، أو "تفيدة" المظلومة.

وهذا "أبو سريع" يتصرف.

عادت "تفيدة" إلى الخص.

و"الست قمر" تنتظر افتتاح المدارس، لتذهب مع أولادها إلى البندر.

ولن يعود "الحاج سلطان" قبل هذا أبداً.

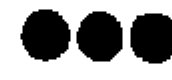
ولو فكر فى أن تعود، فإن لـ"أبو سريع" من التأثير عليه، ما سيجعله ينفذ ما يراه.

وانتهى "أبو المكارم" من هذا التفكير، إلى أنه ليس من مصلحة "تفيدة" أن تعلم شيئاً عما يدور.

يكفيها ما لقيته من اضطهاد وبؤس قرابة عام.

هل يبدد سعادتها بما يقوله لها؟ هل يقتل روح الاطمئنان الجميل الذى يبدو عليها؟

ثم إنها على وشك الوضع، فهل يقتلها ويقتل جنينها الذى يتحرك فى أحشائها بمثل هذا الكلام؟



وبدأت "تفيدة" تحس آلاماً لا قبل لها بها.

وبدأت تعجز عن مغادرة الخص. وأحاطت بها أمها وأختها.

وتكوم "أبو المكارم" أمام الخص، ينتظر. إنه يسمع صياحها، فيتمزق مع هذه الصيحات قلبه، ويسمع أمها تشجعها وتحاول أن تخفف عنها، ولكن هذه المحاولات لا تجدى فتيلا. ويرى "مفيدة" تخرج وتدخل وهى فى حالة قلق ظاهر.

ويعلم "أبو المكارم"، وتعلم معه القرية كلها أن "تفيدة" تضع مولودها.

و"أبو عوف" فى الحديقة يحاول أن ينشغل عن هذا كله بعمل دءوب لا ينقطع، ولكنه يعجز عن السيطرة على عواطفه. فيذهب إلى الخص ليطمئن على ابنته ثم يعود إلى مكانه من الحديقة، تاركاً قلبه فى الخص، مع ابنته التى تصيح مما تعانيه من الآم.

وفجأة تخرج "مفيدة" مسرعة، وتغيب بعض الوقت، ثم تعود تصحبها الداية.

ويدرك "أبو المكارم" على الفور، أن الوليد قادم.

ويبتهل إلى الله أن يكتب لها السلامة، وأن تزول عنها هذه الآلام.

ويأتى الليل ويخيم معه على المكان ظلام، وصيحات "تفيدة" لا تزال كما هى، تحطم سكون الليل.

ويقبل "أبو عوف" فيتكور إلى جوار "أبو المكارم"، ويأخذ فى تلاوة آيات من كتاب الله الكريم.

وفجأة يرتفع الصياح عالياً، ثم يخفت فجأة...

وتمر لحظات تبدو "لأبو عوف" "وأبو المكارم" أنها دهر.

ثم يرتفع صياح المولود.

ويتبادل "أبو عوف " "وأبو المكارم" نظرات أمن واطمئنان. لقد وضعت "تفيدة" مولودها الأول، ومرت الأزمة بسلام.

وتخرج "مفيدة" لتقول لأبيها :

- مبروك..ولد يا أبى. إنه ولد.

ويقول الوالد فى سرعة :

- وهى. كيف حالها؟

فتقول :

- الحمد لله. قامت بالسلامة.

فيقول الوالد :

- إن شاء الله نبارك لك أنت أيضاً.

ويصمت قليلا، وتكون "مفيدة" قد عادت، بغير أن ترد، ثم يقول فى نفسه :

- على أن يكون يا بنتى نصيبك حيراً من نصيب أختك.

وينظر إلى "أبو المكارم" نظرة بين الأسى والفرحة.

ويمضى الوالد يقول له :

ـ يا "أبو المكارم" يا ابنى، نحن فقراء وبسطاء، نريد أناساً فقراء بسطاء مثلنا ولكن الله قدر علينا أن نواجه امتحانه هدا. الحمد لله الحمد لله على كل حال.



ويبدأ الخص الصغير، يشهد حياة جديدة.

"أم الهنا" مشغولة دائماً بخدمة ابنتها. تغلى الحلبة، تخلطها بالعسل الأسود.

ثم تذبح لها دجاجة، لتأكلها كلها. فإذا أرادت أن تعطى أباها بعضها، ضحك فى وجهها وهو يقول لها :

ـ أنا يا بنتى لم ألد، ويوم ألد، لن أدعك تأكلين من الدجاجة التى يطبخونها لى.

وكانت "تفيدة" تقول لأمها"

ـ إنك ستذبحين لى كل الدجاج؟! لا يا أمى. أنا شديدة والحمد لله. دعى بعض الدجاج ليضع لك البيض، فأنا أعرف أنك تحتاجين إليه.

وترد أمها قائلة :

ـ وما الدجاج يا "تفيدة"؟ أنت وأختك كل شىء عندى. لا يهم أن يكون لدينا دجاج، وإنما الأهم أن يكون عندنا "تفيدة" و "مفيدة" وهذه هى ثروتنا يا بنتى.

وتعجب القرية لموقف أسرة "الحاج سلطان"، فإن أحداً لم يزر "تفيدة" منذ غادرته، كما لم يطمئن أحد على ولادتها.

ويزداد عجب القرية، عندما يتردد أن بيت "الحاج سلطان" لم يرسل لها دجاجاً أو أرزاً أو سمناً، كما تقضى بذلك تقاليد القرية، والعبء كله واقع على "أم الهنا" و "أبو عوف".

"الست قمر" وحدها هى التى أرسلت تطمئن عليها، وتهنئها، وتسأل عن أية طلبات تحتاج إليها.

أما جارات "أم الهنا"، من الفلاحات الفقيرات، فقد أرسلن إليها بعض الهدايا تستعين بها على مواجهة مطالب الولادة، ولما أرادت "أم الهنا" أن تعتذر عن قبول شىء منهن، قلن لها إننا جيران وليس بيننا فرق.



ومرت الأيام و "أبو المكارم" يتحرق شوقاً لرؤية "تفيدة" والاطمئنان عليها.

لقد سمح لنفسه أن يتسلل مرة أو مرتين، وسمح لنفسه أن يتطلع إلى الولد، وهو راقد بجوار أمه على الأرض، يبتسم لها فى حب وحنان.

لكنه كان يريد أن يراها وحدها، ليقول لها بأسلوبه الصامت البليغ، كيف كان يدعو لها الله، أن تقوم بالسلامة، وكيف يحب الولد الصغير حباً شديداً من أجلها.

كان يريد أن يؤكد لها أنها تستطيع أن تعتمد عليه فى تربية الولد، والسهر عليه.

وكان يريد كذلك أن يلمس كفها، ويربت على كتفها، ولو استطاع، لمسح بكفه على شعرها..

وكان يذكر ما سمعه من أنباء تتصل بها، وكلام لا يغادر ذاكرته أبداً.

شىء آخر كتمه فى نفسه، فقد كان يريد أن يرى الطفل خارج الخص، فى النور، ليتأمل شكله وملامحه.

صحيح أنه رآه قريب الشبه جداً من "الحاج سلطان"، ولكنه رآه فى ظلام الخص، وهو يريد أن يراه فى النور، ليتأكد تماماً من أن ما سمعه غير صحيح.

إن "تفيدة" شريفة، والافتراء الذى رواه "أبو سريع" مقصود ...

ولقد نجحت فريته، فغادر "الحاج سلطان" البلد، على ألا يعود، إلا بعد أن يذهب كل الذين نسجت منهم هذه الفرية الظالمة : ولداه "ناجى" و "سامى" وأمهما "الست قمر"، والعروس الجديدة "تفيدة".

ونجحت الفرية فى إبعاد "تفيدة" من البيت.

ونجحت فى إقناع "الست قمر" بمغادرة البلد هى وأولادها.

فماذا يحدث بعدها؟

هنا كان تفكير "أبو المكارم" يجمد ولا يستطيع أن يتحرك، فإنه لم يكن يريد أن يتخيل أشياء تؤرق لياليه، وتقض مضجعه.

وإنه ليصبح ذات يوم، فيتوجه كعادته إلى الخص، ويفاجأ بها هى جالسة أمام الخص والطفل على يديها، تناديه وتناجيه، وتضحك له من قلبها.

وكانت وحدها، فأسرع إليها، وارتمى إلى جانبها، وأخذ يداعبها فى هيام، وفى غرام يعوض به ما فاته، وهى فى بيت "الحاج سلطان".

وكانت فرصته أرحب من الدنيا جميعاً، عندما أخذت تبادله الهوى والهيام، وتروى له ما فى دخيلة نفسها، شاكية كعادتها.

على أن شكواها هذه المرة أن أحداً من أسرة الحاج لم يرسل لها اسماً للمولود.

ماذا تسميه؟ هل يظل هكذا بلا اسم؟

لقد كانت من قبل تتعجل الزمن لينزل إلى عالمها، ولتجده دائماً إلى جوارها.

فلما أصبح إلى جوارها، أخذت تتعجل الزمن، لتعرف له اسماً تسميه به.

وتطوع "أبو المكارم" أن يحقق لها هذه الفرصة، فذهب إلى "أبو سريع"، وأخذ يشير إليه إشاراته المعروفة، فلم يحاول أن يفهم عنه شيئاً.

وتركه ومضى فى سبيله وهو يقول لنفسه : هكذا هو، رجل يفهم عندما يريد! ويتغابى عندما يريد!

ولم يجد أمامه إلا أن يذهب إلى "الست قمر".

ولما فهمت غايته، نادت "أبو سريع" وكان بينها وبينه حديث :

- لماذا لم تسألوا عن "تفيدة"؟ لماذا لم ترسلوا لها ما اعتادت قريتكم على أن ترسله لمن تلد، فى مثل ظروفها؟ وعلى أى حال، سأترك لك هذا. ماذا تنوون أن تسموه؟ هل يظل بغير اسم.

وتجهم "أبو سريع" وهو يجيب :

- وهل لابد من اسم؟

- نعم لابد من اسم. هل تسميه هى؟

- تسميه كما تشاء.

- وإذا ترتب على ذلك ما يسىء إليها؟

- والله يا "ست قمر" لولاك ...

ولم تدعه يكمل كلامه فقالت له :

- أعرف يا "أبو سريع" ولكنا اتفقنا على أن تقف إلى جوارها، وعلى أن تحميها أنت وإلا بقيت أنا هنا إلى جوارها.

وخاف "أبو سريع" أن تفسد خطته كلها، فقال لها :

- "يا ست قمر" إن أشياء كثيرة تضايقنى، فلا تؤاخذينى. اقترحى أنت اسماً للمولود.

- ولا تسأل أباه "الحاج سلطان"؟

- وماذا سيقول أبوه؟ المهم أن يكون الاسم جميلا مثلك.

- يا شيخ الخفر ! لن تقلع عن سيئاتك :

- قولى أى أسم تريدين.

- عبد الرحمن.

- الله أكبر. تقصدين "أبو عوف"؟ ما هذا يا "ست قمر". أهو إذلال لنا؟

ـ إذن "أبو سريع".

ـ لا. هناك "أبو سريع" واحد فى هذا البلد.

ـ ويجب ألا يكون له شريك. جل جلاله !

ـ يا "ست قمر" قولى اسماً معقولا.

ـ إذن. آخر اقتراح هو : "جلال".

ـ هذا جميل، ليكن إذن اسمه "جلال".

ـ وترسل إليها تخبرها بهذا الاسم.

ـ وهو كذلك. سأرسل إليها أحد الخفراء.

ـ أو اسمع. أنا أنقله إليها بنفسى، فإنه لم يبق لى على البقاء فى القرية إلا يومان، وعندما يأتى المساء، سأذهب إليها بالاسم الجميل الجديد، وأزورها كذلك، وأسلم عليها قبل السفر. إنى أعرف أنك ستعترض وتقول لى كيف تذهبين إلى هذا الخص، ولكنى سأذهب يا "أبو سريع".



وعندما أقبل المساء، كانت "الست قمر" قد فاجأت "تفيدة" بزيارتها لها.

وذهلت "تفيدة" من المفاجأة، وذهل معها أهلها.

وقالت "أم الهنا" :

ـ النبى زارنا يا "ست قمر" والله أصيلة، وجميلك فوق رأسنا جميعاً.

وقال "أبو عوف" :

ـ هل هذا مقامك يا سيدتى. ربنا يطيل عمرك، ويجزيك عنا خير الجزاء.

وقبلت "تفيدة" يدها فى سعادة وفرح، ولكن "الست قمر" أسرعت تسحب يدها من فوق شفتيها.

وأخذ "أبو المكارم" يتطلع من بعيد، وهو يتوقع المفاجأة.

ولم تتوان "الست قمر" فى أن تخبرها باسم ابنها، فلما سمعته "تفيدة" فرحت بالاسم فرحاً شديداً، وقالت لها :

ـ إنك أنت التى اخترت الاسم. هذا هو ذوقك يا "ست قمر" تعالى أريك "جلال".

ودخلت معها الخص وبعد أن رأته وقبلته، ووضعت حول عنقه هديه من ذهب، عادت إلى خارج الخص، وجلست مع أسرة "تفيدة" على قطعة من حصير، فرشتها لها "أم الهنا".

وقالت "الست قمر" :

ـ إنى سأسافر بعد غد. أرى وجهكم بخير. أرى وجهك بخير يا "تفيدة".

وبدا على "تفيدة" تأثر واضح وهى تقول :

ـ تسافرين؟ إذن سيخلو منك البيت. وكيف سأعود إليه؟ من سألقاه هناك؟

وأجابتها وهى تربت على خدها :

ـ ألم أقل لك من قبل؟ إننى دبرت كل شىء. أكد لى "أبو سريع" أنه سيحول بينهم وبينك. قال إنك لم تعودى غريبة عنهم، بعد أن أنجبت لهم ولداً كالقمر : "جلال" اسم النبى حارسه.

قالت "تفيدة" فى ذهول :

ـ لم أعد غريبة؟ هل سألوا عنى؟ هل أرسلوا حتى خادمة من عندهم إلى بسلام؟ لا يا "ست قمر" إننى غريبة، وسأظل غريبة.

قالت "الست قمر" :

ـ "جلال" رجل، وهو قادر عليهم جميعاً.

وضحك "أبو عوف" وضحكت "أم الهنا"، وضحكت "مفيدة".

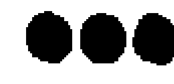
أما "تفيدة" فقد شردت بعيداً، وهى تقول :

ـ "جلال" ...يا حبيبى يا ابنى. يا ترى هل أعيش حتى أراك رجلا؟

قالت "الست قمر" :

ـ طبعاً. وترين أبناء أبنائه إن شاء الله.

وغادرت "الست قمر" الخص، ودموع "تفيدة" تلاحقها.



ولما غادرت "الست قمر" وأولادها القرية، بدا على تفيدة من أول لحظة حزن صامت عجيب، وزالت عنها البشاشة التى غمرتها منذ عادت إلى الخص وإلى أهلها.

أكانت حزينة على "الست قمر" أم كانت حزينة على "أبو المكارم" فقد أرغمه "أبو سريع" إرغاماً مع خفير آخر من البلد، على السفر، ليكونا فى خدمة "الست قمر" وخدمة أولادها، حتى تستقر بهم الحياة فى البندر، وأمرهما ألا يعودا قبل عدة أيام، فقد تحتاج إليهما"الست قمر" لأى أمر من أمورها.

وحاول "أبو المكارم" أن يعصى، ولكن شيخ الخفر دفعه بيده، فألقاه على الأرض، وأمره أمراً أن يذهب.

أكانت "تفيدة" حزينة على هذا الفراق، أم كانت تشارك القرية حزنها على "أبو المكارم" الأخرس المسكين؟ أم كانت حزينة على نفسها؟

إن شيئا خفياً بدأ يتسلل إلى نفسها. شيئا ثقيلا مزعجاً، ولكنه غامض مع ذلك.

ولم يمض يوم حتى سمع الخص ومن فيه، إلا "تفيدة"، أن القرية كلها تنقل عن أسرة "الحاج سلطان" أن المولود الجديد ليس ابن "الحاج سلطان"، فإن الحاج ليس صالحاً لإنجاب الأطفال فى هذه السن، وإلا لأنجب من "الست قمر" أولاداً بعد "وردة" التى أصبحت عروساً تنتظر ابن الحلال !

وكانت القرية تردد ذلك، وهى أسيل إلى تكذيبه. إنها فيما بينها وبين نفسها تدرك أن هذا ظلم "لتفيدة" وأنه افتراء مقصود.

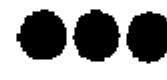
وعندما سمع "أبو عوف" هذا الكلام، هوى على الأرض، ووجهه بين كفيه، يداريه عن العيون المتطلعة فى تطفل وفضول.

وعندما سمعت "أم الهنا" ما يتردد، لطمت خديها، ودموعها تجرى.

أما "تفيدة" فقد ثارت وهى تؤكد أن هذا كذب وأنه افتراء.

ولم يجرؤ أحد على أن يروى "لتفيدة" شيئاً من هذا.

ألأنهم أشفقوا عليها من الحزن الذى خيم عليها، فلم يريدوا أن يضاعفوه فى قلبها؟ أم لأنهم لم يصدقوا هذا الافتراء الغريب، فآثروا ألا ينقلوا إليها كذباً يتردد؟



لقد تركوها، تداعب طفلها تارة، وهى تبكى !

وتدور حول الخص كمن تبحث عن شىء، ودموعها تتساقط هنا وهناك فى غير وعى أو إدراك.

وتنظر طويلا إلى عشش الدجاج ثم تتطلع إلى الحقل، ثم تمد بصرها إلى ناحية الحديقة ثم تتوجه إلى ناحية "سيدى الذكيرى"، والكلام قد مات على شفتيها.

وتدور عيناها هنا وهناك تبحث مرة عن أمها. ومرة ثانية عن أبيها، ومرة ثالثة عن أختها، فحينما تجدهم أو تجد أحدهم، تمسك بيده فى رفق حنون، ولا تقول شيئاً.

ولم يجرؤ أحد على أن يسألها عما تشعر به.

وأقبل المساء، فوضعت "جلال" طفلها، فى حجرها، وأخذت تتأمله طويلا، حتى أسبل جفنيه، وراح فى نوم عميق.

وأكلت مع أسرتها.. كانت تجاهد نفسها لتبتلع الطعام، وهى تشعر بغصة تقف فى حلقها.

ولم تفعل الأسرة ما اعتادت أن تفعله عقب كل عشاء.

لم يبدأ "أبو عوف" يحكى حكايات ساذجة وطريفة.

ولم تأخذ "مفيدة" تستزيد أباها، ليحكى لها مزيداً من القصص والخرافات.

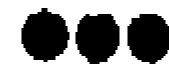
ولم تتكلم "أم الهنا".

ومضت "تفيدة" فى صمت مطبق مخيف.

كانت تنظر إليهم، وكانوا ينظرون إليها.

وكانت تتابع ابنها، يعلو صدره ويهبط، وقلبها فى مقلتيها.

وما هى إلا لحظات، وإذا بخطو ثقيل يقترب من باب الخص، وتصمت الأسرة، وقد حبست أنفاسها فى صدورها.



وظهر على باب الخص "أبو سريع" وخلفه رجلان مسلحان يتطاير الشرر من عيونهما، لم ترهما القرية من قبل.

قال "أبو سريع" :

- ما شاء الله. ما شاء الله. ألم تلدى يا عروس الهنا؟ فيم بقاؤك هنا إذن؟ هيا قومى لتعودى إلى دارك.

ولم تجب "تفيدة". أحست أن شيئاً بارداً يهب على وجهها. شعرت بالرعب لما تراه فى عينيه. وهذان الرجلان اللذان قدما معه، يزيدانها رعباً.

ولم يجب "أبو عوف" ولم تنطق "تفيدة" بحرف.

وقالت "أم الهنا" فى ذلة وانكسار :

- أمرك يا سيدى. تعود إلى دارها. أمرك. لكن ألا تنتظر حتى الصباح؟ إن ابنها نائم. ألا تبقى حتى يستيقظ؟ وعلى كل حال أمرك.

قال :

- تنتظر حتى الصباح، لتذهب فى وضح النهار ! أليس كذلك؟ ألم تدركى بعد أنها لم تعد بنت هذا الخص الحقير؟ ماذا يقول الناس إذا رأوها فى النهار، عائدة بهذا المنظر إلى بيتها؟ هيا يا بنت.

قالت "أم الهنا" :

- دقيقة واحدة حتى أجمع لها حاجاتها، وحاجات ابنها.

قال :

- لا داعى لهذا. نرسل غداً من يأخذ حاجاتها. هيا بنا. أنا لدى أعمال أخرى وكفى أنى أتيت بنفسى الآن. هيا.

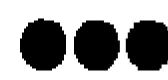
وحملت "تفيدة" ابنها على يديها، وحرصت على أن تلفه بكل ما وجدته من ملابس قديمة أو جديدة، حتى لا يصيبه برد فى الطريق.

ولم تستطع "تفيدة" حتى أن تسلم على أمها، وأختها !!

إن منظر "أبو سريع" الرهيب، قد أفقدها قدرتها حتى على السلام عليهما، فاكتفت بالنظر إليهما، وهى تعرف أنها قد لا تراهما بعد ذلك ابداً.

أما "أبو عوف" فقد أخذ يجر رجليه خلفها، فلما أصبحت خارج الخص، قال "أبو سريع" :

- تذهبان بهذا الشكل ...أسمعتما؟ عن طريق الساقية، ثم تدوران حول المزارع، وتدخلان بها من الناحية الأخرى، حيث لا يراكم أحد. هيا. أما أنا فسأنتظركما فى البيت، لأطمئن على كل شىء.



وسار الرجلان، اللذان يتطاير من عيونهما الشرر.

وسار خلفهما "أبو عوف" يتلفت إلى الوراء.

وسارت خلفه "تفيدة" وعلى يديها "جلال"، وقد أغفى إغفاءة عميقة.

ووقفت "أم الهنا" و "مفيدة" على باب الخص يتابعان العزيزة الغالية، حتى اختفت عن عيونهما بين الحقول.

ووصل الرجلان إلى الساقية، ثم إلى جسر الرياح.

وعند الصفصافة، التى يتخذها "أبو المكارم" مأواه ومأمنه، وقف الرجلان، فوقف "أبو عوف"، ووقفت "تفيدة".

ونظرا إلى "أبو عوف" نظرات فاحصة ثم قال أحدهما :

ـ طبعاً أنت تظن أنك ذاهب بابنتك إلى بيتها؟

وارتعد الرجل وقد تبين فى عيونهما الشر الغادر، ولم يعرف بم يجيب.

قال الآخر :

ـ أتعرف ماذا فعلت ابنتك؟ أتعرف ابن من هذا؟ ابن "الحاج سلطان" هو؟ أليس كذلك؟

ولم يجب...أحنى رأسه فى الأرض، حتى لا يراهما يفحصانه فى قسوة.

وقالت "تفيدة" :

ـ ماذا؟ ماذا فعلت؟ هل تتحدثون عنى أنا؟

وقال أحد الرجلين :

ـ يا فاجرة. يا عاهرة. خرجت من الوحل، فماذا ينتظر منك؟

وتلعثمت وارتعدت وأخذت تنظر إلى أبيها، نظرات يائسة.

قال أحدهما :

ـ اسمع..عليك أن تدفن عارك بيديك، وإلا قضينا عليك وعليها.

واهتزت الدنيا أمام عينى "أبو عوف".

ومرت اللحظات ثقيلة مريرة.

ومضى الرجل يقول :

ـ ألق بها فى الرياح، وإلا أطلقت عليك النار أنت وهى.

قال "أبو عوف". نطق لأول مرة :

ـ أنا ألقى بها فى الرياح. "تفيدة" ابنتى؟! هذا حرام.

قال الرجل :

ـ كلمة واحدة. إذا ترددت ثانية واحدة فمصيرك ومصيرها هو الموت.

قال "أبو عوف" :

ـ وهل أنا حى حتى تهددنى بالموت؟ أنا ميت يا سيدى منذ أكثر من عام.

وهم الرجل يوجه فوهة البندقية إلى صدره، فذعرت "تفيدة" ذعراً شديداً، ووضعت ابنها إلى جانب الصفصافة، وأسرعت نحو أبيها، لتفتديه.

وصاح فيها الرجل الآخر.

ـ ابعدى أنت. سيأتى دورك بعده. إياك أن تقتربى.

ولكنها لم تعبأ بما قال، وأسرعت نحو أبيها.

وإذا الرجل الآخر يدفعها نحو الرياح، فتهوى فيه، وهى تصيح : أبى. أبى. أبى.

ورآها أبوها، فهم بأن يلقى بنفسه خلفها فمنعه الرجلان.

جذباه نحو الشاطىء، وأمسكا بتلابيبه، حتى هوت ابنته إلى القاع، وصوتها يرن فى أذنيه : أبى.أبى. أبى ...فلا يجيب، بغير الدموع، والعويل، والنحيب.

ولما اطمأنا إلى أن كل شىء قد تم على خير وجه، قالا له فى نذير :

ـ أما ابنتك فقد ماتت، وأما أنت فإياك أن تفعل شيئاً، وإلا فإننا سنقضى عليك وعلى زوجتك وابنتك الثانية. واعلم أنك أنت الذى قتلتها، لتدفن عارها. ولو حاولت أن تقول كلمة واحدة غير هذا فإن ثمن ذلك سيكون حياة زوجتك وابنتك. أفهمت؟

وقال أحد الرجلين للآخر :

ـ بقى أمامنا هذا الغلام. علينا أن نتخلص منه.

ورد عليه زميله :

ـ نعم عندك حق. إن التخلص منه ضرورة.

وكان الطفل الصغير، غافياً لا يتحرك. وتقدم منه أحدهما ليحمله وليلقى به فى النهر وراء أمه. ولكن "أبو عوف" أمسك بالرجل، وأخذ يشده شدا عنيفاً وهو يصيح :

ـ وما ذنب هذا البرىء. اتركوه لى من رائحة أمه. ألا يكفى أن أمه غرقت؟ ذهبت. ألا يكفى أنها قتلت مظلومة؟ يا ناس ! أى قلوب تحملون بين جوانحكم؟ حتى هذا الطفل الرضيع، الذى لم ينطق بعد بحرف !!

وبينما الرجل يحاول أن يتقدم نحو الطفل، "وأبو عوف" يشده إليه، والرجل الثانى يضرب "أبو عوف" فى ظهره ليثنيه عن مقاومته.

بينما الثلاثة فى هذا الصراع، "وجلال" غاف كما هو، إذا بأصوات تسمع من بعيد، فيقول أحد الرجلين للآخر: هيا بنا. وإلا ضبطنا هنا : أسرع. وأسرعا. تركا "أبو عوف" والطفل وحدهما، وذهبا.

وجلس هو على حافة الرياح إلى جوار الصفصافة، وقد أخذ يبكى فى نحيب مكتوم.

واختلطت دموعه بكلماته، فإذا الدمع كلام، والكلام دمع !

"تفيدة" ! ذهبت يا بنتى؟ قتلوك؟ قضوا عليك؟ وأنت بريئة شريفة طاهرة إننى أعرف أنك مت منذ عام. أعرف أننا فقدناك إلى الأبد يوم أخذوك منا. لقد تقطعت أنفاسك يا حلوة وأنت لفظت النفس الأخير. وماذا كان يستطيع أبوك أن يفعل؟

"أبو عوف" أبوك عاجز يا بنتى عن حمايتك. "أبو عوف" أبوك محتاج إلى من يحميه. ولا حماية لضعيف...أو مسكين ...!..

هل ألحق بك؟ لابد أن ألحق بك، فإنه نفس المصير.

إن عشت فعلى أن أسمع كلام هذين الرجلين، وإلا هلكت أمك، وهلكت أختك كذلك. وسيكون مصيرى حبل المشنقة أو السجن المؤبد.

لقد قضى على معك. فلماذا لا أقضى على نفسى بيدى؟

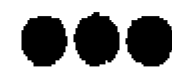
لماذا لا ألحق بك، لنلقى الله تحت موجة واحدة، وفى ترعة واحدة؟

وكيف أعود إلى أمك؟ ماذا أقول لها؟ قتلتها؟ أنا الذى قتلتها. قذفت بها فى الرياح؟ وهل تحتمل أمك هذا الخبر؟ هل تحتملنى وهى تعلم أنى لطخت يدى بدمك، وأنت طاهرة وبريئة؟

وأختك "مفيدة" كيف ألقاها؟ ماذا أقول لها؟

لا...بل لابد من أن ألحق بك.

لم تعد لى حياة...لم تعد لى حياة.



ووقف "أبو عوف" ولما هم بأن يلقى بنفسه خلفها، صحا "جلال" الطفل الصغير، وأخذ يصيح صيحات، يبحث بها عن أمه.

وجمد الرجل فى مكانه، ثم نظر إلى الطفل الصغير الوليد، وذرفت عيناه دموعاً حارة مزقت سكون الليل.

ولم يدر ماذا يفعل !

وهذا الوليد، ما ذنبه؟ هل يتركه؟ أيحمله على يديه، ويقفز به إلى الماء، فيضع نهاية لحياته وحياة ابنته، وحياة وليدها الرضيع؟

ولكنك ستقتله يا "أبو عوف".

وماذا جنى هذا الوليد الرضيع البرىء؟

وهل من حقك أن تقرر نهاية لحياته هو الآخر؟ إن كانت حياتك ملكك أنت فحياة هذا الوليد البرىء ليست ملكك.

وخطا "أبو عوف" نحو الطفل فى تثاقل، وحمله بين ذراعيه، وعاد به من الطريق المحاذى للحديقة.

ولم يدر "أبو عوف" كم من الوقت مضى عليه، وهو فى طريقه إلى الخص، فقد خيل إليه أنه قطع مسافات شاسعة ودهراً طويلا، قبل أن يصل إلى الخص.

ولكم وقف فى الطريق يذكر ابنته، ويسترجع عنها ذكريات لا ينساها.

هنا كانت تجرى بين الحقول، تلعب وتمرح، وقد نسيت كل شىء، وخلا قلبها من كل شىء، إلا "أبو دقيق" تحاول أن تصطاده بقطعة من قماش قديمة، خطفتها من أمها.

وينظر إلى الطفل وهو يقول ودموعه تسيل على خديه :

أمك كانت تجرى هنا وهى طفلة.

أمك كانت تجلس هنا وهى فتاة

أمك كانت تجمع حشائش الأرض هنا، لتطعم دجاجها.

أتعرف أن أمك كانت تضحك دائماً من قلبها؟ أتعرف مدى ما كانت عليه من جمال؟ لقد جنى عليها جمالها، فأطمع فيها الموت !

لقد ماتت يا "جلال" قبل أن تضعك !

ماتت يوم تزوجت أباك !

مسكين يا "جلال" لقد فقدت أمك وأباك معاً. أما أبوك فسينكر بنوتك، وأما أمك، فقد أصبحت الآن جثة هامدة، بين طيات الماء. ترى هل بدأت جثتها تطفو الآن على ظهر الماء. أو تراها لا تزال هاوية عند القاع؟

"جلال" !..هل ستذكرها. إن جدك انتهى هو الآخر، فكن أنت لجدتك وخالتك فلن يكون لهما رجل سواك. أنا يا ابنى منتظر المشنقة أو السجن، ولن ترانى. أما هما فسيحتاجان إليك بعد أن تكبر، فساعدهما يا "جلال" من أجل جدك.

وبينما "أبو عوف" يحدث نفسه، ويحدث الرضيع بهذا الكلام، وجد نفسه أمام الخص فوقفت قدماه.

هل يدخل؟ وماذا سيقول "لأم الهنا" و "لمفيدة"؟

وشعرت "أم الهنا" بقدومه فأطلت تراه.

ويا لهول ما رأت !

زوجها "أبو عوف" وقد أصبح شبحاً لا تراه العين، وعلى يديه الوليد الرضيع.

وصاحت : ماذا جرى؟ أين أمه؟ أين "تفيدة"؟

ولم يجب ! فقد كانت إجابته واضحة، من عينيه المبللتين بالدموع.

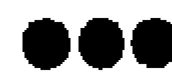
وخرجت "مفيدة" فضربت صدرها بيديها وهى تقول :

- أين أختى؟ ماذا جرى لها؟

ولم يجب :

والقت "أم الهنا" بنفسها عليه، وكذلك فعلت "مفيدة"، وأصبح الثلاثة جسماً واحداً يتساند قبل أن ينهار.

وبينهم "جلال"، البقية الباقية من "تفيدة" يدور بعينيه بين الوجوه الثلاثة ويبتسم فى براءة.



ولم ينتصف اليوم التالى، حتى أقبل "أبو سريع" إلى الخص وحوله الخفراء.

وقال فى صوت كالرعد :

- أين القاتل السفاح؟ هل هرب؟ وهل يطول هروبه منا؟

وسمعته "أم الهنا" فلم تحرك ساكناً. وسمعته "مفيدة" فلم تنبس ببنت شفة. واقتحم شيخ الخفر الخص، فوجد "أم الهنا" جالسة على الأرض، والرضيع الطفل على ركبتيها، وأمامها "مفيدة" وقد أسندت خديها إلى كفيها، والدموع تملأ وجهها.

قال "أبو سريع" :

ـ أين القاتل؟ أين زوجك المجرم؟

ولم تجبه. فقد كانت غير قادرة على الكلام.

وخرج وخلفه الخفراء، وهناك داخل الحديقه رآه جالساً تحت شجرة من أشجار الليمون وقد زاغت نظراته فى أرض الحديقة.

وأمسك شيخ الخفر بتلابيبه، وجذبه فى قسوة وقال :

ـ فعلتها يا مجرم؟ قتلتها؟ رميت بها فى الرياح؟ لقد وجدوا جثتها هذا الصباح، عند إحدى قرى الناحية. وشهد عليك كثيرون. تعال معى إلى الدوار، يا كلب ! وأمسك به الخفر، فمضى معهم إلى الدوار.

ونظرت إليه "أم الهنا" وعجزت حتى عن الصياح.

أما "مفيدة" فقد وقفت تصيح به : أبى. أبى. أبى.

ونظر إليها وهم يأخذونه، ورن فى أذنيه صوت ابنته "تفيدة" وهى تناديه بنفس النداء: أبى. أبى. أبى.

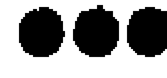
وكما عجز ليلة أمس عن أن يلبى نداء ابنته، وهى تلفظ أنفاسها، عجز اليوم عن أن يلبى نداء ابنته، وهو ذاهب إلى حيث لا يدرى. قد يلفظ أنفاسه هو الآخر، وقد يقضى بقية حياته بين جدران مظلمة، لا يرى فيها "أم الهنا" ولا "مفيدة".

وأطل وهو فى طريقه إلى الدوار، وحوله الخفر، من باب الخص، فرأى "أم الهنا" تنظر إليه من خلال دموعها، وعلى ركبتيها الطفل الرضيع.

ولم يدر ماذا يفعل. هل يبكى؟ وما جدوى البكاء؟

ووجد القرية كلها قد تجمعت تنظر إليه، فلم يستطع أن يبادل أحداً من رجالها أو نسائها النظرات.

إنه مجرم. قاتل. سفاح. أغرق ابنته فى قاع الرياح !



وعندما وصل الدوار، وجد العمدة وإلى جواره ضابط النقطة.

قال العمدة :

ـ تعال يا مجرم يا قاتل.

ووقف متهماً بين أيدى المحققين.

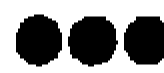
وفوجىء بشهود يشهدون عليه. شهود لم يروه، ولم يرهم منذ شهور. أناس بسطاء من أهل القرية، وبعضهم ممن يعملون عند أسرة العمدة أو أسرة "الحاج سلطان". وكلهم شهدوا بأنهم رأوه يصحب ابنته من الخص إلى الساقية، ثم يقف معها عند حافة الرياح، ولم يحفلوا بما حدث. ما كان يليق بهم أن يتتبعوه ومعه حريم. ثم عاد وحده إلى الخص. وأنهم سمعوا صراخاً مكتوماً ينبعث من بين الأمواج.

وأكد هؤلاء أنه طالما قال لهم إنه يشك فى ابنته، ويشك فى أن يكون طفلها من زوجها "الحاج سلطان" وأنه لن يسكت أبداً على هذا العار.

وصاح العمدة أثناء شهادتهم إن هذا رجل مفتر، وإنه كذاب، وإنه ظالم قاسى الفؤاد فإن "تفيدة" لم تكن غير زوجة شريفة فاضلة، وابنها الذى وضعته، هو من زوجها "الحاج سلطان". ولكن هذا الرجل الشرير أبت عليه ظنونه إلا أن يقتل ابنته ظلماً.

ولما انتهى التحقيق، أرسلوه إلى سجن النقطة.

ثم رحلوه إلى سجن دمنهور، فى انتظار المحاكمة.



وأخذت القرية تحيا فى حكاية "أبو عوف".

على أنها كانت ترددها وهى فى شك وحيرة وقلق.

الرجل المسكين ولم يعرف عنه يوما أنه ارتكب خطأ أو أتى معصية، أو أساء إلى أحد. ثم هو عاجز عن ذبح دجاجة، فكيف طاوعه قلبه على قتل ابنته؟

والرجل مريض ضعيف، ولم تكن له حياة إلا بين زوجته وبنتيه، ولقد أحب أسرته حباً شديداً، وليس من المعقول أبداً أن ينتهى حبه لأسرته، بهذه الجريمة الغامضة.

ولكن القرية لم تكن تستطيع أن نجهر بما خامرها من شك وإرتياب، فأخذت تتحدث عن حكاية "أبو عوف" فى همس، فإن للجدران آذاناً.

وعلمت القرية أن "أبو سريع" أرسل يخبر "الحاج سلطان".

ثم علمت أن الزوج العجوز، قد قرر العودة إلى القرية قبل أن تنتهى أعماله فى مصر.

ولما حضر، ذهب "أبو سريع" يقابله.

وحكى له كل شىء، ونصحه بأن يصطنع الحزن على ما أصابه من فجيعة فى فقد زوجته الجميلة الصغيرة، كما نصحه بأن من العقل والحكمة ألا يقول شيئاً عن الطفل الرضيع، بل عليه أن ينكر إنكاراً شديداً، أن لديه أدنى شك فى إخلاص زوجته المرحومة، فقد كانت المثل الأعلى للزوجات جمالا ووفاء، وعفة، فإن اتهامها بشىء سيلوث شرف الأسرة كلها، وقد وعد "الحاج سلطان" بأن يفعل بنصيحة "أبو سريع" وأن يطالب بابنه ! ليعيش معه وفى كنفه.

وبعد أن فرغ "أبو سريع" من نصائحه قال للحاج؟

ـ والآن ما مكافأتى على ما قمت به؟ خلصتك من "تفيدة" وخلصتك من "الست قمر" وأولادها. وها أنت ذا تعود، لترى كل شىء كما اتفقنا.

قال "الحاج سلطان" :

ـ مكافأتك كبيرة جداً يا شيخ الخفر، يا سبع الليل، يا زوج ابنتى، ويا أعز من أولادى.

قال "أبو سريع" :

ـ على أنى أؤجل أخذها الآن، حتى يشنق "أبو عوف" ويزول أثر الحادث نهائياً.

وسأل "الحاج سلطان" :

ـ ولكن من الذى سيربى الطفل الصغير؟ أنى لا أحبه، ولا أريد أن أراه.

قال "أبو سريع" :

ـ بل لابد من أن تراه حتى يبدو الموضوع طبيعياً. أما عمن يرضعه فواحدة من المرضعات. والأخرس يلاعبه عندما يفرغ من الساقية.

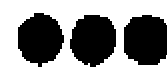
قال "الحاج سلطان" :

ـ ويظل ابنى، ويرثنى؟ مستحيل !

قال "أبو سريع" :

ـ انتظر حتى يمر كل شىء بسلام، ووقتها يفرجها الله.

وأقام "الحاج سلطان" مأتماً للعروس الفقيدة، وأخذ يتقبل عزاء المعزين، ثم طلب ابنه فأتوا به إليه، فكلف إحدى المرضعات برعايته، وهو ينفذ، ما أوصاه به شيخ الخفر.



وعاد "أبو المكارم"، فى صحبة الخفير، فكان أول شىء فعله، هو أن ذهب إلى الخص.

وهناك وجد كآبة تخيم على المكان، فانتابه خوف شديد. كان الخص واجماً فى سكون، صامتاً فى غموض، تفوح منه رائحة الهلاك.

ودخل ليجد "أم الهنا" و "مفيدة" وحدهما، وقد وضعت كل منهما خدها على كفها.

وكانت المفاجأة، أن رآهما تبكيان، بمجرد أنْ وقعت عليهما عيناه.

ولم يحس إلا وهو يبكى معهما.

وعرف أن "تفيدة" ماتت، غرقت فى الرياح عند الساقية. وأن "أبو عوف" فى السجن ينتظر مصيره.

وتمنى أنه ليس أخرس.

إذن لتكلم، ولأعلن فى كل مكان أن هناك أمراً دبره "أبو سريع".

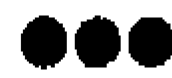
وحاول أن يقف على تفصيلات ما حدث، ولكن أحداً لم يكن يعرف هذه التفصيلات إلا "أبو عوف" السجين. إنه لم يقل لهما شيئاً، وهما لا تعرفان شيئاً، إلا أنه سار بها فى طريق الساقية، وأنه عاد بدونها.

ومضى "أبو المكارم" يعدو إلى الساقية، وهناك وقف جامداً كالحجر.

وأخذ يحدث نفسه.

- أين؟ ...أين يا ترى قذفوا بك إلى الماء؟ وأين فقدت روحك يا جميلة، يا أحلى من وقعت عليها عينان، وأصفى من خلق الله؟

أين؟..أين؟..



وحاول أن يسأل الأمواج، فلم تجبه الأمواج.

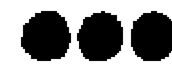
وحاول أن يعرف النبأ من الصفصافة، فلم تسعفه الصفصافة بجواب.

ونزع غصنا من شجرة الصفصاف، وأخذ يضرب به الهواء فى عصبية، وهو لا يدرى ماذا سيكون مصيره بعدها.

وراودته نفسه أن يلحق بها. يرمى نفسه فى الماء ويضع نهاية لحياته، ولكنه ذكر "جلال"، الرضيع الذى خلفته وراءها يواجه العاصفة فى بيت "الحاج سلطان".

وقال فى نفسه :

لا يا "أبو المكارم" إنها كانت تنتظره فى صبر وأمل. كانت تتمنى أن تربيه، ليكون هو حياتها. ولقد ماتت. قتلوها. فلتكن أنت له كما كانت تود هى أن تكون.



وكان "أبو المكارم" يسمع عند الساقية أنباء التحقيق ثم المحاكمة، يرويها رجال القرية، وهم يلاحقون الساقية، يسقون زراعاتهم من دوراتها المتصلة.

وكان حريصاً على أن يقف على كل شىء.

وكان يعجب أشد العجب عندما يعلم أن "أبو عوف" لا يتكلم أبداً. لقد اكتفى بأن اعترف بالجريمة، ولم يزد على ذلك شيئاً.

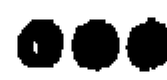
وانتهى أمر "أبو عوف" بالسجن المؤبد، مع الأشغال الشاقة.

السجن المؤبد. وماذا يكون السجن المؤبد هذا؟ يسجنونه حتى يموت !

والأشغال الشاقة. ما معناها؟ هل يقطع الحجر ويحمله على ظهره مسافات طويلة وهو مريض ضعيف؟

وقال "أبو المكارم" لنفسه :

- إنه مظلوم. مظلوم. إنه لم يقتلها. ولكن لماذا لم يتكلم ويكشف الحقيقة؟.. بل لماذا اعترف على نفسه كذباً؟



وانتهى "أبو المكارم" إلى أنه لابد أن يكون هناك سر وراء هذا الاعتراف، وهذا الصمت.

إن الذين رأوه من أهل القرية أثناء محاكمته، يقولون إنه أصبح محطماً، لا يرى ولا يسمع، ولا يشعر. نظراته بلهاء، وتعبيرات وجهه جامدة، وقد فقد القدرة على التفكير. بل لقد فقد القدرة على أن يميز الناس. كلهم أمامه ناس !

وقد حاولت المحكمة أن تحمله على الإفصاح بشىء، فكان يكتفى بالإجابة بأنه هو الذى قتل ابنته، وكان يلقى هذا الاعتراف فى سرعة، كأنه شىء حفظه، ويخاف أن ينساه.

ولما صدر الحكم على "أبو عوف" أحست "أم الهنا" أنه لم يبق لها فى هذه القرية عيش. الخص لم يعد خصها. وإنها لأعجز من أن تعيش فى المكان الذى شهد مأساة حياتها.

وتشاورت مع بنتها "مفيدة"، فاستقر عزمها على أن تغادرا القرية، وأن تذهبا إلى دمنهور تعيشان هناك، إلى جوار الرجل السجين، تشعران إلى جوار سجنه، بنوع من الأمن والاطمئنان، لم يعد يتوفر لهما فى هذا الخص، أو هذا المكان.

وحاولت جارات "أم الهنا" أن يصرفنها عن عزمها، ولكنها قالت فى أسى :

ـ نمشى قبل أن يطردونا من هنا. أتظنونهم سيتركوننا؟ إن رحمة الله واسعة.

ويسألونها :

ـ وما الفرق بين الحياة هنا وهناك؟ هل سترينه؟

فتقول :

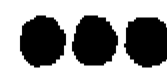
ـ من يدرى ! ربما اختلسنا إليه نظرة، وهم يسوقونه مكبلا بالحديد. ولو رآنا مرة لعرف أننا نعيش على أمل أن يعود إلينا.

ويسألنها :

ـ وكيف تعيشين؟ من أين تأكلين؟

وتجيب :

ـ أخدم هنا وهناك أنا وابنتى، بلقمة العيش. إننا لا نريد سواها، والله لا يخلق فماً بلا طعام.



وتحاول "أم الهنا" أن ترى "جلال" ابن "تفيدة" قبل أن تغادر القرية، ويرق لها قلب المرضعة المكلفة برضاعته، فتحمله إليها سراً، لتقبله، وتقبله "مفيدة" قبل أن يذهبا إلى حيث لا تدريان، هل ترينه بعد ذلك يوما، أو أن هذا سيكون الفراق؟

وتقول "أم الهنا" للمرضعة و"لأبو المكارم"

- إنه وصيتى لكما. ليس له أحد. لا أب يحبه أو يهتم به، ولا أهل ولا إخوة.

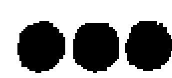
وأمه ذهبت ، ولم يعد له غيركما. فكونا له. تسمعنى يا "أبو المكارم"؟ لا تغفل عنه، إن كان "لتفيدة" معزة فى قلبك. لقد كانت تلعب معك. هل تذكر فردة الشراب الأحمر؟ هل تذكر جريها وراءك، وجريك وراءها قبل أن يأخذوها منا؟ هذا ابنها. رضيع، صغير، جميل. فاحفظ ذكراها فيه.

وأخذت "أم الهنا" تضم الطفل إلى صدرها، والطفل يعبث بوجهها وشعرها ويضحك فى براءة لها. بينما هى لا تقوى حتى على البكاء.

أما "مفيدة" فقد قالت "لجلال" :

- لا تنسى يا "جلال". اذكرنى عندما تكبر. أذكر جدتك وخالتك، فليس لهما رجل إلا أنت. ربنا يحفظك ويحميك ويصونك. ربنا يطيل فى عمر جدتك وعمرى، لتعوضنا عما فقدناه...أتدرى من فقدنا؟ أمك، أحب من حملت الأرض إلى قوبنا.

ومضت "أم الهنا"، ومضت "مفيدة" سراً غامضاً لا تدريان ماذا ينتظرهما من مصير.



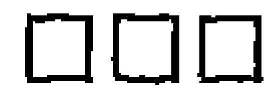
وعاد "أبو المكارم" إلى مكانه من الصفصافة، وأخذ ينظر إلى مياه الرياح، وعادت به الذكرى إلى أيامه معها فى القرية وعند الساقية فذكر كل شىء ولم ينس شيئاً قط.

وكان يتصورها حورية من حوريات الماء، تظهر له مرة، وتخفى عنه أخرى.

وكان يسمع صوتها وهى تناديه، وهى تناجيه، وهى تشكو له هم قلبها.



وعندما كان يصحو من هذه الأحلام، كان ينزع غصناً من أغصان الصفصافة يضرب به فى الهواء، ويعدو نحو القرية، ليطمئن على "جلال"، وليضعه فوق ركبتيه، يداعبه ويلاعبه، ويقبله قبلة يخترق بها حدود الزمن..وحجب الغيب..إليها !



الساقية

قصة الإنسان والأرض والحياة ،

فى أجيال تعاقبت تواجه المشكلات فى

صمت أعلى من هتافات التمرد ، وصبر

أقوى من اندفاعات العصيان.

قصة الإرادة الصلبة ، تختفى وراء

إبتسامة رضى وقناعة.

الساقية

تصدر فى خمسة كتب طويلة

تبدأ بكتاب الضحية الذى صدر

لأول مرة عام ١٩٦٢م

ليرسم لوحة ناطقة لاستغلال

الإنسان للإنسان ،

وتسخير الأرض وما فى الأرض من

خير، للأهواء والمصالح والشهوات ،

واعتبار الأرض ومن على الأرض

متاعاً خاصاً يسد ثغرات النفوس.

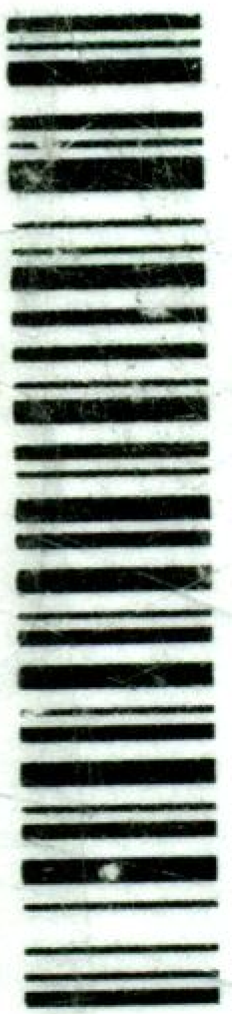
وتتابع الساقية دوراتها ليصدر عنها

قريباً بإذن الله - الكتاب الثانى :

الرحيل

٢٠ جنيه

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية ٦٥٨٥ سنة ١٩٦٢



الناشر: شركة عالمية للنشر والإعلان
محمد عبد المنعم الصاوى وشركاه
تليفون : ٧٣٥٩٠٨٧ فاكس : ٧٣٨٠٠٢٥
بريد إلكترونى : sawy@alamia.net
طبعة عام ٢٠٠٥

